عدد مزدوج

الكاتب الفلسطيني

العدد ١٦/١٧ - صيف/ خريف ١٩٨٩

تموز - آب - أيلول - تشرين١ - تشرين٢ - كانون١ - كانون٢





الكاتب الفلسطيني

العدد ١٦/ ١٧ ـ صيف/ خريف ١٩٨٩
تموز ـ آب ـ أيلول ـ تشرين١ ـ تشرين٢ ـ كانون١ ـ كانون٢

مجلة فصلية تصدر عن

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

لجنة العمل النقابية

الآراء الواردة لاتعبر بالضرورة عن رأي هيئة التحرير
ترتيب المواد يخضع لاعتبارات فنية

الاشتراكات السنوية

للافراد: ـ سوريا ولبنان ١٥٠ ل.س
ـ بقية الاقطار العربية ٢٥٠ ل.س
ـ اقطار العالم ٢٥ دولار
للمؤسسات: ٥٠ دولار



الفهرست

كلمة الكاتب

مقالات ودراسات

نقد أدبي

ملف الكاتب

تراث

شعر

قصة

حوار

شخصيات فلسطينية

وثائق وتقارير

كلمة الكاتب

الانتفاضة: تدخل عامها الثالث

انهت الانتفاضة الفلسطينية عامها الثاني في الثامن من كانون الاول ١٩٨٩، وبدأت عامها الثالث، فما هي دروس العامين الماضيين؟ وماذا تطرح هذه الدروس من مهمات للمستقبل؟

إن أهم دروس العامين الماضيين، هي مايلي:

أولاً: إن شعبنا العربي في الأرض المحتلة، مصمم على مواصلة المقاومة، عازم على تقديم المزيد من التضحيات، وإنه لايرهب قوة العدو، ولايلين امام الضربات الهمجية التي تمارسها قوات العدو.

ولذلك، فإن تصعيد العنف الذي مارسته القوات الصهيونية، قاد الى تصعيد المواجهة، وإلى بذل المزيد من التضحيات. وحين قرر العدو أن يبدأ حملة إخضاع شاملة، واختار مدينة بيت ساحور لانتزاع الضرائب منها بالقوة، صمدت المدينة الباسلة، ولم تمكن العدو، من تحقيق أهدافه.

وها هو العدو، يحاصر المدن والقرى، ويطوق الأحياء، ويقتل المارة، وحتى الأطفال، ومع

ذلك تخرج المظاهرات في نابلس هاتفة، كما قالت الجروسالم بوست:

أبو عمار الصبر راح　　　هذا الشعب بدو سلاح

والشعب الذي هزم الحملة المسعورة في بيت ساحور، هزم قبل ذلك لعبة «البطاقات الممغنطة»، كما هزم محاولات قوات العدو فرض السيطرة على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية عامة.

وتكشف تجربة العامين الماضيين أن التفاف الشعب حول الانتفاضة قد تزايد، وأن الارادة الشعبية قد تصلبت. واذا كان هنالك من يقول: إن المشاركة الشعبية قد ضعفت، فإنه يشير الى تواتر المظاهرات، أو المشاركة الشعبية في بعضها. وهذا الآن ليس المقياس، لأن الظروف تطورت، ولأن الانتفاضة لم تعد الآن، مجرد مظاهرة، ترشق الدوريات بالحجارة. هذا بالاضافة إلى أن التركيز الاعلامي على المظاهرات في الماضي، كان أكبر كثيراً، مما هو عليه الآن. وبالتالي، فقد أبرزت المظاهرة في الماضي باعتبارها الشكل الرئيس للمواجهة، وهو مالايتم التركيز عليه الآن، لاعتبارات تتعلق بالاجراءات الصهيونية من جهة، وبالاعتبارات العربية الرسمية من جهة أخرى، والاعتبارات الدولية من جهة ثالثة. ثم إن مرور عامين من عمر الانتفاضة، جعل الانتفاضة أكبر وأشمل من مجرد مظاهرة علنية، وحدد أشكال عمل أخرى لها، ولم يجعل المظاهرة فعاليتها الرئيسة.

وهذا الصمود جعل قيادة العدو، كما جعل الحكومات في العالم، تقتنع، أن كل اجراءات العدو القمعية، لم تنجح في كبح جماح الانتفاضة، وأنها لن تنجح في وقت قريب.

لهذا، فإن الانتفاضة، تدخل عامها الثالث قوية، ولم تنجح في «تهدئتها» كل اجراءات العدو القمعية، من القتل، الى الاعتقال، ومن هدم البيوت الى قطع الأشجار، ومن مصادرة الاملاك ووسائل العيش، الى فرض الضرائب الباهظة، ومن الغرامات الكبيرة، الى الابعاد والنفي.

وقد بلورت الانتفاضة، خلال العامين وسائل حياة جديدة، وإن كان ذلك بشكل أولي، من توفير بعض متطلبات الحياة، الى تأمين حد من الدراسة. ومن الادارة الذاتية، الى بعض اجراءات الأمن، ومن تنظيم قوى ضاربة، الى تحديد بعض أساليب مواجهة قوات العدو.

ومع ذلك، فإن استمرار الانتفاضة طرح الكثير من الإشكالات، وهو ماسنناقشه فيما بعد.

ثانياً: إن فصائل المقاومة، سواء منها المشاركة في قيادة م. ت. ف، أو المعارضة لها، اتخذت موقفاً متماثلاً من الانتفاضة، اتسم بما يلي:

١ ـ تمجيد الانتفاضة، وبطولات الشعب بلا حدود، والاكثار من الحديث عن أطفال الحجارة، وصمود الشعب الأعزل، وفعالية الحجر في مواجهة الرشاش والدبابة الخ. وقد شكل هذا النوع من الأدب نمطاً يستحق الدراسة. لأنه يخفي العجز والقصور وحتى التخاذل والتآمر، وراء الجمل الانشائية الرنانة التي تفتقد الى المشاعر الحقيقية في معظم الاحيان، والى التعقل

السياسي، ومعرفة تحديد الاهداف، وتحديد أساليب المواجهة بدقة.

٢ ـ النكوص عن تقديم التحليلات والتوجيهات التي تتناول المشاكل، وتعنى بتطوير أساليب العمل، سواء على صعيد اللجان الشعبية، أو أساليب المواجهة.

٣ ـ تجنب مناقشة الاهداف بدقة، وعلاقة أساليب العمل بتحقيق الأهداف، وتجنب مناقشة دور اللجان الشعبية، أو القيادة الموحدة، أو قيادة الخارج، أو تحديد معنى الانتفاضة والعصيان المدني الخ.

٤ ـ الاتجاه الى التنازع على الانتفاضة، نتيجة التنازع على القيادة والخط، دون أن يعني ذلك وجود خطين «متمايزين» في العمل الشعبي، سواء داخل الارض المحتلة أو خارجها. ودون وجود خطين في العمل العسكري.

واذا كانت الفصائل المؤتلفة في قيادة م. ت. ف، قد قدمت «مشروعها السلمي» الذي سمته بيان الاستقلال، ولم تعمل على تطوير العمل الشعبي، مع أنها رجحت العمل الشعبي غير المسلح على العمل المسلح ترجيحا حاسماً، فإن الفصائل التي رفضت المشروع السلمي، لم تعمل لتطوير العمل المسلح، ولا اهتمت بتطوير العمل الشعبي، ولا كونت جبهة تحشد قوى الشعب المعادية للاستسلام.

ولذلك كله حدث مايلي:

أ ـ تواصلت الانتفاضة في الداخل، وتطور العمل الشعبي، حيث لاتوجد القيادات والمكاتب، وحيث لاتصل الميزانيات، كما تصل في الخارج، ولم يتطور العمل السياسي والشعبي والعسكري في الخارج، حيث توجد القيادات والمكاتب والسيارات والميزانيات وآلاف المتفرغين. مع ان قيادات الخارج تؤكد قيادة الداخل والخارج.

ب ـ تواصلت التنازلات في الخارج، حتى أسقط الميثاق الوطني، وحتى تفرغت قيادة المنظمة وأجهزتها وموظفوها «لهجوم السلام»، ولم يستطيع الطرف المعادي لها، أي قيادة جبهة الانقاذ ان يطور العمل السياسي والعسكري والشعبي لمواجهة حملات الاستسلام المكشوفة.

جـ ـ أثبتت قيادات الخارج كلها، وعلى رأسها قيادة م. ت. ف، عجزها عن التالي:

● إعادة تنظيم قواها لتكون بمستوى الانتفاضة، من حيث الفاعلية.

● إعادة تنظيم الشعب في الخارج، ليقوم بمهماته إزاء الجماهير المناضلة الواقعة تحت سلطة الاحتلال.

● تعبئة الجماهير العربية لتحمل مسؤولياتها كاملة.

وبالمقابل، فإن قيادة المنظمة، وأجهزتها وموظفيها الموزعين في كل الوطن العربي والعالم، لعبوا دوراً محبطاً ومضاداً للانتفاضة على مستويين:

الأول: المستوى السياسي العام. اذ قادت سياستهم الاستسلامية الى محاصرة الانتفاضة بروح

استسلامية، ومواقف انهزامية، تتناقض مع خط الانتفاضة، وتجعل الاستسلام الوطني «هدفاً وطنيا».

الثاني: المستوى النضالي والمسلكي. إذ إن وجود هذه الأجهزة المترهلة للمنظمة والفصائل، ووجود هذه الأعداد من الموظفين بكل «امتيازاتهم» وأساليب عملهم وحياتهم، يعطي جماهير الشعب في فلسطين وفي الوطن العربي أمثلة على التخاذل والاستغلال، بدلاً من أن تكون المنظمة اداة حشد وحفز، و عامل تعبئة وتحريض.

ورغم تفاقم هذه المشكلة، ومعرفة الجميع بها، والإعلان الخجول أحياناً عن الحاجة إلى اصلاح في أجهزة المنظمة، فإن عامين من عمر الانتفاضة، وحوالي خمسة وعشرين عاما من عمر المقاومة، وعشرات الهزائم والنكسات، لم تقنع أحداً من هؤلاء المتربعين على كرسي السلطة في المقاومة، بان مثل هذه الهياكل والأجهزة، لاتصلح لحرب او لسلم، ولاتليق بقضايا تحرير، كقضية فلسطين وليست صالحة لغير عمليات الاستسلام والتصفية.

ولما كانت القيادة الفلسطينية الحاكمة في المنظمة، مصممة على نهجها التصفوي، فإنها عندما تختار موظفيها الكبار والصغار، فإنها تختار أدوات التصفية، وهو مايجب أن يحفز الحريصين على استمرار المقاومة، الى بناء قوى مقاومة قادرة، ليستطيعوا مواصلة مهماتهم.

ثالثاً: إن الوضع العربي، لغلبة الاتجاه الاستسلامي فيه على الصعيد الرسمي، أسهم بمحاصرة الانتفاضة، عبر مايلي:

١ ـ تغطية القيادة الفلسطينية الناهجة نهج الاستسلام، وتوفير الحماية السياسية لها: وفتح القنوات لتحركاتها واتصالاتها.

٢ ـ الاكتفاء بتمجيد الانتفاضة لفظاً، ومنع أي تحرك حقيقي لمساندتها، وتوفير أسباب الاستمرار لها.

وساعد الانظمة الاستسلامية في ذلك ضعف الحركة الشعبية، وقبول معظم القوى والأحزاب الرسمية وشبه الرسمية بسياسات الاستسلام، والترويج لبرنامج الصلح والاعتراف والحدود الآمنة.

رابعاً: إن الوضع الدولي الجديد، بما يطرحه من مشاريع تفاهم بين حكومتي الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة الامريكية، يطرح برامج سلام.

وإذا كانت هذه البرامج، تحاول حل خلافات بين قوى من شعب واحد، كما هي حال افغانستان او انغولا او نيكارغوا، أو تخفيف حدة التوتر، بسحب قوات أجنبية، كما جرى بالنسبة للقوات الكوبية، فان الأمر مختلف، بالنسبة للصراع العربي ـ الصهيوني. فالكيان الصهيوني، ليس من هذا الوطن، والخلاف مع قوات الغزو الصهيوني، ليس كالخلاف بين الشيوعيين الافغان والمجاهدين الافغان. ورغم ذلك فإن القيادات الفلسطينية ذات النهج

الاستسلامي، والقوى العربية الاستسلامية، وافقت على اعتبار العدو الصهيوني طرفاً في خلاف داخلي، ورضيت بالتفاوض معه على أساس ضمان بقائه.

إن هذه السياسة سياسة استسلامية، وهدفها إجهاض الانتفاضة، وبالتالي عدم إجبار العدو الصهيوني، حتى على التراجع عن الأرض التي احتلها، سنة ١٩٦٧.

إن هذه الدروس. تكشف لنا أن الشعب مستعدٌ للمقاومة، أمّا القيادات على الصعيد الفلسطيني، فهي كما كانت، منذ ١٩١٧ إمّا ساعية للتكيف مع المخطط الامبريالي، أو عاجزة وفاشلة. أمّا الوضع العربي الراهن، فإنه أشبه مايكون بالوضع العربي الذي احاط بثورة ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩. وإذا كانت الحكومات العربية، قد هيأت للقيادات الفلسطينية مؤتمر الطاولة المستديرة، سنة ١٩٣٩، على حطام الثورة، فإن الاتجاه العربي الاستسلامي الرسمي، يسعى لتنظيم مثل اللقاء المشار اليه وعلى حُطام الانتفاضة أيضاً. ولقد ساعد الوضع الدولي، آنذاك، على إغلاق الأبزاب أمام ثورة (١٩٣٦ ـ ١٩٣٩) وهزيمتها، بسبب حاجة فرنسا وبريطانيا آنذاك الى الوحدة، في وجه الخطر النازي. وهذا هو الوضع العالمي، ينذر بمخاطر مماثلة، وإن كانت الأسباب مختلفة.

أمام ذلك كله، هل يعني هذا أن الانتفاضة ليس لها خيار، غير الاستسلام؟

لقد طرحنا ماطرحنا، لنقول: إن أمام الانتفاضة خياراً آخر، هو خيار الاستمرار والتجذر والتمدد وتحقيق الاهداف. ولكن كيف؟

إن ذلك، يحتاج من وجهة نظرنا أن تواصل الانتفاضة مسيرتها، حتى هزيمة الاحتلال، في كل فلسطين. وهذا يتطلب:

ا ـ أن تعزز الانتفاضة قياداتها في الداخل والخارج، وأن تواصل التزامها بقضية الشعب المشرد والواقع تحت الاحتلال.

ب ـ أن تمد عملها الى كل فلسطين (الاراضي المحتلة، سنة ١٩٤٨، والمحتلة سنة ١٩٦٧)، وأن ترفض الالتزام بسياسة الاكتفاء بالضفة وغزة فقط. وهذه جماهير الأرض المحتلة، سنة ١٩٤٨، تثبت كل يوم أنها ترفض الالتزام بهذه السياسة.

جـ ـ أن تعمل على دراسة تطوير كل أساليب العمل الشعبي والمسلح، وأن تطور البرامج لذلك، ليواجه العدو بكل أساليب المقاومة، وبحشد قوى الشعب كلها.

د ـ أن تخضع الانتفاضة الوجود الفلسطيني في الخارج لأساليب عملها، حتى توحد قوى الشعب كلها في المعركة، وحتى لاتتحكم أساليب الفصائل في الخارج، وخاصة أساليب قيادة م. ت. ف. بالعمل كله في الداخل والخارج.

هـ ـ أن تدرس العلاقة بين تحرير فلسطين والجماهير العربية، وأن تنظم العلاقة بين العمل الشعبي الفلسطيني والجماهير العربية، على أسس جديدة، تحررها من سلبيات المرحلة الماضية،

وحساسياتها وحزازاتها، ومن أساليب قيادة م. ت. ف تحديداً.

إن ذلك كله، يكفل استمرار الانتفاضة، وزيادة قوتها، وحشد الجماهير العربية حولها، وتحقيق الانتصار على العدو الصهيوني.

هل هذا ممكن؟

إن الشعب الذي تحدى الاحتلال كل هذه السنوات، وبدأ الانتفاضة في هذه الظروف الصعبة، يستطيع أن يواصل المسيرة: ويستطيع أن يفرض خطه واتجاهه.

واذا كانت قيادة المنظمة، تحاول أن تصب الانتفاضة في قالبها، وأن تخضعها لبرنامج اشتغلت طويلاً في رسمه وتنفيذه، فإن من واجب جماهير الانتفاضة، أن تنتبه لهذه الخطة، وأن تعمل على إعادة بناء الوضع الفلسطيني، بما يخدم مخطط مواجهة العدو والانتصار عليه.

وإذا ماحدث مثل هذا التحول، وارتفع الوضع الفلسطيني الى سوية الانتفاضة، بدلا من ان تسقط الانتفاضة الى سوية قيادة المنظمة وأجهزتها وحواشيها، بات ممكناً أن تستمر العملية النضالية، وأن تحبط مخطط الحصار وفرض الاستسلام، للأسباب التالي:

١ ـ إن ارتفاع الوضع الفلسطيني الى سوية الانتفاضة، يسمح للانتفاضة أن تتبلور، وأن تحشد حولها أوسع جماهير الشعب العربي الفلسطيني، في الداخل والخارج، وأن توسع المواجهة وتعمقها. وسيقود هذا إلى إحباط مخططات العدو، والمخططات الاستسلامية العربية والدولية.

٢ ـ إن الالتزام ببرنامج الانتفاضة، يحشد أوسع جماهير الشعب العربي. لأن جماهير الشعب العربي، المتحمسة للقضية الفلسطينية، ولمحاربة العدو الصهيوني، كما قال أكثر من قائد عربي شعبي، في اللقاءات المخصصة لمساندة الانتفاضة، لاتجد فائدة من أية مساندة تقدمها للانتفاضة نتيجة مايلي:

ا ـ وجود قيادة المنظمة المرتبطة بقوى الاستسلام العربي، والداعية لنهج استسلامي، والتي لاتختلف عن اية قيادة رجعية عربية بتوجهاتها ومنطقها وأساليب عملها.

ب ـ وجود خط استسلامي، يوجه المنظمة، يقوم على التفاوض مع العدو والصلح والاعتراف والحدود الآمنة. واذا كانت الجماهير العربية، قد قذفت الحبيب بورقيبة بالبيض والخضار المعفن، لأنه أعلن جزءاً من هذا المخطط، ونقمت على السادات، لانه تبنى خطة كمب ديفيد، وفرحت باغتياله، فلماذا ستقبل مثل هذا الموقف من القيادة الرسمية الفلسطينية.

ج ـ وجود هذه النماذج في قيادة المنظمة ومكاتبها التي تعطي المثل في التخاذل والثراء غير المشروع والارتباط بالاجهزة العربية والدولية، وهو مايراه كل مواطن عربي. ومابات معروفاً على الصعيد الدولي. إن هذه النماذج، وهي التي تمثل المنظمة وتعمل باسمها، من السماسرة الكبار والصغار، الى اثرياء الكسب غير المشروع، والمتنعمين وشعبهم لايجد الخبز، والاستسلاميين المرتبطين بالاجهزة العربية والدولية، لايمكن أن تعبىء الجماهير العربية، أو أن تكسب

احترامها، أو أن تدفع هذه الجماهير الى التبرع والتضحية. وعلى النقيض من ذلك، فإن مثل هذه النماذج، يبرز التبذل والعبث والتخاذل، ويجعل المواطن العربي المتحمس، ينكمش خشية على الانتفاضة.

ولذلك، فإن من واجب جماهير الانتفاضة، ان تواجه هذه الحالة، بالمطالبة بالتحقيق بوضع أثرياء الحرب، من قيادات المنظمة ومراتبها وحواشيها، وفرض رقابة على الأموال التي تصل الى المنظمة، ووقف عمليات الهدر المنظم التي تمارسها القيادات والمراتب والاجهزة العابثة، وتنظيم توفير الأموال، وإيصالها الى الشعب.

إن استعادة ثقة المواطن العربي، وفي المقدمة المواطن العربي الفلسطيني، وإحداث تحول نوعي في بنية العمل الوطني الفلسطيني، يسمح بالحديث عن كسب الرأي العام العربي المتحمس بلا تعبئة، وإحداث تغير نوعي في الموقف الدولي.

أما مواصلة سياسة التنازلات، وإخضاع الانتفاضة لبرنامج قيادة المنظمة، وترك الجماهير العربية في الأرض المحتلة تعرى وتجوع، وتقاتل وحدها. فانه لايخدم الا سياسة محاصرة الانتفاضة وخنقها.

إن الدفاع عن الانتفاضة، وتطويرها، في كل الاتجاهات، وتوسيع وتعميق مداها العربي القومي، مهمة كل عربي مخلص للوطن والأمة، ويجب أن يخوض كل المعنيين هذه المعركة، لأنها معركة الجماهير العربية العاملة والكادحة، ومعركة كل الوطنيين، في مواجهة الاحتلال الصهيوني والامبريالية الاميركية، وقوى الاستسلام العربية.

«الكاتب الفلسطيني»

من دروس الحروب الصليبية: انتصار شعبي... وخذلان قيادة

تيسير بن موسى*

هل يعيد التاريخ ويكرر نفسه؟؟ سؤال لازال معلقاً، ولازال الجدال محتدماً بين مؤيد لحركة دوران التاريخ حول نفسه، وبين رافض لها. . ومهما يكن من أمر، فإن من يقرأ وقائع الحروب الصليبية، التي جرت في القرون الوسطى على ثرى مصر والشام، ويقارنها بما حدث ويحدث الآن على أرضنا العربية، لاشك سيعتريه شيء من الدهشة، حين يلمس التشابه بين ماجرى في ذلك الزمن البعيد، ومايراه يجري اليوم أمام ناظريه،

وفي الصفحات التالية، دراسة تاريخية عن فترة محددة من هذه الحروب تمتد لعشرة أعوام، من عام ١٢١٨ وحتى عام ١٢٢٨ ميلادي، وسأترك لقارئي الكريم مهمة مطابقة ماجرى في تلك الفترة مع مايجري في الحاضر. .

في عام ١١٨٧ م، حقق صلاح الدين الأيوبي نصراً مؤزراً على قوات الافرنج الصليبية في بطاح

---

* كاتب واديب من ليبيا.

احترامها، أو أن تدفع هذه الجماهير الى التبرع والتضحية. وعلى النقيض من ذلك، فإن مثل هذه النماذج، يبرز التبذل والعبث والتخاذل، ويجعل المواطن العربي المتحمس، ينكمش خشية على الانتفاضة.

ولذلك، فإن من واجب جماهير الانتفاضة، أن تواجه هذه الحالة، بالمطالبة بالتحقيق بوضع أثرياء الحرب، من قيادات المنظمة ومراتبها وحواشيها، وفرض رقابة على الأموال التي تصل الى المنظمة، ووقف عمليات الهدر المنظم التي تمارسها القيادات والمراتب والاجهزة العابثة، وتنظيم توفير الأموال، وإيصالها الى الشعب.

إن استعادة ثقة المواطن العربي، وفي المقدمة المواطن العربي الفلسطيني، وإحداث تحول نوعي في بنية العمل الوطني الفلسطيني، يسمح بالحديث عن كسب الرأي العام العربي المتحمس بلا تعبئة، وإحداث تغير نوعي في الموقف الدولي.

أمّا مواصلة سياسة التنازلات، وإخضاع الانتفاضة لبرنامج قيادة المنظمة، وترك الجماهير العربية في الأرض المحتلة تعرى وتجوع، وتقاتل وحدها. فانه لايخدم الا سياسة محاصرة الانتفاضة وخنقها.

إن الدفاع عن الانتفاضة، وتطويرها، في كل الاتجاهات، وتوسيع وتعميق مداها العربي القومي، مهمة كل عربي مخلص للوطن والأمة، ويجب أن يخوض كل المعنيين هذه المعركة، لأنها معركة الجماهير العربية العاملة والكادحة، ومعركة كل الوطنيين، في مواجهة الاحتلال الصهيوني والامبريالية الاميركية، وقوى الاستسلام العربية.

«الكاتب الفلسطيني»

من دروس الحروب الصليبية: انتصار شعبي... وخذلان قيادة

تيسير بن موسى*

هل يعيد التاريخ ويكرر نفسه؟؟ سؤال لازال معلقاً، ولازال الجدال محتدماً بين مؤيد لحركة دوران التاريخ حول نفسه، وبين رافض لها. . ومهما يكن من أمر، فإن من يقرأ وقائع الحروب الصليبية، التي جرت في القرون الوسطى على ثرى مصر والشام، ويقارنها بما حدث ويحدث الآن على أرضنا العربية، لاشك سيعتريه شيء من الدهشة، حين يلمس التشابه بين ماجرى في ذلك الزمن البعيد، ومايراه يجري اليوم أمام ناظريه،

وفي الصفحات التالية، دراسة تاريخية عن فترة محددة من هذه الحروب تمتد لعشرة أعوام، من عام ١٢١٨ وحتى عام ١٢٢٨ ميلادي، وسأترك لقارئي الكريم مهمة مطابقة ماجرى في تلك الفترة مع مايجري في الحاضر. .

في عام ١١٨٧ م، حقق صلاح الدين الأيوبي نصراً مؤزراً على قوات الافرنج الصليبية في بطاح

* كاتب واديب من ليبيا.

حطين الخالدة، وتلا هذا النصر تحرير بيت المقدس، وأجزاء واسعة من فلسطين ولبنان. وانحصر الصليبيون في شريط ساحلي ضيق. وكان يمكن لهذا القائد العظيم أن يتابع انتصاراته، ويحقق ماكان يصبو إليه من تحرير كامل التراب العربي من الاحتلال الفرنجي، بل ملاحقة هؤلاء الغزاة في عقر دارهم أوروبا، وفق مانقل عنه كاتب سيرته وقاضيه في دمشق بهاء الدين بن شداد، لكن الوفاة عاجلت ذلك القائد الفذ، فمات وهو حزين النفس، منشغل الخاطر على مصير أمته العربية من بعده، فقد كان يستشعر بأن من سيخلفه في قيادة العرب المسلمين، وهم أبناؤه وإخوته، ليسوا جميعا على مستوى العمل التاريخي الكبير الذي ينتظرهم، والذي بدأه هو، وحال الموت بينه وبين إنجازه كاملاً.

لقد أكدت الأحداث التي وقعت إثر موت صلاح الدين، أن حزن هذا القائد وانشغاله كان في محله. فالذين تسلموا قيادة العرب في مصر والشام من بعده، خاصة شقيقه الملك العادل، ثم أبناء هذا الملك، وعلى رأسهم الملك الكامل، لم يكونوا قطعاً، صُنّاع تاريخ، وأصحاب مبادىء، وحملة رسالة. فقد كانت سياسة العادل وأبنائه تجاه الفرنج الصليبيين، تتسم بتفضيل الأسلوب الدبلوماسي، والمهادنات على أسلوب الحرب والقتال، ولجأوا إلى طرق أبواب المفاوضات والتنازلات المهينة المذلة مع الفرنج، حتى يكفوا شرهم عنهم. ومع ذلك حدثت في عهود هؤلاء الحكام حروب ومعارك تاريخية وهذه الحروب ـ كما روت لنا مصادرنا التاريخية المعاصرة لتلك الحقبة ـ لم يكن أولئك الحكام صانعيها، أو حتى راضين عنها، بل فرضها الافرنج عليهم فرضاً، وحاولوا تلافيها وعدم حدوثها، ولكنهم فشلوا بسبب الحمق الصليبي وعدوانيته، وسطر فيها شعبنا العربي ملاحم خالدة من البطولة والفداء. وكما سوف نرى أن الملك الكامل بن العادل، فتح للفرنج بكل خسة، وبلا أي سبب مقبول أو وضع قاهر، القدس الشريف التي حرّرها عمه صلاح الدين بدماء رجال هذه الأمة، كما كان على استعداد لتقديم بلاد الشام كلها لأعداء أمته ودينه، مقابل أن يدعه هؤلاء فقط، يعيش بهدوء وسلام واطمئنان في مركز ملكه مصر، وسط متعه الدنيوية التافهة.

وإليك أخي القارىء تفاصيل ماجرى منذ عام ١٢١٨ وحتى ١٢٢٨.

الصليبيون يتوجّهون إلى مصر في حملة خامسة:

بعد انسحاب الملك المجري من عكا وعودته الى بلاده، وكذلك موت هيو دي لوزينيان ملك قبرص، تفرقت كلمة الصليبيين. ولكن وصول دفعات جديدة بأعداد غفيرة من الفرنج، خاصة من فرنسا وايطاليا للشام، دفعت ملك الصليبيين في بلاد الشام (يوحنا دي بريانا) لإحياء مشروع توسعاته في بلاد العرب وتمّ الإتفاق على أن تتوجه الحملة إلى مصر، وغمر الجميع الحماس لاحتلال ذلك القطر الغني الجميل، وتحركت جيوش الصليبيين في ٢٤ من شهر مايو ١٢١٨ م من عكا بقيادة دي بريانا، عن طريق البحر، وكادت الأحوال الجوية أن تشتت الحملة، ذلك أن الرياح القوية عملت على بعثرة الأسطول الصليبي، وقد وصلت بعض السفن القليلة الى شواطىء مصر عند مدينة دمياط، وكاد هؤلاء الذين وصلوا مبكراً أن يفنوا عن آخرهم، حين زين لهم حمقهم بأنهم قادرون على دحر المسلمين بمفردهم، ولكن الذي

أنقذهم وصول الملك دي بريانا ومعه بقية أسطول الحملة إلى شواطىء دمياط، فتراجع أولئك الصليبيون وانتظروا ملكهم ليدخلوا بلاد مصر معاً.

لقد كان هدف الصليبيين مدينة دمياط، التي كان موقعها قبل أن يجري تدميرها، وبناء دمياط الحالية في عام ٦٤٨ / ١٢٥١ في بداية حكم المماليك البحرية، لايبعد سوى بضعة كيلومترات على البحر، على الجانب الأيمن لفرع النيل الشرقي، وكان في تقدير الصليبيين أن امتلاك هذه المدينة، يجعلهم قادرين بسهولة على اختراق مصر، والوصول الى عاصمتها القاهرة، عدا عن إمكانية جعلها مركزاً بحرياً مهما للفرنج، ورأس جسر للعبور منها الى مصر، وغيرها كما هو حال عكا وصور على الساحل الشامي، وقد أقام المسلمون على قطعة أرض يابسة، وسط نهر النيل برجاً ضخماً، امتدت منه سلسلتان ضخمتان الأولى من البرج، حتى مدينة دمياط، والثانية من البرج، وحتى المنطقة المعروفة باسم بحيرة دمياط، وهي الشاطىء الغربي لفرع دمياط من نهر النيل، وقد شكلت هاتان السلستان حاجزاً مانعاً أمام سفن الصليبيين لعبور نهر النيل، بالمراكب ومحاصرة المدينة بحراً وبراً، وتمركز الصليبيون على أرض الجيزة على الشاطىء الغربي المواجه لمدينة دمياط، وبنوا تحصيناتهم وأقاموا مجانيقهم على أرضها. وكان الملك العادل قد زوّد المدينة باعداد من الجنود، وبكميات وافرة من مواد التموين، وظلّ الصليبيون في مواقعهم البرية لمدة أربعة أشهر تقريباً، دون أن يتمكنوا من الوصول الى دمياط في البر الشرقي. وحين تمكنوا من تحطيم السلاسل، أوعز الكامل ابن الملك العادل، الذي كان يحكم مصر آنذاك نيابة عن أبيه، باغراق عدد من المراكب الإسلامية الضخمة القديمة في وسط مياه النيل، لتصبح حاجزاً بدلاً من السلاسل المقطوعة، وأُسقط في يد الفرنج مرة ثانية، لكن قرائح بعض مهندسيهم تفتقت عن وسيلة أخرى، وهي حفر قناة من خليج صغير يقع على الجانب الغربي من مصب نهر النيل في البحر وتوصيله في مجرى النيل، وقد أسعفهم الحظ، إذ أنه بعد أن أتمّوا حفر القناة، هبت عاصفة عتية على شواطىء دمياط، وإن كانت تسببت في تحطيم عدد لايستهان به من مراكب الصليبيين، وقتلت أعداداً من رجالهم وخيولهم، إلا أنها قذفت بمياه البحر إلى الداخل، فامتلأت مياه الترعة الصناعية، وأصبحت صالحة لعبور سفنهم الى مدينة دمياط. ولكن المسلمين تصدوا ببسالة لهجمات الصليبيين البحرية والبرية فافشلوها جميعاً، وبدا الوضع للفرنج بأنه لازال صعباً بالرغم من وصول امدادات كبيرة إليها بشرية ومؤنية، وعلى وجه الخصوص تلك الحملة الكبيرة التي قادها الكاردينال (بيلاجيوس) مندوباً عن بابا روما، لدعم الهجوم الصليبي على مصر، وقد تولى هذا الكاردينال حال وصوله قيادة جيوش الفرنجة وتخلى له جميع القادة الفرنج، بمن فيهم الملك (يوحنا دي بريانا) عن مركز القيادة العليا. وفي هذه الأثناء أصيب المعسكر الإسلامي بتخلخل خطير، حين وردت أنباء من دمشق بأن الملك العادل الذي كان يعيش حالة نفسية مضطربة منذ بلوغه نبأ قصد الفرنج دمياط، وعزمهم على احتلال مصر، ولم يعد قلبه وأعصابه تتحمل هذه الكارثة التي كان يرى فيها ذهاب ملكه. وحين بلغه تمكن الفرنج من تحطيم السلاسل واحتلال البرج، أصابته نوبة قلبية حادة توفي على إثرها وكان آنذاك في الخامسة والسبعين من عمره، وكان يمكن ألا يكون لموته تأثير على الوضع السياسي الداخلي لمملكته، فقد قسّم البلاد في حياته بين أولاده الكبار. ولكن أحد أبنائه الصغار، واسمه الفائز، تطّلع

لانتزاع حكم مصر من أخيه الكامل، الذي أصبحَ تلقائياً حاكم ذلك الإقليم الأول، بعد وفاة أبيه . وتحرك الفائز، كما تذكر المصادر العربية، بإغراء وتشجيع من أحد قادة أبيه الأكراد . واسمه عماد الدين، المعروف بابن المشطوب، وكان هذا رئيساً لقوة عسكرية مهمة من الأكراد، وقد طمع المشطوب في أن يصبح حاكم مصر بعد انتزاعها من الأيوبيين، فأحدث تلك الوقيعة بين الأخوين، ليستغلها هو أنصاره في إبعاد الإثنين والانفراد بالحكم، ووصل ابن المشطوب الى تحقيق الشطر الأول من خطته، فحدثت الوقيعة بين الكامل والفائز، ولكن الكامل جبن عن قيادة رجاله لمقاتلة أخيه، فقرر الفرار من مصر، وجمع أفراد أسرته، وحزم أمتعته وأمواله، واتجه مع نفر من أنصاره إلى بلدة شموم طناح في طريقه إلى اليمن التي اختارها لتكون مقراً له، وحين سمع العسكر المرابطون في دمياط بفرار ملكهم، ثبطت فيهم العزائم، ودب الخوف والهلع إلى قلوبهم، فقد أصبحوا بلا قيادة تدبّر أمر صمودهم أمام الفرنج الذين كانوا يضغطون عليهم بشدة، فترك الجند مواقعهم وانكفؤوا عائدين إلى داخل مصر، وعمّ الاضطراب والهلع سكان مدينة دمياط، بعد فرار الجنود، فغادر قسم منهم مدينتهم مساء بفوضى، تاركين بيوتهم مشرعة مملوءة بالمال والمؤن، وحين حلّ صباح اليوم التالي فوجىء الصليبيون بخلو المواقع الإسلامية من الجنود، فتريثوا خوف أن تكون هناك مكيدة. ولكن حين عرفوا حقيقة الأمر عمت البهجة نفوسهم، وانطلقوا مسرعين نحو دمياط فحاصروها بادىء الأمر بسبب المقاومة الانتحارية التي أبداها من بقي فيها من سكان العرب، ولكن معنوياتهم المنهارة، وشعورهم بأنهم وحيدون لاناصر لهم، فقد أرسلوا وفداً ليفاوض الافرنج على تسليم المدينة لهم، مقابل الحفاظ على أرواحهم وأموالهم. وحلف القساوسة والرهبان الصليبيون للوفد بأن الجند الصليبي لن يمس شعرة من سكان دمياط، ولا أموالهم، إذا تم تسليم المدينة صلحا. ولكن، وكما يقول أبو شامة، نكث الصليبيون بالعهد حين دخلوا المدينة وكان أول الناكثين الرهبان والقساوسة الذين أقسموا بأغلظ الأيمان أمام الوفد الإسلامي، فقد وضع الصليبيون السيف في سكان المدينة، وأخذوا يفجرون بنسائها، ودخلوا مسجدها الكبير، فهشموا محتوياته، وانتزعوا منبره الفخم المصنوع من خشب ابَنوس النفيس، وقسمّوه إلى أجزاء، فأخذ كل أمير جزءاً من خشب المنبر للاحتفاظ به كذكرى تدمير الفرنج لواحد من المعالم الدينية الإسلامية، كما بعثوا الى بابا روما برؤوس بعض قتلاهم من المسلمين، وعدد من المصاحف، وأجزاء من خشب المنبر، مع رسول حمل اليه بشرى احتلالهم لدمياط، كما حوّلوا الجامع إلى كنيسة. واستمرت احتفالاتهم أياماً، ولم ينج من المجزرة إلاّ نفر قليل جداً من سكانها، تمكنوا من الفرار، من بينهم الشيخ (أبو الحسن بن قفل) الذي وصل الى معسكر المسلمين وأخذ يروي ماحصل بالمسلمين في دمياط من فظائع، وقد سمع منه أبو شامة المؤرخ الدمشقي بنفسه تفاصيل ماجرى.(١)

المسلمون يستعيدون تماسكهم ويهزمون الفرنج:

عندما اشتد حصار الفرنج على دمياط قبل سقوطها بيدهم، جهز الملك المعظم بن الملك العادل، وكان حاكما على منطقة دمشق، حملة شامية توجه بها إلى أخيه الملك الكامل في مصر، وحين وصل مشارف

البلاد المصرية، سمع بمؤامرة الفائز مع ابن المشطوب على الملك الكامل، وأن هذا الأخير في طريقه الى اليمن، فحثّ خطاه حتى وافى أخاه في أشموم طناح، فدخل عليه، وأقنعه بعدم ترك مصر، وأنه سيكون معه مدافعاً عنه، شاداً من أزره، كما أن ابن المشطوب الذي سمع بوصول الملك المعظم أسقط في يده، وعرف أن خطته لن يكتب لها النجاح، فتفاوض مع المعظم على أن يترك مصر ويتجه بسلام الى بلاد الجزيرة الشامية، ليلتحق بخدمة الملك الأشرف، الشقيق الثالث للمعظم والكامل. فمنحه المعظم بعض المال، وسيره إلى الشام، وأما الملك الفائز، فقد غادر هو بدوره مصر، وتوجه الى الموصل. وقيل أنه مات مسموماً، وعاد الكامل والمعظم الى ميدان المعركة، لكن الأمر الآن قد استفحل بعد سقوط دمياط، فطلب الكامل من أخيه أن يعود إلى الشام ليحشد مع أخيهما الملك الأشرف أكبر عدد ممكن من المقاتلين لصد الصليبيين، إذا ماحاولوا التقدم نحو القاهرة، فتوجه المعظم على الفور الى دمشق، وقام أثناء مروره بفلسطين بتخريب حصون وأسوار مدينة القدس وغيرها حتى لاتكون محصنة منيعة، وإذا مانجح الصليبيون في استعادتها، وقد أفزع عمله الناس، وظنوا أن الأمر خرج نهائياً من أيدي المسلمين، والواقع أن المعظم كان متسرعاً فيما أقدم عليه، وقد قوبل عمله باستهجان المؤرخين واستنكارهم، ثم واصل سيره حتى بلاد أخيه الأشرف، فتقابلا، ونجح في إقناعه بضرورة نجدة أخية الكامل، لإنقاذ مصر، وعاد المعظم إلى مصر وبعد أيام تبعه الملك الأشرف على رأس جيشه، ويفهم مما ذكره سبط ابن الجوزي، أن سكان دمشق لم يتحمسوا لنصرة أولاد الملك العادل، نظرا لسياستهم الظالمة للناس، كذلك فان سياسة هؤلاء الحكام التي كانت تتسم بالانانية والطيش، وخوفهم من الصليبيين، جعلهم يسرفون في التفريط بمصالح الناس والبلاد، لمصلحة أولئك الغزاة. ويذكر أبو شامة أن الملك المعظم ألحق إهانة بالغة في أحد قضاة دمشق البارزين، كان لها صدى سيءٌ واستنكار عام بين الدمشقيين، وذلك حين عمد انتقاماً من ذلك القاضي، وهو زكي الدين الطاهر بن محي الدين، لاسباب شخصية إلى إرغامه على ارتداء ملابس الجنود التُرك والجلوس في القضاء بذلك الزي، ونزع لباس القضاة الوقور المتعارف عليه، وهو الجبة والعمامة. وقد حطّم هذا التصرف الأرعن من الملك المعظم قلب القاضي الذي التزم بيته بعد ذلك الحادث، ومات بعده بعدة أيام غماً وحزنا. ومن تصرفات ذلك الملك الصبيانية أيضاً أنه أرسل خبراً وردا إلى الشاعر الشرف بن عنين بعد أن بلغه أن هذا الشاعر قد تاب وتزهد وانقطع للعبادة والصلاة. لكن ابن عنين كان أقوى من ذلك القاضي فرّد عليه تحفته أو هديته، مع بيتين من الشعر سخر فيهما بالمعظم ومن تصرفه السخيف معه ومع القاضي. وهذان البيتان هما:

يا أيها الملك المعظم، سُنّةٌ أحدثتها تبقى على الآباد
تجري الملوك على طريقك بعدها خُلعُ القضاء وتُحفةُ الزهاد(١)

كما ان الملك العادل والدهما، لم يتردد لحظة في منح أجزاء مهمة من الوطن العربي الاسلامي في فلسطين وغيرها للصليبيين ليتركوه بسلام، وكذلك ما بلغهم من العرض الذي تقدم به ابنه الملك الكاكل للغزاة بمنحهم القدس والساحل الشامي كلّه مقابل أن ينسحبوا من دمياط، لكل ذلك، فقد كان الناس بالشام في حالة إحباط وقرف من حكامهم، فكان إقبالهم على التطوع في جيش المعظم ضعيفا، حتى أن

سكان مصر أنفسهم قد راعهم تخلي الكامل عنهم، حين قرر الفرار إلى اليمن، وهم في مواجهة عدو شرس. وقد أثر موقف الكامل هذا على مسلمي بلاد الشام أيضاً. ويذكر ابن الاثير أن الناس في مصر رفضوا الإنضمام إلى جيش الكامل، بعد أن عاد برفقة أخيه المعظم، فأخذ يتوسل إليهم بتذلل حتى غيّروا موقفهم وساندوه»[٢].

ولكن رغم سيئات حكم أولاد العادل، اعترى الناس في مصر والشام شعور بأن القضية في النهاية هي قضيتهم وقضية بلادهم ودينهم، خصوصا وأن أنباء الإجتياح المغولي التتري من الشرق أخذت تترى عليهم. لذلك عادوا من جديد، والتفوا حول الملك الكامل، حتى تَم سحق الصليبيين واخراجهم من مصر، وتفصيل ذلك: أن الصليبيين اعتبروا سقوط دمياط بيدهم بأموالها وأرزاقها وسلاحها، فاتحة نهاية العرب المسلمين في مصر، بل الشام أيضاً. فوضعوا خطة للتقدم جنوبا نحو القاهرة، واشتد ساعدهم بوصول إمدادات أوروبية إليهم وكذلك من عكا، وغدت دمياط، كما يقول ابن الأثير، دار هجرتهم، فأخذوا يفدون إليها من كل فج عميق. وقد عرض عليهم الملك الكامل، بعد أن سمع بذلك الحشد الصليبي الكبير، تسليم بيت المقدس وعسقلان وطبريا وصيدا وجبلة واللاذقية ، وجميع ما فتحه صلاح الدين غرب نهر الاردن إليهم، مقابل أن يخرجوا من مصر. لكن الغرور أعمى بصيرتهم، فرفضوا عرض الكامل السخي، واشترطوا لقبول عرضه ان يدفع لهم المسلمون ثلاثمائة ألف دينار ذهبا كتعويض عن تخريب حصون القدس وأسوارها، وأن تمتد سيطرتهم أيضاً على أراضي شرقي الأردن، خصوصا حصني الكرك والشوبك، ولم يقبل الكامل بعد أن رفض أخواه وقواده السماح للصليبيين باحتلال شرق نهر الاردن ففي ذلك ضياع دمشق وحلب وبلاد الشام كلها. كما أن الصليبيين كانوا يعرفون أن شروطهم لن تكون مقبولة عند الجانب الاسلامي عن طريق المفاوضات السلمية، وأنهم سيحصلون على ما يريدون بحد السيف، فقد غدوا يشكلون في مصر قوة ضاربة، وقد قبلوا مبدأ التفاوض حتى يستكملوا استعداداتهم، ويعود إلى مصر بعض أمرائهم الذين غادروها لاسباب خاصة، وفي الثاني عشر من شهر يوليو ١٢٢١ خرج الجيش الصليبي الكثيف من دمياط باتجاه القاهرة، ولم يصحبوا معهم إلاّ كمية محدودة من الزاد، فقد كانوا يتوقعون تأمين قوتهم وزادهم من القرى المصرية التي سيقتحمونها، ووصل هذا الجيش إلى شرمساح فاحتلوها، وكذلك المنطقة التي أقيمت عليها مدينة المنصورة. وازداد هلع الكامل فكرر عروضه السابقة، مع مزيد من الأموال. ولكن نائب البابا بيلاجيوس طرد وفد الكامل رافضاً الاستماع اليه، وطالب بتسليم مصر بلا قيد أو شرط، لكن ملك عكا (يوحنا دي بريانا) كان أبعد نظراً، ونصح قواد الحملة الصليبية قبول عرض المسلمين. ولكنه جوبه بعاصفة من الاستهجان من جميع الأمراء، واتهموه بالجبن والتخاذل.

وكان الوقت صيفا، وفيه يحدث فيضان النيل، وتغمر مياهه الاراضي الزراعية الممتدة على جانبي النهر خصوصا الترع والقنوات الفرعية التي أقام عليها المزارعون سدوداً وحواجز حتى ترقى المياه إلى أعلى لتسيح إلى أراضيهم، وعند وصول الصليبيين الى تلك المناطق، كان فيضان النيل في ذروته، فأخذ القرويون يفتحون تلك القنوات حتى تغمر المياه أكبر مساحة ممكنة، فاصبحت الأرض بعد ذلك أرضاً طينية، كثرت فيها المستنقعات والبرك المائية. وقد وجد الصليبيون أنفسهم بعد هذا العمل الرائع الذي أنجزه فلاحو

مصر، داخل منطقة من الوحول والمستنقعات العميقة، التي يصعب التحرك فيها، كما استغل المسلمون ارتفاع النيل في المجرى الرئيسي والفروع الكبيرة، فارسلوا عليها مراكبهم الصغيرة، وتمكنوا بهذه الوسيلة من نشر قوتهم حول الجيش الصليبي الذي أصبح الآن مطوقا من جميع الجهات، وقد أبلى المواطنون المصريون بلاء مشهودا في قتال الغزاة الفرنجة، وقاموا بعمليات انتحارية خارقة، وأخذت الأحوال تضيق أمام الصليبيين، فقد ارتفعت نسبة القتلى في صفوفهم، كما زادت أعداد الذين كان يختطفهم المصريون من قلب المعسكر الصليبي في عمليات ليلية متواصلة وأخذ الإرهاق مأخذه من المقاتلين الفرنجة، بسبب اضطرارهم للقتال في معظم ساعات الليل والنهار، في أرض موحلة ممتلئة بالمياه، كانت أقدامهم وأقدام خيولهم تغوص فيها. كما أن تمكن العرب من تطويقهم جعلهم حذرين في عمليات انتشارهم وتمددهم، وهو الأمر الذي أدى إلى نقصان موادهم التموينية التي كانوا يأملون توفيرها من القرى المصرية التي أصبحت مغلقة في وجوههم تماما، يضاف إلى ذلك أن العرب، الذين كانوا يطوقونهم من الخلف حالوا دون أية إمدادات تموينية إليهم من دمياط أو البحر. وقد تمكنت جماعة من المقاتلين العرب أسر مركب فرنجي كبير، مع مجموعة من الحرّاقات، وهي سفن صغيرة كانت تحمي ذلك المركب الذي شحنه الصليبيون في دمياط بكميات كبيرة من المؤن والسلاح. ولقد أيقن قادة الجيش الصليبي أنهم باتوا وجنودهم جميعاً أسرى العرب المسلمين، وأنهم هالكون لا محالة، فاتخذوا قراراً بالانسحاب سريعاً، لكن العرب الذين عرفوا حقيقة المأزق الذي كان فيه أعداؤهم بنوا على عجل جسراً على قناة نيلية، وعبروا الطريق الشمالي الوحيد المتبقي أما الجيش الصليبي للتراجع الى دمياط منه، وكثفوا من جميع الجهات هجومهم على المعسكر الصليبي، فأصلوهم بسحابات من النبال والنشاب، كما صعّد الفدائيون من تسللهم إلى داخل المعسكر، وقتل أو أسر من يقع بين أيديهم من الجنود. وكذلك تخريب معداتهم وحرق خيامهم خاصة التي تحتوي على المؤن والسلاح، فاشتد يأس الصليبيين، وضاقت أمامهم السبل، وحاولوا القيام بهجوم انتحاري على المسلمين يفتحون به طريقا يعودون منه، لكنهم فشلوا. وقد ارتد عليهم فازدادت محنتهم، وتفاقم شقاؤهم، وبالمقابل فقد ارتفعت معنويات العرب. واشتد بأسهم على عدوهم، خصوصا وأن الجيش الشامي وصل الى ساحة المعركة بقيادة الملك المعظم، وأحكم الحصار على المعسكر الصليبي من جهات الشرق والشمال، ويذكر رنسيمان أن الصليبيين الذين طاش صوابهم حين صدرت إليهم أوامر الانسحاب، لم يهن عليهم ان يتركوا براميل النبيذ المعتق الذي بعثته كنائس أوروبا لهم هدية ليشربوه في القاهرة بعد انتصارهم على المسلمين، فأخذوا يفرغون ماتحتويه هذه البراميل من النبيذ الفاخر في أجوافهم، ففقد الكثير من الجنود وعيهم، وأخذوا يتخبطون وهم سكارى على تلك الأرض الموحلة، مما زاد من تفاقم المأساة في نفس الراهب الكبير بيلاجوس، الذي تحطم في ساعات صلفه وغروره، كذلك اماله وأحلامه الوردية في إقامة إمبراطورية بابوية مسيحية على أرض مصر وفي ديار الإسلام كلها، ويقول ابن الأثير: «إن الفرنج أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وأرادوا الزحف على المسلمين ومقاتليهم، لعلهم يقدرون على العودة إلى دمياط، فرأوا ما أملوا بعيداً، وحيل بينهم وبين مايشتهون لكثرة الوحل والمياه حولهم، والوجه الذين يقدرون على سلوكه قد ملكه المسلمون. فاما تيقنوا أنهم قد أحيط بهم من سائر جهاتهم، وأن ميرتهم

قد تعذر عليهم وصولهم، وأن المنايا قد كشرت عن أنيابها ذلّت نفوسهم، وتنكست صلبانهم، وضل عنهم شيطانهم، فراسلوا الملك الكامل والاشرف يطلبون ليسلموا دمياط بغير عوض»(٤).

لقد تم للمسلمين الفوز الساحق على الفرنجة الغزاة، وجرت المفاوضة بين الطرفين، وكانت جموع المسلمين تحتَ الملك الكامل، كما يذكر ابن واصل على إبادة الجيش الصليبي كلّه، وكانوا قادرين على ذلك، وأن الكامل لو فعل ذلك لأخذ المسلمون دمياط وجميع مابقي لهم من البلاد الساحلية في فلسطين وغيرها، لكنه رفض ذلك خوفاً من انتقام أوروبي عنيف بقوله: «إن هؤلاء ليسوا جميع الفرنجة، وإذا أبدناهم لانقدر على أخذ دمياط الا بمطاولة وحروب كثيرة، ويسمع ملوك ماوراء البحر من الفرنج، وباباهم بما جرى على الفرنج، فيقدم إلينا أضعاف هؤلاء»(٥). وقول الكامل هذا يتماشى مع سياسته اللينة تجاه أعداء العرب والاسلام وابتعاده عن كل مايتسبب في إثارة الفرنج عليه، فالرجل لم يكن رجل حرب وقتال ومبادىء، بل كان رجل سياسة واسترخاء دنيوي، وستتأكد لنا سياسته هذه، فيما سيأتي من علاقاته مع الامبراطور الالماني فريدريك، ومما يجدر قوله أن معاملة اللين والتسامح التي كان ينادي بها الملك الكامل، لم توقف بابا روما، ولا أباطرة أوروبا وملوكها عن مواصلة دفعهم بعشرات الالاف من الاوروبيين لقتال العرب المسلمين، وقد كان أمام الكامل والمسلمين فرصة للثأر من ضحاياهم الأبرياء الذين قتلوا غدراً بيد أولئك الغزاة الوحوش، بل ربما لو تم الاجهاز على جميع الصليبيين في مصر لفكروا كثيراً قبل أن يرسلوا حشوداً أخرى لقتال العرب، على أرض مصر بالذات في معركة المنصورة الخالدة عام ١٢٥٠ ومهما يكن من أمر فإن الكامل دخل في مفاوضات مع زعماء الصليبيين، وعلى رأسهم نائب البابا بيلاجوس، ومع ملك عكا يوحنا، وتمّ الاتفاق على خروج الافرنج من دمياط، وباقي الأراضي المصرية سالمين، وأن يُعاد إليهم صليب الصلبوت، مع إطلاق سراح الأسرى المسلمين والفرنج، كما يدخل الطرفان في هدنة وسلام لمدة ثمانية سنوات، ولتأكيد تنفيذ بنود هذا الصلح، تم الاتفاق على أن يرسل الصليبيون رهائن يبقون في المعسكر الاسلامي حتى خروج آخر جندي من مصر، وعين الكامل الرهائن المطلوبة وهم: نائب البابا نفسه، مع ملك عكا، ودوق بافاريا، ومقدمي الطوائف الدينية والعسكرية. مع مجموعة من الكونتات. وأرسل مقابل هؤلاء ابنه الملك الصالح أيوب، وابن أخيه شمس الملوك، وقدمت الرهائن إلى الكامل، فأسرف في ضيافتهم وتكريمهم، وإقامة الحفلات والمآدب على شرفهم. فقد اعتبرهم ضيوفاً كرماء، وليسوا أسرى رهائن، دمروا بحمقهم وهمجيتهم بلاداً معمورة، وقتلوا الآلاف من الرجال والنساء والاطفال المسالمين الابرياء من أهل مصر، وتم ذلك في التاسع عشر من رجب من عام ١٦١٨/ ٢٢١/ ، وأرسل نائباً الى الفرنج المتمركزين في دمياط أوامره بمغادرة المدينة وتسليمها للمسلمين، ولكن حامية المدينة تمردت أول الأمر، ورفضت الانصياع لاوامر بيلاجيوس، خصوصاً وأن صاحب مالطا وصل شواطىء مصر على رأس قوة صليبية جديدة، لكن وضع ملوكهم وهم في قبضة المسلمين، وانهيار معنويات جند الفرنجة العائدين من ميدان المعركة، أرغم هؤلاء المتشددين على الرضوخ، وغادروا البلاد المصرية بعد أن استعاد الطرفان رهائنهم. وذلك في الثامن من شهر ايلول (سبتمبر) من عام ١٢٢١، وانتهت بذلك تلك الحملة الصليبية بفشل ذريع مهين، بعد أن خلّفت وراءها عشرات الالاف من القتلى من المسلمين والصليبيين، وكما

ذكرت، فان تلك الهزيمة، وتلك المعاملة الانسانية التي قابلهم بها الملك الكامل، لم تثنهم من مواصلة محاولات احتلال الارض العربية، والقضاء على العرب والمسلمين(٦).

الحملة الصليبية السادسة وعودة القدس للسيطرة الصليبية:

بعد اندحار الحملة الصليبية الخامسة، شهدت المنطقة الشامية المصرية شيئا من الهدوء في الصراع العربي الصليبي، وقد أخذت أنظار العرب تشد الى ماكان يحدث في شرق العالم الاسلامي، حيث أخذت جموع المغول التتر تتقدم منتصرة في تلك الأصقاع ناشرة في كل مكان تحل فيه القتل والدمار خصوصاً في بلاد فارس وماوراء النهر، فاندثرت أو كادت حواضر إسلامية عظيمة مثل بخارى وسمرقند وأصفهان وغيرها وفي هذا الوقت برز على الساحة الاوروبية شخصية مهمة لعبت دوراً بارزاً في مجرى الحروب الصليبية والعلاقات العربية الإفرنجية، وهي شخصية (فريدريك الثاني) امبراطور ألمانيا، الذي آل إليه العرش الالماني، وعمره لايتجاوز ثلاث سنين، إثر وفاة والده، هنري السادس في عام ١١٩٧ م. وقد كان فريدريك برعاية أمه كونتانس التي كانت ملكة على جزيرة صقلية الايطالية. وفي هذه الجزيرة ولد فريدريك ونما وشب، وقد كان لتلك النشأة الايطالية أثرها البالغ في تكوينه الفكري والسياسي والوجداني، وقد ماتت أمه بعد فتره قصيرة من وفاة أبيه، وبذلك فسح المجال أمام البابا أنوست الثالث الذي ارتقى العرش البابوي في أواخر عام ١١٩٧ م المجال للسيطرة على صقلية والتأثير على السياسة الالمانية وذلك لتحقيق أهدافه التي أعلنها. فقد كان هذا البابا على درجة كبيرة من الدهاء والطموح في السيطرة على العالم النصراني، ووضع نصب عينيه منذ أن استلم مقاليد البابوية تحقيق طموحاته تلك والتي تتلخص:

١ ـ أن يصبح بابا روما السيد المطلق في جميع ايطاليا.
٢ ـ أن يكون البابا الرقيب الأعلى على ملوك أوروبا.
٣ ـ أن يُخلّص بيت المقدس وفلسطين من المسلمين.
٤ ـ أن تخضع الكنائس الشرقية وخصوصاً البيزنطية لسلطة بابا روما.

وقد تحقق هدفه الأول وهو إخضاع ايطاليا كلها لسيطرته، فاغتنم صغر سن وريث عرش صقلية والمانيا، في بسط هيمنته عليه واعتبار نفسه القيم على هذا الطفل ومسؤولاً عن تربيته وحمايته، ولكن تبين بعد حين أن تبنيه للطفل ورعايته وتثقيفه بما يريد لم يفلح ولم يثمر، فحين اشتد عود فريدريك وتُوّج امبراطور على ألمانيا وملكاً على الجنوب الإيطالي، أظهر من العقوق ونكران الجميل لانوست الثالث ثم لخليفته البابا مونوريس الثالث ومن بعدهما البابا غريغوري التاسع ما لم يكن في الحسبان، حتى أن هذا البابا الأخير أعلن غضبه الشديد عليه وأصدر مرتين متتاليتين قرارين بقطع فريدريك من الكنيسة الكاثوليكية وحرمانه من رحمة الله، وتكفيره. وفي الواقع ان فريدريك الثاني كان على درجة كبيرة من الثقافة جعلته يرفض بشدة سيطرة البابوية عليه، معتبراً الطقوس الكنيسية مجرد طقوس وثنية ساذجة يرفضها كل عقل متفتح، فهذا الامبراطور، كما يُجمع مؤرخو العصور الوسطى في أوروبا، قد امتلك صفات قل أن تجتمع في رجل واحد،

فقد أجاد الكتابة والكلام بست لغات من بينها اللغة العربية التي كان يتكلمها بطلاقة بسبب احتكاكه الكبير بالعرب المسلمين الذين ظلّوا مستوطنين جزيرة صقلية بعد أن أنهى النورمان السيطرة الاسلامية عليها، وكان فريديك شديد الاعجاب بالثقافة العربية الاسلامية وعلومها فقرب إليه علماءها وكبار مفكريها وأدبائها، كما أنشأ فرقة خاصة من العرب المسلمين لحمايته الشخصية. ونظم الشعر العاطفي بالايطالية المتأثر بالشعر العربي القديم، وأغدق الكثير من الاموال على الفنانين والموسيقيين والنحاتين والمهندسين المعماريين المتفوقين من جميع الاجناس، وكانت مجالسه الخاصة تضم كبار رجال الفلسفة والفلك والهندسة والرياضيات والطب، وقد تفرغ لتأليف كتاب علمي في طرق تربية الطيور والجوارح، وكيفية تدريبها على الصيد والقنص، ويُعتبر من بواكير الدارسات والعلوم التجريبية في جوروبا، وعمل على محاكاة المسلمين في بناء بيوتهم وفي أنماط حياتهم حتى أن قصره كان يحتشد بالكثير من الجواري الحسان منهن الشاعرات والمغنيات ذوات الأصوات الرخيمة الجميلة، وبالراقصات المبدعات، ومع أنه مسيحي الديانة إلاّ أنه لم يكن متعصباً ولامتزمتاً للنصرانية كملوك فرنسا وغيرهم بل يُقال أنه كان دنيوي الديانة رافضاً الأديان السماوية الثلاث اليهودية والنصرانية والاسلامية، وقد ألف كتاباً هاجم فيه بعنف أنبياء هذه الديانات الثلاث، والى جانب ذلك كان جندياً وفارساً شجاعاً، وبجانب هذه الصفات عرف عنه أيضاً، تقلّبه وعدم ثباته على مبدأ أو فكرة، كذلك قسوته الشديدة مع أعدائه، وتنكره لاصدق أصدقائه اذا اقتضت مصالحه الشخصية الانانية ذلك، وأخيراً انغماسه حتى شحمة أذنيه في المباذل الشهوانية والجنسية(٧).

وفي الجانب الاسلامي فقد ظل الاخوة الثلاثة يحكمون مصر والشام والجزيرة الشامية وفي عام ٦٢٤/١٢٢٦ توفي الملك الاعظم عيسى بن العادل في دمشق، وتولى حكم الشام الجنوبي ابنه الملك الناصر داود وكان عمره عشرين عاماً، ويظهر أن عمه الكامل في مصر والاشرف في الجزيرة كان كل منهما يتوق لضم دمشق اليه، خاصة الملك الكامل الذي جَرَّد في العام لتالي لوفاة أخيه المعظم حملة الى بلاد الشام ووصل الى القدس، وحين علم الملك الناصر بتحرك عمه عرف أنه المقصود بهذا التحرك فاستنجد بعمه الملك الاشرف سيد الجزيرة الذي أسرع على رأس جيش لمنع أخيه من استحواذ دمشق، واجتمع الإخوان الكامل والأشرف في فلسطين، وقد اتفقا على ابن أخيهما فاصبحت فلسطين تابعة للملك الكامل ودمشق ستكون من نصيب الملك الاشرف ومن سياق الاحداث يتضح أن رضاء الكامل جاء تنفيذاً لسياسة أبعد مدى مع الصليبيين وفريدريك الثاني بالذات كما سوف نرى.

لقد استفاد فريدريك الثاني من مواطنيه المسلمين في صقلية، فوثق العلاقة مع الملك الكامل حاكم مصر، وذلك حين بعث الكامل الى فريدريك وهو في صقلية، في عام ١٢٢٦ الامير فخر الدين بن شيخ الشيوخ يعرض عليه عقد محالفة بين الاثنين يقوم بموجبها فريدريك بمد يد المساعدة للكامل من أي خطر محتمل قد يتعرض له من خصومه الايوبيين والخوارزميين، كما أرسل فريدريك بدوره الى القاهرة أحد أمراء الفرنجة وهو توماس أكبرا محملاً بهدايا نفيسة، وكان البابا أنوسنت الثالث، اتفق مع فريدريك على تنظيم حملة صليبية لاستعادة بيت المقدس، لكن فريدريك نكث باتفاقه مع البابا ولم يول اهتماماً يذكر لحرب المسلمين، وجدد هذا الاتفاق مرة أخرى مع البابا غريغوري التاسع ومضى وقت دون أن يتحرك

الامبراطور على تنفيذ اتفاقه وحين طالبه البابا بالتنفيذ أخذ يماطل ويسوّف، مما أثار غضب غريغوري فأصدر قراراً بحرمانه من رحمة الكنيسة، لكن تطلعات فريدريك في الحكم والسيطرة قد بدأت تمتد عبر البحار خصوصاً بعد صداقته مع الملك الكامل وراق له أن يتوج أيضاً ملكاً على بيت المقدس ويصبح بذلك الامبراطور الذي يضع على رأسه ثلاث تيجان، تاج ألمانيا وتاج صقلية وتاج القدس فتقدم بخطبة ابنة الملك يوحنا دي بريانا وتدعى يولندا وهي وريثة أبيها وأمها الوحيدة بتاج الامارة الصليبية في بلاد الشام، وبارك الجميع في هذا الزواج الذي تمّ في بلدة برنديزي في عام ١٢٢٥، وحين علم فريدريك بأن زوجه يولندا قد حملت، ارتاحت نفسه، ولم ينتظر حتى تلد بل أسرع بالكشف عن غرضه الحقيقي من هذا الزواج، وبعد أربعة أشهر فقط من تاريخ زواجه، أعلن تنكره لها واهمالها وتركها معزولة في ألمانيا، فقد منحه ذلك الجنين الحق في ملك الصليبيين في الشام. وبعد أن أنجبت ابنها كونراد ماتت بعد ستة أيام، وكان ذلك عام ١٢٢٨ أي لم تبق في ذمة زوجها سوى ثلاث سنوات، كما شن فريدريك حملة شرسة ماكرة ضد أبيها يوحنا وأرغمه على ترك بلاد الشام نهائياً بعد عزله من وصاية عرش بيت المقدس والاقامة في أوروبا لاحول له ولا قوة(٨).

وصول فريدريك الى الشام واتفاقه مع الكامل على استعادة الصليبيين القدس:

لم يعد مايحول دون تحرك الامبراطور فريدريك نحو الشرق الاسلامي، فقد غدا ملكا شرعيا على مملكة الصليبيين هناك، كما أن شهرته في تسامحه مع المسلمين في صقلية وتعاطفه معهم قد سبقت وصوله الشام ومصر، وقد أبحر في عام ١٢٢٨ على رأس جيشه الى قبرص، لكن البابا غريغوري التاسع أصدر مرة أخرى قرارا بقطع فريدريك من الكنيسة نظرا لتمهله ثم انشغاله عن قتال المسلمين بالتدخل في شؤون الحكام الفرنجة في بيزنطة وقبرص وبلاد الشام، وكان ذلك بمثابة نكسة لحملته الى الشرق، اذ أن صليبيي بلاد الشام وعلى رأسهم الرهبان والقساوسة أعلنوا تمردهم على فريدريك الذي باء بغضب بابا روما، اما على الجانب الاسلامي فكان الوضع على أحسن حال اذ أن الوفود المتبادلة بين الامبراطور والملك الكامل أرست قواعد صداقة حميمة بينهما، وبذل الكامل لصديقه الالماني القدس هدية نفيسة لهذه الصداقة، وبما أن فلسطين لم تكن تحت سيطرته، سعى، كما رأينا، لاستخلاصها من سلطة ابن أخيه الملك الناصر داود بعد الاتفاق مع أخيه الملك الاشرف، وحين طالبه فريدريك بتنفيذ وعده تردد الملك الكامل خوفا على عرشه من رعاياه المسلمين، وغضب الامبراطور وأرسل من يهمس في أذن الكامل بأنه اذا لم يوف هذا الملك الضعيف بوعده فان فريدريك سيأخذ القدس ومصر بحد السيف، ولم يكن الكامل ذلك الرجل المستعد أن يقف في وجه امبراطور كبير كفريدريك وأن يقامر بمستقبل ملكه وجاهه ونعيمه بمصر لاجل قضية اسلامية عامة، فأعلن على الفور موافقته على عقد هدنة وصداقة مع الامبراطور فريدريك كان أهم بنودها:

١ - أن تصبح القدس مع مدينة الناصرة وبيت لحم تحت السيطرة الصليبية المباشرة بزعامة فريدريك الثاني، على أن تبقى ادارة المسجد الاقصى وقبة الصخرة بيد المسلمين مع منح الحرية والأمن لكل مسلم

يود دخول هذه الاماكن للتعبد او للتجارة.

٢ ـ تبقى المدن الساحلية الشامية بيد الصليبيين، ويمنح هؤلاء طريقا بريا يرتبط بمدينة يافا على الساحل بالقدس ويمر من مدينة اللد، ينتقل فيه الفرنج بكل حرية وسلام.

٣ ـ يتعهد فريدريك مقابل ذلك بدعم الملك الكامل على أعدائه وخصومه سواء كانوا مسلمين أم مسيحيين.

٤ ـ يتم تبادل اطلاق الاسرى بين الطرفين.

٥ ـ مدة المعاهدة عشر سنوات ميلادية.

وفي السابع عشر من شهر (مارس) ١٢٢٩/ ربيع الاول ٦٢٦، دخل فريدريك بيت المقدس، تنفيذا لبنود تلك المعاهدة ودخل كنيسة القيامة ووضع على رأسه بشكل رسمي، تاج بيت المقدس وسط مقاطعة شبه كاملة من رجال الدين المسيحي.[9]

صدى عودة القدس الى الصليبيين:

أحدث هذا الاتفاق العجيب الذي أبرمه الكامل مع فريدريك صدى واسعا بين كافة المسلمين والمسيحيين، فالمسلمون اعتبروا ذلك الاتفاق وصمة عار في جبين ذلك الملك المتهالك على الحكم ومتاع الدنيا، واهدارا رخيصا لدماء شهدائهم وتفريطا شنيعا بكل الانجازات العظيمة التي حققها صلاح الدين وقد امتلأت قلوب المسلمين حقدا وبغضا للكامل، واستغلها ابن أخيه الملك الناصر داود فاطلق العنان للناس في دمشق ليعبروا عن سخطهم ونقمتهم بكل حرية على عمه الخائن للاسلام وللأرض العربية وللمبادىء وعلى عمه صلاح الدين وانطلق خطباء المساجد والائمة والوعاظ في عقد ملتقيات بالمساجد للتنديد بالكامل وما فعله، وتذكير الناس بقيمة بيت المقدس وحرمته وأنه ثالث الحرمين الشريفين وأولى القبلتين، وكان اثر كل ملتقى من هذه الملتقيات يرتفع بكاء الناس وعويلهم حزنا وأسى على ماحل بالقدس ويزداد غضبهم وتعاهدهم على الاخذ بالثأر من الملك الخائن ومن الصليبيين وخاف الملك الكامل من امتداد النقمة العارمة التي اعلنتها دمشق الى غيرها من المدن الاسلامية التي كانت لاتقل غليانا ونقمة ولكنها كانت مكبوتة الانفاس من حكامها، فشجع اخوته وعلى رأسهم الأشرف على احتلال دمشق وضمها الى ملكه واخماد صوتها المعارض، وبالفعل تقدمت جيوش الكامل والأشرف والعزيز والصالح نحو دمشق وطوقوها من جميع الجهات وحاصروها لمدة ثلاثة أشهر ومنعوا دخول أو خروج المؤن والتجارة منها وإليها، فنفذت مؤن الناس وأقواتهم وأخذت المجاعة تنتشر بين سكانها ومع ذلك بقيت صامدة، لكن حاكمها الناصر رأى أن لا فائدة من المقاومة فعرض على محاصريه تسليم المدينة لهم، وتعهدوا هم له بسلامته وسلامة سكانها خصوصا الذين جاهروا بعدائهم للملك الكامل، ودخل الاشرف المدينة التي نصب نفسه حاكما عليها أما حاكمها السابق فقد منحه أعمامه بلدة الكرك في شرقي الاردن اقطاعاً له ولابنائه من بعده[10].

أما الصليبيون فقد اعتبروا هذا الاتفاق لايتماشى اطلاقا مع أحلامهم وأهدافهم وان عودة القدس لحكم المسيحيين لاتعني شيئاً طالما أنها محاطة بالمسلمين من كل جهاتها يضاف الى ذلك تعهد فريدريك بمقاومة ارسال أية حملة صليبية أخرى للشرق وفي هذا اضعاف لهم ولمالكهم في الشام.

ولم يبق فريدريك في الشام طويلا فقد كان وجنوده محاطين بالكراهية والغضب في كل مكان يحلون فيه، وعاد في ربيع عام ١٢٢٩م الى بلاده وقد شيع الصليبيون موكبه في مدينة عكا وهو في طريقه الى السفينة التي سيركبها بالحجارة وامعاء الحيوانات الفاسدة وروثها، وانتهت هذه الحملة الصليبية بعد أن خلفت أسى وفجيعة في قلوب المسلمين والصليبيين على حد سواء وعطلت حركة المد العربي الاسلامي الظافر سنين طويلة بسبب تخاذل من تولى من الامراء الايوبيين.[11]

وبعد هذا ماجرى في تلك السنوات العشر، لكن المد العربي الاسلامي الذي نكس رايته الملك الكامل، تمالك نفسه من جديد وانتفض بقوة، حتى نجح في قهر الفرنج الغزاة وتطهير أرض العرب في الشام منهم وأعاد الى القدس وكامل فلسطين والساحل الشامي وجهه العربي، وظل أولئك الحكام المتخاذلون محشورين في زوايا التاريخ الهامشية تعلو أسماءهم أتربة النسيان والاهمال.

هوامش

* كاتب ومؤرخ بارز من طرابلس (الجماهيرية) له عدة مؤلفات منشورة.

(١) انظر (الذيل على الروضتين) لابن شامة ص ١٠٨ و ١٠٩ و ١١٢ و ١١٥ و ١١٦ و ١١٧ و (الكامل) لابن الاثير ج ٩ ص ٣١٥ و ٣١٦ وستيفن رنسيحان: تاريخ الحروب الصليبية ج ٣، ص ٢١٦ وما بعدها.

(٢) أنظر (الذيل على الروضتين) ص ١١٧ و ١١٨.

(٣) (الكامل) ج ـ ٩ ص ٢١٧

(٤) انظر (الكامل) ج ـ ٩ ص ٣١٧ و ٣١٨، وكذلك جمال الدين محمد بن واصل (مفرج الكروب في أخبار بني أيوب) ـ القاهرة ـ دار الكتب المصرية، ١٩٧٢ ج ـ ٤ ص ٩٣ ومابعدها، ورنسيمان ج ـ ٣ ص ٣٨٤ ومابعدها.

(٥) ابن واصل. مصدر سابق ج ـ ٤ ص ٩٧

(٦) (الكامل) ج ـ ٩ ص ٣١٨، (الذيل على الروضتين) ص ٦٠٨، رنسيمان ج ٣ ص ٣٠٠ و ٣٠١.

(٧) انظر المزيد من فريدريك الثاني: هربرت فيشر (تاريخ أوروبا في العصور الوسطى) الترجمة العربية ـ القاهرة ـ دار المعارف بمصر. ط ٣. ١٩٥٧، ج ١ ص ٢٥٣ و ٢٥٤ رنسيمان ج ٣ ص ٣١٢ و ٣١٣. رفيق التميمي ص ٢٢٢ و ٢٢٣ في (كتابه الحروب الصليبية) ـ القدس ١٩٤٥.

(٨) رنسيمان: ج ٣ ص ٣١٢ و ٣١٣ و ٣١٤.

(٩) انظر حول ذلك: رنسيمان ج ٣ ص ٣٣٠ وما بعدها ج ٩ ص ٣٧٨. التميمي ص ٢٢٤ و ٢٢٥

(١٠) انظر حول ذلك: (الذيل على الروضتين) ص ١٥٤ و ١٥٥.

(١١) رنسيمان ج ٣ ص ٣٣٨.

قرار تقسيم فلسطين عام ١٩٤٧
أمام مجلس النواب السوري

د. جورج جبور*

أولاً: مقدمات:

أحببت ذات يوم في مطلع الستينات، وكنت مأزال خريجاً جديداً من جامعة دمشق، أن أقوم بدراسة مقارنة لردود فعل البرلمانات العربية، على قرار تقسيم فلسطين الصادر في ١٩٤٧/١١/٢٩.

لن أزعج القارىء بتفاصيل تاريخي الشخصي.. الذي حدا بي إلى اختيار هذا النوع من الدراسة المقارنة، بل أكتفي بالقول: إنني وجدت نفسي في الفترة بين تخرجي من كلية الحقوق في حزيران ١٩٦٠، وبين سفري موفداً إلى أمريكا في تموز ١٩٦١، أتابع أموراً ثلاثة معاً: عملي القضائي كمعاون للنيابة العامة في اللاذقية لمدة ما يقرب من عام، وإنهاء معاملات إيفادي إلى أمريكا، لأعود عضو هيئة تدريسية في جامعة دمشق.. ومحاضر مجلس النواب السوري، أستعين بها بين الفينة والفينة في إعداد الفصل الذي خصص لي في الموسوعة. فجأة خطر لي خاطر: من إلهام، هكذا خطر لي، اعادة نشر تلك المحاضر، أو خلاصة عنها، ففيها تحسس جدي بتحديات واجهناها في مراحل لاحقة. ثم من الهام أيضاً أن نقوم حقاً بما كنت أحببت القيام به قبل نحو من ثلاثة عقود ـ أي إجراء دراسة مقارنة لردود فعل البرلمانات العربية، على قرار

* باحث من القطر العربي السوري رئيس لجنة دعم القرار رقم ٣٣٧٩.

تقسيم فلسطين. ففي هذه الدراسة تبيان لدرجات مختلفة (لدى البرلمانات) من الشعور بالخطر والتحدي. وإذ إن قيامي بالدراسة المقارنة غير متيسر لي في الوقت الراهن، فقد وجدت مناسباً الآن الاقتصار على ما نشر بعض ما كنت لخصتـه من محاضر مجلس النواب السوري في جلسته السرية المنعقدة بتاريخ ١٩٤٧/١٢/١، لبحث قرار التقسيم، وفي بعض الجلسات اللاحقة. ولعل في التلخيص الذي أنشره اليوم (ومعه بعض التعليقات) حافزاً يحفز الباحثين العرب للإسهام في هذا النوع الهام والجذاب من الدراسة المقارنة.

ثانياً: خلاصة أعمال جلسة مجلس النواب السوري ١٩٤٧/١٢/١:

في ١٩٤٧/١١/٢٩ صدر قرار تقسيم فلسطين بالكيفية المعروفة، وأبرز ما فيها أن الدول الآسيوية والافريقية ناهضت بأغلبيتها الساحقة القرار الذي أيدته الدول الغربية كلها، بعد يومين فقط عقدت جلسة مجلس النواب السوري كان الجو متوتراً. ففي أفق الوطن كارثة، وفي داخل المجلس تنافس على السلطة. وهكذا فما إن افتتح فارس الخوري، رئيس المجلس الجلسة، حتى تحدث نائب ينتمي إلى الكتلة الدستورية التي أصبحت حزب الشعب، وهو السيد فيضي الأتاسي، مطالباً الحكومة بشرح الموقف، حتى انبرى له رئيس مجلس الوزراء السيد جميل مردم بك(1) بالرد مستغرباً السؤال، ومعلناً أن الموقف واضح. وسريعاً ما ارتفعت الضجة متحولة إلى مشادة. لكن الجو ما لبث أن عاد إلى مستوى «المسؤولية»، فتحدث محمد الفتيح (من دير الزور)، موضحاً أن الأمم المتحدة انقسمت إلى شرقية وغربية (وهو بهذا التقسيم لا يعني التقسيم السياسي بين دول اشتراكية وأخرى رأسمالية، بل يعني تقسيماً آخر حضارياً: فالشرق/آسيا، والغرب/أوروبا/ الأولى تريد فلسطين دولة مستقلة موحدة، والثانية تريد تقسيمها والحرب بينها، واستشهد على ذل اليهود ومسكنتهم بآيات من القرآن الكريم. أما صبري العسلي (من دمشق ومن قادة الحزب الوطني)، فعاد إلى عام ١٩٣٦، حيث ذكر أنه بعد عودة الوفد السوري الذي كان يفاوض الفرنسيين لعقد معاهدة معهم حضر ثلاثة أشخاص من الوكالة اليهودية الى شكري القوتلي (وكان آنذاك نجم الكتلة الوطنية الصاعد)، وحاولوا اقناعه بتأييد وعد بلفور مقابل اقرار المعاهدة؛ فرفض. فقالوا له إن المعاهدة إذن لن تبرم. واستخلص العسلي انه «بقيام دولة يهودية، لن يكون هناك أي استقلال للدول العربية»، وأن على الحكومة دعم التطوع الشعبي، موضحاً أن الموازنة نصت على تخصيص مليوني ليرة لفلسطين، ويجب اضافة مليوني ليرة أخرى للتطوع. وتابع لطفي الحفار (من دمشق ومن أركان الحزب الوطني) مؤكداً ان استقلال سورية مهدد بوجود دولة يهودية. أما حبيب كحالة (من دمشق، وصاحب مجلة المضحك المبكي الساخرة الشهيرة)، فقد نحا منحى عجيباً، حين أكد في المجلس أنه مطمئن الى أن قرار التقسيم لن ينفذ «إذ سبق للغرب أن أصدر عام ١٩١٧ عدة قرارات ووعود ولكن لم ينفذ منها أي قرار».

بمقابل هذا الاطمئنان غير المستند الى أساس، نجد نائباً من حماة هو عبد الرحمن العظم يدعو الى الانسحاب من مؤسسة (هي الأمم المتحدة) ثبت افلاسها، ثم يتقدم خطوة باتجاه سليم جداً، حين يرى

أن «الشيء الهام اتخاذ سياسة موحدة/ وبالطبع يعني سياسة عربية/ موحدة/ بشأن البترول». ولا شك أن العظم بإشارته هذه كان يدرك ـ وهو الاقتصادي ـ أهمية الضغط على الدول المؤيدة للصهيونية، ويحيط بقرارات مؤتمر بلودان السرية عام ١٩٤٦، التي ربطت لأول مرة بين فلسطين وبين النفط.

إلى جانب هذه النظرة الصائبة لدى عبد الرحمن العظم، نجد نظرة مدققة تستحق الوقوف عندها لدى الدكتور أنور ابراهيم باشا (من حلب، وكان أستاذاً للحقوق الجزائية في جامعة دمشق ـ درس في باريس، ونال الدكتوراه بأطروحة عنوانها: «المسؤولية الجزائية في الاسلام») الذي دعا الى التفريق بين اليهودية وبين الصهيونية، محملاً الصهيونية مسؤولية خلق العداء «ومن الواجب/ هكذا قال/ أن يكون لليهود حق الحياة، وأن يعيشوا بحرية وسلام، ولا نجد مانعاً أن تكون فلسطين وطناً روحياً لكل يهودي، كما هي لكل مسلم ومسيحي، ولكن لا يمكن أن نعتبرها ملاذاً يأوي شذاذ الآفاق».

فإذا تجاوزنا بعد ذلك حماسيات النائب غالب العياشي (من ادلب)، فوجئنا بحساسيات واحد من أكثر نواب ذلك المجلس اطلاعاً على العالم المعاصر، ونعني به الدكتور أديب نصُّور (من حماة وخريج جامعة أوكسفورد ومؤلف مرموق في الفكر السياسي) الذي قال: «لتندلع النار في فلسطين، ولتنشب ثورة عنيفة، ولتتدفق القبائل العربية الفتية من العراق وسوريا والجزيرة، وليسمح لأفراد الجيوش العربية أن يتركوا وحداتهم ويلتحقوا بفرق الشعب المقاتلة».

وبالطبع يستغرب القارىء من الدكتور نصور أن يستنجد بالقبائل العربية الفتية، ويعلق عليها الآمال، في وقت لم تعد فيه الحرب حرب قبائل، كما يستغرب منه هذا التفاؤل بفرق الشعب المقاتلة التي ستلتحق بها أفراد الجيوش العربية، فالفرق المقاتلة ليس «فيض حماسة» بل هي التنسيق قبل كل شيء. أما لطفي الحاج حسين من الحسكة فقد لاحظ أن ثمة حماسة شديدة، وأن على الحكومات العربية أن تجد منفذاً لهذه الحماسة، فالنار تأكل بعضها، أن لم تجد ما تأكله. ولعل هذا القول الذي نطق به الحاج حسين كان أشبه بالنبوءة، على نحو ما يشهد به تاريخ سوريا اللاحق قريباً على الأقل.

وإذا كان كلام الدكتور حسن السراج (من حماة) عادياً متوقعاً، ففي كلام الأستاذ محمد المبارك (من دمشق، ومن أقطاب الحركة الاسلامية في سوريا) عمق يشار اليه: «نحن اليوم لسنا في صراع بين الأديان، وإنما أمام غزوة أجنبية لغزاة أجانب يريدون غزونا. . في حضارتنا أيضاً». هذا الكلام العاقل ينبغي أن يسجل بكل تجلة لنائب اشتهر بإسلامياته.

وكما أن المبارك لم يكن عادياً في مداخلته، كذلك كان أكرم الحوراني (من حماه والغني عن التعريف). أعاد إلى الأذهان أنه طالب قبل سنتين بإقرار مشروع التجنيد الإجباري «ولو أقر من سنتين لكان في بلادنا اليوم عشرات الألوف من الشبان المدربين المستعدين لخوض المعركة». أما المليونان اللذان اقترحا للتطوع فينبغي أن يضاعفا الى عشرة ملايين. والجيش ينبغي أن يوضع بتصرف فوزي القاوقجي (البطل العربي اللبناني الذي كان له دوره في /الجهاديات/ العربية، والذي تحول الى بطل اسطوري عربي، تحمل زياراته إلى دمشق كل معاني الاثارة الشعبية). واختتم الحوراني كلامه بقوله إن النضال العربي «لا ينقذ فلسطين فحسب وإنما سيؤسس وحدة العرب. . . . فولادة الجامعة العربية الحقيقية إنما تكون بالنضال المشترك».

زكي الخطيب (من دمشق)، ونديم شومان (من اللاذقية)، تحدثا فيما تحدث به من سبقهم في التجنيد، وفي التبرعات. أما فخري البارودي (من دمشق، ومؤسس/ المكتب العربي/ الذي كان همه جمع المعلومات عن القضايا العربية والإعلام الدولي عن هذه القضايا، كما لن نخطىء إذا قلنا: إن فعاليات هذا المكتب كانت ذات رياده متقدمة لكل وزارات الإعلام والتربية والتعليم العالي العربية، كما لن نخطىء إذا قلنا: إن هذا المكتب الذي عمل به أكرم زعيتر وفؤاد مفرج، يصلح أن يكون موضوع رسالة دكتوراه يشجعها «حفيد» المكتب، ونعني به «مركز دراسات الوحدة العربية» المعقود لواؤه لخير الدين حسيب) أما البارودي فتلا رسالة عمرها عشر سنوات من بن غوريون معلقاً أن مابها من تنبؤات تحقق.

عبد الوهاب حومد (من حلب عادياً. أما الكتلةالدستورية المعارضة التي أصبحت حزب الشعب وقطب فكري لامع في القطر آنذاك) تميز بذكره أن «يهود هذا الوطن اخوتنا. لهم مالنا وعليهم ما علينا، ونريد منهم ان يرتفع صوتهم استنكاراً لما حدث». وإذا كان جمال علي أديب (من جبلة بمحافظة اللاذقية)، رأى أن الصهاينة هم وراء إنشاء كل من جمعية الأمم وهيئة الأمم المتحدة وأنهم، أي الصهاينة، «يركبون ظهور الأمم الكبرى والصغرى ويسوقونها وفق مطامعهم»، فإن هاني السباعي (من حمص، ومن الكتلة الدستورية، ووزير مخضرم فيما بعد)، رأى أن قيام دولة يهودية «معناه في المستقبل القضاء على جميع البلاد العربية، لأن ما صرحوا به في الماضي والحاضر، إنما يستهدف القسم الأعظم من البلاد العربية». أما محمد آقبيق (من دمشق) فقد رأى فيما يجري «إلزاماً بقيام وحدة وطنية، فلا الشيوعيون ولا الإخوان المسلمون يرجون لبلادهم شراً».

ثلاثة حلبيون ممن أصبحوا أقطاب حزب الشعب (المعارض) آنذاك، تحدثوا الواحد تلو الآخر، ناظم القدسي (وقد أصبح في وقت لاحق رئيساً للجمهورية)، رأى أن «هذه النكسة يمكن أن تخدم فكرة الوحدة العربية»، واقترح انشاء لجنة من السياسيين، تنصرف فقط لدراسة موضوع اسرائيل. معروف الدواليبي (وأصبح في وقت لاحق رئيساً للوزراء، وكان دائماً من أنبه السياسيين السوريين) أيد اقتراح القدسي، ولكنه أيضاً رأى ضرورة تشجيع أبناء فلسطين. ولعل هذه الفكرة كانت تثار للمرة الأولى في المناقشات. اما رشدي الكيخيا (زعيم حزب الشعب لاحقاً، وكان وقت المناقشة زعيماً للكتلة الدستورية، وقد توفي أوائل صيف عام ١٩٨٨، رحمه الله) فقد رأى فيما يجري مؤامرة ذات أهداف بعيدة، واستذكر أنه كان علينا أن ننفذ قرارات مؤتمرات أنشاص وبلودان وبيروت.

جورج صحناوي (من دمشق وكان صناعياً كبيراً) تكلم بعد ذلك كلاماً عادياً.أما فضيلة الشيخ محمود شقفة (من حماة وأظنه كان مفتي تلك المدينة) فقد رأى أن الصهيونية ليست من العهد العثماني فقط، بل هي ترجع بالعهد الى «فجر النهضة العربية التي جاء بها محمد زعيم العروبة». ثم تحدث السيد شقفة عن الصهيوني شاس الذي كان له دوره أيام الأوس والخزرج. بعد ذلك ختم السيد شقفه كلامه باقتراحات ثلاثة كما يلي:

«علينا أن نضم للقوة المادية القوة الروحية، وبذلك يتجلى لنا بالقدر المستطاع أن توعز الحكومة الى مفتي الجمهورية العام، وهو يوعز بدوره الى المفتين في سائر المحافظات، ليجمعوا أهل العلم والفضل،

ويضرعوا الى الله سبحانه ويحثوا الناس على التوبة والاقبال على الله عز وجل. وهناك أمر آخر نعرضه على الحكومة، وهو أن تؤلف بشكل سريع لجنة لمراقبة الأفلام السينمائية التي قضت على أخلاقنا. . وهذا أمر يرضى عنه بنا، وربما كان من ورائه النصر من الله. وهناك أمر ثالث نعرضه على مقام رئاسة المجلس، وهو اعلان وقف الجلسة مدة دقائق عندما يحين وقت الصلاة، ليقوم ممثلو الأمة بواجباتهم نحو ربهم. ولعل في مجموع ما ذكرت من الاقتراحات، ما يجلب لنا القوة من الله، ونكون قد وصلنا إلى ما نصبو إليه من النصر ان شاء الله».

بعد هذه المداخلة لنائب حماه جاء دور نائب حلب الدكتور رزق الله الانطاكي، والدكتور الانطاكي استاذ حقوق في جامعة دمشق، عاش مدة في الغرب، أي ينبغي أن يكون أكثر اطلاعاً من غيره على شؤون المنظمات الدولية، وهو بالطبع أصبح وزيراً مخضرماً في فترات لاحقة. فلننظر في خلاصة أقواله. قارن الانطاكي بين لواء اسكندرون، وبين فلسطين، مذكراً بأننا «ألقينا خطابات وجمعنا تبرعات/ذهبت الى غير موضعها/ ثم أصبحنا نتجنب الحديث عن اللواء». ثم تحدث عن «الزامية» قرارات الأمم المتحدة، التي تكلفنا كل سنة المبالغ الطائلة دون جدوى، فمعنى بقائنا أننا راضون ضمناً عن بقائها. لذلك فإنني أقترح على مجلسكم الكريم أن يبدي رغبته بضرورة انسحاب سوريا من منظمة الأمم المتحدة، وان يطلب من الحكومة ابلاغ هذه الرغبة الى جميع الدول العربية الداخلة في المنظمة، حتى تتخذ هذه الدول قراراً بالانسحاب. ومتى انسحبنا نحن العرب من منظمة الأمم المتحدة، التي لم يأتنا منها سوى الشر، نكون عندئذ أحراراً في اتخاذ التدابير الفعالة لمقاومة الخطر الصهيوني. وإلا إذا قررنا البقاء في هذه المنظمة، فلا يمكننا على ما أعتقد أن نقوم بأي عمل رسمي، وأخشى عندئذ أن لا يكون لحماسنا أية نتيجة فعالة».

هكذا إذن رأى أستاذ الحقوق نتائج بقائنا في الأمم المتحدة، ولابد أن هذا الرأي يصدمنا الآن بأنه رأي عجيب وغير واقعي مطلقاً.

كلمتا سامي كبارة (من دمشق)، وكمال الكنج (نائب قضاء وادي العجم) كانتا عاديتين. إلا أن الكلمة التي تلتهما لم تكن عادية أبداً، لا بشخص قائلها ولا بمحتواها.

قائلها وحيد مزراحي (من دمشق، وهو نائب من الطائفة الموسوية) ما يزال أصدقاؤه وزملاؤه في دمشق يذكرونه بكل مودة و تقدير. ومن المرجح أنه غادر دمشق إلى بيروت في أواخر الخمسينات، شأن عدد من شخصيات القطر وأبنائه، وأنه غادر بيروت إلى أمريكا اللاتينية في وقت لاحق وربما بسبب أحداث لبنان) أما محتواها فهذا هو بالحرف:

الرئيس ـ الكلمة للسيد وحيد مزراحي

السيد وحيد مزراحي ـ سيدي الرئيس:

انني أعبر عن شعور ورأي أبناء الطائفة الاسرائيلية في هذه البلاد الذين يتمتعون منذ قرون بالمساواة مع بقية الطوائف في الحقوق والواجبات يصون حقوقهم دستور ديمقراطي صحيح.

ان أبناء الطائفة الاسرائيلية في هذه البلاد يعترفون بكل اخلاص بانهم كانوا ولم يزالوا منذ مئات من

السنين معتبرين أنفسهم من أبناء هذا الوطن، تجمعهم جامعة العنصرية ومصلحة الوطن والعادات واللغة. نعم ان الغالبية العظمى من الامم العربية تدين بالإسلام، ولكن بين العرب كثيرين على غير هذا الدين. وهذا لا يمنعهم من التمسك بعروبتهم. وقد جاء القرآن الكريم صريح النص في الحض على مراعاة الذميين واحترام عقائدهم، فضرب بذلك المثل الاعلى في التسامح، وأعطى للأمم المسماة الأمم المتمدنة درساً بليغاً في احترام عقائد الغير.

فاليهود في هذه البلاد يستنكرون هذا القرار الجائر، ويستنكرون اعمال الصهيونية، ويعتبرون الصهيونية عقيدة سياسية غربية منفصلة عن الدين، لا تتفق مع عادات ولغة واخلاق يهود البلاد العربية، فاذ، كانت الصهيونية التي تأتينا من الغرب، تريد أن تجعلنا ضمن حظيرتها، فانا اعلن من هنا اننا بريئون منها ومن أعمالها. فانا أرجو أن يعلم الجميع، اننا لا نشاطر الصهيونية عملها، واننا لا نتفق وإياها بغاياتها وأساليبها، وسنكون في مقدمة المجاهدين العاملين لدفع أذى الصهيونية عن هذه البلاد والسلام. (تصفيق)

ومن الطريف أنه بعد كلمة مزراحي تحدث محمد خير الحريري (من حوران) ليقول «إننا عرب خلقت الحروب لنا وخلقنا لها».

أما فيصل العسلي (من دمشق وكان نائباً عن الزبداني، وهو اذ ذاك شاب طموح بل بالغ الطموح) فقد شاء أن يقول: «إما أن تكون هناك دولة يهودية، ويصبح العرب أمة ذليلة، وإما أن يسود العرب ويرموا بهؤلاء اليهود إلى البحر». وتقدم بعد ذلك باقتراح من ستة مواد نص المادة الأولى منه كما يلي:

«الاقتراح على الجامعة العربية إعلان وحدة الوطن العربي الطبيعية، لتنسيق جهود ومجهودات الشعوب العربية، وإنشاء قيادة عليا لتوجيه الحركة التحريرية في العالم العربي لإنقاذ فلسطين».

أما المواد الأخرى فتختص بإنشاء معامل لصنع الأسلحة، والدعوة للتجنيد العام مع «إنشاء مكاتب تجنيد في البلاد الخارجية، وذلك لتأليف فيلق دولي ينضم تحت لوائه من يشاء من مسيحيي العالم».

فريد ارسلانيان (من دمشق وهو أرمني) أشار إلى أن القرار «فاتحة استعمار اقتصادي واستعباد سياسي»، سيشمل كل الاقطار العربية. وقبل أن يعود رئيس المجلس ليخلص النقاش، تحدث بكلام عادي كل من هايل سرور من (العشائر)، وتوفيق الهنيدي (من حلب)، ونوري الحكيم (من دمشق).

رئيس المجلس لخص ما أمامه: مشروع لخدمة العلم، وآخر بمليوني ليرة لفلسطين وكتاب من /٣٠/ نائباً قدموا أسماءهم كمتطوعين. الا أن النقاش استؤنف.

فاعور الفاعور (من الجولان) ذكر جوار الجولان لفلسطين، وقال عن اليهود إنهم «مسلحون ومدربون»، بينما نحن بلا سلاح ولا تدريب. وطالب بالأمرين على أن تكون مكاتب التطوع في الجولان «فالأقربون أولى بالدفاع عن هذا الوطن».

وهنا تدخل وزير الدفاع الوطني أحمد الشراباتي موضحاً «ان مخصصات وزارة الدفاع لا تستوعب تطوع عدد كبير».

وعاد إلى الكلام محمد آقبيق (من دمشق)، فربط بين فلسطين والنفط بهذه الكلمات القاطعة «بما أن

أمريكا عادتنا لذلك لا ينبغي أن نصدق اتفاقية التابلاين».

بعد كلام آقبيق هذا، وملاحظات جميل مردم بك عليه لجهة أنه لا مجال الآن لتصديق الاتفاقية، اشتغل المجلس بمشاريع الاقتراحات المحددة، فأقر تخصيص مبلغ مليوني ليرة لفلسطين، توضع بتصرف جامعة الدول العربية. كما أحال مشروع خدمة العلم إلى لجنة الدفاع الوطني، مع استعجال النظر، وأصدر قراراً بشجب التقسيم، وشكر الدول غير العربية التي لم تؤيده، وضرورة الاتصال بالدول العربية لتوحيد الجهود. ورفعت الجلسة الساعة الواحدة بعض منتصف الليل أي أن الجلسة استمرت دون انقطاع نحواً من ثماني ساعات. . .

ثالثاً: خلاصة أعمال بعض جلسات المجلس اللاحقة ذات العلاقة:

إلا أن قضية فلسطين التي مثلت وما تزال تمثل كل أو معظم سياسة سورية الخارجية، لم تنتهِ فصولاً في مجلس النواب بجلسة واحدة، ولو طالت ثماني ساعات، ففي الجلسة التالية لجلسة ١٨٤٧/١٢/١، وقد عقدت يوم ١٩٤٧/١٢/٤، تقدم أكرم الحوراني باقتراحين أولهما يقضي بإلزام الأغنياء دفع المال من أجل فلسطين، والثاني يقضي بتعيين القاوقجي «رئيساً للجيش». وهما اقتراحان كان الحوراني ذكرهما في الجلسة السابقة كذلك أكد النائب الشقفة اقتراحه في جلسة ١٩٤٧/١٢/١ كما يلي:

«١ ـ أن توعز الحكومة الى مفتي الجمهورية السورية العام، ليوعز بدوره إلى المفتين في المحافظات لاجتماع العلماء والخطباء للضراعة والابتهال وحث الأهلين على التوبة والاستغفار.

٢ ـ أن تعمل الحكومة على تشكيل لجنة لمراقبة الأفلام، ومنع ما يخل بالآداب العامة ويخشى منه إفساد الأخلاق».

إلى جانب تكرار بعض ما قيل في جلسة ١٩٤٧/١٢/١ أثير في جلسة ١٩٤٧/١٢/٤ موضوع جديد كالتالي:

عادل العجلاني (من قضاء وادي العجم): «هناك تزوير وتحريف بقيود النفوس لتسهيل الهجرة إلى فلسطين، لذلك يقتضي تعديل قانون العقوبات وتشديد العقوبة».

ثم إنه في هذه الجلسة نوقش مشروع قانون خدمة العلم مناقشة مطولة، أطول ما فيها استهلكه حوار حاد حول جواز دفع البدل النقدي، وهل يخل دفع البدل بالمساواة بين المواطنين؟ وأخيراً حيث أقر مشروع خدمة العلم، وأصبح قانوناً (في الجلسة التالية بتاريخ ١٩٤٧/١٢/٦) تضمن فيما تضمن مادة تجيز دفع بدل نقدي، وأقرها المجلس دون تصويت خاص عليها اذ لم يبد أحد عليها أية ملاحظة.

وبالمقابل شهدت الجلسة نفسها بتاريخ ١٩٤٧/١٢/٦ كلاماً دراماتيكياً وعملاً دراماتيكياً معاً. هاني السباعي (من حمص ومن الكتلة الدستورية التي أصبحت حزب الشعب) سأل الحكومة عن صحة ما نشر في الصحف، من أن مبلغ المليوني ليرة المخصص لجامعة الدول العربية سلم الى محاسب وزارة الدفاع فؤاد مردم بك لتسليمه الى الجامعة (وفؤاد مردم بك هذا قريب مقرب الى جميل مردم بك الذي تتواتر

حوله الاخبار عن محبة دافقة لاقتناص المال العام، ثم ان فؤاداً نفسه كان بطل فضيحة صفقة أسلحة شهيرة اشترتها سورية لكن الشحنة رست في ميناء اسرائيل). أما أحمد قنبر (من حلب وأيضاً من الكتلة الدستورية) فقال إن حصة سورية المفروضة عليها من الجامعة هي مليون ونصف المليون «فماذا نفعل بباقي المبلغ وأين ذهب». هذا الكلام الدراماتيكي اتبع بعمل دراماتيكي، فقد استقال كل من رشدي الكيخيا وهاني السباعي من رئاسة لجنة الموازنة ومقررتيها. . .

في الجلسة التالية للمجلس، بتاريخ ١٩٤٧/١٢/١١ لم تغب قضية فلسطين عن المناقشات. . جمال علي أديب (من جبلة) اقترح انشاء طابع خاص بفلسطين، بعد استشارة جامعة الدول العربية. أما عبد السلام حيدر (من القلمون) فقد استفهم من الحكومة عن صحة ما نشر في بعض الصحف، من أن شركة التابلاين أنجزت بعض أعمالها في سورية، رغم أن موضوع التابلاين لم يعرض بعد على المجلس.

ثم في الجلسة ١٩٤٧/١٢/١٨ أعيد بحث قضية فلسطين، فكان ثمة تعبير عن خيبة الأمل بما فعلته جامعة الدول العربية (غالب العياشي)، واقتراح بجمع السلاح المرخص، واعطائه للفلسطينيين (مصطفى شاهين). أما النائب محمد المبارك فقد رأى ضرورة «تقييد حرية السوريين اليهود، ولا سيما إنهم يساهمون في الإرهاب بفلسطين». وعاد أكرم الحوراني إلى تقريع الحكومة لتقاعسها، إذ لم تستعد لمواجهة قضية فلسطين ولم تنشىء لجاناً لجمع التبرعات في المحافظات، ولم تفرض ضريبة على الاغنياء ولم تخصص تعويضاً للشهداء. . .

ثم ان محمد المبارك نادى في جلسة ١٩٤٨/١/٧ بضرورة تدريس قضية فلسطين في المدارس.

أما آخر جلسة نغطيها في هذا العرض فهي جلسة ١٩٤٨/١/١٠. وقد رأينا التوقف عند هذه الجلسة لأنها أول جلسة بعد «أربعين» يوماً على صدور قرار التقسيم الذي اتخذ كما نذكر في ١٩٤٧/١١/٢٩. ماذا جرى في «حفل الأربعين؟» أحمد قنبر المعارض صبّ جام معارضته على جامعة الدول العربية التي لم تلغ سمات السفر بين أعضائها، ولم تلغ الحواجز الجمركية، ولم توحد التمثيل الدبلوماسي العربي. ثم انتقد سياسة سورية الخارجية، بأنها لا تعرف من هو الصديق ومن هو العدو. أما توفيق الهنيدي، فقد عزا سبب فشل جامعة الدول العربية، إلى عدم وجود دولة دافعة لها وسوريا «هي الدولة التي يجب أن تفرض على نفسها هذا الواجب، فلا تنتظر أن تقوم الدول الأخرى بما رتبته الظروف التاريخية عليها.» هذا الكلام التنبؤي الواضح الذي قاله النائب الهنيدي، والذي شهدنا تحققه منذ زيارة السادات إلى القدس، دعمه صاحبه بجملة اقتراحات أخرى، أحدها تحقق ألا وهو الإقتراح بقيام «تعاون برلماني عربي واتحاد برلماني عربي».

ولعل أبلغ كلمة قومية ـ فلسفية في نظرية العمل العربي المشترك الذي تجسده جامعة الدول العربية، جاءت على لسان فيضي الأتاسي الذي تحسر لأن جامعة الدول العربية قامت على أساس كفالة الحدود القائمة بين الدول العربية. وهكذا «فما كنا نقول حتى الأمس: إنه غير شرعي، جئنا نحن بأنفسنا، وعلى أيدي حكوماتنا، وأكسبناه الصفة الشرعية».

أما معروف الدواليبي، فقد عاد في الجلسة نفسها الى تكرار الاقتراح الذي كان قدمه ناظم القدسي

في ١٩٤٧/١٢/١ بإنشاء «هيئة سياسية ثابتة توجه سياسة الحكومة بشأن فلسطين». وانتهى «حفل اربعين» قرار التقسيم (والتسمية هذه مني وليست من المجلس) بإبداء رئيس الوزراء جميل مردم بك استعداده لعقد جلسة خاصة لمناقشة القضية في أي وقت يراه المجلس. . .

رابعاً: ملاحظات تحليلية موجزة:

هل نحن بحاجة إلى تعليقات مطولة عما سبق؟ لا . . . خلاصة المحاضر تعبر عن نفسها بنفسها. بضع ملاحظات موجزة، إذا أضيفت إلى ما سبق من تعليقات موجزة أثناء السرد، تكفي.

الملاحظة الأولى، هي أن مدة النقاش لم تجسد تبلور مفاهيم وصرامة إجراءات. كان على ثماني ساعات من النقاش، أن تتمخض عن أكثر مما تمخضت عنه الجلسة. وهذه الملاحظة تندرج في إطار تقييم جدوى البرلمانية العربية. إلا أن هذه الملاحظة لا ينبغي مطلقاً أن تفسر على أنها مناهضة للبرلمانية. وحديث جدوى البرلمانية العربية (والسورية منها). يطول. يكفي القول أن أهم قانونين يحكمان الناس في سورية، وهما القانون المدني وقانون العقوبات، مكث مشروعاهما في مجلس النواب مدة لا يتحركان، حتى اذا حكم الديكتاتور حسني الزعيم عام ١٩٤٩ أصدرهما. . . دون نقاش، واستمرا منذئذٍ وحتى الآن. وفي هذه الإستمرارية ما يدل على أن سورية كانت بحاجة اليهما.

الملاحظة الثانية، هي أن كل المتكلمين، إنما أصروا على أن قضية فلسطين إنما هي قضية سورية. لم يرتفع في جلسة ١٩٤٧/١٢/١، ولا في الجلسات التي تلتها، ولا في الجلسات التي قبلها، ولا في كل التاريخ البرلماني السوري، بل ولا في كل التاريخ السياسي والفكري في سورية صوت واحد يقول: ما لسورية وما لفلسطين؟ فلنهتم بسورية ولندع فلسطين وشأنها. . هذا الكلام الساداتي الكامب ـ ديفيدي (على نحو ما استقر عليه التنظير اللاحق والتسمية اللاحقة) لم يخطر مطلقاً ببال أي سوري، لا في الماضي ولا في الحاضر، وليس في الأفق ما يدل على انه سيحصل في المستقبل.

الملاحظة الثالثة، هي عدم الوصول إلى تحديد مدقق بشأن من هو العدو: أهم الصهاينة أم هم اليهود؟ ثمة من رأى أن اليهود أعداء تاريخيون للإسلام وللعرب (الفتيح وشقفة وفيصل العسلي، وهي نظرة متداولة لدى ـ ربما غالبية العرب والمسلمين، ولا سيما منهم غير المتفتحين على الحضارة الحديثة والمفاهيم الحديثة، التي جاءت بعد الحرب العالمية الثانية خاصة. وثمة من جهة أخرى من دعا إلى التفريق بين اليهودية والصهيونية (أنور ابراهيم باشا، ومحمد المبارك، وعبد الوهاب حومد، ووحيد مزراحي) ثم ان ثمة من رأى ضرورة الإنتباه إلى ما يجري فعلاً في أوساط يهود سورية، الذين يهاجرون إلى فلسطين لينضموا إلى العصابات الصهيونية (عادل العجلاني ومحمد المبارك). ولنلاحظ أن هذه المسألة الهامة جداً، ما تزال بنفس حدتها النظرية حتى الآن، فما يزال في سورية من يرى أن الصهيونية واليهودية واحد، وما يزال ثمة من يرى أنهما أمران مختلفان. وفي الوقت نفسه شهد تاريخ سورية السياسي منذ ذلك الوقت اهتماماً حكومياً بشؤون يهود سورية، إذ لا يعقل أن تقف أية حكومة في العالم مكتوفة اليدين، أمام من يود من رعاياها

مغادرة بلده ليلتحق بعصابات إرهابية تقاتل بلده(٢). وفي الوقت نفسه، عاملت السلطات السورية رعاياها من اليهود بأقصى ما يمكن من المراعاة التي تستطيعها محترمة مشاعرهم وشعائرهم. ويكفي للدلالة على هذا الأمر، ذكر أن الامتحانات الرسمية التي تجريها وزارة التربية لشهادتي الكفاءة والثانوية، إنما تبدأ عادة يوم الاثنين، لا يوم السبت الذي به يبتدىء اسبوع العمل في سورية. ثم لنلاحظ أن صهاينة فرنسا لعبوا عام ١٩٣٦ دوراً في عرقلة إبرام الحكومة الفرنسية للمعاهدة مع سورية، على نحو ماهو معروف، وهو أمر أشار إليه صبري العسلي. في مثل هذا الدور إظهار لارتباط قضيتي سورية وفلسطين ليس بالشعور القومي العربي فقط، بل في مخططات أعدائنا أيضاً ـ وهذا الكلام يدرج لصالح الملاحظة الثانية أعلاه ـ.

الملاحظة الرابعة، هي أن المناقشة كانت مناسبة لاثارة كل اشكالات ما يدعى باسم «قضية الهوية» السورية والعربية، وكل اشكالات ما يدعى بأصول «العملية البرلمانية»، واتهامات اقتناص قسم من المال المخصص لجامعة الدول العربية من قبل مقتنص محترف للمال العام على حد ما يقال (هو الثنائي جميل وفؤاد مردم) كانت مؤشراً في النهاية إلى عدم ترسخ تقاليد بينها يقع الاقتراح الذي لم يدرس وبالتالي لم يوافق عليه رغم جديته بإنشاء هيئة برلمانية دائمة تتابع وتحدد سياسة القطر إزاء قضية فلسطين. ولنلاحظ هنا أيضاً أن ثمة من ربط بين فلسطين واتفاقية التابلاين، وأن ثمة من ذهب أبعد من اقتراح بمعاقبة أمريكا (عن طريق التابلاين)، فاقترح معاقبة العالم بانسحاب من منظمة الأمم المتحدة. ولنسجل أن بعض المستنيرين من نواب سورية كانوا على غير استنارة بالشؤون الدولية المفترض أنهم أكثر من غيرهم معرفة بها (كما في مداخلة الـدكتور الانطاكي). ثم إن مجال القول هنا واسع، ولن نطيل فيه، فالمطالعة وحدها تكفي لإثارة كل الملاحظات في ذهن القارىء.

ولأختم هنا بملاحظة خامسة أخيرة، هي تلك الكلمة التي قالها محمد المبارك في جلسة ١٩٤٨/١/٧ من ضرورة تدريس قضية فلسطين في المدارس. في سورية قبل غيرها أخذ بهذا الاقتراح الـوجيه المبارك، وفي سورية قبل غيرها بدأ تدريس قضية فلسطين، ضمن البرنامج العملي للمدارس الابتدائية والثانوية، ثم تطور هذا التدريس ليشمل الجامعة. ويشكل البحث الآن بكيفية تدريس قضية فلسطين حيزاً هاماً جداً من اهتمامات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ورغم هفوات لها غير هينات ولا مغفورات في كيفية التعامل مع أهم اقتراح لها في هذا الشأن، وهو الاقتراح بإنشاء مؤسسة بحوث متخصصة في دراسات الاستعمار الاستيطاني المقارن.

خامساً: ختام وعود على بدء:

ثم انني منفتح لأي انتقاد يوجه إليّ بشأن كل ما سبق. خلاصاتي، وعمرها يقرب من ثلاثة عقود، قد يكون بهت حبرها قليلاً، فَخَفِيَ ما كَنَزَه، وقد تكون لخصت حتى أخلت. اختياري التوقف عن متابعة المحاضر بعدَ اربعين يوماً من صدور قرار التقسيم قرار اعتباطي غير مبرر، الا بالحاجة إلى التوقف عند نقطة زمنية ما. ملاحظاتي لدى تقديم العرض، ثم في الختام تحمل طابعاً اجتهادياً خالصاً، ولا سيما وأنني

لم أدعمها برسم صورة كاملة عن الحياة السياسية السورية آنذاك.

. . . . إلا أن أياً من منتقدي الذين أتخيلهم، لن ينكر عليّ (كما آمل) أنني «فتحت الشهية» لمعالجة موضوع قد يراه البعيد عنه «عادياً»، ولن يراه القريب منه إلا «غنياً» بالغاً حد البذخ في الغنى. إلى كُتّاب الرسائل الجامعية العرب عن قضية فلسطين (وما أكثرهم!.) أتوجه بالقول: فلنتابع مشروعاً موسعاً حلمت به يوماً. وهو أن ندرس كيف كانت استجابة المجالس التمثيلية العربية لقرار تقسيم فلسطين قبل نيف واربعة عقود، وأن ندرس كيف كانت هذه الاستجابة في أجهزة العلم والرأي لترى كيف كنا وأين أصبحنا، ولندرك على نحوٍ أعمق «البعد العربي لقضية فلسطين».

ثم اختتم مخاطباً الاتحاد البرلماني العربي مرة ثانية، فقد خاطبت الاتحاد قبل أشهر على صفحات مجلة المستقبل (الباريسية ١٩٨٨/٦/٤)، مطالباً إياه بإقامة حفل برلماني خاص بمناسبة الذكرى الخمسينية لعقد أول مؤتمر برلماني عربي يعالج قضية فلسطين (القاهرة ١٩٣٨/١٠/٧).

أخاطب الاتحاد البرلماني العربي مرة ثانية لأقول: فيما إذا قررتم الإستجابة إلى ما دعوت إليه، فهذا بحثي بهذه المناسبة، وفيما إذا قررتم عدم الإستجابة فأرجو أن يقنعكم هذا البحث بالرجوع عن قراركم. وفيما إذا كنتم لم تتخذوا قراراً بعد، فأرجو أن يكون هذا البحث «بيضة القبان» التي تحسم الموضوع لصالح عقد الحفل. وفيما اذا لم تسمعوا بخطابي الأول لكم، فمن المرجح أنكم لن تسمعوا خطابي الثاني وعلينا جميعاً السلام. .

١٩٨٨/٧/١٦

---

١ - في ١٩٤٧/١٠/٦ تشكلت الوزارة كما يلي:
- جميل مردم بك: للرئاسة والخارجية.
- سعيد الغزي: للاقتصاد
- أحمد الشراباتي: للدفاع
- محسن البرازي: للداخلية والصحة
- أحمد الرفاعي: للعدلية والأشغال
- وهبي الحريري: للمالية
- منير العجلاني: للمعارف

١ - بعد بيرل هاربور وضعت أمريكا كل رعاياها من أصل ياباني في معسكرات احتجاز لمدة سنوات.

ملاحظات منهجية حول دراسة التركيب الطبقي في الأقطار العربية

د. خضر زكريا*

تثير الأوضاع الاجتماعية والسياسية في البلدان النامية تساؤلات عديدة. فمنذ مطلع الستينات،، حيث بدأ الحديث عن خطط التنمية في هذه البلدان، طرحت مسألة طريق التطور الاجتماعي الذي يمكن أن يؤدي الى التحرر الحقيقي للبلدان المستعمرة سابقاً، وخلاصها من التبعية الاقتصادية والسياسية، وكُتِبَ الكثير عن طابع التطور الرأسمالي الممكن، كما بحث فيما سُمِّي وقتها طريق التطور اللارأسمالي، وطرحت تساؤلات عن إمكان انتقال هذه البلدان الى الاشتراكية دون المرور بالمرحلة الرأسمالية. هناك في الواقع مجموعة من الحقائق المسلم بها تقريباً من قبل الباحثين الاجتماعيين والاقتصاديين المهتمين بشؤون هذه البلدان وخاصة لدى بحثهم خصائص التركيب الاجتماعي - الطبقي فيها. من هذه الحقائق أن الطبقات في البلدان النامية ما تزال متداخلة غير محدودة المعالم والمصالح بشكل نهائي. ومنها أن الصراع بين الاقطاع والبرجوازية، والذي أدى في الغرب الى سيطرة الطبقة البرجوازية على السلطة السياسية وبناء النظام الاجتماعي الرأسمالي، لا يأخذ في البلدان النامية الطابع ذاته ولا يؤدي بالضرورة إلى سيطرة البرجوازية بل كثيراً ما تتعاون هذه الطبقة مع طبقة الاقطاعيين وأشباههم ضد الطبقات والفئات الكادحة، وهذا التحالف بين البرجوازية والإقطاع يعرقل سيادة نمط الإنتاج الرأسمالي، ويمنع بالتالي تمحور البلدان النامية اعتماداً على طريق التطور الرأسمالي المعروف.

---

* استاذ علم الاجتماع بجامعة دمشق.

لم أدعمها برسم صورة كاملة عن الحياة السياسية السورية آنذاك.

. . . . . إلا أن أياً من منتقدي الذين أتخيلهم، لن ينكر عليّ (كما آمل) أنني «فتحت الشهية» لمعالجة موضوع قد يراه البعيد عنه «عادياً»، ولن يراه القريب منه إلا «غنياً» بالغاً حد البذخ في الغنى. إلى كُتّاب الرسائل الجامعية العرب عن قضية فلسطين (وما أكثرهم!.) أتوجه بالقول: فلنتابع مشروعاً موسعاً حلمت به يوماً. وهو أن ندرس كيف كانت استجابة المجالس التمثيلية العربية لقرار تقسيم فلسطين قبل نيف واربعة عقود، وأن ندرس كيف كانت هذه الاستجابة في أجهزة العلم والرأي لترى كيف كنا وأين أصبحنا، ولندرك على نحوٍ أعمق «البعد العربي لقضية فلسطين».

ثم اختتمُ مخاطباً الاتحاد البرلماني العربي مرة ثانية، فقد خاطبت الاتحاد قبل أشهر على صفحات مجلة المستقبل (الباريسية ١٩٨٨/٦/٤)، مطالباً إياه بإقامة حفل برلماني خاص بمناسبة الذكرى الخمسينية لعقد أول مؤتمر برلماني عربي يعالج قضية فلسطين (القاهرة ١٩٣٨/١٠/٧).

أخاطب الاتحاد البرلماني العربي مرة ثانية لأقول: فيما إذا قررتم الإستجابة إلى ما دعوت إليه، فهذا بحثي بهذه المناسبة، وفيما إذا قررتم عدم الإستجابة فأرجو أن يقنعكم هذا البحث بالرجوع عن قراركم. وفيما إذا كنتم لم تتخذوا قراراً بعد، فأرجو أن يكون هذا البحث «بيضة القبان» التي تحسم الموضوع لصالح عقد الحفل. وفيما اذا لم تسمعوا بخطابي الأول لكم، فمن المرجح أنكم لن تسمعوا خطابي الثاني وعلينا جميعاً السلام. . .

١٩٨٨/٧/١٦

---

١ - في ١٩٤٧/١٠/٦ تشكلت الوزارة كما يلي:
- جميل مردم بك: للرئاسة والخارجية.
- سعيد الغزي: للاقتصاد
- أحمد الشراباتي: للدفاع
- محسن البرازي: للداخلية والصحة
- أحمد الرفاعي: للعدلية والأشغال
- وهبي الحريري: للمالية
- منير العجلاني: للمعارف

١ - بعد بيرل هاربور وضعت أمريكا كل رعاياها من أصل ياباني في معسكرات احتجاز لمدة سنوات.

ملاحظات منهجية حول دراسة التركيب الطبقي في الأقطار العربية

د. خضر زكريا*

تثير الأوضاع الاجتماعية والسياسية في البلدان النامية تساؤلات عديدة. فمنذ مطلع الستينات،، حيث بدأ الحديث عن خطط التنمية في هذه البلدان، طرحت مسألة طريق التطور الاجتماعي الذي يمكن أن يؤدي الى التحرر الحقيقي للبلدان المستعمرة سابقاً، وخلاصها من التبعية الاقتصادية والسياسية، وكُتِبَ الكثير عن طابع التطور الرأسمالي الممكن، كما بحث فيما سُمِّي وقتها طريق التطور اللارأسمالي، وطرحت تساؤلات عن إمكان انتقال هذه البلدان الى الاشتراكية دون المرور بالمرحلة الرأسمالية. هناك في الواقع مجموعة من الحقائق المسلم بها تقريباً من قبل الباحثين الاجتماعيين والاقتصاديين المهتمين بشؤون هذه البلدان وخاصة لدى بحثهم خصائص التركيب الاجتماعي - الطبقي فيها. من هذه الحقائق أن الطبقات في البلدان النامية ما تزال متداخلة غير محدودة المعالم والمصالح بشكل نهائي. ومنها أن الصراع بين الاقطاع والبرجوازية، والذي أدى في الغرب الى سيطرة الطبقة البرجوازية على السلطة السياسية وبناء النظام الاجتماعي الرأسمالي، لا يأخذ في البلدان النامية الطابع ذاته ولا يؤدي بالضرورة إلى سيطرة البرجوازية بل كثيراً ما تتعاون هذه الطبقة مع طبقة الاقطاعيين وأشباههم ضد الطبقات والفئات الكادحة، وهذا التحالف بين البرجوازية والإقطاع يعرقل سيادة نمط الإنتاج الرأسمالي، ويمنع بالتالي تمحور البلدان النامية اعتماداً على طريق التطور الرأسمالي المعروف.

استاذ علم الاجتماع بجامعة دمشق.

في الوقت ذاته تعد الطبقة العاملة في هذه البلدان ضعيفة قليلة العدد نسبياً، موزعة على عدد كبير من المؤسسات الصغيرة وهي بالتالي محدودة التأثير في الحياة السياسية لبلدانها، ضعيفة الوعي والتنظيم. وهذا الواقع يثير الشكوك حول إمكان انتهاج الطريق الاشتراكي في التطور الاجتماعي للبلدان المعنية.

ان مما لاشك فيه أن البلدان النامية تعيش في العصر الحاضر حالة انتقالية ما. غير أن هذه الحالة تتميز كثيراً عن المراحل الانتقالية التي عرفتها البشرية سابقاً (مرحلة الانتقال من الاقطاعية إلى الرأسمالية في بلدان اوربا الغربية او الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية في دول المنظومة الاشتراكية مثلاً).

يبدو لنا أن ما يميز المرحلة الانتقالية التي تعيشها البلدان المتخلفة في الوقت الحاضر يتخلص في أمرين :-

أولهما: أن في هذه البلدان عدداً من أنماط الإنتاج القوية نسبياً والتي تتعايش وتتصارع في الوقت ذاته دون أن يظهر بوضوح اتجاه لانتصار أحدها.

والثاني: أن هناك أكثر من إمكان واحد لتحديد اتجاه التطور فكما أن هناك امكاناً للانتقال الى شكل من أشكال النظام الرأسمالي في بعض البلدان، هناك إمكان للانتقال الى الاشتراكية وإمكان لإقامة نوع من النظام المختلط الذي تلعب فيه الدولة دوراً متعاظم الأهمية، ويبقى الطابع الطبقي للدولة في هذه الحالة العامل الحاسم في تحديد اتجاهات التطور.

انا نعتقد أن دراسة الواقع الملموس لكل بلد، دراسة بنيته الاجتماعية ـ الطبقية وأوضاعه السياسية، هي التي تلقي الضوء على اتجاهات التطور الممكنة في هذا البلد. وهذا ما يحدد أهمية البحث في خصائص التركيب الطبقي لكل مجتمع على حدة. غير أن دراسة التركيب الطبقي لبلداننا العربية تواجه صعوبات كبيرة، سواء من الناحية المنهجية النظرية، أو من الناحية التطبيقية. فمسألة تعريف الطبقات الاجتماعية، وتحديد العلائم التي تميز طبقة عن أخرى، وتلك التي تفصل بين الشرائح المختلفة ضمن الطبقة الواحدة، هي بالأساس مسألة نظرية شائكة، تدور حولها مناقشات عديدة حتى بين الباحثين الماركسيين أنفسهم[1] وتتزايد الصعوبات وتبرز الخلافات أكثر لدى تطبيق تلك الأسس النظرية على دراسة واقع اجتماعي معين في مرحلة زمنية محددة وبخاصة لدى دراسة المجتمعات المتخلفة في النصف الثاني من القرن العشرين.

لقد حصلت تغيرات واسعة وعميقة سواء على الصعيد العالمي، أو داخل كل مجتمع على حدة، منذ أن درس كلاسيكيو الماركسية الطبقات والصراع الطبقي في المجتمعات الرأسمالية، أشير هنا إلى بعضها:

١ ـ انهار النظام الاستعماري العالمي وحصلت بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية على استقلالها السياسي.

٢ ـ قامت وتوطدت المنظومة الإشتراكية العالمية وظهرت أشكال جديدة من العلاقات الطبقية، وصار الصراع بين الرأسمالية والاشتراكية على النطاق العالمي يؤثر تأثيراً متعاظم الأهمية في العلاقات الطبقية داخل كل بلد.

٣ ـ ازداد تركز رأس المال إلى درجة مذهلة، وتضخمت الاحتكارات العالمية واتسعت سيطرة الشركات متعدّدة الجنسيّات على الاقتصاد العالمي، وصار رأس المال أكثر عالمية وأشدّ جبروتاً وتعاظم دور

البورجوازيات الاحتكارية الكبرى وظهرت البورجوازيات المحليّة التابعة، وتزايد التمايز بين الشرائح البورجوازية المختلفة الأخرى.

٤ ـ قامت الثورة العلمية التقنية أو ما يسمى الثورة الصناعية الذاتية وما رافقها من انتشار أنظمة الأتمته (أي جعل الآلات اوتوماتيكية) والتحكم المركزي (السيبرنيتيك) وتراجع أهمية العمل اليدوي بالمقارنة مع العمل الذهني، وربط الإدارة بالإنتاج، وتزايد دور الفئات البيروقراطية وما يسمى ذوي الياقات البيضاء، مما أدّى إلى ظهور اتجاهات نظرية جديدة في دراسة الطبقات؛ اتجاهات تتلخص في محاولة التقليل من أهمية دور الطبقات العاملة «البروليتاريا» والتأكيد على الدور المتزايد لما يسمى الطبقات المتوسطة، والالحاح على أن الحركية الدائمة في المجتمع (أي سهولة الانتقال من عمل إلى آخر ومن درجة في السلّم الاجتماعي إلى درجة أخرى) تضع المقولة الماركسية الأساسية عن انقسام المجتمع الرأسمالي إلى طبقتين أساسيتين أي إلى بورجوازية وبروليتاريا موضع الشك.

هذا بعض ما يجب أن يأخذه الباحث بعين الاعتبار من الناحية المنهجية النظرية لدى البحث في التركيب الطبقي لمجتمع ما أمّا حين يدور الحديث عن أحد البلدان النامية ومنها الأقطار العربية فلابد من الإشارة إلى صعوبات تطبيقية من نوع آخر.

أولاً ـ ان البحث الاجتماعي في البلدان العربية حديث ولا توجد حتى الآن كوادر كافية من الباحثين لذا بقيت قطاعات اجتماعية عديدة بعيدة عن الدراسة ولا تتوفر عنها معطيات علمية يمكن الركون إلى صحتها، والمعلومات الإحصائية المتوفرة عن بعض القطاعات الاخرى والتي يمكن الحصول عليها من النشرات الإحصائية الرسمية لا تفي بالغرض المطلوب. فالتصنيف المعتمد في بعض المنشورات يختلف عنه في بعضها الآخر. اذ يستخدم الباحثون المختلفون طرائق مختلفة في الحساب والتصنيف. كما أن هذه الطرائق يختلف من فترة إلى اخرى تبعاً للأساس النظري الذي تستند اليه المؤسسات الحكومية في الدراسة، والذي يرتبط إلى حد كبير بطابع السلطة السياسية القائمة.

والعاملون في البلاد العربية يصنفون لا تبعاً لانتمائهم الطبقي بل تبعاً لقطاعات عملهم بالدرجة الأولى، وفي أحسن الأحوال تبعا لمستويات أجورهم، ومعروف أن أفراداً يعملون في قطاع إنتاجي واحد لا ينتمون بالضرورة إلى طبقة اجتماعية واحدة، خصوصاً في بلد لم تلغ فيها الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج.

ففي الزراعة هناك الاقطاعيون السابقون (أوبقاياهم) وهناك ملاك ـ الأراضي الكبار، والفلاحون الأغنياء والمتوسطون، والفقراء والعمال الزراعيون، ولكل من هذه الفئات صفاتها الاجتماعية الخاصة ودورها المتميز في التطور الاجتماعي. وفي الصناعة هناك أصحاب المصانع والمديرون والفنيون، وعمال الإنتاج، والحالة نفسها قائمة في قطاع التجارة والخدمات وغيرها من القطاعات التي يصنف العاملون بحسب توزعهم عليها. كما أن مستوى الأجور لا تحدد وحدة الانتماء الطبقي وبالتالي الدور الاجتماعي الذي تلعبه الفئات الاجتماعية المختلفة. ان غالبية فئات العمل، وصغار المنتجين في المدينة والقرية، وصغار المستخدمين والموظفين، متقاربة من حيث الدخل، الا ان كلا من هذه الفئات تشكل طبقة أو فئة اجتماعية مستقلة تلعب دوراً خاصاً في الإنتاج الاجتماعي وتتمتع بخصائص تميزها عن غيرها من الفئات.

ثانياً: ـ هناك صعوبات موضوعية متعلقة بتعقد الواقع الاجتماعي نفسه وتشابك عناصره. فمستوى التطور الاجتماعي لم يصل إلى مرحلة الفرز الطبقي النهائي، وما تزال الطبقات والفئات الاجتماعية متداخلة، متشابكة الحدود، وما تزال فئات واسعة من السكان «وسيطة» لم يتحدد انتماؤها الطبقي تحديداً نهائياً.

العلاقات الاجتماعية القديمة (العشائرية والاقطاعية) تتلاشى ولكن العلاقات الجديدة (الصناعية) لم تُبنَ بعد. وهذه المرحلة الانتقالية من التطور الاجتماعي في بلداننا ليست مرحلة عارضة مؤقتة بل هي طويلة، والأمر متعلق بالدرجة الاولى بسيادة الإنتاج البضاعي الصغير وعدم كفاية وتائر التطور الصناعي لاستيعاب القوة البشرية المتزايدة المعروضة في سوق العمل. والأقطار العربية في هذا، شأنها شأن أكثرية البلدان النامية التي تحررت حديثاً من الاستعمار، تختلف عن البلدان الرأسمالية المتقدمة في فترة التطور الصناعي. ففي هذه البلدان (الرأسمالية المتقدمة) كان الإنتاج الكبير يتطور على حساب الإنتاج الصغير مما كان يؤدي الى فرز طبقي واضح (تحول صغار المنتجين الى بروليتاريا أو برجوازية) والى إضعاف تأثير الفئات الاجتماعية المرتبطة بالإنتاج الصغير في الحياة الاجتماعية، أما في البلدان العربية وغيرها من البلدان النامية فإن الانتاج الكبير رغم تطوره لا يزيح الانتاج الصغير، بل إن الاحصائيات تشير إلى أن عدد العاملين في قطاعات هذا الإنتاج لا يتناقص بل يتزايد بعض الشيء. وهذا يعني أن أعداداً كبيرة من الناس العاملين ما تزال تعيش أوضاعاً اجتماعية وتلعب أدواراً في الانتاج يصعب معها نسبتها إلى إحدى الطبقات الاجتماعية دون الوقوع في خطأ التعميم البعيد عن الدقة العلمية.

ومن ناحية أخرى لعبت العوامل التاريخية دوراً بارزاً في الإبقاء على التداخل بين الطبقات والفئات الاجتماعية. وفي سهولة الانتقال من طبقة إلى أخرى، فالطبقة البرجوازية الصناعية مثلاً نشأت في معظم الأقطار العربية لامن أوساط الحرفيين والتجار كما كان الأمر في بلدان أوربا الغربية وامريكا الشمالية بل من أوساط الاقطاعيين بالدرجة الاولى.

وهذا يجعل الفصل بين الطبقتين عسيراً في بعض الحالات كما أن العامل الذي يترك قريته للبحث عن العمل في المدينة العربية لا يقطع صلته بالقرية، على عكس ما كان عليه الحال في البلدان الصناعية المتقدمة. وهذا يعني أن أعداداً كبيرة من العاملين تعد أنصاف فلاحين أنصاف عمال، مما يزيد في صعوبة وضع حدود فاصلة بين العمال والفلاحين وحتى بين أبناء المدينة وأبناء الريف.

هذا الواقع يزيد من صعوبة البحث في البنية الطبقية لمجتمعنا، يزيد من صعوبة وضع الحدود بين طبقة وأخرى. غير أن هذا لا يعني بحال من الأحوال، أن الطبقات نفسها بالمعنى الدقيق غير موجودة كما يدعي بعضهم. فإلى جانب التداخل والتشابك بين الطبقات هناك طبقات اجتماعية مستقلة بالمعنى الدقيق. هناك مثلاً طبقة عاملة بكل معنى الكلمة: أناس لا يملكون سوى قوة عملهم يبيعون قوة العمل هذه للرأسماليين أو للقطاع العام ويعملون في المصانع الكبرى والمؤسسات الأخرى المختلفة، إن عمال الشركات العامة للغزل والنسيج في سورية مثلاً، وعمال مصفاتي النفط في حمص وبانياس، وعمال حقول النفط في رميلان، وعمال مصانع السكر والاسمنت وغيرها... هؤلاء جميعاً من أفراد الطبقة العاملة بالمعنى الدقيق بينما توجد أعداد أخرى من العاملين في المؤسسات الصناعية الصغيرة والبناء والحرف المختلفة

والخدمات ممن يمكن عدّهم عمالاً وفلاحين وربما حرفيين في الوقت نفسه.

عندنا توجد طبقة برجوازية بالمعنى الدقيق: أي أناس يمارسون توظيف الرساميل ويتعاملون فقط مع العمل المأجور ويحصلون على الربح أو فائض القيمة، إضافة الى وجود أناس يمارسون نشاطات رأسمالية وإقطاعية أو شبه اقطاعية في الوقت ذاته. ما نود التأكيد عليه هنا هو أن الطبقات الاجتماعية موجودة وأن الفرز بينها يتكامل وإن لم ينته بعد.

ما هي الطبقات الاجتماعية:

لابد إذن من تحديد مفهوم «الطبقات الاجتماعية» والتعرف على الأسس التي سنعتمدها للتمييز بين الطبقات والشرائح الطبقية والفئات الاجتماعية. ربما كان التعريف الأهم للطبقات الاجتماعية، والذي يحدد العلائم الجوهرية التي تميز طبقة اجتماعية عن غيرها، هو ذلك الذي صاغه لينين عام ١٩١٩ في مؤلفه «المبادرة الكبرى».

يقول لينين: «تطلق كلمة «طبقات» على جماعات واسعة من الناس تتميز بعضها عن بعض بالمكان الذي تشغله في نظام للإنتاج الاجتماعي، محدد تاريخياً؛ بعلاقتها (التي غالباً ما تكرس بالقوانين) بوسائل الإنتاج؛ بدورها في التنظيم الاجتماعي للعمل؛ وبالتالي بطرق حصولها على حصصها من الثروة الاجتماعية، وبمقدار هذه الحصص. ان الطبقات هي تلك الجماعات من الناس التي تستطيع إحداها أن تستحوذ على عمل الأخرى بحكم اختلاف المكان الذي يشغله كل منها في قطاع معين من الاقتصاد الاجتماعي». هذه هي العلائم التي يميز لينين على أساسها بين طبقة واخرى، لكن كيف نفهم هذه العلائم، وكيف يمكن أن نستخدمها في فهم واقع متحرك كواقع مجتمعنا العربي.

١ ـ المكان الذي تشغله الطبقة في نظام الإنتاج الاجتماعي:

لنأخذ العلامة الاساسية الأولى والتي هي في الواقع الأصل في التمييز بين الطبقات؛ نميز بين طبقة واخرى بالمكان الذي تشغله في نظام الإنتاج الاجتماعي المحدد تاريخياً. ما المقصود بهذا؟ إن نظام الإنتاج الاجتماعي هو مجمل النظام الاقتصادي الإجتماعي في مجتمع ما. لقد مرت البشرية بعدد من الأنظمة الاجتماعية، المعروف منها: المشاعية البدائية، والرق، والإقطاع، والرأسمالية، والاشتراكية وهناك المراحل الانتقالية بين هذه المجتمعات، هناك ربما ما يسمى نمط الإنتاج الآسيوي، وهناك أنظمة الإنتاج الحالية التي تعيشها بلدان العالم الثالث أوالبلدان النامية، وربما كانت هناك أنظمة إنتاج أخرى مرّ عليها التاريخ ولم يكشف عنها بعد.

كيف نفهم مسألة المكان الذي تشغله الطبقة في نظام الإنتاج الاجتماعي؟ يبدو أن هذه المسألة في غاية الأهمية للتفريق بين طبقة وأخرى ربما تحمل التسمية نفسها مثلا: الطبقة البرجوازية في مجتمع الإقطاع

غيرها في بداية سيطرة الطبقة البرجوازية على السلطة السياسية أي في نهاية مرحلة الانتقال من الإقطاع الى الرأسمالية، وهذه البورجوازية غيرها في نظام الإنتاج الاجتماعي الذي صار مؤسساً على الاحتكار بدلاً من المزاحمة الرأسمالية الحرة. وهذه البرجوازية وتلك غير البرجوازية الوطنية في البلدان المستقلة حديثاً، والبرجوازية الوطنية في البلدان المستقلة حديثاً هي غير البورجوازية التي نشأت بعد الاستقلال بفترة كافية حيث غيّر الرأسمال الأجنبي من أشكال نشاطه، أقصد البرجوازية المحلية التي صارت تمارس نشاطات الوساطة والوكالة والسمسرة للرأسمال الأجنبي.

رغم أن كل هذه الطبقات تسمى بورجوازية ورغم أن كلاً منها يملك رأس المال ويتعامل مع العمل المأجور إلا أن نظام الإنتاج الاجتماعي الذي توجد فيه كل من هذه الطبقات، بمجمل البنية الاقتصادية الاجتماعية للمجتمع الذي توجد فيه هذه الطبقة كما يجعل من كل منها طبقة مختلفة؛ مختلفة في طابعها كطبقة وبالتالي في وعيها الطبقي ثم في علاقتها ببقية الطبقات وبالتالي موقعها في عملية الصراع الطبقي، وسأذكر مثالاً من البرجوازية السورية كوننا نتحدث عن التركيب الطبقي في الأقطار العربية.

ان البرجوازية السورية التي سمّيت البورجوازية الوطنية في بداية الاستقلال قامت ببعض عمليات التصنيع وأنشأت مؤسسات صناعية ومالية هامة، وحرّرت النقد السوري من الارتباط بالفرنك الفرنسي. . . لكنها بسبب ضعفها الاقتصادي وبسبب تداخلها مع طبقة الإقطاع وبسبب أن شرائح منها كانت لها علاقة بالرأسمال الأجنبي، لهذه الأسباب جميعاً لم تستطع البورجوازية السورية أن تحقق ما حققته البرجوازية في أوروبا مثلاً من نقل المجتمع من زراعي إلى صناعي ولم تستطع أن تسيطر على النظام السياسي سيطرة تامة إلّا لفترة محدودة حيث ثبت فشل هذه البورجوازية في تحقيق مهماتها وبالتالي كان لابد من إزاحتها. أما الآن فحينما نبحث فيما يسمى البورجوازية السورية، نجد أنه بسبب إختلاف نظام الإنتاج الاجتماعي وبسبب اختلاف موقع هذه الطبقة في هذا النظام قد اختلفت مميزاتها كطبقة واختلفت علاقاتها مع بقية الطبقات.

إن على الباحث في البنية الطبقية للمجتمع السوري في سبعينات القرن العشرين وثمانيناته أن يتلفت بشكل خاص إلى وكلاء الشركات الأجنبية، إلى السماسرة والوسطاء وأصحاب مكاتب السياحة وبالدرجة الأولى إلى البرجوازية التي تسمّى البورجوازية العقارية (أولئك الذين يتعاملون في شراء البيوت والأراضي والبناء والمضاربة بها) هذه البرجوازية التي هي في حقيقتها طفيلية (أي أنها لا تقوم بأي عمل إنتاجي، وتعيش من المضاربات ومن التوسط للرأسمال الاجنبي)، تختلف اختلافاً كبيراً جداً عن تلك البورجوازية السورية التي نشأت في مطلع الخمسينات، تلك التي حاولت أن تنشىء مصانع وحاولت أن تبني اقتصاداً مستقلاً ولكنها لم تتمكن من أن تنشىء هذا الاقتصاد المستقل وخضعت لسيطرة الرأسمال الأجنبي في كثير من المجالات.

لقد غيّر الرأسمال الأجنبي لبوسه وجاء بأشكال متعددة ونشأت فئات اجتماعية ترتبط بهذه الأشكال الجديدة من النهب الأجنبي، تلك الفئات التي بدأت تتكون مع دخول التكنولوجيا الحديثة مع ما تتطلبه الفروع الجديدة في الانتاج من مديرين وفنيين ومكتبيين. . . الخ هؤلاء الذين صارت لهم حظوه خاصة،

صار لهم مكان خاص في عملية الإنتاج، تجعل منهم طبقة جديدة تحتكر لنفسها قسماً من فائض القيمة، رغم أنها لا تملك رؤوس أموال مباشرة موظفة في الصناعة أو التجارة أو سواهما. وربما كان مناسباً تسمية هذه الطبقة «البرجوازية الجديدة»(٢).

٢ ـ علاقة الطبقة بوسائل الانتاج:

ـ الأساس في علاقة الطبقة بوسائل الانتاج
هو ملكيتها لهذه الوسائل: كونها مالكة أو غير مالكة لوسائل الانتاج. لكن مسألة الملكية هذه ليست وحدها، وخاصة في الظروف الراهنة، المسألة الهامة والمؤثرة.

لنأخذ مثلاً الملكية والاستئجار في الأراضي الزراعية: هل الذي يملك الأرض ولكنه يجلس في بيته ولا يعرف عن العمل في الأرض شيئاً هو المحرك لعملية الإنتاج الزراعي، أم ذلك الذي يستأجر الأرض ويستثمرها؟ الذي يوظف رأس ماله في الآلات وفي تشغيل العمل ويدير الأرض على الطريقة الرأسمالية الحديثة؟ هذا المستأجر يجب أخذه بعين الاعتبار أثناء دراسة البنية الطبقية للريف أكثر من المالك في بعض الحالات. وبهذه المناسبة يمكن ذكر الحقيقة التالية: قبل توزيع أراضي الإصلاح الزراعي في سورية في مناطق مثل الجزيرة (المناطق التي اعتادت على زراعة الحبوب بالدرجة الأولى وبمساحات واسعة) كان هناك مستأجرون يستأجرون الأرض من المالك الأصلي ويستثمرون رأس مالهم في زراعة هذه الأراضي باستخدام الآلات بالدرجة الأولى.

وحينما وزعت الأرض على الفلاحين، لم يعد الفلاح الصغير قادراً على استخدام الأرض بسبب افتقاره للآلات اللازمة وعدم قدرته على استئجار العمال، لذلك صار الفلاحون يؤجرون أراضيهم للمستأجر السابق نفسه أو الجديد كسابقه، حيث صار الرأسمالي يستأجر ما بقي من أرض لدى المالك القديم ويستأجر من الفلاحين الأراضي الموزّعة عليهم وعلاقة الإنسان بالأرض هنا لم تتغيّر كثيراً وعلاقة الإنتاج لم تتغير كثيراً. صار هناك عدد أكبر من المالكين، لكنّ الذي يتصرف بالأرض والذي يستغل فائض القيمة ظلّ في كثير من الحالات هو نفسه المستأجر الرأسمالي، وربما توطدّت هذه العلاقة الرأسمالية في بعض المناطق أكثر مما كانت عليه في السابق بسبب زيادة عدد هؤلاء المستأجرين.

مثال آخر يبين كيف ننظر الى مسألة علاقة الطبقة بوسائل الإنتاج، فيما يسمى الشركات المساهمة هناك مالك الرأسمال الرئيس وهناك المساهمون الذين هم في واقع الامر خاملون كما يقال. ان المالك الكبير (أو المالكين الكبار) هو الذي يتصرف برساميل صغار المساهمين. والاهم هنا في معرفة علاقة الطبقة بوسائل الانتاج هو التصرف وليس الملكية.

والأمر نفسه ينطبق على القطاع العام (أو قطاع الدولة).

إن مجرد نقل الملكية من الافراد الى الدولة (التأميم) ليس دائماً إجراءً اشتراكياً. فمن المعروف أن هناك دولاً رأسمالية تملك مؤسسات ومصارف ومصانع وغيرها. ومع ذلك فإن هذه المؤسسات هي رأسمالية

وليست اشتراكية.

في البلدان النامية القطاع العام يصبح أكثر فأكثر ضرورة ويصبح أكثر فأكثر أهمية في الاقتصاد الوطني ككل، وفي عدد من البلدان العربية يسيطر القطاع العام على جزء كبير من الصناعة وعلى التجارة الخارجية وعلى قسم من التجارة الداخلية.

حينما نبحث في الطبقات المرتبطة بالقطاع العام، لابد من البحث في تلك الجماعات التي تتصرّف بمؤسسات القطاع العام. فحينما تكون هذه الجماعات منبثقة عن الجماهير، جماهير الشعب وجماهير الطبقة العاملة، حينما تكون ممثلة للطبقة العاملة ولا تقوم إلا بدور إدارة مؤسسات القطاع العام لصالح الطبقة العاملة: وقتها يكون هذا القطاع اشتراكياً . . . لابدّ من البحث فيما، إذا كانت هناك جماعات تحتكر بحكم موقعها في نظام الإنتاج بحكم سيطرتها على مؤسسات القطاع العام، تحتكر لنفسها وليس للطبقة العاملة، وليس للمجتمع، جزءاً من فائض القيمة، جزءاً من الأرباح التي يحققها القطاع العام. يجب التساؤل عمّا إذا كانت طبقة جديدة تتكون بالفعل، (بعضهم يسميّها البيروقراطية وبعضهم يسميها البورجوازية البيروقراطية)، هذه الطبقة الجديدة التي تتكوّن يمكن أن نسميها طبقة إذا صارت بالفعل تستغل لنفسها بسبب موقعها في قيادة القطاع العام، جزءاً من أرباح هذا القطاع.

ومرة ثالثة يمكن القول ليس الهام هنا شكل الملكية، من الذي يملك من حيث الشكل القانوني صار اكثر اهمية معرفة من الذي يتصرف بهذه الملكية ولصالح من تدار هذه الملكية. ولا بد من التأكيد بهذا الصدد أنّه في ظروف مجتمعاتنا، أقصد ظروف كل المجتمعات النامية ومجتمعنا العربي خاصة حيث الطبقة العاملة ضعيفة ومشتتة وحيث تتداخل الطبقات والفئات الاجتماعية وحيث الوعي الطبقي مايزال محدوداً، في هذه الظروف وفي إطار منظومة القيم الاجتماعية التي كرسها التاريخ في بلادنا تصبح هذه الفئة بالذات (البيروقراطية) اكثر الفئات تجانساً وتماسكاً ووعياً لمصالحها، وتصبح الاكثر حيوية في فرض هيمنتها الاقتصادية والسياسية.

ان الطابع الحقيقي لملكية الدولة يتوقف بالدرجة الاولى على العلاقات الفعلية القائمة بين جماهير العمال وبقية المنتجين من جهة وبين جهاز الدولة من جهة أخرى. فاذا كان العاملون المنتجون يسيطرون حقاً وفعلاً على جهاز الدولة فان ملكية الدولة في هذه الحالة هي الشكل القانوني للملكية الاجتماعية للعمال أو مايسمى الملكية الاشتراكية، أما اذا لم يكن العمال يسيطرون على جهاز الدولة وكان هذا الجهاز تحت سيطرة مجموعة من الموظفين والاداريين، واذا كان يفلت من مراقبة جماهير العاملين وقيادتهم وتوجيههم فهذا يعني أن هؤلاء الموظفين والاداريين قد أصبحوا بالفعل مالكين او بكلمة أدق متصرفين بوسائل الانتاج، وصارت هذه المجموعة تؤلف طبقة اجتماعية مستقلة بفعل العلاقات القائمة بينها وبين وسائل الانتاج من جهة وبينها وبين العمال من جهة أخرى. ونعتقد أن هذا الوضع لايستلزم بالضرورة ان يستهلك افراد هذه الطبقة فائض المنتوج بل يكفي انهم يتصرفون به بما يخدم مصالحهم (المادية والايديولوجية) وهنا تكمن الخطورة في قدرة هذه الفئة على فسح المجال أمام اتجاهات تنموية غير مرغوب فيها كادخال الشركات الاحتكارية الكبرى في أسواق البلاد، وتنمية القطاعات الاستهلاكية الثانوية على حساب القطاعات الاساسية. ان

من مصلحة هذه الفئة تكريس مثل هذه الاتجاهات في التنمية التي هي في الواقع ليست موضوعة في خدمة التقدم الاجتماعي ولا في خدمة الطبقة العاملة وانما موضوعة في خدمتها هي كفئة اجتماعية تتكون ولها مصالحها الخاصة.

٣ ـ دور الطبقة في التنظيم الاجتماعي للعمل:

ان مكان الطبقة في نظام الانتاج الاجتماعي، وعلاقتها بوسائل الانتاج يحددان دورها في التنظيم الاجتماعي للعمل، فالطبقات المالكة لوسائل الانتاج هي التي تنظم العمل وتلعب بالتالي الدور القيادي في الانتاج، بينما يخضع المحرومون من وسائل الانتاج للاوامر ويلعبون دور المنفذ.

غير أن ادارة العمل وتنظيمه لاتعتمد على مالكي وسائل الانتاج والمتصرفين بها وحدهم بل يشارك في هذه العملية الاداريون والفنيون والتقنيون. ودون الدخول في المناقشة الدائرة حول وضع هؤلاء الفنيين والاداريين نشير الى أن قيام هؤلاء بجزء من عملية تنظيم العمل هو من أهم مايميزهم عن أفراد الطبقة العاملة. ان المهندسين في المصانع على سبيل المثال يسهمون في انتاج فائض القيمة، وهذا الإسهام يتزايد مع التقدم العلمي التقني وهم من هذه الناحية يشغلون في عملية الانتاج الموقع ذاته الذي يشغله العمال. غير أن المهندسين يلعبون في الوقت نفسه دور ادارة عملية الانتاج ومراقبتها ويشاركون في نظام الضبط، ويحتكرون «المعرفة» في تنظيم العمل. وبهذا الدور يتميزون عن العمال. ان مسألة الفرق بين «العمل الذهني» و «العمل اليدوي» تندرج هنا في اطار الدور المتفاوت في التنظيم الاجتماعي للعمل. فأصحاب «العمل الذهني» يملكون السلطة على العمل ويديرون عملية الانتاج من خلال احتكارهم للمعرفة.

ويتزايد دور الفنيين والاداريين مع تقدم المعارف العلمية ـ التقنية ويتزايد دور العلم كعنصر مباشر في عملية الانتاج. ان اشارة ماركس القائلة ان «العلم يميل الى ان يكون جزءاً امن القوى المنتجة» تصبح الآن اكثر فأكثر تحققا في الواقع العملي، وبالتالي تصبح مساهمة التقنيين والمهندسين العاملين في الانتاج المادي، في انتاج فائض القيمة، اكبر فأكبر، كما يصبح دورهم في التحكم بالعملية الانتاجية وتنظيمها أعظم فأعظم. ولكن لابد هنا من الانتباه الى عدم المبالغة في هذا الدور كما يفعل بعض علماء الاجتماع المعاصرين (آرون، دارندروف. . .) الذين يصورون الامر وكأن السيطرة على العملية الانتاجية انتقلت كلياً من أيدي الرأسماليين الى ايدي المديرين والتقنيين.

يجب ان لايقتصر الحديث على المسائل التقنية في عملية العمل بل لابد من البحث في التنظيم العام والاستراتيجية العامة لعملية الانتاج هذه الاستراتيجية التي يبقى وضعها في ايدي مالكي وسائل الانتاج. ومن الواضح مدى ارتباط هذه المسألة بمسألة السيطرة على السلطة السياسية واحتكار ادارة الدولة. ان السؤال عن الطبقة (او الطبقات) التي تقود التنظيم الاجتماعي للعمل، شديد الالتصاق بالسؤال عن الطبقة (او الطبقات) التي تسيطر على السلطة السياسية. وهذا صحيح بوجه خاص في تلك البلدان التي تلعب فيها الدولة الدور الاكبر في تنظيم الانتاج والواقع أن دور الدولة يتعاظم في جميع البلدان النامية،

وهو في بلادنا يصبح اكثر فأكثر اهمية .

هذا لايعني بالطبع عدم وجود طبقات أو فئات اجتماعية تلعب ادواراً قيادية في تنظيم العمل خارج نطاق الدولة فرغم كل التشريعات، ورغم خطط التنمية الاجتماعية - الاقتصادية التي تضعها الدولة تجد الطبقات والفئات المالكة في القطاعات الزراعية والصناعية والتجارية وغيرها ثغرات ومسالك تفرض من خلالها طرائقها في التنظيم الاجتماعي للعمل بما يتلاءم مع مصالحها. وبما أن هذه المصالح ليست دائماً واحدة، وبما أنها لاتتفق في معظم الاحيان مع ماتضعه الدولة من خطط فان التناقضات تتفاقم بين القطاعات المختلفة، وضمن القطاع الواحد، مما يؤدي الى انتشار الفوضى في العملية الانتاجية والى الارتباك والتشتت في الوعي الطبقي للفئات المحرومة التي غالباً ماتختلط عليها الرؤية فلا تتمكن من تحديد مصالحها بالدقة المطلوبة.

ان البحث في الدور الذي تلعبه كل من الطبقات الاجتماعية في التنظيم الاجتماعي للعمل من المسائل الاساسية في دراسة التركيب الطبقي في مجتمعاتنا.

٤ - طريقة الحصول على الدخل ومقداره :

بقيت لدينا العلامة الرابعة والأخيرة للتمييز بين الطبقات الاجتماعية وهي طريقة الحصول على الدخل ومقدار هذا الدخل، ماأهمية هذه العلامة وكيف يمكن ان نطبقها في فهم العلاقات الطبقية في المجتمع العربي؟

هناك خطأ شائع بين الناس وحتى بين بعض الباحثين والمؤلفين مفاده أن هناك طبقة كادحة فقيرة وطبقة غنية وطبقة مستغَلة وطبقة مستغِلة وهذا تقسيم تبسيطي يلغي الفروق الاساسية بين المجموعات الطبقية المختلفة.

ان مقدار الدخل هو بدون شك من العلائم التي تميز الطبقات الاجتماعية احداها عن الاخرى وهو في الوقت نفسه اهم المؤشرات الدالة على الاوضاع المعيشية للطبقات، ومقدار التفاوت في الدخل يعد من أهم الادلة على درجة الاستغلال الطبقي في المجتمع. غير أن بعض الدارسين يبالغ في اهمية هذا المؤشر، بل ينظر اليه، في بعض الحالات، بوصفه المؤشر الوحيد على الانقسام الطبقي والواقع أن عدداً كبيراً من أفراد الطبقات والفئات الاجتماعية المختلفة تحصل على دخول متقاربة بينما يمكن ان يكون دخل أفراد الطبقة الواحدة متفاوتاً الى درجة كبيرة. فالعمال والفلاحون المالكون الصغار وصغار الموظفين والمستخدمون ومعظم الحرفيين واصحاب الحوانيت الصغيرة في بلادنا يحصلون على دخول متقاربة. بينما يمكن ملاحظة فروق قد تصل الى عدة أضعاف بين دخل الرأسماليين الكبار والمتوسطين رغم انتمائهم جميعاً الى الطبقة البرجوازية.

ان درجة التفاوت في الدخل تشير الى مدى الاستغلال الطبقي لكن مجرد التفاوت في الدخل لايكفي للتمييز بين طبقة وأخرى، كما أن تقارب دخل بعض الفئات الاجتماعية لايجعل منها طبقة اجتماعية واحدة.

لنأخذ مثلاً العمال والفلاحين. انهما طبقتان كادحتان منتجتان أساسيتان وتحالفهما يشكل احد اهم شروط نجاح الثورة الاشتراكية، بل والثورة الوطنية الديمقراطية في بلدان العالم الثالث ولكن لدراسة جوهر التركيب الاجتماعي الطبقي، ومايمكن أن تلعبه كل طبقة في كل مرحلة من مراحل النضال الاجتماعي والسياسي، لابد من التمييز بين العمال والفلاحين.

ان الطبقة العاملة هي التي تسير في طريق الثورة الاشتراكية حتى النهاية انها لاتملك شيئاً تخسره في هذه الثورة، وتمسك بيدها المفاتيح الاساسية للاقتصاد الوطني، ويسهل انتشار الوعي الثوري بين أفرادها نتيجة لتجمعهم بأعداد كبيرة في أماكن العمل ونتيجة لتخلصهم من كثير من الاوهام الغيبية ومن تأثير المسوغين التقليديين للاستغلال الطبقي.

بينما يشكل الفلاحون بأعدادهم الضخمة، وحبهم للارض وتمسكهم بها وعفويتهم في رفض كل اجنبي - الاداة الاساسية لثورة التحرر الوطني في مراحلها الاولى وفي النضال من أجل التحولات الاجتماعية في القرية (الاصلاح الزراعي مثلا) أما زجهم في النضال من أجل بناء المجتمع الاشتراكي، المجتمع القائم على الغاء الملكية الخاصة للارض ولجميع وسائل الانتاج الاخرى فلابد أن يكون بقيادة الطبقة العاملة، وهو يحتاج الى كثير من الجهد والصبر والمعاناة، والى الدخول في تجارب قاسية وصعبة، ومهددة بالفشل احياناً لاقناع الفلاحين بجدوى الملكية الجماعية للأرض وأفضليتها.

هذا التمييز بين العمال والفلاحين لايقوم على اساس مقدار الدخل، بل على أساس طريقة الحصول عليه. فالعامل هو الذي يحصل على أجره نقداً، هو الذي يبيع قوة عمله لقاء أجر نقدي (يومي أو أسبوعي أو شهري). . والفلاح هو الذي يعمل بيديه في الارض لقاء حصة من المحصول (أو لقاء المحصول كاملاً اذا كان هو مالك الأرض).

كما أن التمييز بين الشرائح المختلفة للفلاحين أمر لابد منه لدراسة التركيب الطبقي للريف. ان كلمة «فلاح» لاتعني اكثر من مجرد عامل في الأرض. فالشخص الذي يعمل في الأرض (أو يربي المواشي أو الدواجن) يسمى فلاحاً[3]

لكن هناك بين الفلاحين من يملك أراضي واسعة، ويشغل فيها عدداً من العاملين (وان كان يشاركهم في العمل، اذ لو لم يشارك مباشرة في العمل بيديه لفقد صفة الفلاح وانضم الى طبقة الاقطاعيين او الرأسماليين الزراعيين) هناك اذن فلاح يملك ارضاً واسعة لايستطيع استثمارها وحده بل يشغل عدداً من الناس بالاجرة أو بالمحاصصة أو غيرها. وهناك من يعمل في أرضه مع أفراد أسرته دون تشغيل أحد (أي دون استغلال احد) ونسميه فلاحاً، وهناك من يعمل عند المالك الكبير (الاقطاعي أو شبه الاقطاعي أو الفلاح الغني) لقاء حصة بسيطة من المحصول ونسميه فلاحاً ايضاً.

هذه الشرائح من الفلاحين مختلفة بعضها عن بعض ولابد من البحث في أوضاع كل منها على حدة لابد من معرفة أوضاع كل من الفلاحين الاغنياء والمتوسطين والفقراء والفلاحين المحرومين من الأرض، معرفة حجم كل من هذه الشرائح واهميتها ووضعها حتى نتمكن من فهم الفسيفساء الحقيقية لبنية الريف عندنا.

وخلاصة القول انه لايمكن فهم البنية الطبقية الحقيقية للمجتمع، ودور كل من الطبقات والفئات

الاجتماعية، مالم نأخذ بعين الاعتبار مسألة التمييز بين الطبقات الاجتماعية، والشرائح المختلفة لكل طبقة حتى ولو كانت هذه الطبقات تشغل مكاناً واحداً في السلّم الاجتماعي. فلابد مثلاً من التمييز بين العمال والفلاحين وكذلك التفريق بين الشرائح المختلفة للفلاحين ولابد من التمييز بين العمال واشباه العاملين من أولئك الذين تعج بهم أرصفة مدننا كبائعي اليانصيب، وماسحي الأحذية والباعة على الأرصفة والعربات وأصحاب الدكاكين الصغيرة والصغيرة جداً في القرى ممن تعدهم المجموعات الإحصائية ضمن قوة العمل ولكنهم لايمارسون في الواقع أي عمل منتج ويعبرون عن الفيض السكاني النسبي أو البطالة المقنعة، ان هؤلاء من «الكادحين» بدون شك ولكنهم لايلعبون دوراً هاماً سواء في عملية الانتاج الاجتماعي أو في عملية التغير السياسي والاجتماعي، فكيف يمكن أن نجمع هؤلاء في طائفة واحدة مع الطبقة العاملة والفلاحين الكادحين؟

وجود الطبقات والوعي الطبقي:

ان العلائم أو المعايير السابقة التي تحدد وجود الطبقات الاجتماعية وتميز احداها عن الأخرى - استناداً الى تعريف لينين - تتعلق حصراً بالوجود الموضوعي للطبقات، دون التعرض لمسألة الوعي الطبقي ومن ثم مسألة الصراع الطبقي.

والواقع أن هذا الفصل بين الواقع الموضوعي للطبقات الاجتماعية، أي مكانها في البنية الاجتماعية الاقتصادية، ووعيها هو فصل «تعسفي» بمعنى من المعاني، انه فصل تجريدي يهدف الى «تنقية» الظاهرة بقصد تسهيل دراستها. أما في الواقع المشخص، في مجتمع معين تاريخياً فإن وعي الطبقات وصراعها (في المجتمع الطبقي) يشكلان جزءاً لايتجزأ من وجودها ذاته. ان مستوى ما من مستويات الوعي الطبقي وشكلاً ما من أشكال الصراع الطبقي لابد أن يوجدا بمجرد وجود الطبقات.

وعلى الرغم من أن هذه الملاحظات لاتهدف الى التعمق في بحث هذه المسألة النظرية الشائكة - مسألة العلاقة بين وجود الطبقات ووعيها - فلابد مع ذلك من الاشارة الى أن هناك من يفترض ان «وجود أي طبقة من الطبقات في ميدان النضال الاقتصادي، وحده مشكوك فيه» وأن «مفهوم الطبقة يشمل وحدة الممارسات الطبقية - أي «الصراع» الطبقي - أي وحدة العلاقات الاجتماعية باعتبارها انعكاساً لوحدة مستويات مختلفة في الأبنية[4]» ويمكن ايضاح مايرمي اليه أصحاب هذا الاتجاه بالمثالين التاليين من واقع البنية الطبقية في البلدان النامية:

المثال الاول: البرجوازية الوطنية:

على أساس المقاييس الاربعة المذكورة تتميز الطبقة البرجوازية بملكية رأس المال (الصناعي، او التجاري، او العقاري، او المالي) وباستغلالها العمل المأجور واذا استندنا الى هذه المقاييس يمكن تقسيم

البرجوازية الى شرائح بحسب نوع النشاط الاقتصادي الذي تمارسه كالبرجوازية الصناعية والبرجوازية التجارية، والبرجوازية المالية الخ.. كما يمكن تقسيمها الى برجوازية كبرى وبورجوازية متوسطة[*] بحسب حجم رأس المال الموظف ولكن في البلدان المستقلة حديثاً (المستعمرة سابقاً) يمكن تقسيم البرجوازية الى برجوازية وطنية وبرجوازية كمبرادورية. وهنا تدخل في الاعتبار علامة جديدة هي مدى ارتباط مصالح هذه البرجوازية مع مصالح الرأسمال الاجنبي او تناقضها معها وبالتالي المواقف السياسية لشرائح البرجوازية: هل تناضل بحزم ضد السيطرة الاجنبية بكل أشكالها و(بخاصة السيطرة الاقتصادية) فتكون وطنية، أم تتعاون مع الرأسمال الاجنبي، وتسهل له عملية السيطرة، وتشاركه في استغلال شعوب بلدانها فتكون كمبرادورية تابعة.

ولا شك ان المقاييس الموضوعية (الاقتصادية - الاجتماعية) تساعد في التمييز بين هاتين الشريحتين من شرائح البرجوازية: فالبرجوازية الصناعية والمتوسطة تكون عادة وطنية، بينما تكون البرجوازية التجارية والمالية الكبرى كمبرادورية. لكن تداخل رؤوس الأموال وتشابكها في عصر الامبريالية يجعل من العسير أحياناً التمييز بين رؤوس الاموال الوطنية ورؤوس الاموال الملتصقة بالرساميل الاجنبية والمتعاونة معها. وهنا يتدخل مقياس «الوعي» او مايسميه بولانتزاس «العامل الايديولوجي - السياسي» الذي يحدد «موقف» الطبقة (أو الشريحة الطبقية) وبالتالي مكانها في التركيب الطبقي.

المثال الثاني: البرجوازية الصغيرة:

البرجوازية الصغيرة بالمعنى الكلاسيكي (التقليدي) واستناداً الى المقاييس الاقتصادية - الاجتماعية المشار اليها في تعريف لينين هي الطبقة التي تشغل مركز الوسط بين البرجوازية والبروليتاريا والتي تعتبر مستغَلة (بفتح الغين) من قبل الرأسمال من جهة ومستغِلة (بكسر الغين) للعمل المأجور من جهة ثانية، وهي طبقة انتقالية مؤقتة الوجود ينشئها التطور الرأسمالي ويسحقها باستمرار. وهي تتألف من الحرفيين وصغار المنتجين الذين يعملون بأنفسهم وحدهم أو بمشاركة عدد محدود من العمال المأجورين وكذلك أصحاب «الدكاكين» الذين يعملون فيها بأنفسهم وصغار الفلاحين الذين يعملون في أراضيهم الخاصة ومن شابههم.

ولهذه الطبقة عدد من الخصائص الناجمة عن واقعها الموضوعي (كونها مستغَلة ومستغِلة في الوقت نفسه، ولا مصلحة طبقية محددة لها) انها تتذبذب في مواقفها بين البرجوازية والبروليتاريا، وتتشبث بملكيتها الصغيرة تشبثاً كبيراً وتتطلع دائماً للانتقال الى صفوف البرجوازية، وتخاف من الثورة الحقيقية.. الخ.

اخذ بعض الباحثين من هذه الخصائص التي هي خصائص في الوعي مقياساً لانتماء مجموعة واسعة من الناس الى البرجوازية الصغيرة، وصار يعتبر المثقفين عامة (المدنيين والعسكريين) وموظفي الدولة بوجه عام من فئات البرجوازية الصغيرة ان المكان الذي تشغله الفئة الاولى (التقليدية) من البرجوازية الصغيرة في نظام الانتاج الاجتماعي مختلف تماماً عن المكان الذي تشغله الفئة الثانية (الموظفون والمثقفون وغيرهم) ومع

ذلك فالخصائص الطبقية (المميزات السياسية ـ الايديولوجية) واحدة ومن هنا جاء نعت حزب ما بأنه (برجوازي صغير) أو نظام سياسي ما بأنه (برجوازي صغير) لان البرنامج الاجتماعي الاقتصادي للحزب او النظام متردد بين مصالح البرجوازية ومصالح العمال والفلاحين او بين التبعية والاستقلال، لان في هذا البرنامج عناصر اشتراكية وأخرى رأسمالية، لانه (الحزب أو النظام) يفتش عن حلول اصلاحية وليس عن حلول ثورية جذرية.

ومن الباحثين من يضيف علائم أخرى في التمييز بين الطبقات الاجتماعية مثل علامة «المكانة الاجتماعية» التي يشغلها الشخص[٦] يقولون ان زعيم قبيلة، او زعيم طائفة دينية او قائداً أو متنفذاً في حي ربما يلعب دوراً لصالح الطبقات السائدة والمالكة دون ان يكون هو ذاته من الملاك الكبار. كما ان هناك علاقة كبيرة بين الملكية الاقتصادية والمكانة الاجتماعية بحيث تساعد كل منهما على تدعيم الاخرى.

اننا نرى أن أخذ هذه العلائم (المتعلقة بوعي الطبقات وليس بواقعها الموضوعي) بعين الاعتبار أمر ضروري بل وأساسي لدى دراسة البنية الطبقية للمجتمع ولكن يبدو لنا أنه لابد من التمييز بين الواقع الموضوعي للطبقة، ذلك الواقع الذي نستنتجه من المكان الذي تشغله في نظام الانتاج الاجتماعي ووعي الطبقة لذاتها، لمصالحها الطبقية. ان دراسة الواقع الموضوعي للطبقات الاجتماعية هو مدخل لابد منه للانتقال الى دراسة وعيها، ودورها في عملية الصراع الطبقي، ودراسة الفئات او الجهات التي تعبر عن ذلك الوعي، والافكار والايديولوجيات والبرامج التي تعبر عن مصالح الطبقات وتدعو الى تحقيقها.

الهوامش

(١) اشير خاصة الى الباحثين الماركسيين لان مفاهيم «الطبقات الاجتماعية» و «الصراع الطبقي» و «البنية الطبقية للمجتمع» هي من المفاهيم الاساسية للنظرية الاجتماعية الماركسية ولا يمكن لاحد أن يبحث في هذه المسائل دون العودة الى تلك النظرية.

(٢) يستخدم هذا المصطلح د. حليم بركات في كتابه «المجتمع العربي المعاصر» بيروت، ١٩٨٤

(٣) نصرف النظر هنا عن مسألة العمال الزراعيين وانتمائهم الطبقي (هل يعدون من افراد الطبقة العاملة أم من الفلاحين)

(٤) بنكوس بولانتزاس السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية، بيروت، ١٩٨٠ ص ٨٣، ويؤكد بولانتزاس على أهمية العامل السياسي الايديولوجي في تحديد الطبقات كذلك في مؤلفه «الماركسية والطبقات الاجتماعية».

(٥) اما البرجوازية الصغيرة فهي طبقة أخرى متميزة تماماً عن البرجوازية.

(٦) انظر مثلاً: حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بيروت، ١٩٨٤

المعاصرة العربية: معاصرة أم تبعية؟

د. عبد الهادي عبد الرحمن*

اشارة إلى الحالة الراهنة:

يبدو العالم اليوم تحت بركان. حروب صغيرة قائمة لا تتوقف، حروب داخلية مشتعلة، مظاهرات واضطرابات متوالية، صبغت الأرض بصبغة عدم اتزان. حتى البلدان التي بدت لعقود طويلة، وكأنها قد تخلصت من أعبائها العرقية والسياسية، عادت لتتفجر فيها أزمات لم تكن تخطر على بال أقرب المتتبعين، بحكم حدتها وضخامتها وتواليها. فعلى سبيل المثال، تنفجر اضطرابات الأقليات ومظاهرات العمال في الاتحاد السوفييتي والصين وبلغاريا والمجر، أي في دول اشتراكية كانت تتميز باستقرار سياسي استمر عدة عقود. فبدا النظام الاشتراكي اليوم، وكأنه يعاني من طريق مسدود، وبدا أيضاً وكأنه في مأزق ركود، فعليه أن يبني نفسه في ظل حرب دائمة، وصراع ضد جبهة قوية وسيطرة رأسمالية على معظم المواقع. وعليه أن يبني نفسه في ظل بنى اقتصادية مشوهة، وارث تاريخي واستعماري متخلف، أي في ظل تحدٍ هائل، لا تكفي معه (النوايا الطيبة)، ولا البرامج السياسية الطموحة. ولعله من الأمور الاكثر دلالة، أن «يقتطع المعسكر الاشتراكي من ميزانيته السنوية بضع مئات من مليارات الدولارات للانزلاق ـ رغم أنفه ـ في حلقة خبيثة من حلقات عسكرة العالم.

* طبيب من مصر له عدة مؤلفات.

ذلك فالخصائص الطبقية (المميزات السياسية ـ الايديولوجية) واحدة ومن هنا جاء نعت حزب ما بأنه (برجوازي صغير) أو نظام سياسي ما بأنه (برجوازي صغير) لان البرنامج الاجتماعي الاقتصادي للحزب او النظام متردد بين مصالح البرجوازية ومصالح العمال والفلاحين او بين التبعية والاستقلال، لان في هذا البرنامج عناصر اشتراكية وأخرى رأسمالية، لانه (الحزب أو النظام) يفتش عن حلول اصلاحية وليس عن حلول ثورية جذرية.

ومن الباحثين من يضيف علائم أخرى في التمييز بين الطبقات الاجتماعية مثل علامة «المكانة الاجتماعية» التي يشغلها الشخص[٦] يقولون ان زعيم قبيلة، او زعيم طائفة دينية او قائداً أو متنفذاً في حي ربما يلعب دوراً لصالح الطبقات السائدة والمالكة دون ان يكون هو ذاته من الملاك الكبار. كما ان هناك علاقة كبيرة بين الملكية الاقتصادية والمكانة الاجتماعية بحيث تساعد كل منها على تدعيم الاخرى.

اننا نرى أن أخذ هذه العلائم (المتعلقة بوعي الطبقات وليس بواقعها الموضوعي) بعين الاعتبار أمر ضروري بل وأساسي لدى دراسة البنية الطبقية للمجتمع ولكن يبدو لنا أنه لابد من التمييز بين الواقع الموضوعي للطبقة، ذلك الواقع الذي نستنتجه من المكان الذي تشغله في نظام الانتاج الاجتماعي ووعي الطبقة لذاتها، لمصالحها الطبقية. ان دراسة الواقع الموضوعي للطبقات الاجتماعية هو مدخل لابد منه للانتقال الى دراسة وعيها، ودورها في عملية الصراع الطبقي، ودراسة الفئات او الجهات التي تعبر عن ذلك الوعي، والافكار والايديولوجيات والبرامج التي تعبر عن مصالح الطبقات وتدعو الى تحقيقها.

الهوامش

(١) اشير خاصة الى الباحثين الماركسيين لان مفاهيم «الطبقات الاجتماعية» و «الصراع الطبقي» و «البنية الطبقية للمجتمع» هي من المفاهيم الاساسية للنظرية الاجتماعية الماركسية ولا يمكن لاحد أن يبحث في هذه المسائل دون العودة الى تلك النظرية.

(٢) يستخدم هذا المصطلح د. حليم بركات في كتابه «المجتمع العربي المعاصر» بيروت، ١٩٨٤

(٣) نصرف النظر هنا عن مسألة العمال الزراعيين وانتمائهم الطبقي (هل يعدون من افراد الطبقة العاملة أم من الفلاحين)

(٤) بنكوس بولانتزاس السلطة السياسية والطبقات الاجتماعية، بيروت، ١٩٨٠ ص ٨٣، ويؤكد بولانتزاس على أهمية العامل السياسي الايديولوجي في تحديد الطبقات كذلك في مؤلفه «الماركسية والطبقات الاجتماعية».

(٥) اما البرجوازية الصغيرة فهي طبقة أخرى متميزة تماماً عن البرجوازية.

(٦) انظر مثلاً: حليم بركات، المجتمع العربي المعاصر، بيروت، ١٩٨٤

المعاصرة العربية: معاصرة أم تبعية؟

د. عبد الهادي عبد الرحمن*

اشارة إلى الحالة الراهنة:

يبدو العالم اليوم تحت بركان. حروب صغيرة قائمة لا تتوقف، حروب داخلية مشتعلة، مظاهرات واضطرابات متوالية، صبغت الأرض بصبغة عدم اتزان. حتى البلدان التي بدت لعقود طويلة، وكأنها قد تخلصت من أعبائها العرقية والسياسية، عادت لتتفجر فيها أزمات لم تكن تخطر على بال أقرب المتتبعين، بحكم حدتها وضخامتها وتواليها. فعلى سبيل المثال، تنفجر اضطرابات الأقليات ومظاهرات العمال في الاتحاد السوفييتي والصين وبلغاريا والمجر، أي في دول اشتراكية كانت تتميز باستقرار سياسي استمر عدة عقود. فبدا النظام الاشتراكي اليوم، وكأنه يعاني من طريق مسدود، وبدا أيضاً وكأنه في مأزق ركود، فعليه أن يبني نفسه في ظل حرب دائمة، وصراع ضد جبهة قوية وسيطرة رأسمالية على معظم المواقع. وعليه أن يبني نفسه في ظل بنى اقتصادية مشوهة، وارث تاريخي واستعماري متخلف، أي في ظل تحدٍ هائل، لا تكفي معه (النوايا الطيبة)، ولا البرامج السياسية الطموحة. ولعله من الأمور الاكثر دلالة، أن «يقتطع المعسكر الاشتراكي من ميزانيته السنوية بضع مئات من مليارات الدولارات للانزلاق ـ رغم أنفه ـ في حلقة خبيثة من حلقات عسكرة العالم.

---

* طبيب من مصر له عدة مؤلفات.

وبحكم هذه الورطة القسرية، تنزاح أولويات، لتحل محلها أولويات أخرى. فبدلا من الثورة في إطار تحطيم الآخر خطوة بعد أخرى، تصبح الثورة في إطار المصالح الحيوية والأمن الوطني والحدود. والمصالح الحيوية تستدعي التعامل مع قوى معادية للثورة، وقوى رسمية وقوة تدعي الثورة. والمصالح الحيوية تستدعي التدخل العسكري ـ سيء السمعة ـ أحيانا، واستخدام وسائل قد تكون غير مناسبة في (لحظة ثورية) غير مواتية.

اذن، تنتقل الأزمة حادة لتلقي بظلها على العالم كله، فتطول الشرق أيضا، ويتساءل الناس عن جدوى الشعارات إن لم يُوفَّر لهم نمط حياتي يبدو أكثر جاذبية، فالأرض أصبحت كبيت صغير عار حتى من ورقة توت. ولم يعد من السهل أن تقنع الجماهير بأن تتحمل أكثر في ظل حالة من الانتظار قد طالت كثيراً. فالفرد في أوروبا الشرقية لايقارن نفسه بالفرد في بلاد العالم المتخلف، لكنه غالبا ينظر إلى جهة الغرب، إلى جاره التاريخي، والذي حلم بأن يتجاوزه ذات يوم. ولذا نرى ـ كانعكاس لتلك الحالة ـ ماقد يبدو بأنه تراجع أو ركود الثورة على المستوى الدولي. تلك الثورة التي انتعشت مع انتعاش حركات التحرر القومي بعد الحرب الثانية، حيث كانت القوى المتصارعة ترمم البيت، لتعود بعد عقد أو عقدين لتلقي بقبضتها ثانية، وبشكل أكثر ضراوة، على عنق البرجوازيات التي قادت الصراع في أوطانها، بحثا عن موقع أفضل في اطار تقسيم العمل الدولي. لكنها سرعان ماانمجت في بنية النظام الرأسمالي العالمي، وأصبحت توابع من التوابع التي تدور حول مركزه، يحكمها قانون (الجذب ـ الطرد المركزي) ان جاز التعبير ـ أن يقوم المركز بتهيئة البنية الاقتصادية والاجتماعية والمؤسساتية، ومن ثم السياسية لعملية (الجذب ـ الدمج) في اطار محيط لا يستطيع منه فكاما، بحيث يغدو سوقا ومجالا، أو فضاء لاستقبال أزمات ومتناقضات المركز[1]. ويعمل قانون (الطرد) في أن يظل الطرف دائراً في موقع لا يطول فيه المركز أبداً ويظل مؤتمرا بأمره. تدعم هذا القانون أيديولوجيا ـ ترفض ـ كما يقول سمير أمين «البحث عن قوانين عامة تحكم تطور البشر بأجمعهم، حتى تفرض القفزة الرأسمالية، وتحل محلها بناء خرافيا مزدوجاً له جناحان، أولهما الادعاء بأن هناك خصوصيات تخص التاريخ «الغربي» تفسر هذه (المعجزة)، وثانيهما، الادعاء المتكامل بأن خصوصيات جميع المجتمعات الأخرى هي بالتحديد خصوصيات مضادة وعسكية. هكذا قامت هذه الأيديولوجيا بدورها الأساسي في منح المشروعية للتمركز الأوروبي، مفادها أن الرأسمالية كان لابد أن تظهر في أوروبا، ولم يكن من الممكن أن تظهر في مكان آخر، ولها وظيفة تكميلية، مفادها رفض الربط بين عملية تراكم رأس المال من جهة، وبين سمات النظام الحقيقية كنظام عالمي، قائم على استقطاب يضمن ديمومة التناقض بين مركزه وأطرافه من الجهة الأخرى[2]».

ونستطيع القول أن منطقتنا العربية ـ دون استثناء يذكر ـ تعيش في ظل هذا القانون (قانون الدمج ـ الطرد) المركزي. وفي ظل هذا القانون أيضاً غزتنا موجة من عمليات (التحديث)، بدت بحدة بعد الفورة النفطية التي جاءت لتجعلنا أكثر رسوخاً في عملية الدوران في فلك السوق الرأسمالية العالمية. ذلك التحديث الذي تخيل العرب بأن زيادة أرصدتهم في البنوك الدولية كاف لإدخالهم على مشارف العصر الحديث، واللحاق بركب التقدم. لكن مراجعة (الكرنفال النفطي)، يبين الى أي حد وهم هذا التحديث

وشكلية تلك المعاصرة، ويكفي أنهم لا يمتلكون حتى سلطة القرار في تحديد أسعاره، والتحكم في تبادله في السوق الدولية، كأية سلعة أولية أخرى، وبأن دخول العصر أمر يقتضي عوامل أخرى.

المعاصرة العربية:

ان (دخول) العرب العصر الحديث، قد تم في اطار تفاوت تاريخي كبير بينهم وبين الغرب، وهو ليس تفاوتاً زمنياً فقط، بل هو تفاوت في المسافة ايضاً. وهو تفاوت قفزة كبرى، فاجأت بها أوروبا العالم، وهي تحتله بجيوشها وبضائعها وأفكارها. تلك القفزة كانت في حد ذاتها هي مغامرة الغرب الكبرى[3]. وهي مغامرة فرضت نفسها على العالم القديم كله ووضعت عظمة الماضي ومجد الأسلاف تحت السؤال، لأنها لم تطرح أفكاراً فقط، بل طرحت معها امكانيات حضارة متقدمة كاسحة. بسرعة كانت الحياة تتهيأ وتتبدل منذ الحملة الفرنسية على مصر. ولم يمنع مقتل (كلوت بك) الطبيب الفرنسي، على يد طالب في أول كلية تدرس الطب الحديث، من أن يستمر تشريح الجثث (سبب مأساة ذلك الطبيب) وتدريس العلوم الحديثة. وبرز تيار عقلاني يمجد العقل في مواجهة التغني بمجد الآباء.، ذلك التغني الذي كان البديل العاجز عن التغلب على الركود، وولوج الحضارة بكل مكوناتها الاجتماعية والمعرفية والتكنولوجية.

وفي الحقبة النفطية، تمت عملية التحديث (كتكويم) لمنتجات حضارة غربية، دون أن تهتز بنياتنا هزات تكفي لنقلها نقلات كيفية. فقد تم ذلك كاستقبال سلبي دون ابداع حقيقي، ولم يسمح لنا في اطار قانون (الدمج ـ الطرد) المركزي أن نتجاوز وضعنا كنقطة في محيط دائرة تدور حول مركز يمثله الغرب، ويتحكم به لحد كبير.

وهكذا غيرنا مؤسساتنا، وملأناها بأكداس من منتجات غريبة علينا، وأنتجنا ما يحتاجه الآخرون وبالطريقة التي يريدون. ومع انتاج الخامات وشراء المنتجات، لابد أن تقوم صناعات ومنشآت وتوابع ومدارس وجامعات، لكن قاعدتها الأصلية قد أنشئت طبقا لدورة عجلة الاقتصاد الغربي, فعلى سبيل المثال لا تتجاوز معظم صناعاتنا مجال التجميع لقطع صنعت في الخارج (وقد جرى نقل السلع الرأسمالية والخبراء والمصانع كاملة دون أي نقل للمعلومات، وتستورد الدول العربية كميات هائلة من الأسلحة والدبابات والطائرات، وكميات هائلة من المعدات والشاحنات والآلات ومعامل التكرير ومصانع كيماوية وشبكة مواصلات وخبرات.. الخ، وتستورد أكثر من ٥٠٪ من امداداتها الغذائية والملابس. وينصب التركيز في المعاملات مع الشركة الأجنبية على استيراد المنتجات لا المعرفة الفنية[4،5]...).

من هنا.. (إن معظم عمليات استيراد التكنولوجيا تتم في انشاء مشاريع استهلاكية أو خدمية أو في قطاع السياحة والادارة، وتخدم طبقة بورجوازية كومبرادورية تابعة بالضرورة. فالانتاج الصناعي العربي في عام ١٩٨٠ مثلا، لم يتجاوز ٤٪ من اجمالي الانتاج الصناعي العالمي، ٦٪ من الانتاج الصناعي في العالم المتخلف، وبالطبع لايصل مستوى معظم الصناعات الى مستوى الانتاج الكبير)[6].

ان المهمات العاجلة في وطننا العربي كثيرة ومتعددة، وهي ليست مجرد شراء مواد مصنعة وكمبيوتر

وأقمار صناعية، بينما لاتزال بعض البلاد العربية تعاني من الجوع، ومعظمها يعاني من الديون الطائلة، فبرغم ١١١٢ مليارا من الدولارات، هي عائد مبيعاتنا البترولية، خلال عشر سنوات (١٩٧٤ - ١٩٨٣م) أصبحت الديون العربية في نهاية العام نفسه ١٩٨٣م تقدر بنحو ٩٤ مليار دولار، وارتفعت الى ١٥٠ ملياراً في نهاية ١٩٨٦، بما فيها بعض دول الخليج، وفي نهاية عام ١٩٨٤م تجاوز حجم الدين الخارجي بالنسبة الى الصادرات معدل ٢٠٠٪، بالنسبة الى ست دول عربية، بينما انخفض احتياطيها من العملات الصعبة الى حد لايسمح لها بتغطية مستورداتها لأكثر من شهر واحد[٧]. ألا يعني هذا أننا غارقون (لشوشتنا) في مستنقع التبعية؟

الثروة لايمكن أن تكون مجرد ريع أو كنز مرصود، وانما يجب أن تتحول الى قدرات انتاجية ومعرفية حقيقية.

الخروج من المأزق:

أدى تراكم العلمية في القرن العشرين، بالعلم نفسه الى قفزة هائلة. فما كانت تحتاجه البشرية في مئة سنة، يختصره الزمن الآن في عشر سنوات أو أقل. وفي المستقبل سيتضاءل هذا الرقم بكل تأكيد الى عدة أشهر، اذا سار التطور بنفس وتيرته. وهذا تحد كبير لنا، لأن الأمر لاينطبق علينا، ولأن هذه المقاييس تتعلق بالدول المتقدمة، فأكثر من نصف سكان الوطن العربي يعانون الأمية، بينما هي تكاد تكون نسبة صفر في معظم البلدان المتقدمة. وهي أيضاً لاتزيد عن ١٦٪ في دولة الكيان الصهيوني[٨].

فالواقع أننا لانزال الطرف السلبي في نقل المعرفة العلمية، بالكيف وبالحجم الذي يريده الآخرون. ذلك النقل الذي يتم في ظل شروط ارتباطنا بالغرب. ولذا ظلت كل بنيتنا المعرفية هشة، وتحتاج باستمرار الى الدعم، يحاصرها دائما الاستبداد، ومصالح طبقة لاتنظر أبعد من جيوبها. فيظل نظامنا التعليمي والمعرفي نظام تلق وترديد وحفظ. وعليك أن تتلو دون أن تنظر. وينقلب التاريخ راجعا الى الوراء مئات السنين، وتحشى رؤوس الطلاب، كما تحشى بطون الحمير. ويخرج طلاب المدارس العليا والجامعات، وهم لايجيدون حتى قواعد مناقشة منطقية بسيطة، وغالبيتهم يؤمنون بالسحر والشعوذة والدجل بل ان (أساتذة) في الجامعات يحملون لقب (دكتور)، يعالجون أبناءهم عند مرابط أو مشعوذ أو شيخ، ويقاومون بكل رخيص وغال لاثبات كرامات (النصابين) ومعجزات الأولياء الصالحين.

واذا تحدثنا عن سمات الثقافة السائدة، فنحن لانقول شيئاً جديداً، اذا قلنا: إنها ثقافة استهلاكية، تعكس مجتمعات تابعة، تحكمها المضاربات والربح السريع بلا جهد، واختلال القيم، فيصبح الحديث عن الحرية والديمقراطية أو مقاومة القهر والتخلف بلاهة وضرباً من الجنون. وهي ثقافة (فيديو) رخيصة، تدغدغ الغرائز دون أن تثير (أي مستوى) من العمليات العقلية الذهنية. وهي ثقافة اذاعات مسموعة ومرئية، لاتبث الا برامج سلطوية ثم تنهيها بفيلم (كاوبوي) أمريكي. ففي بعض التلفزيونات العربية مثلا، لايتجاوز حجم البث الوطني فيها أكثر من ١٥٪. أما غالبية البرامج، فهي غربية الاسم تافهة

المضمون. بالطبع لسنا ضد الانفتاح على ثقافات الآخرين والأخذ منها، ولكن أية ثقافة؟ وأي احذ؟

نعود فنسأل نفس السؤال لم كل هذا؟ نجيب نفس الاجابة التي طرحناها أول البحث: انها التبعية. والتبعية تقتضي أن نحاكي النموذج الذي نتبعه، نحاكي النموذج الاقتصادي والسياسي، والفكري، لكنها محاكاة الدمية عندما تكون صورة من سيدها الذي يحركها. فلم تتجاوز تلك المحاكاة منطقة الشكل، لأنها في حقيقتها تفتقر الى عمق تاريخي، وقاعدة ماض متنام في اتجاه التقدم والعقلانية، فماضينا ظل راكدا لأكثر من ألف سنة حتى صفعته صدمة الغرب[٩] فبات حاضرنا بعد الصفعة يقلد أو يقاوم، يحده مايجد في تراثه من رصيد هائل من اللاعقلانية. وبهذا الرصيد اللاعقلاني كان يقلد تارة ويقاوم تارة أخرى.

فالتراث العقلاني يستلزم نهضة أو مشروع نهضة وصناعة واكتشافات، ويستلزم ثورة في كل المجالات العلمية والمعرفية والاجتماعية. (واذا عدنا للخلف، حيث كان للعرب دور ما، فإن السياسة آنذاك لم تتطور الى المستوى الذي يسمح بأن تتحول الى تراث يمكن للفكر العقلاني أن يشكل معها توليفة عقلانية سياسية. فقد بقيت السياسة محصورة بارهاصات الامبراطورية الاسلامية، وأشكالاً من الخلافات المذهبية، وضروباً من التآمرية العشائرية والأقوامية، وبعضا من العلاقات والممارسات التي لايمكن أن يطلق عليها الا مملوكية متوسعة. بل ان أهم المحاولات العقلانية في تاريخ الفكر الاسلامي (كالمعتزلة مثلا) قد أثرت القاء في كنف سلطة (المأمون)، وحفرت بذلك قبر العقلانية كموقف عام من الممكن أن يصبح روحا لعصر فيه شيء من الحوار.)[١٠]

مع ذلك كان للصفعة الغربية دور ايجابي في اخراج الفكر العربي، من الاقتصار على العلوم الدينية ومنهج الحفظ والتقديس، الى الانفتاح على العلوم الحديثة، وفتح باب النقد، وظهور تيار عقلاني، بدأ منذ الحملة الفرنسية على مصر ومازال مستمرا حتى الآن في اتجاهات وتيارات متنوعة، وان كان يواجه مقاومة لا عقلانية شرسة، بحكم سيادة تلك اللاعقلانية على كل حياتنا منذ قرون. وبدت تلك اللاعقلانية في تمثل النموذج الغربي باعتباره المخلص والحل الجاهز، دون اعتبار للشروط التاريخية التي عاشها هذا النموذج. لذا نرى هلامية توفيقية انتقائية جاهزة لكل لحظة ولكل موقف. ترتد أحيانا تمجد في تراث لاتعرف محتواه الحقيقي، وتجري للأمام فتمجد في نموذج غريب عليها بحكم تبعيتها القسرية، وتعيش دائما في مأزق ذلك الانقسام العجيب، فالوضعية العربية مضطرة قسراً لدخول العصر، وان كان الدخول يجب أن يتم من باب جانبي، وهي مضطرة قسراً بحكم بنيتها التاريخية والفكرية أن تعود الى موقع معاكس للاتجاه الأول. فتغدو في هذه الحالة توفيقية هلامية انتقائية. وهي وضعية تزيد من أعباء وصعوبات الخروج من تلك الحلقة، لأن التشبث بالماضي وتمجيده يتم في اطار اللهاث وراء نموذج الآخر، أي أنه جري ليس سهلا، انه جري لاهث. فوضعية بعض بلدان شرق آسيا كاليابان وتايوان وسنغافورة وهونج كونج، وهي بلدان تابعة للنظام الرأسمالي العالمي، قد تجاوزت مرحلة الانتقائية والتوفيقية، وكان اندماجها أكثر سهولة، فحققت بعض النجاحات في اطار هذا النظام. لكننا لانريد بعض النجاحات في ظل النظام الرأسمالي العالمي، لأنها ستظل نجاحات في اطار الأزمة العامة لهذا النظام، والتي نعاني نحن من معظم أعراضها.

اذن، هل تقتضي المعاصرة - أي الدخول لعصر التقدم - أن نفك ارتباطنا بماضينا من جهة، وأن

نتخلى عن حالتنا التوفيقية الانتقائية، ونحن نحاول اللحاق بالآخرين من جهة أخرى؟

ان ارتباطنا بماضينا أمر لايمكن فكه بمجرد الرغبة، ولا يمكن الفكاك منه، لأنه جزء منا ـ بحلوه ومره ـ أو كما يقول «أركون» «التراث يمثل تكثيفا وتلخيصا لكل التجارب التاريخية التي عاشها المجتمع والأمة، والتي يتعرف بها المجتمع على نفسه أو يجد نفسه فيها. فينبغي ألا نعارض بشكل ميكانيكي وآلي بين مفهوم التراث ومفهوم الحداثة، اعتقاداً منا ـ والكلام لأركون ـ بأن الحداثة هي التي تمثل وحدها الحركة والنمو والتطور.. وهكذا لا أرى بدءا وجود تضاد وصدام بين ماندعوهم بالأصوليين السلفيين من جهة، وبين الاسلام الحديث من جهة أخرى.. صحيح أن هناك قطيعة تقطع بين هذين التيارين المتمايزين، ولكن ينبغي عليهما أن يتعايشا في نوع من الجدلية والصيرورة الخلاقة داخل نفس المجتمع. ولهذا السبب أرى مايلي ينبغي أن نصغي للتراث وللموتى لأن الموتى يمكن أن يقولوا أشياء نافعة..»[11].

ويقول في موقع آخر «.. فالحداثة في رأيي مفهوم ينتمي لكل الأزمان، وفي كل عصر من العصور التاريخية حداثته. وهناك لحظات قوية في التاريخ، تمثل لحظات الحداثة، انها لحظات الذروة. وأعرف الحداثة بأنها الموقف المتوتر واليقظ الذي تقفه الروح البشرية أمام الواقع والتاريخ الذي يولده البشر في المجتمع أو على هيئة المجتمع. ان مواقف الجاحظ وابن رشد والغزالي وغيرهم تشكل حداثة بالفعل.. لقد كانت الحداثة الفكرية والعقلية متوفرة في ذلك الوقت أكثر مما هي متوافرة اليوم في معظم المجتمعات الاسلامية، ان لم نقل كلها..»[12].

هذا بالنسبة للتعامل مع الماضي، أما الحاضر، فنحن فيه ونعيشه، ولكن وجودنا ينبغي أن يكون دخولا وفتحا عقلانيا من أوسع أبواب العصر. ليس أمامنا، اذن، سوى مواجهة هذا الماضي اللاعقلاني ومحاولة عقلنة تاريخنا باعتباره جزءاً من التاريخ الانساني ككل، ووضعه في لحظته الفعلية من شمولية التاريخ الانساني، والخروج به من دائرة التقديس الى دائرة التمحيص. والتمحيص سينقلنا خطوات في اكتشاف القوانين الفاعلة في حياتنا وتاريخنا الفني والتي ستسهم ـ مع انجازات العصر الحديث المعرفية ـ في اثراء التجربة الانسانية.

أما الفكاك من حلقة التبعية، فهو شرط ضروري لأية نهضة حقيقية، ووقاية من كل الأوبئة التي تصدرها لنا مراكز الرأسمالية العالمية، دون غض النظر عن الانجازات الفعلية التي تسهم بها على المستوى المعرفي والعلمي. الأمر ليس سهلا، ولا تكفيه البرامج الحزبية، ولا الانقلابات الدورية، ولا الشعارات السياسية المذهبية.. الأمر يحتاج لهزة اجتماعية كبرى. وقد يحتاج ثورة بعد ثورة.

---

(١) انظر مثلا تقرير الفريد أثرتون السفير الأمريكي السابق في القاهرة ١٩٨٣ ص ١ ـ ٥، نقلا عن د. سيد غانم مجلة الوحدة. سبتمبر ١٩٨٨ ـ ١٠٩. الرباط المغرب، حيث يقول السفير «.. يبحث بلدانا عن طرق لزيادة الانتاجية في الزراعة والصناعة وتحسين الرعاية الصحية والتعليم وتقوية البنية الاقتصادية التحتية لمصر. ولقد تحرك تمويل الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية لجهود التنمية المصرية من التأكيد على الواردات الأساسية واعادة البناء الى زيادة دعم المشروعات الانتاجية التي توفر فرص عمل.. وتساعد الاعتمادات الأمريكية

سياسة اللامركزية لمصر التي تعطي مزيداً من السيطرة للحكومات المحلية في القرى والمدن والمراكز والمحافظات في كل البلد» ويعلق د. سيد غانم قائلا «وقد تواجدت القروض الأمريكية بشكل محسوس في كل محافظات مصر تقريبا وغرضها تشجيع القطاع الخاص من خلال مساهمة هذا القطاع في الاحلال لمشروعات القطاع العام وخلق وساطة بينه وبين المؤسسات الأمريكية، وتعضيد الاتجاه لبيع بعض وحدات القطاع العام الى القطاع الخاص. والتغلغل في كل المؤسسات المصرية الادارية والأمنية والاجتماعية والعسكرية.. الخ. وقد اتضح أن تكلفة ادارة المعونة الأمريكية أعلى من إنجازها الفعلي من الأرقام التي ذكرت..»

(٢) سمير أمين مجلة الوحدة. ديسمبر ١٩٨٨م. نحو نظرية للثقافة غير أوربية التمركز. ص ١٢٦.

(٣) J.M. Domenach: Approches de la modernité. de Poly technique. PARIS 1988.

(٤) أنظر مطيع المختار. نقل التكنولوجيا. مجلة الوحدة ابريل ١٩٨٩م. ص ٧٧. الرباط المغرب.

(٥) أنطوان زحلان. البعد التكنولوجي للوحدة العربية. مركز دراسات الوحدة العربية. لبنان. بيروت. ط ١ ١٩٨٩م ص ٢٢.

(٦) أنظر مطيع المختار. المرجع السابق. ص ٨١.

(٧) أنظر الحديث مع نيقولا سركيس. مجلة الوحدة ابريل ١٩٨٨م ص ١٢٩.

(٨) احصائيات البنك الدولي لعام ١٩٨٣. أنظر وميض نظمي. مجلة الدراسات العربية لبنان يوليو ١٩٨٥ ص ٢٧. مظاهر التخلف والتقدم.

(٩) انظر سمير أمين في كتابة (التطور اللا متكافىء دراسة في التشكيلات الاجتماعية للرأسمالية المحيطية) ترجمة برهان غليون ط ٤. دار الطليعة. بيروت ١٩٨٥م، حيث يعتبر «أن الطبقة التجارية كانت هي الطبقة الحاكمة والمهيمنة لأن نمط الانتاج الذي كان سائدا تاريخياً كان نمط الانتاج الخراجي وليس الاقطاعي، ولم يكن هذا النمط مكتملا الا في مصر، أما المناطق الأخرى كانت التجارة الخارجية البعيدة والتجارة الداخلية المصدر الوحيد للفائض. وهذا الفائض الناجم عن النشاط التجاري هو الذي أدى الى قيام حضارة امبراطورية في الفترات الأولى من التاريخ العربي. واستطاعت الطبقة التجارية توحيد الوطن العربي رغم تعدديته وأن تخلق الدولة المركزية الواحدة، أي أن الوحدة التي تحققت تاريخيا كانت معتمدة على الاندماج والتعامل التجاري وقدرة الطبقة التجارية تأكيد هيمنتها عربيا. لذلك عندما تعرضت طرق التجارة الخارجية للانقطاع وفقدت الطبقة التجارية سيطرتها وتقلص الفائض من النشاط التجاري، أصيبت الأمة العربية أيضا بالتفكك».

(١١) محمد أركون. الاسلام والتاريخ والحداثة. محاضرة ألقيت في المركز الثقافي الجزائري. باريس يونيو ٨٧ تعريب د. هاشم صالح. مجلة الوحدة يناير ١٩٨٩. ص ١٩.

(١٢) المرجع السابق ص ١٨.

السينما العربية وقضية الحرية

كمال رمزي*

لأن المنطقة العربية ليست قرية معزولة، فإن مشاهدة المتفرج العربي للصور المتحركة بدأت بعد مشاهدة المتفرج الاوروبي بعدة شهور. . ولم تمض عدة سنوات إلا وكانت العروض السينمائية قد عرفت طريقها الى معظم العواصم العربية.

لكن شتان مابين المشاهدتين. . في أوروبا، شاهد المتفرج الفرنسي أفلاماً فرنسية، وشاهد المتفرج الانجليزي أفلاماً انجليزية، وسرعان ماشاهد المتفرج الامريكي أفلاماً امريكية. . أما بالنسبة للمتفرج العربي، فلم يشاهد الا الافلام الاجنبية، المصورة بأجهزة تصوير أجنبية، معروضة بأجهزة عرض أجنبية، وتحمل بالضرورة وجهة نظر أجنبية.

○بحث قدم في ملتقى الابداع الثاني ـ طرابلس ٤ ـ ٦/١١/٨٩

* ناقد سينمائي من مصر.

لقد عرف المواطن العربي السينما كمستهلك وليس منتج . . وعندما اخترعت السينما في أواخر القرن الماضي، كان العالم ينقسم الى مستعمِر ومستعمَر ـ بكسر الميم وفتحها ـ وكانت البلاد العربية، إجمالاً، محتلة من قبل الدول الأوروبية، وبالتالي فإن المنطقة العربية، بصحرائها وجبالها وناسها ومدنها، لم تكن أكثر من خلفية «مثيرة» و «خاصة» في الافلام الاجنبية، ولم تكن أكثر من سوق واسعة . تستثمر فيها تلك السلعة الجديدة.

وطوال مايقرب من أربعة عقود، بعد اختراع السينما عام ١٨٩٥، ظلت السوق العربية، المترامية الاطراف، حكراً على الاجانب، سواء من ناحية التوزيع، أو ملكية دور العرض، أو جنسية الافلام المعروضة، وذلك بسبب عدم وجود أفلام عربية من جهة، وهيمنة جاليات المستعمرين على كافة الانشطة الاقتصادية الهامة من جهة أخرى.

في سوريا، المكبلة بالاستعمار التركي، كانت دور السينما تعرض أفلاماً ألمانية. . فألمانيا هي الحليف لتركيا، فيما قبل الحرب العالمية الاولى. . وفي ليبيا، نتيجة للاحتلال الايطالي، لم تكن دور السينما تعرض سوى الافلام الايطالية. . وفي المغرب وتونس والجزائر، المستعمرات الفرنسية حينذاك، كان للافلام الفرنسية قصب السبق والحضور الدائم في دور العرض. . وفي مصر، حتى بعد استقلالها الشكلي عقب ثورة ١٩١٩، كانت أولوية العروض للافلام الانجليزية، شأنها في هذا شأن العراق، وبقية الدول الواقعة تحت «الحماية» البريطانية.

اذن فالسوق العربية، في مجال السينما، كانت «محتلة» تماماً، لذلك فإن السلطات الاستعمارية، ستعامل، محاولات صنع سينما عربية، معاملة «حركات التحرر». . اي ستضيق عليها الخناق، وتضطهدها، وتتعمد تدميرها، بكل الوسائل. وهذا الموقف يتوافق مع موقف القوى الاستعمارية من كافة الصناعات الوطنية الناشئة. . وفي مرحلة لاحقة، بعد أن استطاعت بعض الدول العربية، أن تقيم صناعة للسينما، وأن تحقق بعض الافلام، تعمدت السلطات الاستعمارية أن تراقب وتتربص بأية أفكار أو مشاعر وطنية قد تتسرب الى هذا الشريط أو ذاك.

* التصورات العربية:

في مرحلة مبكرة، تنبه أصحاب الافلام من المثقفين، الى ضرورة أن تنشأ صناعة للسينما العربية، تواجه، بأفلامها، الافلام التي تقدم فكراً معادياً للعرب من جهة، وتستغل السوق العربية من جهة أخرى.

نشرت مجلة «السمير المصور» المصرية في ٢٢ يناير ١٩٢٢، افتتاحية يقول كاتبها «هل يعرف قرائي الاعزاء أن إحدى شركات التمثيل قد قدمت الى مصر لتمثل عند سفح أهرامات الجيزة رواية خروج بني اسرائيل من مصر. حدث ماكنا نخافه فلطالما اقترح المفكرون على أغنياء الامة أن ينشئوا شركة للتمثيل السينماتوغرافي في مصر فلم يعرهم أحد أذناً صاغية. . إن في مصر أكثر من خمسين سينما وجميعها أجنبية بلا

استثناء والدخل الاسبوعي لكل واحدة لايقل عن ٦٠ جنيها ولو أننا مثلنا رواية عرضناها في سيناتوغرافات مصر لأتت بضعف نفقاتها»[١].

وبما يلفت النظر في هذه الافتتاحية أنها تحدثت عن طلعت حرب، الذي أسس فيما بعد «شركة مصر للتمثيل والسينما» ١٩٢٥، فقالت «ألم يكن أجدر بطلعت بك حرب أن يقوم بهذا المشروع الجليل بدلا من إنشاء تياترو حديقة الازبكية الذي يشاهد رواياته أناس معدودون».

وفي الوقت ذاته، مع مطالع العشرينات نشرت جريدة «العراق» البغدادية مقالا افتتاحياً جاء فيه «.. والسينما من الصناعات التي يجب أن تعاضد وتشجع لأنها صناعات وطنية، هذا فضلاً عن لزومها لثقافة البلد وتعليمه»[٢].

إذن فقد كان هناك وعيٌ ناضجٌ، مبكرٌ، بأهمية السينما، كصناعة وطنية، وكفكر وثقافة، تحتاجها البلاد.

*** تدمير المحاولات الاولى:**

رعاية المولود في سنواته الاولى أمر بالغ الحيوية، فهي السنوات التي يتكون فيها الاساس الجسماني والنفسي والعقلي للوليد.

هذا القانون الطبيعي ينطبق أيضاً على أية صناعة، فإذا لم تتلق الرعاية فإنها ستنشأ هزيلة، ضعيفة، مريضة.. وقد يتوقف نموها.. وربما تعرضت للموت.

في أوروبا والولايات المتحدة الامريكية، أحيطت السينما، منذ مولدها، برعاية هائلة: كرست لها رؤوس الأموال الكبيرة.. أنشئت من أجلها المصانع والمعامل والاستوديوهات ودور العرض.. عمل في مجالها المخترعون والمثقفون والفنانون.. أحيطت بقوانين تحميها وتحمي العاملين في حقلها.. فتحت لها الاسواق الواسعة في ربوع الدنيا.. والأهم أنها نهضت في أجواء من الحرية، شجعت الطاقات الابداعية على الانطلاق.

أما السينما العربية فقد ولدت في مناخ خانق: رؤوس أموال محدودة للغاية، إلى الدرجة التي تقرأ معها مراراً في أية مراجعة لتاريخ السينما العربية، أن هذا الفيلم أو ذاك، لم يستكمل، لأنه لم يجد من يتكفل بالصرف على مراحله الأخيرة.. الاعتماد على أجهزة ومعدات بدائية تماما.. حصار شديد على عرض الافلام، حتى داخل السوق المحلية حيث يمتلك الاجانب دور العرض.. والأخطر، أن السلطات الاستعمارية اتخذت موقفاً متعنتاً بالغ الشراسة، ليس ضد أية أفكار أو مشاعر تحررية في الأفلام فحسب، ولكن ضد أية محاولة لصناعة السينما، بصرف النظر عن اتجاه أفلامها.

فمثلاً، رفضت السلطات الاستعمارية الفرنسية عرض أول فيلم، «المتهم البريء» الذي أخرجه أيوب بدري ١٩٢٨، بحجة مفتعلة، هي قيام فتاة مسلمة بدور البطولة الامر الذي لايتوافق مع تعاليم الدين؟!.. وأجبر صانع الفيلم في إعادة تصوير جميع المشاهد التي تظهر فيها الفتاة العربية بعد استبدالها

بفتاة ألمانية، وبالتالي تكلف «المتهم البريء»، الذي أسهم فيه الشباب بكل مايملكون، تكاليف باهظة، لم يستطع سوق الفيلم المحدود أن يغطيها مما أدى الى خسائر فادحة.

ومرة أخرى، تعمل السلطات ذاتها على إفشال عرض الفيلم السوري الثاني «تحت سماء دمشق» لاسماعيل آنزور ١٩٣٢، بإدعاء أن أصحابه لم يدفعوا حق «الأداء العلني» للمقطوعات الموسيقية المسجلة على «فوتوغراف»، والتي تصاحب عرض الفيلم.. وقررت السلطات استمرار إيقاف عرض الفيلم، إلا اذا دفعت الشركة الصغيرة المنتجة له، مبلغاً من المال، تعمدت أن يكون ضعف تكاليف الفيلم كله.

بهذه الاساليب المراوغة، عملت السلطات الاستعمارية، بلا كلل، على تدمير صناعة السينما الوليدة وإيقاف نموها.. وفعلاً نجحت فيما تسعى إليه، فقد توقفت محاولة صنع الافلام في سوريا، لمدة خمس سنوات قادمة.

هذا عن السينما كصناعة.. أما عن السينما كفكر وكموقف، فإن تجربة الرائد السوري - نور الدين رمضان - الذي يذكرنا في فهمه العميق لدور السينما الوطني بالرائد المصري محمد بيومي، تعطينا صورة واضحة، تقليدية، لكيفية إحباط محاولة رصد الوقائع ذات المغزى التحرري عن طريق السينما.. سجل نور الدين رمضان اجتماعات أول مجلس نيابي في سوريا عام ١٩٣٢، فضلاً عن المظاهرات والاضرابات التي عمت البلاد ضد الاحتلال. وكان عليه، طبقاً للقانون، أن يحمل أفلامه، قبل عرضها، الى بيروت، ليحصل من «لجنة المراقبة الفرنسية» على الموافقة بعرضها.. وبتعسف، قامت «المراقبة» ببتر ثلاثة أرباع الاشرطة المصورة، مما أدى إلى أن تصبح بلا معنى، وبالتالي وضعت نهاية سريعة لهذه البداية الوطنية الشجاعة، التي كان من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن تستمر في ظل هذه الظروف الخانقة.

وبهدف الوقاية من ظهور أية سينما وطنية، أصدرت السلطات الفرنسية قانونا، يسري على بلدان المغرب العربي، يقضي بضرورة أن يحصل أي شخص يريد أن يعمل في مجال السينما، على موافقة مسبقة من الدوائر الاستعمارية. وبهذا تضمن سلطات الاحتلال عدم تسلل الوطنيين الى حقل السينما.

وتعرضت الافلام المصرية، منذ عقدها الاول، إلى رقابة وحشية، بالغة العنف، وصلت إلى حد مصادرة فيلم «الخطيب رقم ١٣» لمحمد بيومي بإدعاء أنه يسيء لسمعة مصر، ذلك أنه «يحتوي على مشاهد تقدم فيها الملوخية الخضراء كطعام من أطعمة المصريين إلى جانب ظهور الحلة والطبلية»[٣].

وتحت شعار «الاساءة لسمعة مصر في الخارج»، ستتعرض، لاحقا، العديد من الافلام، ذات النزعة الواقعية، النقدية، الى المنع والمصادرة.

وعندما أخرج محمد كريم «أولاد الذوات» عام ١٩٣٢، عن مسرحية ليوسف وهبي تحمل نفس الاسم، غضبت الجاليات الاجنبية غضباً شديداً، ذلك أن الفيلم تضمن شخصية امرأة فرنسية يهرب معها بطل الفيلم إلى بلادها، وهناك يكتشف خيانتها له، فيندم، ويعود إلى وطنه منكسراً، محطماً، بعد أن أدرك المسافة التي تفصل بين قيمه وتقاليده العربية، وقيم وتقاليد المجتمع الأوروبي.

وبروح عدائية، كتبت جريدة «لابورص»، التي يصدرها الأجانب في مصر تقول «إذا تركنا الوجهة الفنية التي عليها الفيلم - أولاد الذوات - وهي تعد قديمة مضحكة، فنحن نجد أن هذا الفيلم على مثال

روسيا الشيوعية التي تترك الفن للفن وتقصد الدعاية، فقد أرادوا أن يروجوا الدعوة لدى المصريين لكراهية المرأة الأوروبية . . فمثلوها تخرب البيوت وتقود الرجل، ضحيتها، الى الدمار، وإلى الجريمة»[٤].

وعلى الرغم من أن الجرائد الوطنية، في تلك الفترة، تحدثت مراراً، عن الصورة المشوهة التي يظهر بها العربي، في الافلام الاجنبية، فإن «لابورص» تقول «لو أنهم في أوروبا مثلوا عصابة يبدو فيها شاب مصري لايتحرج من خداع امرأة ويقودها الى بلائها فإن الناس هنا يصرخون ويضجون من أن الفيلم ينطوي على الحقد ولكن مامن أوروبي صنع ذلك الفيلم فكيف يخرجون فيلماً كهذا مبنياً على التعصب دون أن يكون على شيء من الفن»[٥].

وتصدت الصحافة الوطنية لمقالة «لابورص»، واندلعت معركة دخلتها العديد من الجرائد والمجلات . . وسرعان ما انتقلت المعركة من ساحة الصحافة الى قلب وزارة الداخلية، فقد قدم الاجانب شكواهم إلى الاجهزة والادارات التي تملك سلطة المنع والتصريح وتكونت لجنة برئاسة المستر «غرايفز»، الضابط الانجليزي الكبير، للحكم على مدى صلاحية عرض الفيلم . . وعلى الرغم من أن اللجنة قضت بأن «أولاد الذوات» ليس فيه مايستحق المؤاخذة، إلا أن وزارة الداخلية أوقفت عرض الفيلم، إما متطوعة، وإما تنفيذاً لاوامر من جهة ما . . لكن الفيلم، نتيجة لضغط الصحافة الوطنية، واهتمام الجمهور به، عاد ليعرض من جديد.

ولعلك تلاحظ، في مقال «لابورص»، نغمة الابتزاز الواضحة، ومحاولة استعداء السلطات بوصف الفيلم بأنه «على مثال أفلام روسيا الشيوعية» وهو اتهام تدرك الصحيفة جيداً مدى إثارته لحفيظة السلطات المصرية، الملكية، والبريطانية، الاستعمارية، خاصة بعد اعتقال ومحاكمة أعضاء الحركة الشيوعية عام ١٩٢٦ . . وعموماً فإن هذا الاتهام، من الآن فصاعداً، سيصبح سيفاً مسلطاً على أية أفلام ذات نزعة اجتماعية.

*** الابداع المكبل في ظل انتفاء الحرية:**

المسافة بين الخاطر الشعري وكتابة القصيدة مسافة مرهونة بإرادة الشاعر وطاقته . . فالابداع الشعري، في النهاية، إبداع فردي خالص.

ويسيطر الرسام على أدوات إنتاجه تماماً: الفرشاة، الالوان، قطعة القماش . . وبحرية كاملة يستطيع أن يحول أفكاره ومشاعره الى خطوط ومساحات على اللوحة.

وإذا كان من الممكن للشاعر أن يلقى قصيدته، على مستمعين، فإنه من الممكن أيضاً، أن يعرض الرسام لوحته، في أي مكان، على مشاهدين.

ويختلف الامر تماماً بالنسبة للسينمائي . سواء من ناحية الابداع، أو من ناحية أدوات الانتاج . .

السينما إبداع جماعي، يشارك فيه كاتب السيناريو والمخرج والمصور والممثلون والمونتير وواضع الموسيقى التصويرية ومصمم الديكور ومهندس الصوت.

وتحقيق الفيلم السينمائي يتطلب رأس مال واستوديو وأجهزة تصوير ومعامل . . وإيصال الفيلم للمتفرجين يستلزم موافقة الرقابة ثم وجود دار للعرض.

لذلك فإن مصادرة فيلم سينمائي يعد كارثة اقتصادية لاتقاس بمنع قصيدة أو التحفظ على لوحة - وهو أمر نادر الحدوث في الحالة الثانية، ويساعد على ترويج وانتشار القصيدة في الحالة الاولى - كما يعد هدراً لجهد جماعي كبير، وبالتالي فمن المنطقي، خاصة في الاجواء الخانقة التي نشأ فيها الفيلم العربي، أن يكبل السينمائي طاقته الابداعية، وأن ينطلق بها في حدود المسموح، وأن يفرض على نفسه إما رقابة تلقائية، ذاتية، تتم أثناء عملية الخلق، وإما أن يضيف ويحذف، أثناء الانتقال من مرحلة لاخرى، كأن يغير من نهاية السيناريو، أو يضيف جملة تنص على أن هذه الاحداث دارت في الماضي، أو في مكان بعيد، أو أن الشخصيات التي ستظهر في الفيلم لاعلاقة لها بأية شخصيات موجودة في المجتمع . . أو أن يحذف في أثناء «المونتاج» ذلك المشهد أو تلك اللقطة . .

وعلى الرغم من أن الابداع السينمائي العربي، اتسم في معظم الاحيان، بالحذر، سواء، من ناحية المضمون حيث يراعى دائماً عدم إغضاب السلطات والطبقات العليا، أو من ناحية الشكل التقليدي الذي يعتمد عادة على الانماط المتوارثة، دون تجديد حقيقي . . فإن الرقابة، الذاتية والرسمية، وقفت بالمرصاد ضد أية بادرة للخروج من الاطر الضيقة، المسموح بها. فلننظر الى المثل التالي.

*** «لاشين» . . رأس الذئب الطائر:**

تحدد معظم المصادر تاريخ عرض «لاشين» الذي انتجه ستوديو مصر، بأوائل العام ١٩٣٨، وتتفق على أنه أوقف بعد يومين من عرضه . . ولكنها تختلف فيما حدث بعد الايقاف، فبينما يذكر جلال الشرقاوي، في «تاريخ السينما المصري»، «أن طلعت حرب، بعد إيقاف الفيلم، تقدم الى البلاط الملكي، واستطاع إلغاء قرار المصادرة»، ملتقياً في هذا نسبياً، مع ماجاء في «تاريخ السينما المصرية» لالهامي حسن، بخصوص «تدخل طلعت حرب الذي قام بمساع كبيرة . . وأخيراً وافق رئيس مجلس الوزراء، محمد محمود باشا على عرض الفيلم . . فإن المخرج، المؤرخ السينمائي، أحمد كامل مرسي، يقول بحسم في «الموسوعة السينمائية» أن «لاشين» هو «أول فيلم مصري صادرته الرقابة، بعد عرضه بيومين، ولم تصرح بعرضه بعد ذلك» . . وجاء في كتاب «حكايات من تاريخ السينما» الذي كتبه حسين عثمان، أن الفيلم نتيجة «لوساطات وشفاعات أجيز عرضه بعد أن أكل مقص الرقيب معظمه ولم يترك منه سوى بضعة مشاهد مفككة فأصبح كعظام الدجاجة بعد التهامها:

وبينما يدعى حسن عثمان أن الفيلم «سقط بطبيعة الحال»، يزعم الهامي حسن أنه، بعد إعادة عرضه، «حقق نجاحاً كبيراً».

وبعيداً عن التحقيق في مدى صحة هذه الكتابات المتباينة، والمتضاربة، يمكننا - الآن - أن نقارن بين السيناريو الموجود بين أيدينا - وجدته ملقىً بإهمال، ضمن مئات السيناريوهات الهامة، في حجرة رطبة

مظلمة، من حجرات المركز القومي للثقافة السينمائية ـ ونسخة الفيلم المسجلة على شريط فيديو، والمنقولة حديثاً عن الفليم الاصلي، قبل أية حذوفات لاحقة، لنتبين دور «الرقابة الذاتية»، التي دفعت بصناع الفيلم في أثناء تنفيذه، الى تغيير نهاية السيناريو، ذات الدلالة البالغة الجرأة، واستبدالها بنهاية أخرى، أقل «خطورة» وإن كانت أقل صدقاً.. كما يمكننا أن ندرك الاسباب التي دفعت بالسلطات الحاكمة الى مصادرة الفليم، بالرغم من نهايته «المحافظة»، التي تختلف عن نهاية السيناريو.

يتطابق الفيلم مع السيناريو: كلاهما يبدأ بجملة مكتوبة على الشاشة تقول «تدور احداث هذه القصة في حوالي القرن الثاني عشر».

ويطالعنا في المشاهد الاولى الفلكي والعلامة باتاني ـ منسي فهمي ـ ممتطياً صهوة جواده، يسير وسط جموع الناس التي يكتظ بها أحد الاسواق العامرة بكافة المأكولات، معلناً، بصوت يمتلىء بالثقة، النبوءة التالي: ياإخوانا، ياأهل البلد. امسكوا أيديكم. هايجلكم وقت تندموا فيه على اللي ضاع منكم. النيل مش حيفيض. الترع حتنشف. الارض حتجف. حتجوعوا. افتحوا عينيكم والا حتحصل ثورة تهز أركان البلد.

وعلى الفور، يقوم أعوان أحد وزراء السلطان الاشرار، بإبلاغ سيده، فؤاد الرشيدي ـ الوزير كنجر ـ بما يقوله باتاني. ويسرع كنجر بابلاغ السلطان نفسه ـ حسين رياض ـ الذي يصدر أوامره بالقبض على باتاني الذي نشهد رأسه مدلاة من أحد أبراج القلعة.

ويتحدث الناس عن عدل ونزاهة وشجاعة القائد لاشين، حسن عزت ـ الذي انتصر على الاعداء، والذي ينتظرونه، بالاعلام والزينات، احتفالاً بعودته المظفرة من ميدان القتال.

وفي قصر السلطان تظهر الدسائس والمؤامرات بوضوح، فنظرات كنجر الخائن، الذي سنعرف لاحقاً انه يتعاون مع المغول، ترشق لاشين بكراهية وحقد، بينما السلطان يثني على شجاعة قائدة المنتصر، والذي يهدي للسلطان سيف القائد المهزوم وقلنسوته.

ويسير الفيلم، بعد هذه المقدمات في اتجاهين: أحدهما يتعرض الى حالة الجماهير في الشوارع والاسواق، والتي تزداد تدهوراً، والآخر يتوغل في أحراش القصر حيث السلطان اللاهي مع حريمه من جهة، وكنجر الخائن يواصل مؤامراته من جهة أخرى.

وبمهارة، يعبر نيازي مصطفى ـ المونتير أيامها ـ بمشاهد قصيرة، ذات قطعات حادة، عن المجاعة التي بدأت تعم البلاد.. ويجسد الفيلم، من خلال المجاميع الضخمة، بوجوهها المنهكة، أثر العناء الذي تعرضت له، وهي تهرب من الاقاليم البعيدة، قادمة الى القاهرة.

ويدور، داخل القصر، حوار بديع، بالغ الوعي، كتبه أحمد رامي، معبراً فيه عن وجهتي نظر متعارضتين في أسلوب الحكم.. طرف منها يأتي على لسان الخائن، المتآمر، كنجر الذي يقول: أرى أن نقسو على هؤلاء الفلاحين النازحين الى القاهرة وأن نظهر لهم بأس السلطان وقوته.. إن الشيء الوحيد الذي يهابه شعب متمرد هو البطش الشديد. ولايستتب الامن في البلاد إلا بإرسال قوة كاملة العدد من جنودكم المخلصين لتشتيت الجماهير الثائرة.

ويرد لاشين بوجهة نظر مناقضة تماماً: إن هذه الوسيلة المقترحة ليست معقولة بالمرة. إن الشعب المتألم ينتظر من مولاه أن يناصره في نكبته.. فإذا بدأنا باستعمال القوة دفعناه الى الثورة. الشعب يضج الآن من الجوع واليأس فالاوفق أن نوزع عليهم بالطريقة المثلى مايزيد من المؤونة من مخازن الاطعمة. وفي هذه الاثناء يحاول وزراء جلالتكم أن يحصلوا على مؤن أخرى من الخارج.

ويصدر السلطان الاوامر التالية: ليخرج لاشين المحبوب من الشعب على رأس فرقة من الجند للاشراف على الحال ومنع الشعب من الهياج.. وعلى كنجر القيام بتوزيع القدر المعقول من الغذاء وهذا كفيل بتخفيف المجاعة وعليه أن يرسل سرباً من الحمام الى حكام سوريا وفلسطين لكي يرسلوا لنا الفائض عن حاجتهم من المؤن.. وبينما ينصرف السلطان الى حريمه يتعمد كنجر عدم توزيع الاطعمة على الجائعين، مما يؤدي الى غضب الجماهير.

ولم يقدم الفيلم الشعب على أنه مجرد كتلة صماء، بلا عقل أو إرادة، فمن وسط الجموع تنهض شخصية يوسف الفلاح ـ تمثيل أحمد البيه ـ وهو بمثابة القائد الشعبي.. شاهدناه في البداية، يشد أزر الناس لمواصلة السير الى العاصمة، وشاهدناه وهو يفض المشاجرات، ويحاول منع الجماهير من اقتحام المتاجر والمحلات، وها هو يقف حائلاً بين الجنود الرافعين سيوفهم ومجموعة من الجوعى الثائرين وبصوت يأتي من أعماق قلبه، يصرخ قائلاً: لا.. حرام عليكم. ماتستعملوش القوة مع اللي بيموتوا من الجوع. دول اللي كانوا بيتعبوا روحهم علشان تاكلوا وتعيشوا ودلوقت ماحدش سائل عنهم حتى السلطان.

وينجح الخائن كنجر في الوقيعة بين السلطان ولاشين.. ويزج صاحب السلطة المطلقة بقائده في السجن، وتغضب الجماهير، خاصة عندما تعثر على رسالة تحت جناح حمامة، مرسلة من كنجر الى قائد المغول.. وتتوجه الجموع الى قصر السلطان.. وهنا يختلف الفيلم عن السيناريو.

في السيناريو تهتف الجماهير، بقيادة يوسف الفلاح: يسقط كنجر الخائن.. عايزين نقابل السلطان. يحيى لاشين.. ويدرك السلطان أن كنجر كان يخدعه عندما أوهمه أن الثورة ضده شخصياً ـ ضد السلطان ـ وأنها تطالب بتنصيب لاشين سلطاناً، ويقرر الافراج عن لاشين، لكن كنجر، المتآمر، ينظر الى المملوكين التابعين له نظرة ذات مغزى فيخرجان خنجريهما.

ـ «نزافلنج» مع السلطان خلفه يسير مملوكاً كنجر.

ـ رأس السلطان. نحمي منها دخول الخناجر. تترنح ثم تسقط خارج الكادر. وفي المؤخرة أغوات السلطان يجرون مذعورين.

ـ الاغوات قتلوا السلطان.. قتلوا السلطان.

ـ يأتي من الجانبين مملوكا كنجر أمام الكاميرا

المملوكان ـ يحيا كنجر.. يحيا السلطلن كنجر

ـ الثوار يحاولون دخول القلعة

الجموع ـ يسقط كنجر الخائن.. يحى لاشين.

وبهذه النهاية «المفتوحة»، والتي تشير الى حتمية المواجهة الاخيرة، بين الجماهير والخونة، ينتهي

السيناريو.

أما بالنسبة للفيلم فإن السلطان، عندما يلمح نظرة الغدر في عين كنجر، يسحب سيفه من جرابه قائلاً: السلطان يعرف كيف يدافع عن نفسه.. ويدخل، مع حرسه، في مبارزة، ضد كنجر ومماليكه، بينما الجماهير تهتف في الخارج: يحيا السلطان العادل.. يسقط كنجر الخائن. وتقوم المجاميع باقتحام السجن وتحطيم باب زنزانة لاشين الذي يتوجه الى قاعة المعركة التي تدور بين السلطان وكنجر.. لاشين يقتل كنجر.. السلطان يتوجه الى مدخل القصير ليرد على تحية الجماهير التي تهتف بحياته لاشين يركع أمام السلطان الذي يشكره على أمانته ويحمد الله الذي خلص البلاد من الخونة.

والمسافة شاسعة، كما ترى، بين نهاية السيناريو، البالغة الجرأة، المتسقة مع المقدمات ومسار الاحداث وبين نهاية الفيلم المهادنة، التي تتجنب المصير الحتمي للسلطان اللاهي، ولعلك لاحظت الفارق الكبير بين موقف السيناريو من الجماهير التي تهتف للاشين، وموقف الفليم من الجماهير التي دفعها دفعاً لأن تهتف بحياة «السلطان العادل».. ومن الواضح أن السيناريو الذي يتدفق وفق منطق صارم جعله لاينتصر، ببساطة، للناس، بحرية، الى احتمال انتصار الخونة، وهو موقف تحذيري على قدر كبير من الاهمية، بينما تعمد الفيلم أن يقدم نهاية سعيدة تتضمن القضاء على المتآمرين، بل ويبدي، بتخاذل، استسلامه للسلطان، عندما يدفع لاشين الى الركوع على ركبتيه، مقدماً فروض الولاء والطاعة للسلطان.

وربما كان من الصعب تحديد المسئول عن هذه التغييرات، هل هو المخرج فريتز كرامب، أو كاتب الحوار أحمد رامي، أم مساعد المخرج، والمستشار، عبد الفتاح حسن، أم هيئة الانتاج باستوديو مصر.. أيا من كان المسئول، فإن هذه التغييرات تعبر بجلاء عن «الرقابة الذاتية» التي تكبل الابداع السينمائي وتقلل انطلاقة من مرحلة الى أخرى، ليتمشى مع ماهو مسموح، أو مع مايتصور السينمائي أنه من الممكن أن يمر.

وتبقى دلالة مصادرة «لاشين»، الذي أزعج السلطات من «الرقابة الذاتية» التي تعرض لها فالحوارات السياسية التي تضمنها الفيلم، وتصوير المجاعة، والحديث عن الخونة، وتجسيد القصر السلطاني بمؤامراته وحريمه، وظهور الجماهير كقوة حاسمة، كلها أمور كان من المستحيل أن توافق عليها حكومة محمد محمود باشا، صاحب «القبضة الحديدية» ووزير الداخلية أيضاً، وأن الفيلم، من الناحية الفنية، اتسم بتكامل فريد، كان سيترك أثراً عميقاً على المتفرجين.

«لاشين» الذي تكلف أموالاً ضخمة، والذي يتعرض لاضطهاد شديد، لم يستطع طلعت باشا حرب أن يحميه، وظلت نسخه، سجينة عليها الصفيح، حيث تحلل بعضها، واحترق بعضها، ولم يعد ستوديو مصر يفخر بإنتاجه، وتضاربت الاقوال بشأن الافراج عنه، والاهم أنه، لعقود عديدة، كان كأمثولة رأس الذئب الطائر، لقن السينمائيين درساً في ضرورة عدم الجري وراء «إبداعاتهم»، فضلاً عن ضرورة الابتعاد عن معالجة القضايا السياسية أو الجماهيرية، خاصة اذا كانت المعالجة تتمتع بوعي يزعج السلطة والسلطان.

* قانون الرقابة ١٩٤٧.. تدعيم القيود:

صاغت السلطات الحاكمة: القصر والانجليز والباشوات وأصحاب رؤوس الاموال الضخمة، كل مخاوفها، في بنود قانون الرقابة الذي صدر عام ١٩٤٧.. واستعراض أهم فقرات هذا القانون، لايعطي فكرة عن نوع واتجاه السينما المصرح بها، بل ويكشف، بجلاء، عن التناقضات التي تعتمل في قلب المجتمع.

ويجمل المشرع قانونه المتعسف ببعض البنود المنطقية والمعقولة مثل «يراعي احترام الاديان وعدم التعرض للعقائد مع الابتعاد عن المواضيع والحوادث التي تبث الشقاق الديني أو القومي» أو «لايسمح بمناظر الحركات المخلة بالآداب بما فيها الرقص الخليع المغري».

وإذا تركنا البنود التجميلية جانباً، وبحثنا عن الامور الجوهرية، والتي صدر القانون ـ الجامع المانع ـ من أجلها ـ سنجد التالي:

- لايسمح بالمواضيع التي من شأنها أن تمس شعور المصريين أو نزلائنا الاجانب.
- عدم التعريض بالالقاب أو الرتب أو النياشين.
- مراعاة المواضيع والحوادث التي تحط من قدر هيئات لها أهمية خاصة في تنظيم حياتنا العامة، كالوزراء، أو البشوات ومن في حكمهم ورجال الدين والقانون والاطباء.. الخ
- تمنع المواضيع ذات الصبغة الشيوعية أو التي تحتوي دعاية ضد الملكية او النظام القائم.
- لايجوز إظهار مناظر الاخلال بالنظام الاجتماعي كالثورات أو المظاهرات او الاضراب.
- لايجوز التعريض بالمبادىء التي يقوم عليها دستور البلاد، ولابنظام الحياة النيابية في مصر أو نواب الامة وشيوخها.
- يجب إظهار رجال الدولة بصفة عامة بشكل لائق وبخاصة رجال القضاء والبوليس والجيش.
- الانظمة السياسية القائمة في مصر أو في إحدى الدول الصديقة يجب أن تكون محل احترام.
- نظراً للظروف التي تجتازها البلاد، تراعى الدقة والحذر في ذكر المواضيع التاريخية ومشاهير الرجال والعظماء، وخصوصاً الموضوعات الحديثة العهد، مما يخشى معه إحداث الشغب أو إثارة الخواطر.
- تمنع مناظر الاحاديث والخطب السياسية المثيرة.
- يراعى عدم إظهار تجمهر العمال أو إضرابهم أو توقفهم عن العمل وكذلك اعتداءات العمال على أصحاب العمل أو العكس.
- يمنع تحبيذ الجريمة بين العمال أو بث روح التمرد بينهم كوسيلة للمطالبة بحقوقهم.

هذه البنود تشرح نفسها بنفسها، وتؤكد خبرة ودراية واضع القانون بالافلام التي احتوت على أفكار ومواقف أثارت حفيظة القوى المسيطرة، مثل «أولاد الذوات» و«لاشين» فضلاً عن «المظاهر» لكمال سليم ١٩٤١، الذي يتعاطف فيه مع العمال الذين يتصارعون مع أصحاب العمل، و «العامل» لاحمد كامل مرسي ١٩٤٣، حيث يطالب العمال بحقوقهم المهضومة، ويصل بهم الامر الى حد إدارة المصنع، بكفاءة،

بأنفسهم، و «السوق السوداء» فيلم كامل التلمساني الكبير ١٩٤٦، والذي يثبت فيه أن المجاعة ليست قدراً، ولكنها من صنع الطبقات المستغلة، وأنها لن تنتهي، الا اذا أخذ الناس، بأيديهم، زمام المبادرة، وقاموا بتصفية حسابهم، مع قاهريهم.

جاءت هذه البنود كهجوم مضاد، مبكر، ضد تلك الافلام التي كان من الممكن أن تتحول الى تيارات تقدم، على غرارها، المزيد من الاعمال.. فهذه البنود، تحدد، بحسم، الهامش الابداعي الضيق الذي يتحتم على السينمائي الا يتجاوزه.. من هنا كان منطقياً أن يظهر أبطال الافلام المصرية بلا مهن..! وليس لهم قضايا، وإن كان لهم مشاكل، ومشاكل فردية بالغة الخصوبة، وغالباً عاطفية.. وهذه السينما المحاصرة، المحاطة بالنواهي والمحاذير والممنوعات، بدت مضطرة لان تتجاهل البعد الاجتماعي لابطالها، واكتفت بأن تسبح معهم في عوالم وهمية أكثر من أن تكون واقعية.

*** جمهور المغرب العربي.. درع أفلام المشرق العربي:**

نجحت السلطات الاستعمارية في الحيلولة دون قيام صناعة سينما في معظم الاقطار العربية، ولأسباب متعددة، أهمها تراخي قبضة الاجانب على صناعة السينما في مصر، بعد ثورة ١٩١٩، ذلك أن رأس المال المتردد، بدأ يقلل من استثمارات داخل مصر، خوفاً من تنامي الحركة الوطنية، وبالتالي أخذت قبضة الرأسمالية المصرية الناشئة، الفتية، المعتمدة، والمستثمرة، لقوة الجماهير ورغبها في التحرر والاستقلال: سياسياً، واقتصادياً، وصناعياً، تحل مكان قبضة الاجانب.

وبعد عام واحد من ثورة ١٩١٩، اجتمعت لاول مرة، الجمعية العمومية لمساهمي بنك مصر الذي سيكون له دور كبير في إرساء العديد من الصناعات الوطنية في البلاد، بما في ذلك صناعة السينما.

ولان طلعت حرب، برحابة أفقه، كان يدرك أن المنطقة العربية هي المجال الحيوي الذي يمكنه أن يتعاون معه، ولأنه كان يعي تماماً قوة تأثير الافلام فإنه، مستعيناً بالرائد العظيم، محمد بيومي، وافق على تسجيل أنشطة مصانع وشركات «بنك مصر» وتعمد أن يصحب هذه الاشرطة التسجيلية معه في زايراته المتوالية الى البلاد العربية.

ويذكر الباحث الامريكي إريك دافيز في كتابه الفريد «مأزق البورجوازية الوطنية الصناعية في العالم الثالث: أن «شركة مصر للتمثيل والسينما - والتس ستنشىء ستوديو مصر لاحقاً - لعبت دوراً هاماً في العلاقات العامة عندما حاول بنك مصر توسيع أنشطته الاقتصادية في أنحاء العالم العربي.. ان الافلام التي حققتها عن شركات كبيرة مثل شركة مصر للغزل والنسيج، وشركة مصر للملاحة، وشركة مصر للطيران، والتي عرضت على الساسة ورجال الاعمال في كثير من البلدان العربية، قد عززت الى حد كبير صورة ومكانة بنك مصر في أنحاء العالم العربي».

فهم إريك دافيز مسألة عرض الافلام التسجيلية، في البلاد العربية، على أنها «لعبت دوراً هاماً في العلاقات العامة».. وبالطبع، وهو الذي لم يكتو بنار الاستعمار، لم يدرك مدى «الحاجة المعنوية» التي

كانت تلبيها هذه الافلام في الاقطار العربية. إن الجمهور العربي، انتعشت آماله بمشاهدة هذه الاشرطة التسجيلية التي كانت تعبر، عملياً وجوهرياً، عن القدرة على مواجهة القوى الاستعمارية والتحرر من قبضتها: صناعياً واقتصادياً. وسنرى حالاً، كيف تبنى الجمهور العربي، على نحو مبدع، الافلام الروائية المنتجة في مصر، وقام بحمايتها، واعتبر أن تشجيعها والاصرار على مشاهدتها، يعد عملاً معادياً للاستعمار.

*** أمثولة من سوريا:**

أول جائزة يحصل عليها فيلم مصري، سواء من داخل مصر، أو من خارج مصر، كانت من سوريا.. فعندما عرضت آسيا فيلمها المبكر «غادة الصحراء»، في المعرض الصناعي الذي أقيم بدمشق ١٩٢٩، والذي كان يحوي الكثير من البضاعة الوطنية، والذي كان يرأسه الأمير على الجزائري، المعروف بحماسه لمنتجات بلاده، أقبل على مشاهدة الفيلم جمهور بالغ الضخامة «ألوف مؤلفة من المتفرجين» حسب تعبير جريدة الاهرام القاهرية آنذاك - مما جعل إدارة المعرض تقرر استمرار عرض «غادة الصحراء» ثلاثة أيام.. وقررت الحكومكة السورية منح بطلته، وهي منتجة في ذات الوقت جائزة المعرض الكبرى: مائة جنيه وميدالية ذهبية صنعت خصيصاً في باريس.

هذه الجائزة الرائدة، في المحل الاول، ذات دلالة روحية، قومية، تحررية، توضح نفسها بنفسها، فالجمهور السوري تحمس، بلا تردد للفيلم المصري، واعتبره جزءاً من إنتاجه الوطني، حتى أنه جاء في مبررات منحه الجائزة أن «غادة الصحراء» اتصل بإحساس الجمهور وظفر معه بالتقدير الكبير».

*** وأخرى من المغرب:**

يذكر الناقد المغربي نور الدين صايل «أن الفيلم المصري كان أقوى خطاب من المشرق العربي الى المغرب العربي، لقد وجد المتفرج المغربي، في أبطال هذه الافلام، صورة رمزية لصورته الغائبة، وربما لايعرف الكثيرون، من أبناء الاجيال الجديدة أن جزءاً من مناهضة المستعمر كانت تمر عبر التمسك بمشاهدة الفيلم المصري الناطق بالعربية».

والحق أن هذه الملاحظة، خاصة في ظروف الرقابة المشددة التي نشأت فيها السينما المصرية، تدفعنا الى اعادة النظر في «مضمون الخطاب وايحاءاته»، التي تحملها الافلام المصرية، وبالتحديد أفلام «الفروسية العربية» التي مثلت نسبة كبيرة من مجمل الانتاج السينمائي، في العقود الاولى من بداية السينما المصرية، وهي الافلام التي كان الجمهور المغربي، شغوفاً بمشاهدتها.

التفسير السهل، المتوارث، لاختيار شخصية الفارس العربي كبطل للفيلم الرائد «قبلة في الصحراء» ١٩٢٧، الذي حققه الاخوان الفلسطينيان - بدر وابراهيم لاما - يرجع سبب هذا الاختيار الى اعجاب

صانعيه وانبهارهما بالممثل العالمي رودلف فالنتينو، بطل الفيلمين الشهيرين: «الشيخ» ١٩٢٣ و «ابن الشيخ» ١٩٢٦.

وهذا التفسير الوحيد، وان كان لا يخلو من صحة، الا أنه لا يكفي لتبرير استمرار حضور ونجاح هذه الشخصية، على شاشة السينما العربية، وتوالي ظهورها، بأبعاد مختلفة، على امتداد عدة عقود لاحقة، سواء في أفلام الاخوين لاما، أو في أفلام غيرهما من ممثلين ومخرجين.

كان أمام بدر لاما نجوماً عالميين آخرين، مثل: توم ميكس أو دوجلاس فيربانكس أو شارلي شابلن أو وليم هارت أو اميل جاننكس.. ولكنه، مع سبق الاصرار، تعمد أن يختار «فالنتينو» بالتحديد، وظل مخلصاً، للكثير من ملامحه، في أفلامه التالية.. والاهم أن جمهور السينما، في مجمل الاقطار العربية، انفعل مع هذه الشخصية ورحب بها وتابعها، من فيلم لآخر، الامر الذي أبقاها على قيد الحياة، فانتقلت من بدر لاما الى سراج منير، ومن سراج منير الى يحيى شاهين، ومن يحيى شاهين الى آخرين.. واكتسبت المزيد من التنوع والثراء، في أفلام لنيازي مصطفى وأحمد سالم وعز الدين ذو الفقار وصلاح أبو سيف وبركات.

اذن فلم يكن الاختيار مجرد نزوة أو مصادفة، ولكنه كان اختياراً يلبي «ضرورة» أو «حاجة» عند جمهور السينما، سواء في المشرق - أو المغرب - العربي.

بدر لاما، في «قبلة في الصحراء»، وكما سيظهر في بقية أفلامه «الفروسية»، يمتطي صهوة جواده، لينطلق به حراً، الى آفاق بعيدة، في صحراء مترامية الاطراف، واثقاً من قدراته. يقتحم الصعاب بجرأة، معتمداً على سيفه تارة، وعلى خنجره تارة أخرى... وهو يجمع بين الرقة والصلابة، ويتسم بالشجاعة والاقدام والاستعداد الدائم للتضحية والفداء.

واذا كان بدر لاما، في أفلامه، يعيش قصة حب، كما في «معروف البدوي» و «الكنز المفقود» أو «ابن الصحراء»، فان قصة الحب هذه، جوهرياً، تبدو هامشية، أو على الاكثر، مجرد تَكِئَة، تمهد وتساعد على ابراز سلسلة الصراعات التي يدخل فيها كطرف مظلوم، معه كل الحق، الذي ينتزعه بذراعيه. وهي صراعات خارجية، ضد عصابة أو قبيلة أخرى أو مجموعة أشرار... لذلك فانه يمكنك اعتباره، على نحو ما، بطلاً ملحمياً، يتضاءل عناؤه الداخلي أمام صراعاته المتوالية، ضد قوى خارج ذاته.

وهذه الشخصية، بهذه الملامح، لها جذورها في الثقافة العربية، تتمثل في الملاحم الشعبية التي كانت - في بداية هذا القرن - لاتزال تعيش بقوة، في وجدان الناس، والتي تمتلىء بمشاهد النزال، وتقدم أبطالاً لا يعرف الخوف الى قلوبهم سبيلاً، ويثبتون، بنبلهم وشرفهم ورجولتهم، جدارتهم كفرسان، ينتزعون حقهم المغتصب، عن طريق سيوفهم.

كان من الطبيعي أن تقود هذه الشخصية - التي توافقت مع مزاج الجمهور العربي - الاخوين لاما، الى تقديم «صلاح الدين الايوبي»، في فيلم يحمل ذات العنوان عام ١٩٤١... وبصرف النظر عن مدى قيمة أو نجاح هذا الفيلم التاريخي المبكر، فان المهم هو الدلالة الوطنية والقومية لاختيار هذا القائد كموضوع للفيلم، بكل ما يثيره اسمه من أحاسيس بالكرامة والكبرياء، وما يبعثه من أمل في النصر على

الغزاة، عند الاجيال العربية المتعاقبة.

اذن فمن الواضح أن «الفارس العربي»، برغم أية سلبيات من الممكن أن تؤخذ عليه، في أفلام بدر لاما، حقق أشواق الجمهور العربي لان يرى، على الشاشة، صورة خلابة، تنتمي له وينتمي لها، آتية من عمق الايام الخوالي، تقدم له فارساً عربياً، يدخل صراعات متوالية، ويكتب له، النصر في النهاية.

ولان هذه الشخصية البطولية جاءت «كضرورة»، تلبي «حاجة» نفسية لدى جمهور يخوض معارك دامية، مضنية، ضد الاحتلال الاجنبي، فإنها استمرت، واستقلت عن بدر وابراهيم لاما.

وجد نيازي مصطفى، في الممثل الشاب - حينذاك - سراج منير، تلك العوامل التي تؤهله للقيام بدور الفارس العربي، فهو يتمتع ببنيان ضخم، قوي، عضلاته نافزة، وملامح وجهه توحي بالصرامة، والعزم، والتفوق، وصوته جهير، معبر. لذلك أسند اليه بطولة فيلمي «رابحة» ١٩٤٣، و «عنتر وعبلة» ١٩٤٥.

ونظراً للنجاح الكبير الذي حققه سراج منير في هذين الفيلمين، أسند اليه عز الدين ذو الفقار، بطولة «أبو زيد الهلالي» ١٩٤٧، كما قام بدور عنترة في «ابن عنترة» لاحمد سالم ١٩٤٧.

واكتسبت شخصية «الفارس العربي» معنى ودلالة، أكثر عمقاً وثراء، عندما حقق صلاح أبو سيف «مغامرات عنتر وعبلة» ١٩٤٨. فأصداء حرب فلسطين الاولى تتردد بوعي ووضوح في هذا الفيلم الذي يصور الصراع بين العرب والرومان... وينبه، من خلال بطله، عنتره - سراج منير - الى أن الخصومات بين القبائل العربية تعرضها لهزيمة، خاصة وأن اليهودي - زكي طليمات - الذي يضع ضمادة سوداء على احدى عينيه! يثير الفتن ويوقع بينها.. وبعد العديد من المحن، تدرك القبائل العربية أن اتحادها هو المقدمة الاولى للنصر على الغزاة.

وقبل أن تستغرقنا رحلة «الفارس العربي» على الشاشة، يجدر الاشارة الى أحد عناصر الابداع، في هذه الافلام، والذي يتمثل في فن الحوار الذي وصل الى درجة رفيعة من الاحكام والجمال والقدرة على التعبير الدقيق عن شخصية المتحدث فضلاً عن الايحاء بعبق الاجواء العربية.

ويرجع الفضل في تحقيق هذا الانجاز الخلاق الى الشاعر الفنان، المرهف الحس، ابن الشعب العربي كله، المتفهم لمشاعره وأمانيه.. بيرم التونسي.. الذي استطاع بموهبته، وخبرته الواسعة والعميقة باللهجات العربية المختلفة، أن يستحدث لهجة خاصة، مميزة، يفهمها ويتجاوب معها جمهور المغرب العربي كما يستوعبها ويتفاعل معها جمهور المشرق العربي. ان «آية الآيات في بيروم التونسي - كما يقول عباس محمود العقاد - أنه كان يفهم السريرة الناطقة بالعربية من بواطنها الخلفية، قبل أن يحكيها بلهجاتها الكثيرة على الالسنة».

كتب بيرم التونسي حوار «رابحة» و «أبو زيد الهلالي» و «مغامرات عنتر وعبلة» و... و... وسيصبح منذ الآن - ١٩٤٣ - القاسم المشترك الاعظم في صياغة تلك اللهجة الآسرة، ذات الاشعاع العربي القوي، سواء في السينما أو الاوبريتات أو الاغاني أو المسلسلات التلفزيونية، والتي ينتقي مفرداتها من أقرب الكلمات الى اللغة العربية الفصحى، لكن ايقاعها، وتركيب جملها وطريقة نطقها، تجعلها ذات طابع وان كان خاصاً، الا أنه يفيض بإحساس عربي، قومي، فريد وجذاب وأصيل.

لقد أكسب بيرم التونسي، هذا النوع «العربي» من الافلام، حيوية دافقة، لمست شغاف قلب المتفرج العربي.

ويؤكد الناقد التونسي، عبد الكريم قابوس، «أن الجمهورر التونسي كان يذهب الى دور العرض في الليل لينام أمامها كي يجد مقاعد لمشاهدة فيلم رابحة. . . لقد عشق لغة هذا الفيلم، بلهجته البدوية، الاكثر عروبة، كما عشق الافلام المشابهة له»(٦).

وانزعجت السلطات الفرنسية، في المغرب، من حماس الجمهور للاستماع ولمشاهدة «أقوى خطاب من المشرق العربي الى المغرب العربي»(٧)، ذلك الخطاب الذي وان كان ليس «ثورياً»، الا أنه، بروحه العربية، يناهض رغبة المستعمر في طمس أية ملامح عربية.

وقررت السلطات الفرنسية أمرين: صنع أفلام على الطريقة المصرية، ومنع استيراد أفلام المشرق العربي.

لكن الجمهور المغربي، باصرار، انصرف عن مشاهدة الافلام المزورة ففشلت فشلاً مروعاً، دفع القائمين على المشروع الى التخلي عنه. . . ومن ناحية أخرى، فزعت «السلطات الاستعمارية الاقتصادية» من ضياع حصيلة الضرائب الضخمة التي تجنيها من وراء عرض الافلام المصرية. . . ففي الوقت الذي تتمتع فيه الافلام الواردة من فرنسا بإعفاء جمركي، يفرض على أفلام «المشرق العربي»، مبدئياً، ضريبة جمركية، قدرها ٢٠٪ من ثمن الفيلم، وبالطبع، هذا غير الضرائب المفروضة على كل تذكرة، وبالتالي، وكما يقول الناقد نور الدين صايل «نشأ تناقض في جبهة المستعمر. تناقض بين المتطلبات الاقتصادية المحضة والمتطلبات الايديولوجية المحضة. وتم حل هذا التناقض عن طريق الاكتفاءبعرض الافلام المصرية في صالات الدرجة الثانية والثالثة ومنع عرضها في صالات الدرجة الاولى التي تغشاها الجاليات الاجنبية عادة»(٨).

هكذا قام الجمهور المغربي بحماية أفلام «المشرق العربي»، بل والترويج لها، بأشكال خلاقة مدهشة، فعندما خرج أول فريق كرة قدم كبير من المغرب ليحقق انتصارات عالمية، في الاربعينات، أطلق عليه المغاربة، في لغة ابداعية بحق، اسم «فريق وداد البيضاوي»، تيمناً وحباً واحتراماً لفيلم «وداد» الذي مثلته أم كلثوم، وحقق نجاحاً هائلاً في البلدان المغربية.

اذن، فمنذ البداية، كانت السينما العربية، مثل أية صناعة، تعد عملاً معادياً لهيمنة الاستعمار ولكن لانها صناعة تقدم، في النهاية، بصرف النظر - مؤقتاً - عن درجة وعيها أو ثوريتها، أبطالاً يتحدثون باللغة العربية، ويعبرون، على نحو ما، عن مشاعر وأحاسيس عربية، فانها، بالضرورة، زادت من انزعاج السلطات الاستعمارية، خاصة وأن الانتاج السينمائي المصري، والذي يعتمد في بعد من أبعاده، على طابور طويل من الفنانين العرب، اعتبر، في كل أرجاء الوطن الكبير، انتاجاً عربياً. . وحتى في مصر، لا يقال «هذا فيلم مصري» ولكن يقال «هذا فيلم عربي». . وما تسميه القاهرة باسم «هوليود الشرق الاوسط» أو «هوليود العرب» الا تعبير مبدع عن قائله المجهول، يعبر عن الاستمساك التلقائي الملهم، بوحدة الوطن العربي، فضلاً عن الايمان بقدرته على الابداع السينمائي، الامر الذي ينسف هدف

«التجزئة» الاستعماري من جهة، ويؤكد امكانية مواجهة عواصم السينما العالمية، بعاصمة السينما العربية.

* بعد الاستقلال. . . قضية الحرية في السينما العربية:

منذ أكثر من ثلاثة عقود، وبعد نضال طويل، نالت الاقطار العربية استقلالها، وأصبحت دولاً ذات سيادة كاملة. . وتدفقت في الانهار مياه كثيرة، فحلم أن تحقق كل دولة، ذاتها، من خلال اقامة صناعة وطنية، امتد الى السينما. . . وبالفعل، بدأت صناعة السينما تنطلق في العديد من الاقطار: العراق، سوريا، لبنان، الجزائر، المغرب، تونس.

وأهم ما يميز هذه السينما أنها تنهض في مناخ يختلف الى حد كبير عن المناخ الاستبدادي الذي كان سائداً قبل الاستقلال، والذي قضى على المحاولات الأولى لصناعة السينما في هذه الاقطار من جهة، وكمم أفواه الافلام المصرية من جهة أخرى. . . فضلاً عن وقوف حكومات هذه الدول، خاصة في العراق وسوريا والجزائر، الى جانب تدعيم وتنظيم وتشجيع صناعة السينما.

واذا كانت الصفحات السابقة قد غلب عليها الاهتمام بمناقشة قضية السينما العربية، وابداعاتها المكبلة، في ظل غياب الحرية، نتيجة للاستعمار الذي هيمن على الوطن الكبير، فانه من المنطقي، أن تبحث الصفحات التالية «قضية الحرية في السينما العربية»، بعد أن تحرر رسمياً، جميع الدول العربية.

سنوات القمع الطويلة، التي عاشتها السينما المصرية، روضتها، وجعلت أفلامها الحذرة تتحاشى الاقتراب من القضايا الجادة، التي من الممكن أن تجر عليها المتاعب. . . وتعودت، اتباع أنماط موحدة، آمنة، سواء كانت ميلودرامية أو هزلية أو غنائية، وتعمدت الابتعاد عن أية تفسيرات واقعية لكافة الظواهر الاجتماعية، مثل الفقر الذي دأبت على تصويره كنعمة يتمناها ويحن لها، من فقدها. . والجريمة التي يرتكبها عادة بعض الاشرار الذين ولدوا وهم يحملون جرثومة الشر معهم. . . والنجاح الذي يأتي دائماً بضربة حظ. . ومقاومة الظلم الذي تتكفل به قوى غيبية. . . والحب الوهمي الذي لا يعترف بالفروق الطبقية.

هذه الافلام التي شكلت تراثاً للسينما المصرية - فيما عدا بعض الافلام بالطبع - أصبحت قوة فكرية متخلفة، لها حضورها المسيطر، حتى بعد ثورة يوليو ١٩٥٢. . بل وبعد الغاء قانون الرقابة الصادر عام ١٩٤٧.

لكن، في الاجواء الجديدة، وخلال عقدين من الزمان، بعد الثورة، بدأ يتبلور تيار جديد، متحرر من أسر التقاليد الموروثة، تمثله، على نحو خاص، أفلام صلاح أبو سيف وتوفيق صالح ويوسف شاهين. . وهي أفلام تخدم الحرية وتنشدها وتفتح الطريق اليها، ذلك أنها تتمتع بالوعي والمعرفة، وتتسم بنظراتها العلمية، الواقعية، التي تمكنها من ادراك القوانين المسببة للظواهر التي تتعرض لها، وبالتالي ترشد المتفرج الى سبل السيطرة على هذه الظواهر. . . أي تجعله، وهي تعرض عليه الحقيقة، أقدر، وأكثر حرية، على اتخاذ الموقف الصحيح، سياسياً واجتماعياً واقتصادياً.

مثلاً، في «الفتوة» لصلاح أبو سيف ١٩٥٧، المتفهم لقوانين العرض والطلب، نشهد صعود أحد غيلان السوق، فريد شوقي، الهارب من جوع أحد الاقاليم البعيدة، وبالتعاون مع غيره يصمد أمام الغول القديم، ملك السوق المتوحش، زكي رستم، وهو في صعوده يدرك، ويجعلنا ندرك معه، أن خيوط اللعبة ليست في السوق، ولكنها في يد «الكبار» الذي يعملون لحساب القصر الملكي، وأن هذا السيرك الذي نراه في السوق، بصراعاته الدامية، منظم بصرامة، وكل شيء فيه محسوب بدقة، والشطر الاكبر من فروق الاسعار، يصب في جيوب السادة، الشبيحة، الذي يحكمون ويتحكمون في كل الامور.

و«الفتوة» عندما ينتهي بنهاية تتطابق مع البداية، انما يؤكد أن القضاء على الاستغلال داخل السوق، لا يتم بالقضاء على هذا المجرم أو ذاك، فالمسألة ليست أخلاقية، ولكن، كما يوحي بحق، يتحقق بالقضاء على النظام الفاسد الذي يفرز بالضرورة تلك الانماط من المجرمين.

ويفسر توفيق صالح، في «صراع الابطال» ١٩٦٢، مأساة الكوليرا التي انتشرت في مصر عام ١٩٤٨، تفسيراً دقيقاً، عندما يبين ارتباطها بالفقر والجهل، وكلاهما نتاج حتمي لاستبداد وشراهة الطبقات المستغلة.. وهو في هذا يحرر عقل لمتلقي من الاستسلام لفكرة «القدر» الميلودرامية..

وفي «الناصر صلاح الدين» ١٩٦٣ يصل يوسف شاهين الى آخر مدى «للفارس العربي»، ويؤكد، من خلال استيعابه لدرس التاريخ، أن الاقطار العربية، جوهرياً، وطن واحد، لا يمكن أن يغدو حراً، الا اذا تحررت كل أجزائه.

في هذا التيار ستجد أن الثقة في قدرة الانسان على صنع مستقبله أصبحت متوفرة، وستجد اهتماماً، واعترافاً، بدور المجتمع في تشكيل قيم وسلوك أفراده، فالمنحرف، والمجرم، لم يولدا وجرثومة الشر المجهولة المصدر كامنة في طباعهما، ولكن، كما في «جعلوني مجرماً» ١٩٥٤ و«احنا التلامذة» ١٩٥٩ ـ وكلاهما لعاطف سالم ـ للمجتمع والتربية وللمناخ العام، دور حاسم في توجيه تصرفات أبنائه... وفي «أنا حرة» لصلاح أبو سيف ١٩٥٩ و«الباب المفتوح» لهنري بركات ١٩٦٣، على سبيل المثال، ستطالعنا المرأة من خلال منظور جديد، يتناقض مع صورتها في مئات الافلام السابقة، فهي، هنا لم تعد مجرد أذرع وأفخاذ، ولم تعد تلك الضعيفة، المستكينة، التي تنتظر حبيبها، باكية، «ليصلح غلطته»، ولكنها أصبحت انساناً كاملاً، تنتزع حريتها عن طريق العلم، وتزداد حريتها عن طريق العمل، وتصل الى آفاق جديدة من الحرية عن طريق انغماسها في المعارك التي يخوضها الوطن.

*** تصفية الحساب... مع الماضي:**

كما قامت السينما المصرية، بعد الثورة، بمهاجمة الاستعمار، والملك، والاقطاع، ووضعت الثورة في سياق يعني أنها نهاية للاستبداد وبداية، بلا مشاكل أو نواقص، لعصر يتميز بالعدل والحرية... قدمت السينما العراقية والسورية والجزائرية أفلاماً تتأثر من سلبيات الماضي، وتبرز، بعض جوانب النضال، التي تكللت بنجاح الثورة، وتحقيق الحرية.

ومن الصعب، بل والخطأ، قبول هذه الافلام أو رفضها، على نحو طلق.. فبعضها، وبالذات في السينما المصرية، بلغ درجة كبيرة من القصور الفكري والفني، حتى في تلك «الكلاسيكيات» التي يعرضها التلفزيون سنوياً، مع أعياد الثورة، مثل «الله معنا» لاحمد بدرخان ١٩٥٥ و«رد قلبي» لعز الدين ذو الفقار ١٩٥٧... ففي الفيلمين تطغى قصة الحب الملتهب، السقيمة، على كل ما عداها، بل ويتلاشى تماماً دور الشعب في التمهيد للثورة، والاخطر أن البطلين، الضابطين، يخفق قلباهما بعشق «بنات الذوات»، فعماد حمدي في «الله معنا» يرتبط عاطفياً بابنة الباشا الشرير، «فاتن حمامة» التي تقدم له مساعدات هائلة، لانجاحه هو وزملائه، في ثورته... ويهيم شكري سرحان بالاميرة، ذات القلب الرقيق، مريم فخر الدين، ابنة الاقطاعي الكبير. والفيلمان ينتهيان، كما يزعمان، بالسعادة الغامرة للجميع... للناس، الذين لم يدفعوا ثمن الحرية، وللضابطين اللذين يتزوجان من أجمل وأرق بنات العائلات الكبيرة.

وعلى نحو مختلف، وبآفاق أوسع في الرؤية، وبوعي أعمق بالتاريخ، جاءت بعض الافلام العراقية لتعبر عن دور الجماهير في الثورة.. ولعل فيلم «الاسوار» لمحمد شكري جميل ١٩٧٩، والذي تدور أحداثه قبل عامين من ثورة العراق ١٩٥٨ أن يكون من النماذج المميزة التي لم تعبر عن نضال الشعب العربي، داخل العراق فحسب، بل ورصدت ـ بأسلوب سينمائي بديع، يعتمد في بعض أجزائه على مشاهد تسجيلية ـ كفاح الشعب العربي في مصر، ابان معركة السويس، وعكس تجاوب الشارع العراقي بما يدور في الشارع المصري.

واذا كانت السينما السورية قد تعرضت للصراع بين الفلاحين والاقطاعيين في أفلام «الفهد» لنبيل المالح ١٩٧٢ و«العار» الذي يقدم ثلاثية لبشير صافية ووديع يوسف وبلال الصابوني، فان السينما الجزائرية التي ولدت في قلب الثورة، خلال سنوات «حرب التحرير»، قدمت، بخبرة المعايشة، مجموعة ثمينة، ملهمة، من أفلام لم تحول النضال الشعبي الى أسطورة صعبة التصديق، ولكنها، وهذه ميزتها، أكدت أن النضال المسلح من أجل الحرية، مهما كان ثمنه، جاء ضرورة تاريخية وانسانية، وكفعل مفهوم ومبرر تماماً.. فعلى النقيض من الافلام اللبنانية التي دارت حول العمل الفدائي الفلسطيني، مثل «الفلسطيني الثائر» لرضا ميسر ١٩٦٩ و«فداك يا فلسطين» لتيسير عبود ١٩٦٩ و«أجراس العودة» لنفس المخرج في ذات العام، والتي لم تهتم الا «بجانب البطولة الفردية، وتوكيد النصر النهائي على العصابات الصهيونية، وعلى يد أبطال يولدون من الفراغ والعدم»[٩].. جاءت الافلام الجزائرية كأنشودات زاهية الالوان، تتمتع بخصوصية فريدة، تجمع بين الرقة والقوة، تقدم، سواء في «رياح الاوراس» لمحمد أخضر حامينا، البسيط في بنائه، العميق في انسانيته، المعتمد على الابيض والاسود، والذي يتابع، باعزاز، رحلة البحث المضنية التي يقوم بها عجوز اعتقلته القوات الفرنسية... أو «وقائع سنوات الجمر» لنفس المخرج، والفائز بالجائزة الكبرى في مهرجان كان ١٩٧٥، والذي يقدم، في بناء مركب، شاهق، بانوراما لمسيرة سكان قرية هدها العطش والاستغلال، وها هو طليعة أولادها، ينطلق الى قمم الجبال لينضم الى جيش التحرير... وسواء في الفيلم الروائي «الطريق» لمحمد سليم رياض ١٩٦٨، الذي يتوغل في أحراش المعتقلات ليقدم صورة لصمود الجزائريين واصرارهم على مواصلة السير على درب الحرية، أو «فجر المعذبين» التسجيلي، لاحمد

راشدي، الذي يستعرض، بالوثائق، كفاح شعوب افريقيا، عبر التاريخ، ضد القوات الاوربية - هذه الافلام وغيرها - نشهد معرضاً هائلاً، لنضال الافراد، والجموع، على نحو مؤثر، ينعش الذاكرة، ويجعل للشهداء، والابطال العاديين، الذين لم يكتب التاريخ أسماءهم حضوراً عميقاً، على شاشة السينما، وفي وجدان الاجيال الجديدة من المتفرجين.

لقد تعرضت السينما العربية للماضي، وتغنت بالايام الخوالي، بما فيه الكفاية، فماذا عن الحاضر؟.

*** الحاضر... عودة المتاعب:**

ثلاثة أفلام فقط، تعرضت لمتاعب الرقابة، طوال العقدين اللاحقين لثورة يوليو ١٩٥٢... أحدها «الله معنا» الذي حققه أحمد بدرخان بعد الثورة مباشرة، ولكنه «منع من العرض مدة ثلاث سنوات حتى عرض على الرئيس جمال عبد الناصر وشاهد الرئيس الفيلم ودهش من كذب الاشاعات التي كانت تتردد والتي أدت الى وقف عرضه، وأمر بعرضه. حضر بنفسه حفل الافتتاح في سينما ريفولي يوم ١٤ مارس ١٩٥٥, وكان هذا أول فيلم يحضر جمال عبد الناصر بصفته الرسمية كرئيس للجمهورية حفل افتتاح عرضه»(١٠).

الفيلمان الاخران هما «شيء من الخوف» الذي أخرجه حسين كمال عن قصة لثروت أباظة يحكى فيها عن عصابة تهيمن - بجبروتها - على احدى القرى، ولكن، أهل القرية، بقيادة رجل متدين، تتمرد على العصابة وتحرق رئيسها في بيته.. وقيل حينذاك أن ثروت أباظة، سليل العائلة الاباظية الاقطاعية الشهيرة، يثأر من الثورة ورئيسها.

أما الفيلم الثالث، الذي أنتج في ذات العام، فهو «ميرامار» ١٩٦٩، والذي حققه كمال الشيخ عن رواية لنجيب محفوظ، تحمل نفس العنوان... والفيلم يسخر، على لسان أحد الابطال - يوسف وهبي - سخرية جارحة، بالثورة، والتأميم، والقوانين الاشتراكية.

شاهد عبد الناصر «شيء من الخوف» و «سأل المسؤول الكبير الذي عرض عليه الفيلم: هل نحن عصابة؟ فقال «لا»... وهنا قال الرئيس: اذن ما هي المشكلة في عرض الفيلم كاملاً على الجمهور؟.(١١)

وشاهد أنور السادات «ميرامار». وكما تذكر مديرة الرقابة حينذاك، في كتابها «مذكرات رقيبة سينما» - اعتدال ممتاز- أن السادات «ضحك وأبدى اعجابه الشديد بالفيلم وصافح صناعه بحرارة وصرح بعرضه».

ويرجع سبب ندرة الافلام التي تعرضت لمتاعب رقابية، خلال العقدين التاليين للثورة، الى أن السينما المصرية الحذرة - التي ولدت وعاشت في أجواء الاستبداد - تعلمت كيف تصمت، وكيف لا تثير غضب السلطة، خاصة اذا كانت قوية، بل، وكما سنرى، كيف تقوم، بحماس، بحملات من النقد العنيف، لكل «عهد بائد»!.

ما أن جاءت السبعينات، بما حملته من تغيرات كبيرة، في التوجه العام للسلطة، خاصة بعد حرب ١٩٧٣، حتى انعكست - التغيرات - على السينما التي أفرزت اتجاهين: أحدهما يغازل التوجهات الجديدة، عن طريق هجاء «الماضي القريب»... وتحت شعار نقد «مراكز القوى» تم التنديد بالثورة ككل في الكثير من الافلام والتي كان أولها «الكرنك» ١٩٧٥ الذي أخرجه علي بدرخان، منفذاً سيناريو ممدوح الليثي المأخوذ عن رواية لنجيب محفوظ.. في «الكرنك» يعتقل الشباب، وتغتصب زينب دياب - سعاد حسني - في أحد مكاتب التحقيقات، تحت صورة عبد الناصر، وتلقى الطائرات الاسرائيلية قنابلها بينما الشباب يُضرب ويعذب في المعتقلات.. هكذا، كأن الهزيمة جاءت بسبب ظلم النظام وليس نتيجة لتآمر القوى الاستعمارية... والفيلم، لا يفوته وهو يرفض التجربة الاشتراكية أن يرفع من شأن «ثورة التصحيح»! ويعتبر أن حرب اكتوبر، بانتصاراتها، جاءت نتيجة لتلافي سلبيات النظام السابق التي أدت الى هزيمة ٥ يونيو.

عموماً أغضب الفيلم الكثير من النقاد والكتاب، ولكنه حصل على جائزة من الدولة، والاهم، أن الباب الذي فتحه لموضوع «مراكز القوى»، دخل منه الكثير من الافلام، مثل «امرأة من زجاج» لمحمد راضي ١٩٧٩، و «طائر الليل الحزين» ليحيى العلمي ١٩٧٧، و «أسياد وعبيد» لعلي رضا ١٩٧٩، و «وراء الشمس» لمحمد راضي ١٩٧٩، و «العرافة» لعاطف سالم ١٩٨١.

واذا كانت بعض أفلام هذا الاتجاه بلغت حد البكاء على الظلم الشديد الذي لحق بالاقطاعيين مثل «آه يا ليل يا زمن» ١٩٧٧ لعلي رضا المأخوذ عن رواية لاحسان عبد القدوس والمكتوب على «افيشاته» «محاولة انقاذ جرحى الثورة»، والذي يتابع، بعيون متورمة، رحلة ضياع ابنة أحد الباشوات، في أوروبا... و «انقاذ ما يمكن انقاذه» لسعيد مرزوق ١٩٨٥ الذي يحكي عن العودة الميمونة لابن أحد الباشوات الى أرض الوطن، بعد «فك الحراسات» واستعادته لقصر والده الذي كان بطلاً وطنياً!... فان البعض الاخر، من أفلام هذا الاتجاه، ينغمس في مشاهد التعذيب، الى درجة ارعاب المتفرج، ففي «احنا بتوع الاتوبيس» لحسين كمال ١٩٧٩، نشهد في المعتقل كافة صنوف التعذيب الوحشي: الجلد بالسياط، اغراق الوجوه في براميل المياه، التجويع، الوقوف تحت أشعة الشمس الحارقة عدة ساعات، اهدار الكرامة بأن يطلب من المعتقل أن يقلد هوهوة الكلاب ورقص القرود. والفيلم بهذا، خاصة وأن بطله المعذب بلا قضية، يخاطب أضعف ما في الانسان، ويستثير احساسه بالخوف، ويجعله، بينه وبين نفسه، طالما أن الامر كذلك، يهرب تماماً، من الانخراط في أية قضية تنتمي الى العدل أو الحرية، بل ويطلب أمانه الشخصي، الفردي، بأي ثمن. ان أبشع ما تطلبه هذه السينما من المتفرج، أن يكون على استعداد لان يكون عبداً، ذلك أنه، لن يتحمل تعذيب أية سلطة.

أما الاتجاه الثاني، المناقض لهذا الاتجاه، فكرياً وأخلاقياً، والذي يتمثل في كتيبة قوية، من الذين أتاحت لهم الثورة، فرصة التعليم، والذين تفتح وعيهم على مناولة الاستعمار والاحلاف من جهة، والايمان بالقدرة على مستقبل حر من جهة أخرى... الذين شاهدوا، وعايشوا، المشروع الحضاري الناهض في مراحله الاولى، والذين شاهدوا وعايشوا محاولة تحطيم المقدمات، والانجازات، والامنيات.

هذه الكتيبة التي نظرت في عين الواقع، وانتقدته، أصرت على استكمال مسيرتها، بالرغم من محاولة اخافتها، عن طريق مصادرة أعمالها، وأعمال غيرها.

ولم يأت عام ١٩٧٣ الا وكانت أربعة أفلام هامة ممنوعة من العرض: «العصفور» ليوسف شاهين، و«زائر الفجر» لممدوح شكري، و«التلاقي» لصبحي شفيق، و«جنون الشباب» لخليل شوقي. . وهذه الافلام تتعرض لقضية الحرية، في العديد من أشكالها. . . في «العصفور» مرافعة حارة، لاطلاق الشعب الرافض لهزيمة ١٩٦٧، كي يصفي حسابه مع العدو، بقوة السلاح، فالجماهير التي تتدفق لتملأ القاهرة، في نهاية الفيلم، لن تستسلم لمن يمس حريتها.

ومن خلال محاولة تحطيم بطلة «زائر الفجر» معنوياً، من قبل الاجهزة المباحثية، يشن الفيلم هجومه، بلا تردد، على الارهاب النفسي، الذي يرمي الى تكميم الافواه وتركيع أصحاب الرأي.

وتمتد هجائية «التلاقي» لتشمل مجمل عوامل السلب والفساد، التي تشيع اليأس، عند النابهين من أبناء الوطن.

ويطالب «جنون الشباب» بالحوار، والتفاهم، بين الاجيال، والانتباه الى أشواق الجيل الجديد الذي يطمح لمزيد من الحرية.

هكذا. . . أربعة أفلام ممنوعة، خلال عامين، في مقابل ثلاثة أفلام تعرضت لمتاعب رقابية، طوال عقدين من الزمان.

ايقاف عرض هذه الافلام كانت بداية تنبىء بتوجهات السلطة الجديدة من جهة، وبعلاقات، بالغة التوتر والسوء بينها وبين قطاع لا يستهان به من السينمائيين والمثقفين.

وفي عام ١٩٧٥، عندما عرض «الظلال في الجانب الاخر» للفلسطيني غالب شعث ـ والفيلم من انتاج «جماعة السينما الجديدة»، والتي حققت من قبل «أغنية على الممر» لعلي عبد الخالق ـ كان النظام قد انتهى من توقيع اتفاقية فك الاشتباك الثاني التي تنص مادتها الثالثة على أن الطرفين «سوف يستمران في أن يراعيا وقف اطلاق النار في البر والجو والامتناع عن أية أعمال عسكرية أو شبه عسكرية ضد الطرف الاخر». . . ونظراً لان «الظلال». . . برؤيته الشابة التي تناصر فكر المقاومة الفلسطينية القائل بأن «البندقية هي التي ستفتح الطريق الى المستقبل» لذلك فان الفيلم تعرض لما يشبه «مؤامرة اغتيال»، فسرعان ما تم سحبه من دار العرض، وسط أنباء تمهيدية مريبة، نشرتها الصحف الرسمية، تقول أخباراً غامضة من نوع «صرحت لجنة الثقافة والاعلام بمجلس الشعب بأنها لن تناقش مستوى الافلام المصرية في الجلسة التي أعلن عنها، وأن اعتراضها كان على فيلم واحد يجري عرضه في القاهرة»(١٢).

وما إن تبين كتاب التخلف، ومروجو السينما المتردية موقف النظام من الفيلم، حتى انطلقوا في مهاجمته، على نحو بالغ الشراسة والتجني. وكمثال، نشرت إحدى المجلات «أن الفيلم فشل سينمائي ذريع تخسر فيه جماعة السينما الجديدة نقطة ثمينة في المباراة الدائرة بين المخرجين القدامى والجدد. . والفيلم يعتبر إهداراً لمال الدولة حين كان المال سائباً وأبواب المجلات مفتوحة للغاضبين والسينمائيين الجديد وكنوز الغد السينمائي وغير ذلك من الاوصاف التي امتلأت بها أعمدة النقد حين كان النقاد من أتباع غيفارا

والشيخ إمام»(١٣).

ولعلك تلاحظ أن هذا المقال لايهاجم الفيلم فحسب، ولكنه يشمل في هجومه اتجاهاً سينمائياً كاملاً، فضلاً عن مجموعة النقاد الذين وقفوا الى جانب الفيلم، وسيدافعون لاحقاً، عن جميع الافلام التي تتعرض لقمع الرقابة، كما لايفوت المقال، وهو يجرح نظام ماقبل ١٩٧١، أن يبتز أصحاب الافلام ـ التي تحتضن مثل هذا الفيلم ـ بأن يصفها بذات الاوصاف التي أطلقها الاجانب، منذ أكثر من أربعة عقود، في جريدة «لابورص»، عندما حاولوا استعداء السلطات ضد صناع «أولاد الذوات».

وطوال العقد القادم، لم تتوقف المعركة ـ سينمائياً ـ من أجل الحرية، ومما زاد تأججها، أن الايمان بالديمقراطية، نتيجة لانتعاش الثقافة التقدمية، خلال السنوات الطويلة الماضية، كان قد ترسخ في وجدان قطاع لايستهان به من الشباب السينمائيين. وفي الوقت ذاته، كان النظام يتجه سريعاً ـ تحت شعارات «التصحيح» و«الانفتاح» و«أخلاقيات القرية» ـ بعيداً عن مصالح الجماهير من جهة، ونحو الحكم الفردي، الاستبدادي، من جهة أخرى. . ورداً على وصف «أنا رب العائلة المصرية» الذي أطلقه السادات على نفسه، وحاول تطبيقه واقعياً، قدمت السينما المصرية، العديد من الافلام، تتمتع بقوة ايحائية هائلة، ولاتكتفي بنقد هذه الفكرة «الابوية» فحسب، بل وتحذر من مغبتها.

تدور أحداث «عودة الابن الضال» ١٩٧٤ ليوسف شاهين، في قرية «ميت شابورة»، التي تكاد تلخص مصر كلها. . يطالعنا الابن الاكبر ـ عطية ـ أو شكري سرحان، الذي آلت له السلطة أخيراً. . يسيطر تماماً على مقدرات الامور. . هو «رب العائلة»، الامر الناهي، المتظاهر بأنه يعمل لمصلحة الجميع، ولكنه نموذج للشراهة والقسوة، يمتلىء بالرغبة الجنونية في الاستحواذ على الثروة والسلطة.

وككل طاغية، ينجح مؤقتاً، في القبض على كل الخيوط وكلما زادت قبضته قوة زادت شراهته، وبالتالي يزيد من كراهية الجميع نحوه، هؤلاء الجميع الذين خابت آمالهم وتبددت أحلامهم، وأدركوا، من التجربة القاسية، أكذوبة «الاب» وزيف «المستبد العادل» وفساد فكرة «العائلة الواحدة، التي يقودها، ويفكر لها ويعلمها، ويعمل من أجلها «عبقري واحد».

وعلى طول الفيلم البديع، الذي يحظى بتكامل عناصره الفنية، تزداد التناقضات حدة، بين الجميع، ولان «رب العائلة» لايسمح بالحوار، فإن «ميت شابورة» كلها تنفجر بالدم، في نهاية من أشد النهايات قسوة، في تاريخ السينما العربية. . فالمذبحة التي تندلع بين أفراد العائلة، تدمر المكان، وتغرق الشاشة بالدم.

المفارقة ذات الدلالة الهامة، انه، بعد عرض الفيلم بشهور قليلة، وفي الوقت الذي كانت فيه أجهزة الاعلام الرسمية، تتحدث عن الاستقرار والتماسك، وسنوات الرخاء القادمة، في ظل «رب العائلة» انفجر الشارع المصري، من الاسكندرية حتى أسوان، بالغضب والعنف، في انتفاضة ١٧، ١٨ يناير الشهيرة، واندلعت حرائق وسقط قتلى، وتحققت نبوءة «الابن الضال» التحذيرية، على نحو يعطي لهذا الفيلم الحق، في ان يعاد تقييمه من جديد.

وفي عام ١٩٨١، يقدم رأفت الميهي في فيلمه «عيون لاتنام» الاخ الكبير اورب الاسرة ـ فريد شوقي

ـ المسيطر الآمر، الذي يعيش «ملكاً» في الورشة حيث يعمل فيها اشقاؤه الاربعة، هو تنويعة أخرى على حاكم «ميت شابورة» المستبد. ولايجد إخوته أمامهم، بعد أن تعذبوا طويلاً من بطشه الا ترك الورشة، بل والوطن كله.. لكن يبقى شقيقه الاصغر، أحمد زكي، وتزداد التناقضات فيما بينهما، ويضيق الخناق على الاصغر. وفي النهاية المروعة للفيلم يندفع المقهور، رافعاً عموداً من حديد ليهوي به فوق رأس الطاغية الذي تتفجر جبهته بالدم.

مرة أخرى «المفارقة التي تثبت قدرة السينما الهائلة على الا تصور الواقع فقط، بل أن تراه، وألا تتوقف عند الحاضر فحسب، بل تستشعر المستقبل، وأن تدرك، وهي تؤمن بالحرية، ماينتظر الطغاة، إن «عيون لاتنام»، بعد عرضه بثمان وأربعين ساعة، أوقف عرضه، بل توقفت جميع دور السينما عن تقديم الافلام.. ذلك أن حديثاً تاريخياً قد وقع: اغتيل أنور السادات.

أما الفيلم الثالث الذي تمتع بالوعي والبصيرة، وعبر بجلاء، عن عجز الاستبداد والقهر، فهو «البريء» لعاطف الطيب ١٩٨٦، الذي يعد، شأنه شأن «عيون لاتنام» و«عودة الابن الضال» صرخة في واد، من أجل الحرية، لم يستمع لها أحد من أصحاب السلطة، أو قل صرخة تحذير رفض من كان جديراً بأن يتفهمها أو يصدقها أو حتى يسمح بأن تصل الى الناس.

انتهى تنفيذ الفيلم في أواخر ١٩٨٥ ورفضت الرقابة عرضه لأنه «يسيء الى القوات المسلحة ووزارة الداخلية».. وتحرك صناع الفيلم. أرسلوا برقيات وشكاوي، وكتب النقاد عن ضرورة الافراج عن «البريء». وعقدت لجنة تظلمات مرتبكة، حاولت أن تمسك العصا من المنتصف فوافقت على عرض الفيلم مع حذف النهاية أو تغييرها ـ هل تذكر فيلم لاشين؟ ـ والنهاية هنا بالغة الاهمية، بدونها يصبح الفيلم ناقصاً فكرياً وفنياً.

يقدم الفيلم ابن القرية، أحمد سبع الليل ـ أحمد زكي ـ الذي لايعرف القراءة والكتابة وإن كان صديقه المتعلم، ابن قريته، ممدوح عبد العليم، يحاول أن يعلمه. ويذهب أحمد زكي الى الجيش، ويجند ضمن قوات الامن المركزي، ويعد لكي يصبح مخلباً صغيراً من مخالب السلطة، ويتم تدريبه على كيفية مواجهة المظاهرات وقمع «أعداء الوطن، بلا تردد أو رحمة.. وها هو يؤدي عمله بكل إخلاص، يضرب المعتقلين من الشباب والمثقفين. لكن أخيراً يجد ابن قريته، ممدوح عبد العليم، قادماً ضمن المعتقلين، ويحاول ببراءة، أن يشرح لقائده كيف أنه يثق في ابن قريته، وأنه من المستحيل أن يكون من أعداء الوطن، وبالطبع تكون النتيجة أن يعاقب. وعندما يلقى ابن قريته مصرعه، في زنزانة المعتقل، يقرر أحمد زكي أمراً.. ها هو فوق أحد أكشاك المراقبة، يطلق رصاصات مدفعه الرشاش، على قيادات المعتقل، رموز القمع والارهاب.

وفي ١٩ فبراير ١٩٨٦، ولاول مرة في تاريخ السينما المصرية والعربية، وربما في العالم كله، يجتمع ثلاثة وزراء في قاعة سينما، لمشاهدة «البريء» واتخاذ قرار بشأنه.. الوزراء هم: المشير عبد الحليم أبو غزالة، وزير الدفاع. اللواء أحمد رشدي وزير الداخلية. الدكتور أحمد هيكل وزير الثقافة..!

في الاسبوع التالي مباشرة، في صباح ١٩٨٦/٢/٢٦، نشرت جريدة الأهالي، في صفحتها

الثقافية، دعوة المخرج عاطف الطيب لجميع السينمائيين الى الاضراب عن العمل تضامناً مع «البريء»..
لكن الاهم، في ذلك الصباح، ان الآلاف من جنود الامن المركزي، الذين لايعرفون شيئاً عن الفيلم، تمردوا على قياداتهم، وخرجوا من معسكراتهم، في هستيريا جماعية، يدمرون، يحرقون، يزاولون العنف ضد كل مايجدونه في طريقهم، وكما تبين فيما بعد، لم يكن تحركهم مؤامرة أو هدفاً سياسياً بعيداً، وإن ماقاموا به، كما ذكرت المحكمة في أسباب تبرئتها لهم، كان من المنطقي أن يقوموا به.. فمن الذي يستطيع أن يدين أحداً ضاقت به سبل الحياة، ويعيش تحت وطأة الشقاء، محروماً من الحقوق الاساسية للانسان، وقرر أخيراً، بعد أن سدت في وجهه كل الابواب المشروعة، أن يلجأ الى العنف، وأن يدمر ماتطاله يداه.. حتى لو كان الثمن دماره هو نفسه.

هذه الافلام الثلاثة، النموذجية، تشرح نفسها بنفسها، وتثبت أن السينما العربية في مصر، في تيار من تياراتها، ترفض الركوع وهي عندما تنهض، تعبر بابداع، عن الحرية كهدف ومصير، طالما أن هناك من يرنو لها بعيونه، ويركض، بكل قواه، في اتجاهها.

* مثلان: من سوريا.. والجزائر:

«نجوم النهار»، ذلك الفيلم الآسر الحميم، الذي فاز بالجائزة الكبرى في مهرجان فالنسيا السينمائي ١٩٨٨، والذي أخرجه أسامة محمد، يدور في نطاق الاسرة، ولكن أية أسرة؟.. أسرة تكتسب دلالة أوسع وأعمق من مجرد كونها خلية صغيرة في مجتمع.. إنها عالم كامل، أو على الاقل تعبر عن أشواق أحد أبناء الامة العربية الى شيء من العدل، وشيء من الحرية.

في أسرة «نجوم النهار» يطالعنا الأخ الكبير، المسكين والمتسلط في آن واحد، فهو، لأنه مقهور، يقوم بقمع بقية أفراد أسرته.. وثمة الشقيقة، التي تفرض عليها زيجة لاتوافق عليها، فتهرب ليلة عرسها.. وبينما نعايش، ابن الاسرة المجند، الذي ارتهنت حياته بتحرير الأرض، نشهد ابن العم الدعي، الذي يحمل في عقله حقيبة كبيرة من الألفاظ الرنانة التافهة، يكون منها أزجالاً حسب المناسبة والطلب.

لكن، من بين أبطال الفيلم، تنهض شخصية على درجة كبيرة من الأهمية.. صاحبها يختزل ويوحي بأمور كثيرة. إنه الشقيق الأصغر. يقال أن والده ضربه على أذنيه عندما كان طفلاً صغيراً، وبالتالي، لم يفقد القدرة على السماع فحسب، ولكنه، فقد القدرة على الكلام.. وعلى طوال الفيلم يبدو لنا كما لو كان يفهم، ويعي، ولكنه يعامل على أنه «قاصر»، يؤمر، وما عليه إلا أن يطيع.. ولكنه، في أحد أجمل مشاهد الفيلم يفاجئنا، بصرخاته المدوية، وهي تنسحب على كل دمشق، فندرك، أنه، بالنيابة عنا جميعاً، يحتج، ضد من ضربه ـ أو ضربنا ـ على أذنيه صغيراً، فأفقده القدرة على الكلام أو كاد، وضد من يقمعه ويستغله كبيراً.

وفي «القلعة» لمحمد شويخ الفائز بالجائزة الثانية في مهرجان فالنسيا أيضاً، يقدم المخرج الجزائري سكان منطقة «القلعة».. لكن القلعة هنا ليست قطعة من الأرض فحسب، ولكنها معنى أيضاً: هي

التقاليد في أبشع صورها وحشية، هي المجتمع الذكوري، الابوي، المكبل بأغلال الذل والاستغلال والنواهي.

ومن بين سكان القلعة تبرز شخصية ـ قدور ـ الذي يعامله الجميع كمتخلف عقلياً، بلا ارادة و كرامة، يقال أنه كان لقيطاً، رباه «سيدي» أحد كبراء القلعة، والذي يقرر أن يزوجه بعد أن تعددت الشكاوى من سلوكه نحو نساء المنطقة، ولما لم يجد زوجة له، ولأنه حلف بالطلاق، ولأنه لايريد أن يطلق أية واحدة من زوجاته الاربع، فإنه، بناء على مشورة أحد المشعوذين، يقيم حفل العرس، ويفرح «قدور» ووسط مباهج الفرح يحملون له عروسته المغطاة بملاءة. . وعندما يدخل الغرفة ويصبح منفرداً بها يحدثها حديثاً، جميلاً رقيقاً، نكتشف منه أنه أبعد مايكون عن التخلف. ويرفع الملاءة، فيفاجأ بأنها مجرد «موديل» من الجص. وأن العرس كله كان لمجرد عدم الحنث بيمين الطلاق.

واذا كان «البريء» المصري تد فتح النيران على قاهريه، ولقى مصرعه برصاصة من أحد زملائه المساكين، وإذا كان «الاخرس»، في الفيلم السوري أخذ يجأر بالصراخ على مدخل دمشق، فإن من عومل «كمتخلف عقلياً» في الفيلم الجزائري تنتابه نوبة من الرعب والغضب. . وها هو، يحمل «الموديل» على كتفيه ليلقي به من فوق تل فيتحطم، ثم يندفع بنفسه ليلقى مصرعه. . ومن بين الجموع التي تشهد المنظر المروع، على ضوء المشاعل، نلمح طفلة صغيرة، تحاول، بكل قوتها، أن تفلت من الحصار لتحتج وتتمرد. . فهل تستطيع أن تخرج من القلعة أو تحطم جدرانها؟

أغلب الظن، أنها ـ وبقية أبناء وطنها العربي، وأطفال الحجارة ـ ستنجح، وستعيش عصراً من الحرية، قامت السينما العربية، في تيار من تياراتها، بالتبشير به، والدعوة له، على نحو ما، وهو أمر يحسب لها، على كل حال.

مراجع:

١ ـ ورد النص في كتاب احمد الحضري «تاريخ السينما في مصر» ص١٥٦.
٢ ـ ورد النص في كتاب أحمد فياض للمفرجي «السينما في العراق» ص٧.
٣ ـ مجلة الصباح ٨ سبتمبر ١٩٣٣.
٤ ـ ٥ مذكرات محمد كريم ص ١١٥.
٦، ٧، ٨ ـ مناقشات حول أبحاث «الهوية القومية في السينما العربية: مسجلة. غير منشورة.
٩ ـ ابراهيم العريس «رحلة في السينما العربية» ص٤٩
١٠، ١١ ـ أورد الواقعتين سمير فريد في كتاب «الهوية القومية في السينما العربية».
١٢ ـ جريدة الاهرام القاهرية ١٠/٥/١٩٧٥.
١٣ ـ فوميل لبيب. الكواكب ١٤ اغسطس ١٩٧٥.

الانتفاضة والخطاب الإعلامي السياسي الجديد

محمد مباركه*

منذ انطلاقتها في التاسع من كانون الاول ١٩٨٧، وعت الانتفاضة / الثورة الشعبية في الوطن الفلسطيني المحتل، انها كثورة، تقع عليها مسؤولية قلب الواقع الذي يعيش فيه الفلسطينيون والانقلاب عليه، وتغيير الموازين التي تحكمت لسنوات طويلة في طبيعة الصراع العربي ـ الصهيوني على أرض فلسطين فكانت ثورة المحكومين ضد الحاكمين، وثورة المظلومين ضد الظالمين، وثورة المحتلة اراضيهم ضد المحتلين الصهاينة الغاصبين. . . ثورة كل الشعب لأنها لمصلحة كل الشعب وتهدف الى تحرير الشعب من عبودية الاحتلال وعنصريته. . من هنا كانت تضحيات شعبنا داخل الوطن المحتل عظيمة وكبيرة، ذلك لأن الأهداف كانت ولاتزال، عظيمة وكبيرة وهذه هي طبيعة شعبنا، منذ أكثر من قرن من زمن صراعه مع الغزوة الاستيطانية الصهيونية، يقدم التضحيات، ويبذل الدماء رخيصة عندما يتضح له أن الهدف هو الحرية، والاستقلال وتقرير مصيره فوق أرض وطنه من هنا فان الحرية والاستقلال مطلبان جماهيريان منذ بداية هذا القرن والى الآن، تكاتفت كل عوامل القهر وسلب الارداة والحقوق، من صهيونية وامبريالية ورجعية عربية من أجل القفز فوق مطالب شعبنا في الاستقلال والسيادة على أرضه. وهناك قاعدة بدهية أصبحت معروفة جداً، وهي أن الشعوب العظيمة لاتقبل بالتضحيات الكبيرة والعظيمة إلا من أجل أهداف عظيمة وكبيرة. . ومن هنا نبدأ أهم درس للانتفاضة.

* باحث من فلسطين.

التقاليد في أبشع صورها وحشية، هي المجتمع الذكوري، الابوي، المكبل بأغلال الذل والاستغلال والنواهي.

ومن بين سكان القلعة تبرز شخصية ـ قدور ـ الذي يعامله الجميع كمتخلف عقلياً، بلا ارادة و كرامة، يقال أنه كان لقيطاً، رباه «سيدي» أحد كبراء القلعة، والذي يقرر أن يزوجه بعد أن تعددت الشكاوى من سلوكه نحو نساء المنطقة، ولما لم يجد زوجة له، ولأنه حلف بالطلاق، ولأنه لايريد أن يطلق أية واحدة من زوجاته الاربع، فإنه، بناء على مشورة أحد المشعوذين، يقيم حفل العرس، ويفرح «قدور» وسط مباهج الفرح يحملون له عروسته المغطاة بملاءة. . وعندما يدخل الغرفة ويصبح منفرداً بها يحدثها حديثاً، جميلاً رقيقاً، نكتشف منه أنه أبعد مايكون عن التخلف. ويرفع الملاءة، فيفاجأ بأنها مجرد «موديل» من الجص. وأن العرس كله كان لمجرد عدم الحنث بيمين الطلاق.

واذا كان «البريء» المصري قد فتح النيران على قاهريه، ولقى مصرعه برصاصة من أحد زملائه المساكين، وإذا كان «الاخرس»، في الفيلم السوري أخذ يجأر بالصراخ على مدخل دمشق، فإن من عومل «كمتخلف عقلياً» في الفيلم الجزائري تنتابه نوبة من الرعب والغضب. . وها هو، يحمل «الموديل» على كتفيه ليلقي به من فوق تل فيتحطم، ثم يندفع بنفسه ليلقى مصرعه. . ومن بين الجموع التي تشهد المنظر المروع، على ضوء المشاعل، نلمح طفلة صغيرة، تحاول، بكل قوتها، أن تفلت من الحصار لتحتج وتتمرد. . فهل تستطيع أن تخرج من القلعة أو تحطم جدرانها؟

أغلب الظن، أنها ـ وبقية أبناء وطنها العربي، وأطفال الحجارة ـ ستنجح، وستعيش عصراً من الحرية، قامت السينما العربية، في تيار من تياراتها، بالتبشير به، والدعوة له، على نحو ما، وهو أمر يحسب لها، على كل حال.

مراجع:

١ ـ ورد النص في كتاب احمد الحضري «تاريخ السينما في مصر» ص١٥٦.

٢ ـ ورد النص في كتاب أحمد فياض للمفرجي «السينما في العراق» ص٧.

٣ ـ مجلة الصباح ٨ سبتمبر ١٩٣٣.

٤ ٥ مذكرات محمد كريم ص ١١٥.

٦، ٧، ٨ ـ مناقشات حول أبحاث «الهوية القومية في السينما العربية: مسجلة. غير منشورة.

٩ ـ ابراهيم العريس «رحلة في السينما العربية» ص٤٩

١٠ ، ١١ ـ أورد الواقعتين سمير فريد في كتاب «الهوية القومية في السينما العربية».

١٢ ـ جريدة الاهرام القاهرية ١٠/ ٥/ ١٩٧٥.

١٣ ـ فوميل لبيب. الكواكب ١٤ اغسطس ١٩٧٥.

الانتفاضة والخطاب الإعلامي السياسي الجديد

محمد مباركه*

منذ انطلاقتها في التاسع من كانون الاول ١٩٨٧، وعت الانتفاضة / الثورة الشعبية في الوطن الفلسطيني المحتل، انها كثورة، تقع عليها مسؤولية قلب الواقع الذي يعيش فيه الفلسطينيون والانقلاب عليه، وتغيير الموازين التي تحكمت لسنوات طويلة في طبيعة الصراع العربي ـ الصهيوني على أرض فلسطين فكانت ثورة المحكومين ضد الحاكمين، وثورة المظلومين ضد الظالمين، وثورة المحتلة اراضيهم ضد المحتلين الصهاينة الغاصبين. . . ثورة كل الشعب لأنها لمصلحة كل الشعب وتهدف الى تحرير الشعب من عبودية الاحتلال وعنصريته. . من هنا كانت تضحيات شعبنا داخل الوطن المحتل عظيمة وكبيرة، ذلك لأن الأهداف كانت ولاتزال، عظيمة وكبيرة وهذه هي طبيعة شعبنا، منذ أكثر من قرن من زمن صراعه مع الغزوة الاستيطانية الصهيونية، يقدم التضحيات، ويبذل الدماء رخيصة عندما يتضح له أن الهدف هو الحرية، والاستقلال وتقرير مصيره فوق أرض وطنه من هنا فان الحرية والاستقلال مطلبان جماهيريان منذ بداية هذا القرن والى الآن، تكاتفت كل عوامل القهر وسلب الارداة والحقوق، من صهيونية وامبريالية ورجعية عربية من أجل القفز فوق مطالب شعبنا في الاستقلال والسيادة على أرضه. . وهناك قاعدة بدهية أصبحت معروفة جداً، وهي أن الشعوب العظيمة لاتقبل بالتضحيات الكبيرة والعظيمة إلا من أجل أهداف عظيمة وكبيرة. . ومن هنا نبدأ أهم درس للانتفاضة.

* باحث من فلسطين.

ـ القضية الفلسطينية والاعلام:

من خلال تراكمات الوعي النضالي لجماهير شعبنا العربي الفلسطيني داخل الوطن المحتل، وازدواجية التجربة النضالية، من خلال تبادل خبرات الكفاح بين الداخل والشتات في الحركة الوطنية الفلسطينية المعاصرة، برزت أهمية الحفاظ على التراث النضالي لشعبنا، وضرورة إحيائه والاستفادة من الخبرات التي تراكمت طوال سنوات المجابهة مع العدو الصهيوني المحتل وبالتالي ابتكار أساليب مجابهة وتحد جديدين، بشكل يدفع العمل الكفاحي قدماً للأمام، ويفوت على المحتلين الصهاينة ومؤسساتهم القمعية محاولات حرف الكفاح وإجهاضه لحظة ولادته . .

من هنا كانت التحولات النوعية في طبيعة عوامل المجابهة وإدارة الصراع مع العدو بشكل حاز على نجاحات متواصلة، أثبت فيها شعبنا الفلسطيني وطلائعه وقياداته الميدانية، أنها خير خلف لخير سلف وأن القضية الفلسطينية المقدسة في أيد أمينة معطاءة، قادرة وقوية ولا تهاب الاستمرار في اجتراح المعجزات النضالية حتى يتم انتزاع النصر وفرض ارادة الشعب ونيل الحرية والاستقلال ولعلنا نجد في طبيعة المعركة الاعلامية التي خاضتها وخططت لها قيادات شعبنا داخل الوطن المحتل، ممثلة في القيادة الوطنية الموحدة للانتفاضة، أبرز دليل على تلك التحولات النوعية في الخطاب الفلسطيني السياسي والعسكري في الحوار مع الذات الفلسطينية لإبراز خصوصيتها وهويتها الوطنية، وفي الحوار المسلح «ولو بالحجارة وزجاجات المولوتوف» مع الآخر، ومايمثله من تحالفات صهيونية امبريالية في العالم. . فالوعي وإدراك الوسائل في المعركة الاعلامية كانا كفيلين بتحقيق الهدف من خوض الصراع والمجابهة، خاصة حين ندرك ـ ويدرك معنا الآخرون ولو بعد حين ـ أن الصهيونية لم تنجح في بناء مشروعها الاحتلال العنصري، وإقامة كيانها العدواني، إلا على قاعدة من المفاهيم والدعاوى الاعلامية الزائفة، المستندة إلى أساطير وخرافات غزت فيها الصهيونية عقول المجتمع الدولي، وخاصة الرأي العام العالمي الأوربي الغربي، والأمريكي، الذي بات نتيجة هذا الاختراق مرتهنا ارادة ومشيئة لاملاءات الخطاب السياسي الصهيوني والاسرائيلي، التي تبدأ من أن اليهود هم «شعب الله المختار» ولهم (حقوق تاريخية) في أرض فلسطين العربية، وأن فلسطين هي (أرض بلا شعب أعطيت لشعب لاأرض له) ولاتنتهي عند القول الزائف بأن (اسرائيل واحة الديمقراطية) في الشرق الأوسط و(حصن منيع للغرب الحضاري في وجه همجية الشرق) وأنها (الدولة الصغيرة المحاصرة بالعداء العربي) ينبغي (الحفاظ على أمنها) إلى آخر تلك المقولات والأساطير الزائفة التي تكرست ـ بقوة الاختراق الاعلامي الصهيوني ـ في عقول غالبية الرأي العام العالمي، الذي (تعاطف) مع الوجه الصهيوني من الصراع في المنطقة فناصر الجاني ووقف ضد الضحية المتمثلة بالشعب العربي الفلسطيني والأمة العربية التي كانت ـ ولسنوات طويلة خلت ـ عاجزة عن زحزحة المواقف الدولية قيد أنملة من مواقعها المناصرة للجناة الصهاينة، رغم ماعاناه شعبنا وأمتنا العربية من عدوان واحتلال صهيوني استيطاني عنصري اجلائي يعتبر أخطر أنواع الاستعمار الحديث على الاطلاق.

يخطيء من يظن أن ساحة الرأي العام الدولي كانت فارغة إلا من الخطاب الدعائي والإعلامي الصهيوني طوال سنوات الصراع بين العرب واسرائيل خلال العقود الأربعة الماضية، بل لقد أدرك العرب أهمية التغيرات والتحولات الدولية التي تستند إلى تحركات الرأي العام من أجل قضية ما، لذلك كان الهدف الإعلامي العربي موضوعاً لخدمة ونصرة الحق العربي ولكنه كان إعلاماً قاصراً ومحدود الامكانات، لم يستطع ـ طوال سنوات الصراع ـ أن يكون إتجاهاً شعبياً دولياً يقف مناصراً للحق العربي والفلسطيني اللهم سوى بعض التعاطف الذي كانت تحظى به القضية العربية في المحافل الدولية كقضية إنسانية وليس كقضية سياسية ـ عسكرية وحق تاريخي لشعب اغتصبت أراضيه ويعاني من الاحتلال. .

ولعل القصور والمحدودية الملازمين للإعلام العربي الخارجي نابعان من مسألتين: خطأ الإدراك والتقدير العربي للعوامل التي تشكل الرأي الجماعي الأوروبي الغربي والدولي بشكل عام، المسألة الثانية، هي بنية الإعلام الدولي التي تقوم على المزاوجة مابين (المصلحة والترفيه) في التعامل مع الأنباء وهذا ما تؤكده طبيعة الإعلام الغربي ـ الأمريكي (وهو يسيطر على معظم وكالات الأنباء العالمية الكبرى ومئات الصحف وشبكات التلفزة) هذه الطبيعة التي يمكن اختصار توجهاتها في كونها تعتمد العوامل المادية والإستهلاكية التي تؤمن الاستثمار والربح على قاعدة جدّ بسيطة هي (المصلحة والترفيه) خاصة وأن النظام الإعلامي الدولي لايتعامل مع القضايا من وجهة نظر حق ضد باطل أو إنسانية الموضوع بل من خلال قوة المنافسة لاستقطاب أكبر عدد من المستفيدين المستهلكين لتحقيق الأرباح وهذا ماتعكسه أساليب الإعلان في معظم وسائل الإعلام الغربي (المقروءة والمسموعة والمرئية) فهي تستغل الأحداث وفق منطق المنفعة والربح والقاعدة المادية الغربية ربطت مابين المنفعة والتسلية فما هو مسلّ هو نافع، وماهو نافع فهو مسل من هنا كان الإختراق الصهيوني لوسائل الإعلام وخاصة الغربية والأمريكية منها. . .

وغالباً ماكانت أقلام النقد تتوجه للإعلام العربي بالتقصير وخاصة في مجال مفهوم (الإعلام ودوره في نصرة الحق العربي)، فالتوصيف العربي لوضع الإعلام العربي الخارجي (أي الموجه للآخرين) بأنه (مقصر في أداء دوره). وينطلق معظم النقاد من القياس على النجاحات التي حققها الصهاينة في ميدان الإعلام الدولي. . ولعلنا لانعدم هنا إقرار مسألة هامة وخطيرة، قد تغيب عن ذهن البعض، وهي أن الخطاب الدعائي الصهيوني لم يكن لينجح لولا توافق في الأساليب والغايات مع تلك المجتمعات والنظم السياسية التي كانت ساحاتها ميداناً لانتصاراته. . . فالمصلحة الصهيونية المرتبطة بمصلحة الإمبريالية الأوروبية الغربية والأمريكية هي التي كفلت للإعلام الصهيوني نجاحاً كبيراً كونها (حاضنته) وهو ابنها (المدلل). فالصهيونية ماهي إلا اختراع أوروبي استعماري جديد، وعودة للأساليب الاستعمارية القديمة (عسكرياً وسياسياً واقتصادياً) ولكنها بوجه جديد. . ومن هنا كان التوافق في الأساليب والغايات بل من هنا كان التطابق في المصالح. . ونظرة متأنية، ومختصرة جداً، للوضع الإعلامي العربي يمكن أن تفيد في إيضاح الجانب الإعلامي الدعائي في وجهيه (التعبئة الإعلامية الداخلية) الموجهة للجماهير العربية داخل

الـوطن العربي، و (الإعلام المضاد) وهو مايعنينا هنا، لأنه يصارع ويواجه إعلام العدو الصهيوني على الساحة الدولية لكسب الرأي العام العالمي . وفي إطار البحث العربي عن سياسة إعلامية أفضل تبرز الحق العـربي وتجمع المناصرين حول القضية العربية الأولى، فلسطين، تمهيداً لتغيير المواقف الدولية وانتزاع الحقـوق وتحقيق الانتصار . في هذا الإطار برزت مقترحات عربية عديدة لتحسين السياسة الإعلامية ويمكن ملاحظة الإتجاهات التالية:

- الاتجاه الأول: وهو الذي يقصر حملة (الإعلام العربي) على دول أوروبا الغربية والأمريكيتين، يقول بضرورة التنافس مع القوى الصهيونية والإمبريالية في امتلاك وسائل الإعلام الدولية (شراء أسهم) وخاصة التركيز على امتلاك وسائل الإعلام الدولية المؤثرة (وكالات الأنباء مثلاً وشبكات التلفزة) أو عن طريق شراء أسهم في كبريات الصحف اليومية والأمريكية ويمكن لهذا الإتجاه أن يقصر طموحه على شراء صفحات في الصحف والمجلات كاعلانات لنشر وجهة النظر العربية . . . أو شراء دقائق معدودة في بث المحطات الدولية الإذاعية والتلفزيونية للغرض نفسه وهناك من عمل على شراء صحف ومجلات دولية أو اسهم في مجالس إدارات شبكات التلفزة والإذاعة أو استطاع تحقيق هدفه من خلال علاقات ما مع الإداريين أو الفنيين في تلك الوسائل كمندوبي الإعلان والمراسلين والمراقبين وكتاب التقارير السياسية. ولايزال هذا الإتجاه يقوم بدوره بنشاط ولكن نتائجه لم تحقق الغاية التي وضع لأجلها ولايمكن قياس النتائج وأحياناً تأتي عكسية مع الإمكانات التي وضعت بتصرف أصحاب هذا الاتجاه.

- الاتجـاه الثـاني: وهو ينطلق من نظرة تكنوقراطية لكنها لاتقصر ساحة المواجهة الإعلامية على الميدان الأوروبي أو الأمريكي لاكتساب الرأي العام الدولي بل تمد نشاطها إلى ميادين أخرى في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية . . . وأصحاب هذا الاتجاه يرون عقم الاتجاه الأول لأنه يتجه فقط إلى رجل الشارع العادي ويرون أنه محكوم لطبيعة النظم السياسية والإعلامية التي يعيش في ظلها وهو (متغير المزاج) نظراً للطبيعة المادية المصلحية التي تربطه بالقضايا المثارة اعلامياً . لذلك يقترح أصحاب هذا الاتجاه مقابل ذلك أو عوضاً عنه، أو في أحسن الأحوال السير بجانب الاتجاه الأول: الاعتماد على زيادة البعثات الأكاديمية والثقافية حيث يتحدث رجال (النخبة) من أدباء ورجال فكر وسياسيين مع بعضهم وتدور حوارات هامة وتعقد ندوات ومحاضرات لايضاح القضية العربية والحق الفلسطيني عن طريق مخاطبة العقل الأوروبي - الأمريكي من خلال (عقول النخبة) التي هي فاعلة بالضرورة في القرار السياسي للنظم الحاكمة لا عن طريق مخاطبة عواطف الجمهور، وبمستويات دنيا . .

- الاتجاه الثالث: وهو اتجاه تبلور حديثاً عقب حرب تشرين أول عام ١٩٧٣، ومارافقها من تغيرات اقليمية ودولية بحيث مهدت - حرب تشرين - لبروز القضية العربية، بقوة نتيجة اعتمادها على مزاوجة القوة العربية وسلاح النفط. . فكان الظهور العربي كبيراً على الساحة الدولية ومن خلال شبكة الإرتباطات والمصالح ينطلق أصحاب هذا الاتجاه وهم وإن كانوا يعطون اعتباراً للأفكار والأساليب التي يطرحها أنصار الاتجاهين السابقين إلا أنهم لايعولون عليها أبداً في احداث تغيرات في المواقف السياسية للدول لذلك ينطلق أصحاب هذا الاتجاه من ضرورة المزاوجة بين العمل السياسي والإعلامي ومن خلال علاقات سليمة

مع دول العالم التي يجب أن تعي أن مصالحها مع العرب توجب عليها معرفة قضيتهم والوقوف بجانبهم.

ويؤكد أصحاب هذا الاتجاه بأن مواقف الدول الصديقة للعرب لم تأت من خلال خطط اعلامية (كما يروج أنصار الاتجاهين السابقين) بل من خلال مصالح مشتركة وأهداف مصلحية وأحياناً مواقف ايديولوجية تربط بين تلك الدول والأنظمة فيما بينها وفي علاقاتها مع العرب ويسوقون أمثلة على ذلك مواقف (دول عدم الانحياز، ودول الوحدة الافريقية، والمعسكر الاشتراكي وعلى رأسه الاتحاد السوفياتي ومواقف دول أوروبا الغربية وأمريكا واليابان والصين) ويؤكد أصحاب هذا الاتجاه أن العالم يسير نحو تنظيم الدول في كتل سياسية وتجمعات متضامنة، تتيح خوض (الصراع البارد) بمختلف الأساليب. . . ويبلغ من حماس بعض أصحاب هذا الاتجاه أن فكروا - وعملوا أيضاً - على حشد جهد عربي (من خلال الحوارات وجمعيات الصداقة، والمنظمات الدولية والإنسانية) يقوم بدور قوى الضغط (لوبي) في العالم لكن اقتصاره حالياً على دوره في الولايات المتحدة كظاهرة تحد للوبي الصهيوني وجماعات الضغط الأخرى - لايقلل من أهميته فالتأثير على صناعة القرار في النظم الدولية يبدأ حتماً حيث تكون الأمم المتحدة.

الانتفاضة تكسب معركة الإعلام

استناداً لما ذهبنا إليه في بداية بحثنا نرى أن هناك حقيقة هامة هي خلاصة لأساليب (التجريب) الإعلامي في الخطاب السياسي العربي كان للانتفاضة الثورة الشعبية الفلسطينية فضل إظهارها وهي أن الإعلام وتحسين الصورة الإعلامية للعرب لها حدود، وإدراك هذه الحدود غاية في الأهمية وإلا نكون كمن يحشد الآخرين لمشاهدة (سيرك) أو كمن يعول أهمية كبرى على الوسائل ويحيلها إلى غايات. الهدف هو نصرة الحق الفلسطيني إن كان بوسائل إعلامية أو سياسية أو بنضال سلبي مدني أو عسكري مسلح، وكلها أساليب لغاية واحدة هي النصر والتحرير والعودة. وكلها وسائل محدودة الإمكانات مهما اجترحنا في إطارها من معجزات هامة ومن هنا يصبح التساؤل مشروعاً، فكيف أدارت الانتفاضة حملتها الإعلامية، رغم محدودية الأساليب؟ وكيف استطاعت الانتصار في المعركة الاعلامية وفي ميدان الإعلام الدولي الذي هو حكر لمقولات دعائية اعلامية صهيونية امبريالية؟ وما هو السر الذي استطاعت الانتفاضة عن طريق فك طلاسمه ورموزه أن تستقطب الإهتمام الدولي لدرجة وقف فيها الرأي العام في كل مكان إلى جانبها، مناصراً لها مديناً الاحتلال الصهيوني وأساليبه القمعية الفاشية؟ .فالتحول الذي حققته الانتفاضة الفلسطينية خلال عام في الرأي العام العالمي كان كثيراً جداً، بل لعل الجهد الإعلامي الذي بذل ونتائجه الظاهرية خلال العام الماضي من عمر الانتفاضة يوازي بل يفضل مابذل طوال سنوات عمر الصراع مع العدو.

وللإجابة عن مجمل تلك التساؤلات نرى أن الانتفاضة استطاعت توظيف كل الخبرات والإدراكات الواعية طوال تجربة النضال الوطني الفلسطيني ضد الاحتلال ونجحت في إدارة حملتها الإعلامية من خلال وضوح الرؤية لطبيعة أطراف الصراع في المنطقة ولطبيعة التحالفات التي تربط الكيان الصهيوني مع العالم، إضـافة لقراءة واعية لمرتكزات الإعلام الدولي وأهمية (أجهزة التلفزة) التي تدخل كل بيت فراهنت على

كاميرات التلفزيون وتقارير مراسلي شبكات التلفزة إضافة لمراسلي وكالات الأنباء الدولية، وانتصر رهانها. حيث استطاعت عمليات الاحتجاج والتظاهر وقذف الحجارة والمجابهات اليومية التي عكست عنصرية الصهاينة ووحشيتهم، وبمواكبة وملاحقة عدسة الكاميرا التلفزيونية أن تحقق الغاية والهدف وكان الإنتصار وكسب المعركة الإعلامية في الساحة الدولية واستقطاب الرأي العام الذي عبر عن تضامنه مع الانتفاضة والقضية الفلسطينية بالتظاهرات وبيانات التنديد بالاحتلال والتصريحات التي تطالب اسرائيل بالإنسحاب من الأراضي العربية المحتلة وإحقاق الحقوق الوطنية للشعب الفلسطيني في الحرية وتقرير المصير. فقد بدأت السفارات الاسرائيلية في ألمانيا الغربية وفرنسا وكندا والولايات المتحدة وبلجيكا وفي كل العالم الغربي تبرق لوزارة خارجية العدو عن السخط العام والإحساس بالإشمئزاز تجاه اسرائيل بسبب ممارستها ضد الفلسطينيين، بل إن مايسمى باللوبي الصهيوني صاحب النفوذ العريق في الولايات المتحدة الأمريكية ممثلاً في (ايباك) قد صرح بأن ثمة احتمالاً أن يقوم المرشحون للرئاسة الأمريكية بفك الارتباط مع اسرائيل بل ان بعضهم قد يلجأ إلى تأكيد استقلاله عن المؤسسة الحاكمة باتخاذ موقف معاد لاسرائيل (جيروزاليم بوست الاسرائيلية ١٩٨٨/٢/٥).

وفي رسالة تهكمية لا تخلو من تقريع وتحذير للقيادة الصهيونية في اسرائيل، كتب حاخام امريكي يدعى جوديا ميللير حول انتصار الانتفاضة اعلامياً يقول: إذا كان المنتفضون يجيدون استخدام التغطية التلفزيونية فإن هذا الأمر معروف استخدمته كل الجماهير المحتجة من قبل وأشار إلى أن مارتن لوثر كنغ (داعية حقوق الإنسان الأمريكي) كان قد أخرّ القيام بمسيرته الشهيرة ثلاث مرات حتى تحضر كاميرات التلفزيون كما أن حركة الحقوق المدنية في الولايات المتحدة وحركة الاحتجاج على الحرب في فيتنام استخدمت الإعلام بكفاءة أيضاً. ويذكر الحاخام بأن المستوطنين اليهود كانوا قد استغلوا الإعلام في حادثة السفينة (اكسودس / الخروج) مما دفع بريطانية الدولة المنتدبة على فلسطين آنذاك إلى أن تشتكي من استغلال الإعلام ويختم هذا الحاخام رسالته بالقول ـ وهانحن نشتكي، وهذا دليل على قوة اسرائيل.. فالضعفاء وحدهم يستخدمون الإعلام ـ.. (جيروزاليم بوست ١٩٨٨/٤/٤). إذن فقد حدث الخلل في القيادة الصهيونية التي كانت تستغل الإعلام لكسب الرأي العام الدولي، وها هي الانتفاضة تدرك بل وتمارس (لعبة الإعلام) بل لعلها كانت الأكثر نجاحاً في ادارته لصالحها. وندرك هذه الحقيقة من طبيعة رد الفعل الصهيوني، وقيادة حكومة العدو التي هالها هذا الانتصار في الساحة الدولية وخاصة اوربة الغربية وأمريكا، حيث تعتبرهما حكراً إعلامياً لها. من هنا كانت (الضربة الإعلامية) التي وجهتها الانتفاضة للعدو موجعة وأصابت منه الصميم بل لعل هذا الانتصار الإعلامي الناجح قد كشف زيف الدعاوى السابقة التي نجحت الصهيونية في تسريبها محاولة لتكريسها كحقائق وهي تدور كلها حول (سلطة مطلقة) للصهيونية ومنظماتها على الإعلام في أوربة الغربية وأمريكا فجاءت ضربة الانتفاضة لتكشف هذا الخطأ الكبير الذي كنا سنقع فيه لو استمرت القناعات كما هي سابقاً وحتى ندرك أكثر حجم هذا الانتصار الإعلامي للانتفاضة لابد من متابعة ردود الفعل الصهيونية في اسرائيل وعلى ذلك فقد مارست حكومة العدو ولاتزال حملة شرسة ضد وسائل الإعلام الفلسطينية داخل الوطن المحتل وفرضت حظراً على صدور

الصحف العربية واعتقلت مئات الصحفيين الفلسطينيين بتهمة التحريض على الانتفاضة كما أنها فرضت قيوداً ورقابة صارمة على مايكتب وينشر في الوطن المحتل وعلى صعيد الإعلام الدولي فقد منعت الصحفيين ومراسلي وكالات الأنباء والصحف وشبكات التلفزيون الأجنبية من متابعة أحداث الانتفاضة وحظرت عليهم الدخول إلى مناطق الأحداث إلا بعد إذن مسبق أو بمرافقة من جنود الإحتلال وأدى الأمر بها إلى ضرب الصحفيين والإعلاميين الأجانب وتحطيم كاميراتهم واتلاف أفلامهم وفرضت حملة تعميم إعلامي على أحداث الانتفاضة من خلال جملة من قوانين حظر التجول، وإغلاق المناطق عسكرياً ومنع دخول الصحفيين إليها وطبقت ولأول مرة رقابة صارمة حتى على الصحافة الإسرائيلية وإقامة ندوات توعية للصحفيين ورؤساء الصحف اليهودية بغية تحجيم الانتصار الإعلامي الفلسطيني... وفي خطة فاشية جديدة قامت بتسيير دوريات من أجهزة الأمن الصهيونية تحت ستار أن رجالها من الصحفيين الأجانب كانوا يتجولون بلباس مدني ومعهم كاميراتهم، لكن قيادة شعبنا داخل الوطن المحتل كشفت خطط الأعداء وأفشلتها وحذرت في نداءاتها المتكررة المواطنين الفلسطينيين من هذه المحاولات..

وفي محاولات لتشويش عمل الانتفاضة، أصدرت أجهزة أمن العدو عدة بيانات ونداءات حملت تواقيع مختلفة لمنظمات وشخصيات فلسطينية ونداءات مشوهة حملت اسم قيادة الانتفاضة في محاولة لحرف الانتفاضة عن مسارها الكفاحي... ولكشف القيادات السرية التي تقود النضال الفلسطيني ميدانياً ولكن جميع هذه المحاولات تم كشفها وإبطال مفعولها مما أدى إلى فشلها.

يقول مراسل (فرانس برس) في الوطن المحتل (يبدو أن الجيش الاسرائيلي قرر إبعاد الصحافة والمصورين قدر الإمكان عن مناطق التظاهرات الاحتجاجية لعدم كشف الممارسات الوحشية اللاإنسانية هناك التي يقوم بها وصرح أفراد طاقم تلفزيوني فرنسي من الصعب جداً التصوير في قطاع غزة بسبب اجراءات المنع التي فرضها القائد العسكري الاسرائيلي (كانون الثاني ١٩٨٨).

ويعترف المحلل العسكري الإسرائيلي في صحيفة جيروزاليم بوست ١٩٨٨/١/٢٦ بأن جيش الإحتلال استخدم أساليب قمع لا مثيل لها في محاولة لاحتواء الوضع. فقد استخدم الطائرات العمودية لنشر الغاز المسيل للدموع والقنابل الدخانية الخانقة كما نشر القناصة برصاصهم الحي. وتم فرض حظر على وسائل الإعلام لمنع تغطية الأحداث.

ولم تقتصر حملات القمع الوحشي الفاشي والإرهاب الصهيوني على جماهير شعبنا العربي الفلسطيني فقط بل امتدت لكل من يناصر الحق ويظهر الحقيقة. وخاصة ضد مراسلي وكالات الأنباء والمصورين التلفزيونيين الأجانب. فقد ذكرت التقارير في الشهر الثالث للانتفاضة أن اعتداء وحشياً بالضرب المبرح تعرض له طاقم تلفزيوني أمريكي يعمل لحساب شركة (سي بي اس) التلفزيونية أثناء تواجده في قطاع غزة المحتل أثناء متابعتهم وتصويرهم لجنود الإحتلال وهم يقومون بحملة قمعية لأحد الشبان الفلسطينيين وقال مصور الطاقم ويدعى موشي بن دور: (أن نحو عشرة جنود من قوات كتيبة المشاة الخاصة (جفعاتي) اعتقلوه وضربوه وركلوه وحطموا بعض معداته بسبب تصويره هذا المشهد الوحشي العنيف.

ولاننسى هنا أن نشير بأن فرض حكومة العدو للتعتيم الإعلامي على أحداث الانتفاضة لإخفاء

وقائع المصادمات والمواجهات الدامية، وفظائع القمع الصهيوني لجماهير شعبنا، إنما تم فرضه منذ وقت مبكر من أحداث الانتفاضة وبناء على نصيحة من هنري كيسنجر الصهيوني ووزير الخارجية الأمريكي الأسبق الذي طالب في شهر آذار ١٩٨٨ وأثناء مأدبة غداء مع شخصيات صهيونية بأن تقوم حكومة شامير / رابين بإبعاد جميع طواقم التلفزيون الأجنبي والصحفيين الأجانب حتى لاتسجل أية صورة للجرائم التي ترتكب لأن هذه الصورة تسيء إلى اسرائيل وإلى جميع يهود العالم الذين يخدمونها خاصة بعد أن وقف العالم أجمع أمام أبشع صور الإرهاب والممارسات العنصرية الصهيونية من خلال عدة أشرطة تلفزيونية لعل أبرزها مشاهد تحطيم عظام أربعة شبان فلسطينيين في نابلس كانت كاميرات وكالة (سي بي نيوز) قد التقطتها وبثتها كل شاشات التلفزة في العالم.

ويبدو أن العمل بنصيحة كيسنجر لم يفد سلطات الإحتلال التي وقفت عاجزة عن ملاحقة كل الصحفيين وفي كل مواقع الصدامات الدامية. ووقفت سلطات الإحتلال عاجزة عن مكافحة (كاميرات التلفزيون) التي كانت تنقل بعدسات مقربة ممارسات القمع وتفضح على شاشات التلفزيون العالمية الجوهر العنصري للكيان الصهيوني الأمر الذي وضع قادة العدو أمام مأزق خطير كان لابد معه من الاختيار بين الإستمرار في ادعاء (الديمقراطية وحرية الرأي والصحافة) وبين ضرورة وضع حد لهذا الأمر. فرئيس الكيان الصهيوني حاييم هرتزوغ وجه انتقاداً شديد اللهجة في شهر حزيران ١٩٨٨ لوسائل الإعلام الأجنبية وموقفها من تغطية أبناء الانتفاضة وزعم (أن دوافع معادية للسامية تقف وراء التغطية الإعلامية المكثفة للانتفاضة) واعترف بأن كاميرات التلفزة أصحت سلاحاً أساسياً بيد الفلسطينيين في تصديهم لقوات الإحتلال قائلاً: (إن كاميرات التلفزة الأجنبية صارت سلاحاً رئيسياً ضدنا). واعترف (بالخطر السياسي والإقتصادي لهذه التغطية) التي تظهر اسرائيل على حقيقتها عارية من التلاوين والأصباغ الصهيونية التي تم حشو عقل الرأي العام العالمي بها.. ومن جهته شن شامير رئيس حكومة العدو حرباً على أجهزة التلفزيون في المناطق المحتلة وأمر جنود الإحتلال بتدمير الأجهزة في كل بيت واتهم وسائل الإعلام الأجنبية (بالتواطؤ ضد اسرائيل) واعتبر أن ماتنقله وسائل الإعلام (هو الإرهاب بعينه الموجه لاسرائيل) واتهم وسائل الإعلام بأنها (وراء الانتفاضة والدافع لاستمرارها).

ولكن هذا الجنون الهستيري لقادة العدو لم ينجح في فك طوق العزلة الدولية عن الكيان الصهيوني بل زاد في قناعة العالم بالخطأ (التاريخي والإنساني) الذي ارتكب في فلسطين على حد قول وفد برلماني بريطاني زار فلسطين المحتلة في شهر آذار من العام الماضي وقال أعضاء الوفد في مؤتمر صحفي عقدوه في القدس المحتلة يوم ١٨/٣/١٩٨٨ : (ليس للإسرائيليين الصهاينة أي حق في فلسطين ويجب على المستوطنين اليهود أن يعودوا إلى البلدان التي أتوا منها).

ومن هنا فإن العدو الصهيوني الذي بات يدرك خطر سلاح الإعلام عندما يكون في يد «الخصم» الفلسطيني ويديره بنجاح، قام بتدريب جنوده على (فن استخدام الهراوة أمام عدسات التلفزيون) و (فن ترحيل المناضلين بالطائرات مع ابتسامة من مجندات جيش اسرائيل وعويل نساء الهولكوست واوشفانيز) لكن قادة العدو رغم كل شيء، لازالوا يقمعون بصورة مطلقة وسائل الإعلام الأجنبية ويمنعونها من أداء

دورها، وهذا مادفع رئيس رابطة الصحفيين الأجانب في فلسطين المحتلة إلى تقديم مذكرة احتجاج على هذه الممارسات التي سجل منها ١٥٠ حالة إرهاب ضد إعلاميين أجانب، والتي تم نقل بعضها على شاشات تلفزيون عالمية، في حين دفعت الرابطة الدولية للصحافة ومقرها بروكسل إلى إدانة انتهاك سلطات الإحتلال الإسرائيلية لحرية الصحافة واعتقالها للصحفيين الفلسطينيين والأجانب.. وتبنت الرابطة عريضة بهذا الشأن تضم تواقيع ٣٠٠ شخصية إعلامية وصحفية دولية، وتم توزيع العريضة على قادة دول السوق الأوروبية المشتركة في بداية العام الحالي وعلى مختلف المؤسسات الأوروبية.

وفي الحقيقة، لانستطيع في هذه العجالة القصيرة أن نحيط بعنوانها الكبير. لكن أملنا أن تكون لبنة في مدماك فهم طبيعة دور الإعلام والخطاب الإعلامي / السياسي الذي كرسته الانتفاضة بصورة مثلى لنصرة الحق العربي الفلسطيني، واستطاعت فيه ليس فقط التأثير بالإعلام العربي الرسمي الشعبي، بل بالإعلام الدولي الذي بات أسيراً للحدث الفلسطيني، يتصدر واجهة الأنباء والصفحات الأولى في معظم وسائل الإعلام.

ولاننسى أن (معركة الإعلام) لم تهدأ ولن تهدأ أبداً بين العرب والصهاينة، بل لعل صورة التجديد الإعلامي، والعمل الإعلامي الصحيح قد بدأت منذ لحظة تفجر الانتفاضة، إنها حالة الاستفادة القصوى حتى من الإمكانات المحدودة جداً... فالصراع دائر ومستمر حتى دحر الاحتلال والانتصار عليه وتحقيق التحرير والعودة.

في انتظار عودة العلاقات
بين يوغوسلافيا وإسرائيل..

مغزى أطروحة فوك دراشكوفيتش حول الأخوة الصربية - اليهودية

د. محمد موفاكو*

يعتبر الكاتب فوك دراشكوفيتش دون شك من أهم الرموز في مرحلة ما بعد تيتو، وحتى لمرحلة ما بعد يوغسلافيا اذا بقيت الأمور تسير على ماهي عليه الآن. وهكذا يمكن لفوك دراشكوفيتش وأمثاله من الكتاب أن يدعموا دورهم الكبير في كل ماحصل ويحصل في يوغسلافيا منذ عدة سنوات وليوغسلافيا في السنوات القادمة.

وكنموذج لهذه التغيرات الكبيرة والمفاجئة التي تحدث الآن في يوغسلافيا يكفي أن نشير الى «انبعاث» التآخي الصربي - اليهودي. وكان فوك دراشكوفيتش أول من كشف عن هذه «الأخوة» الصربية - اليهودية في رسالته المفتوحة الى اتحاد الكتاب في اسرائيل في ربيع ١٩٨٧، حيث دعا فيها الى تعزيز هذه «الأخوة» بالاستناد الى «التاريخ المشترك». وكان يمكن ان يقال حينئذ أن فوك دراشكوفيتش لايمثل غالبية أعضاء رابطة الكتاب في صربيا، أي أن بعض الكتاب سيشعرون بالصدمة وسينسحبون من هذه الرابطة احتجاجاً على هذا الوضع، بينما يبدو الآن الأمر مختلفاً تماماً بعد سنتين فقط. وهكذا في صيف ١٩٨٩

---

* كاتب ومترجم سوري - يوغوسلافي.

تضع المجلة البلغراديه المعروفة «نين» على صفحة الغلاف بكاملها صورة المثقف الصربي بوغدان ماغليتش الذي يدعو الى تعزيز التحالف الصربي - اليهودي حتى في أمريكا. واذا كان هناك في ١٩٨٧ من يشعر بالصدمة ويحتج بشكل ما على ما طالب به دراشكوفيتش ففي ١٩٨٩ لم يحدث شيء كهذا في صربيا على الأقل، إذ لم يحتج في هذه المرة أي كاتب على ماجاء في هذا اللقاء حول العلاقات الصربية - اليهودية.

وهكذا يتضح هنا مغزى الفرق بين ١٩٨٧ و ١٩٨٩، إذ إن ١٩٨٩ جاءت لتكرس تغيرات عميقة لم يكن أحد يتوقع أن تحدث في عهد تيتو أو حتى قبل عدة سنوات فقط. ومن الصعب هنا أن نتبين مغزى هذا الانعطاف الخطير دون الرجوع الى الماضي القريب.

لقد كانت يوغسلافيا، بالشكل الذي برزت به في ١ - ١٢ - ١٩١٨، تمثل تتويج المصالح الصربية - الغربية اكثر مما تمثل التطلعات الحقيقية، القومية الديموقراطية، لسكان الدولة الجديدة. فقد كانت صربيا تعتبر «يوغسلافيا» تجسيداً لمشروعها القومي - التاريخي بعد أن استقلت سنة ١٨٧٨ وتوسعت سنة ١٩١٢. وفي الواقع لقد كانت الحركة القومية في صربيا، كبقية الحركات القومية في البلدان المجاورة (البلغارية، اليونانية، الالبانية)، تستلهم امبراطوريات القرون الوسطى (امبراطورية دوشان الصربية، الامبراطورية البلغارية، الامبراطورية البيزنطية)، ولذلك فقد كان تكريس أية دولة من هذا النوع في بداية القرن العشرين يعني تكريساً للعنف لأن حدود كل دولة من هذه الدول المتخيلة كانت تمتد على حساب الدول الأخرى[١].

وهكذا بعد أن توسعت صربيا كثيراً خلال ١٩١٢ - ١٩١٣ لم يعد أمامها إلا الامبراطورية النمساوية - الهنغارية التي انهارت اخيراً في نهاية الحرب العالمية الأولى. ونظراً لتداخل المصالح الصربية - الغربية فقد برزت يوغسلافيا في ١ - ١٢ - ١٩١٨ ككيان بديل عن الامبراطورية النمساوية - الهنغارية في البلقان[٢].

إلا أن هذا لايعني بطبيعة الحال أن يوغسلافيا كانت مجرد فكرة لتكريس التوسع الصربي. فقد برزت فكرة الرابطة اليوغسلافية في النصف الثاني للقرن التاسع عشر لدى بعض المثقفين في كرواتيا وسلوفينيا أيضاً، التي كانت تتمتع بنوع من الحكم الذاتي في إطار الامبراطورية النمساوية - الهنغارية، كطموح كبير لتأسيس دولة واحدة للسلاف الجنوبيين (اليوغسلاف) يتمتع فيها الجميع بالحرية والمساواة.

وهكذا لم يكن من المستغرب أن تبرز في نهاية ١٩١٨ (ايلول - تشرين الأول) يوغسلافيتان: دولة يوغسلافيا الشمالية التي أعلنت في زغرب والتي شملت المناطق التي كانت تابعة للامبراطورية النمساوية - الهنغارية، ودولة يوغسلافيا الجنوبية (صربيا التي توسعت كثيراً بعد أن ضمت اليها الجبل الأسود والمناطق المجاورة) التي كانت تسعى للسيطرة على دولة الشمال.[٣]

ونظراً للظروف المعقدة فقد تم الاتحاد بين هذين الكيانين في ١ - ١٢ - ١٩١٨ بشكل غير طبيعي وغير ديمقراطي مما كان يعني أن الكيان الجديد (يوغسلافيا تحت حكم أسرة كاراجورجفيتش الصربية) كان يحمل معه بذور موته في اليوم الذي ولد فيه. وفي الواقع لقد كانت القوى الديمقراطية والاشتراكية في صربيا نفسها تنتقد منذ ١٩٠٥ عسكرة صربيا والمشروع التوسعي للبرجوازية الحاكمة لانه كان يؤدي بالضرورة

الى التوسع على حساب الشعوب المجاورة وتعميق العداء بين الشعوب البلقانية. ومن هنا فقد دعت هذه القوى الى تعزيز التقارب بين الشعوب البلقانية وحتى الى نوع من الاتحاد البلقاني كبديل عن الدولة الواحدة الموسعة التي تبتلع بالضرورة حقوق الآخرين (الدولة الصربية الكبرى، الدولة البلغارية الكبرى الخ)[٤]. ومن الطبيعي ألا تكون هذه القوى الديمقراطية والاشتراكية مقتنعة بالشكل الذي برز فيه الكيان الجديد في ١ ـ ١٢ ـ ١٩١٨ إذ إنها كانت تعتبر يوغسلافيا عبارة عن «صنيعة فرساي»، أي ككيان يعبر بالدرجة الأولى عن مصالح صربيا ودول الحلفاء بالدرجة الأولى. ومن هنا لم يكن من المستغرب أن يطرح الحزب الشيوعي اليوغسلافي، الذي تأسس في السنة التالية (١٩١٩)، في برنامجه حينئذ تحطيم يوغسلافيا وتقسيمها الى كيانات قومية لكي يتمتع كل شعب بحقوقه القومية والديمقراطية[٥].

ومن ناحية أخرى فقد كانت البرجوازيات الأخرى في الكيان الجديد، وبالتحديد البرجوازية الكرواتية والسلوفينية وغيرها، قد صدمت نتيجة استئثار البرجوازية الصربية بحصة الأسد في الدولة الجديدة ولذلك فقد بقيت تصر على رفض هذا التقاسم للمصالح والحقوق القومية[٦].

وتجدر الاشارة هنا الى أن الكيان الجديد حمل في البداية اسم «مملكة الصربيين والكرواتيين والسلوفينيين»، أي إن السلطة الحاكمة لم تكن تعترف الا بوجود هذه الشعوب اليوغسلافية الثلاثة في الدولة الجديدة. ومن هنا فقد كانت خيبة الشعوب والقوميات الأخرى التي وجدت في هذه الدولة (البوسنويون، المكدونيون، المونتنغريون، الالبانيون، الهنغاريون) أعمق ومقاومتها أكبر. وبالإضافة الى هذا الخلل في الشعور بالمساواة القومية فقد كان الخلل في الشعور بالمساواة الدينية أكبر بكثير. فنظراً الى أن كيان ١ ـ ١٢ ـ ١٩١٨ كان يجسد انتصار الجنوب على الشمال، انتصار المفهوم الصربي القروسطي على المفهوم اليوغسلافي الديمقراطي، فقد انفجر التعصب ضد المسلمين منذ الأيام الأولى وتمثل هذا في الاساءة الى المقدسات الاسلامية (الجوامع بشكل خاص)، واللجوء الى الترغيب والترهيب لاعادة المسلمين الى «الدين القديم» بعد عدة قرون من اعتناقهم الإسلام، وإحراق قرى بكاملها وإرغام عشرات الألوف على الهجرة خلال الشهور الأولى فقط من عمر الكيان الجديد[٧].

وهكذا يمكن القول: إن يوغسلافيا الأولى التي برزت في ١ ـ ١٢ ـ ١٩١٨ كانت عبارة عن تحالف يمثل بالدرجة الأولى مصالح المثلث الصربي (الملكية الصربية ـ البرجوازية الصربية ـ الكنيسة الصربية) الذي كان يجد تغطية له لدى بعض الكتاب الصربيين (فاسو تشبرولوفيتش، ايفو اندريتش، ميلوش تسريانيسكي الخ). واذا أخذنا بعين الاعتبار التحالف القائم بين مصالح الطبقة الحاكمة في بلغراد ومصالح الحلفاء (فرنسا وانكلترا بشكل خاص)، الذي ولدت بفضله يوغسلافيا الأولى في ١ ـ ١٢ ـ ١٩١٨، لم يعد من الصعب أن نفهم خلفيات السياسة الداخلية والخارجية. ففي الوقت الذي مورس فيه الإرهاب المكثف ضد المسلمين من أبناء البلاد، سواء في البوسنة أو في كوسوفا، نجد أن العهد الملكي قد وفر أقصى حرية للحركة الماسونية ـ اليهودية، الصهيونية في يوغسلافيا[٨]. وفي هذا الوضع لم يكن من المستغرب ان تكون يوغسلافيا الملكية من أولى الدول الاوربية التي تبنت وعد بلفور ودعت الى تطبيقه فوراً في فلسطين[٩].

وفي الواقع لقد كان يمكن منذ ذلك الحين أن نلمس بدور التعاطف والتضامن والتحالف بين الاتجاه اليميني المتطرف في الحركة القومية الصربية وبين الاتجاه اليميني المتطرف في الحركة القومية اليهودية (الصهيونية). ويمكن أن نجمل هذه البذور، أو الأسس على وجه أدق، في ثلاث قضايا مشتركة:

- قضية الشعب المختار.
- قضية الحق التاريخي في فلسطين او في كوسوفا.
- قضية الارض المقدسة (فلسطين بالنسبة لليهود وكوسوفا للصربيين).

ففي يوغسلافيا الأولى، الملكية، أخذ يتصاعد التمجيد بـ «الشعب الصربي» على اعتباره الشعب الذي ضحى باستمرار في سبيل المثل الاعلى (يوغسلافيا)، ولذلك يصبح من حقه أن يتمتع بيوغسلافيا التي حققها بما لايتمتع به الآخرون. وقد تطور هذا التمجيد، كما سنرى لاحقا، الى حد الترادف بين «الشعب الصربي» و«الشعب المختار». ومن ناحية أخرى فقد كانت قضية «الحق التاريخي» في كوسوفا تستند الى الوجود العابر للدولة الصربية في كوسوفا خلال القرون الوسطى (ق ١٢ ـ ١٤)، الذي تضخم لاحقا في التراث المينولوجي، دون أي اعتبار لتبلور واقع اثني ـ ديني آخر خلال القرون اللاحقة (ق ١٥ ـ ٢٠). وفي الواقع لقد تبلور هذا «الحق التاريخي» بالاستناد الى مقولة «الأرض المقدسة». فقد أصبحت كوسوفا فجأة تعتبر «الأرض المقدسة» للشعب الصربي نظراً لوجود بعض الكنائس والأديرة الصربية التي بنيت خلال توسع الدولة الصربية في كوسوفا (ق ١٣ ـ ١٤) والتي بقيت في اماكنها لعدة قرون بفضل تسامح المسلمين[١٠]. وهكذا بالاستناد الى هذا أصبحت العودة الى «الأرض المقدسة» (كوسوفا) تعتبر مسألة وقت فقط. وهكذا فقد انطلق الاتجاه الصربي اليميني المتطرف منذ الأيام الأولى لاعلان يوغسلافيا ١ ـ ١٢ ـ ١٩١٨ لتكريس «الحق التاريخي» واسترداد «الأرض المقدسة» بغض النظر عن وجود شعب آخر (الالبانيون) يمثل غالبية السكان في كوسوفا[١١].

وفي سبيل هذا الهدف فقد طبقت حينئذ كافة اشكال الإرهاب الفردي والجماعي لدفع السكان الى الهجرة للخارج (تركيا)، بالإضافة الى تأسيس المستوطنات الصربية بشكل مكثف، لتغيير الواقع الأثني ـ الديني على الأرض بأقصى سرعة. وفي سبيل هذا الهدف أيضاً لم يقصر بعض الكتاب المعروفين (تشبريلوفيتش وايفو اندريتش) بتقديم مشروعات عنصرية للتخلص بشكل جماعي وبأقصى سرعة من لشعب الآخر الموجود في كوسوفا[١٢]، وحتى عقد اتفاقيات ضخمة مع تركيا لتنظيم هجرة جماعية لسكان كوسوفا على اعتبار أنهم من الأتراك (١٩٣٨)[١٣]. وهكذا في حزيران ١٩٣٩، في الذكرى الـ ٥٥٠ لـ «معركة كاسوفا» التي هزم فيها التحالف البلقاني المسيحي بقيادة الملك الصربي لازار امام الجيش العثماني في سهل كوسوفا، أقام نظام بلغراد احتفالاً حاشداً في السهل الذي جرت فيه المعركة سنة ١٣٨٩ لكي يستعرض انجازاته خلال ١٩١٨ ـ ١٩٣٩ لتكريس العودة الصربية الى «الأرض المقدسة». الا أن القوى الديمقراطية في ذلك الحين، بقيادة الحزب الشيوعي اليوغسلافي، شوشت جو الاحتفال بالشعارات والبيانات التي تندد بالسياسة التي تهدف الى توطين شعب في كوسوفا على حساب اقتلاع شعب آخر[١٤].

ولكن الحرب العالمية الثانية سرعان ماندلعت في خريف ١٩٣٩ لتجمد الوضع بشكل مؤقت (تجميد

تطبيق الاتفاقية اليوغسلافية ـ التركية حول تهجير حوالي نصف مليون ألباني من كوسوفا بحجة أنهم من الاتراك). وفي الواقع لقد كانت يوغسلافيا قد وصلت الى نهايتها نتيجة للشعور بالغبن عند البعض (الكرواتيين والسلوفينيين) والاضطهاد عند البعض الاخر (المكدونيين والالبانيين الخ). ولذلك فقد سقطت يوغسلافيا الملكية كبرج كرتوني خلال أيام امام الهجوم الألماني في نيسان ١٩٤١ اذ لم تجد من يرغب بالدفاع عنها. ولم يكن هذا السقوط مفاجئا لأحد إذ أن يوغسلافيا الملكية (١٩١٨ ـ ١٩٤١) كانت، كما وصفها تيتو أكثر من مرة، عبارة عن سجن كبير للشعوب والقوميات اليوغسلافية ولذلك لم يتحمس أحد للدفاع عن هذا السجن.[١٥]

وكما هو معروف فقد برزت خلال الحرب العالمية الثانية (١٩٤١ ـ ١٩٤٥) حركتان للمقاومة، وبالتحديد لاعادة توحيد يوغسلافيا بعد ان انقسمت الى عدة كيانات. وقد كانت الحركة الاولى بقيادة الجنرال دراجا ميخائيلوفيتش تقاتل لبعث يوغسلافيا القديمة الملكية، بينما كانت الحركة الاخرى بقيادة تيتو تكافح في سبيل يوغسلافيا اخرى (جمهورية فدرالية تعترف بالتعددية القومية). وكان من الطبيعي ان تتحمس الشعوب والقوميات لحركة الأنصار بقيادة تيتو إذ إن قوات ميخائيلوفيتش كانت تتصرف في «المناطق الحرة» بشكل أسوأ مما كان عليه الامر في يوغسلافيا الملكية.[١٦]

وهكذا ولدت يوغسلافيا الجمهورية سنة ١٩٤٥ بشكل معاكس لولادة ١٩١٨ إذ إن الشمال هو الذي انتصر هذه المرة على الجنوب. وهكذا فقد أصبحت يوغسلافيا عبارة عن ست جمهوريات تمثل بشكل ما التعددية القومية، أي الاعتراف بخمس شعوب يوغسلافية فقط (الصربيون، الكرواتيون، السلوفينيون، المكدونيون والمونتغريون) وقوميات متعددة (الالبانيون، الهنغاريون الخ). وفي الواقع لقد كان هذا أقل من انتصار كامل وأكثر من حل وسط بين الشمال والجنوب، وبالتحديد بين الرؤية اليوغسلافية الديمقراطية والهيمنة الصربية التقليدية. وهكذا فقد تركت الهيمنة الصربية تستمر في الجنوب (البوسنة وكوسوفا) بينما تحرر الشمال تماما من هذه الهيمنة. وفي هذه الظروف استمرت الهيمنة الصربية في سياستها التقليدية ازاء المسلمين سواء في البوسنة التي لم تعتبر جمهورية قومية للمسلمين كباقي الجمهوريات، أو في كوسوفا التي أصبحت مجرد مقاطعة في إطار جمهورية صربيا. وهكذا بـ «فضل» استمرار هذه السياسة خلال ١٩٥٥ ـ ١٩٦٦ اضطر حوالي ربع مليون مسلم يوغسلافي (بوسنوي والباني) الى الهجرة لتركيا من المناطق التي تخضع للهيمنة الصربية.[١٧]

وفي الواقع لقد كان هذا يتزامن مع انفتاح يوغسلافيا على العالم العربي والاسلامي، ومع تبني يوغسلافيا لسياسة التحرر والمساواة بين الشعوب. ولذلك فقد كان الصدام بين الشمال والجنوب لابد منه ثانية. وفعلا لقد حدث هذا في صيف ١٩٦٦ وانتهى الى ابعاد «الرجل الثاني» الكسندر رانكوفيتش وكل انصاره من مناصبهم الحساسة في أجهزة الأمن وهو مااعتبر في حينه تصفية لدولة غير شرعية تشكلت في إطار دولة شرعية. وفي الحقيقة لقد كان هذا يمثل انعطافاً تاريخياً إذ سرعان ماأجريت تعديلات دستورية عميقة (١٩٦٧ ـ ١٩٧١) تتوجت بوضع الدستور الجديد للبلاد (١٩٧٤)، بحيث يمكن القول إن يوغسلافيا اخرى قد برزت في تلك السنة. وقد كان الهدف الاساسي من هذا التغيير العميق إرضاء

المسلمين في البوسنة وكوسوفا بعد أكثر من نصف قرن لتكريس مساواة حقيقية في البلاد تمتص الشعور بالغبن لدى المسلمين الذين أصبحوا الآن يشكلون ربع سكان يوغسلافيا. وهكذا فقد تم الاعتراف أخيراً (بعد خمسين سنة بالتمام والكمال) بالبوسنويين المسلمين كشعب متساوٍ مع بقية الشعوب اليوغسلافية، وأصبحت كوسوفا وحدة فيدرالية متساوية مع بقية الوحدات الفدارالية حسب الدستور الجديد (كرواتيا، سلوفينيا، صربيا، البوسنة والهرسك وفوديفودينا، كوسوفا، الجبل الاسود ومكدونيا)[١٨].

وخلال تلك السنوات (١٩٦٦ ـ ١٩٨٠) أنفقت أطنان من الحبر وآلاف الأطنان من الورق لنشر المقالات والدراسات في كل اللغات عن «التجربة اليوغسلافية» و«النموذج اليوغسلافي» للمساواة القومية، و «دستور ١٩٧٤ الذي لامثيل له»، حتى أصبح المواطن اليوغسلافي يشعر بأن كل العالم يغبطه على ماهو فيه.

إلا أن هذه المساواة الجديدة كانت غير مألوفة وحتى غير مقبولة بالنسبة لأولئك الذين تعودوا على ممارسة الهيمنة والسيطرة على الآخرين، ولذلك فقد كان من الصعب عليهم التأقلم مع يوغسلافيا الجديدة التي برزت بعد ١٩٦٦. وهكذا بدأ الهمس حول «المساواة الزائدة» وحول «تضرر الشعب الصربي» من هذه المساواة في أواخر عهد تيتو، ثم أخذ يتبلور بشكل تدريجي بعد وفاة تيتو (١٩٨٠). وقد بدأ هذا الاتجاه يتبلور من خلال بعث الاهتمام بيوغسلافيا القديمة (١٩١٨ ـ ١٩٤١) واعادة الاعتبار لها وحتى في الدفاع عنها كـ «ضحية» للكومنترن والشيوعية الدولية[١٩]. وفي خطوة لاحقة بدأ الحديث عن صربيا كـ «ضحية» ليوغسلافيا التيتوية! وهكذا فقد أخذ هذا الاتجاه يثير الشعور بالاضطهاد لدى الشعب الصربي على اعتباره شعباً ملاحقا ومضطهدا من قبل الجميع في يوغسلافيا التيتوية. وهكذا وصل الامر فجأة الى حد الحديث عن «مؤامرة» منظمة لتفتيت صربيا وتشتيت الشعب الصربي بعد ١٩٦٦، وحتى عن تحالف كاثوليكي ـ اسلامي (الكرواتيون والسلوفينيون الكاثوليك مع البوسنويين والالبانيين المسلمين) للتحكم بيوغسلافيا ضد صربيا والشعب الصربي الخ[٢٠].

وفي الواقع لقد كانت الأزمة الاقتصادية، التي بدأت تتضح منذ الشهور الأخيرة لحياة تيتو، تتعقد بسرعة وتضرب بقوة مستوى الدخل وتزيد باستمرار عدد العاطلين عن العمل مما جعل التربة صالحة تماما في كل وسط لتقبل أفكار من هذا النوع حول الاضطهاد من قبل الآخرين وحول الأعداء المتربصين بالشعب الخ. وفي الحقيقة لقد كان من المستحيل أن تروج هذه الافكار دون دور فعال للصحافة اليومية والأسبوعية، التي أصبحت تتنافس على العناوين والصور والمقالات والمسلسلات المثيرة للشاعر والعواطف ضد الآخرين. وهكذا عوضاً عن أن تأخذ الأزمة الاقتصادية الحادة (حوالي مليوني عاطل، تضخم سنوي يقترب من ١٠٠٠٪، تدن كبير في مستوى الدخل، سقوط الملايين تحت خط الفقر الخ) منحى طبقيا اجتماعيا بطابع يوغسلافي نجد أنها أخذت طابعاً قومياً محلياً (صربي، الباني، مكدوني الخ) وذلك بتشجيع أحياناً من القيادات المحلية لتغطية بعض التجاوزات والمسؤوليات[٢١]. وفي هذه الظروف الصعبة، الخيبة والشك بالآخرين والقيم الاشتراكية الخ، أخذ الدين يزدهر بسرعة وعادت المؤسسات الدينية لتلعب دوراً كبيراً في تحريك المشاعر المتناقضة بين الشعوب اليوغسلافية وفي هذا الوضع نشطت بشكل خاص الكنيسة

الصربية الارثوذكسية لـ «الدفاع عن الشعب الصربي» «المضطهد» وأصبحت بهذا الشكل تعتبر نفسها «حامية» هذا الشعب والناطقة باسمه[٢٢].

وهكذا بالاستناد الى هذه الارضية يمكن الحديث عن ظهور فوك دراشكوفيتش وعن أطروحته حول «الأخوة» الصربية ـ اليهودية وتطوراتها.

لقد كان فوك دراشكوفيتش صحفياً وروائياً عادياً على المستوى الصربي حتى عام ١٩٨٠، بينما أخذ يبرز بسرعة بعد وفاة تيتو كرمز من رموز المرحلة الجديدة. وفي الحقيقة لقد كان دراشكوفيتش يعمل حينئذ في المجلة اليوغسلافية الوحيدة التي تجمع الطبقة العاملة في يوغسلافيا، الا وهي «الصحافة العمالية» التي تنطق بلسان اتحاد نقابات العمال في يوغسلافيا. وفي هذه الجريدة بدأ دراشكوفيتش بنشر بعض المقالات التي أثارت في حينها بعض الملاحظات والانتقادات، ولكنه أصبح مشهوراً في كل يوغسلافيا بعد أن نشر في أواخر ١٩٨٢ رواية «السكين». فقد كانت «السكين» صدمة للكثيرين في يوغسلافيا، وحتى في صربيا في بداية الأمر، حتى إنها أثارت آلاف التعليقات والمقالات في كل اللغات اليوغسلافية.

وفي الواقع لقد كانت هذه الرواية صدمة للكثيرين لأنها كانت تفتح بشكل متحيز جروح الماضي القريب ـ البعيد. فكما هو معروف لم يسلم أي شعب في يوغسلافيا من المجازر خلال الحرب العالمية الثانية، وخاصة في بعض المناطق الحساسة كالبوسنة والهرسك. وهكذا فقد جاءت هذه الرواية بعد أربعين سنة من محاولات تناسي الماضي الدموي للحديث فقط عن المجازر التي قام بها المسلمون ضد الصربيين دون الإشارة الى المجازر الأخرى التي قام بها الصربيون ضد المسلمين، وذلك لتكريس وتضخيم الشعور بالاضطهاد من قبل الآخرين لدى الشعب الصربي في يوغسلافيا.

وعلى الرغم من الحملة التي قامت في كل أرجاء يوغسلافيا ضد هذه الرواية، التي اعتبرت أن «السكين» هي طعنة في عمق الاتحاد والتآخي بين الشعوب اليوغسلافية، إلا أن «السكين» بقيت تباع في المكتبات واستمرت تصدر من سنة لاخرى مما يوضح أن الكاتب كان يتمتع بدعم معين منذ البداية. وتجدر الاشارة هنا الى أن رئاسة تحرير «الصحافة العمالية» والجهة التي تصدرها (اتحاد النقابات في يوغسلافيا)، شاركت في هذه الحملة اليوغسلافية ضد «السكين» وذلك بتوجيه نقد عنيف ضد تحيزه وحتى إنها لجأت الى فصله من الحزب باعتباره يمثل انبعاث الماضي المرفوض وبالتحديد «الاتجاه القومي الصربي التوسعي»[٢٣].

إلا أن دراشكوفيتش حول هذا الى صالحه والى صالح الاتجاه الذي يمثله إذ إنه أخذ يعتبر هذا دليلاً على الملاحقة الجديدة التي يتعرض لها الشعب الصربي في يوغسلافية التيتوية. وفي ذلك الوقت (١٩٨٤ ـ ١٩٨٦) كانت «رابطة كتاب صربيا»، وهي احدى الروابط الثمانية التي يتألف منها اتحاد كتاب يوغسلافيا، تتحول بالتدريج الى مركز علني لتفجير الشعور بالاضطهاد لدى الشعب الصربي وتضخيم هذا الشعور الى أقصى حد. وكان مما أسهم في تكريس وتعميق «عقدة الاضطهاد» نوع من التحالف بين المؤسسات الثلاثة التي تمثل قمة الهرم الثقافي في صربيا (رابطة الكتاب، الاكاديمية الصربية للعلوم والفنون والكنيسة لصربية)، وذلك من خلال الامسيات الادبية والمشاريع العلمية والعظات الدينية مما خلق أخيراً حالة من

الجيشان في الشارع الصربي[٢٤]. وقد حاولت قيادة صربيا (ايفان ستامبوليتش) في صيف ١٩٨٧ ان تقف ضد هذا التيار، بعد ان شجعته او صمتت عليه في البداية، الا أن هذا الموقف جاء متأخراً جداً وحتى أن هذه القيادة سقطت بسرعة أمام قيادة أخرى تركب هذا التيار (سلوبودان ميلوشيفيتش).

وهكذا ليس من المصادفة أبداً أن يُقبل دراشكوفيتش عضواً في «رابطة كتاب صربيا» في الوقت الذي اكتشف فيه «الأخوة» التي تربط بين الشعبين الصربي واليهودي. فقد وصل دراشكوفيتش في تعمقه وتعميقه لـ «عقدة الاضطهاد» الى أن الشعب الصربي كالشعب اليهودي مضطهد في كل مكان (في يوغسلافيا وفي الدول المجاورة التي يعيش فيها كأقلية) وملاحق في كل زمان من قبل الجميع ولذلك فمن الطبيعي أن يشعر بالتعاطف والتضامن والتآخي مع الشعب اليهودي. وقد عبر دراسكوفيتش عن هذه الافكار في مبادرة لامثيل لها حين وجه في ايار ١٩٨٧ رسالة مفتوحة الى اتحاد كتاب اسرائيل، حيث يصل فيها بعد استعراض «الاضطهاد» و«الافناء» الذي يتعرض له الشعبان الصربي واليهودي الى أن «المعاناة التاريخية والمصير المشترك قد أمليا التآخي على شعبينا»[٢٥].

ونظراً للخط الذي أصبحت تمثله قيادة «رابطة كتاب صربيا» في ذلك الحين فلم يكن من المستغرب ألا يعترض أحد في قيادة الرابطة على هذه المبادرة باستثناء الكاتب ميلان نيكوليتش، الذي انسحب من «رابطة كتاب صربيا» احتجاجاً على موقف دراشكوفيتش وموقف قيادة الرابطة عبر رسالة مؤثرة تحولت الى وثيقة لأنها تعبر بشكل بليغ عن الوضع حينئذ:

«في أيار ١٩٨٧ كنت أقرأ رسالتك الأخوية الى الكتاب في اسرائيل حيث رأيت في التلفاز آخر المشاهد، التي أصبحت الآن عادية، عن الجحيم الذي يعيش فيه الشيوخ والنساء والأطفال الفلسطينيون في لبنان الذين تركوا تحت رحمة الطيران الاسرائيلي.. أين كان قلبك حين كتبت تلك الكلمات وحين قررت أن تغمض عينيك أمام المعاناة وأمام المصير التاريخي للشعب الفلسطيني؟

«لقد قرأت أنك قبلت في رابطة الكتاب في صربيا في نفس اللحظة التي قررت فيها أن أنسحب من هذه الرابطة لأن قيادة الرابطة بمنابرها وأمسياتها ومجلتها «الصحيفة الادبية» تعبر عما تريده أنت بالذات. ومع أنني بقيت ٢٥ سنة عضواً إلا أنه لايوجد لدي وهم بأن الرابطة ستشعر بغيابي. وعلى العكس من هذا فإنني متأكد من أن هذه الرابطة ستحقق فائدة مزدوجة بانسحابي منها وقبولك فيها»[٢٦].

وفي الواقع لقد كان نيكوليتش محقا فيما قاله لأن قيادة «رابطة كتاب صربيا» كانت في ذلك الحين تنسجم أكثر مع أطروحات دراشكوفيتش وأمثاله. وهكذا فقد برزت حينئذ لأول مرة بشكل علني أطروحة «الأرض المقدسة» بالنسبة الى كوسوفا، وذلك في الأمسيات الأدبية المحمومة التي أقامتها رابطة الكتاب في بلغراد خلال ١٩٨٧ وغيرها من النشاطات الادبية ـ السياسية. وقد ردد هذه الأطروحة الكاتب الكسندر بتروف، رئيس «رابطة الكتاب في صربيا» في ذلك الوقت، وذلك في مؤتمر صحفي له في بلغراد بحيث أصبح من الواضح أن قيادة الرابطة قد أصبحت تتبنى بشكل مكشوف هذه الأفكار القديمة ـ الجديدة[٢٧].

والى جانب أطروحة «الأرض المقدسة» خرج دراشكوفيتش في ذلك الوقت بالأطروحة الأخرى، ألا وهي أطروحة «الشعب المختار». ففي الأسبوع الأول من ١٩٨٨ نشر حديث طويل لدراشكوفيتش في

المجلة الدينية «صوت الكنسية»، حيث أفاض فيه بالحديث عن الاضطهاد التاريخي المتواصل الذي يلاحق الشعب الصربي باستمرار والذي لم يتوقف للحظة حتى في يوغسلافيا التيتوية. وفي هذا الاطار يحاول دراشكوفيتش أن يستثير مشاعر القراء الصربيين بالحديث عن وضع الشعب الصربي بين فكي الكماشة الكاثوليكية ـ الاسلامية في يوغسلافيا الحالية. وبالنسبة للإسلام يتجاوز دارشكوفيتش هنا كل حد ممكن إذ إنه يعود ثانية للحديث عن مجازر المسلمين ضد الصربيين في البوسنة خلال الحرب العالمية الثانية، دون أن يذكر بكلمة واحدة المجازر الدموية التي قامت بها قوات ميخائيلوفيتش ضد المسلمين، ويشير بانزعاج كبير إلى ازدياد عدد الجوامع في يوغسلافيا بعد الحرب العالمية الثانية[٢٨]. وفي الواقع لقد أثار هذا الحديث القديم ـ الجديد لدراشوكوفيتش انزعاجا كبيرا خارج صربيا. وهكذا فقد نشرت جريدة «فيسنيك» الكرواتية تعليقاً حاداً انتقدت فيه حديث دراشكوفيتش ووصفت الافكار الواردة فيه بأنها ترفع الشعب الصربي إلى مستوى «الشعب المختار» وتقارنه باستمرار مع الشعب اليهودي على اعتبار أنهما دائما في حالة معاناة وملاحقة بسبب الدين[٢٩].

وفي الواقع إن الصحافة الصربية لم تقصر في تلك السنوات في الاعتماد على «القاموس اليهودي» لإثارة المشاعر والعواطف في الشارع الصربي. وهكذا فقد كثر في تلك السنوات استعمال التعابير اليهودية المعروفة، التي تستثير المشاعر على نحو خاص، كـ«الغنوسيد» و«الهولوكست» و«الجلجلة» و«الاكسدوس» الخ للتعبير عن وضع الأقلية الصربية في كوسوفا[٣٠]. وقد كان من الطبيعي بعد ذلك أن تتفنن هذه الصحافة في إبراز الشعارات التي أخذت تسمع في المظاهرات الصاخبة للصربيين في كوسوفا خلال ١٩٨٧ ـ ١٩٨٨ («كوسوفا كانت لنا وستبقى لنا»، «لن نتخلى عن مملكة دوشان»، «كوسوفا مهد للصربيين وستبقى هكذا للابد» الخ[٣١]).

وقد كان الهدف من تأزيم الوضع على هذا النحو، وبالتحديد تصعيد الوضع بشكل متواصل باتجاه الذروة، هو اختلاف الظرف المناسب لاستعادة «الأرض المقدسة» بأي شكل وبأي ثمن. وهكذا فقد فرضت الأحكام العرفية على كوسوفا في آذار ١٩٨٩ وفرضت تعديلات دستورية بقوة الدبابات تؤمن لصربيا بسط سيطرتها على كوسوفا بالشكل الذي تريده. وفي الواقع إن هذا الشكل كان عنيفا وصارما إلى حد أنه أثار خيبة ونقمة الشعوب اليوغسلافية في الشمال إذ إنه لم يصدق أحد أن الشعب «المضطهد» يمكن أن يضطهد الاخرين بهذا الشكل: خلال عدة شهور فقط (آذار ـ أيلول) شملت الاجراءات الانتقامية عشرات الألوف من الالبانيين في كوسوفا (اعتقالات غير قانونية، أحكام بالسجن، فصل من العمل، الطرد من المدارس والجامعات، عقوبات جماعية الخ) مما فجر في شوارع كوسوفا «الانتفاضة» الثانية على حد تعبير الصحافة الأوروبية[٣٢].

وسرعان ما اتضح أن استعادة «الأرض المقدسة» (كوسوفا) كانت بالنسبة للاتجاه القومي الصربي مجرد «بروفة» لاستعادة السيطرة على كل يوغسلافيا كما في الماضي. وهكذا فقد اسقطت القيادة الصربية زعامة فويفودينا والجبل الأسود بفضل نقل المتظاهرين «المحترفين» من شارع إلى شارع ومن مدينة إلى أخرى مما جعل صربيا في ربيع ١٩٨٩ تسيطر على نصف يوغسلافيا وتتطلع للسيطرة على النصف الاخر. وهكذا

فقد انطلق الحديث الآن عن «اضطهاد» الصربيين في كرواتيا والبوسنة. وفي الواقع لقد كان الدور يحوم يحول البوسنة أولاً على نمط ما جرى في كوسوفا: الحديث عن «الاضطهاد» الصربي و«الاكسدوس» الصربي لتبرير قلب الوضع هناك لصالح صربيا. إلا أن «الاندفاع الصربي» نحو البوسنة توقف في اللحظة الأخيرة نتيجة لمفاجأة غير متوقعة[٣٣].

وفي هذا الوضع الجديد، الذي أصبحت فيه صربيا تسيطر بالفعل على نصف يوغسلافيا وتتطلع للسيطرة على النصف الآخر، لم يعد الحديث عن الأخوة الصربية ـ اليهودية وعن العلاقات الصربية ـ اليهودية يقتصر على دراشكوفيتش وغيره من الكتاب بل أصبح الآن يعبر عن مواقف سياسية بعد أن أصبحت صربيا تطالب بـ«دور أكبر» في تقرير السياسة الداخلية والخارجية ليوغسلافيا.

وهكذا فقد خرجت المجلة البلغرادية المعروفة «نين»، التي اصبحت تعبر عن الإتجاه القومي الصربي بعد أن كانت بطابع يوغسلافي متميز، بمقابلة مفاجئة مع الوزير الصهيوني المتطرف اريبل شارون في تشرين الأول ١٩٨٩. وفي الواقع إن هذه المقابلة كانت مفاجئة لأنها كانت تنقل أفكار شارون المتطرفة دون أية فلترة ولأن الصحفي ميلو غليغوريفيتش أراد أن يحولها إلى مناسبة للحديث عن التشابه في وضع الشعبين الصربي واليهودي. وهكذا يترك هذا الصحفي شارون ليقنع القراء الصربيين، على اعتبار أن «نين» لم يعد يقرأها أحد في يوغسلافيا سوى الصربيين، بأن اليهود في اسرائيل هم في بيتهم (موطنهم) ويكفي أن يفتح أي قارىء التوراة ليكتشف الحقيقة. وهنا يتدخل الصحفي ليذكر شارون بالتاخي والتشابه بين الشعبين الصربي واليهودي إذ إن كلا منهما في بيته أو موطنه (اسرائيل بالنسبة لليهود وكوسوفا بالنسبة للصربيين) ولكن هناك من يقاومهم ولذلك يسأل هذا الصحفي شارون عن رأيه ونصيحته فما كان منه إلا أن أجاب فوراً «الصمود والكفاح»[٣٤].

وكانت مجلة «نين» ذاتها، التي كان يقول فيها بحق المستشرق د. راده بوجوفيتش: إنها كانت على الدوام مركزاً للنفوذ اليهودي، قد نشرت قبل ذلك مقابلة مفاجئة لمثقف صربي معروف (د. بوغدان ماغليتش) يدعو فيها إلى تشكيل «لوبي صربي في أمريكا» (لوبي صربي وليس يوغسلافي!). وفي هذا «السبق الصحفي» دعا هذا المثقف إلى الاستفادة من خبرة اللوبي اليهودي في أمريكا وحتى إقامة تحالف بين اللوبي الصربي المقترح وبين اللوبي اليهودي القوى. وفي الواقع لقد كانت مناسبة الحديث عن هذا اللوبي الصربي والتحالف الصربي ـ اليهودي الحاجة إلى تبييض صفحة صربيا في الصحافة الامريكية بعد تقديم مشروع القرار المقدم للكونغرس الذي يدين فيه إهدار صربيا لحقوق الإنسان في كوسوفا[٣٥].

وبعد عدة شهور اتضح أن هذا التحالف الصربي اليهودي قد بدأ يثمر بالفعل. ففي بداية شهر تشرين الثاني ١٩٨٩ جاء وفد يهودي من امريكا إلى بلغراد حيث استقبل بحفاوة كبيرة من قبل قيادة صربيا. فقد استقبل هذا الوفد د. زوران بيانيتش عضو مجلس الرئاسة في صربيا الذي تحدث في هذه المناسبة عن «التقاليد الطويلة للصداقة الصربية ـ اليهودية وعن العون والتعاون المتبادلين بين الشعبين عبر الصمود» (عن «الأمور الكثيرة التي تربط بيننا». وفي هذا الجو الحميم سئل د. بيانيتش عن العوائق التي تمنع عودة العلاقات الدبلوماسية بين يوغسلافيا واسرائيل فرد فورا أنه لا يرى أي مانع وأن هذه القضية (عودة

العلاقات) ستحل خلال سنة أو سنتين، أي خلال ١٩٩٠ أو ١٩٩١[٣٦].

وفي الواقع أن تسرع د. بيانيتش في الإجابة عن هذا السؤال يعبر عن نوع من الثقة الكبيرة بالذات للقيادة الصربية الجديدة. فقرار من هذا النوع لا يمكن ان يصدر إلا على أعلى مستوى فدرالي (البرلمان) وبالتفاهم بين كل الوحدات الفدرالية. وهكذا يبدو أن صربيا تحتاج إلى عدة شهور فقط لتعمّم الحالة الصربية ثانية على الشمال، النصف الآخر ليوغسلافيا، ولتعيد العلاقات مع اسرائيل دون أية معارضة. إلا أن هذا الاندفاع الصربي نحو الشمال يصطدم بمقاومة عنيفة من سلوفينيا وكرواتيا والبوسنة ولذلك فقد يؤدي في حالة الفشل إلى تبعثر يوغسلافيا مما سيسمح أخيراً لصربيا بإقامة العلاقة التي تريدها مع اسرائيل[٣٧].

هوامش

(١) في الحقيقة لدينا هنا أحد أسس «البلقنة»، حيث أن كل طرف يريد تبرير سياسته التوسعية بواسطة بعث حدود الدول القروسطية دون الأخذ بعين الاعتبار بكل المتغيرات اللاحقة. حول هذا تجدر الاشارة الى مقال مهم صدر في العربية مؤخراً:

د لطفي المعوشي، البلقنة مشاكلها وحلولها. تاريخ العرب والعالم، عدد ٤٧، ص ٣٣ - ٣٥

إلا ان ميزة هذا المقال، الذي يعتمد أساسا على الادبيات البلغارية، انه يمثل «البلقنة» بشكل ما اذ انه ينفي تماما احد الاطراف الاساسية في البلقنة: الطرف الالباني.

(٢) حول تداخل المصالح بين صربيا والحلفاء وخلفيات تشكيل يوغسلافيا سنة ١٩١٨ نشير هنا الى اهم كتاب صدر في يوغسلافيا في السنوات الاخيرة:

Djordje Dj. Stanković, Nikola Pašić, saveznici i stvaranje Jugoslavije, Beograd 1984

(3) Istorija država i Prava jugoslovenskih naroda, Beograd 1974, 1974, 490-496.

(٤) في الحقيقة لقد كانت فكرة الاتحاد البلقاني (الفدرالية البلقانية) في البداية تمثل أحد الحلول المطروحة لـ«المسألة الشرقية»، أي مستقبل الوجود العثماني في اوربا، كبديل عن التدخل الاوربي الخارجي وتقسيم البلقان إلى مناطق نفوذ. وقد بلور هذه الفكرة بشكل أوضح رائد الاشتراكية في صربيا سفتوزار ماكوفيتش، ثم كافح بحماس في سبيلها زعيم الاشتراكية الديموقراطية في صربيا ديمتري توسوفيتش:

Enciklopedija Jugoslavije, II izdanje, I tom, Zagreb 1980, s.444-445

(٥) لقد مر الحزب الشيوعي خلال ١٩١٨ - ١٩٢٣ في مرحلة تشوش. وهكذا في الكونغرس الثالث (يناير ١٩٢٤) خرج بقرار يدعو للكفاح ضد الهيمنة الصربية والرأسمالية لتأسيس «جمهورية عمالية - فلاحية في يوغسلافيا والبلقان وحوض الدانوب، أي فدرالية بلقانية بالمعنى الواسع، كمرحلة أولى باتجاه ديكتاتورية البروليتاريا. أما في تشرين الثاني ١٩٢٤، أي بعد المؤتمر الخامس للكومنترن، فقد أقرت اللجنة المركزية موقفاً جديداً اعتبرت فيه أن يوغسلافيا هي «نتاج الحرب الامبريالية حيث يقوم بها الشعب الحاكم - الصربي - باضطهاد الشعوب الاخرى». ومن هنا فقد اصبحت «مهمة الحزب هي أن يشن حرباً مكشوفة في سبيل حق الانفصال، وبالتحديد مساعدة حركات الشعوب المضطهدة لتأسيس الدول المستقلة ككرواتيا وسلوفينيا ومكدونيا والجبل الأسود وتحرير الالبانيين»:

Historia e Lidhjes se Komunistëve të Jugosllavisë, Prishtinë 1985, F.111-117

(٦) المصدر السابق

(٧) في حديث لرئيس العلماء المسلمين في يوغسلافيا جمال الدين تشاوشفيتش مع مراسل الصحيفة الفرنسية Le temps (نيسان ١٩١٩) يتضح انه خلال سنة واحدة نهبت ودمرت للمسلمين ٢٧٠ قرية في البوسنة فقط، مع الاف الضحايا:

Dr. Atif pnrivatra, Jugoslovensja Muslimanska Organizacija u političkom životu kraljevine SHS, II izdanje, Sarajevo 1977, s.63

(٨) في السنوات الاخيرة صدر في يوغسلافيا كتاب أحدث ضجة كبيرة عن الماسونيين في يوغسلافيا، حيث يتضح أن زعامة يوغسلافيا الملكية كانت كلها تقريبا من الماسونيين:

D. Nenezi5c, Masoni u Jugoslaviji (1764-1980), Beograd 1984 Zoran

(٩) على الرغم من أهمية هذا الموضوع لانجد عنه في السنوات الاخيرة إلا بعض الاشارات:

Dubravka Rajh. Postoji li kosmičko prokletstvo? Interviju. Beograd 17-2-1984.s.14

(١٠) «الاستناد الى التنقيبات الاثرية والابحاث فقد تأكد انه منذ الالف الثانية ق.م عاش في كوسوفا الاليريون، الذين ينحدر منهم الالبانيون.. اما السلافالجنوبيون فقد استوطنوا البلقان في بداية القرن السابع للميلاد، بينما أخذ الصربيون من راشكا المجاورة في التوسع نحو كوسوفا منذ القرن الحادي عشر. وهكذا فقد وصل الحاكم الصربي ستيفان نيمانيا الى ليبيان سنة ١١٧٠. ومنذ ذلك الحين وحتى ١٣٨٩ اصبحت كوسوفا جزءاً مهما من الدولة الصربية»:

Vojna ENciklopedija, II izdanje, Beograd 1972

(١١) حسب آخر احصاء عثماني كان عدد الالبانين في كوسوفا حوالي ٨٠٪ من مجمل عدد السكان ثم يأتي بعدهم الصربيون (١٠٪) ثم البلغار (٥٪). وعلى الرغم من التغيرات التي حدثت خلال الحرب البلقانية ١٩١٢ - ١٩١٣ والحرب العالمية الاولى فقد أكد الاحصاء النمساوي للسكان الوضع نفسه تقريبا في ١٩١٨، أي قبل شهور من ضم كوسوفا ليوغسلافيا:

Dr. Hakif Bajrami, Rrethanat Shoqërore dhe ploitike në Kosovë më 1918-1941, prishtinë 1981-p.11

(١٢) لقد كانت هذه المشاريع العنصرية سرية، أو لا يعرف بها الا القليل ولذلك فقد صدمت الكثيرين حين نشرت لأول مرة في يوغسلافيا خلال الثمانينات:

Mladina, br. 49, Lubljana 1988, str. 32- 35. Srbija i Albanci, pregled politike Srbije prema Albancima od 1913 do 1945, knjiga druga, Ljubljana 1989, str. 67-70.

(١٣) لقد بقي مشروع الاتفاقية اليوغسلافية - التركية سريا ايضاً ولم يكشف عنه إلا منذ عدة سنوات فقط:

Hakif Bajrami, Konventa jugosllavo-turke e vitit 1938 Për shpërngulljen e shqiptarëve, Gjurmime albanologjike XII, 1983

(14) pavle Joviqeviq-Mita Milkoviq, Lufta e komunistëve të Pejës midis dy luftrave (1918-1941), Pejë, f. 490-494.

(١٥) في ١٩٤٢ كتب تيتو على سبيل المثال: «لقد ولدت يوغسلافيا هذه في لندن وباريس، واصبحت يوغسلافيا فرساي أكثر من بلد نموذجي للاضطهاد االقومي في اوروبا. فقد كان فيها الكراوتيون والسلوفينيون والمونتغريون مواطنين غير متساويين، بينما كان المكدونيون والالبانيون مستعبدين...:

Tito, Nacionalno Pitanje u Jugosllavi u svetlosti narodon- oslobodilačke borbe, Proleter, b. 16, decembar 1942

(١٦) لقد صدم الرأي العام في يوغسلافيا في خريف ١٩٨٩ حين اخذت جريدة «بوربا» تنشر على حلقات (اب - ايلول) أول كتاب يوغسلافي يبحث في المجازر الدموية التي نفذت ضد المسلمين في البوسنة، مما يوضح الحاجة إلى كتابة تاريخ جديد ليوغسلافيا.

(١٧) هناك اختلاف حول العدد الصحيح للذين هاجروا من يوغسلافيا خلال ١٩٥٥ - ١٩٦٦، اذ ان البعض يخفضه قليلا والبعض يرفعه قليلا ولكن العدد يبقى كارثة بالنسبة ليوغسلافيا في ذلك الوقت:

Zbornik radova ea naučnog skupa o iseljeništva u Zagrebu, 1976

(١٨) حول مغزى هذه التطورات بالنسبة للبوسنة انظر:

(19) Dimitrije Bogdanović, Knjiga o Kosovu, Beoggrad 1986, str. 216- 217

(٢٠) لقد برزت هذه الأمور بمناسبة اكتشاف «التقرير العلمي» الذي وضعته الاكاديمية الصربية للعلوم والفنون حول يوغسلافيا في عهد تيتو، والذي اثار في حينه ضجة كبيرة. للتوسع حول مغزى هذا «التقرير» بالنسبة للصراع خلال مرحلة ما بعد تيتو انظر مقالنا:

يوغسلافيا بعد تيتو، جريدة «القبس»، الكويت ١٢/ ١٢/ ١٩٨٦

(٢١) ان افضل نموذج لهذا مظاهرات الطلاب في بريشتينا خلال اذار ١٩٨١، التي اعتبرت «ثورة مضادة». ففي مثل هذه المظاهرات تبرز مختلف الشعارات، ولكن الصحافة الصربية ركزت على بعض الشعارات القومية، وتجاهلت تماما الشعارات الاجتماعية مثل «تسقط

البرجوازية الحمراء» الخ.

(٢٢) انظر الطبعة الخاصة «عودة الالهة» لمجلة «دوغا» وخاصة فيما يتعلق بالكنيسة الصربية:

Povatak bogovai, specijalno izdanje, Duga, beograd april 1986

(٢٣) جريدة «بوليتيكا» ٥/ ٥/ ١٩٨٣.

(٢٤) في الحقيقة ان هذا التحالف لم يكن خافيا عن الانظار، ومع ذلك فقد جاء اخيرا الكاتب انطوني اسحاقوفيتش، نائب رئيس الاكاديمية الصربية، للاعتراف بفعالية هذا التحالف:

Akademik Antonje Isaković, Povratak obrazu, Intervju br. 215, Beograd 1.9.1989, str. 30

(٢٥) جريدة «بوربا» ٢٥/ ١٩٨٧١٥

(٢٦) نفس المصدر

(27) Konferencë shtypi në SHSH të Serbisë, Rilindja 25.1.1988

(28)Shembuj reaksionarë- qëllimisht, Rilindja 3.2.1988

(29) Vjesnik 25.1.1988, Rilindja 25.1.1988

(٣٠) انظر مثلا العدد الخاص الذي اصدرته «انرفيو» عن كوسوفا بعنوان معبر «الجلجلة الكوسوفارية» وبغلاف مثير للغاية:

Jevrem Damnjanović, Kosovska golgota, specijalno izdanje 7, Beograd 1988

(٣١) للتوسع حول مغزى هذه الشعارات وما تمثله بالنسبة للاحداث انظر مقالنا:

عودة الى القرون الوسطى في يوغسلافيا، الجيل، عدد ٦، باريس حزيران ١٩٨٩، ص ٤٨-٥٢.

(٣٢) وفي هذا السياق اصبحت بريشتينا ايضا، عاصمة كوسوفا، تسمى «القدس الثانية» في الصحافة الاوربية: جريدة «بوربا»، ٨ تشرين ١٩٨٩.

(٣٣) في نهاية تشرين الاول ١٩٨٩ اكتشفت بالصدفة بعض الوثائق التي تدل على تدخل أجهزة الامن الصربية في البوسنة، مما اثار ضجة كبيرة في البوسنة وفي يوغسلافيا بشكل عام لان هذه الوثائق توضح «كَوسَفَة» kosovazation البوسنة، أي تضخيم الشعور بـ «اضطهاد» الصربيين في البوسنة واضطرارهم للهجرة لخلق ظرف مناسب للتدخل والسيطرة على البوسنة على نمط ما حدث في كوسوفا: جريدة «بوربا» ٣١/ ١٠/ ١٩٨٩ ومجلة «نين» ٢٩/ ١٠/ ١٩٨٩.

(٢٤) مجلة «نين» ٢٩/ ١٠/ ١٩٨٩. وهكذا ليس من المصادفة ان يُذكر هنا مفتي القدس الحاج أمين الحسيني باعتباره «الرجل المظلم في التاريخ الصربي واليهودي».

(٣٥) مجلة «نين» ٨/ ١/ ١٩٨٩.

(٣٦) جريدة «بوليتيكا» ٧/ ١١/ ١٩٨٩.

(٣٧) في اللحظة الاخيرة قرأنا في «الشرق الاوسط» (٢٥/ ١١/ ١٩٨٩) عن زيارة وزير خارجية صربيا الكسندر بريا إلى اسرائيل بدعوة خاصة وذلك لاجل «توطيد العلاقات بين صربيا واسرائيل»!

الديمقراطية البرجوازية والبلدان المتخلفة.. النموذج الأردني

موفق محادين*

قد يستهجن البعض مثل هذه المقاربة لما كتبه ماركس قبل أكثر من مئة عام حول بلد رأسمالي متطور كفرنسا، مع تجربة بلد متخلف بعد مائة عام كالاردن، لكنني أحسب أن الذين ينفضون التراب عن قبر ماركس أكثر من الذين ينعونه هذه الأيام، وان كتاب ماركس «الثامن عشر من برومير لويس بونابرت» لا يزال أهم المصادر النظرية الكلاسيكية التي يمكن الاستعانة بها لقراءة آفاق الصراع الاجتماعي داخل البرلمان البرجوازي.

وبالرغم من المسافة التي تفصلنا عن هذا الكتاب، الا أنها ليست بعيدة في ظروف البلدان المتخلفة التي تكاد لا تبلغ في مستوى بلورة الرأسمالية داخلها، ما بلغته فرنسا قبل أكثر من مئة عام.

في شباط ١٨٤٨ انتصرت الثورة البرجوازية الثانية في فرنسا، على خلفية أزمة السلطة الملكية السابقة، بسبب انكفاء دورها الخارجي، وبسبب إفلاس خزينة الدولة، وتراكم الديون الخارجية، وغياب الانسجام المطلوب بين البيروقراط الفرنسي والارستقراطية المالية (ثمة تشابه ملموس بين فرنسا ١٨٤٨ والاردن ١٩٨٨).

---

* باحث من الاردن.

البرجوازية الحمراء» الخ.

(٢٢) انظر الطبعة الخاصة «عودة الالهة» لمجلة «دوغا» وخاصة فيما يتعلق بالكنيسة الصربية:

Povatak bogovai, specijalno izdanje, Duga, beograd april 1986

(٢٣) جريدة «بوليتيكا» ٥/ ٥/ ١٩٨٣.

(٢٤) في الحقيقة ان هذا التحالف لم يكن خافيا عن الانظار، ومع ذلك فقد جاء اخيرا الكاتب انطوني اسحاقوفيتش، نائب رئيس الاكاديمية الصربية، للاعتراف بفعالية هذا التحالف:

Akademik Antonje Isaković, Povratak obrazu, Intervju br. 215, Beograd 1.9.1989, str. 30

(٢٥) جريدة «بوربا» ٢٥/ ١٩٨٧١٥

(٢٦) نفس المصدر

(27) Konferencë shtypi në SHSH të Serbisë, Rilindja 25.1.1988

(28)Shembuj reaksionarë- qëllimisht, Rilindja 3.2.1988

(29) Vjesnik 25.1.1988, Rilindja 25.1.1988

(٣٠) انظر مثلا العدد الخاص الذي اصدرته «انرفيو» عن كوسوفا بعنوان معبر «الجلجلة الكوسوفارية» وبغلاف مثير للغاية:

Jevrem Damnjanović, Kosovska golgota, specijalno izdanje 7, Beograd 1988

(٣١) للتوسع حول مغزى هذه الشعارات وما تمثله بالنسبة للاحداث انظر مقالنا:

عودة الى القرون الوسطى في يوغسلافيا، الجيل، عدد ٦، باريس حزيران ١٩٨٩، ص ٤٨-٥٢.

(٣٢) وفي هذا السياق اصبحت بريشتينا ايضا، عاصمة كوسوفا، تسمى «القدس الثانية» في الصحافة الاوربية: جريدة «بوربا»، ٨ تشرين ١٩٨٩.

(٣٣) في نهاية تشرين الاول ١٩٨٩ اكتشفت بالصدفة بعض الوثائق التي تدل على تدخل أجهزة الامن الصربية في البوسنة، مما اثار ضجة كبيرة في البوسنة وفي يوغسلافيا بشكل عام لان هذه الوثائق توضح «كَوسَفَة» kosovazation البوسنة، أي تضخيم الشعور بـ «اضطهاد» الصربيين في البوسنة واضطرارهم للهجرة لخلق ظرف مناسب للتدخل والسيطرة على البوسنة على نمط ما حدث في كوسوفا: جريدة «بوربا» ٣١/ ١٠/ ١٩٨٩ ومجلة «نين» ٢٩/ ١٠/ ١٩٨٩.

(٢٤) مجلة «نين» ٢٩/ ١٠/ ١٩٨٩. وهكذا ليس من المصادفة ان يُذكر هنا مفتي القدس الحاج أمين الحسيني باعتباره «الرجل المظلم في التاريخ الصربي واليهودي».

(٣٥) مجلة «نين» ٨/ ١/ ١٩٨٩.

(٣٦) جريدة «بوليتيكا» ٧/ ١١/ ١٩٨٩.

(٣٧) في اللحظة الاخيرة قرأنا في «الشرق الاوسط» (٢٥/ ١١/ ١٩٨٩) عن زيارة وزير خارجية صربيا الكسندر بريا إلى اسرائيل بدعوة خاصة وذلك لاجل «توطيد العلاقات بين صربيا واسرائيل»!

الديمقراطية البرجوازية والبلدان المتخلفة.. النموذج الأردني

موفق محادين*

قد يستهجن البعض مثل هذه المقاربة لما كتبه ماركس قبل أكثر من مئة عام حول بلد رأسمالي متطور كفرنسا، مع تجربة بلد متخلف بعد مائة عام كالاردن، لكنني أحسب أن الذين ينفضون التراب عن قبر ماركس أكثر من الذين ينعونه هذه الأيام، وان كتاب ماركس «الثامن عشر من بروميرلويس بونابرت» لا يزال أهم المصادر النظرية الكلاسيكية التي يمكن الاستعانة بها لقراءة آفاق الصراع الاجتماعي داخل البرلمان البرجوازي.

وبالرغم من المسافة التي تفصلنا عن هذا الكتاب، الا أنها ليست بعيدة في ظروف البلدان المتخلفة التي تكاد لا تبلغ في مستوى بلورة الرأسمالية داخلها، ما بلغته فرنسا قبل أكثر من مئة عام.

في شباط ١٨٤٨ انتصرت الثورة البرجوازية الثانية في فرنسا، على خلفية أزمة السلطة الملكية السابقة، بسبب انكفاء دورها الخارجي، وبسبب إفلاس خزينة الدولة، وتراكم الديون الخارجية، وغياب الانسجام المطلوب بين البيروقراط الفرنسي والارستقراطية المالية (ثمة تشابه ملموس بين فرنسا ١٨٤٨ والاردن ١٩٨٨).

---

* باحث من الاردن.

وفي أيار ١٨٤٨، جرت الانتخابات النيابية للجمعية البرلمانية التأسيسية الفرنسية، واشتركت فيها جميع الفئات، لكن الانتخابات لم تعبر عن قوى الثورة التي أطاحت بحكم لويس فيليب (زيد الرفاعي مثلاً). وسرعان ما اكتشف عمال باريس، ان البرجوازية خانتهم مجدداً كما في كل مرة، من خلال النظام الانتخابي، وخدعة الفلاحين، وتكتيكات حزب الجبل الذي يمثل الروح القومية الفرنسية والبرجوازيين الصغار عموماً.

وما ان أدرك لويس بونابرت وزمرة البيروقراط من حوله، الجنرال دوبول الذي شكل الحكومة الانتقالية (زيد بن شاكر مثلاً) والجنرال شارنغارييه رمز الدور الاقليمي الخارجي (بطل العمليات العسكرية الفرنسية في روما)، ان القوى المضادة للتحالف الحاكم قد تفتت حتى عاد بونابرت لمحاصرة البرجوازية وتحطيم مساعيها في التعبير عن نفسها في حزب مستقل (عبيدات - عرار - بدران)، وأجرى تعديلات جديدة على الدستور، مكنته آخر الأمر من الانقلاب التام والاستئثار بالسلطة، وإعلان نفسه امبراطوراً تماماً كما فعل عمه نابليون الأول ١٧٩٩، مما حدا بماركس ان ينقل عن هيغل قوله:

«ان جميع الاحداث والشخصيات العظيمة في تاريخ العالم تظهر إذا جاز القول مرتين. وقد نسي هيغل ان يضيف في المرة الأولى، كمأساة وفي المرة الثانية كمسخرة: كوسيدير مكان دانتون، وبلان مكان روبسبير، وابن الأخ لويس مكان العم نابليون» وربما الاردن بعد سنتين او ثلاث قادمة مكان الاردن ١٩٥٧ وربما أيضاً الجيش أو بدران مكان الملك نفسه.

كان ماركس قد أضاف أيضاً نقلاً عن غوته «ان كل ما ينبعث جدير بالزوال» «وما من أحد إلا الشيطان بشخصه يستطيع إنقاذ كنيسة متحللة». وهو ما ينطبق أيضاً على أية سلطة متحللة.

كلاسيكيات الماركسية والديمقراطية البرجوازية.

مقاربة برسم الجدل

يميز ماركس بين الموقف السلبي الذي يرى في كل حياة نيابية برلمانية شراً مطلقاً، وبين الموقف الذي لا تعنيه في شيء آفاق هذه التجربة، ويعتبرها نهاية المطاف، وبين الموقف الموضوعي المسؤول الذي يعمل على استثمارها دون ان تكون لديه أية أوهام حول مستقبلها.

ويقول حول تجربة الكومونة الباريسية «لانريد الغاء المؤسسات التمثيلية، بل تحويلها إلى مؤسسات فاعلة، وليس إلى ندوات للثرثرة، بينما يدير الرأسماليون عمل الدولة الحقيقي وراء الكواليس».

وينقل عن انجلز في جلسة مؤتمر لندن لجمعية الشغيلة العالمية ١٨٧١ «الحريات السياسية، حق الاجتماعات والجمعيات وحرية الطبع والنشر، هذا هو سلاحنا الذي ينبغي التمسك به، طالما كان متاحاً، واستعمال هذا السلاح لايعني ولا يجب ان يعني الاعتراف بالنظام القائم».

ومثل ذلك العديد من النصوص اللينينية حول تجربة الدوما، التي لم تقل أبداً إن طريق السلطة الديمقراطية الشعبية متاح، من خلال البرلمان، إلا في حالات نادرة.

إن النضال من أجل تكريس الحياة النيابية، وانتزاع المزيد من الحريات والحقوق السياسية والاجتماعية، هو العنوان الذي ينبغي التمترس خلفه دائماً، لكن ذلك لا يعني ولا يجب ان يعني أن هذه المسألة هي كل ما في جعبة المناضلين من أجل الديمقراطية والتقدم الاجتماعي.

ويتعزز هذا الاستنتاج بالتجربة الملموسة في بلدان أكثر تطوراً من الاردن، ولم تصمد أمام هذه التجربة مثل تشيلي، في بلدان أخرى لم تكن العوامل إقليمية فيها أهم من العوامل الإقليمية التي تحيط بالاردن، لكنها لم تصمد أيضاً أمام هذا الامتحان، مثل السودان. . .

ولابد من الاعتراف أيضاً، بأن السلطة البرجوازية عموماً، وفي بلد شديد التبعية أيضاً، لا تفتح الطريق طويلاً أمام هذه التجربة.

أولاً: لأن الدولة البرجوازية عموماً ليست قوة للتوفيق بين الطبقات بل قوة لتلطيف الاصطدام بينها، والسماح لهذا الاصطدام بأخذ أشكال سلمية، عندما تكون البرجوازية بحاجة الى ذلك، عن طريق البرلمان.

ويوضح ماركس في الثامن عشر من برومير بونابرت «ان المراهنة على التغيير من داخل البرلمان كمثل العودة الى الكذبة الواردة في التوراة عن سقوط أريحا بسبب أصوات الأبواق، فما من أحد يبالغ في تقدير قواه ويخدع نفسه باستخفاف أكثر من الديمقراطيين داخل البرلمان البرجوازي».

ويُضيف في المؤلف نفسه «كانت البرجوازية الفرنسية مرغمة آخر الأمر، بحكم وضعها الطبقي على ان تبيد شروط وجود كل سلطة برلمانية».

فالديمقراطية ليست مسألة قانونية أو منبراً للسجال الحقوقي، بل مسألة صراع طبقي، وفصل السلطات: التشريعية المنتخبة من الشعب، التنفيذية في ظل سلطة برجوازية، وهم «ايديولوجي صريح كما ان الحياة البرلمانية في البلدان شديدة التبعية، غالباً ما تكون محاولة لحل أزمة البرجوازية الكولونيالية، والالتفاف على الضغط الشعبي، عندما تخفق البرجوازية في الحفاظ على سلطتها عبر القمع المباشر، وبالتالي فإن أزمة التمثيل الطبقي من جهة، وأزمة البرجوازية إزاء القوى الأخرى، تعبر عن نفسها في أوقات كثيرة ملموسة، من خلال التراجع التكتيكي إلى البرلمان، بما يضمن إعادة إنتاج مواقع التحالف الطبقي الحاكم ككل وإعادة إنتاج العلاقات القائمة بين أطراف هذا التحالف، في شكلٍ وتوقيتٍ وشروطٍ، لا تسمح لغير هذه الأطراف بقطف ثمارها.

ثانياً: ان التركيبة الاقتصادية الاجتماعية للسلطة الاردنية في منظومة علاقاتها، ومحددات سياساتها الخارجية، قادرة في ظروف الاردن الإقليمية، على توجيه السفينة نحو المياه التي تريد، ما أن تتجنب هذه الرياح أو تلك.

وإذا سلمنا بأن هذه التركيبة، تشمل تحالفاً بيروقراطياً أردنياً وكومبرادورياً فلسطينياً لم يندفع تماماً بعد، حيث لا تشير هذه الحالة الى تطور البرجوازية الاردنية - الفلسطينية في الاردن الى طبقة بحد ذاتها، أو الى حاجتها الى حزب مستقل نسبياً عن النظام، ولا تشير بالتالي الى حالة ثابتة نسبياً من الديمقراطية البرجوازية فإن وظيفة البيروقراط التي تتعارض بحجم الحصص السياسية مع الكومبرادور، وتتنفس في

الوقت نفسه من حركة الأخير في السوق، تجعل العلاقات بينهما ممكنة فقط، من خلال أحد نماذج الحكم المطلق، الملكي أو البونابرتي وليس البرلماني. وفي هذا السياق، ليس صعباً القول إن الوضع المميز الذي يحتله النظام في الاردن، في إطار الوظيفة السياسية ـ القمعية فلسطينياً وفي إطار الحسابات الإقليمية الأخرى، عربياً ودولياً، جعلت الحاجة الى النموذج السابق، الملكي أو البونابرتي، ذات أهمية خاصة ومضاعفة، حيث لا يحتمل التعارض أو الاتفاق بين شريحتي السلطة الرئيستين (البيروقراط والكومبرادور) أية مناورات لنسج العلاقات بينهما، في مضمار البرلمان، أو أي مضمار للصراع الاجتماعي المفتوح بعيداً عن مفاتيح السياسة التي تتصل اتصالاً عميقاً بالمكونات الاقليمية.

إن حاجة إحدى الشريحتين السابقتين لحزب برجوازي مستقل وبالتالي إلى اللعبة البرلمانية مسألة غير دقيقة، طالما أن أياً منهما لا يشكل نفسه، ولا يعيد إنتاج عناصره بالاعتماد على الوسط الطبيعي المفترض، في حال غياب أو ضعف العوامل الإقليمية.

لقد تشكل البيروقراط ذو الملامح الأردنية، وأخذ سماته الأساسية من الموقع الهامشي الذي احتله الأردن، في إطار المصالح الكبرى للقوى الإمبريالية في المنطقة، وبخاصة في النقطة التي تقاطعت فيها مصلحة الامبريالية بتكريس العدو الصهيوني، مع مصلحتها في بناء المنظومة العربية الرجعية المكملة. ولم يتشكل هذا البيروقراط في إطار تطور موضوعي داخلي للسلطة الأردنية، وحاجة القوى الطبقية المهيمنة كأداة للحفاظ على مصالحها الطبقية. وكذا الأمر مع الكومبرادور ذي الملامح الفلسطينية الذي تشكل على هامش السلطة الاردنية ووظيفتها الفلسطينية، فضلاً عن طابعه الطفيلي الكولونيالي وغير ان مصلحة القوى الطبقية المقررة في السلطة الاردنية، تحتاج الى توليفة طبقية حاكمة، خاصة من نمط السلطة القائمة كنموذج من السلطة القائمة كنموذج معاصر للحكم المطلق، فإن حركة القوى الاجتماعية في القاعدة ما تزال أقرب الى تواكب صيرورة العلاقات الانتاجية بين الطبقات الاجتماعية المفترضة في أبسط مفاهيمها.

ثالثاً: ان التركيبة الاقتصادية الإجتماعية للسلطة الاردنية، في منظومة قوانيها الداخلية، هي من طبيعة النمط الكولونيالي الذي يعيد إنتاج هذا النمط بما يسد الآفاق سريعاً، أمام أية تجربة برلمانية، ويجعل مقولة غرامشي عن ضغط المجتمع المدني من أجل تحسين المجتمع السياسي، مقولة غير صالحة للاستعمال في البلدان الكولونيالية، حيث الهامش الذي يتحرك به الأخير أوسع أكثر مما ينبغي، وحيث المجتمع المدني نفسه مازال ليس مجتمعاً بعد، ولذلك أكثر من مظهر وسبب.

عجز الفئات الاجتماعية العربية المهيمنة عن تحطيم الأنماط السابقة تحطيماً تقدمياً، يشل عناصر البناء الفوقي السابقة، الطائفية والعائلية ويدفعها نحو المزيد من الانتكاس.

فالأنظمة الكولونيالية لم ترس أسساً إقتصادية- اجتماعية لبناء إجتماعي موحد، المواطن فيه مواطن الطبقة والامة لا مواطن العشيرة والعائلة والطائفة، والشمال والوسط والجنوب. ولم تتوصل آلية الطبقات التقليدية، البرجوازية التجارية والكومبرادورية عموماً الى تحطيم الأنماط االسابقة، وصولاً الى مجتمع مرسمل مُشَيَّء. ولم تفلح قوى «رأسمالية الدولية» في تجاوز تشكيلتها البيروقراطية المتعايشة مع القديم، وعناصر التجزئة الايديولوجية والسياسية، في نطاق التكتيكات البراجماتية، يميناً ويساراً.

وعموماً ليس بوسع بلد متخلف في عصر الشركات متعددة الجنسية والسيادة الكلية لصيرورة، بالغة السرعة والتقنية لوسائل الانتاج الانتاجية، بكل ما تطلقه من جديد تغريبي، أن يتجاوز القديم أو الكولونيالي عبر النطاقات الإقليمية، الضيقة الميتة لينطلق بالبقية الباقية من دواعي الخصوصية، لا دواعي الإستقلال الموضوعية، الاقتصادية الاجتماعية ومن ثم السياسة الايديولوجية.

فإذا أضفنا الى ذلك محاولات اجراء فصل تعسفي بين عناصر البناء الفوقي الجديد، الكولونيالي وبين عناصر البناء التحتي، المغلقة، وكذلك أيديولوجيا التعصب والإحتقان الشوفيني، بوصفها السلاح الدائم في يد القوى البرجوازية التي تتعاقب في السلطة والإفلاس السياسي يصبح الحديث عن آفاق جدية للديمقراطية البرجوازية في بلد كولونيالي لغواً فحسب، حيث لا آلية اجتماعية لبناء عناصر المجتمع المدني نفسه.

أخيراً، إن العمل من أجل توظيف كل مكسب ديمقراطي مهما صغر شأنه، مسألة لا تحتاج الى نقاش، وتكتسب أهمية بالغة في ظروف الاردن، لجهة الاتصال بأوسع فئات الناس، وزجهم في العملية السياسية والصراع الاجتماعي، ولجهة إشاعة الديمقراطية في كل الحالات، ومحاولة عرقلة مشاريع النظام القادمة، وجعلها باهظة الثمن. لكن المؤشرات العامة، تذهب في رأيي، الى أن السلطة لن تتحرج أبداً من الانقلاب على هذه التجربة، وهي في طريقها الى ذلك إذا ما نضجت الظروف المحلية والإقليمية لموقعها ووظيفتها المعروفة، بالملك أو بدونه.

ومن الأهمية بمكان أن نشير هنا، الى أن السلطة فعلت ذلك مع المجلس التشريعي الأول ١٩٢٩ - ١٩٣١، والثالث ١٩٣٤ - والرابع ١٩٣٧- ١٩٤٠، والخامس ١٩٤٢ - ١٩٤٥، والمجلس النيابي الثاني ١٩٥٠ - ١٩٥١، والثالث والرابع والخامس والسابع ١٩٦٢ - ١٩٦٣ والثامن ١٩٦٣- ١٩٦٦.

وغير ان التكوين الطبقي الخاص لقوى السلطة من النمط الذي يتغذى من الدور السياسي الإقليمي، وغير ان التكوين الطبقي للقوى الشعبية من النمط الذي يتكون بدوره حول ومن خلال الدورة الاقتصادية الكولونيالية، ولم يسمح حتى الان بتكون قوى عمالية ذات تقاليد وثبات اجتماعي، فإن النصوص الدستورية نفسها في خدمة الملك، وخاصة المواد ٢٥ و ٦٨و ٧٣ و ١٢٤ من الدستور الاردني التي تضع الملك على رأس السلطة التشريعية وليس التنفيذية فقط، وتسمح له باتخاذ القرارات والمراسيم التي يريد بحجة الدفاع عن الوطن.

نقد

الأغنية العربية الجديدة بين المفهوم التجاري، والالتزام

اكرم اليوسف*

الأغنية فن متميّز. وهذا الفن يعود تاريخه إلى تاريخ وجود أول إنسان على الأرض. حين كانت الأغاني وسيلته للعبادة والتعبير عن الرهبة والخوف من ظواهر الطبيعة المجهولة، ومعينة على احتمال الأعمال الشاقة، وفي عصور لاحقة، تعودنا ـ في حياتنا اليومية ومفرداتنا الثقافية ـ على تقسيم الأغنية إلى أنواع. تتباين حسب مضمونها، فهذه أغنية عاطفية، وتلك اجتماعية أو دينية. ومنذ فترة ليست بعيدة ظهر مصطلح جديد هو «الأغنية السياسية». ولكننا قليلاً ماتساءلنا عن صحة هذا التقسيم، الذي تحول إلى مصطلح ثابت درجنا على تكراره بشكل مستمر. والسؤال الذي يفرض نفسه الآن، هل نستطيع فعلاً أن نضع هذه الحدود القاسية مابين «أنواع» الأغنية العربية هذه؟ وهل هناك أغنية سياسية وأغنية غير سياسية؟ طالما أن اصطلاح الأغنية السياسية قد دخل إلى قاموسنا الثقافي، باعتبار هذا النوع الغنائي يقف في جبهة مواجهة للأنواع الغنائية الأخرى ـ حسب المفهوم السائد ـ إن الاجابة عن هذا السؤال، تفترض أساساً معرفتنا وفهمنا للوظيفة الاجتماعية والسياسية للأغنية، أي الدور الذي تلعبه بشكل عام في حياة المجتمعات الانسانية باعتبارها فناً غير عادي، بل فنّاً «مركباً» قوامه الكلمة والأداء والنغمة «الميلودي» والايقاع، تربط فيما بينها علاقة انسجام «هارموني» لتؤدي في النهاية هدفاً محدداً. هناك قول مهم جداً هو أن تاريخ أي مجتمع إنساني «يمكن معرفته من خلال رصد تطور الأغنية فيه، لأن الأغنية هي صوت الشعب وضميره»، إنها تطوير متصل للصورة في الزمان.

---

* ناقد من القطر العربي السوري.

أنواع الأغنية العربية :

وطالما أن الأغنية باعتبارها شكلاً فنياً، مثل باقي الفنون، ترتبط ارتباطاً وثيقاً بنفسية أي مجتمع وتكون انعكاساً لعلاقاته وللأشكال الثقافية للحياة فيه، فإننا لانستطيع أن نعتمد التقسيم السابق ذكره لأنواع الأغنية، بل نؤكد أن كل أغنية، تحمل في طياتها معنى سياسياً معبراً عن الهدف الرئيسي لمنتج هذه الأغنية بشكل خاص والفن كله بشكل عام. إن مصطلح الأغنية «الملتزمة» يبدو هنا أكثر ملاءمة وتعبيراً عن واقع هذه الأغنية المرتبطة بحياة الشعب وعواطفه وتجربته الحياتية اللامحدودة، وتعبر عن عواطفه وصراعاته الداخلية وعلى الأخص صدام القوى المتعارضة وتقلبات صراعها. وتسمو به إلى عالم أكثر إنسانية وسعادة، ويقابل الأغنية الملتزمة، أغنية من نوع آخر، تعبر عن مصالح القوى صاحبة المصلحة في تشويه وعي الشعب وذوقه الجمالي وبالتالي حرفه عن هدفه الانساني، هذا النوع الفني الهابط يتعامل مع الأغنية، باعتبارها سلعة تباع وتشترى هدفها الأساسي الربح السريع والوفير. إن الكتابة عن الأغنية «الملتزمة» يبدو الآن أكثر إلحاحاً وخصوصاً أنها مازالت في طور البحث والتجريب الذي يهدف إلى إيجاد أنجح الطرق من أجل عملية التوصيل والتلقي والانتشار.

* الأغنية الوطنية والأغنية الملتزمة :

لسنا هنا بصدد مناقشة وضع الأغنية السائدة الهابطة، أو الأغنية السلعة، فهذه الظاهرة موجودة في كل مكان، وقد كرست لها الكثير من قنوات التوصيل الاعلامية من إذاعة وتلفزيون وسينما وغيرها. هذا النوع الذي يخاطب العواطف المبتذلة، ويثير النزعة الذاتية الفردية، ويدخل بالسمع في عالم من الخيال اللامجدي، مستعينة ـ أي الأغنية ـ بالموسيقا والرقص المشوه والمبتذل من أجل تسويق هذه السلعة.

وفي هذه العجالة، سوف نتتبع الأغنية العربية الملتزمة، ونميز فيها مرحلتين هامتين من مراحل تطورها :

ـ المرحلة الأولى : هي مرحلة الأغنية ذات الطابع الوطني بشكله العام، وهذه الأغنية تختلف كثيراً عن الأغنية الملتزمة. فالأغنية «الوطنية» وفق مسارها التاريخي، كانت تعبر عن الروح الوطنية بشكل عام ـ وخلال لحظة تاريخية محددة. لذلك فلا بد من ملاحظة أن هذه الأغنية، كانت تطغى وتسود في أوقات الحروب والصراعات الوطنية، وفي فترات الاستقلال. لقد ازدهرت هذه الأغنية مابين الأربعينات والستينات من هذا القرن أي في مرحلة التحرر من الاستعمار. في تلك الفترة كانت الحكومات العربية الوطنية، تشكل إطاراً يجمع كل فئات الشعب، ولهذا كان هذا الشعب، يعبر من خلال أغانيه عن تأييده للخطوات الوطنية التي كانت تقوم بها هذه الحكومات، ويتفاعل معها. وفي هذه الفترة بالذات ظهر (سيد درويش) في مصر و (محمد وردلي) في السودان و (عزيز علي) في العراق، وظهرت فرق الأناشيد الجماعية

في سوريا ولبنان التي قدمت ألحاناً خالدة منها «نحن الشباب لنا الغد».

وفي مرحلة لاحقة ومع ازدياد حركات التحرر العربية وازدياد انتصاراتها (الثورة الجزائرية، الضباط الأحرار في مصر، انطلاق المقاومة الفلسطينية عام ١٩٦٥) والانجازات التي حققتها هذه الحركات. وخصوصاً بعد هزيمة العدوان الثلاثي على مصر بعد تأميم القناة عام ١٩٥٦. هذه الفترة شكلت التربة الخصبة لتطور الأغنية الوطنية. لقد فاضت المشاعر القومية، وازداد شعور الانسان العربي بكرامته وكيانه وعظمة انتصاراته، بعد فترة طويلة من الانكسارات، وخصوصاً اغتصاب فلسطين عام ١٩٤٨. في هذه الفترة كان الحماس ملتهباً وفي كل مكان، وكانت المواضيع جاهزة دوماً: الوحدة، التأميم، السد العالي، القرارات الاشتراكية، المقاومة الفلسطينية، . . وهي مواضيع وقضايا ثورية سريعة الوصول، حادة الوقع، وكانت الدعوة مفتوحة لجميع الطبقات والشرائح. وهكذا غنت أم كلثوم وعبد الوهاب وفريد الأطرش، ولكن عبد الحليم حافظ ظلّ أكثرهم وفاء للمرحلة الوطنية التي أنجبته، وكان أكثرهم تعبيراً عنها فغنى «احنا الشعب - يا أهلا بالمعارك - أحلف بسماها وترابها»، وغنى للسد العالي والتأميم. . الخ وخلال الفترة التي أعقبت حزيران / يونيو عام ١٩٦٧ أقام في الاذاعة بصورة مستمرة مع صلاح جاهين وكمال الطويل وعبد الرحمن الأبنودي. إلا أن أكثر الأغاني الوطنية اقتراباً إلى حدود الالتزام، كانت أغاني (صلاح جاهين) الذي انتقل بالأغنية إلى التغني بالشعب وبطولاته بدلاً من التغني بالفرد وانجازاته. لقد تحدثنا بشكل مسهب عن الأغنية الوطنية في مصر بشكل خاص، لأنها كانت الأغنية السائدة على الصعيد العربي، في تلك الفترة، إلا أن ذلك لايعني عدم وجود هذه الأغنية في باقي الأقطار العربية.

- المرحلة الثانية: كانت بعد حزيران عام ١٩٦٧، حيث حصل تطور نوعي، طال مجمل الحياة الفنية والثقافية العربية بشكل عام. وليس الأغنية فحسب، وإن كانت أكثر الفنون تأثراً بهذا التغيّر. فنكسة حزيران انعكست بصورة مرعبة، في نفوس الجماهير العربية، التي صدمت في أعماقها، وكان من الطبيعي في ظل هذا الوضع الجديد، البحث عن صيغة فنية وأدبية وثقافية جديدة، تردم الهوة التي حفرتها الهزيمة في وجدان الشعب العربي، فلم يعد للأغنية «الوطنية» بمفهومها العام أثر مهم في النفوس، لقد أصبحت الحاجة ملّحة إلى نوع آخر من الغناء يعبر عن روح الجماهير وآمالها ومستقبلها، دون أن يغفل المتعة والطرب الأصيل، بمعنى أن تكون هذه الأغنية متكاملة مابين المضمون العميق، والشكل الفني، فتجمع مابين «الاستاذية» العالية والبساطة وقرب التناول. في هذه الفترة، اختفت الأغنية الوطنية بشكلها الفضفاض، وحل مكانها النوع الغنائي الهابط، الذي يعتمد على الكلمة السطحية، واللحن المستورد والايقاع الخالي من أي تطريب وكانت هذه الأغنية تعبر بشكل واضح عن الأزمة التي وصلت إليها الفئات التي كانت وراء الهزيمة، فنمت الروح الاستهلاكية في كل مجال. وكانت هذه الأغنية مدعومة من قبل وسائل الاعلام والاتصال المتاحة، فيما حصل طلاق نهائي بين مفهوم الأغنية الوطنية والأغنية الملتزمة، التي أطلق عليها اسم «الأغنية السياسية». لقد أصبحت هذه الأغنية موجهة بصراع «غامض» عنيف، كثيراً مايكون لاشعورياً. ضد نموذج من الأغنية، أصبح فاسداً، بارداً، محنطاً، لكنه كان سائداً!

*** الأغنية الملتزمة في الأقطار العربية:**

كان الشباب، هم أكثر المتأثرين بما حصل عام ١٩٦٧، تجلى ذلك واضحاً في المدارس والجامعات التي أصبحت حاضنة للأفكار التقدمية الجديدة، الملتزمة، حتى أنه أطلق على هذا الجيل، بجيل عام ١٩٦٧، وكان للأغنية الملتزمة نصيبها الأكبر من الحظوة والاهتمام. لقد شقت الأغنية الملتزمة طريقها بقوة، والتفتت إلى خزان التراث الهائل في الذاكرة العربية. وكان لظهور الثنائي، الشيخ امام وأحمد فؤاد نجم. دور كبير في انتشار هذه الأغنية. ورغم الحصار السياسي والاعلامي، فقد امتدت هذه الظاهرة كالنار في الهشيم، لتغطي كامل الساحة العربية، عبر أشرطة الكاسيت، التي كانت تهرب عبر الحدود. إن عمر تجربة إمام يتجاوز الأربعين عاما، إلا أن هذه التجربة لم تبلغ كمالها إلا مع انضمام نجم اليه.

غنى الشيخ امام لمصر وفلسطين، غنى ضد الاستعمار الأمريكي - الصهيوني، كما غنى للعمال والفلاحين والمضطهدين، ورغم النكسة التي أصابت هذه الظاهرة بعد انفصال نجم وإمام عن بعضهما، إلا أن الشيخ إمام استطاع أن يخرج بالأغنية الملتزمة العربية إلى النطاق العالمي، وكان اعتماد الشيخ امام - خلال كل تجربته الماضية، على آلة العود «الشرقية» التي أثبتت قدرتها الفائقة.

كذلك ظهرت أسماء مصرية أخرى، لها تجربتها المميزة، منها (عدلي فخري) الذي تحول في الفترة الأخيرة إلى المسرح الغنائي السياسي، في فرقة «المسرح المتجول» وقدم أهم أعماله: «منين أجيب ناس» للشاعر المصري نجيب سرور.

وفي الفترة الأخيرة أيضاً، ظهر فنانون شبان، سلكوا نفس الطريق، ولكن بوسائل تجديدية أخرى أهمهم (محمد منير) الذي اعتمد على الكلمة واللحن الفولكلوري الشعبي المصري، مع ادخال أنواع جديدة من الآلات الغربية الموسيقية، ليخلق ظاهرة جديدة جديرة بالدراسة.

- وفي السودان: بقي الفنان (محمد وردي) ممثلاً للأغنية الوطنية ومن ثم الملتزمة، وتلاه الفنان (محمد أمين) بأغنيته الشهيرة «الملحمة» ثم جاء (أبو عركي بخيت) بأغنية «المتاريس» وفي المعتقل التقى محمد وردي ومحمد أمين مع شاعر الأغنية الوطنية الملتزمة (محجوب محمد شريف) ليشكل هؤلاء اتجاهاً تقدمياً واضحاً للأغنية الملتزمة السودانية، التي تميزت في هذه الفترة بالرمزية أحياناً كأغنية «الحزن القديم» و «يانسمة» لمحمد وردي، أو بالشكل المباشر في الجامعات والمدارس ووسط الشباب بشكل عام مثل أغنية «مساجينك» لـ محمد الأمين. في المرحلة الحالية عبرت الأغنية الملتزمة عن هموم الحياة اليومية، وعن الوحدة الوطنية وضرورتها، مثل أغنية «ياسلام على السلام» وأغنية «عائشة كلمينا، ماري ذكرينا» وأدخلت أيضاً النوتة الموسيقية والغناء الجماعي (الكورال) وخرجت الأغنية السودانية من محليتها إلى محيطها العربي.

- أما في تونس: فقد ظهرت الكثير من الفرق التي التزمت أغاني الجماهير، منها فرقة (محمد البحر) وفرقة (البحث الموسيقي) وفرقة «التحدي»، إلا أن أبرز ممثلي الأغنية الملتزمة في تونس هما (كمال ونجيب) اللذان قدما ذروة أعمالهما في شريط بعنوان «الموج» وقد تميز الفنان كمال بصوته القوي جداً. وتميزت أغانيه بتعبيرها عن الهموم الاجتماعية والسياسية والقومية، وهكذا غنى للشهداء «أغنية الشهيد» وأغنيات طبقية «البالة

والناس»، وأغنيات قومية «قلعة الشقيف» وفيها يقول:

حينما يسألونكم، كيف قاتلوا وحدهم

وكيف قاتلت بيروت، بعلبة من الكبريت، وكيف هذا الفلسطيني، يذبحونه فلا يموت، لايموت..

- في المغرب، تأثرت الأغنية الملتزمة، بالمؤثرات نفسها - أي الهزيمة - فانبثقت عدة فرق للأغنية السياسية الملتزمة، وكان أهم مايميز هذه الفرق لجوءها الى التراث العربي والمغربي بشكل خاص، فاستوحت منه ألحانها وكلماتها. لقد تميزت هذه الفرق باحتفاليتها وشعبيتها أما موضوعات الأغاني فكانت وطنية «دارت الدوّارة» أو اجتماعية «الناس في الهوى» أو قومية «ياليتنا نراك» أو طبقية «يابحر» ومن كلمات هذه الأغنية:

يابحر والشعب ميّه

درويش وإمام واحنا بقيه...

ومن أهم الفرق المغربية «ناس الغيوان» وفرقة «جيل جلاله».

- في لبنان، لم تظهر الأغنية الملتزمة بشكل واضح، إلا بعد «الهجرة» الفلسطينية إلى لبنان عام ١٩٦٩، ولكنها سرعان ماتبلورت إبان الحرب الأهلية اللبنانية عام ١٩٧٥ وبعدها، وقد لعبت المقاومة الفلسطينية دوراً كبيراً في ذلك، كما أن بيروت أصبحت مركزاً للثقافة العربية فاستقطبت كبار الفنانين والشعراء والأدباء العرب التقدميين، وهكذا ظهر مارسيل خليفة أحمد قعبور وخالد الهبر وزياد الرحباني وغيرهم، وقد اتخذ كل واحد من هؤلاء الأعلام أسلوباً غنائياً ميزه عن غيره، إلا أن مارسيل خليفة بقي أهم ممثل للأغنية الملتزمة في لبنان وفي الوطن العربي، إذ عبرت أغانيه عن القضايا الحساسة والهامة والتي تغوص في عمق حياة الشعب العربي، فغنى للبنان وفلسطين والشهداء، كما غنى للأطفال وللسائقين وبائعي الخضار وللجنوب اللبناني وأبطاله، وخرج بالأغنية الملتزمة العربية إلى نطاق العالمية، ساعده في ذلك ثقافة موسيقية عالية، وصوت قوي، وكلمات لكبار الشعراء العرب (محمود درويش، سميح القاسم..).

- وفي سوريا، ظهرت أسماء عديدة للأغنية الملتزمة: فهد يكن، أيمن وبشار زرقان، عابد عازارية، وبعض الفرق الكورالية الصغيرة (بيسان، الدرب، أبو خليل..) إلا أن أبرز هذه الأصوات هو الفنان (سميح شقير) الذي ظلّ مشروعه قائماً على أساس محاولة تقديم فن شعبي بوسائط بسيطة ومباشرة، دون الاعتماد على الأقنية الرسمية، وتتميز تجربة سميح شقير، بمحاولة دائمة للتجريب واستلهام التراث، وقد نجح في ذلك أحياناً، في بعض أغانيه التي نالت إقبالاً شعبياً مثل أغنية «الجولان» و«الحصاد».. إلا أن سميح نادراً مايستفيد من الشعراء العرب الآخرين في كلمات أغانيه، مكتفياً بما يؤلفه بنفسه من أشعار يقوم بتلحينها وغنائها بشكل فردي، إلا أنه في الفترة الأخيرة أسس فرقة صغيرة «فرقة سميح شقير» وأدخل صوتاً إضافياً إليها هو صوت (سهير شقير) القوي، وخاصة في عمله الأخير «وقع خطانا».

أما (فهد يكن) فقد انطلق ببداية جيدة، إلا أنه مالبث أن سقط في فلك الأغنية التجارية، في حين أن فرقة (أيمن زرقان) قد انطلقت ضعيفة منذ بداياتها، رغم المحاولات التي بذلها أحمد فؤاد نجم لنفخ الروح فيها، وذلك بتشكيله فرقة «المسحراتي» التي لم تعرف طريق النجاح.

وعابد عازارية من جهته اتبع أسلوباً مختلفاً خاصاً به، ومتميزاً على صعيد الأساليب الغنائية، فقام بتلحين بعض الملاحم العربية «جلجامش» مثلاً، وكذلك بعض القصائد الصوفية إلا أنه لم يفلح في شق الطريق ليصل إلى قلوب الجماهير.

- في العراق، بدأت الأغنية الملتزمة مع مونولوجات (عزيز علي) في الاربعينات وحتى الستينات، ثم جاءت فرقة الطريق كامتداد لـ (حميد البصري) ثم ظهر (جعفر حسن) كأهم مغنٍ سياسي عراقي، وبعد فرقة بابل التي ولدت خارج العراق، ثم مالبثت أن انقسمت إلى فرقة (الغد) بقيادة سامي كمال، وفرقة بابل (كوكب حمزة).

وبالنسبة للأغنية السياسية الملتزمة الفلسطينية، فقد نشأت أساساً في واقع كل مافيه مؤلم ودموي، التشرد، الاحتلال، الارهاب والمجازر، ونتيجة لانقسام الشعب العربي الفلسطيني إلى قسمين داخل الأرض المحتلة وفي الشتات، فقد كان من الطبيعي أن يعكس هذا الواقع، نفسه على الأغنية الفلسطينية، لقد كان لانطلاق الثورة الفلسطينية عام ١٩٦٥ أكبر الأثر في تطور هذه الأغنية، فتميزت في بداياتها بالأناشيد الحماسية الجماعية التي تدعو إلى الكفاح المسلح ومقاومة العدو الصهيوني وإلى الصمود والبطولة، ثم مالبثت هذه الأغنية أن بدأت تتعمق وتتبلور باتجاه هموم الانسان الفلسطيني والعربي على كل صعيد.

وفي فلسطين المحتلة ظهرت عدة فرق للأغنية الملتزمة منها فرقة مصطفى الكرد وفرقة أجراس العودة، ويوجد فرقة أخرى بنفس الاسم في مدينة حلب السورية.

في خارج فلسطين ظهرت عشرات الفرق الفلسطينية (الأرض، العاشقين، بيسان، القدس، فرقة عسقلان، وفرقة غيفارا غزة...).

في النهاية فقد حاولنا في هذه اللمحة السريعة أن نعرف بأهم الفرق العربية للأغنية السياسية الملتزمة التي تؤسس لفن جديد، يهدف الى المتعة والفائدة، وإلى مخاطبة المشاعر الحقيقية للانسان العربي، وليس لاستدرار الشفقة والعواطف الفارغة المبتذلة واستلاب هذا الانسان وتحويله عن قضاياه الكبيرة، إن الأغنية الملتزمة العربية، مثلها مثل أي فن آخر تحاول أن تصارع الانحطاط والانهيار الذي يعاني منه المجتمع العربي وفي كثير من جوانبه ولذلك فإن صراعها طويل وقاسٍ وصعب، وخصوصاً أنها محاصرة إعلامياً وسياسياً ومع ذلك، فالمطلوب منها أن تنجح..!

نقد ادبي

سميح القاسم.. والحجر الجاهز للقتال

فوزي معروف*

لقد ابتعد التقليد بمعظم شعراء هذه الأيام عن قضايا المجتمع فأظلم الشعرُ وانغلق حول ذاتية مريضة تُعيد وتكرر نفسها. . في هذا الظلام والغُربة يشْمخُ الشعراء الذين ظلّوا مُلتصقين بقضايا الشعب العربي كأعمدة نورٍ تضيء الدرب ليكون الشاعر من جديد نبيَّ القوم ورائدهم إلى غد التحرير حيثُ العدل والسلام.

وسوف نُلْقي هنا نظرةً على سميح القاسم ـ السنديانة الشامخة في الارض العربية المحتلة ـ من خلال ديوانـه «ومـاقتلوه ومـاصلبـوه ولكن شُبِّه لهم»[1] الذي يدْحضُ فيه زعمَ الصهيونية بأن الشعب العربي الفلسطيني قد مات، ولكن هذا الشعب فاجأ الذين اعتقدوا أنهم صلبوه وقتلوه، فاجأهم بالحياة في أمجد صورها «بالانتفاضة» كما فاجأهم قبل حوالي ربع قرن بالعمل الفدائي . . فاجأ الشعبُ العربيُ الفلسطيني العدوَّ بالانتفاضة التي كانت أهم الأحداث العالمية على الاطلاق خلال العامين الماضيين، فعرضت على لغات العالم كلمة جديدة في معناها ومبناها إذْ دخلتِ اللغات العالمية الحيّة بلفظها العربي ومعناها المتجدد كلَّ يوم . .

---

* كاتب من القطر العربي السوري.

ومن يقرأ ديوان سميح القاسم هذا يِشْعر أنّه تنبأ بـ (مجد الحجر)، تنبأ بثورة الأرض والأطفال، لأن «الألم لم يزل جاهزاً للقتال والشجر لم يزل جاهزاً للقتال، والمطر جاهز للقتال فاسمعي واشهدي ياجميع الأمم . . ». . وقد قال الشاعر في إحدى قصائد ديوانه :

«أعود إليكم مع العشب بين خلايا المطر
«وفي عندليب تنفّض ونجم في الوحل أوْمض
«أعود إليكم بتفاحتي والحجر وأطلق موتي عليكم»

وهاهو الطفل الفلسطيني قد عاد يحمل الحجر ويُشعل الغابة العربية اليابسة وهذا الديوان إضافةٌ لما سبق، حافلٌ بالقيم النبيلة التي وقف الشاعرُ حياتَه وشعْرَه من أجْلها . . وفي طليعة هذه القيم «الصمود والتشبثّ بالأرض» في وجه الحقد الصهيوني الساعي أبداً لطمس عروبة فلسطين واقتلاع سُكانها العرب . .

وهناك فكرة تنبض في معظم قصائد الديوان هي فكرة (الحياة في الموت) لأن الشاعر هنا ـ وهو تعبير عن الشعب أو لسان حاله ـ رفَض منذ البداية فكرة أن (يموت في الحياة) كما يُريد لنا الاستعمار الصهيوني والإمبريالية . . وأن هذه الفكرة تحيلُ الموت من أجل الوطن انبعاثاً جديداً خلّاقاً، ومعها يُصبح الموت «سحابةَ صيْف تنقشع عمّا قريب» ومعها أيضاً «يعود الشهداء مع العُشب بين خلايا المطر» يصبح الموت، موتاً عالياً نبيلاً من أجل الحياة الكريمة . .

ولابّد من ملاحظةٍ تَنْسحب على كلِّ إبداعٍ يهتم بإنسان الأرض المحتلة وقضاياه الوطنية اليومية وهي أن الحياة «بين النار والنّار» كما عند سميح القاسم وأمثاله ـ لاتسْمح للمبدع أن يقف كثيراً عند الأمور الجمالية، بينما الأحداثُ تتوالى بسرعة . . وهنا يُسْعفنا الشاعر الكبير (نيرودا) حين كان يواجه في بلده (تشيلي) ظروفاً مشابهة لظروف شعراء الأرض المحتلة في بعض جوانبها حين قال: «. . ليس لي خيارٌ، ففي مواجهة أعداء شعبي تكون قصيدتي هجومية وصُلبة مثل الحجر وقد تكون هذه المهّمة وقْتية ولكنني مُقْتنع بها» . . وفيما يلي بعضُ الملامح البارزة في هذا الديوان (النبُوءة) . .

التّحدي والصمود

كانت البداية عند سميح القاسم عام ١٩٦٧ حين أعلن «نحنُ في الخامس من شهر حزيران ولدنا من جديد» مثلما أعلن ـ ويتـابع رحلة التّحدي للصهاينة الغُزاة حتى تبلغ ذروتها في مجموعته الشعرية «وماقتلوه وماصلبوه ولكن شُبه لهم» حين يصرخ الشهداء في وجه «قرية الشهوة القاتلة» تلك القرية التي بيننا وبينها

«النار والدمع والشجر اليابس
«بيننا أبدٌ دامس
«فلتقلْ كلَّ ماتشتهي، ولأقلْ بعضَ ماأشتهي
«في الصباح أمْرها مُنْتَهٍ، نقطة في كتاب الرياح

وأنها لنْ تداس الشفاه التي أقسمت أنها لن تداس ويُذكي نار التحدي فينا «عارُنا الفادح وحقدنا الفادح» . . والألمُ الذي أرْغمنا على البكاء حينا . . غير أن دموع الغضب المقدس هي التي تلتهب ناراً .

ورغم توالي الليالي السود، ورغم وجود الضّباع هنا أو هناك

«أن الألم لم يزل جاهزاً للقتال
والشجر لم يزل جاهزاً للقتال
والمطر جاهزٌ للقتال، فاسمعي واشهدي ياجميع الأمم»

وأثمرتْ هذه الجاهزية لحنَ الحجر الفلسطيني السلاح البسيط البدائي الذّي أذهل العالم وغيّر مفاهيمه حول الحق العربي وعدوانية الصهيونية وعنصريتها. هذا الحجر الفلسطيني بيد الطفل الفلسطيني غيّر مفاهيم المقاومة والصمود والبطولة في العالم.

كُنّا قبل الطفل الفلسطيني والحجر الفلسطيني نعيشُ «الفجر الكابي» وأصبحنا بعده نعيش «الليل المُضاء» الذي سوف يتحول بعد ثورة الطفل والحجر الى فجر الحرية والتحرير. . هكذا النضال:

«يقْتلُ الجزرُ مَدّه ثم يعْلو ألفُ مَدٍّ على رقاب الفداء»
وسُنّة البطولة والتحرير تقول: أول الغيث دمٌ . . ثم الربيع»

إن دماء الشهداء وشاحٌ أرجواني يعلنُ موعد الشمس القريبة يقول سميح القاسم يخاطب الشهيد:

«أيُها المارد في محكمة الموتى الطغاة
موتُك الشاهق في الأغلال لن يجعل منهم
غيرَ قتلى في الحياة ص١٤٢»

وفي قصيدة يوجزُ عنوانُها حكمةً قالتها الشعوب وآمنت بها طريقاً في التعامل مع جلاّديها «قد تمْهل ولكن لن تهْمل» يتحدى العدّو الذي امتصَّ دماء إخوته أبناء فلسطين العربية . . فلمع هذا الدم في أنفِ العدو وتورّد خُدوده، وأصمَّ هذا العدو أذنيه عن صراخ الدم لأنه أوصدهما بلحمي ولحم إخوتي، ويمارس كلَّ جرائمه والعالم شاهد لايُحرك ساكناً:

«تقْتل في عزِّ الظهر وترثُ المقتول على عينيك ياتاجر
«تقْتل وتصلي وتلتمسُ الغُفران فأيُّ إلهٍ فاجرٍ يقبل كفّارة عارك؟
لن تنعم بالصفح، كلُّ شفاعات الأرباب هراء
واسترسلْ: دمعُ تماسيح التاريخ هراء
واسترسلْ: كلُّ محيطات العالم لن تغسل كفيّك
دمُ أهلي ينزف من رأسك حتى قدميك . . »

إن الشهداء الذين يواصلون المسيرة «مُنحنينَ اليومَ لينتصبوا غدا» يتقدمّون خطوة خُطوة الى أمام والى أعلى» إن الشهداء لايموتون والشعوب تبقى تثمر الشهداء كما الزيتون يُنتج الثمر اللامع، وكما الارض تفيض بالحياة وإنْ توّهم البعض أن الموت نهاية لكن:

«لابأس عليّ / لأكن مايسترو الموت

ولتعزف صواعقُك المدخرة / جنازاً مؤقتاً في ثلاثاء الرماد»

إن الشهداء الذين يسقطون كلَّ يوم برصاص العدو، هم مشاعل لاهبة تتحرك كي تحرق القرية الظالمة (زيونونا) . . كما تُشعل الشوق الى تحرير الأرض والانسان الذي رفض ويرفض الأسرَ في سجن الاحتلال كما يرفض الرحيل:

يتخبطُ في الزنزانة دوريٌّ
يرفض أن يمكث في الاسر /ويرفض أنْ يرحل
الزنزانة محكمة الإقفال يُحاصرها عسكرُ زيونار
صاح «أجرني» ردَّ البابُ «أجيرك»
ردّ العُشب الأخضر من تحت نعال الجند: تَقْتُلْ أو تُقْتل لكن لاترحل
ردّت أزهار البريّه من سفح التل: «أنت القولُ الفصل»
قال: الموت المرُّ إذن
ردّت أشجار الزيتون: «بل الموت العالي لابأس عليك»
واضرب بجناحيك حتى لاتسقط واضرب بجناحيك»

نعم إنّه الإنسان: هو القول الفصل في عملية التحرير عندما يترعرع في جوانحه الشوق «للموت العـالي. . كما تُطالب أشجـار الـزيتون. . وهنا يزحف الشجر يُقاتلُ الترابُ، تتقدم الأحجار، ينطلق الأطفالُ، ليأتي الصدى من قمم التلال: النصرُ «رايةٌ أو كفن» رايةٌ تقود إلى التحرير أو موتٌ يثمرُ حياةً وهذا التحول في النفس العربية وفي الارض العربية بترابها وشجرها وحجارتها يُقابله تحوّل آخر عند العدّو فيرى الجو عاصفاً حين يزحف تراب الوطن ليعمي العيون: «حالة الطقس، صوانة في حساء العدو

شجر زاحف حفنةٌ من تراب في عيون العدو
حالة الطقس مستقبل عاصف
يانسيم المساء العليل كيف القتيل وأمُ القتيل؟
إنّما الوقت ياإخوتي غامضٌ قابل رافضْ. . »

وعندما نقبلُ الموتَ العالي طريقاً للحياة، يعود الفارسُ من غربته ليحمي حقولَ القمح وأشجار الزيتون، ولايتسربّ الوطن شبراً شبرا

«فارس الدم والمسك والقمح والياسمين
«عاد من غربة في أقاصي السنين. . »

إن الديوان الذي بين أيدينا ينبض بقيمة التمسك بالأرض في كل مافيه يقول:

«. . . من حنيني إلى الأرض
من عبء شوقي تكاد تسقطُ الطائرة
اشتقتُ ياأمي اليك اشتقتُ ياأمي كثيرا

والآن تحولُ بيننا الأساطير «الأساطيل» السجون الاذاعات والتي تعلن أن كلَّ شيء أصبح على مايرام

إلّا شيئاً واحداً يزعجهم جميعاً «أن تكوني أو أكون» أن يكون الإنسان المقاوم، أو الأرض التي تتفجر حجارة وأطفالاً، فكيف إذا كان الإنسان والأرض والحجارة واتحدوا جميعاً في رحلة نحو الشمس القريبة؟! . . ومع هذا التّصميم تستيقظ الذاكرة وتصبح غير قادرة على النسيان و «بصري حديد، ونَبْضي دبابيس ونمل» تقضّ مضجعي تقْلقني طالما أنا غريب مَنْفي . . وفي داخلي «أفعى الحُلم لم تيأس» ترافقني أينما رحلتُ. . »
لذلك سأواصل مسيرتي مع
«أشعة الشمس وعطر الياسمين
وانفخ دخان سجائري الرّخيصة في وجه اليأس.»

والمكتوب يقرأ من عنوانه كما يقول شعْبنا العربي في تراثه المتوارث ونوايا العدو أصبحت مكشوفة نَقْرؤها جيداً لذلك نقول: «فات أوان الصفح وجاء وقت الثورة ولايمكن أن نُلْدغ مرة أخرى. . شيء واحدٌ نعرفه ولانجهله:
«أنا الأرض / وأنا الإنسان
«أنا الماضي والحاضر والمستقبل
«فاقتل في عزِّ الظهر كي نرث المقتول
«دُمنا تبرّعَ للأرض بكلِّ خُطوط العرض / وكلِّ خطوط الطول. . »

ويتابع الشاعر التحدي يُخاطبُ العدو من خلال أحد رموزه:
«يايوشعُ أوقفت الشمسَ على أسوار أريحا
أرْضيت الربَّ القاتل؟ لانعلم
لكنّا نعلمُ أن الشمسَ تسير
نعلم أن الشمسَ تسير على أعناق الشهداء
من بحر البقر الى حطين / من جبل الشيخ الى سخنين
الشمس تسيرُ وتنمو وتكتمل على لهب جراح الشهداء
من عربستان الى لبنان / ومن المغرب لفلسطين. . »

والشاعر الفلسطيني المقهور باحتلال أرْضه لايفصل بين القهر في أرضه المحتلة وبين القهر الآخر فالقضية واحدة لأن العدو واحد. ولابأس أن يتكلم الشاعر باسم الشعب العربي
«من قمم الأطلس حتى قمم ظفار / حتى قمة حيدر والجرمق حتى
«قمّة صنين / أتكلم باسم الشعب العربي المطعون
«باسم الإنسان المطعون»

إن الشاعر هنا لايفصل قضيته عن قضايا الانسان العربي أينما كان لأن قضية فلسطين العربية لاتخص فلسطينَ وحدَها، وهنا لابد من النصر مهما طال الليل ومهما امتلك العدو من كل أنواع الأسلحة فالنصر أخيراً لمن يملك الأرض، لأنه صاحبها، لمنْ يؤمن بالإنسان لأن كلَّ شيء من صُنعْه، ولأن حقائق التاريخ وحركته تقف الى جانب الشعوب المناضلة ضد أعدائها.

لكن / مَنْ يملك كوشان الأرض وكوشان التاريخ وكوشان الانسان؟
«مَنْ يملك منّا الكوشان؟
«إنك تملك كلَّ شيءٍ هذا ماأعترف به حقاً
«لكن في جيبي في عبِّ القمْباز أصون الكوشان»
افْعل ماشئت ياعدوَ الحبِّ والسلم والشجر والإنسان فإن:
للصمت أوان / للحزن أوان / للذل أوان
لكن جنين الثورة ينمو في رحم القهر
الثورة تتوالد / الثورة تتصاعد / والثورة تسحقُ أعداء الإنسان

ولن نسْكت مادام في الأرض مانُقاتل به مادام هناك حجارة وتراب وزجاجات فارغة:
«فجّر مايُثقل روحَك من أورام الشهوات
«مازالت في الأرض حجارة
مازالت بضعُ زجاجات فارغة
«نقذفها في وجه الدبابات

وإذا كانت ولادتي الجديدة في حزيران من عام ١٩٦٧ فإنه في رمضان عام ١٩٧٣
«مال ميزان الدم واستردت روحها أمي ولم يُجبن أبي
«ومن الغُربة في أغوارهم عاد الرجال

والذي لاشك فيه أن البداية مع هذه التحولات تكون أكثر ثورية وأكثر أصالة لقد قَتَلنا الأعداءُ مراراً وكانوا أحراراً في قتْلنا لايردعهم أحد. ولكننا نقول لابأس:
«لابُدَّ من انتفاض الدم
ضجَ نحري على سيفها
غرغرات الدم انتفضت في زنازيننا
صار صوتي على النار ناراً».

لقد وُلد الرفضُ والفناء وهو يتعمّد بالنار ليقف الثوار وكثيرٌ منهم أطفال بكبرياء النُبوّة يحْصون خطايا المُخطئين ويُفجرون الثورة لأن الزمن امتلأ بالعذاب حتى حافته ولذلك صمم الفلسطيني بلسان سميح القاسم على أن يتكلم. . «فأية قوّة في الوجود تقوى على كتم صوتي» ومع هذا أعدكم بأن أرحل عن وطني بعد أن أفرغَ من ممارسة هوايتي المفضّلة وللمعلوميّة:
«. . تتلّخص هوايتي في أن انتظر مواسم الزيتون
وفي كلِّ موسم أحصي الثمار السوداء اللامعة
أحصي الثمار وأتقمصها ثمرة ثمرة. . »

ومواسم الزيتون لن تكف عن المجي كلَّ عام بثمارها اللامعة. وسيبقى هناك أيضاً، لأنه وعدَ صبية يحبّها كثيراً بأنه لن يصبح قطعة أثرية في مُتحف جنرالات الحرب المجرمين، بل يبقى شوكةً في أعين

الطّغاة:

«.. كالنملة تماماً أواصل عملي القديم قدَم الجريمة
من عظام قتلاي أصْنع أرْغُنا الكترونيا..»

من الكلام.. الى الفعل

ويُعاهِدُ سميح القاسم اخته الفلسطينية ابنة قرية (الرامة) التي رآها في موسكو يُعاهدُ زنبقةَ الوطن الذي باعوه (أو بعناه) بالمجان.. يُعاهدها أن يترك الكلام لأن هذا لم ينتج لنا إلاّ الموت والظلام وحالة الضّياع التي أفقدتْ كلَّ واحدٍ منّا توازنه حيث كنتُ (لاأصحو ولا أنام) كُنّا نعيش في ضباب موتنا المؤقت اللذيذ.. وعُدْنا معاً.. عُدْنا الى البلد.. والعودةُ من الموت المؤقت، هي ثورة مُضيئة إذْ عندما أبْصرتها السفُن الحربية

«ظنّتْ قامتي منارة فقذفت نيرانها على كل شيء
وقامت الحرائق بنزهةٍ وحشيةٍ
بين خليج الموت والحدائق..»

ولكن.. هذا التمردُ على الموت المؤقت يتلاشى، ويفقد قيمته إذا لم تتمرّد على الغُربة النفسية القاتلة وعلى اليأس والعجز المدَّمرين. ومن أجل هذا كان قدري بل واجبي أن أغرز مطواتي أكثر في بطن الحوت:

«قتلوني.. وتمردْتُ على الموت
تمردتُ على عجز الخلايا المُقْعدة
لاتلوميني لو تقمصت الصّلاف المَرَدةْ
لاتلوميني إذا صارت شراييني أراغيلي وموتي مستحيلي ص١١٠»
أنا أعلنت المشيئة وستأتين على سُرّة مولود وأهداب قتيل»

إن الشاعر يُعبّر عن مشيئة الشعب التي تبعث الثورة من قلب الدّمار، إذْ ذهب الى غير رجعة الزمن الذي كنا نموت فيه مجّاناً على المَصْطبة، نموت وهماً وعجزاً مُقعداً، لذلك أني

«سأحيا كثيراً
لأجلك يُصبح بيرقُ بعثي الجديد
حصيرة موتي القديم على مَصْطبة..»

لقد تحمّلتُ الكثير من العذاب والموت المعنوي والقهر وآن لي أن:
«أحيا وأحيا كثيراً» ص٨٢.. وهنا ياأمي عندما أعْلنت رفْضَ الموت وهممتُ على النضال من أجل الحياة رأيت الشهداء رأيتهم ياأمي يتوقفون أمام باب الموت:
يتبسّمون وتنطلقُ الإشارة
ورأيتُ الأمواتَ ياأمي رأيْتهم في ليلةٍ:

يحملون على الأكف قلوبهم التي
«كانت مصابيح الطريق إلى الحقيقة
«بكوا وتبّسموا وتعانقوا بالباب
«وانْغرزوا خناجرَ في الظلام

تولّى كلُّ واحدٍ منّا إنارة جانب من واقعنا المظلم.. وثار في نفسي الشوقُ إلى الرحيل:

ترحلُ جثتي تحت السماء
وأرى الجسور/ أرى الجسور / أرى الجسور
ويكون لي يوماً من الأيام جسرٌ، ثم أعْبر / ثم يعْبر / ثم نَعْبر.

لاتقلقي ياأماه لقد دَفَعْني عذابي لأن أعبُر. لقد أكلتُ أصنامي اللعّينة التي كانت تعيق حركتي وأكلتُ أوهامي ومخاوفي من فرط جوعي وحين أعبرُ أترك الخوف واليأس والتردّد وأرضى أن يكون موتي وراء الجسر، بين أحضانك هو ثمن هذا العبور- الحلم
«وليكن موتي وراء الجسر، تذْكرتي إليك» ص١٧
وحتى لاتبقى عذاباتنا هي وطنُنا فسوف نكفّ عن البكاء والدموع لانها لن يُعيدا لنا الوطن.!!

اختراق الموت.. والانبعاث من جديد

«اختراق الموت إلى ميلاد جديد» كما يقول جبرا ابراهيم جبرا، واحد من الهموم التي تؤرق سميح القاسم في هذه المجموعة.. أن يصْبح الموتُ لاشيء إذا كان في سبيل حرية الوطن وكرامة الإنسان.. ولذلك لايموت الشهداء لأنهم يناضلون من أجل أنبل القيم في الوطن والحياة والحب وهم وفْقَ هذا يمثلون «المهدي المُنتظر» ذاك الذي استتر الى حين. ثم يعود كي يملأ الأرض عدلاً بعد أن مُلئت جوراً وظلماً.. وهذه الفكرة قديمة في تراث بعض الفرق الإسلامية وتعني استمرار الأمل والخلاص رغم ضراوة الظروف المُحيطة التي بسببها يختفي الإمام (الخُضر) الذي يُساوي (الأمل) ليعود بعد فترة وهذه الفكرة تكاد تُغطّي الكثير من اهتمامات شعراء الأرض المحتلة، برزت في (أعراس) محمود درويش
«هذا نشيدي وهذا خروج المسيح من الجرح والريح أخضر مثل النبات/ يُغطي مساميره وقيودي..»

كما ظهرت عنده قبل ذلك حين عاد شهداء كفر قاسم الأبرياء، من الموت كي يقدّموا الفُل لحبيباتهم..

وحين يسقط شهيد فهو ليس أكثر من صخرة على النهر، ولكن النهر أبداً يسير، ترفده الينابيع تتفجر في عروق الأرض.. فعنْدما يستشهد (غسان كنفاني) يُعلن سميح القاسم:

هكذا نبدأ من حيث انتهينا / صخرة أخرى على النهر
لكن المنابع تُلْهم التيار مجرىً نحو مَصبّه
لكن المنابع أبداً تهْدر في كلّ عروق الأرض

تمتد، وترتد وتمتدُّ وتعلو وتدافع

والشهداء دائماً هم منارات درب الحرية لأن أبجديات النضال تقول:

أول الغيث دمٌ . . ثم الربيع

قالها يوماً مُغَنٍّ / أتقن الحكمة والإنشاد في كل اللغات

تنبض مجموعة سميح القاسم الشعرية الهامة «ماقتلوه وماصلبوه ولكن شُبِّه لهم» تنبض باستحالة أن يموت الشعب وإنْ توّهم الأعداء ذلك من خلال قوتهم العمياء فالشعوب لاتعرف الفناء. وإن شُبه لأعدائها أنها تموت. . والشعوب تستيقظ من حيث يظن الأعداء أنّها ماتت تستيقظ وتعيش الصحو النضالي وتبدأ تمارس طقوسها المقدسة الواضحة التي تؤمن بها فهناك عند الشعوب «طقس للحب / طقس للموت / طقس للنشور والتناسخ

«ثم أخْرج على العالم شاهراً صوتي. .»

وعندما قتلني الأعداء ثم صلبوني لم يدركوا حقيقة أن حبيبتي وأمّي والشمس القريبة تمنحني القدرةَ على العودة من الموت إلى ميلاد فاعل جديد ومادمت مُخلصاً لحبيبتي وأمي وشمسي القريبة فأنا

«لستُ ميتا / ولستُ إذن سائحاً أو مُهاجراً / ولستُ شقيّاً مُغامر

«أموت كثيراً وأحيا كثيراً ولكنْ أظل أُسافرْ

ويرى الشاعر الشهداء أجنحةً الوطن الى أرض الحرية يراهم مثل اجنحة (إيكاروس) التي استطاع أن يُحلّق بها إلى عروسه الحرية ليصبح سنداً للدوّالي الناشئة. .

هاهي الفتاة الفلسطينية (مُنتهى) التي استشهدت في (جنين) تحت جنازير دبابات المحتلين تكتب على بوابة الموت وغداً قريباً بالعودة:

«قاب قوسين؟ لا!

قاب قوسين؟ وأدْنى ياحبيبتي وعدنا»

هذه الشهيدة لاتعترف بالموت هكذا تعلمت من الشهداء السابقين الذين أزهرت دماؤهم في حدائق الوطن:

ياحبيبي قبلي وقبلك

«نوّر الدمُ في مسكب الياسمين

«سوف آتيك لاجُثة في كفن

«سوف آتيك بثوبي المدرسي

«طرحةً من دمائي وورد الوطن»

مع اختراق الموت يتحول الشهداء الى صيحات ناقمة في روابي الوطن ليصبحوا الآذان المنطلق من قمة الموت، يستنهض همم الشرفاء من أجل تحرير الوطن والإنسان. . وفي ظلال هذه الفكرة يتحوّل الشهداء أيضاً الى شجر صفصاف ثقيل فيه طيور أغاني النصر القريب. . ولا غرابة مع هذه الفكرة أن يُعلن الشهداءُ العصيان على الموت، هذا الموت الذي تجدله البطولة والرفض كي يتحول حياةً فاعلة ويصبح

الموت درساً تتعلم فيه الضحيةُ من قاتلها الثورة والحياة:

«علّمني القاتل أن أرفض النوم على مقاعد الحديقة

«تحت ظلال الحزن والمنية

«علّمني القاتلُ أن أجعل القتلى جسور الكرة الارضية

إن الموت مع النضال يصبح جسراً الى الحياة الكريمة وحرية الوطن تعبر عليه الأجيال تثري الحياة بالقيم النبيلة بالثمر الحلو، بالسيف الباتر، لحماية ثمار النصر المرجو وإطلاق الموت على محترفي الظلم وموت الآخرين على أعداء الحياة: وهاقد حققت الأجيال اللاحقة نبوءة سمِيح القاسم وعاد الأطفال بالثمر الحلو للنضال الباسل عادوا بالحجر الذي هزّ وجدان العالم، عادوا يقاومون بالحجر ظُلم اعداء الحياة والإنسان:

«أعود إليكم مع العشب بين خلايا المطر

وفي عندليبٍ تنفض / ونجم في الوحل أومضْ

أعود إليكم بتفاحتي والحجرْ / وأُطلق موتي عليكم»

وكان الشاعر قدْ وعد واحدةً من صديقاته بأن موته لن يطول:

«لن تريني / قطعتُ درباً طويلاً / بين موتي ويقْظتي خارج الأرض

«وموتي ويقظتي في المنافي حقيبة وهيولى

«دفنتُ في الطين جسمي من ليالٍ بعيدة

لقد تحوّل جسْمي الى ثمرات تنال منها الطيرُ وينال منها الأهل. . وتحوّلت الى أنجم تُضيء الدروب للمناضلين وأغنيةٍ ترافق الشهداء. . وها قد حققت الأجيال الفلسطينية نبوءة سميح القاسم. وعاد الأطفال بالثمر الحلو للنضال الباسل عادوا بالحجر الذي هزّ وجدان العالم عادوا يصنعون انتفاضتهم، يقاومون بالحجر ظلم وطغيان الصهاينة أعداء الحياة والإنسان.

---

١ ـ ديوان «وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم»
منشورات ـ صلاح الدين ـ القدس ١٩٧٦

نقد ادبي

الخندف
سيد الخلان وخاتم الفتيان

محاولة جديدة لتأصيل الرواية العربية

محمود سالم محمد*

أجمع المشتغلون بالأدب ونقاده أن الرواية العربية الحديثة مأخوذة عن الرواية الأوروبية، وأنها منقطعة الجذور مع التراث العربي، بخلاف الشعر المتجذر فيه. لذلك نجد حركة التجديد في الشعر تغاير حركة التجديد في الرواية، فالشعراء انطلقوا من الشعر العربي الأصيل باتجاه الأشكال الشعرية الأوروبية، في حين أن الروائيين انطلقوا من الرواية الغربية باتجاه الأصالة العربية في أحد وجوه تطويرها، فأخذوا يبحثون عن أصول لها في التراث العربي.

وكان الدارسون أول من بدأ رحلة تأصيل الرواية العربية، فطافوا في التراث العربي، يبحثون عما يقارب فن الرواية فيه، ويمكن أن يكون أساساً له، فوقعوا على أشكال متعددة، أعملوا فيها التحليل والتأويل، ليقتربوا بها من الفن القصصي الروائي. وقد أثمرت جهودهم دراسات عن القصة في القرآن الكريم، وخصائصها ومزاياها، وعن المقامات التي التبست فيها القصة بالفنون اللغوية والبلاغية، وعن الحكاية التي امتلأت بها بطون الكتب التراثية، والتي أظهرت وجود ميل إلى القص عند العرب بألوان جميلة وبخصوصية متميزة، وعن كتب القصص المترجمة مثل كليلة ودمنة، التي وضعت على لسان الحيوان، فكانت رائدة في بابها، وقصص ألف ليلة وليلة، التي فتنت الناس على مر العصور، والتي تميزت بقدرتها على الادهاش وجذب القارىء.. هذه المترجمات التي ابتعدت عن أصلها كثيراً، وتعربت إلى أن أضحت الأصل، أو الشكل الأكمل من الأصل، لأنه زيد فيها، وأشربت روح العرب، وأشبعت من حياتهم، وإلى جانب ذلك الدراسات التي وضعت على السير الشعبية التي كتبت في عصور مختلفة، وكانت شكلاً من أشكال الملحمة أو الرواية الطويلة، التي تحوي قصصاً كثيرة تكمل السيرة، وتعطيها ملامحها.

هذه الفنون القصصية الروائية التراثية، لو جمعت إلى بعضها بعضا، ودرست دراسة منهجية متأنية، لخرج الدارسون بملامح فن القص والرواية عند العرب، ولأفاد منه الأدباء في إبداعهم الروائي، وفي تأسيس الصورة العربية للرواية.

وقد تنبه بعض الروائيين العرب مؤخراً إلى التراث الروائي العربي، واستجابوا لدعوات الباحثين والنقاد، فقاموا بتجارب روائية، تحاول الإفادة من التراث العربي، في سعيهم إلى تأصل الرواية وتعريبها شكلاً ومضموناً، وإلى التجديد والتغيير والتميز.

ومن هذه التجارب، تجربة يوسف القعيد في مصر، وتجربة أميل حبيبي في فلسطين، وهذه التجربة الجديدة التي أصدرها الكاتب الفلسطيني عدنان عمامة، تحت عنوان / الخندف سيد الخلان وخاتم الفتيان/.

سار الكُتّاب الذين حاولوا تأصيل الرواية العربية على نهجين: النهج الأول هو كتابة رواية من الماضي، وإسقاط الأحداث والمواقف العصرية عليها، والنهج الثاني هو كتابة رواية من الحاضر، وحشوها بالإشارات التاريخية العربية، وظل الكُتّاب في محاولة دائبة ضمن هذين النهجين، للوصول إلى رواية عربية، فهل وصلوا؟

وهل كتابة رواية من أحداث الماضي مع إسقاطات عصرية، يجعلها رواية عربية، ويبعدها عن كونها رواية تاريخية؟

وهل كتابة رواية معاصرة مشبعة بالإشارات التاريخية والتراثية، يجعلها رواية عربية؟

أسئلة كثيرة تطرح حول هذه التجارب، وتلح على قارىء عمل عدنان عمامة /الخندف/، بل وتطرح سؤالاً أكبر، فيما إذا كان هذا العمل الأدبي رواية، أو إذا كان نوعاً من أنواع فن الرواية العربية، وحمل ملامح المقامة أو الحكاية أو السيرة؟

افتتح الأديب عمامة عمله الأدبي بمقدمة يعرّف فيها الخندفة، ومفهومه لها، الذي لايرتقي مع المفهوم اللغوي. والذي يفهم من الخندفة أنها سلوك وقيم وخصائص تميز فرداً من الأفراد، أو جماعة من الجماعات، وهي تقرب من تقاليد الفروسية القديمة القائمة على الانعتاق من كل قيد، ورفض الظلم، والسعي لإحقاق الحق وإقامة العدالة، إلى جانب التمتع بملذات الحياة. ويقترب هذا المفهوم حيناً عند الكاتب من مفهوم الصعلكة عند العرب، وهذا ما يوضحه قول المؤلف:

«الخندفة إذن هي الرجولة والقربى والحمية والأثرة والأمية... والخندفة تكون عند عامة الشعب، ولاتكون في أمير أو ملك أو نبيل أو صاحب سلطة أو سلطان.. والخندفة تكون في جلسات الأنس والعشق والهيام والبكاء على الأطلال، وحب السياسة وحب المشاغبة والمشاكسة، وتعني حب النسوان وذوي القربى، والسكر الطويل، وكتابة الأغاني والأشعار» (ص٥).

* ناقد من فلسطين.

وبعد أن يعرّف الكاتب مفهوم الصعلكة، يورد أشهر من اعتنق الخندفة، ويذكر شيئاً من حياتهم، وملامح شخصياتهم، وماجرى لهم، ليصل إلى ذكر أشهر الخناذف، فيروي حكايته.

في هذه التجربة تقمص الكاتب الطريقة العربية القديمة في الحديث عن موضوع ما وعرضه، فهو يبدأ ببيان الجوانب اللغوية والمعاني التي يحتوي عليها لفظ ـ خندف ـ أو التي يوحى بها، ويحاول أن يحيط بكل تفاصيل موضوعه، مستشهداً على ذلك بالشعر العربي والأمثال والنصوص التراثية، ويسوق الحكايات والروايات بأسانيدها المخترعة، مضارعة لكتب التراث، ومجاراة لها في طريقة إيرادها للحوادث، وتعريفها بالشخصيات، وإيضاحها للمعاني وتأكيدها، من مثل قوله (ص٦):

«عن سعد بن كعب، عن هاشم الجمشي، عن مضيع بن الزؤابة، عن البكلي، عن معاذ ابن قضاعة، عن آكل المرار، عن عهد الجهين، عن السلطي، قال: الخندفة تكون في الرجل كما تكون في المرأة، أي أنها تصيب الإنسان أو تولد معه، أو أنه يبحث عنها ويلبسها. . .» وقوله (ص١٣):

«بعض رواة العرب يدّعون أن الخندفة لبست المتنبي في دهر من عمره، ويستشهدون على ذلك بقوله:

ومجـدي يدلّ بني خنـدف على أن كل كريم يمان»

وأثناء ذلك تجوّل الكاتب في الماضي على هواه، فنقل الحوادث التي يريدها من هنا وهناك، ومزج بين التواريخ والعصور، ووضعها في إطار واحد، لتؤدي مايريد إيصاله إلى المتلقي، مثلما جمع بين الأسماء المتباعدة في أماكن وجودها وعصورها، واخترع الأسماء الوهمية وخلطها بالأسماء الحقيقية، لتتم له المفارقة، وعبثية الأمور التي يتحدث عنها، وانطلق من الوقائع التاريخية الثابتة ليبني منها عالماً مختلفاً، عالماً جديداً كما يريده، وكما يظن أنه يعني شيئاً للمتلقي. . هذا الخلط المتعمد أو غير المتعمد، محاولة لإظهار استمرارية الحياة، واستمرارية إشكالية الوجود العربي والقضايا العربية، لذلك لايمكننا أن نخضع مضمون هذا العمل الأدبي لمحاكمة الحقيقة التاريخية، بل يجب النظر إليه والتعامل معه من منطلق الفن الذي يعيد تكوين الأشياء وتشكيلها لتمتع وتفيد، وتؤدي أغراضاً أخرى غير الإخبار والاعلام، ولذلك خرج عن الدائرة العربية في الأسماء والحوادث، ودخل الدائرة الإنسانية، دون أن يفقد عمله أصالته العربية وخصوصيته.

ولتأكيد ماذهب إليه، استغرق الكاتب في طريقة العرب ومذهبهم في إيراد حوادثهم وحكاياتهم، فاستعان بالشعر العربي القديم، وبنصوص تراثية دون تحوير أو تغيير، وحاول توظيفها والإفادة منها في سياق حديثه، لتخدم الفكرة المطروحة، ويعمقها ويؤكدها. ففي وصفه للصالحية، المكان الذي نشأ فيه الخندف، يقول (ص٢٩):

«ومثل هذه أيضاً قول الخندف في أهل الصالحية: (ناسج برد، وسائس قرد، ودباغ جلد) والصالحية بلد كثير الخير، فيه النساجون والوارقون والبزازون، وأسواقها حسنة، فيها من كل زوج بهيج، يعيش فيها العرب والزط والفرس والديلم والترك، ويعيش فيها الزعار والعيار والفداوية، ويعيش فيها بصاصو وعسس المستمسك بالله، بل إن لملك الروم فيها عيوناً، ولملك الروس عيوناً، ولملك الخزر عيوناً، ولم يبق أحد من

ملوك الدنيا إلا وأرسل إلى الصالحية عيونه».

لذلك كله ابتعد هذا العمل الأدبي عن شكل الرواية السائد، وحاول الولوج إلى عالم التراث العربي وأشكاله القصصية، فبُني على شكل الحكاية المنثورة في كتب التراث، وحمل ملامح السيرة الشعبية في طريقة رواية الحوادث ووصف الأشخاص، وترديد اللازمة المعبرة، أو العبارات المشهورة المأخوذة من السير الشعبية، وملامح المقامة في بعض مقاطع الأسلوب، واصطناع الصياغة العربية القديمة في تقطيع الجمل وسجعها.

وأدى ذلك كله بأسلوبه الخاص، وطريقته المتميزة الساخرة، المتأتية من المفارقة بين طريقة القدماء في تعابيرهم وألفاظهم، وبين استخدام هذه الطريقة في عمل أدبي معاصر، أو بين استخدام اللفظ في النص الأدبي، وبين دلالته اللغوية وإيحاءاته المعروفة.

وبهذا تعمق الجانب الساخر من هذا العمل الذي ابتعد عن الشكل الروائي السائد، وعن شكل الرواية التاريخية وأساليب أدائها المعهودة، واقترب أكثر فأكثر من أجواء التراث العربي، وخاصة عند ذكر الأسانيد التي تمهد لكل حديث وتوثقه.

فأراد بذلك أن يخلق شكلاً جديداً من الرواية، وهو الشكل القائم على إحياء طريقة الكُتّاب العرب القدامى في حكاياتهم، ليخرج من إطار الشكل السائد في الرواية العربية، وليجدد في هذا الشكل، ليس عن طريق الاستيراد من الخارج، بل عن طريق العودة إلى صميم الداخل، وإلى التراث العربي، فتتم له الأصالة من ناحية، ويتم له التغيير المنشود من ناحية ثانية، ويبتعد عن مشاكل الخطاب السياسي والمباشرة، التي تسقط العمل الأدبي وتقتله، وهذا شكل من أشكال تأصيل الرواية العربية الذي تحدثنا عنه في التقديم، فقد اختار حوادث تاريخية، ونسج منها روايته، وأسقط عليها مايريد قوله والإشارة إليه حول الأوضاع القائمة في الوقت الحاضر.

ومن هذا الإسقاط، الوصايا التي ساقها، والتي تذكرنا بوصايا كليب لأخيه المهلهل (ص٦٥):

«وفي هذا المكان أوصى الضب الخندف، قال: اقعد ياخندف أوصيك، فإن النصح حق على الأصحاب والخلان والرفاق، أوصيك ياخندف:

ـ لاتصالح اليهود ياخندف لاتصالح، ولو قطّعوك إربا إربا، لاتصالح، ولو صالحت بطون العرب كلها، لاتصالح . . .

ـ لاتمالىء بطون العرب ولاشيوخ قبائلهم، قل لهم ماتشاء، أغضبهم، شدّ لحاهم، خذ من بعيرهم، وأطعم فقراءهم، شاركهم سيوفهم . .

ـ ياخندف شد عليهم من كل فج عميق بالطوال السواد، والطوال العوالي، واقتلهم حيث وجدتهم . .

ـ ياخندف احذر الروم والفرس، فإنهم أعداؤك وأعداء بطون العرب، حاربهم إن حاربوك، وتجاهلهم إن تجاهلوك».

لقـد انطلق الكاتب من الواقع الحاضر نحو التاريخ، يستنطقه عن الحوادث المشابهة والمطابقة، والدروس والعبر المستفادة منه، فكانت رؤية الحوادث التاريخية منبعثة من منظور الحاضر، وموقف المؤلف

من كل مايدور حوله، وبذلك تمّ له إسقاط الأوضاع الحالية على التاريخ، من مثل قوله (ص٤٤):

«فبعد أن دبّر ملك الكرك مكيدته ضد العساقلة، رحل بعضهم إلى مملكة صيدون، وسكنوا هناك، ومن هناك كانوا يغيرون على عسقلان، وفي مملكة صيدون أقاموا إمارة وعسكرا، فالتحق بهم المظلومون والمضطهدون والزعر والعيارون، وكانت خيلهم تصهل فترتعش الإمارات والممالك».

فهذا العمل رؤية وموقف من القضية الفلسطينية ومايحيط بها، تبدو غائمة للوهلة الأولى، ولكن ما أن يلج القارىء عالم المؤلف حتى تظهر له الأمور شيئاً فشيئاً، وتنقشع غيوم التاريخ التي غلّف بها الكاتب مايريد قوله، فإذا تمعّن المتلقي فيه، واجتهد في تفسيره، انفكت له رموزه، وانكشف أمامه المراد، ووضحت الحقائق والوقائع التي يتحدث عنها، وظهرت له مقاصد الكاتب ومراميه، وموقفه من الواقع العربي عامة، والفلسطيني خاصة، وقد اقترب أحياناً من التصريح بحقيقة عمله وبنيته ومضمونه، لكنه سرعان مايفر بعيداً إلى التاريخ، وإلى ذكر وقائعه الصحيحة والمخترعة التي تبعد عنه الشبهة، وتعصمه من السقوط في المباشرة والخطاب السياسي، لكن هذا الحرص على تبطين مراده في الوقائع والأسماء التاريخية لم يمنعه من الوقوع في شرك المباشرة التي أضرت بناءه الفني، ولاندري إن كان يقصد ذلك ليمسك القارىء بخيط الحقيقة، أو أنه فعل ذلك سهواً ودون قصد، وندت عنه حين عجز عن الإمساك تماماً بزمام العالم الذي يكوّنه، والذي جعله عالماً موازياً لعالم الواقع.

وحين ظن المؤلف أنه أورد من حكايات الخندفة مايكفي لايصال أفكاره ومشاعره حول القضايا العربية إلى المتلقي، وقف دون أن يضع نهاية واضحة لها، وكأن الأمر لم ينته بعد، أو هو كذلك، فالتاريخ مستمر، والماضي متصل بالحاضر، أو لأن الماضي في هذه الحكايات هو الحاضر المستمر نفسه.

فالكاتب اختار أحد أشكال القص في التراث العربي، وطعمه بسمات الأشكال الأخرى، ليحمل أفكاره، وليتم له البناء الفني، وتتم له عملية الاستبطان الأدبية، ويتم له التجديد والتميز، وتأصيل الرواية العربية بربطها بجذورها وإرهاصاتها التراثية، فتلقى الإقبال عند المتلقين على اختلاف مشاربهم: الذين يهوون الجديد والبديع، والذين تسكنهم فتنة التراث وقداسته، والذين يبحثون عن المتعة في الحكايات الغريبة المثيرة، والذين يسعون إلى الحصول على لذة الكشف، وفك رموز العمل الأدبي، والذين يميلون إلى الالتزام، والرقي بأثر الأدب، والذين يحبون أن يكون الفن للفن. لقد حاول أن يقيم المعادلة الصعبة بين المتعة والفائدة، وبين الاتجاهات المتباينة في الأدب، ونحوه.

منامات لطفي بن شفيق النكلي:

إلى جانب الخندف وضع عدنان عمامة عملاً أدبياً آخر، هو منامات لطفي بن شفيق النكلي، على شاكلة منامات الوهراني، وهي شكل من أشكال القص في التراث العربي، فريدة في شكلها ومضمونها، إذ انها أحلام مشكلة ومرسومة لتؤدي غرضاً محدداً، التقطها الكاتب أثناء بحثه عن الأشكال القصصية في التراث العربي، وأعجب بها، فأراد الإفادة من شكلها وطريقتها في بناء عمل أدبي، يستطيع من خلاله أن

يطرق مايشاء من قضايا، ويستطيع أن يشبع رغبته في الإبداع والتجديد، وإظهار مقدرته في الكتابة الروائية التي تخرج عن المألوف، فاختار اسماً وهمياً له، وأخذ يسرد بعض أحلامه العجيبة الغريبة، المستمدة من الواقع، ولكنها ابتعدت عنه، كما هي أحلام الناس وكوابيسهم وتهويماتهم، واستطاع بذلك أن يغرق في الخيال، وأن يبني عالماً سريالياً، يخلو من منطق الناس الذي يحكم أفعالهم وأقوالهم، لكنه يوصل أفكاراً وإحساساً، ويكشف غرابة الأمور التي تحكم زمن العجائب العربي الحالي، الذي يكاد يكون لوحة سريالية، قلبت فيها الأمور رأساً على عقب، وكأن هذه الحقبة كابوس يجثم على صدور العرب، فلا أقرب من الحلم في تجسيده والتعبير عنه.

ولم ينس الكاتب هنا مافعله في الخندف، فذكر داخل الأحلام حكايات بأسانيدها، ومال بها إلى طريقته التي ارتضاها لنفسه في الخندف، على الرغم من التعبير عن ذلك كله بأسلوبه الخاص، وطريقته الذاتية في تناول القضايا التي يعالجها في أعماله الأدبية.

إلا أنه هنا خشي من ضياع قارئه، ومن الخطأ في تأويل كلامه، وتفسير بنائه الأدبي، فصرح بمقصوده، وأشار إلى مايريد مباشرة، فبدت الأمور متناقضة، إذ إنه لم يجد الإيحاء بما يريد. ولم يحسن استبطان مراده في أحلامه، فجاءت المنامات خليطاً من الواقعية والطرح المباشر والأحلام السريالية، فضعف تأثيرها وإقناعها الفني، على الرغم من أنه اختتمها بالصحو والعودة إلى الواقع بعد رحلة مثيرة في دنيا الأحلام. ومثال ذلك قوله (ص٧٨)

«لماذا أنا في حي الفرافير؟ لأني أكره الاستعمار والامبريالية، وأريد أن أسترد فلسطين، وأن أحيي هؤلاء الناس الموجودين هنا، أريد أن أنهض بهم، ونهجم على اليهود ونسترد البلاد، جماعتي تقول ذلك، وأنا أصدقها.. هنا توجد بؤرة هائلة واسعة غنية مؤهلة، لأن تكون قادرة على استيعاب المرحلة واسترداد البلاد والعباد» (ص٧٩)

«أنا أعمل في حزب يريد أن يحرر فلسطين.. وحزبي يريد أن يعطي لكل فلاح بقرة وثلاث نعجات وماعزتين وبعيرا وامرأة ويختا».

فبدت المنامات على أهمية هذه التجربة متعجلة، لاتجاري الخندف في إتقان بنائها الفني، ولو أنه تروّى وأعاد النظر فيها، وأحكم بناءها، واتسع بها، ونشرها مستقلة، لكان لها موقع آخر، وصورة أخرى، ووقع مميز عند المتلقين.

إن مضمون عمل عدنان عمامة هذا على أهميته، لايسترعي الانتباه أمام جدة التجربة الشكلية التي أولاها الكاتب عنايته كلها لأنه يدخل عالماً جديداً ويسجل تجربة فريدة في بابها، قائمة على الافادة من التراث العربي، ومن ايحاءاته وامكاناته الفنية والتعبيرية لكتابة عمل أدبي معاصر فتجربة عمامة هذه، تثير الاهتمام لاسباب عدة: منها أنها الأولى في بابها، التي خرجت من إطار الرواية بشكلها المعروف وتلوناتها المختلفة، فهي ليست رواية بالمفهوم المتعارف عليه للرواية، وليست رواية تاريخية، لأنها لاتسرد حادثة أو حوادث مترابطة، ولاترسم شخصيات رئيسية وثانوية مرتبطة مع بعضها بعضا ومتفاعلة، بل هي أقرب إلى بحث أو دراسة حول موضوع من المواضيع، أجراه على طريقة الأدباء العرب القدامى، وهذا ما أتاح له

حرية كبيرة في البناء الفني، وفي استبطان ما يريد من مقولات ومواقف.

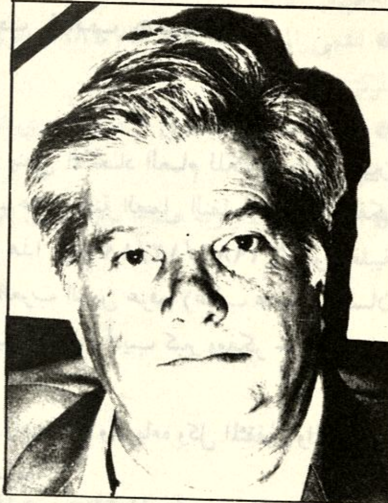
صحيح أنه سبق بتجارب ومحاولات لتأصل الرواية العربية والافادة من التراث العربي، لكن هذه المحاولات صبت في قالب الرواية المعروف على اتساعه، في حين أن تجربة عمامة خرجت عن هذا القالب بجرأة دون أن يحسب حساباً لمدى تقبلها عند المتلقين.

ومنها أن هذه التجربة نبهت الأدباء والقراء على أشكال قصصية موجودة في التراث العربي يمكن الافادة منها في تطوير الرواية العربية، والسير بها نحو الخصوصية مع زيادة قدرتها التعبيرية وجماليتها الفنية.

ومنها أنه قال كل مايريده عن طريق الاسقاط والاستبطان، ولو أردنا الاشارة إلى كل ماأراده لبلغ أضعاف حجم عمله الادبي هذا، وفي ذلك فائدة كبرى للقارىء والادب معا. وتخلص من الحشو والهذر والمباشرة والخطابية السياسية.

ومنها أنه لم يستسلم تماماً للإغراءات التراثية، على الرغم من حرصه على وجود البصمات التراثية في عمله، إذ انـه أدى ذلك كله بأسلوبه الخاص المعروف، وبسخريته المرة المعروفة، فزاوج بين الأسلوب التراثي والأسلوب المعاصر بنجاح، وبذلك ظهر أن اللجوء إلى التراث ليس مقصوداً لذاته، بل لغرض آخر، هو الإفادة من فنية التراث وإيحاءاته وطلبا للأصالة والتجديد والتمييز.

لكل ذلك استحقت تجربة عمامة هذا الاهتمام والتمعن والتقييم، ولا يهم إذا نجح في تجربته هذه أم لا، ولكن المهم أنه قام بهذه التجربة، ويحمد له ذلك في عصر الاغتراب والضياع ولامعقولية الأشياء عند العرب.



ملف الكاتب الفلسطيني في أربعين الراحل الـ: غالب هلسا

لغالب هلسا دين على الكاتب، فهو من مؤسسيها، وكان حضور اجتماع لجنة العمل النقابية الذي يبحث موضوع الكاتب آخر عمل قام به.

ولقد توفي غالب و«الكاتب» في المطبعة، فرأت أسرة التحرير أن تجمع بعض مانشر عن غالب عند وفاته، وان تنشره في هذا الملف.

وقد خص الاستاذ الأديب خيري الذهبي الكاتب بكلمة عن غالب، فنشرناها في اول الملف.

وهذا الملف بعض ما لغالب علينا

«اسرة التحرير»

حرية كبيرة في البناء الفني، وفي استبطان ما يريد من مقولات ومواقف.

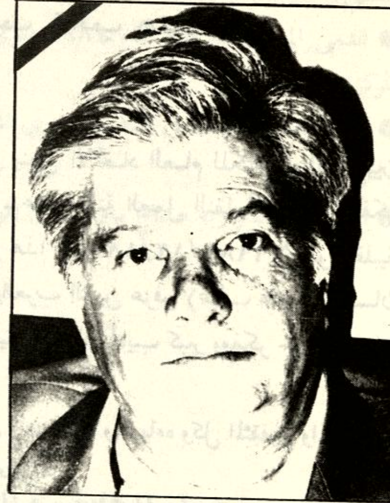
صحيح أنه سبق بتجارب ومحاولات لتأصل الرواية العربية والافادة من التراث العربي، لكن هذه المحاولات صبت في قالب الرواية المعروف على اتساعه، في حين أن تجربة عمامة خرجت عن هذا القالب بجرأة دون أن يحسب حساباً لمدى تقبلها عند المتلقين.

ومنها أن هذه التجربة نبهت الأدباء والقراء على أشكال قصصية موجودة في التراث العربي يمكن الافادة منها في تطوير الرواية العربية، والسير بها نحو الخصوصية مع زيادة قدرتها التعبيرية وجماليتها الفنية.

ومنها أنه قال كل مايريده عن طريق الاسقاط والاستبطان، ولو أردنا الاشارة إلى كل ماأراده لبلغ أضعاف حجم عمله الادبي هذا، وفي ذلك فائدة كبرى للقارىء والادب معا. وتخلص من الحشو والهذر والمباشرة والخطابية السياسية.

ومنها أنه لم يستسلم تماماً للإغراءات التراثية، على الرغم من حرصه على وجود البصمات التراثية في عمله، إذ انه أدى ذلك كله بأسلوبه الخاص المعروف، وبسخريته المرة المعروفة، فزاوج بين الأسلوب التراثي والأسلوب المعاصر بنجاح، وبذلك ظهر أن اللجوء إلى التراث ليس مقصوداً لذاته، بل لغرض آخر، هو الإفادة من فنية التراث وإيحاءاته وطلبا للأصالة والتجديد والتمييز.

لكل ذلك استحقت تجربة عمامة هذا الاهتمام والتمعن والتقييم، ولا يهم إذا نجح في تجربته هذه أم لا، ولكن المهم أنه قام بهذه التجربة، ويحمد له ذلك في عصر الاغتراب والضياع ولامعقولية الأشياء عند العرب.



ملف الكاتب الفلسطيني في أربعين الراحل الـ: غالب هلسا

لغالب هلسا دين على الكاتب، فهو من مؤسسيها، وكان حضور اجتماع لجنة العمل النقابية الذي يبحث موضوع الكاتب اخر عمل قام به.

ولقد توفي غالب و«الكاتب» في المطبعة، فرأت أسرة التحرير أن تجمع بعض مانشر عن غالب عند وفاته، وان تنشره في هذا الملف.

وقد خص الاستاذ الأديب خيري الذهبي الكاتب بكلمة عن غالب، فنشرناها في اول الملف.

وهذا الملف بعض ما لغالب علينا

«اسرة التحرير»

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين
ينعى عضو لجنة العمل النقابية
المناضل والأديب غالب هلسا

بكل مشاعر الحزن والأسى العميق ينعي الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين الكاتب والأديب العربي الأردني ـ عضو لجنة العمل النقابية للاتحاد والمفكر (غالب سلامة هلسا) الذي وافته المنية صباح هذا اليوم ١٨/١٢/١٩٨٩ إثر نوبة قلبية حادة. وان الكتاب والصحفيين الفلسطينيين والعرب الذين عرفوا (غالب هلسا) الانسان والأديب والمناضل، يعربون عن حزنهم العميق لفقدان أديب كبير ومفكر حر، وإنسان فياض بالمشاعر والقيم الإنسانية.

ومما يعزي رفاقه من الكتاب والصحفيين وأصدقاءه وأقرباءه وكل المثقفين والمناضلين أن الفقيد ترك أدباً خالداً وفكراً ناضجاً وذكراً محموداً.

المجد للكاتب الأديب المناضل غالب هلسا والعزاء لذويه وأصدقائه وزملائه ولكل الكتاب والصحفيين الشرفاء.

الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين

حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح»
القيادة العامة لقوات العاصفة
تنعى
الى شعبنا الفلسطيني ـ الاردني
وجماهير أمتنا العربية
الفقيد الكبير المناضل الاديب غالب سلامة هلسا

نبذة عن حياة الفقيد

● ولد الفقيد الراحل بمدينة مأدبا/ الاردن عام ١٩٣٦.

● تلقى تعليمة الابتدائي والثانوي بمدرسة المطران الثانوية ـ عمان.

● درس في الجامعة الاميركية في بيروت والقاهرة ونال اجازة في الصحافة.

● انتمى الى قضية الثورة وناضل من اجلها منذ بداية حياته وتعرض الى الاعتقال والمطاردة والنفي.

● انتمى الى حركة فتح عام ١٩٨٤ وتولى مسؤولية العلاقات الثقافية في دائرة الاعلام المركزي للحركة.

● له عشرات المؤلفات في الادب الثوري الملتزم، في الرواية والقصة والمسرح والنقد الادبي والترجمة.

● انتقل الى جوار ربه صباح يوم الاثنين الموافق ١٨/١٢/١٩٨٩ اثر نوبة قلبية حادة.

رحيل الكاتب والروائي غالب هلسا

نعى الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين أمس الكاتب والأديب العربي الأردني المفكر غالب سلامة هلسا عضو لجنة العمل النقابية للاتحاد، الذي وافته المنية صباح أمس اثر نوبة قلبية حادة.

وأعرب الاتحاد باسم الكتاب والصحفيين الفلسطينيين والعرب عن حزنهم العميق لفقدان هذا الأديب الكبير والمفكر والإنسان الفياض بالمشاعر والقيم الإنسانية.

وقد أغنى الفقيد المكتبة العربية بمؤلفاته الإبداعية ودراساته وترجماته.

وقد سبق أن قدمنا في «البعث الاسبوعي» حواراً شاملاً مع الفقيد الراحل في ٨/٨/١٩٨٨.

وتتقدم أسرة تحرير «البعث» من آل الفقيد وزملائه بأعز التعزية..

وهذه قائمة بمؤلفاته:

● **الأعمال الأدبية:**

ـ وديع والقديسة ميلادة وآخرون، قصص عام ١٩٦٨.

ـ الضحك، رواية، عام ١٩٧١.

- الخماسين، رواية عام ١٩٧٣ .
- زنوج وبدو وفلاحون، قصص عام ١٩٧٧ .
- السؤال، رواية، عام ١٩٧٩ .
- ثلاثة وجوه لبغداد، رواية، عام ١٩٨٦ .
- سلطانة، رواية، عام ١٩٨٧ .
- الروائيون، رواية، عام ١٩٨٩ .

● **المؤلفات الدراسية :**

- قراءات نقدية، عام ١٩٨١ .
- العالم مادة وحركة، عام ١٩٨١ .
- الجهل في معركة الحضارة، عام ١٩٨٢ .
- فصول في النقد، عام ١٩٨٤ .

● **الترجمات :**

- كتاب عن برنارد شو.
- رواية «الحارس في حقل الشوفان».
- جماليات المكان، اداستون بشلار.

البعث/ العدد/ ٨١٣٣
١٩٨٩/١٢/١٩

غياب هلسا صاحب الهمّ الديمقراطي

توفي في دمشق عن عمر يناهز الستين عاماً في الساعة الحادية عشرة والنصف من ظهر أمس الاثنين الكاتب العربي المعروف غالب هلسا إثر نوبة قلبية حادة أدخلته المشفى منذ أربعة أيام.

للكاتب هلسا العديد من الروايات أهمها «الضحك» و «السؤال» و «الخماسين» و «سلطانة» و «ثلاثة وجوه لبغداد» و «الروائيون» كما ترجم العديد من الكتب والدراسات منها «جماليات المكان» لغاستون باشلار.

وكان هم الأديب الراحل في مجمل رواياته هو الهم الديمقراطي.

ولد الفقيد في محافظة الكرك في الأردن وعاش جل حياته في مصر حيث عايش وعاصر الكثير من الكتاب ثم انتقل الى بغداد فبيروت فدمشق.

عرف الأديب الفقيد هلسا بنشاطه ومثابرته وإسهاماته الخلاقة في الندوات والفعاليات الثقافية وله موقف متميز من التسوية الاستسلامية التي تروَّج في المنطقة سجله في العديد من مقالاته كما له أطروحات هامة حول المثقف والثورة.

القسم الثقافي في «تشرين» يعزي أهل الفقيد بمصابهم الجلل كما يعزي الحياة الثقافية العربية بوفاة واحد من أبرز فرسانها المنافحين عن حرية القول.

تشرين ١٩٨٩/١٢/١٩

تشييع الأديب الراحل غالب هلسا

شيع الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين صباح أمس جثمان الكاتب والأديب العربي الأردني المعروف/ غالب هلسا/ الذي توفي أمس الأول إثر نوبة قلبية حادة عن عمر ناهز السابعة والخمسين عاماً.

وقد نقل الجثمان في موكب مهيب من مشفى الأسدي بدمشق الى الحدود السورية - الأردنية حيث سيوارى جثمانه التراب في مسقط رأسه في مأدبا في القطر الأردني الشقيق.

وشارك في تشييع الجنازة بعض الرفاق أعضاء القيادة القومية لحزب البعث العربي الاشتراكي، وقيادة حركة التحرير الوطني الفلسطيني /فتح الانتفاضة/ وعدد من قيادات فصائل الثورة الفلسطينية، وأعضاء قيادة اتحاد الكتاب العرب، ولجنة العمل النقابية للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين، وآل الفقيد وحشد من الأدباء والكتاب والمثقفين وأصدقاء الفقيد.

الثورة/ العدد/ ٨١٣٥
١٩٨٩/١٢/٢٠

غالب هلسا الذي ما مات

● *خيري الذهبي*

بلهجتـه المرحة، وحس دعابته المسيطر قال: أأنتم راضون عن أنفسكم (قوي) ياأخي. ماهذا؟ لا معارك أدبية، لا جدالات، لا صراعات فكرية.. ايه. ختمتم العلم والأدب وأطلق ضحكتـه الخجول، واكتشفت فجأة وجهاً جديداً لغالب، وجه المشاغب الأدبي، المشـاغب الـذي يعـرف جيداً أنه الأدب كنشاط إنساني لاتحفزه الا الصراعات والبحث عن قضايا. فقلت له، وأنا اليائس من كل ما أرى، والذي اختصرت نشاطي كله في الاعتكاف والكتابة: لا فائدة.

لكن غالب، هذا الفتى الذي تقلب بين سجون أكثر من دولة عربية، والذي تقاذفته المنافي والأوطان، والذي كلما استراح إلى واحد من هذه الأوطان وقال: سأمد جذوري. جاءت ريح عاصفة، الله وحده يعلم منشأها، فاقتلعته نباتاً برياً تحمله الرياح من عمان الى لبنان، فسورية، فمصر، فلبنان، فالعراق، فاليمن، فسورية. وكان كلما حط الرحال في وطن سارع الأصدقاء من حوله، ثم يفاجئنا بعد هذا بنتاج جديد، فمن زديع والقديسة ميلادة شديدة المحلية الأردنية، الى بدو وزنوج وفلاحون التي ساجل فيها صراع الشرق الأوسط الأزلي بين أهل الوبر وأهل الحضر، بين البدوي المتعجرف صاحب الحق في كل شيء. أليست الأرض وماعليها مملكته، والفلاح الذي تخلى عن حقه في الحرية الأزلية سعياً وراء متعة الخلق والإنتاج.

وأخيـراً حط غالب في مصر، وقال: هذا هو الوطن. فأنتشت الجذور تأمل النيل والأهـرام وحي الـدقي، وهتف: وأخيراً وجـدت الـوطن، ولكن الخماسين تلك الريح الصحـراوية المملوكية المرعبة لاحقته الى هناك، لاحقته بكثافتها وإصرارها وتسربها من شقوق النوافذ، وثنيات الأبواب محطمة الأستار، متسللة الى الخفايا، محيلة الحياة كلها الى كابوس طويل.. طويل.

ثم كان الضحـك، ولكنه كما قال شاعر العرب: ولكنه ضحك كالبكا ثم فاجأنا بالسؤال الأزلي الطويل: وماذا بعد. ماذا بعد هذه الأجهزة البوليسية المخربة والفاسدة!

ثم بكى كبـدوي عتيق، وأبكانا على أطلال أحلام جيلنا التي ذابت تحت شمس الحقيقة التي صفعتنا جميعاً، وأخيراً جاءت درته الفاجعة، ووصيته الأخيرة في الرواية التي ختم بها الأحلام، ونعى فيها نفسه، حين جعل البطل الذي قضى ثلاثين عاماً في بنائه لبنة روائية إثر لبنة، بناه كغالب، وبناه كمصطفى، ليتكشف بعد اكتماله أخيراً عن ايهاب هذا الروائي الخارج من السجن، ليفاجأ بالعالم المنهار من حوله، فالحركة السياسية التي وهبها شبابه وعمره تتحلل وتتفكك، والوطن الذي راهن عليه بعمره ينهار تحت ضربات حرب السابعة والستين، يتمزق البطل ايهاب وتوأمه زينب، ويتأزمان حتى لايجد روائينا هلسا حلاً، إلا في انتحار البطل بتناول السيانيد. وكنت قد قلت له: غالب. أعتقد أ نك حين قتلت بطل العمر ختمت لا إرادياً طريقاً في الرواية، قضيت العمر في بنائه. وماكنت أدري أنه ـ آه ياإلهي ماأصعبها ـ قد تنبأ بنهاية.. كل شيء.

كان يحلم بتجربـة بلزاك في الكـوميديا الإنسـانية، ويقول: دمشق. هذه المدينة الغامضة السرية، المتلفعة بألف سراب وسراب، المتخفية بين الحواري والتاريخ بحاجة الى بلزاك، بلزاك حقيقي يلاحق ماضيها وحاضرها، خفاياها وأسرارها، تبدلاتها وتقلباتها. وكنت أمازحه: يلله ياسيدي. بلزاك بيننا. تفضل. وكان يجيب بحزن خفيف: غريب أمر هذه المدينة، كلما قلت أمسكت بها انزلقت بين الأصابع، لأكتشف أن ماكان بين أصابعي لم يكن إلا واحداً من سراباتها التي احتمت بها عبر التاريخ. ثم يضحك وهو يفك بعضاً من أزرار قميصه ليحسن التنفس: ولكني سأمسك بها أخيراً، وسترى!

ولكن.. وأسفاه مات، مات قبل تحقيق الحلم، ولكن هل مات غالب هلسا حقاً؟ ربما مات أرخص مافيه الجسـد، الجسـد المشترك بين كل المخلوقات أما غالب هلسا الحقيقي، الـذي ملأ حياتنا بمعرفته وثقافته وحس دعابته ودراساته المبتكرة، فموجود، موجود بيننا، وجود الحرف والكلمة والهم الوطني الباحث عن حل لمشاكل هذه الأمة التي نخرت فيها رياح الخماسين.

في وداع غالب هلسا

● *أحمد المصلح*

حين قابلته للمرة الأخيرة في دمشق في النصف الثاني من شهر تشرين الثاني لعام ألف وتسعمئة وستة وثمانين، كان بادي التعب، قليل الكلام، على عكس ماهو معروف عنه من خفة في الحركة وحيوية في الحديث.

يومها قال لي الصديق الشاعر محمد لافي:

حاول أن تبتعد عن كل ماهو مأساوي ومظلم، أثناء حديثك مع غالب، فالرجل قد خرج للتو من عزلة اجبارية فرضها على نفسه لعدة شهور خلت.

وحين سألت الصديق لافي عن السر في عزلة غالب الأخيرة أجاب: لا أدري، فلعله

يكتب رواية مأساوية جديدة، أو يمر في حالة مراجعة انطولوجية للذات والواقع العربي الراهن.

ويمر الوقت واذ بغالب هلسا الروائي يطلع علينا بعمله الروائي الضخم «الروائيون».

ونقرأ العمل الروائي الجديد لغالب هلسا، لنرى بأنه الجزء الثاني أو هكذا أفهم، من عمله الأول الضحك. حيث يحل ايهاب المثقف الثوري اليساري في «الروائيون» محل مصطفى المثقف اليساري في الضحك، وتحل زينب الوجه الآخر لايهاب محل تفيدة الوجه الآخر لمصطفى.

واذا بغالب هلسا الروائي مشغول في نهاية الأمر في دراما الصعود والسقوط للمثقف العربي، والسياسي العربي والواقع العربي، على أرضية حدث الخامس من حزيران لعام ألف وتسعمئة وسبعة وستين.

واذا بالعذاب هو العذاب، والمأساة هي المأساة، في مسلسل فجائعي او ملحمة مأساوية مريعة ورائعة.

أقول رائعة، لأن غالب هلسا الروائي، وبشهادة كل النقاد العرب، خير من استطاع أن يجسد الصورة الواقعية للحمة الفاجعة العربية في جانبها الايديولوجي والتنظيمي في أعمال روائية تعد قمة في الإبداع الروائي العربي، ولا تقل أهمية عن أعمال هنري ميلر ولورانس داريل في عالم الرواية الأوروبية الحديثة.

ولئن كان نصيب الواقع الاردني من أعمال غالب هلسا الإبداعية قليلا، قياساً إلى إبداعه الجم، إلا أن وديع والقديسة ميلادة، وبدو وزنوج وفلاحين، ورواية سلطانة، تؤهل غالب هلسا لمكان الصدارة بين الكتاب الأردنيين الملتزمين بالوطن وقضاياه العادلة، فهو بحق صوت أردني نقي، استطاع أن يزاوج بين الهم الوطني والهم القومي برؤية إبداعية فنية متميزة.

واليوم وبعد رحيل في الأرض العربية، قطعه السندباد الأردني بين حبيبته القاهرة التي قضى فيها حوالي ربع قرن، وبين بيروت وبغداد، وأخيراً دمشق، يعود الينا أديبنا الكبير مسجي على أرواحنا المتشظية، على مساحة الأرض العربية المتشظية.

لقد عاش غالب هلسا حياته هارباً من «الخماسين» الى خماسين عربية أخرى، مؤمنا بانتصار قيم العدالة والحق والكرامة للإنسان العربي.

ولئن مات الآن غالبا هلسا، فإن روحه الإبداعية لاتزال قائمة فينا، وفي كامل مساحات النسيج الإبداعي العربي الفذ.

فلك الرحمة ياغالب
وليكن ذكرك مؤبداً

الراي ٢٠/١٢/١٩٨٩

المجلس الجنوبي برقية في وداع هلسا

● **وجه المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، برقية في وداع الروائي غالب هلسا هذا نصها:**

لم تبرح صورته الأليفة مكانها البارز في ذاكرة المجلس الثقافي للبنان الجنوبي، فكثيراً ماتردد غالب هلسا على مقر المجلس وكثيراً ما اعتلى منبره محاضراً أو متحدثاً خلال إقامته في بيروت عاملاً في تلك الورشة الثقافية العربية على إنارة الوعي الاجتماعي وعلى الإسهام في إبداع النص الجديد للرواية العربية.

إن المجلس الثقافي للبنان الجنوبي وهو ينحني بحزن وألم في وداع غالب الأخير ليعرب عن عظم تقديره لهذا المبدع العربي الكبير واثقاً من استمرار حضوره الفاعل بيننا عبر نصه الإبداعي وآثاره الفكرية المضيئة.

السفير/ ٢١/١٢/١٩٨٩

غالب هلسا: الزمن الصعب

● **بسام درويش**

انه زمن الجنازات.. زمن الموت المعلن الذي يخطف الابتسامات ويسرق منا لحظة الحلم وثغرة الأمل بكل شيء جميل..

المسافة قصيرة جداً، لم تتجاوز الابتسامة والحلم.. لم تدعنا نصنع فسحة للفرح الذي مافتئنا نركض وراءه.

نودع صديقاً لنستعد لرثاء انفسنا في هذا الزمن المفجوع بنفسه.. فلم نعد نصلح لشيء الا لكتابة المراثي. وأناشيد البكاء على الأضرحة.. فتدخل التواريخ ببعضها تتشابك الأرقام والأسماء..

نكتب الرسائل للأصدقاء الجميلين ثم نمزقها، عندما نستدرك انهم قد ماتوا..

نبدلها ببكائية مرة نعلنها على عتبة الليل الدوي بصمته الطويل، فنحمل غربتنا زوادة ونمضي.. نمضي بلا اتجاه..

لأدري.. ربما كنت أعتقد أنك مازلت تجلس خلف تلك الطاولة تحمل بعينيك

الصغيرتين ابتسامة ملفوفة بالحزن والمدى العميق، وسألقى وجهك المستدير بابتسامتك المألوفة.

نجلس بهدوء نحكي عن النساء والعواصم المسكونة بالهزيمة والانكسار.. نتحدث عن الأدب والكتابة وشجونها.

تغادر بهدوء.. هكذا دون أن تترك وردة أو أي شيء آخر..

هكذا لن تكون في المقهى، حيث لم تزل بقايا ضحكة صغيرة تركض بين زواياه.

لكنه الموت الذي لاينتظر جواب أحد. تمضي بعيداً عبر غرف موسيقى الكلمات، التي كانت تصلح لكل شيء.. الكلمات التي سافرت معك عبر الرحلة الطويلة التي لم تقف عند حدود ماء هذا الوطن الكبير. لقد عبرت فيها عن أحلامك الهادئة، وشوقك للدفء والاستقرار.. وها أنت ترحل بعيداً عن دفء التراب ودفء الحجارة..

نودع فيك شخصا عادياً.. مر بشكل طارىء على هذه الدنيا.. بل نودع انساناً لم يقف عند حدود الأديب انما كان له موقف على الصعيد السياسي.. وامتلك رؤية خاصة به، هذه الرؤية ترجمتها في كتاباتك المتعددة هنا وهناك.. ورغم كل شيء. وربما لم تكشف في يوم بقيت وفياً لما حملته بداخلك..

انه الموت.. الشيء الذي لايؤجل على الإطلاق.. ولا شيء البته يوقفه..

وهاهو موعد سفرك الأبدي قد أتى.. فغادرتنا..

رغم أننا مانزال نعتقد أنك ستأتي غداً أو ربما بعد غد..

السفير/ ٢١/١٢/١٩٨٩

آخر حديث للراحل غالب هلسا مع جريدة الثورة

● ديانا جبور

غالب... الباقي منك أبقى

رحل عنا، خذلته الحياة وابتلعه أديم تربتها، وهو الذي كان مقبلاً عليها يعب منها ويغرف، رحل، لكن الباقي منه أبقى: سؤاله.. رياحه الخماسية، سلطانة، الوجوه الثلاثة التي عرفها عن بغداد، ضحكه، وبكاؤه الذي كثيراً ماترتل به وهو يقف على أطلال حياة

توزعت بين عمان وبيروت والقاهرة، وبغداد ودمشق، ترحال دائم لم يمنع او يثبط العزائم أو المشاريع.

عندما أهداني روايته «سلطانة» كتب لي «الى فتاة الاحتمالات الكثيرة.. الى أين» وكأن الزمن سينصفنا بأن نرى سوية أياً من الاحتمالات التي اعتملت في الذهن، لكن يد المنون أسرع، استبقت تصوراتنا باحتمال لم نفكر به ابداً. فثار لنفسه منا ومن إهمالنا ومد لنا لسانه شامتاً. مع غالب كانت المناكدة هي السمة الغالبة على جلساتنا وحواراتنا، وبطيبته الأصيلة كان يرد علي وبلكنته المصرية المعروفة «أنت صحيح واحدة نصابة» فقد كنت أسطو على سجائره وفي آخر جلسة لنا سطوت على ذكرياته متكئة في كثير من الحالات على روايته سلطانه، حيث تمدد الحديث عن المرأة، السياسه، الطفولة، النقد..

رحل دون أن ينصفه النقاد، لكنه لم يهن على العكس آنذاك قال لي: «اسمعي لو في يوم استقبل النقاد احدى رواياتي بحماس وكتبوا عنها تمجيداً لشككت بنفسي لأنني أعرف نفسي وأعرف النقاد.

نجيب محفوظ عندما أصدرت رواية «الضحك» في مصر تحدث عنها باعجاب في أربع مقابلات صحفية واذاعية، مع ذلك لم يكتب عن رواياتي الا القليل، بل لم يكتب عنها أصلاً، في حين روايات كثيرة متدنية القيمة نالت قدراً أكبر من الكتابة والاهتمام وحيداً عاش سني المراهقة والشباب، وحيداً كبر وحيداً رحل دون امرأة تؤنس وحشة الحياة وكآبة الروح، رغم رحلة البحث الدؤوب عن المرأة. دون أن تنتهي الرحلة، أو يتوقف الترحال بل ظل قائما يتسارع معه اللهاث، حتى ضغط عليه فارتحلا سوية دون الضلع الثالث الذي كان من الممكن ان يرمم فجوات تركتها الحسرة والعزوبية التي بهت القها أواخر حياته لذلك كان يبحث عنها بلهفة في السنوات الثلاث الأخيرة من حياته دون أن ينجح لأن السبب كما قاله يتمثل في أن المرأة تجتذبني دوما بقوة، لكن في لحظة معينة، عندما تصل العلاقة الى قمتها كنت أشعر شعورا عميقا بالاثم، ربما لأنني كنت أبحث عن الأم في كل امرأة أقيم معها علاقة، وفي كل علاقة لم أكن أجد الأم، بل الحبيبة والند.. لكنه أحب كما أحب بعنف، طالما أن الحب عميق. وقد كان دوماً يبدأ عنيفاً وعميقاً لذلك كان على الدوام واثقاً من استجابة الطرف الآخر هذا الاحساس الغيبي انما العميق بالآخر نقله لي في تلك الجلسة حين قال: «تعلمين من تجربتي الخاصة أستطيع أن أؤكد لك أن الرجل أو المرأة اذا أحب أو أحبت بشكل عميق جداً جداً فلا بد أن يستجيب الطرف الآخر. وهذه مسألة ليست خاصة بي، فحدة الشعور وتركيزه تثير وعلى نحو غير مفهوم استجابات لدى الآخر، اعتقد أنه لايوجد إنسان يستطيع ان ينجو من هذا الإحساس العميق والحاد بالآخر، لكنه ما إن يتحقق من استجابة الآخر ويصل واياه الى ذروة العلاقة حتى يخبو توهجها فينكفىء الى ذاته وفراشه ولحافه ففي لحظات من هذا النوع وحسب ماجرنا اليه تداعي حوار ذلك اللقاء

يصبح اللحاف جسداً ويصبح الإنسان ذائباً في الفراش، يصبح كأنه طفل لم ينتزع من رحم امه بعد».

وعندما قلت له بأنه كتب ماهو أوضح من هذا في سلطانة وذكرته بها كتب تحديداً ضحك وقال: «أنا كتبت هذا أما والله هذه قلة أدب بصحيح» ثم أضاف جاداً: «لحظة اليقظة ـ على الاقل بالنسبة ـ يكون الإنسان فيها قد فقد الذات التي تجمع في لحمة واحدة بين الجسد والعقل والتاريخ الشخصي.

في كثير من الأحيان عندما استيقظ من النوم أسأل نفسي من أنا وأين أنا مع الإحساس بانفصال الجسد عن الذات يميز لحظات الاستيقاظ من النوم، والاستمتاع في الوقت نفسه بملمس شيء طبيعي لجسده.

أمام غزارة إنتاجه الذي تنوع بين الإبداع والترجمة والنقد، اتصل بي أكثر من مرة يسألني مستغرباً عن مصير اللقاء وأين نشر أو سينشر ومستنكراً تكاسلي في إعداده لطالما استوقفني تدفقه الإبداعي وغزارة إنتاجه فسألته عما تحققه له الكتابة وقتها قال لي: في صغري كنت أحس بالعزلة عن الجماعة فعندما دخلت المدرسة الانكليزية كنت أصغر طلاب الصف وبالتالي غير معترف بي كند لأي طالب من الطلاب.

كان الإحساس بضآلتي بين الطلبة طاغياً حتى أنني أتذكر إنني كنت مرة أسير أنا وطالبين من صفي فرأيا عن بعد طالبين آخرين وقررا ان يتشاجرا معهما فقالا نحن اثنان هما اثنان تصورت انهما أخطآ فقلت لهما نحن ثلاثة لكنهما أصرا أنهما اثنان، أدركت بعدها أنني لم أكن أحسب واحداً. أعتقد أني أحاول بالكتابة وفي جذر تجربتي أن أبرهن أنني ند لهؤلاء الطلبة الذين كانوا يحتقرونني لأنني صغير.

تعلمين أن المرأة ليست الوحيدة المضطهدة في مجتمعنا الشرقي، الطفل ايضاً مضطهد، فالكبار دوماً على حق، والطفل رغم أنه يعلم أنهم مخطئون لكنه يعجز عن الرد عليهم لهذا ربما سيطر علي منذ الطفولة حلم تشكيل محاكمة تجمعني والكبار، يكون فيها القاضي شخص له طابع علوي يستطيع أن يحكم بعدالة مطلقة، أي يسمح لي أن أقول حجتي كاملة ويرغم الآخرين على الإصغاء وعلى قبول حكمه العادل. الرواية بالنسبة لي هي نوع من هذه المحاكمة أقول فيها للكبار الذين اضطهدوني لمجرد أنني صغير السن: إنني كنت أفهم كل شيء.

اذن قبل أن يكون غالب هلسا أديباً كان إنساناً أحس باضطهاد الواقع عليه كما على غيره من المضطهدين في الأرض أطفالاً ونساء، وربما كان هذا التحسس من الظلم دافعه للاشتغال المبكر بالسياسة الذي يرتبط في مرحلة الشباب بسمتين مترافقتين هما الرومانسية والاندفاع الذي قد يراه البعض طفولية وهما السمتان اللتان تلازمان العمل السياسي القائم على أسس أخلاقية وإنسانية حماسية بظني أنه كان آخر حوار أعطاه الفقيد للصحافة والآن

أنا أشكر الوحي الذي أبعدني عن حديث النظريات الى الذكريات والمكنونات.

كانت حياة حافلة بالأدب والسياسة، كما كانت حافلة اجتماعياً وبمواقف إنسانية لاتحصى، لذلك سيبقى غالب هلسا بيننا وإن رحل الجسد عنا.

الثورة/ العدد/ ٨١٣٦
١٩٨٩/١٢/٢١

غاب كاتب الخميس
أديب علمنا.. أديب عرفناه

● **نهلة كامل**

غاب كاتب الخميس المرحوم غالب هلسا، ولم يغب رثاؤه في هذا اليوم، وقد حرص هلسا على نشر مقالاته النقدية الأسبوعية. خلال عام لم يكتمل بعد. في صفحتنا الثقافية كل خميس، العلاقة المهنية هذه التي أضافت الى معرفتنا بالأديب الراحل كثيراً من المعاني الأدبية والفكرية والنقدية والإنسانية.. وقليلون هم الذين تضيف العلاقة القصيرة معهم. خاصة بين الأدباء، هذا اذا لم تتناقض مع الصورة الأدبية البعيدة، التي نكتفي بها عادة، أو نفضل الاكتفاء بها احياناً.

والأديب الراحل الذي بدأ الكتابة في صفحتنا الثقافية من خلال حلقات: «أدباء علموني. أدباء عرفتهم» أضاف الى معرفتنا الأدبية البعيدة به، تفاصيل فكرية وأدبية ونقدية غنية وطموحة. عرفنا كثيراً عن طموحاته وأحلامه الأدبية. وآرائه الفكرية. وجذوره النقدية، وهمومه العربية، لدرجة أنه جعلنا نشعر وأحياناً نتيقن أنه لم يفعل بعدما أراد فعله، وأنه يمسك الزمن بقبضة مصممة على تقديم الكثير من النقد الجريء والإبداع الروائي.

لكن لا أحد منا يمتلك الزمن.. فنتساءل قياساً بما عرفناه عن غالب هلسا، قد قدم ماأراد، أم أن الزمن قد عاجل أحلامه وطموحاته ومشاريعه اليه؟ فبقيت كلها في ضمير غالب، خاصة ونحن نشعر أن الزمن قد عاجل تعاوننا الثقافي مع هلسا وأوقف دوران خميسه النقدي.

فما تزال مشاريع هلسا النقدية، وأفكاره الجريئة التي استوعبتنا أحيانا. أو لم نستطع استيعابها في احيان أخرى، ماتزال اقتراحاته في النقد والترجمة وحرصه على التعريف بالأدب والأدباء العرب، على أولويات قائمة ورشة عمل قسمنا الثقافي اليومية، ماتزال أفكاراً لم نظن أنها ستصبح ذاكرة تبتعد بسرعة عن حاضر عملنا اليومي، لترقد في سلام الماضي، بعد أن كانت تدخل حروب الحاضر بكل جرأة وصدامية ويقين.

قال لنا مرة، أحاول أن أكتب عن تجربة دمشق وقد كتبت عن عمان والقاهرة وبيروت، وحين سألناه لماذا يتأخر، عاد يقول لانني يجب أن أنغمس في تجربة إنسان دمشق تماماً. أحسه وأفكر معه، وأشرب قهوته الخاصة، وأتذوق مذاقه وأسير على ايقاعه اليومي..

وقد استطاع غالب هلسا بحساسية مفرطة، أن يتحسس خصوصية الإنسان العربي، وأن يحلق بأجنحة أدبية قادرة على امتداد عربي واسع التجربة والهموم والأحلام.

وكان غالب هلسا يعتقد وهو يكتب لنا «ادباء علموني.. ادباء عرفتهم..» التي لم تكتمل بعد أن المعرفة بالكاتب قد تضيف وقد تجعلك تعيد النظر، وقد علمنا عن غالب هلسا بعد أن عرفنا بعض أسرار نجاحه الأدبي مثل الدقة في التعبير، واحترام القارىء والناشر، واحترامه قبل كل شيء لنفسه بما يكتب، وتقديره للزمن، وكانت صفحته المكتوبة المدققة والمصورة، ودراساته الصحفية المتأنية والمدروسة والموثقة دليلاً على إخلاصه الشديد لقارئه وحرصه على إيجاد الصلات اليومية مع قارىء الصحافة العربية، ودليل مهنية أدبية، قليلة بين أوساط الادباء العرب، لأنها تقوم بالدرجة الأولى على الجهد المتواصل والطموح الدائم لتقديم الأفضل.

وبالتأكيد إن التفاصيل التي تحتشد لتفرض نفسها في موقف كهذا، قد تقول: إن الأديب غالب هلسا لم يستطع رسم أحلامه وطموحاته وشرح أفكاره، لولا أن هذه التفاصيل ذاتها تحتشد أمامنا وبشكل آخر لترسم صورة أديب له مساره وأسلوبه الخاص والواضح في الحياة والأدب.

وان كان قد أصبح واضحاً أسلوب غالب هلسا للقارىء العربي، فإن هذا الأديب الذي عرفناه قد استطاع أن يكرس أدباً ويرسم مسارات. وأن يترك بدايات مفتوحة للجميع يمكن أن يكملها فقط أسلوب خاص. فقد استطاع هلسا أن يكرس أسلوبه الخاص، وبحيث أصبح في دائرة «الأدباء الذين علمونا.. والأدباء الذين عرفناهم» كما أحب هو أن يصف الأدباء الذين تركوا بصمات واضحة على ضميره الإنساني والأدبي.

الثورة/ العدد/ ٨١٣٦
١٩٨٩/١٢/٢١

حول رحيل غالب هلسا

● وجه مكتب الثقافة والاعلام في تجمع اللجان والروابط الشعبية في لبنان الى عائلة الأديب هلسا والاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين ورابطة الكتاب الأردنيين الكلمة التالية: «برحيل غالب هلسا انطوت صفحة مضيئة من صفحات الثقافة والأدب العربي المليئة بالإبداع، والالتزام، والمعاناة الصادقة، والحضور المتميز، والإلحاح الصاخب على حياة عربية جديدة حرة، وعلى حقوق ديموقراطية بديهية لإنسان العصر العربي الراهن.

ولبنان الشعبي الأصيل بمثقفيه ومناضليه ومواطنيه البسطاء الذين عاش غالب هلسا بينهم ومعهم الأيام الصعبة والحلوة، وصار جزءاً من لوحة صبرهم وصمودهم المتميزة لن ينسى لهذا الأديب العربي الكبير صموده زمن الحصار الاسرائيلي لبيروت، وإبداعه في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ العرب، ويرى في ذلك الصمود معنى رائعا من معاني الوفاء لعاصمة الوفاء العربي، في حين كسر الكثيرون أقلامهم مع انكسار حلم بيروت ورحلوا عنها تاركينها نهباً للغزاة والطامعين والجاحدين من كل صنف وحدب ولون..

اننا في مكتب الثقافة والاعلام في تجمع اللجان والروابط الشعبية نضع كل طاقاتنا وإمكاناتنا في خدمة أي مشروع متكامل لتكريم الأديب الكبير ونطمح الى أن يفسح المجال لبيروت الصابرة أن تمارس فعل وفائها لابنها الروحي الغالي غالب هلسا،

السفير ١٩٨٩/١٢/٢٢

غالب هلسا: راوي الغربة والهموم الفلسطينية وتشكل الفرد المستقل عن مطلقات الجماعة

● **عقل العويط**

غاب يوم الاثنين الروائي الفلسطيني الأردني غالب هلسا، عن ٥٣ عاماً بعد تجربة كفاحية وأدبية طويلة، دخل فيها الى عمق الهموم الفلسطينية والإنسانية، مثيراً داخل كتابته حرارة تشكلت عبرها ملامح خاصة للغربة، ولتشكل الفرد المستقل عن مطلقات الجماعة.

وفي هذه الكتابة الروائية المغموسة بالحس الإنساني، يتلمس القارىء التعبير عن

الغربة من خلال الدفق الكتابي القائم على الإحساس بالجسد كإشكالية معاصرة في سياق من البحث المستمر عن لغة تزاوج بين عمقها التراثي ومعايشتها للعصر وتطلعاته، عبر الغوص على التجارب الروائية العربية والعالمية للإفادة منها بهدف خلق نموذج روائي متمايز بتجربته المحددة، وبخبرات وحياة الواقعين الفلسطيني والعربي.

ولا تنفصل التجربة لدى هلسا عن منطق التناغم بين الذاتي والموضوعي في الكتابة بل إن الذاتي في العمق هو الموضوعي في العمق من دون الحاجة الى اقامة فواصل وهمية، او اشاعة هوامش تدعو الى ازالة الحميمية القائمة بينهما.

واذا كانت الغربة وتشكل الفرد المستقل عن مطلقات الجماعة، من العلامات البارزة في ادبه، فلأن ذلك مرتبط بأسباب نشأته الخاصة في بلدة بجنوب عمان، حيث لم تكن عائلته تنتمي الى أي من القبيلتين الكبيرتين في البلدة.

وعدم الانضواء هذا في بيئة قبلية، جعل كتابة هلسا غريبة في معنى ما، وبعيدة عن التكوينات الاجتماعية التي تطبع الفرد، مما لون تجاربه عموما بذلك الشعور العميق بالوحدة وبالملل، وأغرق نصوصه في ماء الغربة، فأضفى عليها طابعا خاصاً، جعله يحضر جليا في حركة تطور الكتابة الروائية الفلسطينية الأردنية.

ويرتبط الشعور بالغربة في كتابة هلسا باحساسه بالجسد. بل أن التعبير عن هذه الغربية، لايتم لديه في شكله الاعلى، الا عبر احساسه بالجسد، وانطلاقة رغباته وفاعلية حواسه، حيث تتخذ الغربة أيضاً معنى غياب الرقابة الابوية، فتتحرر رغبات الجسد وحواسه من مكبوتاتها وقيودها.

واذا كان الشعور بالغربة يرتبط لدى هلسا بالإحساس بالجسد، فان ذلك يندرج في سياق متكامل مع تكون الفرد داخله خارج المطلقات الجماعية القبلية والعائلية، وهو اشكالية بلغت مبلغها في أدبه، وأشعلت حسه، والهبت كتابته الروائية الى حدها الأقصى.

وفي كتابته يلمح القارىء ذلك البحث المضني والخائب للانضواء في مؤسسة، تخلصا من عبء الغربة واثقالها. وهكذا تتجلى في كتابة هلسا ابعاد التجربة السياسية والنضالية التي انطوت على اهمية استثنائية في حياته وأدبه، لكنها كانت باستمرار «ملاذا فاشلاً» من الغربة على قوله.

ورغم أنه لم يعش بين البدو الا طفلاً، فقد كانت كتابته في غالب الاحيان عنهم تأكيداً لاهمية العين الطفولية التي رصدت في لا وعيها مجمل مايختزنه البصر في عبور الأشياء أمامه.

الا أن تجربة هلسا الروائية تعود في جانب من خلفياتها الى ثقافته الانكليزية التي طبعته بطابعها على ماعترف هو به في حديث أجرته معه وكالة فرانس برس قبل شهر. ومن خلال هذه «الازدواجية» بين الخلفيتين التراثية العربية والاوروبية المعاصرة يعيش هلسا مأزقاً

حقيقياً. فثمة في رأيه التباس في العلاقة مع الغرب بسبب الصراع معه. لكنه يؤكد ان «جزءاً اساسياً مما فعلته الحضارة الغربية فينا، أنها جعلتنا نلتفت الى تراثنا العربي القديم».

ويعتقد هلسا في نصوصه أن الكتابة الروائية المعاصرة يجب ان تتحرك مثلما ميزان الذهب بين استيعاب التقاليد الروائية ومحاورتها، ومن ثم الاعتراض عليها وتجاوزها.

وفي تجربته الملتزمة شجون الانسان الفرد والروائي والاحزان والاحلام الجماعية، يقدم لنا غالب هلسا صورة حية لنموذج خاص في الكتابة الفلسطينية الأردنية والانسانية، سيفتقدها القارىء العربي لحميمتها وفاعليتها في ادراك الجوهر المرهف للنفس.

ويذكر أن غالب هلسا ولد ١٩٣٦، ودخل معترك السياسة والسجن في الخمسينات والستينات والسبعينات بسبب مواقف سياسية تضمنتها كتاباته. له سبع روايات «الضحك» و «الخماسين» و «السؤال» و «البكاء على الاطلال» و «ثلاثة وجوه لبغداد» و «سلطانة» و «الروائيون» ومجموعتان قصصيتان «وديع والقديسة ميلادة وآخرون»، و «زنوج وبدو وفلاحون»، وثلاث مسرحيات، وكتابان عن الفلسفة الاسلامية وآخران نقديان.

القبس/ العدد/ ٦٣٣٠
١٩٨٩/١٢/٢٢

وداعاً لمن رحل «غالباً»

يرحل غالب هلسا الصديق والزميل ويخلف لنا نتاجاً روائياً غنياً، وموقفاً سياسياً صلباً.. يرحل، ولا نكاد نجد وقتاً لنودعه، فحتى أيامه الأخيرة كان يكتب، وحتى لحظاته الأخيرة كان يعمل..

يعمل كروائي..

ويعمل كمثقف ثوري.

فقد كان عضواً في لجنة العمل النقابي التي أسست على أرضية العمل من اجل اعادة الوحدة للاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين على أساس من النظام الداخلي، للاتحاد..

كما كان عضواً في لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية، كمثقف ثوري يعرف أنه يجب أن يكون معنياً بهذه القضية، لانها قضيته..

ثم ان غالب كان مثابراً. ونشيطاً في كافة البرامج التعبوية للاتحاد، كما لبقية الاتحادات، العربية والفلسطينية في اطاراتها المختلفة.

وكان أخيراً مسهماً في الكتابة على جبهة العمل الثقافي في مواجهة برامج تصفية القضية الوطنية لشعبنا وثورته، وله في كل ذلك آراء ومواقف هامة ومتميزة بشجاعتها.

غالب هلسا أولاً.. وأخيراً.. هو الذي عاش مايزيد على أربعين عاماً في المنفى الذي عني بالنسبة له نوعاً من المثابرة من أجل قضيتنا.. الديمقراطية في الوطن العربي والأردن بوجه خاص.. وفلسطين كقضية تتطلب التحرير.. بالثورة..

فوداعاً للذي رحل غالباً وليس مغلوباً..

بالرغم من أنه عاش الازمة الفلسطينية والعربية بكافة أبعادهما..

وكان أميناً لرسالته كمثقف عربي ثوري..

الى الامام العدد/ ٢٠٢٠/
٢٢/١٢/٢٨/١٩٨٩

غالب هلسا الشاهد الذي غاب

يألفها ولم تألفه، ولم يبدل وجهه ولا وجهته وظل في موقعه لها بعد جواباً حقيقياً. رحل تاركاً وراءه وجوه المدن التي أحبها ببشرها وتراثها وحاراتها، غادر الوجوه التي ظلت غريبة عنه فلم يألفها ولم تألفه، فعافها ولم يبدل وجهته ولا وجهه وظل في موقعه صامداً في الصفوف الامامية.

رحل غالب هلسا الروائي والصحفي، المناضل أدباً ونضالاً ثورياً حقيقياً يمثل بلا شك ثمرة خيرة لرجل عاش لاجل الأدب والحياة والإنسان. وكان طوال سنين حياته وفيا لها ولم يخنها مثلما فعل البعض الآخرون.

من عمان الى القاهرة ومن القاهرة الى بغداد الى بيروت وغيرها من العواصم حمله المنفى فكانت سنوات الغربة والتشرد الطويل، ولكن هذه السنوات كانت أيضاً سنوات للعطاء والنضال والكتابة، ذلك أن غالبا كتب رواياته عن الواقع العربي الذي عايشه في تجربته الحياتية والنضالية الغنية.

فعن تجربته المصرية كتب ثلاثة روايات وهي «الضحك» و «الخماسين» و «السؤال»

وفي هذه الروايات الثلاثة تتبع غالب هلسا الحياة الاجتماعية والسياسية في مصر. أما في تجربته العراقية فقد كتب «ثلاثة وجوه لبغداد» وهي تصور عالما محددا يفتقد الى الروح والى مايعطي الحياة طعماً جديداً وجاء تصويره لتجربته في العراق من خلال «فانتازيا» للعلاقات الاجتماعية السائدة تحولها الى مزيج من الواقع واللا واقع.

وتبقى الاهمية الخاصة لغالب هلسا انه كان فلسطينياً حتى الرمق الأخير. وأنه كان في أدبه كما في حياته يسعى الى الجديد والمتغير في مواجهة السائد وحالة القمع.

ذلك ان غالباً كان في أدبه كما في حياته يبحث عن هامش واسع من الحرية والديمقراطية. ولهذا كان في أحيان كثيرة قلقا ومتمرداً. وقد انعكس هذا القلق والتمرد والبحث عن الحرية على أبطال رواياته، الذين تشكل حياتهم صورة مراحل مرت وتلاشت.. فغالب كان في حياته وأدبه شاهدا وشهادة على زمن متغير.

ولانه كان كذلك أصبح وجهاً هاما بين وجوه الروائيين العرب المعاصرين..

رحل غالب هلسا عنا، ولكنه ترك بين أيدينا رواياته، ترجماته ومقالاته.. ترك نتاجا غنيا لاتقدر السنون أن تغيبه..

الى الامام العدد/ ٢٠٢٠/
٢٢ ـ ٢٨/١٢/١٩٨٩

غالب هلسا أيها الطفل الأشيب، أين تذهب

● محمد القيسي

إلى هذا الحد، يمكن ان تكون الحياة مزاحاً مفاجئاً، بلا أي رنين من ضحك، أو ايقاع يستر مرارتها، وان يكون الموت هذه الوصلة الضاجة من الضحك المجروح ختاماً لهذا المزاح الثقيل!!؟ الى هذا الحد ايها الغالب المثخن بالكتابة والمدن، والمغلوب اخيراً! وهل لهذا كانت رواية «الضحك» اول حجر في بيتك الروائي، الذي اخذت تعلي جدرانه حتى «الوقوف على الاطلال»، حتى آخر المقاهي، وآخر الشوارع التي مشيت نحو بيتك الذي كان بلا مدينة، لأن اخر المدن كما قلت لي لم تصلها، ولم تعد اليها؟ وهل لهذا قمت باختصار هذا المزاح لنراك مسجى في كفن؟ ولماذا توقف الراوي عن السرد؟ هل كانت كلماته قليلة

الى هذا الحد ايضاً، ام تصرف حنقا باللغة العاصية، وأوجز في الصورة والشرح؟ ترى لو ان هذا المزاح الثقيل لم يحدث، هل كنت تعود اخيراً الى عمان، بقدمين حرتين، وقلب مشغوف بحصى الطفولة والنشوء؟ لتجس الحجارة هنا والنوافذ التي حضنت لثغتك الاولى، ولترى أي جديد يدب فيها الان، كانت ستشتاق اليك، تشتاق جدا لو أنك لم تفعلها باكراً وتذهب.

من بيروت عرف قبل أن يجيئها، ان اصدرت دار العودة له رواية «الضحك» روايته الاولى وفي بيروت اسس فوضاه وجحيمه معا، حيث أقام وترك لزوابعه أن تتوزع وقال «العالم حركة ومادة» اربع عواصم عربية تقاسمت قلب هذا المتوحد الفار، المقيم الراحل المستوحش والمشاغب، اربع عواصم اكلته تماما، ونثرته على الطرقات حتى اذا وقعت الواقعة، جاء الرابعة، وحط فيها، وما هو الا زمن حتى صار نهب التقلب مثل نمر طعين، وراحت تخليه لانكساراته، وافول المقاهي من مباهجها الصغيرة، هكذا يؤوب المغلوب، ويتفرغ الى شيخوخة مبكرة، بعد ان رأى وعاش ذبول المكان، وداری الخسارة.

لست رائياً او قارئاً للغيب، لكنني استعيد هذه اللحظة آخر لقاء لي بغالب هلسا، كنت اشارك في تشييع جنازة الشهيد خليل الوزير العام الماضي، جاء غالب الى فندق الشام، وجلسنا في الصالة، تحدثنا بلغة أقرب الى الصمت عن الخاص والعام، وعن بيروت البعيدة، ولم تكن دمشق في دمشق لذا سألته:

ـ ماهي المدينة التالية؟

فهم ماعنيت، وقبل أن يأخذ رشفة من قهوته الساخنة، وكان يهم بها، اخفض يده بالفنجان عن فمه، وقال بلا تردد او لكلكة:

ـ بيروت . .

أدهشني بتفاؤله، ويقينه المفروغ منه وقلت:

ـ اتظن ذلك؟ قال: نعم، ولم اذهب في النقاش ابعد من هذا فقد كنت استمع الى صوت الحنين المزوج فيه، الحنين الى مايفلت ويظل فينا، وأرى الى شرخه يتسع، واذّاك، وهو يخرج، اذاك فقط، وانا أراه من زجاج الصالة بقامته الممتلئة، ماذا لو مات هنا وحده، اين يذهب بجثته!؟ هجست بذلك تماماً، ذات ظهيرة كابية، في مدينة تمتص كاتبها، وتجلده ليحيا ولهذا صعقت وأنا اقرأ نبأ موته في جرائد الصباح، وخفت مني، خفت من ميته لا أرى فيها طريقي، ومن نهار بلا بن وقاحل.

كان غالب بلا مدينة راسخة، من القاهرة حتى دمشق، مروراً ببغداد وبيروت وعـدن، ورغم هذا العنت، فلو أنت حدقت لترى ما تحت جلده، لرأيت القـاهرة واما اصغيت اليه وهو يتحدث، فلا بد أن تلوح لك في مفردة هنا، او تركيب لغوي هناك، أنه يذكر بكفافي والاسكندرية، هكذا خرج من الارض بلا ولد.

هل اسوق قطيع السنوات ا الماضية امامي، الى سنة بعيدة في بيروت، والى مناسبة يتيمـة، حيث التقيتـه اول مرة، وكان هو نزيل المدينة التي سرعان ما غدا احد فرسانها وعلاماتها الثقافية البارزة اما المناسبة فمهرجان الشقيف الشعري الاول ٨١، وكنت مشاركاً في واحدة من الامسيات الأربع التي عقدها المهرجان، كان غالب هلسا عريف الامسية التي شاركت فيهـا، قدمني بكلمات كبيرة، مشيرا الى اني الشاعر القادم من الاردن. كلمات احرجتني انذاك، وملأتني بالزهو، كونها تجيء من كاتب كبير، لا تربطني به علاقة شخصية بعد القراءة تعارفنا، وجلسنا مع آخرين في مقهى ام نبيل المعروف، المجاور لقاعة الشعر، قاعة جمال عبد الناصر في جامعة بيروت العربية، سألني عن عمان وحال الكتابة فيها، هل كان يرى في اذ رآني شوارع طفولته وأيامه بروائحها النائية، كان على طاولة قريبة منا يجلس محمد الفيتوري الى بنت قمحية اسمها ريتا، منذ تلك الجلسة التي لاأذكر ماذا احتسينا بها أعجبت بغالب هلسا وأحببته، رغم أني لم أكن أميل الى اجواء روايته ذات المناخات المصرية البحتة، مفضلاً عليها كتاباته النقدية الممتعة عن الرواية، ومقالاته المتنوعة الأخرى.

ما الذي يحدث لنا يا الله وأين يذهب أخيراً الطفل الأشيب، وحيداً كما جاء وعاش! أين يذهب، أين نذهب، من هذا المزاح الثقيل!!.

الراي العدد/ ٧٠٩٥/
١٩٨٩/١٢/٢٣

غالب هلسا في حديث سبق رحيله:
خيبات الأمل في حياتي كثيرة وكان اكتشاف الموت هو ابرزها

● اكتشفت داخلي منذ الطفولة ثم أعادني كافكا اليه ولم أستطع الخروج بعد ذلك

● جهاد فاضل

هذا اللقاء ربما كان آخر لقاء اجري مع الأديب الراحل غالب هلسا، وكان مقررا له أن ينشر في ملحق الاثنين المقبل، لكن الرحيل المفاجىء للأديب فرض تقديمه، خاصة وأنه فيه يتحدث عن هاجس الموت، وكأنه يراه أمام عينيه. وفيما يلي ننشر اللقاء كما هو في

نصه:

غالب هلسا من الروائيين العرب المتميزين، ولكنه بالاضافة الى ذلك باحث في الفلسفة وناقد، وله في المجالين الاخيرين اعمال معروفة، فهو اذن شبيه بمثقفي عصر النهضة الاوروبية من حيث الشمول والموسوعية، وفي الحوار التالي الذي أجرته معه «القبس» نتعرف على جوانب شتى في شخصيته الأدبية والثقافية، والشخصية معاً. وقد بدأ الحوار بالسؤال التقليدي عن «التجربة الأدبية» فأجاب غالب هلسا على الصورة التالية:

تجربتي الأدبية مسألة متعلقة بظروف غريبة مررت بها، جعلت الكتابة جزءاً عضوياً من حياتي. أولاً: أنا كنت الابن الأصغر في العائلة، وكنت أعيش مع أم وأربعة أخوة. ولدت وعمر أبي ثمانون سنة، وأمي تقترب من الخمسين. أنهيت المدرسة بسرعة، كل سنتين في الابتدائي كنت أخلصها بسنة واحدة. حدث مايلي: في الفصول الدراسية كنت الأصغر في الصف، بيني وبين أصغر واحد سنتان أو ثلاث، وبيني وبين الكبار خمس أو ست. هناك مسألة لم تأخذ حقها من الاهتمام. نحن نتكلم عن اضطهاد العمال، اضطهاد الفقراء. ولكننا لم نتكلم بشكل كاف عن اضطهاد الصغير. وقد عانيت من هذا الاضطهاد، لمجرد أنني صغير. أولاد صفي كانوا ينظرون الي باحتقار لأني صغير، ولأني شاطر أيضاً. وهذا كيف حياتي اذ أصبحت كلها محاولات لارضاء الكبار، ومحاولات لرد على هذا التحدي، وكيف أساوي الكبار. وجاءت الكتابة رداً على هذا.

أذكر أنني في الرابعة عشرة من عمري كتبت قصة في مباراة للقصة بين الأردن وفلسطين نالت الجائزة الأولى، ومن بعدي كان هناك كتاب معروفون في سن الأربعين، والخامسة والاربعين. رد الفعل عندما أخذت الجائزة كان نموذجياً ودالاً. أذكر أنني عندما نلت الجائزة أشتريت بنطلوناً طويلاً، ودعت مرحلة البنطلونات القصيرة. واشتريت ماكينة حلاقة حتى أرغم لحيتي على ان تنبت واشتريت علبة سجائر.

الكتابة كانت في الحقيقة نوعاً من التحدي السري، وقد يكون هذا طبع كتابتي بأمر هو أنني لا أستطيع أن أكتب الا في عزلة. وبعيداً عن الناس. قد يفسر هذا شيئاً آخر هو ان كتابتي لمدة خمس عشرة سنة كانت سرية. بمعنى أنني لم أنشر أول كتاب الا بعد كتابته باثنتي عشرة سنة. كنت أعتبر الكتابة التحدي السري والمخجل الذي أقوم به كرد على عالم الكبار. وكنت أشعر أنني بالكتابة أرتكب فضيحة ما أخرق قوانين معينة.

بدأت الكتابة صغيراً جداً. أذكر شيئاً أثر في حياتي بعد هذا كثيراً، هو أنني ابتداء من سن التاسعة كنت أصحو كل يوم فأكتب أحلامي، فأصبح جزءاً من كتابتي الفانتازيا وعالم الحلم هذا. انه ملازم في كتابتي. كنت أحاول أن أسترجع الحلم وأكتبه كما عشته كحلم. وليس أن أتذكره كحكاية.

أتذكر أيضاً أن الكتابة كان هدفها الأساسي بالنسبة لي هي أن يعترف بي. أخرج من

دائرة الصغير، ولم أكن قد كبرت، ولكن عندما كانت تتوفر هذه الخطوة كنت انكفىء وأهرب، أهرب من البشر، وأهرب من مواجهة الناس.

والكتابة عندي في الحقيقة معضلة. نمط الكتابة الابداعية، اكتبها بطريقة غريبة، مثلاً عندما كنت أكتب رواية لا يكون ذهني واضحاً بحيث أعرف ماذا أريد أن أعمل. أحياناً يكون في ذهني أنني أريد أن أكتب قصة قصيرة. ثم أراها تمتد وتصبح رواية. لاشيء بدأت كتابته وأنا أخطط له. أكتب في اليوم ساعتين أو ثلاثاً في الفترة بين الكتابتين أنسى كل شيء كتبته أو أريد أن أكتبه. لكن في اليوم التالي أجد كل شيء جاهزاً فأكتبه. ولا أستطيع التحكم في ما أريد كتابته. لا أستطيع أن أخطط لما أريد أن أكتب. وذاكرتي ذاكرة غريبة. لها تاريخها الخاص. أعتقد أن تاريخ البشرية، الحياة على الأرض موجود في داخلي، ويفيض في الكتابة دون أن أستطيع التحكم فيها. لي قصة اسمها «الخيانة الزوجية» الكاتب الذي يكتب ويشعر في الوقت نفسه أنه يخون زوجته لأن عملية الكتابة تشبه أيضاً، وفي بعض النواحي، العملية الجنسية، وفي لحظة معينة أتوقف عن الكتابة، يمكن في نصف الجملة، وأشعر بغثيان شديد.

بالنسبة للشخصيات التي أكتب عنها، هناك استمرار شخصية انسان واقعي، في الكتابة تحصل له تحولات من خلال بناء الرواية، وتحولات من خلال شخصيات بدائية «بروتوتايبس» تفرض نفسها عليه، المرأة عندي هي المرأة الواقعية وفيها ارتيتايب المرأة الشاملة، المرأة الكلية، هذه المرأة قادمة من تجارب اللا وعي الجمعي. معرض النساء بلا آباء. وليس من سيطرة للرجل عليه. هناك علاقة وثيقة عندي بين المملكة الحيوانية في كتاباتي وتجربة الحياة.

بالنسبة للدراسات التي أقوم بها طلع في ذهني فكرة، الدراسات الذهنية التي لا أجيدها، أكون قد قرأت كثيراً. الكتابة على شكل أو نمط خاص. تأتي فكرة أكتبها ثم أحس بفراغ. أتمشى ربع ساعة، أعود لفكرة ثانية. لا أستطيع أن أقوم بتخطيط في الكتابة. انا أعرف أن بعض الكتاب يمتازون بعفوية وبقدرة على التخطيط. هؤلاء الكتاب الواحد يعتبرهم شكلاً من أشكال التميز بلزاك، تولستوي. وهناك كتاب آخرون لايستطيعون التحكم بمادتهم يصممون كتاباتهم وما من شيء آخر. الظروف قد تتحكم بذلك أحياناً أنا من الذين لايستطيعون التحكم بكتاباتهم، واذا ماخططوا لها، فإنها تطلع عندئذ شيئاً آخر.

في حياتي أزمات محددة ولعل الازمة الاولى هي اكتشاف المرأة كانت المرأة حلماً يعيش معي حتى اكتشفت المرأة/ الجسد. كانت خيبة أمل كبيرة جداً. الحلم لايزال حتى الساعة موجودا، وخيبة الامل لاتزال ايضا موجودة، والاثنان يعيشان مع بعضهما.

خيبة أمل أخرى هي اكتشاف الموت. نعرف أن هناك موتا لانه في لحظة معينة ندرك قلق الوجود في عالمنا. قد تكون المسألة في ذهني على الشكل التالي: العالم لابد منه، صعب

تخيل الحياة الذهنية، صعب تصور العالم متناهياً، كيف يكون ذلك؟ اي نهاية لها مابعدها، وصعب تصوره لا متناهيا، هناك امتداد لا نهائي، اعتقد أن الانسان في داخله لا نهائي. الجهاز العصبي يستطيع أن يستوعب معلومات لا حدود لها، الانساني لا نهائي، يعيش في كون لا نهائي. يأتي الموت فيحاصره فيفكر انه نهائي. يبدو ان الوعي الحقيقي ان يستقبله بعقلانية، لكن انا استقبلته باحباط عصبي، بنوع من الاكتئاب الشديد، وبالعلاج عند اطباء الاعصاب والاطباء النفسيين ليسوا على وعي حقيقي بهذه المشكلة. وكان علي في النهاية أن اواجه هذا الشيء المرعب، رعب العالم.

في آخر رواية لي الشخصية الاساسية تنتحر. في آخر صفحتين توقفت عن الكتابة لساعات، علاج، اطباء اعصاب. الى أن خطر في ذهني ان الذي ينتحر ليس انا، بل مرحلة من مراحل حياتي. تبتدىء مرحلة جديدة. كتبت الصفحتين، يبدو انه ليس هناك انسان معد اعدادا كاملا ليكون روائيا.

الانسان يبدو أنه معد فقط ليعيش في المجتمع دون ان يتجاوز سقفا معرفيا معينا، تجربة معينة، لذلك الاحظ أن معظم الروائيين يعيشون فترة أطباء الأعصاب وأطباء النفس ابتداء من نجيب محفوظ مرورا بصنع الله ابراهيم وسعد الله ونوس وسواهم، لا أحد منهم استطاع ان يعيش حياة طبيعية.

كل انسان مكيف ان لايستعمل من جهازه العصبي الا واحدا واربعين بالمائة، نحن نعتبر جهازنا العصبي. فنصطدم بقبو مظلم، قبو مفزع ورعب.

ربما كان علينا ايضاً أن نتغلب على مفهوم ان الانسان يعيش ليكتب. نعتبر ان الحياة هي الأساس، الزمن يتحكم فينا. الحياة لمحات قصيرة. الكاتب يجعل بيته مكانا للكتابة. جعل اللقاءات لها طابع عملي، هناك مثل يصدمني هو نجيب محفوظ، نجيب محفوظ هناك مرحلتان في حياته. مرحلة اولى كتب فيها عن تجارب عاشها، هذا هو نجيب محفوظ الحقيقي. . . هذه انتهى منها انتهى من الحياة، أصبح رجلاً منظماً، موظفاً مثالياً، يمشي كل يوم ساعتين، يشرب يوم الخميس كأساً يكتب ساعتين يومياً، في الجزء الثاني من كتاباته لاتجد سوى كتابات ذهنية. نجيب محفوظ ينتهي عند المرحلة الأولى. هذا الشيء الذي اسمه الزمن تحكم به وصادر منه الحياة. هذه نتائج اخرج منها، الكتابة لها شروط كثيرة.

كنت أحب ارسم كنت أحب الرسم، ليس اي رسم اقرأ في الرسم، احس به. الموسيقى نفس الشيء، احب الناس، السهر، ولكني لا أستطيع أن أسمع فيه موسيقى. لا أرى رسماً.

الكتابة بالنسبة لي شيء سري، وهي الجزء المعادي للمجتمع، حتى القدرة على الزواج مستحيلة.

● ماهو المهم في عملك الروائي، في نظرك؟

- في أي عمل روائي المهم هو كيفية التعبير عن شيء كيف التجاوز، الكلمات توحي عادة بما لايحدث. في رواية «الضحك» أقول وهو نائم جنب ناديا، اكتشف غرابة المسألة، الشعر، الرعب الذي في التفاصيل ينفجر. ثم يكتشف أنه لايمكن ان ينقل مايحدث امامه الآن الى اصدقائه. لن يفهم هؤلاء عذاب أن يحب اثنان بعضهما بعضاً وهما نائمان معاً. لن يفهموا كيف تعرف مثلا. . وجد ان اللغة عاجزة عن نقل مايريد. اشكالية أخرى أن تتكون سياقات معينة ذهن القارىء. اكثر كتابنا شعبية الآن هم الذين يقولون للقارىء مايعرفه. اكتشفت أن أصعب شيء ان توصل شيئاً للقارىء. ما لايعرفه ان تعبر عن تجربة جديدة. انه يهرب منك. الروائية هي مجموعة اشكاليات، خلق اشياء لا واعية. جو فانتازي لطيف وعميق جدا لا هو يعرفه جيدا ولا يقصده. الان روب غريبة يخلق جوا فانتازيا مقنعا جدا. المشكلة هي التواصل. كيف تقول، ان تنقل تجربة ليس مصدرها اللغة. ولكن اللغة غير مكيفة لك. اللغة شيء عام وأنت ملزم ان تكون محددا فيها.

شيء آخر هو ان اية كتابة بالنسبة للمؤلف هي عملية فشل. هي محاولة بجهده وخانقة ونوع من لهاث وراء شيء تكتشف انك لم تصل اليه. تصارح بالكلمات حتى ترتاح ثم تعرف انك فشلت، وانك لم تقل ماتريد أن تقول. اما لو كنت شخصاً آخر اكثر تواضعاً لرضي بعملية الكتابة الغنائية، اللغة الحلوة الظريفة. لكن أنت عليك ان تكد وتتعب. هناك استحالة تواصل بين البشر احيانا.

● الى أي حد انت ملتزم؟

- انا في حياتي وفي موقفي السياسي ملتزم، لكن خيبات الأمل كثيرة، وقد جعلتني اكتشف أن الالتزام في العمل الابداعي مستحيل.

عندما يبدأ الانسان صغيراً يخاف من الحقيقة في داخله، كافكا شجعني على أن أرى الحقيقة في داخلي، عالم الفانتزيا، عرفت هذا العالم وأنا طفل في التاسعة، كافكا أحد الناس الذين لازموني في حياتي. عندما أعود الى كافكا أجده أكثر تعقيدا من المرات الاولى التي قرأته فيها، كافكا فعل فعله ولا يمكن أن استعيده.

● ننتقل الى الفلسفة، والى الفلسفة الاسلامية بالذات، التي كتبت فيها، ماالذي اكتشفته فيها؟

- اكتشفت في الفلسفة العربية انها اكثر الفلسفات تعبيرا عن صراع سياسي واجتماعي. وحتى قضاياها المغرقة في مايبدو سفسطة هي اجتماعية في جوهرها. مسألة الخلق من عدم، وراءها هل نرضى بالحكم الفاسد أم لا، هل نثور عليه أم لا نثور. هل ندفع الضرائب أم لا. واكتشفت أن هذه الفلسفة هي اعادة صياغة للفلسفة اليونانية لا أدري كيف صدقنا الفلاسفة العرب عندما قالوا نحن فقط نترجم الفلسفة اليونانية، مع أن ابن سينا قال في الأخير انه لايستطيع ان يقول آراءه الخاصة، ولذلك فهو ينسبها لارسطو، ان كل ماكتبه

الفلاسفة العرب هو رد على الفلسفة اليونانية ونقد لها. لان مسألة الهيولي والصورة، أو مانسميه اليوم الشكل والمضمون، عند أفلاطون وأرسطو، مقسمة في المثل والعالم الواقع، في الصورة، هناك صورة مطلقة، وهيولي وهي مادة مطلقة، هذه الفكرة ذهنية ولا وجود لها في الواقع. هذا كشف مهم جداً، كشف ليس مهماً على المستوى الفلسفي. ولكن الأهمية تكمن في اهمية الغاء التفرقة بين الشكل والمضمون. قد يكون لأني بريء جداً أستطيع أن أرى هذه المسائل، مسألة العلية، المسبب وتتابع الأسباب الى مالا نهاية، ابن سينا يقول العلاقات ليس كذلك، انها جدلية ومثاله المعروف أمسكت بالسيف وقطعت به الحديد فانقطعت الحديدة وامثال السيف، فالعلة معلول والمعلول علة.

مسألة الكميات والكيفيات نفيت. لماذا لم تكتشف مثلاً أن أول طرح طرحته الماركسية في المادية التاريخية طرحه ابن رشد بنفس الكلمات تقريباً. ابن رشد يناقش قضية الحرية. والجبر. يقول ان الاثنين مخطئان. المعتزلة اخطأوا وكذلك المجبرة. الحرية لها حدود، حدود ولادة الانسان في عالم لم يختره، والوجود في جسد معين لها طبيعة ضعيفة، وفي وضع اجتماعي وعلاقات اجتماعية لم يخترها، وكل هذه تحد من حرية الاختيار. فالاختيار هامش ضمن هذه المعطيات انظر الى أول نص وضعه ماركس تجد أنه قد يكون هو ذاته. لماذا لم نكتشف أهمية ذلك عند ابن رشد؟

الفلسفة الاندلسية قائمة على فكرة ان العالم منسجم اما الفلسفة المشرقية فقائمة على ان العالم يقوم اساساً على التناقض. حتى العالم واقف في مكانه، جزء منه يريد أن يرتفع الى فوق وجزء آخر يريد أن ينزل الى تحت، فحصلت حركة الاعتماد، فكرة السكون الموجودة في الاندلس وفكرة النظام وهو من الفلاسفة المشرقين وهي ان السكون لا وجود له الا في الذهن، هما في حركة مستمرة.

أفكار كثيرة في الفلسفة الاسلامية اكتشفها باندهاش وأرى أن أحداً قبلي لم يهتم بها. والانصراف الكامل هذا لرؤية ابن سينا وهي أنه ترجمة لأرسطو.

ثم شخصية ابن المقفع التي لم يحاول احد ان يقترب اقتراباً دقيقاً أو علمياً. في كتاب كليلة ودمنة اسمه باب برزويه قد يكون لأول مرة في التاريخ يقال أن الانسان مشرع بذاته، لا الدين ولا القانون ولا المعرفة، بل ان الانسان في داخله يضع شريعته الخاصة. يقول هذا الفصل أن الشريعة التي يمكن أن يتبعها في النهاية وبثقة هي اختياره النابع عن عقله. وان هذا سيتفق مع كل الاديان والفلسفات. لكن العقل هو المعيار الوحيد للاختيار.

هناك قضايا مهمة يمكن أن يكتشفها المرء في تراثنا الفكري على النحو الذي رأيناه.

ماجعلني أدخل التراث منذ عام ١٩٧٣، أن فتوى ظهرت في مصر خلال حرب العبور ان الذي عدى القنال ليس الجنود المصريون بل الملائكة. منشور آخر ظهر في الأزهر يتحدث عن الرسول. الدكتور فؤاد زكريا كتب يومها معلقاً على هذين المنشورين. لقد

قرأت كل ذلك وعدت الى الفلسفة الاسلامية لاتعمق فيها.

ثم ان منير شفيق كتب كتاباً عنوانه «الاسلام في معركة الحضارة»، فرددت عليه في كتاب اسمه «الجهل في معركة الحضارة». وهذه ظاهرة أخرى أن شخصاً يضع اسلاماً وفلسفة اسلامية من رأسه ويقوم يدافع عنها. هذا الكتاب أثار استنكار بعض الجماعات الاسلامية لأنني حاولت ألا أرجع إلا للنصوص الاصلية مثلاً رينان يقول: أن العرب لما دخلوا هذه المناطق حرروا الانسان من الضرائب والعسف فأتيت نصوصاً أخرى مخالفة تثبت أن الضرائب على يد العرب كانت اكثر من الضرائب التي فرضها سواهم..

في رأيي أن الفلسفة الاسلامية من القمم الفلسفية الانسانية، وعندما قرأت الفكر الفرنسي السابق واللاحق للثورة الفرنسية، اكتشفت ان ماجاء بعد الثورة الفرنسية هو عبارة عن ايضاح لبعض مشاهد الثورة الفرنسية، احتوت كل تاريخ الانسانية المقبلة.

أعتقد أن في الفلسفة العربية شيئاً عن هذا. حتى الطموحات الاجتماعية. مثلاً كانت بداية العضوية أن يكون الانسان ملماً بكل معارف الانسانية كما نجد في رسائل اخوان الصفاء.

ولكن لماذا لم يستمر الفكر العربي؟

لماذا لم تستمر الحضارة العربية؟

.. انني أعزو هذا الى شكل حضارات لانها التي عندما تضطرب الدولة المركزية ينتهي البشر كلهم وليس الحضارة وحدها. ترجع الملوحة للارض، يعود الفيضان، سكان العراق بعد أن كانوا أربعين مليوناً يصبحون مليوناً واحداً في القرن الثاني عشر انه تفسير طويل.

● وفي النقد هل لك منطلق معين؟

ـ منطلقي في النقد أنني أقرأ عملاً ما فلا يعجبني، فأبحث عن السبب. وقد اكتشفت أشياء غريبة. لدي منهج طبعاً ولكن المنهج هذا ينطلق من انه هناك أشياء لم تعجبني فأبحث عن السبب أشعر بوجود خلل.

انني اتابع النقد البنيوي والألسني ولكني لست ايديولوجياً لدرجة اداني للبنيوية مثلاً. في الرواية قد لا نعثر على شيء جميل وهذا الجميل ليس بالطبع كل في العالم من جمال. هناك بنية اشعر بوجودها، ولكن هذه البنيوية ليست كل شيء، كما يقول البنيويون، لا تجيب البنيوية على كل هذا التعصب من الطرفين.

البنيوية منهج ادبي يساعد على فهم النص، لكن على الأقل غير قادر ان يحكم على النص هل هو جيد ام غير جيد.

القبس ٢٣/١٢/١٩٨٩

عاش وحيداً ومات غريباً

● *أنور الخطيب*

فجأة، يغيب غالب هلسا عنا. تعصف به «الخماسين»، وهو يقبع في شقته وحيداً، حيث لا زوجة ولا ولد. بل عزلة أشبه بالموت. وها هو يدخل عزلته الأبدية، تطحنه حتى آخر رمق.

غالب هلسا الآن، رغم انه كاتب عظيم ـ الا أن عظمته ستظهر بعد وفاته. ليس لأن تجربته انهاها القدر بجلطة في الدماغ، وليس لأنه كتب العديد من الروايات الناجحة، وليس لانه كان حازماً مع نفسه، واضحاً في مبادئه، بل لأنه اختفى، ورحل الى الأبد. الآن سيشهر النقاد أقلامهم، وقد تزيد مبيعات رواياته وكتبه، وسيتفنن الكتاب من أي زاوية سيصعدون اليه، وسيزايد البعض على مواقفه، وسيصبح المناضل الكبير والشهيد البطل.. هذا هو حال كتابنا ومبدعينا، موت في الحياة، وحياة في الموت.

غالب هلسا الكاتب الأردني المصري الفلسطيني السوري، يعانق ابن الطبقات المعزولة عن عجلة الحياة، سكان السطوح ورواد المقاهي الشعبية والحانات. يحاورهم بلغتهم البسيطة. يحاول أن يدب فيهم حس التمرد، عن طريق الرجل الوحش الكامن في رواية السؤال، أو عن طريق رياح «الخماسين» أو غيرها. فقد قضى حياته معهم، دون أن يرتبط بزوجة، أو ينجب ولداً يحمل اسمه، ويورثه كلمته.

رغم ان غالب هلسا عاش في مصر مدة طويلة، ورغم ان جواز سفره الأردني، ورغم موته في سوريا، الا أنني، عندما قرأت له رواية الخماسين التي صدرت عن دار ابن رشد بطبعتها الثانية عام ١٩٧٨ ـ شعرت أنه فلسطيني حتى العظم، رغم كتابته عن احياء مصر، وشخصيات مصرية، وان لغة الحوار لديه ـ اللهجة المصرية ـ ثمة فكرة وراء عمله تبرز القضية الانسانية التي يحملها ـ لم يقدمها على شكل خطاب، بل قدمها على لسان «تفيدة» أو محمد أو غيرهما.

حين قرأت الخبر في وكالة الأنباء، أخبرت بعض الأصدقاء بألم، فأجاب بعضهم ـ من غالب هلسا ـ ترى أية مصيبة يعيشها مثقفونا، وأية أزمة تحاصر الأدباء.

غالب هلسا لم يأخذ حقه كروائي ومفكر، لانه لم يسقط في أحضان احد، ولم يجد الأبواق المهللة لابداعاته. غالب هلسا اكتفى بعزلته، حين أدرك حجم المعضلة، ونحمد الله أنه صمد ولم يطلق على نفسه رصاصة الرحمة. كان أمله في التغيير أكبر من احساسه بالتشاؤم. إلا أن الدماغ، وأن احتوى على ملايين الخلايا ـ له طاقة محدودة ـ وكمية دم محدودة تدخله وتغذيه، والمشكلة بتفاصيلها المأساوية أكبر من ملايين الخلايا وملايين

الادمغة. غالب هلسا رحل وهو في الظل، فهل سيخرج الى النور الآن.. مجرد سؤال ـ يشبه السؤال الذي طرحه في رواية السؤال ـ والغريب أن أحد شخوصه في الفصل ما قبل الأخير ينتحر: «كان الخبر يقول ان محمود قد ألقى بنفسه من بلكونة أحد أدوار مصحة العباسية للأمراض العقلية، وانه توفي على الفور».

أما الخبر الذي كتبه القدر، فقد أودى بحياة الكاتب نفسه.. الى اللقاء ياغالب..

البيان ٢٤/١٢/١٩٨٩

الجدل المستمر بين الحياة والموت

● محمود محمد مدني

أذكر الآن أنني تعرفت على الكاتب، والقاص، والناقد، غالب هلسا، عبر مجموعة من المقالات نشرها في مجلة (الآداب) البيروتية في مطالع الستينات، تحت عنوان كبير واحد هو (التراث والتقدم)، تناول فيها مجموعة من القضايا الملحة جداً في ذلك الوقت. وأذكر أنني كنت في السنة الأولى في كلية الآداب بجامعة. الخرطوم (١٩٦٣)، عندما أنهى غالبة سلامة هلسا تلك السلسلة من المقالات بمجموعة من الاشارات الهامة، حول علاقة الانموذج بالظروف المحيطة به، على طريق كشف التناقضات الاجتماعية التي ترافق أهم مراحل التحول، وعلاقة ذلك بالثقافة الوطنية، وامكانية الاخذ من النظري دون السقوط في كامل الرضا عنه.

ومع مرور الزمن، تعرفت على غالب هلسا كاتب الرواية، والقصة القصيرة، والمحاور عن فهم عميق للتراث الفكري الثقافي العربي، بشكل خاص، والبشري، بشكل عام. وهذا هو الذي جعل مساهماته جد مؤثرة في الواقع الثقافي العربي، سواء في مصر، أو الاردن، أو دمشق، أو العواصم العربية الأخرى، التي عرفته من خلال رواياته، وقصصه القصيرة، ودراساته التي تناولت أهم قضايا الفكر، والثقافة والإبداع.

والواقع أن الكاتب الراحل، كان من أهم الكتاب والمثقفين العرب الذين اهتموا برصد الآفات التي وجدت طريقها ـ بأشكال وأساليب كثيرة ومتنوعة ـ الى جبهة الفكر والثقافة في كامل الوطن العربي. حيث وجدت، لأكثر من سبب، ما مهد لها وسائل النفاذ

إلى العصب المركزي لتلك الجبهة، فكمنت هناك بكل قدراتها التدميرية والتلويثية.

وقد تميز تحديث، ورصد غالب هلسا، وعدد غير قليل من مجايليه للواقع الفكري / الثقافي/ الاجتماعي العربي بـ:

(أ) الاهتمام بالمرجعية الفكرية/ الثقافية للظاهرة، دون الأخذ بالظاهرة نفسها واصدار الأحكام بموجب الجزء الظاهر من المسألة. وقد تمكنت تلك المجموعة من الكتاب والمثقفين العرب ـ عبر ذلك المنظور، من احداث تقدم ملموس في ما يتعلق بـ (كيفية) تشخيص مايدور في الساحة، بشكل مجهري غاية في الدقة والموضوعية، قبل البدء في التوصيف النظري للمعالجة.

(ب) الدعوة الى الوقوف عند موضوع العلاقة مع التراث الفكري/ الثقافي العربي بدون وجهات نظر مسبقة، ولكن من خلال ذهنية نقدية علمية، تأخذ المضيء المفيد والرؤيوي، والنائي بنفسه عن السفسطة، واللا عقلانية، والوقوع في نطاق الشبهات.

والواقع، أيضاً أن تلك الدعوة للتعامل العميق مع التراث، كانت بداية بحث مضن عن منهج علمي متمكن من أدواته في ما يتعلق بالتصنيف، والملاحظة، والرصد، والدراسة، ثم التحليل الذي يقدم الأجوبة على الأسئلة المثارة، حول علاقة التراث ـ كبنية وكتراكم كمي ونوعي ـ بالواقع العربي وبالثقافة الوطنية العربية في مواجهة العالم، وفي مواجهة المشروعات الحضارية الأخرى.

والحق يقال أن غالب هلسا، الكاتب والناقد، قد وضع يده ـ ضمن اسهام مقدر الى حدود تتجاوز الاعتراف به ـ مع عدد من السابقين له، ومن المجايلين له، على أكثر النقاط أهمية وحساسية، والمتمثلة في هذا السؤال: ماذا نأخذ من التراث، ونحن (أمة) على طريق التقدم لارساء الهياكل الأساسية للحداثة، كوضعية فكرية، وليس شكلية تنتهي عند النقش والزخرفة. ثم كيف ـ يمكن أن ننجز ذلك، ودونه عشرات المناطق المحظور الاقتراب منها، والأسئلة الممنوعة من الطرح؟

(ج) التنبيه الى ضرورة وأهمية دراسة دور اللغة العربية، الناقل الأوحد في كل مجالات الابداع العربي، بدءاً من الشعراء السابقين لامرىء القيس ـ والقياس هنا له علاقة بزمن التاريخ (الماضي/ السابق) وليس له علاقة بزمن الحداثة ـ وصولاً الى سركون بولص، أو قاسم حداد، أو محمد عبد الحي، أو سليم بركات، دراسة أعمق من مجرد الاختلاف الهش، وذلك من أجل اثبات أنها لغة لايمكن أن تكون (نهائية)، فلا تقبل التوليد الاصطلاحي الذي يجدد ما يموت في اللغة (أي لغة) ويدفع، باستمرار، بدم نقي جديد في شبكتها العصبية المركزية، فيفتح نوافذها للهواء الطلق الخالي من كوابيس التزمت، والغبار المتطرف، والجمود اللساني.

وقد اشار غالب هلسا، الجسد الراحل/ الاسهام المقيم، في أكثر من دراسة، وفي

أكثر من منتدى ثقافي، الى موضوع اللغة العربية وضرورة دراستها من منظور غير (الظرف التاريخي) ودون خوف من السقوط في المحظور، خاصة وأن المسألة لا تتعلق بدعوة الى هدم عشوائي، ولكنها ترصد نفسها لربيع البناء وليس لخريفه الشاحب. ويمكن القول أن تلك الدعوة لا تتيح المجال للسيطرة الكاملة، أو التخريب المجزوء والهش الى درجة الحماقة الواهنة.

(د) التعامل، دون تسليم تام ودون (جزافية)، مع التراث الفكري والابداعي الغربي، وبشكل خاص مع السقف النظري والدور الذي يلعبه في تأسيس الأعمدة الفقرية للمجتمعات.

وفي هذا النطاق نجد أن غالب هلسا قد أسهم اسهاماً واضحاً، وشجاعاً، ركز فيه على الوقوف ضد النقل الحذافيري من النظريات الغربية، دون النظر العميق الى مايمكن أن يقبله أو يرفضه المجتمع العربي من خلال الامكانات النظرية المستمدة في بعض حتمياتها من (التاريخي) و (المتفق عليه، والمعلوم، والذي لا رجعة فيه).

وفي نفس الوقت كان غالب هلسا يحارب من أجل أن لايلتهم التنظير الغربي ما طرح ـ عربياً ـ في مجالات الابداع المختلفة، وبشكل خاص في عوامل وأدوات تأسيس البنية المعمارية، المسؤولة عن ثبات أو اندثار النص المبدع، ولعل أهم طرح له، في هذا الصدد كان بشأن الواقعية، والدور المنوط بالكاتب، وعلاقة الثقافي/ الجمالي بالاجتماعي (اليومي/ المباشر/ السائد) السابق في الارتكاز).

ومن هذا المنطلق، كان غالب هلسا ضد التصفيق والاحتفاء بالنصوص (المبدعة)، على أسس سياسية، تسبق أجساد تلك النصوص، وتحولها الى ساحات للبر وبجاندا التي تنبثق من الزبد الجفاء. وتعود اليه بعد اكمال الدورة الخاسرة بفعل الخطأ المركزي المتمثل في الاتفاق على الغاء شروط وفضاءات الابداع لصالح التوجه البوقي (من بوق) الذي يثمر، في نهاية الموسم مضموناً، قد يثير المشاعر، لكنه ينطفىء بعد وقت قياسي في القصر، وذلك بسبب خيانته لمعدات وشروط الابداع.

وفي اشارة شاملة جاءت للرد على حديث للروائي حنا مينا حول مفهوم البطل الايجابي يقول غالب هلسا:

«هذا هو مأزق البطل الايجابي في الرواية. ان صورة الإنسان الكامل لمدة أربع وعشرين ساعة في اليوم، تجعله غير قابل للتصديق. لهذا السبب بدت بطولات فئات المقاولين والطفيليين في رواية جبرا ابراهيم جبرا (البحث عن وليد مسعود) مثيرة للضحك».

فيصل دراج (حوار في علاقات الثقافة والسياسة).

ولابد من اشارة، في هذا الحيز، لوقوف غالب هلسا ضد (الغاء الجدل) و (الثنائية). يقول غالب هلسا:

«والغاء الجدل» نعني به، ان الصورة الفنية عنده لها وجه واحد، وهو وظيفتها في خدمة الفكرة، وهو بهذا يلغي الوجه الآخر للصورة الفنية، هو كونها مستقلة، قائمة بذاتها، كما يلغي علاقتها العضوية بمجمل العمل الفني.

وبكلمة أخرى، فان اقتصار الصورة الفنية، على كونها مثالاً توضيحياً، قد أفقدها جدليتها، وبالتالي ثراءها، وصدقها وفنيتها، ان الشخوص في (لكع بن لكع) افكار أو مقولات خالصة» ـ «الكرمل» العدد الثاني/ ربيع ١٩٨١. هذه نقطة صغيرة من بحر الكاتب والمناضل، الراحل جسداً غالب هلسا، على طريق الجدل المستمر بين الحياة والموت.

البيان ١٩٨٩/١٢/٢٤

لن نبكي

● *د. يسري العزب*

وكيف نبكي، وقد علمتنا الضحك؟ وعلى من نذرف الدموع، ان عصت ارادتنا، وأنجبت رغما عنا؟ عليك أنت أيها الذي كفكف دموعنا في أحلك ليالي القاهرة، وأشدها سواداً وظلمة؟ يامن علمتنا القسوة في الزمن الرخو، والحب في زمن الكراهية والحقد، وأعطيتنا بشخصك وأدبك وفكرك شهادة الالتزام بالحق عند اندياح الحدود، وبالشرف عند استرخاء القوى، وبالإباء عند شيوع التميع.

التقينا ـ بعد عشرين عاماً ـ على أرض الكويت العربية ـ كان ذلك في أول شهور هذا العام الذي آثرت ان ترحل في آخر شهوره ـ مخلفاً وراءك رفاق اللقاء الأخير بالكويت د. علي الراعي، رجاء النقاش، سامي خشبة، د. محمد حسن عبد الله، ذ. صبري حافظ، عبد العزيز السريع، أبو المعاطي أبو النجا، والعبد لله. وكنت درة العقد التي تشع على الجميع بنور الوطن، كلما أوشكنا على الانطفاء. تزودنا جميعا منك ومن كل عناصر القوة، التي تجمعت في شخصك، فصرنا جميعاً أقوياء.. كنت تتناول بين الفينة والأخرى (أقراص القلب)، ولا تترك لنا فرصة لاعلان الشفقة لحالك، فالبسمة ـ لا بل الضحكة الستينية المجلجلة ـ كانت تطغى على كل آلامك، وتمحو كل محاولات التعاطف منا. اتفقنا على أن

نلتقي.. ولم نفعل نحن، ولكنك بادرت كعادتك في تنفيذ العقد. لقد فاجأت الجميع بعمودك الاسبوعي الرشيق في مجلة (الرياضة والشباب). لا تتصور كم غمرتني السعادة، وأنا أتلقف حروفك على مدى الأسابيع القليلة التي تفجرت فيها مواقفك وذكرياتك ورؤاك في (وريقات غالب هلسا) الصريحة في تعبيرها عن داخل الداخل منك ومنا، ومن وطنك العربي الكبير.. ومن وطنك ووطننا المنتزع (فلسطين) الحبيب. وحروفك المتوهجة الرشيقة كانت لاصحاء الرجال الذين ماتوا في أبداننا، لاعادة الوعي الضائع الى عقولنا، لزرع الحب من جديد في قلوبنا.. لاعطاء أيدي الرجال الكبار القدرة على حمل (الأحجار)، والقذف بها في وجوه الأعداء.. كنت بهدوء فكري رزين، وجنون عاطفي بهيج، تحقق فينا المستحيل، تحول أسلوب (التمني) الى (تحقق) «ألا ليت الشباب يعود يوماً!!!». لقد أعدت الى الرجال العرب شبابهم، حين بدأت معهم كتابة الافاقة والصحوة والنهوض..

وها أنت ذا أيها الطفل الكبير تودعنا ـ كعادتك ـ في هدوء.. وتتركنا وحدنا.. بدونك.. نعاني عذابات الغربة وآلام التشرذم.. اسمع صوتك يهدر في دمي: لن أتوقف لأننا لم نعد معزولين.. لم نعد آحاداً متباعدة، فقد جمعتنا انتفاضة الأطفال في أرضنا المحتلة، وجمعتنا حروفك المناضلة النبيلة وجمعتنا معكم ارادة الحياة.

سأتوقف الآن يا غالب مؤشراً الحياة التي أردتها.. ضد الهزيمة.. وضد الاستسلام.. وضد الموت.

البيان ١٩٨٩/١٢/٢٤

عتاب

● *د. ناديا خوست*

مات زميلنا الكاتب غالب هلسا، وقع قبل الأوان؟ بقي في المستشفى ثلاثة أيام، خلال تنقيب الأطباء عن أمراض في البطن أو الرئة، بعيدة عن القلب، كان الموت في هذا الزمن يسلك طريقاً أخرى غير طريق القلب.

قال زملاؤه الذين زاروه حياً كان ألمه واضحاً، في الصدر، في مكان القلب ومع ذلك تاه الأطباء حين أشرنا إلى الداء المحتمل ردوا: تفهمون أكثر من الأطباء؟

لكن تلك تفاصيل، في متاهاتها وضع المستشفيات التي لا يجد فيها المريض عناية الأهل، وعجز المؤسسة الصحية عن الانتباه الى الإنسان، معالجته حالة تستلقي على السرير، مقطوعة عن الحياة التي أتى منها والألوان التي سيعود اليها اذا نهض، حبس الانسان الممتد، في خانة صغيرة من حسابات المستشفيات.

ولكن لو أسعف الكاتب، وكسب بعض الأشهر، لعاد الى الموت، ولما صدقنا يومذاك أنه رجل ولتذكرنا الرجل حياً كما كان في الأمس. ولرفضنا أن يموت على سرير، وأمامنا هذا الموت اليومي في شوارع الضفة، يهتف، ويوقع، وينادي: أيها الواهمون، انظروا!

استقبل الكاتب الجلطة، مرض العصر، لأنه لم يكن بعيداً عن ساحة الرصاص، لأنه تجول فيها كل مساء وصل الى المستشفى محملاً بهموم الكون، مثقل القلب بصور الدم، مدثراً بضباب اليوم، مفكراً بالغيب، متسائلاً عما يحدث للمستقبل في الحاضر، لابساً ثياب الغوص، جاهداً لانتشال المثل الغريقة، حاملاً أنواع المنافض ليخلص الأفكار من غبار الزمن، متنكباً حبال متسلقي الجبال لاكتشاف الدروب الآمنة، في دورة جديدة من دوران الفلك.

وصل بعد جولات من ليالي الارق التي هز جدرانها الصلبة بصرخة تسأل عن الغضب الذي يندلع اذا روي ان كلمة خدشت في قارة محظوظة ولا يندلع اذا قتل كل يوم فتيان وأطفال في قارة أخرى. ويستفهم عن التمييز بين الناس حتى في الحق بالحياة.

كان مشيعو الكاتب كثرة. ومع ذلك سئلنا: تريدون أن تروه مرة أخيرة؟ الوداع؟ لا أخشى عبور تلك البوابة في الحزن! وأخشى من العتاب لأن الرجل لم يجد جيباً جديداً، أو رفاً جديداً، أو درجاً منسياً، يرتب فيه القلق، فتناوله، كدسه، وأغلق عليه القلب، حتى طفح، فكسر الزجاج والأبواب، وحرك الأعاصير.

عاد الآخرون من الوداع وقد حبك العتاب مع الدمع نسيجه الشفاف. وقال احدهم وهو يجلس: لاشيء في العالم هذه السنة يفرح القلب: فسألته: الذلك هرب، قبل أن تبدأ سنة جديدة؟

وكانت الشمس تنسل من ستائر النوافذ لو رأى ذلك الضوء، لربما، مارحل لم يأت بعد الصيف كيف يتبين ان ثمن اليوم الجميل في الشتاء هو العطش. وكان يمكن ان يفكر فقط في الصحو، ليحقن القلب بالقوة. لكنه فكر فقط في غيوم العالم، واستمع الى طلقات الرصاص على النوافذ.

ربما من الخوف على من بقي، وعدته: لو قيل عودوا الى أول الدرب في أول القرن الماضي، لكان ذلك فرصة كي نتذكر ابطال الامس ونعبد معهم طرقات السعادة الماضية لو انتشرت الصحراء في هذا الكون ولم يبق فيه ظل، لاستطعنا ان نغرس شجرة على سطح او شرفة او أمام بيت أو كوخ، فاذا ضاقت بها الأرض زرعناها على الكف، واذا لم نجد لها

قطرة الماء. سقيناها من الدمع! لاتخطىء المثل اذا انهار من يحملها هو الذي يخطىء. ومنذ أول تاريخ الانسان كان الحي يخطف الراية ممن يسقط.

يجب أن يصمد القلب لنبقى في الصراع بين الخير والشر، لنجد المراكز الجديدة في المقاومة الانسانية أمام الشر.

الثورة العدد/ ٨١٣٩/
١٩٨٩/١٢/٢٤

غالب هلسا ومطلع الضحك
كان سؤالاً أينما حلّ، ودفئاً في المدن الباردة

● *خليل محمد خليل*

في تلك الليلة البعيدة عن هواجس الفكر والسياسة، لم يكن غالب ليهدأ، يجلس دقيقتين ليقف، يتطلع من النافذة يرقب الشارع الدمشقي المغسول بالمطر لدقيقة فقط وسرعان مايضجر، يتمشى في الصالة الواسعة بين المقاعد والسكارى والمغنين، ليعاود الجلوس على طرف المقعد، ليعاود الوقوف ثانية والمشي ثانية، ينتقل بين الغرف والممرات، بين المدن والأصدقاء الراحلين والكتب المصادرة، عمان القاهرة بغداد بيروت أثينا نيقوسيا دمشق.

- ما الذي يحدث ياغالب

دون ان يلتفت الى مصدر الصوت، يضحك كأنه لايضحك.. أنا انتظر ولكن شيئاً لن يحدث، والجميع في السهرة الحميمة يبحثون عن نقاط تقاطعهم، يلامس الواحد منا الآخر باحثاً عن دفء غامض يشد مفاصل الروح، الا غالب يزداد ابتعاداً، الجميع يدخلون في الأغنية المشتركة، يتحمسون، يتبادلون الانخاب والتصفيق الا غالب هلسا، يجلس ليقف، يتطلع عبر النوافذ ليرتد الى نحيب انشادي يتدفق في خلاياه، ويتوالى سيل الاسماء، فؤاد نصار، يحيى الطاهر عبد الله، امام عيسى وغالب غائب وراء أشكال الأسماء، تفاصيل غرفة يحيى الطاهر وهو يموت.

- ماذا ياغالب

يرد بصوته الهامس/ كنت أجلس على حافة سريره الحديدي وهو يدخن ويقرأ لي

قصته الجديدة قلت له فجأة يايحيى سوف تموت قريباً/

ـ ما الذي حدث؟

ـ مات

الجميع منهمكون في الانشاد والتبغ والضحك، وفجأة يبدأ غالب هلسا بالغناء، بصوت رقيق طالع من احشاء تجربة قاسية، من تضاريس الموانىء والسجون والرفاق القتلى. . يصمت الجميع فجأة ليسمعوا (غالب) يغني:

بيضا يابنت بيضا وللابياض صابون

أنا اللي بيضا بيضا وأبوي تاجر صابون

ينظر الى أصدقائه الواجمين كأنه يرانا للمرة الأولى، يعلن أنها أغنية يذكر فقط مطلعها منذ طفولته لماذا الطفولة ياغالب، أحقاً كان ثمة طفولة في يوم ما تم الغناء عن البياض والبنت والصابون، هل تعرفون ان غالب هلسا كان يومذاك عاشقاً لفتاة جامعية نضرة، أحبها وهو يغادر احدى نوبات كآبته المرضية التي الزمته الفراش لأسابيع، طالبة من عمان تدرس في الجامعة السورية غادرت دمشق الى أهلها لتستأذنهم بالزواج ولكنها لم تعد.

هل حقاً تفكر بالزواج ياغالب

ـ نعم. . لقد تعبت من الوحدة

وها أنت وحيداً تعود الى مأدبا محمولاً على أكف الرجال، ارتخى شعرك الأبيض واستراحت عيناك الزائغتان، خمسة وثلاثون عاماً مضت على رحيلك الأول عن تلك المدينة /القرية وحيداً يومذاك غادرتها ووحيداً تعود/ سألني. . اتخرج قليلاً الى الشارع.

تركنا كوكب حمزة يواصل على عوده العزف للعراق البعيد وخرجنا باتجاه شارع بغداد وغالب لايقول شيئاً الا مطلع أغنيته الشعبية. . أتخاف من الموت ياغالب، لكنه لم يجب، اتكأ على جدار المقبرة المكتظة بالشهداء. تحدث كأنما لنفسه عن نجيب سرور ونزاعه مع امل دنقل، قال: إن نجيب كان مغرقاً في بكائيته لكن أمل كان أقوى قلت: الاثنان كانا يخافان الموت كانا غريبين الى حد الوجع التراجيدي.

مضى بعيداً كأنه لم يسمع تحدث عن بيروت، عن غاليري ٦٨ عن ماجد أبو شرار دفق فريد من الذكريات يشبه لعبة التداعي الحر قال: في العراق اعتقل الفاشست ابن أختي ليضغطوا علي ذهبت مرغماً الى هناك بعدما حدث لي في القاهرة، اتعرف ماذا فعلوا بذلك الشاب البريء، لقد قطعوا أذنه وغالب الذي لم يعرف الاستسلام قط غادر مباءة الفاشست، وهاهي بيروت أخيراً، مدن تقودك الى مدن، ومنفى يجرك الى منفى، والروائي ككل مبدع فلسطيني آخر يقف في قلب الفعل، يتزاوج الهم السياسي بالهم الابداعي باحثاً عن خصوصيته وحداثته في وجدان المتغيرات، ممسكاً نبضها مرة يصوغه قصة ومرة مقالة وثالثة نقداً ورواية، يتحدث عن نمط الانتاج الآسيوي، عن مأزق الثورة الفلسطينية عن

تطور الرواية العربية، عن متاعب التاريخ والصحافة ومشاغل اللغة وعصر النهضة والشعر الشعبي في مصر بالحماسة ذاتها. عبر تلك المواضيع كلها كان يبحث عن ذاته وعن صياغتها دون أن يتخلى لحظة عن فعل ما يمارسه في اطار حركة التحرر، يواصل حديثه عن /سلطانة/ وعن غاستون باشلار وعن الادب الاسرائيلي. عن البسطامي ووليم فولكنر، قال. . اكتب بحماسة كبيرة هذه الأيام كأني في سباق مع الزمن، كان يعي حقاً أنه في سباق لن يكون فيه غالباً هذه المرة بل سيكون المغلوب، سألته لماذا يموت بطل /الروائيون/ السياق العام للرواية لايوجب موته. صمت ولم يجب.

بطل /الروائيون/ آخر أعمال غالب يثير اسئلة كثيرة عن تشابهه مع الكاتب، فالاثنان مترجمان في وكالة أنباء المانيا الديمقراطية في القاهرة والاثنان يحملان هموماً ومواقف سياسية متشابهة، أكان موت البطل نبوءة غالب برحيله هو الآخر، سألته عن التشابه قال لابد للكاتب من أن تنعكس شخصيته وحياته في مسار شخصياته المتخيلة، في كل رواية لي ثمة غالب هلسا أو شيء منه لكن لن نستطيع الجزم بأن هناك تطابقاً، أتذكر الخماسين اسم البطل غالب ويعمل في وكالة أنباء الصين الجديدة حيث كنت أعمل أنا أيضاً، وفي سلطانة وفي الضحك. . ثمة تشابهات ولكني لا أكتب حياتي. . واستمر الحوار، اكنا نعلم أنه الأخير؟، ربما كنا لو علمنا أقل خلافاً وأقل عدائية، تحدثنا عن الكابوس في مطلع روايته الاولى /الضحك/ وقرأت له بضعة أسطر من تحليل الكابوس، ابتسم مرة، وقطب جبينه مرة أخرى واختلفنا، منذ التقينا في شتاء ١٩٨٠ في بيروت عندما كان غالب هلسا يشرف على مجلة المصير الديمقراطي الصادرة آنذاك هناك ونحن نختلف ولكنه دوماً يبتسم، قال لي مرة الديموقراطية ليست هاجساً سياسياً ومطلباً نتبجح به. هي سلوك يومي، عندما اختلف مع أحدهم، عندما لايرضى انسان ما عن عملي هذا لايعني أننا أعداء.

في الفصل الاول من الضحك، وهي احدى الروايات الحداثية المبكرة باللغة العربية، ينتقل بنا غالب هلسا على مدى أربع صفحات من الزمن الحاضر الى زمن الذكرى، الحاضر لديه بغي لم تغتسل منذ وقت طويل تثير تقززه، الحاضر جسد آثم يتركه يشعر بالاشمئزاز (ص ١٥ من الرواية) الحاضر يخلق حنينه الى رتابة نظيفة، الحاضر بالنسبة له /لحظة تصبح فيها الهزيمة مؤكدة/ كما يقول. أما الذكرى فهي شارع كنسته الامطار وتسلقت جانبيه نباتات طازجة، الماضي حديقة برتقال واسعة وامرأة حين تضحك يحس طعم النعناع (ص ١٦ من الرواية) وينتقل بنا من زمن اليقظة بقوانينه الواعية الصارمة الى زمن النوم حيث يتحرر اللا شعور من مراقبة الأخلاق. ليصف الكابوس ليحكي لنا عن خوفه من العالم الداخلي ورغبته اللاشعورية بهدمه يقول/ أخذت اتبين ان هناك غارة جوية فوقنا والبيوت تنهدم هناك/ ويضيف/ كانت الحجرة مسدلة الستائر/ فالبيت كما يرى الفرويديون رمز للوجود الداخلي واسدال الستائر دلالة الانغلاق عن العالم البراني الذي يثير

الاشمئزاز، ويسير بنا غالب في كابوسه ضمن نفق طويل أضاع فيه صديقه كبينة واضحة عن العزلة الانسانية التي يعيش ثم يتوقف ذلك الكابوس ويصحو البطل من نومه للحظة ليقرر شراء الخنجر ثم يعاود النوم ليتابع حلمه المفزع الذي ينتهي امام المحققين فيستيقظ ثانية وهو يرى المحققين الثلاثة امامه (ص ١٩) فالكابوس في مطلع الضحك ليس حالة يمر بها النائم فقط بل ينفتح الى حدود اليقظة . . وهكذا يتحطم سياق الزمن مرتين مرة في الانتقال من الراهن الى الماضي ومرة في الانتقال من اللا شعور الى الشعور، هذه العلاقة المركبة داخل الزمن الروائي تتيح بداية تلمس تقنية الرواي الحداثية، كما تتيح لنا ان نمسك طرف الخيط لتحليل نفسية الشخصية الروائية ومدى علاقاتها بشخصية الراوي. الرواية تبدأ بالحديث عن بغي سيعود ظهورها في روايات واقاصيص غالب، غالب، أتكون البغي رمز المدينة/ المنفى، أتصبح العلاقة بين البغي والمهاجر علاقة بؤس، انها كما يقول الطاهر بن جلون/ بؤس يبلغ اقصى درجات العزلة/ (ص ١٠١ من اقصى درجات العزلة).

في مطلع الضحك الجسد آثم بعد لقائه مع البغي لان الجسد لا يجد في العلاقة العابرة ما يدعوه فرويد/ باتحاد التيارين الجنسي والعاطفي الذي يوفر سلوكاً عاطفياً سوياً/ والجسد آثم في معظم انجازات غالب الروائية لان لقاءه بالمدينة العربية كان لقاء قسرياً. لم تكن رحماً بقدر ما كانت منفى وهذا المنفى عاشه الراحل الكبير على مستوياته السياسية والاجتماعية والفكرية والنفسية، قاده في المحصلة كل هذا الى حالة الاكتئاب، والى مواقف متطرفة بعض الاحيان، ولذا كان الحلم الكابوسي في مطلع الضحك من النمط الذي أسماه /بيير داكو/ احلام الحصر. . فالسيارة التي حشر بها بطل الضحك في الجزء الثاني من الكابوس رمز لمجموع الأنا يشير الى الاسلوب الذي تقود به القوى اللا شعورية شخصية الحالم، كما تشير الى ثنائية الشخصية ونزاعاتها الداخلية (ص ٣٦٢ من تفسير الاحلام لداكو).

اذلك أحد مفاتيح الرواية وفنها عند غالب هلسا، أيكون الموت في أعماله مخرجاً لتلك الثنائية من الأضداد؟

استند غالب بظهره في تلك الليلة الشيطانية على جدار /الدحداح/ وهو يتمتم. . بيضا يابنت بيضا. سألته متى سنتابع حوارنا الذي بدأناه عن علاقتك بالصحافة قال. . ولم أنت مستعجل، كنت أراه يمسك يد الموت ويسير به، من يمسك يد الآخر، من يسير بالآخر، المساحة البيضاء متى سنصل، كل وصل بطريقته، قال بمناسبة الحديث عن رواية الضحك اتذكر فصلها الثاني، اقرأ بدايته مرة أخرى، ومضى غالب دون أن يلتفت الي، يبدأ ذلك الفصل بالقول /كنا نعتقد ان العالم رهن اشارتنا والتاريخ الذي عرفنا سره كنا نظن اننا قادرون على التحكم به كخاتم في اصبعنا/ تلك كانت بداية الهزيمة فلا العالم رهن اشارتنا ولا التاريخ خاتمنا، عالمه/ عالم التطير والفزع/ (ص ١٨ من الخماسين طبعة

القاهرة ١٩٧٥) وتاريخه /لوعة تسربت في يديه/ (ص ٨ من روايته البكاء على الاطلال - بيروت ١٩٨٠) عالمه وتاريخه ينتظران امرأة لاتأتي فغالب منذ البدء وجد نفسه أمام/ عالم قد تحدد وأغلق/ (ص ٥٩ من مجموعته وديع والقديسة وآخرون/ وينتظران مدينة دافئة مغسولة من عرق البغاء. . ولكنه وفي ليلة شتائية أخرى ترك مسودات رواياته الجديدة واقاصيصه ونقوداته، ذكرياته ومتاعبه/ عناوينه المتداخلة، محاضراته وتصاويره، ومضى، في كثير من الاحيان كان يغلبه النوم، هذه المرة غلبه الموت وغيبه، ويكفيه أنه رجل كان يثير الأسئلة اينما حل، وكان يفرض عليك احترام ابداعاته مهما اختلفت معه، كان رجلاً في زمن تخنث فه معظم الكتابة حاراً في مدن بادرة. . رافضاً في زمن القبول الذليل.

تشرين العدد /٤٦٥١/
١٩٨٩/١٢/٢٥

في رحيل غالب هلسا

عارفه الغريب يافاطمة؟ الغريب زي عود سيسبان في غيط ذره. . »

مقطع شعري لصديقه «الابنودي» كان غالب هلسا يردده دائماً كلما قست عليه المنافي واحتدمت عليه وحدته وشظف غربته. . حين كان مضطراً لأن يبدل البيوت والأصدقاء والكتب، ويلم شظايا روحه من جديد. . يحملها على كتفه بانتظار سفر آخر. .

كانت الغربة اختياراً؟ اختارها أو اختارته لا فرق. . لكنها بالتأكيد وسمت حياته وتاريخه وبالتالي روايته منذ أن خرج من عمان في مطلع شبابه مروراً بالقاهرة وبغداد وبيروت واليمن الى دمشق التي أحبها واستطاع فيها «اعادة انتاج حياته الأولى في الأردن» كما قال. . فكتب «سلطانة» سيرة ذاتية للبدايات ولمكونات التجربة ثم كتب «الروائيون» مختتماً مسيرته الروائية ومقدما اختمار تجربته وفلسفته للطريقة التي يرى فيها الروائي العالم موضوعاً للرواية.

. . ومنذ اللحظة التي حل فيها غالب في دمشق خارجاً من حصار بيروت مع القوات الفلسطينية المقاتلة. . الى أن ودعناه بالأمس وهو في قمة عطائه كان غالب «عود السيسبان» الشامخ بتفرده وامتلائه ومواكبته طليعة الحركة الثقافية فيها شأنه دائما اينما حط رحاله تاركاً فيها بصمات لا تمحى.

رحل غالب.. رحل كما ترحل كل الاشياء الجميلة، في غفلة منا.. لم يعد بالامكان ان نسمع صوته في الصباح الباكر حيث يحلو له ان يسمع صوت اصدقائه ويبادلهم «صباح الخير» ولم يعد بالامكان ان تطل علينا صورته زاخراً بالحياة في جريدة يومية تحمل مقالة له لابد أن تثير الكثير من الحوار حولها.. لم يعد بالامكان ان نراه مرة أخرى يشمر عن ساعديه ويفرد أوراقه في أمسية اعد لها بكثير من الجد والاجتهاد مهما كان موضوعها، لم يعد بالامكان أن نحاججه في نقاش حار يستمر حتى الصباح.. أو حتى أن نسأله لماذا تركت بطل روايتك الأخيرة ولأول مرة «يموت»؟

غاب غالب.. غاب عنا نحن اسرته السورية الصغيرة التي التفت حول أدبه وعلمه وآرائه وحواره الديمقراطي وحضوره الخاص الذي لا يعوض في حياتنا..

رحل وحيداً كما أتى.. ولم تستطع كل دعوات الحب التي أحطناه بها أن تقف في وجه عناد طفل في الخمسين عرف كيف يعشق الحياة وكيف يعطيها روحه.

البعث الاسبوعي/العدد/ ٨١٣٨
١٩٨٩/١٢/٢٥

طفل كبير مسكون باشتهاء الحياة

● **علي كنعان**

في منتصف الخمسينات كان لقاؤنا الأول على صفحات «الآداب» البيروتية.

لكن اهتمام شبابنا كان منصباً على الشعر، قيمة أولى في الحياة والإبداع، ولذلك لم يشغلني كتاب النثر الا بقدر ماكانوا يخوضون من معارك نقدية ومساجلات حامية مع الآخرين وكان غالب هلسا من الأسماء المضيئة التي تشد الانتباه وتقف بقامة فكرية شامخ مع أنور المعداوي وعبد القادر القط، ومحيي الدين محمد واحسان عباس.. وكنت أتصوره كهلاً من جيل أولئك الأساتذة الكبار، ثم اكتشفت مؤخراً انه من جيلي.

وأول ماأدهشني من اراء هذا الكاتب المتألق الهادىء انه في السنوات الاولى من الستينات كان من أوائل الكتاب العرب الذين كشفوا القناع البراق عن التجربة الستالينية وتناقضها مع خط لينين الذي كان من مؤيدي فكرة التعددية، والذي سمح حتى بتعدد

الاجنحة داخل حزبه البلشفي ذاته. لقد كان هذا الكلام قبل مايزيد على ربع قرن صارخاً مدوياً يؤدي بصاحبه الى الرحم والضياع ان لم يكن أهلا لذلك التحدي.

وفي معظم الدراسات والمناقشات التي قرأتها له في تلك السنوات المبكرة نسبياً ترك في نفسي انطباعاً طيباً لايخلو من اعجاب، اذ كان مقاتلاً هادئاً ثابت الخطوات في سبيل هدفين واضحين:

١ ـ اخضاع كل شيء للعقل، والعقل النقدي بخاصة، دون خوف من اية محرمات طوطمية.

٢ ـ التأكيد على اهمية الشعب في مواجهة المؤسسات البيروقراطية.

وحتى في نقده للمسلسلات التلفزيونية في المحطات العربية، قبل شهور، لم يكن ليتخلى عن هذين الهدفين. وكان يلاحظ بانزعاج أن المسلسل التلفزيوني قائم على الصراع بين بطل شرير مخادع وقوي وبين غالبية مسحوقة، وبدل ان يسهم العمل بزيادة وعي هذه الأغلبية فتتعاون وتتحد لمواجهة الشر والظلم وابطالها.. كان الحل دائماً في نهاية المسلسل يأتي على يد المنقذ المنتظر ـ رجل البوليس: وكانت هذه الفكرة ـ اللعبة تضحكه الى حد المرارة.

ان للفن ـ في رأيه ـ رسالة فكرية اجتماعية حضارية، بمعنى أنه ليس للتسلية وهدر الوقت وانما لخدمة الانسان وتفتحه وزيادة وعيه وتقدمه وبناء مستقبله بعيداً عن الوعظ والاوامر والنواهي.. وحين يتخلى الفن عن هذه الرسالة يتحول الى دعاية سطحية فجة.. او اداة تخدير واستلاب.

اللقاء الودي العميق مع صديقنا الراحل تم في نيسان الماضي. وكانت مدينة طرطوس ومركزها الثقافي مسرح ذلك اللقاء، كما كانت بيوت الاصدقاء هي المكان الحميم لاحتضان السهرات وطيب الحوار.. في تلك الرحلة، وعلى امتداد أيام اربعة، اكتشفت غالب هلسا الطفل، الطفل في تصرفاته وتساؤلاته وفي بعض عاداته.. وحتى في دهشته ازاء المداعبات الودية «أو المقالب البيضاء» التي كان الصديق ابراهيم الجرادي يحبكها باتقان لتطرية الجو وكان لغالب طقوسه الخاصة في اليقظة والرياضة وتناول القهوة.. ولذلك آثرنا ان تكون له غرفته المستقلة في الفندق حتى لانعكر مجرى تلك الطقوس..

وفي العديد من اعماله الروائية تبرز هذه الطفولة بوضوح من خلال الاهمية البالغة التي يعطيها لشخصية المرأة ـ الأم، ليس بالمعنى التقليدي وانما من خلال دور الشخصية ومعاملتها للآخرين وظلالها الايحائية.

ومع الايام، تبدو في رواياته اهمية المرأة بوجه عام.. وكذلك اهمية الطعام والشراب.. ومن خلال متابعة هذه النقاط فضلا عن المعرفة الودية التي كانت تربطنا بغالب ـ الكاتب المبدع، لمست مدى اشتهائه للحياة.

انه الطفل الكبير الذي يبقى يقظا مستنفرا حتى لايفوته شيء . . ثم يعود الى محرابه ليكتب وحين استقى من ينابيع طفولته كثيرا من ملامح جريس وطفولته في «سلطانة» احسست بشيء من الخوف لان ذكريات الطفولة لاتزورنا بالحاح الا عندما نقف على عتبة الرحيل.

لقد كان رحيل غالب هلسا المفاجىء مصيبة كبرى، على اتساع الوطن العربي، لكني اعتبرها فجيعة شخصية . . فليس من السهل ان تحظى بصديق مثله وأنت في خريف العمر . . لان معظم الصداقات الحميمة تتشكل في الجامعة وأيام الشباب.

وعزاؤنا الا يضيع شيء من نتاجه

البعث الاسبوعي ١٩٨٩/١٢/٢٥

غالب رغم الواقع المقلوب

● *كوليت الخوري*

لم يخطر في بالي أن غالب من الممكن أن يغادرنا ولن يقضي معنا عيد الميلاد.

ولم يخطر في بالي أكثر أنني لن أودعه لأنني لم أعلم برحيله الا من هذه الصحيفة وبعد فوات الأوان.

اكتب هذه الكلمات وبالأحرى هذه الدمعات والحسرة تحرق عيني.

حين تعرفت الى غالب ذات يوم بعيد، او قريب لم أعد أدري وهذا أصلاً غير مهم . . لأن المهم هو أنني أحسست به قريباً الي جداً منذ اللحظة الأولى التي تعرفت اليه فيها . . أحسست وكأنني كنت أعرفه طوال عمري . نعم . . عندما يكون الحديث عن غالب تصبح معرفة الفترة التي جمعته بالأصدقاء غير مهمة . . لأن غالب من أولئك الناس الذين يحس المرء حين يتعرف اليهم بأنه كان يعرفهم دائماً.

نبيل، أبي، مرهف . . يشعر المرء معه باطمئنان ـ أديب كبير كبير، ترك بصماته على الأدب المعاصر ولم تترك الشهرة أية بصمة على شخصيته فظل متواضعاً ودوداً مخلصاً.

صاحب قضية، يعيش قناعاته بصدق ولا يهادن اطلاقاً بهذه القناعات، انما دون ان يستفز الآخرين . . فهو يحترم نفسه حقاً ومن يحترم نفسه لابد وأن يحترم الآخرين.

شخصية لها حضور في عالم الأدب وفي دنيا السياسة وفي المجتمع وبين الأصدقاء.

ماذا أقول؟

أهم مافي غالب هلسا انه انسان أصيل . . والأصيل يريحك دائماً . وكنت أشعر براحة كبرى عندما يكون غالب معي . .

لاول مرة اليوم . . يتعبني غالب حقاً . . لاول مرة اليوم يجرحني هذا الصديق المرهف في الصميم.

تعـود الى خاطري آخر لقاءاتي معه . . وأحاديثنا . . في الفترة الأخيرة صار يراجع الأطباء باستمرار وقبل أيام، قبل فترة، قبل أشهر لم أعد أدري ولم يعد هذا مهماً.

خابرني وجاء الي مسرعاً، فهو يقطن في الحي جانب بيتي.

وجلس وهو يلهث وقال لي: «أريد ماء لأخذ الدواء» فسألته مما يشكو فقال «لا أدري لكن ساقي تؤلماني في المشي» . قلت له هذا ربما من البرد أو من التعب . .

وتناول الدواء ونهض على الفور وتمشى وقال «تحسنت».

فضحكت فقـال بابتسامة طفل: «لك الحق ربما تحسنت من الوهم لا من الدواء فالحبة لم اهضمها بعد».

ونفخ دخان لفافته التي لاتفارق أصابعه حتى وكأنها لاتنطفىء ابداً، وجلس من جديد وقال لي:

ـ ياكوليت . . أنا مريض جداً . . سألته مابك وبماذا تحس؟

أجابني «لست أدري . . أحس بتعب شديد . . شيء ما في كياني يتعبني».

فقلت له:

«هذا نفسي . . أنت تعبان نفسياً . . والتعب النفسي ينعكس على الجسد».

قال

«هل تعتقدين هذا؟ لقد راجعت طبيباً نفسياً فقال مثلما قلت أنت».

ودار حديثنا حول القلق والتعب والخيبة . . والدنيا وتوقفنا لنصغي باهتمام الى نشرة الأخبار التي تصاعدت من الشاشة الصغيرة فاختلطت بدخان لفافته المتكاثف.

وحين سألته عن رأيه بكل مايجري في أوروبا الشرقية لم يجبني على سؤالي . . انما نفث عدة مرات من لفافته . . ثم التفت الي وقد احتقن وجهه وقال بهذا الصوت الهامس . . هذا الصوت الهادىء والمنفعل في آن معا . . هذا الصوت الذي عرفناه في غالب دافئا نابعا من القلب:

«احس بوحدة غريبة ياكوليت . . صحيح أنني عشت حياتي وحيداً لكنني الآن فقط، في هذه الفترة، لم أعد أحتمل هذه الوحدة . . لم أعد أحتمل هذه الساعات الطويلة في البيت وحدي».

كنت أتأمل هذا الوجه المنفتح . . وكنت أقرأ فيه المكابرة التي تحمل غالب من الخيبة الى الوحدة الى الرفض . .

ووجدتني أقول له :

«يجب أن تتزوج؟!»

فقال لي بجدية لم أكن أتوقعها :

هذا ماأفكر فيه جدياً . . مارأيك؟؟»

كنت أعرف هذه المعاناة التي جعلته يتذكر وحدته . . فهربت معه من الحديث عن الواقع والتشرد والخيبة الى الحديث عن الزواج والاستقرار والطمأنينة ووعدته جادة بأن أرافقه بعد أيام لنطلب يد العروس . .

كان هذا قبل أيام . . ربما قبل ساعات . . لم يعد هذا مهماً . . المهم هو أن هذا الصديق كان يأبى الا أن يظل غالباً . . وكأن اسمه قد تجسد في شخصه . . وفي الواقع كان الغالب دائماً . . في قناعاته في أدبه ، في أحاسيسه وأبى الا أن يظل غالباً . . رغم الواقع المغلوب . .

ولكن ماذا يتحمل هذا القلب؟

خسارة كبيرة فقدانك أيها العزيز . .

وحسرة مرة في الصدر يوم عيد الميلاد . .

البعث الاسبوعي ٢٥/١٢/١٩٨٩

العائد ميتاً ! . .

● شوقي بغدادي

مازلت أذكر لقاءنا الأول ، حدث هذا في أوائل الثمانينات وكنا في بيروت نشارك في مهرجان الشقيف الشعري ، كان الوقت مساء ونحن وجها لوجه على طرفي مأدبة اقيمت لنا هناك . . مازلت أذكر كيف لفت نظري ذلك الشخص المكتنز ، بشعره المبعثر الذي غزاه الشيب وهو يتحدث بصوت منخفض وبلهجة مصرية حسبته مصرياً أول الأمر وكان ينظر لي في ود ظاهر فسألت عنه مجاوري فهمس لي :

ـ هذا غالب هلسا . .

ـ آه . . الروائي المعروف اياه . . وكنت لم أقرأ له وقتها سوى القليل ـ الخماسين على ما أعتقد غير ان هذا القليل كان كافياً كي يعلق بالذهن الى الأبد ولم نجتمع بعدها الا نادراً وفي تلك الزيارة عرفت أنه مسيحي أردني الأصل ترك بلاده كي يدرس في مصر وهناك تعرف على القوى الوطنية التقدمية «اليسارية» وعمل معها طالباً وخريجاً ودخل السجن بسبب نشاطه السياسي ثم غادر الى بغداد وهناك ايضاً عانى من بعض الاضطهاد فعاد الى القاهرة ثم ربط مصيره بالمقاومة الفلسطينية وهاجر الى بيروت حتى اضطر مع المقاومة الى مغادرتها بعد الغزو الاسرائيلي عام ١٩٨٢ الى اليمن اولاً ثم الى دمشق حيث استقر الى أن حان وقت الهجرة الأخيرة فغادرها وغادرنا الى الابد . . وطوال تلك الفترة الطويلة التي امتدت نحو أربع وثلاثين سنة لم يستطع غالب هلسا ان يعود الى بلده الأصلي بسبب منعه من الدخول اليه . . وفي فترة اقامته الأخيرة في دمشق اتيح لي أن أعرفه ، أكثر من أي وقت مضى . . فاكتشفت فيه مثقفا من المستوى الرفيع الذي يدهشك دائما بطرحه الأمور من زوايا للرؤية مفاجئة مثيرة قد لاتوافقه عليها ولكن لاتملك نفسك من الاعجاب باصالتها .

كان شخصاً لا يوحي منظره الهادىء ، وأسلوبه الرخو في الحديث انه يضمر في اعماقه ناراً متأججة من المشاعر العنيفة الحادة ، والتي لم تكن تعلن عن نفسها الا في بعض كتاباته ومواقفه الحياتية ، ومازلت أذكر تلك الحملة التي شنها على أحد أصدقائي في سلسلة من المقالات الساخرة اللاذعة ، ولا أنكر وقتها أنني استنكرت ذلك الكلام مهما كانت دوافعه ولم اكتم استنكاري هذا بل لقد صارحته به في احدى المناسبات فاحتملني ولم يبد عليه انه ضاق ذرعا بي ، بل لقد سمعته يغمغم ببعض العبارات غير المفهومة تماما والتي لم تقنعني وقتها . . وهذا ماأفضى الى بعض الفتور في علاقتنا فلم نعد نلتقي كثيراً ، واذا التقينا كان الواحد منا يتفادى الحديث في ذلك الموضوع المختلف عليه . . وكنت لم أقرأ له حتى تلك اللحظة روايته الشهيرة «السؤال» فوقعت وقتها بين يدي فوجدتني التهمها التهاماً في يوم وليلة ثم امضي الى مقهى الهافانا كي أبحث عن المؤلف الذي اسرني الى هذا الحد .

لم أجتمع به يومها ، ولكنني اذكر أنني ما كدت اجتمع به بعد أيام قلائل في المقهى المذكور وكان جالساً الى طاولة قريبة من المدخل محاطاً ببعض من معارفه وأصحابه فسلمت واستأذنت ثم جلست وقلت على الفور :

ـ لي عدة أيام وأنا أبحث عنك ياأستاذ غالب . .

فشحب وجهه قليلاً ، وأظنه قد تصور في تلك اللحظة أنني أبحث عنه كي أعاتبه أو أخوض معه معركة كلامية ولكن سرعان ما عاد اليه لونه حين سمعني أتابع قائلاً :

ـ والسبب بسيط جداً . . فأنا بالرغم من اختلافي معك في بعض الأفكار والمواقف السياسية والشخصية حول بعض الأصدقاء الا أنني نسيت كل شيء ولم أعد أتذكر سوى ذلك السحر

الذي جذبتني به اليك طوال قراءتي لروايتك «السؤال» التي لم اقرأها الا منذ أيام. . يجب أن أرفع لك قبعتي يا غالب هلسا لانك روائي هام حقاً. . وهذا يكفي.

لم أجلس طويلاً في ذلك اللقاء، اذ اكتفيت بما قلت وبعض التعليقات الصغيرة العابرة من هنا وهناك ثم نهضت مودعا وقد بدا بالفعل انني لم أحضر الا لاداء هذه المهمة: ان ابدي اعجابي العميق بموهبة غالب هلسا ككاتب مبدع ثم أمضي. . مازلت اذكر تلك الابتسامة السعيدة التي طفحت على وجهه المكتنز وهو ينتزع مني ذلك الاعتراف الذي كان مفاجئا له بلا شك، وخاصة أنه تم علناً وعلى رؤوس الاشهاد. . ومنذ ذلك اليوم عادت المياه الى مجاريها فيما بيننا، واجتمعنا في اكثر من جلسة عمل، أو انس أو حوار عادي في مقهى، وكان في كل مرة يفاجئني بفكرة طازجة جديدة، ورؤية خاصة للأمور، مما كان يجعل الحديث معه دائماً مغامرة مثيرة ممتعة.

لم يكن غالب هلسا شخصاً عادياً بالتأكيد وقد لايخلو من بعض العيوب، ومن منا بلا عيوب، الا ان سيرته ككاتب مناضل جواب منفي ابداً عن وطنه، وكعازب مدمن على العزوبية مع أنه لم يكن ضد مبدأ الزواج اطلاقاً، وكروائي موهوب مبدع، وباختصار كانسان اصيل لم يكن يقلد احداً ولم يكن يعبأ على الاطلاق في أن يرضى عنه احد. . إن كاتباً من هذا النوع لم يعد له أشباه كثر في زماننا الذي يفقدنا اصالتنا يوما بعد يوم ويجرنا من شعرنا كي نكون حسب النسخة المصممة لنا سلفا.

مات الآن غالب هلسا. . وانتهت العداوات والصداقات. . انتهى كل شيء ولم يبق سوى الذكرى فما أجمل الأشياء حين تصبح من الذكرى! هاهو يموت بهدوء غريباً كما عاش دائماً غير عابىء الا بأن يقول كلمته ثم يمضي وحين ذهبنا في جنازته بالسيارات مشيعين اياه وهم يعودون بجثمانه الى مسقط رأسه في مأدبا من لواء الكرك لم أستطع أن أطرد من ذهني تلك المفارقة الساخرة القاسية أن غالب هلسا قضى اكثر من ثلاثين عاما ممنوعا من دخول بلاده، وحين اصطلحت الامور اخيرا وصار ممكنا للجميع ان يدخلوا ويخرجوا كما يشاؤون اذا به يطفىء سيجارته الأخيرة ثم يسترخي على فراشه في مستشفى الأسدي وفي غرفة العناية المشددة حيث يعود الموتى الى الحياة عادة كي يفارق الحياة وسط دهشتنا وعدم قدرتنا على التصديق.

عاد المسافر اذن اخيراً الى بلده ولو محمولاً على نعش اليس مريحاً ان نعود ولو حشو الكفن!؟ ونحن الذين مازلنا على قيد الحياة ننظر بعضنا الى بعض وقلوبنا تتساءل: على من الدور في المرة القادمة؟! ماعسانا نصنع سوى ان نفي ديوننا ثم نقول كلمتنا الأخيرة بلا خوف، ثم نرحل بلا أسف كبير وراء غالب هلسا الى الوطن.

البعث الاسبوعي ٢٥/١٢/١٩٨٩

حوار طويل حول الرواية

● **عمار الكسان**

كانت مفاجأة بالنسبة لي ان التقي بغالب هلسا صاحب السؤال والضحك والخماسين لاول مرة قبل سنوات. . عرفني اليه بول شاؤول بسرعة واعتيادية وبطريقة لم أتوقعها في خضم سهرة من سهرات مهرجان دمشق المسرحي وكانت الساعة الثالثة صباحاً؟

بتواضع اذكره جيداً مد يده اليمنى التي تنقص عقلة في احدى اصابعها بسبب حادث في الطفولة ومددت يدي محاولاً أن أهزها بنفس القوة والترحاب. . وبدون مقدمات سألني وأنا أبدي اعجابي برواياته.

ـ وماذا يعجبك فيها؟

قلت له: تعجبني الطريقة التي تدمر فيها حياتك كي تحولها الى مادة للرواية واستشهدت يومها بمشهد حب حميم من حياة غالب اعاد انتاجه في روايته المشهورة «الخماسين» وهو يدرك منذ اللحظة الاولى التي عاشه فيها أن عليه أن يحتفظ من هذه اللحظة الاستثنائية بكل التفاصيل الممكنة لاعادة كتابته تاليا «وقد اعترف بهذا عندما كتب المشهد في الرواية».

هذه القضية لامست بالمصادفة ربما ـ هموم غالب وهو يعاين روايته ـ الروائيون ـ التي كان يومها بصدد كتابتها فكانت فاتحة لحوار مستمر بيننا حول تجليات حياة الروائي في روايته والحضور المباشر لها في أدبه بهذا الشكل النادر في ادبنا العربي الذي استطاع غالب تحقيقه.

واستمر الحوار الذي بدأ منذ لحظة التعارف الاولى وبشكل جاد لسنوات طويلة وحتى اللحظات الاخيرة من حياته التي رافقته فيها؟

كنا قد قررنا منذ أشهر أن نحول افكارنا ونقاشاتنا الى مادة مكتوبة تحت عنوان وضعه هو «حوار طويل حول الرواية» وهي عبارة عن محاورات حول كتابة الرواية. . بين كاتب صاحب تجربة مكتملة وتاريخ روائي طويل. . وآخر يكتب روايته الأولى. . وكانت آخر نقطة بحثناها في مشروعنا هذا وهو على سرير المرض ابان ازمته الأخيرة. . انه قال لي:

«لابد ان نتحدث عن الخجل. . الخجل الذي يحد من ابداع الروائي في ترجمة تجربته الخاصة. . لدى الكثير مما سأقوله في ذلك وسوف تتفاجأ؟!».

أحسست يومها أن غالب في لحظة المواجهة بين الموت والحياة تلك. . كان يود ان يعيد النظر في الكثير من «التابوات» التي حكمت أدبه والتي كنا نظن ـ نحن قراءه ـ انها غير موجودة؟!

في أية حال لقد ظننت دائماً أن غالب هلسا كان من أفضل من حاورتهم من المبدعين

العرب وأكثرهم تمسكاً بالصيغة الديمقراطية للحوار واقتراباً من الصدق والمبادأة بالكشف عن الاستار المغفلة في أدبه! رغم أن أدبه غالباً ماتعلق بحياته أو تقاطع معها.

من آرائه التي جمعتها عبر حواراتنا المستمرة والتي سأسعى لان اضمنها كتاباً عنه يرصد حياته وتجربته التي عايشتها تماماً في السنوات الخمس الماضية يقول غالب هلسا:

● معظم المبدعين والروائيين على وجه الخصوص يمرون بمرحلتين وجوديتين.. الاولى في مقتبل العمل حيث تكون النظرة الوجودية جزءاً من تشكل وعي الانسان لوجوده والثانية في تلك المرحلة المتقدمة من التجربة الابداعية حيث تصبح الوجودية منظاراً اكثر سعة للاشراف على العالم الخارجي.. والعالم الداخلي المخزون في داخل المبدع.. ومعطّيات المرحلتين تشكل دليلاً هاماً في دراسة الشخصية الابداعية.

● اذا أرادت الرواية العربية ان تعبر فعلاً عن التطورات الاجتماعية والروحية للعالم العربي يجب ان تتمرد على سلطان المال العقل اللاهوتي وعلى الثنائية الاخلاقية يمكن أن نضيف المحظورات السياسية.. هذا يعني ان الرواية تتحول الى عملية فدائية.

● نشرت أعمالي الأولى بعد عشر سنوات على الأقل من كتابتها.. لم أكن متعجلاً ابداً.. وكذلك كان شأني دائماً.. لكنني قدمت نفسي دائماً بثقة؟

● لو ظهر اليوم روائي جديد كتب عملاً يوازي في اهميته «الحرب والسلم» لما استطاع ابداً أن يجذب ادنى اهتمام اليه؟ الظروف تغيرت كثيراً.

● أحسد الروائيين الذين يستطيعون ان يعيشوا الحياة باستغراق وينسون أنفسهم كروائيين، أنني شخصياً لا أستطيع ذلك وهذا مؤلم جدا.

انني لا أنسى نفسي ابداً وإنني بالفعل مفتون بالشخصيات التي تستطيع أن تعيش الحياة باستغراق.

● اعتقد أن كتابة الرواية الحقيقية ترتبط بنشوء الفرد ويبدو ان ظروفي جعلتني أعيش ظاهرة شاذة في المجتمع الشرقي هي ان أكون فردا غير مرتبط بجماعة ارتباطاً يلغي فرديتي.. وهذا يفسر علاقتي بالاحزاب التي دخلتها وبالمجتمعات وخارجها بالوقت ذاته.

● بسبب ان منطلق الرواية هو الفرد.. وان روايتنا العربية هي غالباً تنطلق من الايديولوجيا الابوية التي تتخذ اقنعة الرواية الأخلاقية او الرواية الاجتماعية أصبح لدينا موضوعات ثابتة يعيد العقل العربي انتاجها في كل مرة.. وعلينا ان نتذكر ان العقل العربي منذ الثلاثينات من هذا القرن في حالة انحدار.. حددتها له سلطات لا هوتية وبيروقراطية تملك البترول والمال والسطوة..

● ان الكاتب العربي موضوع في زاوية لايستطيع مغادرتها فهو لايرى الا نفسه والمثقفين الذين حوله والذين هم تكرار له.. لذلك فمن المستحيل أن نجد كاتباً عربياً عاش تجربة جان جينية كلص ومتسول وبائع مخدرات مجتمعاتنا لاتملك المرونة الاجتماعية في التنقل بين

طبقات المجتمع المختلفة.

● لقد انطلقت منذ البداية لاقامة عالم يخضع للمنطق وللحق كان هذا ردي على عذاب الطفولة ومعاملة الكبار السيئة لي.. لهذا كنت أعيش حلم يقظة ان يكون هنالك محكمة كبيرة أطرح فيها قضيتي كاملة فلا يمنعني الكبار من أن أقول كلمتي النهائية. انتقل هذا الحلم ليصبح مشروعي لتغيير العالم..

هذا المشروع في حقيقته هو اعادة انتاج لهذه المحكمة التي بنيتها وانا طفل.. مشروع يهدف الى اعادة بناء العالم على أساس المنطق والعقل.

وعندما يفشل هذا المشروع أقوم بمعاقبة من حولي.. وبالذات معاقبة المرأة التي أحب؟

البعث الاسبوعي ٢٥/١٢/١٩٨٩

غالب هلسا الروائي والموقف

● *خالد أبو خالد*

كالصاعقة التي اختزنتها الحياة طويلاً، في جدلية العلاقة بينهما، أضاء غالب هلسا في سنواته الأخيرة، في كتابه مسيرته الذاتية، في الرواية والمقال، في استحضار الذاكرة الخاصة، والذاكرة العامة في اعادة طرح الاسئلة الكبرى.. واعادة ترتيب الاجابات عنها..

هكذا كان الامر فيما يتعلق بهذا الذي ثابر في المنفى طوال مايزيد على ثلاثين عاماً، ليسجل لنا أن المنفى ليس في النهاية سوى مواصلة للحياة في الوطن..

وطن غالب هلسا اذا لم يكن الاردن فحسب، وانما كان الوطن العربي كله، من الماء الى الماء.. وبالاضافة الى كل ذلك.. كان الحلم.. في علاقته التبادلية بالحياة.. هو وطن غالب هلسا أيضاً، لأنه الحلم الذي لم يكن منفصلاً عن الحياة.. فالكاتب في النهاية موقف كانت هذه العبارة هي الأساس الذي بنى الفنان الكبير عمارته عليه..

ولأن إلكاتب موقف، فقد ظل غالب محاصراً أبداً كما هو جدير بالثوري.. كان دمثاً في علاقاته بالآخرين، لكنه كان جامحاً عندما يكتب، معني فقط بالتعبير عن الموقف.. خارج كل حسابات العلاقات العامة، التي تمنح البعض فسحة أن يكونوا خارج الحصار،

بينما هم في داخله حقيقة.

غالب أدرك أن خروجه من الحصار مشروط بخروج الامة منه، ولذا.. فلم يكن حساساً للنقد الذي يوجه الى عمله الفني.. كان يستمع ويبتسم، لأنه يدرك أن عمله الفني موضوع للنقد، وموضوع لاثارة مختلف وجهات النظر وأن علاقته بعمله الفني، لا تنتهي بمجرد طرحه الى الملتقى.. ولكنه غير مطالب بالدفاع عنه، فهو يدرك أن لا امكانية لذلك، خاصة وأن الكتاب ليس بين يدي واحد أو اثنين من القراء.. انه بين أيدي كافة القراء، وحدهم هم المؤهلون ليقولوا فيه كلمتهم..

وفي الحوارات التي عقدت معه تحدث عن رواياته في مايشبه المرافعة، ولكن بصيغة الاعتزاز بأنه مبدع هذه الاعمال، التي كان يعتقد مخلصاً أنها أضافت الى الرواية العربية، لانها قدمت أجواء غير مألوفة في عالم الرواية العربية المعاصرة..

فمن «الضحك» وحتى «الروائيون» مروراً «بالخماسين» وترجمته لجماليات المكان.. والاعمال الاخرى.. كان غالب يقدم أمكنة وأناساً.. أحداثاً.. وأحلاماً ورؤى.. يعرف أن كثيرين لم يألفوها..

أما النهايات التي كان يصل اليها غالباً ما كانت نهايات مأساوية، ليس لانه مغرم بالمأساة، أو لأنه رومانسي، ولكن لان الحياة كانت كذلك دائماً في الحصار الذي لاينتهي، البحر الذي لاينتهي.. البر الذي لايبتدي.. الا ليبتدىء مرة أخرى دائماً، ومن صفر جديد..

فالمثابرة.. في الذاكرة.. وفي الواقع في الافق، وفي العمل اليومي الدؤوب، والشاق.. هي شرط المبدع، لكي يفعل، ولكي يؤثر ولكي يضيء.. وحتى لو اختلف مع الكثيرين، أو الجميع فانه لايلتفت الى الخلف.. فهو معني أكثر بابداعه مواظب عليه، وقليلة هي الكلمات التي تناولها أو وضعها موضوع التداول في الحوارات التي أجريت معه وفيها ردود على الآخرين..

ولقد غير غالب، خلال مسيرته الثقافية السياسية، أنه كان يثق برفاق العمل، لانه كان يؤمن بأنه فرد واحد في فريق عمل.. ولهذا فحتى عندما كان يقدم مادته الثقافية لكي تنشر في «الكاتب الفلسطيني» المجلة التي كان عضواً في هيئة تحريرها، كان على استعداد للاستماع الى وجهة نظر فريق العمل، وكان على استعداد أن يشطب منها مايرونه ضرورياً.. كان يقبل ذلك بتواضع الفنان.. الذي يدرك أن فريق العمل مجتمعاً أقدر على رؤية المناسب والضروري.. ولذلك فقد كان أبداً مفتوح القلب، والسمع، وغير مغلق على المشورة.

ومن مثل هذه العلاقة، وغيرها، ومن قراءة ماكتب، يدرك الذي يعرف غالب عن قرب أو على مسافة بعيدة أنه ديمقراطي في روحه والى الحد الاقصى.

غالب لم يكن صامتاً، ولكنه لم يكن ميالاً الى الضجيج، أو الصراخ في كافة الاجتماعات التي شارك فيها، كان منصتاً أو مسهماً، لكنه يعود بعد كل هذا، ليثبت ليعترض أو ليوافق.

كان الهامش واسعاً بينه وبين الآخرين.. لكن هذا الهامش يتقلص في اطار العمل فيغدو قريباً من الجميع. والقضية التي يعملون في اطارها ودون أية تحفظات من جانبه سوى التحفظ على الايقاع البطيء الذي يمكن ان يحكم ظروف عمل نقابي كعملنا.

ولم يكن غالب فيما يذهب اليه مغالياً، أو مبالغاً ولكنه كان يرى الحد الادنى في حدوده القصوى وآفاقه. ويوم أسس غالب مع رفاقه من الكتاب والمثقفين الفلسطينيين، لجنة العمل النقابي لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين فعل من منظور المثقف الثوري الذي يرى ضرورة وحدة الكتاب والصحفيين على قاعدة مفهومه للمثقف الثوري، لا شبه المثقف المندمج في سلطة القمع، وقد ألحق بحركته تلك أطروحته التي نشرها في العدد الثالث عشر من الكاتب الفلسطيني تحت عنوان «مثقف منظمة التحرير» وهو العنوان الذي درس تحته ثلاثة أنماط من المثقف الفلسطيني.

وفي الصفحات التالية، نقتطف من هذه الاطروحة نضعها تحت عنوان «الكاتب موقف»:

مثقف منظمة التحرير الفلسطينية:
دراسة في أشباه المثقف:

كنت في السابق أكثر تفاؤلاً مني الآن، اذ كنت أقول، وأصرح بذلك أكثر من مرة: أن الانظمة العربية تقوم كل عشر سنوات بتصفية زهرة الامة ـ كنت أعني الانتلجنسيا بالتحديد تصفيتهم جسدياً، أو روحياً، يرافق هذا الحصاد الموسمي قيام «اسرائيل» بهجوم على الدول العربية ينتج عنه داخل كل بلد عربي، مزيد من القمع، ومزيد من مصادرة الحريات، تحت شعار: كل شيء من أجل المعركة مع العدو.

الدوران متكاملان: الانظمة تقتل خير أبنائها، و«اسرائيل» تقدم المبرر وتخلق الجو الملائم، المصالح كذلك، موحدة، فالفئات والطبقات التي تسعى الى تصفية الكيان الصهيوني، تعلم أن طريقها الى ذلك يعبر عن تصفية الكومبرادور العربي.

شيء من التاريخ

حتى لايحدث لبس في هذا الموضوع، أقول: إننا نتحدث عن ديناميات طاردة أو

مستقبلية تفعل فعلها في م.ت.ف. وفي أشباه المثقفين، ولا نتحدث عن مقاصد فردية، فانه حتى وأن توفرت هذه المقاصد الفردية، فان دلالاتها وأهميتها تبرز عبر دمجها داخل تلك الديناميات.

عندما ندرس هذه المسألة عبر النقاش حول كل حالة وحدها سوف نضل، فقد يكون هذا أو ذاك هو المسؤول عما حدث وليس المنظمة، وقد تكون الخطيئة هي خطيئة ذاك الذي انسحب، أو قد يكون قد حدث ماحدث سهواً أو قصداً، حين ينصرف بحثنا الى منهج كهذا، فاننا سوف ننصرف الى اكتشاف النوايا الفردية، او المقاصد الخفية لهذا أو ذاك عندها لن نكون قد قمنا ببحث سيوسيولوجي، بل بمنوعات صحفية.

مايهمنا، هنا، أن نؤكده أن تسعة وتسعين في المائة ممن يمكن أن نطلق عليهم صفة الانتلجنسيا الفلسطينية. هم خارج منظمة التحرير الفلسطينية، وأن تسعة وتسعين في المائة مما يمكن أن نطلق عليهم صفة أشباه المثقفين، هم الذين يقومون بالدور المفترض أن تشغله الانتلجنسيا العليا والتقنيون ذوو التخصص العالي، هذه وقائع تشير الى الديناميات التي سبق وتحدثنا عنها بوضوح فائق.

عند بداية الكفاح المسلح اندفع نحو م.ت.ف. أعداد كبيرة من المثقفين الفلسطينيين والعرب، ومن العسكريين ذوي التخصص العالي عرباً أساساً وفلسطينيين، ثم تم استبعاد هؤلاء كأنما بسحر ساحر، لا أحد يدري كيف، ولكن بعد مضي وقت قصير بدأت الهجرة المضادة.

ولم تكتف منظمة التحرير باستبعاد الانتلجنسيا الفلسطينية والعربية وسد الطريق في وجهها، بل أشاعت جواً معادياً للثقافة من منطلق التأكيد على دور البندقية، باعتبار أنها المصدر الحقيقي والوحيد للفكر، مطبقين شريعة الساموراي: «لاتفكر، فالتفكير يصنع الجبناء».

بالنسبة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين، فلقد تم الاستيلاء عليه، وقصره على أشباه المثقفين، سواء بواسطة الاجهزة الامنية أو بالمؤتمرات الانشقاقية، غير الشرعية.

رغم أن هذه الامثلة لاتقول كل ماحدث للمثقف الفلسطيني، فانها تكتفي للدلالة على هذه الدينامية، ولكن علينا أن نضيف هنا أسلوب التصفية الجسدية الذي اتبعته قيادة المنظمة، هنالك مثالان بارزان على ذلك أعني، اغتيال الشهيدين «ماجد أبو شرار وناجي العلي».

كيف نفسر هذه العلاقة بين منظمة التحرير والمثقفين، وكذلك علاقتنا بأشباه المثقفين؟

أشباه المثقفين نظرة أولية:

يتميز أشباه المثقفين بأن كل معرفة لديهم معرفة دوغماتية، يجري تمثلها لتأكيد مقولات وأفكار سابقة وثابتة: «ان اشباه المثقفين ينفتحون على جميع المؤثرات.. يكونون قادرين على ادراك بعض الافكار، ولكنهم لايمتلكون القدرة على امتحانها أو التحقق منها، ولا على ايقاف أحكامهم عليها أثناء ذلك الامتحان»..

ويقول مفكر آخر عن أنصاف المثقفين أنهم يتوصلون الى استنتاجاتهم عبر سياق غير عقلاني. فالتصورات القديمة تسيطر عليهم وهم، في الغالب، في بحثهم ينتهون الى آراء بشكل مسبق «إنهم يحكمون دون وعي على جميع المسائل بقياس عقلي ينشأ من تربيتهم، ويتعاطفون مع الوقائع والادلة بالقدر الذي تدعم به استنتاجاتهم المسبقة».

ولهذا السبب يقوم العداء بينهم وبين المثقفين، اذ أن المثقفين ينطلقون من كون جميع الافكار والقيم والمفاهيم خاضعة للنقاش والتبديل وهذا بالتحديد ماأشار اليه الاقتباس السابق.

«وتتجلى الخصائص المحافظة والطفيلية أحياناً لجماعة «أشباه المثقفين» في محاصرة النشاط الفكري التجديدي الابداعي حقاً..»

شبه المثقف والانماط الثلاثة:

علينا أن نرصد التحولات في التكوين النفسي لشخصية شبه المثقف الفلسطيني، لقد كان تكوينه الأساسي نتاج مجتمع وقيم تقليدية، لقد خرج هذا التكوين عن اطاره الاجتماعي واندمج في تكوين آخر: السلطة الفلسطينية والمدنية.

من هنا نشأت بعض ملامح النمط الموجه من الداخل حيث انسجمت السلطة الفلسطينية ذات السمات التقليدية مع الاطار القروي في مسألة أساسية وذلك أنها تعاملت مع الطموحات الأساسية للبرجوازي الريفي الصغير: الثراء والصعود الاجتماعي ومن هنا تحول شبه المثقف الفلسطيني الى مثقف عضوي للسلطة الفلسطينية، وبالتالي للكومبرادور الفلسطيني.

هذا هو الظرف الجديد: دخل شبه المثقف الفلسطيني في سياق آخر، نعني به سياق المجتمع الاستهلاكي. أن الوفرة المادية، مضافاً اليها انعدام الانتاجية وغياب الدور قد أحدثت تأثيرات جعلته يقترب كثيراً من نمط الموجه بواسطة الآخرين.، ولكن علينا أن نفهمه بصورة عن تلك التي قدمها رايزمان وايرك فروم. أن ملامح الشخصية مازالت نتاجاً

لمجتمع تقليدي وتهمة الامتلاك والصعود الاجتماعي دون اعتبار للاخرين، يحمل بعض ملامح النمط الموجه من الداخل، ولكن هناك فارقاً اساسياً: أن هذه الملامح هي ذات طابع ستاتيكي راكد، سمتها الخضوع، لا الرغبة العنيفة في تغيير العالم.

أما بالنسبة للملامح الاستهلاكية التي تسربت الى شبه المثقف الفلسطيني، والرغبة في ارضاء الآخرين فهي ترتكز على نواة نفعية أي أنه يرضي الآخرين ليستفيد منهم.

وباختصار أننا أمام نمط جديد: المثقف العضوي لطبقة منحطة وسلطة منحطة لقد تضافرت مجموعة من العوامل التاريخية والاجتماعية على خلق هذا الانموذج الانساني الغريب الذي يصعب تصنيفه. واذا أردنا أن نحدد المسؤولية المباشرة عن خلق هذا الانموذج فانها قطعاً تقع على السلطة الفلسطينية، فمن المؤكد أن هؤلاء الشبان جاؤوا الى الثورة الفلسطينية مدفوعين بدوافع وطنية أو حتى ثورية، هذا يعني أنهم قد أعدوا أنفسهم لتغيير جذري في تكوينهم وفي علاقتهم بالعالم.

ان ظروف الاندفاع نحو الثورة الفلسطينية، أي العنصر الذاتي، يحتاج الى بعض التفصيل والايضاح، لهذا سوف نأتي بمثال سابق، وهو ثورة اكتوبر في روسيا. بدور الحديث عن هذه الثورة، في الغالب، بأنها نتاج ظروف موضوعية قادت الى انتصارها بشكل حتمي، ولكن نادراً مايقال أن هذه الظروف نفسها كان من الممكن أن تؤدي الى نتائج مختلفة تماماً.

فما هو العامل الذي جعل الوضع الروسي يقود الى ثورة اكتوبر؟ انه، كما أعتقد، الانتلجنسيا الروسية. يقول ستيفان زيفانج: إنه اذا أجرينا مقارنة بين الانتلجنسيا الروسية والانتلجنسيا الاوروبية الغربية في دراسته عن دستويفسكي فسوف نلمس الفارق يقول:

إن من العجب عن هؤلاء الروس «ان العالم يبدأ من جديد في كل فرد من هؤلاء، لانهم أناس ينتمون الى مرحلة بداية، وان كل الاسئلة التي تجمدت عندنا متحولة الى مفاهيم باردة مازالت تتقد في دمائهم. وان طرقنا المريحة المسلوكة المجهدة المؤدية الى ميادين الاخلاق والتي يقوم عليها مرشدون أخلاقيون مازالت مجهولة عندهم فهم يخترقون الاحراش دائماً وفي كل مكان الى ما لاحد له، الى اللانهائي، وكل فرد منهم يشعر بما تشعر به، روسيا لينين وتروتسكي، وهو أن عليه أن يعيد بناء العالم بأسره، وتلك هي قيمة الانسان الروسي التي لا توصف بالقياس الى اوروبا، وهي أن فضولاً بكرا يطرح هنا. مرة أخرى، كل أسئلة الحياة على اللا نهاية، وأن قوماً آخرين مازالوا متوقدين على حين أصبحنا نحن خاملين في ثقافتنا».

ويقول كويستلر: إن اللجنة المركزية للحزب البولشفي كانت تضم ألمع مفكري أوروبا، وعلينا أن نتذكر أن المرحلة الاولى من ثورة اكتوبر قد أنتجت أعظم منجزات السينما والمسرح في وسط ظروف اقتصادية واجتماعية بالغة الصعوبة، ولهذا أصبحت روسيا

المتخلفة، الجائعة، المطحونة، بالحروب الاهلية والغزو الاجنبي مركز عقل العالم وروحه.

ان فرصة مشابهة قد أتيحت للثورة الفلسطينية ولكن ماذا كانت النتيجة أننا نجد بديلا من لينين وتروتسكي وستالين وبوخارين وزينوفيف وايزنشتاين وستانسلافسكي وشولوخوف ومايا كوفسكي.. نجد عرفات وأبو مازن وخالد الحسن وأحمد عبد الرحمن وغانم زريقات وأحمد دحبور وحكم بلعاوي وأبو الزعيم وأبو الهلال وآخرون يبلغ من تفاهتهم أنه يستحيل ذكر أسماءهم.

لقد كانت الثورة الفلسطينية مرشحة لان تستقبل ألمع العقول العربية والعالمية، ولكنها، كما أشرنا أبعدت المثقفين عنها ودمجت في داخلها أشباه المثقفين بعد أن أوقفت نموهم العقلي والروحي.

هذا ماحدث بالفعل لهؤلاء الشبان، أن ظرفاً من الاشتعال والتوهج الروحيين والعقليين اللذين قد جعلهم على امكانية نادرة: ان تعاد صياغتهم ليصبحوا مثقفين ثوريين، لان يعيدوا صياغة العالم من حولهم وهم يعيدون بناء أنفسهم، وهذا يعني أن تذوب تلك النواة الصلبة من القيم والمفاهيم التي تشكل المعطيات الاساسية للتكوين الروحي للبورجوازي الريفي الصغير، ويولد المثقف الثوري، ولا يستبعد بعد ذلك ان نقيم مقارنة بين مفكري م.ت.ف. ومفكري ثورة اكتوبر، ومقارنة أخرى بين سينمائيين وأدباء وشعراء الثورتين، بدلا من أن نواجه هذه المقارنة الخرافية بين «الوجدانيات» الفلسطينية والمدرعة للكومبرادور الفلسطيني، وللرجعية العربية، كما قدمت هذه القيادة ثرثرة غوغائية تخفي بها مشروع الكومبرادور الفلسطيني، وهو أن تتحول الثورة الفلسطينية الى مجموعة ضغط اقتصادي داخل الولايات المتحدة تنافس المؤسسة الصهيونية، ثم نقيم كما اتضح الآن تنسيقاً معها، وكما سنشرح بعد قليل.

هذا ماواجه هؤلاء الشباب المشروع ومن خلال القمع والافساد بالمال وعبر دروشات مثقفين عرب تم انحرافهم بمال م.ت.ف. تقزيم هؤلاء الشبان وتبليعهم حتى تحولوا الى مجرد أدوات اعلامية تافهة، ومن خلال القمع والافساد تحت مصادرة الامكانيات الثورية داخلهم وجرى تثبيت نمط البوجوازي الريفي الصغير، فاتحة أمامه سبل الانخراط في سياق المجتمع الاستهلاكي.

عبر هذا التدجين أصبح شبه المثقف الفلسطيني مثقفاً عضوياً للكومبرادور الفلسطيني، والان تضيق الحلقة حول مثقفي م.ت.ف ويصبح اقصى طموح قيادته، وطموحه بالتالي، أن يؤكد لقادة «اسرائيل» حسن نيته ورغبته في التحالف معهم وسنورد هنا جزءاً من تصريحات بسام أبو شريف والتي تعبر عن رأي عرفات، كما يقول والتي أطلق عليها زميلي وصديقي عبد اللطيف منها اسم «وعد بلفور جديد» فانك ستجد بأن الفلسطينيين هم على اتفاق تام حول الاهداف والوسائل وان هدف اسرائيل هو السلام والامن الثابتين

كذلك فان السلام والامن الثابتين هما هدف الشعب اليهودي أما الشعب الفلسطيني فيستحق الظلم وحرمان الحقوق وسوء المعاملة، وهي الامور التي تدفع به حتماً الى اليأس».

ثم يعلن حق «اسرائيل» في الوجود، ويتوقع من «الشعوب المجاورة» نوعاً من التعاون السياسي.

الى الامام ٢٩/١٢/١٩٨٩
١٩٩٠/١/٤

وداعاً
غالب هلسا

برحيل الكاتب التقدمي البارز غالب هلسا فقدنا، نحن الشيوعيين العراقيين، والحركة السياسية والثقافية العربية صديقاً ومبدعاً توزعت حياته وابداعاته على الساحات العربية الساخنة. لقد عاش غالب هلسا حياة سياسية غنية ومعطاءة. ففي كل منفى انتقل اليه، بعد ان غادر بلده الأردن، لم يكتف بدور الضيف أو المتفرج، انما شارك في الاحداث وتسجيلها قريباً من الحركة السياسية ومن قلبها التقدمي، فعالاً بين المثقفين الذين ربطوا ابداعهم بمصائر شعوبهم، ولذلك كان بالنسبة للحكومات المستبدة زائراً ثقيلاً ومشبوهاً يمسه دائماً مايمس الحركة التقدمية في ذلك البلد.

لقد عاش حياة سياسية غنية في الحركة الوطنية الاردنية، وعندما انتقل الى لبنان للالتحاق بالجامعة الامريكية نشط في الحركة الطلابية وكان صديقاً للشيوعيين. ثم انتقل الى بغداد وأصبح عضواً في حزبنا الشيوعي العراقي في سنوات الغليان ١٩٥١ ـ ١٩٥٣ في التنظيم الطلابي، وطورد وغادر العراق مع الهجمة التي أعقبت انتفاضة تشرين الثاني ١٩٥٢/.

وشارك بنشاط الحركة الثورية المصرية، وفي الحركة الثقافية المجددة حتى اعتقل في عهد السادات في السبعينات ونفي الى العراق فأسهم بحيوية في صحافة حزبنا العلنية (طريق الشعب والثقافة الجديدة والفكر الجديد)، ثم غادر العراق بعيد الهجمة على حزبنا والحركة الوطنية في أواخر السبعينات.

وشارك مع الحركة الوطنية اللبنانية والمقاومة الفلسطينية في الدفاع عن بيروت عام ١٩٨٢ مع المقاومين.

لقد عاش غالب هلسا دائماً حياته كمناضل ومبدع، في حركة التحرر الوطني العربية، من موقع المشاركة او الاختلاف، دون أن يفارق مسؤوليته، وكانت كتاباته،

أخطأت أم أصابت، موضع جدل، فقد كان تحريك الذهن والحوار الديمقراطي، وروح استفزاز السجال هاجساً من هواجسه. وكانت رواياته الرائعة من (الضحك) حتى (الروائيون) تسجيلاً حياً لرؤيته للحركة الثورية العربية. لقد عاش هذا الكاتب رواياته بإحساس المشارك وبفضول الكاتب للحياة. قد نختلف معه كثيراً أو قليلاً وقد نخالفه، ولكن لن ننسى أبداً هذا الرجل المناضل المبدع، الذي كان معنا في أصعب الفترات، مدفوعاً بهاجس ديمقراطي أصيل واحساس عميق بالعدالة.

واذ نعزي عائلة الفقيد، وبيته الكبير الاردن، نعزي أصدقاءه وقراءه بفقده في هذه الظروف التي تشتد فيها حاجة شعوبنا الى كل قلم ديمقراطي ملتزم أصيل.

وسنتذكر كشيوعيين عراقيين رفيقاً وكاتباً وصديقاً وديمقراطياً شجاعاً.

المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي العراقي
١٩٨٩/١٢/٢٦

طريق الشعب ـ كانون الاول /١٩٨٩/

رحيل الكاتب والروائي والمناضل غالب هلسا

نعت اللجنة المركزية لحركة فتح «الانتفاضة» والاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين «لجنة العمل النقابية»، الكاتب والروائي العربي البارز غالب هلسا، الذي توفي اثر نوبة قلبية حادة يوم الاثنين ١٨ كانون أول ١٩٨٩، وصبيحة الثلاثاء ١٢/١٩، شيعت جثمان الاديب الراحل، حشود من المودعين التي أوصلته الى حدود الاردن، حيث سيتم دفنه في قرية معين قرب مأدبا مسقط رأسه. وكان على رأس المشيعين الاخ أبو موسى أمين سر اللجنة المركزية لحركة فتح وأعضاء اللجنة المركزية وعدد كبير من كوادر ومناضلي الحركة والعديد من ممثلي الفصائل الفلسطينية وحركات التحرر العربية والصديقة، وحشد من الكتاب والمثقفين العرب المتواجدين على الساحة السورية، وجمهور من المناضلين والمقاتلين الذين عرفوا الشهيد الراحل عبر مرحلة أو أكثر من مراحل حياته الحافلة بالعطاء.

وقد شارك في التشييع وفد من قيادة حزبنا برئاسة الرفيق ابو القاسم عضو المكتب السياسي، وضم وفد المعزين الى مقر الدائرة السياسية لحركة فتح، عدد من أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية لحزبنا.

ولد المناضل والاديب الراحل غالب هلسا في مأدبا ـ الاردن عام ١٩٣٢، وبدأ حياته السياسية في سن مبكرة، ملتحقاً بصفوف الحزب الشيوعي الاردني منذ عام ١٩٥١، حيث ظل منذ ذلك التاريخ، متمسكاً بالفكر التقدمي الديمقراطي، مخلصاً لهذا الفكر، لا يساوم عليه حتى وافته المنية، من حياة المنفى والتشرد، الذي ظل يعيشها منذ عام ١٩٥٤، حين غادر الاردن هرباً من وجه المخابرات التي جدَّت في البحث عنه بعد مشاركته في قيادة مظاهرة في عمان لدعم ثورة الجزائر. نظمها الحزب الشيوعي.

وفي تلك الفترة وبعد مروره ببغداد، عاش في مصر، حيث أصبح خلال أكثر من عقدين من الزمن، أحد أبرز الكتاب والمثقفين فيها، مسهماً بدفع الحياة الفكرية والادبية والديمقراطية الى الامام في عاصمة الثقافة العربية في تلك الفترة، منخرطاً في النشاط الثقافي الملتصق بالجماهير، والمندمج بحركتها النضالية.

وقد جرى ابعاده عن القاهرة بعد تعرضه للسجن عام ١٩٧٧، اثر مشاركته في اعمال الاحتجاج على زيارة السادات للكيان الصهيوني، فاستقر في بغداد بعض عام، غادرها بعد ذلك الى بيروت بحثاً عن اجواء الحرية، مخلفاً «غاشية الظلام وراءه» التي جلل بها نظام صدام سماء وارض العراق الشقيق عبر ملاحقته لكل الديمقراطيين العراقيين.

وفي بيروت ظل الاديب الراحل مخلصاً لمبادئه، فلم يبع قلمه رغم كل الاغراءات التي يمكن ان توفرها لامثاله القيادة المتنفذة الفلسطينية، وخلال الاجتياح الصهيوني للبنان، واثناء حصار بيروت، كان من بين الكتاب الاكثر التصاقاً بالمقاتلين المدافعين عن بيروت المحاصرة، بل كان يقضي وقته بين هؤلاء الابطال من ابناء الشعبين الفلسطينين واللبناني ومن الجنود السوريين، فيحاورهم ويكتب عنهم ويستقي من وهج أحاديثهم روحاً عربية جديدة تولد في أتون الصراع الضاري مع تتار هذا العصر.

ونقول هذا عن الاديب الراحل، لا من قبيل المبالغة التي قد تفرضها هذه اللحظات، بل هي شهادة ربما يتفق الكثيرون معنا على صدقها وموضوعيتها، ممن عاشوا ايام الحصار، والتقوا الراحل في اكثر من موقع من المواقع المتقدمة، معرباً عن قدرة يتميز بها، على التفاعل مع البسطاء من ابناء امتنا من صانعي المستقبل الافضل لهذه الامة.

ولم يكن من قبيل الصدفة، ان يتوجه الاديب الراحل الى اليمن الديمقراطية عقب الخروج من بيروت، مؤكداً من خلال ذلك هواه السياسي التقدمي، ثم يعود بعد ذلك الى دمشق، متعاكساً مع حركة القيادة المتنفذة الفلسطينية، التي قررت منذ كانت في بيروت المحاصرة، الابتعاد عن دمشق، والاقتراب من كل العواصم العربية والعالمية التي لها خطوط رطبة مع واشنطن.

جريدة المقاومة الشعبية

العدد ١٧٠ كانون اول ١٩٨٩

وداع الحمام يا هلسا..

● أحمد عادل أحمد

ـ ١ ـ

ليس غريباً أن يموت غالب وحيداً فيوضع في برادِ الموتى دون أن يعرف أحدٌ من المقربين اليه، بهذا الموت المفاجىء الذي دام بين الوقت والآخر، يهجم على جبهة ثقافتنا العربية فيكسر عموداً من أعمدتها أو يكسر قلماً بارعاً من اقلامها ولا يترك لنا إلا المراثي وكلماتِ الحداد.

قبل اعوامٍ نحيلةٍ جداً. رحل عنا أمل دنقل رحيلاً مزخرفاً بأنين الليل الطويل وبدمار جسم أدى بزائره إلى البحث عنه وهو ممددٌ أمامه في غرفة العلاجِ الأخيرة وكأن الزائر لا يرى ذلك الشاعر العملاق صاحب الصوت المدوي كطلقة الأعياد والرجل الذي خلف وراءه «زرقاء اليمامة» و«الوصايا» العشر وقصائد أخرى لم تزل تطلق رصاصاً بوجه اعدائنا. وتمنحنا أجمل الأنغام وأروع الإيقاع والصور.

وجاء الحصار البيروتي الكبير ليختطف شاعراً على الرصيف يقاتل. وشاعراً مازال يحلم. وشاعراً كبيراً كخليل حاوي الذي ماكان يكتفي بصرخة الصوت على أعدائه. ولا يقبل بكلمة الاحتجاج على ابناء قومه. ولا يستطيع أن يسكت سكوتاً محايداً أو يصرخ صراخاً شعرياً بهذا الشكل أو ذاك.

وأخيراً كان يجدُ في الانتحار أفضل وسيلة للاحتجاج على صمتٍ عربيٍ مخيفٍ في زمنٍ قابل للدمار الشامل أو الهزيمة التي لايمكن أن تعوض!

وفوق هذا كُله، لايتركنا الأعداء من أبناء قومنا أن نحاسب موتنا الطبيعي أو الجبري ونقاتله. فقد كانوا هم الآخرون، يشهرون بوجهنا أمضى السلاح. فيصوبونه نحو أدمغتنا الكبرى وتخرّ العقول الناضجة صرعى على رصيف الموت، ولا نستطيع بأي شكلٍ من الأشكال أن نعوض خسارة صرح شامخ يتمثل بحسين مروة أو مهدي عامل أو مايشبه العملاقين بالنظر البعيد أو التفكير العميق.

وحين نعود إلى ماوراء البحار. ونحلق في سماوات الآخرين بهيئة الأحياء، نجد هناك العديد من الأدباء العظام قد ماتوا كما مات غالب وربما تتسع الفواصل بين هذا وذاك. حيث ان تولستوي العظيم. وذاك الكاتب العملاق. والرجل المنتمي إلى طبقة الارستقراطيين الروس كان قد مات في بيت رجل يرأس محطة قطار وقد شاء القدر أن تخرج جنازة الانسان التاريخي من بيت ليس بيته مما يجعل ذلك مختلفاً مع التقليد الاجتماعي في

الموت والحياة للانسان المهم كليف تولستوي وكآبة شخصية إنسانية أخرى.

وان انطون تشيخوف الذي ترك للبشرية تراثاً أدبياً كبيراً لم تشيع جنازته بموسيقى الوداع الحزينة. ولم تنكس الاعلام لموته. . ولم تهتف الملايين وراء تابوته. ولم يحظ بموكبٍ رسمي كالموكب المحيط بجنازة الضابط التي شاءت الصدفة أن تنزل مع جنازة الكاتب الكبير من قطار واحد فتراءى للبعض أن الموكب الرسمي يشيع كاتبهم ولكنهم في نهاية الامر اكتشفوا أن الموكب يتعلق بجنازة أخرى ولا بجنازة فقيدهم.

وماذا نقول عن بدر شاكر السياب؟!. . هذا الرائد الكبير. صاحب الروائع الخالدة. والانسان الذي شمخ بأدبه نحو الحداثة ذات الاصالة والتجديد العميقين. والشاعر الاسطوري الذي تعامل مع الاسطورة بشكلها اللائق فجعلها تأخذ مجدها المناسب في البلاد العربية وكأنها لا تكتب في بلاد الاغريق أو الصين أو بلاد أخرى.

وفي نهاية الامر مات السياب في المشفى الاميري بالكويت ولا يوجد أحدٌ معه سوى صديق واحد أو بعض الاصدقاء وكانت النتيجة أن ترسل جنازته الى البصرة بسيارة صغيرة فتستقبل البصرة شاعرها بمساء موحش حزين وبصمت يطبق الشفتين على ساحة «أم البروم»* وشط العرب ونخيل مازال يردد رائعته الخالدة:

عيناك غابتا نخيلٍ ساعةَ السَحَرْ*
أو شرفتان راح ينأى عنهما القمرْ
عيناكِ حين تبسمانِ تورق الكرومْ
وترقص الاضواء. . كالاقمار في نهَرْ
يرجه المجذاف وهناً ساعة السَحر
كأنما تنبض في غوريهما، النجومْ

ولموت الادباء، منذ زمن طويل قصص لا تعد ولا تحصى. فهم الذين شهدت حياتهم أهم المأساة الانسانية ولكنهم بالرغم من ذلك ثابروا على مواصلة العطاء فأعطوا أجمل وأروع ما كان يجب أن يعطى. ولكن الذي يحزن القلب أن العديد من الادباء العظام، أصحاب العطاءات الخالدة لم يأخذوا الحق المناسب في حياتهم. ولم يأخذوا الحق البسيط في مماتهم. وهكذا مات غالب هلسا في المشفى الاسدي بدمشق!. مات وحيداً دون أن يعرف بموته أحد من أصدقائه سوى أشخاص معروفين علم البعض منهم بعد ساعتين. والاخر بعد خمس أو ست ساعات. وكأن غالب ليس ذلك الانسان الكبير. صاحب الهم الانساني الخالد والمكان المملوء بالشخصيات التاريخية من الاموات والاحياء.

أجل يا غالب!.

ورغم هذا كله نم قرير العين وحاول أن لا تحزن كثيراً. فانك «يا صاح» لست الوحيد الذي يموت وحيداً. فهناك من سبقك بهذا الشكل الانيق. وهناك من مات على

شاكلة المسيح أو موت علي أو انتحار اتيلا المجري* وهو لم يزل في عز العطاء.

وانك الان بعد أن مت وحيداً زففت زفة العشاق الجميلين وكأنك عريس بدو بايام الربيع المزدهرة. فقد كان أهلك هناك. وأصحابك هنا. وبقيت رواياتك تجمل واجهات المكتبات. وظلت بحوثك ومقالاتك تملأ الصحف والمجلات وبقيت صورك معلقة على جدران كل قلب يحب الادب ويحترم الانسان.

- ٢ -

الخبر المفاجيء

كان بازوليني* من حقه أن يحتل المرتبة المتقدمة في اطار اهتماماتي الثقافية والفنية الامر الذي جعلني أصر على حضور أفلامه التي بدأ عرضها في النادي السينمائي يوم الاحد الماضي بفيلمه الشهير «حظيرة الخنازير».

واليوم الثلاثاء الذي يجب أن يعرض فيه فيلمه الثالث «ميديا» كنت قد بدأتُ نهاري بشراء اسطورة أوديب ملكاً الصادرة عن وزارة الثقافة تواً فتوجهت الى المكتبة وواصلت مطالعاتي للفلسفة اليونانية القديمة وعلى وجه التحديد ماتبقى من الكتاب المتعلق بحياة سقراط وافكاره. وبعد أن شعرت بالملل من القراءة غادرت المكتبة عند الثالثة تماماً فعدت الى غرفتي في حي المهاجرين وبعد أن تناولت الغداء في داخلها وشربت الشاي وارتحت قليلا، تأهبت للذهاب الى النادي السينمائي كي أشاهد الفيلم المقرر عرضه ولكنني عند وصولي هناك فوجئت ببرنامج العرض قد تغير بسبب عدم حصول النادي على الفيلم المطلوب ولذلك تقرر عرض أوديب ملكا بدلا عن ميديا ولان اسطورة أوديب من الاساطير التي لها الاثر الكبير في نفسي قررت أن أشاهد الفيلم بالرغم من أنني سبق وأن شاهدته لذلك توجهت الى الموظفة السمراء المسؤولة عن بيع التذاكر فسلمتها سعر البطاقة ودخلت الى قاعة العرض برغبة شديدة وعند عثوري على كرسي فارغ في الصف الثالث جلست عليه فاخذت أستعيد مشاهد الفيلم من خلال الذاكرة وبعد أن سرحت مع أوديب في طفولته المأساوية فصباه القدري وشبابه المملوء بالتمرد والفجائع، طرقت سمعي كلمة ثاقبة ما كنت أصدقها:

- غالب هلسا مات!.

وبشكل مقتضب التفت الى الشاب الجالس على يميني والذي كان قد كلم الشخص الذي يجلس خلفه بشكل مباشر، فسألته:

- أمعقول ذلك!!.

أجابني:

ـ نعم مات بالفعل صباح الامس أصيب بنوبة قلبية. وأضاف: وكتبت عنه الصحف اليومية فناولني الجريدة التي كانت بيده وقال لي: الخبر منشور على الصفحة الاخيرة.

أخذت الجريدة من يده ونشرتها أمام عيني واذا بالصفحة الاخيرة تحمل صورة غالب وقد كتب فوقها: رحيل كاتب! فحبست دمعتين في عيني وأخذت أقرأ النص الكامل:

توفي في دمشق عن عمر يناهز الستين عاماً في الساعة الحادية عشرة والنصف من ظهر أمس الاثنين الكاتب العربي المعروف غالب هلسا اثر نوبة قلبية حادة أدخلته المشفى منذ أربعة أيام.

للكاتب هلسا العديد من الروايات أهمها «الضحك» و «السؤال» و «الخماسين» و «سلطانه» و «ثلاثة وجوه لبغداد» و «الروائيون» كما ترجم العديد من الكتب والدراسات منها «جماليات المكان والزمان» لغاستون باشلار.

وكان هم الاديب الراحل في مجمل رواياته هو الهم الديمقراطي.

ولد الفقيد في محافظة الكرك في الاردن وعاش جلّ حياته في مصر حيث عايش وعاصر الكثير من الكتاب ثم انتقل الى بغداد فبيروت فدمشق.

عرف الاديب الفقيد هلسا بنشاطه ومشاربته واسهاماته الخلاقة في الندوات والفعاليات الثقافية وله موقف متميز من التسوية الاستسلامية التي تروج في المنطقة سجله في العديد من مقالاته كما له اطروحات هامة حول المثقف والثورة.

وبعد أن أيقنت أن غالباً بالفعل قد مات. طويت الجريدة فاعدتها الى صاحبها وأخذت أتخيل غالباً كيف كنت التقيه في الاعلام الفلسطيني الموحد وكيف سلمت عليه في مقهى الهافانا وشارع الصالحية. وكيف كنت أقرأ مقالاته السياسية والثقافية في الصحف. وكيف قرأت رواية ثلاثة وجوه لبغداد. ومجموعته القصصية «زنوج وبدو وفلاحون». وبعد أن امتد أمامي شريط طويل من صور غالب ونتاجاته التفت الى الشاب الذي ناولني الجريدة وسألته مرة أخرى:

ـ يا ترى هل دفنوه أم انه مازال في براد المشفى؟!.

أجابني:

ـ المهم! انه مات واذا لم يدفن اليوم فلابد وأن يدفن غداً!!!

ـ ٣ ـ
التشييع اللائق

بعد وفاة غالب هلسا بثلاثة أيام فقط. وبينما كنت مشغول النفس بحزنه حاولت مساء الاربعاء أن أتخلص من هذا الاحساس بتغيير المكان والزمان ولذلك ذهبت لصديق

رحب الصدر وطلبت اليه أن يرافقني الى نادي «الرواق» لقضاء بعض الوقت في هذا المكان الذي لا يخلو من الكتاب والصحفيين والرسامين وأصحاب المواهب الاخرى.

وكان صديقي كعادته المألوفة لا يمانعني في أي طلب ولذلك ارتدى ملابسه فخرجنا من غرفته المتواضعة مخترقين حي المهاجرين مشياً على الاقدام زقاقاً بعد زقاق وكانت أغلبية أحاديثنا تدور حول الحياة والموت ولا يتغيب عن طياتها ذكر الاديب الراحل وبعد أن حطت بنا الاقدام على عتبة باب الرواق سألني صديقي:

ـ أتحب الجلوس في المكان الداخلي أم الخارجي!.

أجبته:

ـ المكان الدافيء أرحب من أي مكان في فصل الشتاء.

ودخلنا القاعة الشتائية فوجدناها تعج بالرواد. وكانت الطاولة الاولى الواقعة على مقربة من الباب يجلس حولها بعض الاصدقاء فدعونا أن نجالسهم وجلسنا.

المهم!. بدأنا الحديث بالمسائل الثقافية والادبية فجرنا الى فقدان هلسا وأخذ الصديق الذي شارك في تشييع جثمانه، يحدثنا عن الموكب المهيب الذي انطلق بجنازته من مشفى الاسدي بدمشق الى الحدود السورية الاردنية.

وبينما كنا منهمكين بهذا الحديث جاء شخص في الخمسين من العمر فسلم على صديق يعرفه وقبل أن يجلس معنا قال له الصديق الذي تحدث عن التشييع:

ـ غداً آخر يوم للعزاء. حاول أن تذهب هناك مساءً.

سأله الشخص بدهشة:

ـ عزاء من يا محمد؟!.

أجابه صديقنا بتعجب:

ـ أما تدري يا أستاذ، أن غالب هلسا قد مات!.

ـ غالب هلسا، مات!!!.

ـ أجل مات منذ ثلاثة أيام ودفن في الاردن. وكتبت عنه الصحف وأعلنت عنه الاذاعات ورغم هذا كله وأنت لا تدري!.

ودون أن يجيب الرجل بقي صامتاً وواضعاً يده اليمنى على قلبه وينظر الينا بدهشة وكأنه يريد أن يقول لنا: أتحكون بجد أم أنكم تمزحون معي بمزحة ثقيلة لا أستطيع تحملها!.

ـ ٤ ـ
الشعراء وهلسا

كنت قد شعرت بتعب من القراءة، وكانت الكتابة هي الاخرى تشهر بوجهي سيف

المشاكسة وتبتعد لذلك أطبقت «مدينة افلاطون الفاضلة» ونهضت من مقعدي متعباً فاتجهت الى موظف القاعة وأخذت بطاقتي فخرجت دون التفكير بالعودة الى المكتبة مساء اليوم.

وقبل أن أخرج من باب المكتبة الرئيسي لمحت الصديقة الجميلة قد رمقتني بنظراتها الجذابة فابتسمت بوجهي بابتسامة تشبه لجة بحر في غمر اندفاعها. . اقتربت منها قليلاً. سلمت عليها بهدوء. . ردت على السلام بوقار. سألتني عن تطوراتي الاخيرة. أجبتها بأنني على أحسن ما يرام. أيدت ذلك باقتضاب. أوضحت لها أسباب الفرح كالآتي: ان الرجل، «والمقصود بذلك أنا» بدأ يتجه اتجاهاً جديداً في الحياة. فهو ما أن يتناول طعام الفطور حتى ينزل الى ارتياد الكنائس. يتأمل المسيح المصلوب، يقف أمام العذراء بخشوع. ينظر الى الايقونات ببطء. وحين يبدأ الناقوس يداعب أجراس أذنيه يشعر بنشوة حب الى الحياة. فيعود الى غرفته ويضع كأس النبيذ أمامه. وبعد أن يستمع الى فيروز وموسيقى بتهوفن يبدأ الكتابة عن كل شيء. الموت. الحياة. الحزن. الفرح. الحب. الحقد. الدين. السياسة. الفلسفة. التاريخ. وثم يختم كل شيء برقصة صاخبة تشبه رقصة «الكسيس زوربا»*.

وحين توقفت عن الكلام، سألتني الصديقة:

- وماذا بعد!

- أشياء كثيرة لا أستطيع التعبير عنها بهذه اللحظة لانه ينبغي علي أن أذهب. وفي طريقي الى الباب الاخير لمحت الشاعر عدنان القرجولي يتأمل شجرة ذات عناقيد حمراء فعرجت عليه وهمست بأذنيه:

- الشعراء يحبون التأمل. أليس كذلك؟.

التفت نحوي مبتسما وقال:

- انها جميلة

قلت له:

- وأنت جميل أيضاً.

وتصافحنا. ودخلنا بحديث عن الشجر والمطر. وعرجنا على الشعر قليلاً. وسألني عن الرواق وأجبته. وحين قلت له:

- من المؤكد قد سمعت بوفاة غالب هلسا؟.

سكت واشتبكت كفاه ببعضهما وظل ينظر الى وجهي بصمت وبعد برهة صمت حزين قال:

- يا ليتني لم أعرف بذلك. فانه للان يرافقني في كل مكان وزمان. فاذا جلست يجلس معي. واذا مشيت يمشي معي. واذا نمت يوقظني وأحزن!.

وقال:

- في اليوم الذي مات فيه أخبرني أحد الاصدقاء في نهاية الدوام فذهبت الى المشفى بحالة يرثى لها. وعند وصولي هناك أرسل الطبيب المناوب أحد الممرضين معي فأخذني الممرض الى براد الموتى فوجدت غالباً ينام في البراد وحده بينما كان الناس يتناولون طعام الغداء ويشربون الشاي ويتحدثون ويضحكون وكأن الرجل عبارة عن بضاعة نقلت من مكان الى مكان آخر كي تحفظ فقط!.

وافترقنا. وظل غالب يرافق كل واحد منا. وظلت الشجرة ذات العناقيد الحمراء تتألق وتزهو في نفس المكان.

---

* - أم البروم: ساحة تقع في منطقة العشار بمدينة البصرة.

* - المقطع الشعري مأخوذ من قصيدة السياب المعروفة بانشودة المطر وهو مطلع القصيدة المذكورة.

* - شاعر مجري مات منتحراً تحت عجلات القطار وذلك في بداية العقد الرابع من قرننا الحالي.

* - المخرج السينمائي الايطالي المعروف الذي أخرج الافلام المذكورة هنا.

* - زوربا: بطل رواية نيكوس كازنتزاكي الشهيرة والمعروفة باسم بطلها: «زوربا».

تراث

مدن فلسطين في تراث الأقدمين «٣»

خير الله سعيد*

بيت المقدس:

لم يذكر الرواة والأخباريون والرحالة والجغرافيون العرب والمسلمون كيف جاءت تسمية «بيت المقدس» والظاهر، أن المؤرخين الإسلاميين يضفون شيئاً من الإسقاط الديني على التسمية، كانعكاس ايديولوجي. تأطروا في منهجه، سوى أن ياقوت الحموي يذكر سبب تسمية «إيلياء» وهو الاسم التاريخي، الموغل في القدم لبيت المقدس، بهذا النعت (بيت المقدس) بناءً على ماقاله «أبو علي» أحد رواته، قال: وقد سُميَّ البيت المقدس إيلياء بقول الفرزدق:

«وبيتان بيت الله نحن ولاته
وقَصرٌ بأعلى إيلياء مُشرَّف(١)

إلاّ أن الأشهر والأقدم، هو «إيلياء» وسميت المدينة بهذا الاسم، نسبة الى بانيها إيلياء بن إرم بن سام بن نوح ـ ع ـ ووفق ميثولوجيا العرب أن إيلياء هو أخو دمشق وحمص وأردن وفلسطين(٢).

وعلى هذا يمكن القول، أن الرواة المسلمين عزوا التسمية الى مبعث ديني، نظراً لكون المدينة حافلة

* باحث في التاريخ والفولكلور من القطر العراقي.

بقبور الانبياء والاولياء، وشهدت ولادة بعضهم كعيسى بن مريم ـ ع ـ يقول عبد الله بن عباس: البيت بنته الأنبياء، وسكنته الأنبياء وما فيه موضع شبر إلاّ وصلى فيه نبي، أو أقام فيه ملك(٣).

وبيت المقدس، هي التسمية الشائعة والمتداولة في كتب التراث الإسلامي، وكذلك عند المسلمين في أرض الإسلام، إلاّ أن أهل الشام، يسمونها «القُدس»(٤) والتسمية المعاصرة الآن هي ـ القدس ـ من الناحية الأدارية والسياسية والجغرافية. وبيت المقدس، مدينة تاريخية، كانت محل الأنبياء، وقبلة الشرايط ومهبط الوحي، بناها داود، وأكمل بناءها سليمان ـ ع ـ تشير المصادر الإسلامية، وفق رواية أبيٍّ بن كعب، أن الله أوحى الى داود: ابن لي بيتاً. فقال: يارَبُّ أين؟ قال: حيث ترى الملك شاهراً سيفه! فرأى داود ملكاً على الصخرة بيده سيف، فبنى هناك(٥).

هناك رواية إسطورية أخرى عن بناء بيت المقدس، ينقلها القاضي أبو اليمن مجير الدين الحنبلي(٦): مفادها أن النبي سليمان بن داود بعد أن أوحي إليه ببناء بيت المقدس جمع حكماء الإنس والجان وعفاريت الأرض وعظماء الشياطين، وجعل منهم فريقا يبنون، وفريقاً يقطعون الصخور والعَمَد والرخام، وأخذ في بناء بيت المقدس، وأمر ببناء المدينة بالرخام والصفاح، وجعلها اثني عشر ربضاً وأنزل كل ربضٍ منه سبطاً من الأسباط، وكانوا اثنى عشر سبطاً فلما فرغ من بناء المدنية، ابتدأ في بناء المسجد، وقد استخدم النبي سليمان خاتمه في ترسيخ الحديد والنحاس، وكان خاتمه ـ وفق ما تشير إليه الرواية ـ أنه نزل عليه من السماء، وتلك دلالة على القدرة الخارقة في الخاتم، وهذا الأمر يعطينا فكرة هامة عن البدايات الاولى للطلاسم والسحر وتسخير القوى الخارقة، كإحدى مميزات الميثيولوجيا العربية أو ميثولوجيا الشرق بشكل خاص قيل إن عدد مَنْ عمل مع النبي سليمان في بناء بيت المقدس ثلاثون ألف رجل، وعشرة آلاف في قطع الخشب، وسبعون ألفاً في قطع الحجارة، وعدد الأمناء عليهم ثلثمائة غير المسخرين من الجن والشياطين. وتضفي تلك الأسطورة، بُعداً جماليّاً على قدرة بناء القبّة التي قام سليمان ببنائها، الأمر الذي يحدد أهمية الفُسيفساء في بناء القبب، من ناحية ومن ناحية أخرى، يحدد الدقة الهندسية ضمن البُعد الديني ـ الميثولوجي وهو أمر سارت عليه العمارة الاسلامية ـ فيما بعد.

تذكر الأسطورة، أنه لم يكن يومئذ في الأرض بيت أبهى ولا أنور من ذلك المسجد، كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر، وقد كانت صخرة بيت المقدس، أيام سليمان بن داود، ارتفاعها اثنتا عشرة ذراعاً ـ وكان الذراع وقتذاك ـ ذراعاً وشبراً وقبضة، وكان ارتفاع القبة، ثمانية عشر ميلاً، وفوق القبة غزال من ذهب بين عينه درة أو ياقوتة حمراء، تغزل /كما تقول الاسطورة/ نساء البلقاء على ضوئها بالليل، وهي فوق مرحلتين من القدس. ثم عمل خارج البيت سوراً محيطاً امتداده خمسمائة ذراع في خمسمائة ذراع، وتشير المصادر الى أن سليمان أقام في عمارة بيت المقدس سبع سنين وفرغ منه في أواخر سنة ست وأربعين وخمسمائة لوفاة موسى ـ ع ـ وكان من هبوط آدم الى ابتداء سليمان ببناء بيت المقدس أربعة آلاف وأربعمائة وأربع عشرة سنة، ويكون بين عمارة بيت المقدس والهجرة النبوية ألف وثمانمائة سنة وقُريب الستين(٧) ولما انتهت عمارة مسجد بيت المقدس شرع سليمان في بناء دار مملكته بالقدس الشريف واجتهد في عمارتها وتشييدها وفرغ منها في مدة ثلاث عشرة سنة، وانتهت عمارتها في السنة الرابعة والعشرين من مُلكه(٨).

الفتح الاسلامي لبيت المقدس:

تشير مصادر التاريخ العربي الإسلامي(٩): الى أن المسلمين فتحوا بيت المقدس سنة ١٥ هـ أيام خلافة عمر بن الخطاب /رض/ ، قيل وكان سبب فتحها أن عمر لما قدم «الجابية»(١٠) قال له رجل من اليهود: ياأمير المؤمنين، لاترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء» وعندنا، أن تطور العمليات الحربية في بلاد الشام، واندفاع المسلمين لفتح أراضيها، كان العامل السياسي الأول في ذلك، يصاحبه العامل الاقتصادي، حيث كان الفتح يعود عليهم بالغنائم.

والمهم في أمر الفتح، أن أهل إيلياء جاءوا عمر بن الخطاب وهو في الجابية، يستأمنونه فأمّنهم، وصالحوه على الجزية وفتحوها له، يقول الطبري: إن أهل إيلياء /انظر الى التسمية ـ إيلياء ـ دون أن يذكر بيت المقدس/ أعطوه واكتتبوا منه على إيلياء وحيزها، والرملة وحيّزها، فصارت فلسطين نصفين، نصف مع أهل إيلياء، ونصف مع أهل الرملة، وهم عشركُور(١١).

وقيل، كان سبب قدوم عمر الى الشام، أن أبا عبيدة حضر بيت المقدس، فطلب أهلها منه أن يصالحهم على صلح أهل مدن الشام، وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب، فكتب إليه بذلك، وأجابهم لما طلبوا.

وقد ضمن عمر بن الخطاب حقوق جميع أهل إيلياء «بيت المقدس» الدينية والسياسية، من دافع أخلاقي وديني، اقتضته الشريعة التي يطبقها عمر، إضافة الى الشعور العالي بالإنسانية، التي كان يتحلى بها عمر، فقد جاء بكتاب الصلح لأهل إيلياء: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ماأعطى عبدُ الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبريئها وسائر مُلّتها، أنه لاتُسكن كنائسهم ولاتُهدم، ولاينتقص منها ولامن حيّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولايكرهون على دينهم، ولايضار أحد منهم، ولايُسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوت(١٢)، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ماعلى أهل إيلياء، من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصُلُبهم فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصُلُبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع الى أهله فإنه لايؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم، وعلى مافي هذا الكتاب عهد الله وذمة رسول الله وذمة الخلفاء، وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب، وحضر سنة خمس عشرة(١٣).

يتوضح من هذا النص، عدة أمور، سياسية واجتماعية، وعقائدية، فقد تضمن النص حرية أهل إيلياء بالبقاء أو المغادرة، شريطة دفع الجزية وإخراج الروم واللصوت، مقابل أمنهم وأمن مساكنهم وحفظ

أموالهم وكنائسهم وعقيدتهم، وثمة أمر سياسي ـ ايديولوجي، أقره نص الكتاب هو عدم إسكان اليهود مع أهل إيلياء، وهذا الأمر، قد يكون اشترطهُ أهل إيلياء أنفسهم، على الخليفة عمر بن الخطاب، بغية تأمين حالتهم السياسية والاقتصادية والعقائدية بشكل مستقل، وبعيداً عن تأثيرات اليهود، فأجابهم الخليفة الى ذلك، وثبّت ذلك في وثيقة العهد، وهذا الأمر ـ بتقديرنا ـ هو واقع موضوعي، من الناحية السياسية، فمن سير الأحداث والحيثيّات التي أدّت الى الصلح، أن أهل إيلياء، هم الذين راحوا بأنفسهم الى الخليفة وطالبوا الصُلح، واشترطوا ذلك على يده شخصياً، وهو ماتم فعلاً، ومن الناحية العقائدية، فأن هؤلاء النصارى قد جنحوا الى السلام مع المسلمين، دون إراقة دماء، وهو مايمليه عليه مذهبهم، ولذلك سارعوا لعقد الصلح بمفردهم.

* وبيت المقدس، من أهم مدن فلسطين(١٤): اكتسبت أهمية دينية بعدما عرج النبي محمد /ص/ منها الى السماء، وجاء ذكرها في التنزيل بقوله تعالى ﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى﴾(١٥) والمسجد الاقصى بيت المقدس، وقد ورد ذكر ـ المسجد الاقصى، في الحديث الشريف أيضاً، قال النبي محمد /ص/ : «لاتُشد الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، والمسجد الأقصى، ومسجدي هذا»(١٦) ومن هنا تتضح الأهمية التقديسية ـ الدينية، عند المسلمين لبيت المقدس، كأحداث مرّت بتاريخهم الديني والسياسي.

ومن المعروف أن القدس هي القبلة الثانية لدى المسلمين، والأولى لدى النصارى، فقد كان يذهب الى القدس، في موسم الحج من لايستطيع الذهاب الى مكة من أهل ولايات الشام ـ كما يقول خسرو(١٧)، فيتوجهون الى الموقف ويضحّون هناك، كما يأتي لزيارة بيت المقدس من ديار الروم، كثير من النصارى واليهود لزيارة الكنيسة والكنيس.

تشير كتب الرحلات الى الاهمية الاقتصادية لأراضي بيت المقدس، فقد عُرف عن سوادها ورساتيقها «البساتين ـ ضياع» أنها جبلية، والزراعة فيها، وأشجارها من الزيتون والتين تنبت بغير ماء، كما إن أرض تلك البلاد حجرية، وشرب أهلها من ماء المطر، ليس فيها دار إلّا وفيها صهريج، قالوا عنها، انها متوسطة البرد، وقلما يقع بها ثلج، ولايُرى أحسن من بنيانها ولا أنظف ولا أنزه من مساجدها، قد جمع الله فيها فواكه الغور والسهل والجبل والأشياء المتضادة، كالاترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز، وخيراتها كثيرة ورخيصة، تكونت فيها عائلات تجارية، كبيرة، تُسوّق منتوجاتها الزراعية، الأمر الذي يشير الى البدايات الأولى لتمركز رأس مال تجاري، ـ زراعي، فقد كان أرباب تلك العائلات يملك الواحد منهم خمسين ألف مَنْ(١٨) من زيت الزيتون يحفظونها في الآبار والأحواض، ويصدرونها الى أطراف العالم، ويقال إنه لايحدث قحط في بلاد الشام(١٩).

بيت المقدس في رؤية الرحّالة:

كثيرون هم الرحالة المسلمون، الذي زاروا بيت المقدس، ووقفوا عندها مليّاً، وأقدم من زار بيت

المقدس الشاعر الفارسي المتفلسف ناصر خسرو، وكان شيعي الهوى، وفاطمي المنهج والمذهب. زارها في الخامس من رمضان سنة ٤٣٨ هـ / ١٦ مارس ١٠٤٧ م/ وقد سبق غيره من الرحالة والجغرافيين، العرب، والمسلمين، وسجل عنها، وصفاً دقيقاً من النواحي الجغرافية والسياسية والاقتصادية، والاجتماعية، وزودنا بمعلومات جغرافية دقيقة، تصح أن تكون مرجعاً تاريخياً وسياسياً، حتى اليوم، مع الفارق العصري الذي حدث الآن، ولكن تبقى صفحة التاريخ، هي الأثبت.

يقول خسرو عن بيت المقدس:[٢٠]:

هي مدينة مشيدة على قمة الجبل، ليس بها ماء غير الأمطار، ورساتيقها ذات عيون وأما المدينة فليس بها عين فإنها على رأس صخر. وهي مدينة كبيرة، كان بها، في ذلك الوقت، عشرون ألف رجل، وبها أسواق جميلة وأبنية عالية، وكل أرضها مُبلطة بالحجارة، وقد سووا الجهات الجبلية والمرتفعات وجعلوها مُسطحة، بحيث تُغسل الأرض كلها وتنظف حين تنزل الأمطار.

ويلتفت ناصر خسرو الى ميزة هامة للمدينة من الناحية العمرانية والحضارية، التي تسم المدينة، ألا وهي، وجود الصناعات والأسواق، يقول: وفي المدينة صُنّاع كثيرون، لكل جماعة منهم سوق خاصة «هنا حدد هذا الرحالة، معالم نقابية ـ مهنية، الى أهل الحرف، إضافة الى التحديد الفولكوري لكل صناعة من خلال سوقها المختص، ثم ينتقل ـ خسرو ـ لوصف بقية المدينة ومايدور في أذهان الناس، وفق الأساطير والمعتقدات لديهم، يقول: والجامع شرقي المدينة، وسورهُ هو سورها الشرقي، وبعد الجامع سهل كبير مستوٍ يسمى «الساهرة» يقال إنه سيكون ساحة القيامة والحشر، ولهذا يحضر إليه خلقٌ كثيرون من أطراف العالم ويقيمون به حتى يموتوا، فإذا جاء وعد الله كانوا بأرض الميعاد» وهذه الرواية لها صدى ديني عميق، عند أهل بيت المقدس عامة[٢١]. وعلى حافة هذا السهل قرافة عظيمة، ومقابر كثير من الصالحين، وبين الجامع وسهل الساهرة وادٍ عظيم الانخفاض كأنه خندق، وبه أبنية كثيرة على نسق أبنية الأقدمين.

ويستوقف الرحالة ركبهُ عند قُبّةٍ، تسترعي الانتباه، وتقود بالذهن الى العودة للتاريخ القديم، يقول: ورأيت قبةً من الحجر المنحوت مقامة على بيت لم أرَ أعجب منها، حتى إن الناظر إليها ليسأل نفسه، كيف رفعت في مكانها، ؟ ويقول العامة: إنها، بيت فرعون، واسم هذا الوادي «وادي جهنم» ولاتفوت هذا الرحالة الذكي، تسمية الوادي، فهو يريد معرفة البعد التاريخي، من جهة، ومن جهة أخرى، يكشف الأبعاد الدينية والميثيولوجية عند هؤلاء الناس الساكنين، ويدوّن ذلك، كشاهد تاريخي، يمكن العودة إليه، إذا اقتضت الضرورة، يقول: وقد سألت عمّن أطلق هذا اللقب عليه فقيل، إنه عمر ـ رض ـ أنزل جيشه، أيام خلافته، في سهل الساهرة هذا، فلما رأى الوادي قال: هذا وادي جهنم، ويقول العوام / انتبه الى كيفية أخذ الرواية من الشفاه. وتسجيلها على ألسنتهم/: إن من يذهب الى نهايته يسمع صياح أهل جهنّم، فإن الصدى يرتفع من هناك، وقد ذهبت فلم أسمع شيئاً»[٢٢]. والعبارة الأخيرة، أراد بها خسرو، فصل الحقيقة عن الخيال، ومن جهة ثانية، أراد أن يُثبّت ـ تاريخياً ـ مايعتقده الناس في موروثهم، وتناقله عبر الأجيال، في المنظور الميثيولوجي، وبغية إعطاء مميزات جغرافية ـ طبيعية لهذه المدينة، فإن خسرو، ينتبه الى ذلك بدقة، فيحدد المسافات بالفراسخ /وحدة قياس/ ويشير الى عيون الماء التي تنبع من الصخر مثل

«عين سلوان ويشير الى وجود مستشفى في بيت المقدس، تجري عليه الأوقاف الطائلة، ويصرف لمرضاه العديد من العلاج والدواء، وبه أطبّاء يأخذون مرتباتهم من الوقف، وهذا المستشفى، ومسجد الجمعة يقعان على حافة وادي جهنم[٢٣].

يصف المقدسي، مدينة بيت المقدس، في سياق حادثة طريفة، أقرب الى روح «التعصب الاقليمي» تظهر في الوهلة الأولى، إلّا أنه يثبت آراءه بمدينته (بيت المقدس) وهو إليها يُنسب، قال في حكايته[٢٤]:

سألني القاضي أبو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلت: سجسج[٢٥]: لاحرٌّ ولا برد شديد، قال هذه صفة الجنة، بنيانهم حجر لاتُرى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولاأعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها ولا أكبر من مسجدها ولا أكثر من مشاهدها، عنبها خطير، وليس لمعنقـتهـا نظير، وفيـها كل حاذق وطبيب، وإليهـا قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب» ويضيف المقدسي على هذا الحديث حديثاً آخر، يصب بنفس الاتجاه وكان فيه، في موضع آخر، يقول: كنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبي يحيى بن بهرام بالبصرة، فجرى ذكر مصر، الى أن سُئلت أيُّ بلدٍ أجلُّ، قلتُ: بلدنا. قيل: فأيها أطيب. قلت: بلدنا. قيل: فأيها أفضل. قلت: بلدنا. قيل: فأيها أحسن. قلت: بلدنا. قيل: فأيهـا أكثر خيرات. قلت: بلدنا. قيل: فأيها أكبر. قلت: بلدنا. فتعجب أهل المجلس من ذلـك، وقيل أنت رجـل مُحصِّل، وقد ادعيت مالا يقبل منك، وما مثلك إ، كصاحب الناقة مع الحجّاج. قلت: أمّا قولي أجلّ. فلأنها بلدة جمعت الدنيا والآخرة، فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الاخرة، وجدَ سوقها، ومن كان من أبناء الأخرة، فدعته نفسه الى نعمة الدنيا وجدها. وأمّا طيب الهواء، فإنه لاسمَّ لبردها ولا أذى لحرّها، وأمّا الحُسنَ فلا ترى أحسنَ من بنيانها ولا أنظف منها، ولا أنزه من مسجدها، وأما كثرة الخيرات، فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة كالأترج واللّوز والرطب والجوز، والتين والموز، وأمّا الفضل، فلأنها عَرصَةُ القيامة، ومنها المحشر، وإليها المنشر، وإنما فُضِّلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي /ص/ ويوم القيامة تزَفّان إليها، فتحوي الفضل كلّه، وأمّا الكبرُ، فالخلائق كلهم يحشرون إليها، فلا أرض أوسع منها. فاستحسنوا ذلك منه وأقرّوا به، إلّا أن لهم عيوباً عدة، يقال أن في التورية «التوراة» مكتوب بيت المقدس طشتُ ذهب مُلِءَ عقارب، ثم لاتُرى أقذر من حمّاماتها، ولا أثقل مؤنة، قليلة العُلماء، كثيرة النصارى، وفيهم جفاء على الرحبة، والفنادق ضرائب ثقال على ما يبا فيها رجّالة على الأبواب[٢٦] والمقدسي هنا، يُسلّم، ـ على مايبدو ـ لقول أهل المجلس، حيث إنهم يذكرون سجايا أهل بلدهِ، فينقلها بأمانة، وتلك مسألة تكشف مدى الموضوعية لديه.

وضمن هذا السياق، يكشف المقدسي، بعض خصائص المدينة التاريخية والجغرافية، فهي عنده، أصغر من مكة وأكبر من المدينة، عليها حصنٌ، بعضه على جبل، وعلى بقيته خندق، ولها ثمانية أبواب حديد، باب صهيون، باب التيه، باب البلاط، باب جُبّ أرميا، باب سلوان، باب أريحا، باب العمود، باب محراب داود، والماء بها واسع، ويقال ليس ببيت المقدس أمكن من الماء والآذان، وهنا يُبرز المقدسي، سِمة المدينـة الإسـلامية، فالماء للطهارة والوضوء، والآذان، تذكير المؤمنين والمسلمين بأوقات الصلاة والعبادة، وقد عُرف عن المدينة بأنه قلما تجد داراً ليس بها صهريج أو أكثر. ومن علامات المدينة البارزة

الأخرى بُرك المياه، ذات البُعد التاريخي ـ الأثري، فيها بُركة بني اسرائيل، وبركة سليمان، وبركة عيّاض، عليهـا حمّامـاتهم، لها دواعٍ من الأزقـة، وفي المسجـد عشرون جُبّـاً مشجـرة، وقيل حارة إلاّ وفيهـا جُبُّ مُسَبـل[٢٧]. وتلك عادة «عرف» إسلامية، تخلّق بها المسلمون، الأمر الذي يكشف التزام أهل المدينة بالأعراف الإسلامية، وإنعكاس الأثر الايديولوجي الأسلامي ، في ممارسة حياتهم اليومية، وغلبة طابعها الإسلامي على بقية المذاهب والأديان.

*** وصف المسجد الأقصى:**

ليس هناك من مؤرخٍ أو رحالة، أو مُحدِّث، أو مسافر، أو عابر سبيل، مَرَّ ببيت المقدس، ولم يتوقف عنـد مسجد المدينة، المعروف بالمسجد الأقصى، ذاك الذي ذكرته كل الكتب السماوية، والأديان التي وجدت لها مريدين في تلك الديار، وقد أشار القرآن في خطابه. في سورة ـ الاسراء ـ «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى»[٢٨] وبذا يكون هذا المسجد، قد اكتسب صفة تبجيل سماوية، وقد أشرنا الى حديث الرسول /ص/ بصدده.

ترجع أهميته التاريخية، إلى كونه (أولى القبلتين وثالث الحرمين) للمسلمين على الأخص، فقد توجه المسلمون نحوه في باديء أمرهم، أي في السنوات الأولى للدعوة في مكة. ثم عدل عنه الى البيت الحرام، بالآية: «قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلةً ترضاها فولِّ وجهكَ شطرَ المسجد الحرام وحيث ماكُنتم فولّوا وجوهكم شطره»[٢٩] ومنذ ذلك الوقت، يَمّمَ المسلمون وجوههم صوب المسجد الحرام.

تشير المصادر التاريخية ـ الإسلامية، الى أن النبي داود وضع الأساس للبناء، وأكمل ابنه سليمان بناء المسجد[٣٠] وكان وقتذاك على شكل معبد. يقع البناء على حافة وادي جهنم، يرتفع حائطه ـ بالنسبة للناظر من جهة الوادي ـ الى مائة ذراع من الحجر الكبير، الذي لايفصله عن بعضه ملاط أو جص، والحوائط داخـل المسجـد ذات ارتفـاع مستوٍ، تشير رواية ناصر خسرو إلى أن المسجد بُني في هذا المكان لوجود «الصخرة» به وهي الصخرة التي أمر الله موسى أن يتخذها قبلة، وبعد وفاة موسى، استمرت القبلة تلك الصخرة ذاتها، وبنى سليمان المسجد حولها، وظلت كذلك الى البعثة النبوية[٣١].

تشـترك أغلب المصادر الإسلامية في وصف المسجد وقياساته الهندسية وعمرانه، ولكننا سنعتمد الرواية الأقدم ـ سفرنامة ـ في ذلك، لأن هذا الرحالة، يميل الى الدقة والعمقُ التاريخي فيما يؤرخ يقول: وقد أردت أن أقيس هذا المسجد ولكني آثرت أن أتقن معرفة هيئته ووضعه أولاً ثم أقيسه. فلبثت فيه زمناً أمعن النظر، فرأيت عند الجانب الشمالي، بجوار قبة يعقوب ـ ع ـ طاقاً مكتوباً على حجر منه، إن طول هذا المسجـد، أربـع وخمسون وسبعمائة ذراع، وعرضه خمس وخمسون وأربعمائة ذراع «بذراع الملك» أو مايساوي أقل قليلاً من ذراع ونصف[٣٢]، وأرض المسجد مغطاة بحجارة موثوقة الى بعضها بالرصاص. والمسجد شرقي المدينة والسوق، فإذا دخله السائر من السوق، فانه يتجه شرقاً، فيرى رواقاً عظيماً جميلاً، ارتفاعه ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، وللرواق جناحان وواجهتاهما وإيوانه منقوشة كلها بالفسيفساء المثبتة

بالجص على الصورة التي يريدونها، وهي من الدقة بحيث تبهر النظر. ويرى على هذا الرواق كتابة منقوشة بالميناء، وقد كتب هناك لقب سلطان مصر، فحين تقع الشمس على هذه النقوش، يكون لها من الشعاع مايحير الألباب، وفوق الرواق قبة كبيرة من الحجر المصقول وله بابان مزخرفان من النحاس الدمشقي الذي يلمع، حتى ليظن الناظر أنهما طُليا بالذهب، وحليا بالنقوش الكثيرة وطول كل منها خمس عشرة ذراعاً وعرضه ثمان ويسميان باب داود ـ ع ـ وحين يجتاز السائر هذا الباب، يجد على اليمين رواقين كبيرين في كل منهـا تسعـة وعشرون عموداً من الرخام، تيجانها وقواعدها مزينة بالرخام الملون، ووصلاتها مثبتة بالرصاص، وعلى تيجان الأعمدة طيقان حجرية وهي مُقامة فوق بعضها بغير ملاط وجص، ولايزيد عدد حجارة الطاق منها على أربع أو خمس قطع، وهذان الرواقان ممتدان الى المقصورة. ثم يوجد على اليسار، رواقاً طويلاً به أربعة وستون طاقاً على تيجان أعمدة من رخام، وعلى هذا الحائط نفسه، باب آخر اسمه «باب السقر»، وطول المسجد من الشمال الى الجنوب ساحة مربعة إذا اقتطعت المقصورة منه. والقبلة في الجنوب، وعلى الجانب الشمالي بابان آخران متجاوران عرض كل منهما سبع أذرع وارتفاعه اثنتا عشرة ذراعاً ويسميان «باب الأسباط» فإذا اجتازه السائر، وذهب مع عرض المسجد الذي هو جهة المشرق، يجد رواقاً عظيماً كبيراً به ثلاثة أبواب متجاورة في حجم «باب الأسباط» وكلها مزينة بزخارف من الحديد والنحاس، قل ماهو أجملُ منها، تسمى «باب الأبواب» لأن للمواضع الأخرى بابين وله ثلاثة. وبين هذين الرواقين الواقعين على الجانب الشمالي، قبةٌ رفعت على دعائم عالية، وزينت بالقناديل والسمارج، تسمى «قبّـة يعقـوب ع» لأنه كان يصلي هناك، وفي عرض المسجد، رواق في حائطه باب، خارجه صومعتان للصـوفية، وهنـاك مصليان ومحـاريب جميلة يقيم بها جماعة منهم ويصلون ولا يذهبون للجامع إلاّ يوم الجمعة. لأنهم لايسمعون التكبير حيث يقيمون[٣٣].

وممّا يلاحظ على المسجد كثرة الزوايا والأروقة والمحاريب، فعند الركن الشمالي للمسجد يوجد رواق جميل وقبة لطيفة مكتوب عليها: «هذا محراب زكريا النبي» وهناك رواق آخر عظيم الزخرف من الحجر المصقول، ارتفاعه خمسون ذراعاً وعرضه ثلاثون، عليه نقوش ونقر، وله بابان جميلان، لايفصلهما أكثر من قدم واحدة، مزخرفة بالحديد والنحاس الدمشقي، وقد دُقَّ عليها الحَلق والمسامير، يقال: أن سليمان بن داود بنى هذا الرواق لأبيه.

وثمة ملاحظة هامة أخرى، يشاهدها الداخل لهذا المسجد، هي كثرة الأبواب فيه، ولها مسمياتها ذات البُعد التاريخي ـ الميثيولوجي، فمن هذه الأبواب «باب الرحمة» و«باب التوبة» يقال: ان هذا الباب هو الذي قبل الله عنده توبة داود[٣٤] وحين يمضي السائر بحذاء الجدار الشرقي إلى أن يبلغ الزاوية الجنوبية عند القبلة، يجد أمام الحائط الشمالي مسجداً بهيئة السرداب، ، يُنزل إليه بدرجات كثيرة، مساحته عشرون ذراعاً في خمس عشرة، وسقفه من الحجر، مرفوع على أعمدة الرخام، وبهذا السرداب مهد عيسى ـ ع ـ وهو المهد الذي أمضى فيه عيسى طفولته وكلم الناس منه، وهو في المسجد مكان المحراب، وفي الجانب الشرقي من هذا المسجد محراب مريم ـ ع ـ وبه محراب آخر لزكريا ـ ع ـ وعلى هذين المحرابين آيات القرآن التي نزلت في حق زكريا ومريم، ويقال أن عيسى ـ ع ـ ولد بهذا المسجد. وعلى حجر من عمدع نقش

إصبعين كان شخصاً أمسكه، يقال أن مريم أمسكته بإصبعيها وهي تلد. ويعرف هذا المسجد «بمهد عيسى» وبه قناديل كثيرة من النحاس والفضة توقد كل مساء.

والمسجد الاقصى أكبر من مسجد /مهد عيسى/ مرتين، ومنه أسرى الله بعبده محمد المصطفى الى السماء يقول ـ يقول خسرو(٣٥): وقد بنوا به أبنية غاية في الزُخرف، وفرش بالسجاد الفاخر ويقوم عليه خدم مخصصون يعملون به دوماً. والجزء المسقوف من المسجد الكبير، والذي به المقصورة، يقع عند الحائطين الجنوبي والغربي، وطول هذا الجزء عشرون وأربعمائة ذراع وعرضه خمسون ومائة ذراع، وبه ثمانون ومائتا عمود من الرخام، على تيجانها طيقان من الحجارة، وقد نقشت تيجان الأعمدة وهياكلها، وثبتت الوصلات فيها بالرصاص في منتهى الإحكام، وقد راعى الأساطين الإسلاميون، وهم يجددون المسجد، عملية إنارته بضوء الشمس، فحين تفتح الأبواب كلها ينير المسجد حتى لتظن أنه ساحة مكشوفة أما حين تعصف الريح، وتمطر السماء، وتغلق الأبواب، فإن النور ينبعث من الكوات، وتحت الأرض في الحرم المسقوف، حوض جعل بحيث يكون في مستوى الأرض حين يغطى، وقد بنى لتجمع فيه مياه المطر. وعلى الحائط الجنوبي باب يؤدي الى ميضأة يذهب إليها مَنْ يحتاج الى الوضوء فيجدده، وذلك لأنه لايلحق الصلاة إذا هو خرج من المسجد ليتوضأ، إذ إن كبر المسجد يفوّت عليه الصلاة ـ إذا اجتازه.

والأحواض التي بالمسجد لاتحتاج الى عمارة أبداً، لأنها من الحجر الصلب، فإذا حدث بها شق أو ثقب احكم اصلاحه حتى لاتتخرب، ويقال أن سليمان هو الذي عمل هذه الأحواض(٣٦).

وثمة أبواب هناك، عند المسجد، تؤدي الى ضواحي المدينة، كأنها نُقب، منها «باب النبي» محمد /ص/ وهو بجانب القبلة، عرضه عشر أذرع وأما ارتفاعه فيتفاوت حسب المكان فهو في مكان خمس أدرع، وفي مكان اخر عشرون، ويقع هذا الباب على جانب طريق مكة. وبقرب هذا الباب، نقش لمجنٍ كبير، يعتقد أهل بيت المقدس أن حمزة بن عبد المطلب عم النبي، كان جالساً هناك وعلى كتفه المجن وظهره مسندة الى الحائط، وأن هذا نقش مجنه(٣٧). وهذه الرواية، في بُعدها الميثيولوجي، تبيّن جانب الإسقاط الديني ـ الإسلامي، وهو أمر يوضح تاريخية التعاقب الديني، وتأثيراته في هؤلاء الناس، من ديانة الى أخرى، وانعكاس ذلك في خيالهم الجمعي، وتلك مسألة هامة في البُعد الفولكلوري للشعوب.

ومن الأبواب الأخرى عند المسجد، باب ذو مصراعين، يبلغ ارتفاع الجدار من الخارج مايقرب من خمسين ذراعاً، وقد قصد بهذا الباب أن يدخل منه سكان المحلة المجاورة لهذا الضلع من المسجد، فلا يلجأون إلى الذهاب لمحلة أخرى حين يريدون دخوله.

وفي عرض المسجد باب شرقي يسمى «باب العين» إذا خرجوا منه نزلوا منحدراً فيه «عين سلوان».
وهناك أيضاً باب تحت الأرض يسمى «المحطة» يقال إنه الباب الذي أمر الله بني اسرائيل أن يدخلوا منه الى المسجد، في قوله تعالى: «وأدخلوا الباب سجداً أو قولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين»(٣٨).

وهناك «باب» آخر يسمونه «باب السكينة» في دهليز مسجد، به محاريب كثيرة، باب أولها مغلق حتى لايلجهُ أحد، ويقال أن هناك تابوت «السكينة» الذي ذكره الله في القرآن، والذي حمله الملائكة(٣٩).

وأبواب بيت المقدس ماتحت الأرض ومافوقها تسعة أبواب(٤٠).

*** وصف قبة الصخرة:**

المصادر الإسلامية والعربية، التي تحت أيدينا، تقف بإندهاش، وهي تصف مسجد قبة الصخرة، فابن جبير، يشرح بانذهال واضح ودهشة طاغية قبة الجامع الأموي في دمشق، إلاّ أنه يعكف نحو مسجد بيت المقدس، ويعطيه الأفضلية بالمقارنة، يقول(٤١): «ويقال: إنه ماعلى ظهر المعمورة أعجب منظراً، ولا أبعد سموّاً، ولا أغرب بنياناً من هذه القبة، إلاّ مايحكى عن قبة بيت المقدس، فيحكى أنها أبعد في الارتفاع والسمو من هذه».

وقبة الصخرة، بني مسجدها بحيث تكون الدكة في وسط الساحة وقبة الصخرة في وسط الدكة، والصخرة وسط القبة، وقبة الصخرة بيت مُثمّن منظم، كل ضلع من أضلاعه الثمانية، ثلاث وثلاثون ذراعاً، وله أربعة أبواب على الجهات الأربع الأصلية، باب شرقي، وآخر غربي، وثالث شمالي ورابع جنوبي، وبين كل بابين ضلع، وجميع الحوائط من الحجر المنحوت وارتفاعها عشرون ذراعاً.

محيط الصخرة مائة ذراع، وهي غير منتظمة الشكل، لا هي مدورة ولا مربعة، ولكنها حجر غير منتظم، كحجارة الجبل ـ على حد وصف خسرو(٤٢) ـ وقد بنوا على جوانيب الصخرة الأربعة أربع دعائم مُربعة، بارتفاع حائط الدكة المذكورة، وبين كل دعامتين، عمودان إسطوانيان من الرخام، بنفس الارتفاع، على قمة تلك الدعائم وهذه الأعمدة الاثني عشر بنوا القبة التي تحتها الصخرة، والتي يبلغ محيطها مائة وعشرين ذراعاً... وكانت هذه القبة العظيمة في ذلك الوقت /إبّان زيارة ناصر خسرو لها/ مرتكزة على هذه الدعامات الإثنتي عشرة المحيطة بالصخرة، فتراها على بُعدِ فرسخ كأنها قمة جبل. لأنها من أساسها الى قمتها ثلاثون ذراعاً، وتكون المسافة بين ساحة المسجد ورأس القبة اثنتان وستون ذراعاً. والصخرة أعلى من الأرض بمقدار قامة رجل، وقد أحيطت بسياج من الرخام حتى لاتصل يد إليها.

والصخرة عبارة عن حجر أزرق اللون، لم يطأها أحد برجله أبداً، وفي ناحيتها المواجهة للقبلة إنخفاض، كأن إنساناً سار عليها، فبدت آثار أصابع قدميه فيها، كما تبدو على الطين الطري، وقد بقيت عليها آثار سبعُ ـأقدام(٤٣) هذا الوصف يؤكد عليه ناصر خسرو، بغية ربط مشاهدته العيانية، مع الأثر الموجود في بعده وعمقه الأسطوري، وهو لايخفى إندهاشه، يقول: وسمعت أن ابراهيم ـ ع ـ كان هناك وكان اسماعيل طفلاً فمشى عليها وهذه آثار أقدامه. وعلى الدكة نفسها قبة أخرى تسمى: «قبة جبريل» يقال أن هناك أعد «البراق» ليركبه النبي ليلة المعراج، وبعد قبة جبريل، تأتي قبة الرسول /ص/ يقال أن الرسول، صلى ليلة المعراج، في قبة الصخرة أولاً ثم وضع يده على الصخرة فلما خرج وقفت لجلالته، فوضع الرسول يده عليها لتعود الى مكانها وتستقر وهي لاتزال نصفُ معلقة، وقد ذهب من هناك الى القبة التي تنتسب اليه وركب البراق، وهذا سبب تعظيمها. وتحت الصخرة غار كبير، يضاء دائماً بالشمع، ويقال أنه حين قامت الصخرة خلا ماتحتها، فلما استقرت بقي هذا الجزء كما كان(٤٤). على مامَرَّ، نشاهد أن المؤرخين

الإسلاميين والرحالة العرب وغيرهم، يؤكدون على الجانب المُقدّس للمدينة (بيت المقدس) بدافع ديني - إسلامي، وواقع الأمر، أن المدينة اكتسبت هذه الصفة من خلال تاريخها الموغل في القدم، وأساطيرها الميثيولوجية ترتبط بالأنبياء تحديداً، وهو أمر، لاتعرفه مدينة أخرى بمثلها، وقد تعاقبت الديانات السماوية الثلاث على هذه المدينة، فزادها قدسيةً، ولكن أن الملاحظ على المدينة طغيان طابعها الإسلامي، فهو متوارث عليها وبها، منذُ بداية الدعوة الإسلامية ومعراج النبي، وحتى يومنا هذا. والى جانب الآثار الدينية الإسلامية، يوجد في بيت المقدس كنيسة للنصارى تسمى «بيعة القمامة»[45] لها مكانة عندهم عظيمة، ويحج إليها كل سنة كثير من بلاد الروم، وكان ملك الروم يزورها متخفياً حتى لايعرفه الناس. وهذه الكنيسة فسيحة، تسع ثمانية آلاف شخص وهي عظيمة الزخرفة، من الرخام الملّون والنقوش والصور، وهي مزدانة من الداخل بالديباج الرومي والصور، وزينت بطلاء من الذهب، وفي أماكن كثيرة منها صورة عيسى - ع - راكباً حماراً، وصور الأنبياء الآخرين مثل: ابراهيم واسحق، ويعقوب وأبنائهم، وهذه الصور كما يقول خسرو - مطلية بزيت السندروس /نوع من الدهن يستخرج من صمغ بعض الاشجار/ وقد غطي سطح كل صورة بلوح من الزجاج الشفاف على حجمها وفي هذه الكنيسة لوحة، مقسمة الى قسمين عملاً لوصف الجنة والنار، يقول خسرو: وليس لهذه الكنيسة نظير في أية جهة من العالم. يقيم بها كثير من القسَس والرهبان، يقرأون الانجيل ويصلون ويشتغلون بالعبادة، ليل نهار[46].

وبالنظر للأهمية التاريخة - الإسلامية للمسجد الاقصى، نرى من الضروري، التعريج عليه، ضمن سياق تطور الأحداث التاريخية الإسلامية تحديداً، لنقف على آثار العرب المسلمين في المسجد، والأهمية التي أعطيت له في مختلف مراحل تطور الخلافة الإسلامية.

ترجع بدايات المسجد الاقصى الى عمر بن الخطاب الذي أمرَ ببناء مسجد في الحرم القدسي، غير بعيد من موضع الصخرة التي بنيت عليها القبة، الآنفة الذكر، وهناك من يقول أن مسجد عمر أقيم في جزء من معبد روماني قديم ينسب الى هيرود، وهدمه الإمبراطور تيتوس، ومن المعروف أن الوليد بن عبد الملك كان أول من أنشأ المسجد الأقصى في مكانه الحالي، وكان ذلك في سنة ٩٧ هـ/ ٧١٥ - ٧١٦، ولم يبق من مسجد الوليد هذا إلّا العقود القائمة على أعمدة الرخام على يمين القبة الصغيرة، عند المدخل ويسارها. وقد كان سبب تهدم مسجد الوليد هذا، هو ذلك الزلزال الذي وقع في سنة ١٣٠ هـ/٧٤٧ - ٧٤٨م، وقد قام الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بإعادة بنائه حوالي سنة ١٤٠ هـ على الأغلب، كما يقول د. حسين مؤنس[47] بعد أن اقتلع الذهب عن أبوابه لينفق عليه. ثم تهدم المسجد كرة أخرى ورفع الأمر الى المهدي العباسي فقال: رُثّ هذا المسجد وطال وخلا من الرجال، انقصوا من طوله وزيدوا في عرضه. وهكذا تم إنشاؤه بأمر الخليفة المهدي سنة ١٦٣ هـ/٧٤٧م، وقد كان هذا التاريخ هو الذي أعطى المسجد صورته وحجمه الحاليين. ولكن على مايبدو، أن أرض الموقع تعرضت لزلزال آخر وقع في مطلع القرن الثالث الهجري أيّام حكم المأمون، فأمر الخليفة المأمون أمراء الأطراف ببناء كل واحد منهم رواقاً على نفقته، وتولى البناء عبد الله بن طاهر بعد سنة ٢١٠ هـ، والعجيب في الأمر، أن المكان نفسه، تعرض لزلزال آخر سنة ٤٢٤ هـ/١٠٣٣ م، وبعد هذا الزلزال، آل أمر فلسطين الى الفاطميين، فأمر

الخليفة الفاطمي الظاهرة ببنائه سنه ٤٢٦ هـ/١٠٣٥ م، وقد ذهب جزء كبير من بناء الخليفة الفاطمي أثناء الحروب الصليبية، وما أصاب القدس خلالها من أحداث، ولكن الهيكل العام ظل باقياً وهو مكوّن من سبعة أروقة عمودية على القبلة، وجوف بيت الصلاة الذي يتكون من (١١ صفاً) من العقود الموازية لجدار القبلة.

ومازال هذا المسجد يحتفظ بهذه الهيئة على وجه التقريب، فقد رُمم وأعيد بناء الكثير من أجزائه أيام المماليك والعثمانيين، يقول مؤنس[48]: لقد كانت عناية العثمانيين بالمسجد كبيرة جداً، وإليهم يرجع الفضل فيما يمتاز به المسجد اليوم من رواءٍ بديع، وخاصة عندما يوقف وسط الرواق الأوسط في اتجاه القبلة، فترى المربع البديع الذي يحمل القبة الكبرى، مرفوعاً على أعمدة رخاميّة سامقة الارتفاع، تعلوها عقود تقوم على أرجل، يُعدل إرتفاعها ارتفاع العَمَد، والجدار الحامل للقبة فوق العقود مُزيّن بنوافذ صغيرة على هيئة بوائك صغيرة. وهذا الارتفاع العظيم للسقف هو الذي حدا بالمعماري الى ان يربط الأعمدة بأوتاد خشبية سميكة، وهذه الأوتاد هي الشيء الوحيد الذي يشوب روعة جمال هذا الجامع الجليل، رغم زخارفها الكثيرة. ويذهب المعماريون /والعهدة على مؤنس[49]/ الى أن هذه الأوتاد ترجع الى بناء الظاهر الفاطمي، وهذا يعني أن القبة الكبيرة نفسها ترجع الى ذلك العصر أيضاً.

والمسجد الأقصى الحالي، عمل معماري يجمع بين البساطة والجلال على صورة تندر في غيره من المساجد، فان بناءه - رغم ضخامته - هش، فالجدران الحاملة للقبة الكبرى لاتتميز بضخامة، والقبة نفسها تقوم على هيكل خشبي وزينة الجدران نفسها قليلة، والقبلة بسيطة، رغم زخارفها، ولكن يضيف إلى روائها أن الجدار - الى يمنيها ويسارها الى ارتفاع المحراب - مُغطى بالقاشاني المزخرف.

وجزء كبير من فخامة الجامع يرجع الى سعة بيت الصلاة التي تملأ النفس روعة وبهجة، وهذه السعة هي التي جعلت المعماري يكتفي بتسقيفه بالخشب[50].

تلك هي مدينة بيت المقدس، ذلك هو مسجدها الشهير، تلك الربوع الخالدة، تشهد لفلسطين بالأصالة والقدم.

هوامش

(١) راجع ديوانه ٢/ ٣٢ - منشورات دار صادر ودار بيروت طبعة بيروت ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م وراجع كذلك معجم البلدان لياقوت الحموي ١/ ٢٩٣ - منشورات دار صادر ودار بيروت - طبعة بيروت ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥ م وجاء في المنجد في الأعلام أن إيليا اسم أطلقه الرومان على أورشليم القدس سنة ١٣٠ م - انظر ص٦ مادة آتيتوس - الطبعة ١٢ - الطبعة الكاثوليكية - بيروت.

(٢) معجم ياقوت ١/ ٢٩٣.

(٣) القزويني - آثار البلاد وأخبار العباد ص١٦٠ - منشورات دار صادر ودار بيروت - طبعة بيروت ١٣٨٠ هـ/ ١٩٦٠ م.

(٤) ناصر خسرو ـ سفرنامه / ص١٩ ـ ترجمة د. يحيى الخشّاب ـ ط١ ـ القاهرة ـ ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥ م.

(٥) القزويني ص١٥٩ ـ ١٦٠.

(٦) الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١/ ١١٨ ومابعدها ـ منشورات مكتبة المحتسب ـ عمّان ـ ١٩٧٣ م.

(٧) المصدر السابق ١/ ١٢٠ ـ ١٢١.

(٨) نفسه ١/ ١٢٦.

(٩) الطبري ٣/ ٦٠٧ ومابعدها. طبعة دار المعارف بمصر / تحقيق أبو الفضل ابراهيم ـ القاهرة ١٩٦٢ م/ ١٣٨٢ هـ وابن الاثير ٢/ ٤٩٩ ومابعدها. طبعة دار صادر ودار بيروت ـ ١٣٨٥ هـ/ ١٩٦٥ م، إلاّ أنه يشير في السطور الأولى من الصفحة الى أن سنة الفتح ١٥ هـ وقيل سنة ١٦ هـ في ربيع الأول.

(١٠) الجابية ـ قرية من أعمال دمشق ـ بها خطب عمر بن الخطاب، وباب الجابية منسوب الى هذا الموقع ـ معجم البلدان ٢/ ٩١.

(١١) الطبري ٣/ ٦٠٨.

(١٢) اللصوت مثل اللص، السارق، وجمعه لصوت.

(١٣) الطبري ٣/ ٦٠٩.

(١٤) راجع المقدسي أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم / ص١٥٤/ طبعة ليدن الثانية ـ ١٩٠٤ م

(١٥) الاسراء آية ١٧.

(١٦) القزويني ص١٦١.

(١٧) سفرنامه ص١٩ ـ ٢٠.

(١٨) المَن: وحدة قياس قديمة، عرفت بلغة تميم، والمُنا أفصح، جمعها مناة، وهي في عرف الأقدمين رطلان، أي ٧/ ٦ ١٢٢٤٢ حبّة وتبلغ ٩١/ ١٢ ٦١٨ غراماً» انظر «متن اللغة ـ المجلد الخاص. مادة ـ م ن ن، م ن ي» ـ منشورات دار مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٠ م.

(١٩) سفرنامه / ص٢٠/ والقزويني / ص١٦٠ ـ ١٦١.

(٢٠) المصدر السابق / ص٢٠/.

(٢١) اتخذت الصهيونية من هذه الاسطورة، نقطة انطلاق ايديولوجية، خدعت بها الكثير من يهوديّ العالم بأن أرض فلسطين هي «أرض الميعاد» وهذه اليافطة لاتزال مرفوعة في الإعلام الصهيوني.

(٢٢) سفرنامه / ص١٢.

(٢٣) المصدر السابق.

(٢٤) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم / ص١٦٦ ـ ١٦٧ ـ طبعة ليدن الثانية ابريل ـ ١٩٠٦ م.

(٢٥) السجسج: الهواء المعتدل بين الحر والبرد / لسان العرب ـ مادة ـ سجسج.

(٢٦) أحسن التقاسيم ص١٦٧.

(٢٧) المصدر السابق / ص١٦٨.

(٢٨) الاسراء ـ آية ١٧.

(٢٩) البقرة ـ آية ١٤٤.

(٣٠) القزويني / ص١٦١ والأنس الجليل ١/ ٢٦/.

(٣١) سفرنامه / ص٢١.

(٣٢) يراجع الهامش رقم ١/ ص٢١ / سفرنامه/.

(٣٣) سفرنامه / ص٢٢ ـ ٢٣.

(٣٤) المصدر السابق / ص٢٣.

(٣٥) نفسه / ص٢٤.

(٣٦) سفرنامه / ص٢٥ ـ ٢٦.

(٣٧) المصدر السابق / ص٢٧.

(٣٨) البقرة ـ آية ٥٨.

(٣٩) جاء في التنزيل «وقال لهم نبيهم إن أية مُلكه أن يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم ـ الخ» البقرة ـ ٢٤٨/.

(٤٠) سفرنامه / ص٢٧. ويراجع الهامش رقم ٢ فيها بصدد «تابوت السكينة».

(٤١) رحلة ابن جبير / ص٢٨٣. تحقيق د. حسين نصّار ـ منشورات مكتبة مصر ـ ١٩٥٥ م.

(٤٢) سفرنامه / ص٢٨.

(٤٣) سفرنامه / ص٢٩.

(٤٤) سفرنامه / ص٣٠ ـ ٣١.

(٤٥) ويسميها النصارى (كنيسة القيامة) هدمت هذه الكنيسة سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م بأمر الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله وظلت خربة حتى سنة ٤٢٩ هـ/ ١٠٣٧ م حين عقد الامبراطور / ميشيل/ هدنة مع والي بيت المقدس من قبل المستنصر بالله الفاطمي، وقد تعهد بتحريره ٥ الاف أسير مسلم، ومنح الحق في إعادة بناء الكنيسة. فأرسل المهندسين المعماريين فوراً من القسطنطينة، وبنيت الكنيسة من جديد، انظر هامش رقم ٣ / ص٣٦ من / سفرنامه.

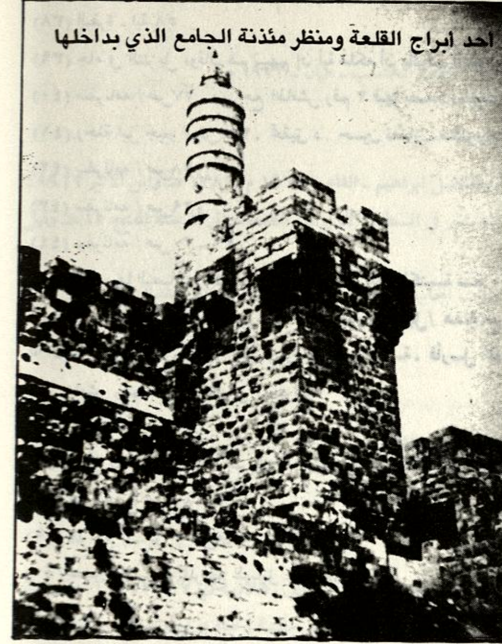
(٤٦) سفرنامه / ص٣٧.

(٤٧) انظر كتابه / المساجد. ص١٨٦. منشورات سلسلة عالم المعرفة الكويتية رقم ٣٧ طبعة ١٤٠١ هـ/ ١٩٨١ م

(٤٨) المساجد / ص١٨٧.

(٤٩) المرجع السابق / ص١٨٨.

(٥٠) حسين مؤنس / المرجع السابق ـ ص١٨٨.


احد ابراج القلعة ومنظر مئذنة الجامع الذي بداخلها

تراث

قلعة القدس

د. شوقي شعث*

القلعة رمز السلطة والقوة وقد حرص الحكام في كل زمان ومكان أن تكون لهم القلاع والحصون في قواعد ملكهم يحتمون بها ويخيفون الناس بمنعتها، وأصبح المرء في الغالب لايرى مدينة دون حصن أو قلعة، هذا مانجده منذ الألف الثالثة قبل الميلاد في كثير من ممالك المدن واستمر ذلك خلال الألف الثاني وبعده وأصبحنا نجد مدناً محصنة (المدن ـ القلاع ـ المدن ـ الدول) بالأسوار والأبراج والخنادق والبوابات ووسائل التحصين الأخرى. كانت القلعة أو القصر القلعة في وسط المدينة أولاً وفيما بعد اتخذت الحصون والقلاع مواضع وأشكالاً متعددة ولكن الوظيفة بقيت في الغالب كما هي. عموماً يمكن القول إن حالة نهوض القلاع وتطورها ارتبطت بالحالة الأمنية السائدة في المحيط فإذا كان الأمن مستتباً تنتفي الحاجة إلى الحصون والقلاع ووسائل الدفاع الأخرى أما إذا كانت الحالة الأمنية مضطربة تكون الأسوار والحصون والقلاع ووسائل التحصين والدفاع المتنوعة لازمة بل ضرورية.

---

* مؤرخ وباحث من فلسطين.

ومن العصور التي اضطرب حبل الأمن فيها وبالتالي نمت فيها القلاع والحصون وتطورت وزيد الاهتمام بها كان عصر الحروب العربية الاسلامية ـ الافرنجية الصليبية فقد نقل الافرنج تقاليدهم في بناء القلاع الى الشرق ونقل العرب المسلمون تلك التقاليد وأضافوها لتقاليدهم وأصبحت لاترى مدينة هامة من مدن الشرق العربي الاسلامي أو موقعاً استراتيجياً إلا وقامت فوقه قلعة حصينة فكانت هناك قلاع القاهرة ودمشق وحلب وحمص وحماه والقدس والكرك والشوبك وعتليت وحيفا ويافا والحصن والمرقب (بانياس) وبانياس الشام والصبيبة والشقيف وغيرها مما يصعب حصره هنا، وقد شهدت هذه القلاع ملاحم بطولية سطّرها العرب المسلمون في سبيل تحرير بلادهم من المغتصب والدفاع عنها من أجل وحدتها وحريتها.

وكما انتهت الحركة الصليبية الاستيطانية بالاندحار ستنتهي الحركة الصهيونية الاستيطانية وتبقى قلاع العرب لهم. هنا في هذه المقالة القصيرة سنحصر حديثنا على قلعة القدس الشريف وتاريخها.

تقع قلعة القدس بين باب الخليل وباب النبي داوود، وهي تقوم على نشز صخري يشرف على القسم الغربي والجنوبي من مروج القدس (العابدي ص١١٤)، وتعتبر أضخم بناء بالقدس وهي مع تحصيناتها وعناصرها الدفاعية كالاسوار والأبراج تؤلف أثراً فريداً (Assadour, P.46) ويعتقد بعض الباحثين أنه كان يقوم مكان القلعة حصن قديم تحول إلى قلعة زمن الامبراطور الروماني هادريان ثم تخرب منه شيء كثير في الحروب المتتالية ولم يقم على هيئته الحالية إلا في القرن الرابع الميلادي إلا الزاوية السفلى الشرقية فيعتقد أنها تعود إلى العصر الروماني من أعمال هادريان (الدباغ بيت المقدس ١/ص٦١، الحنبلي ص٥٥، العابدي ص١١٤) كان يحيط بالقلعة خندق طمرت الآن أجزاء منه (العابدي ص١١٤) خاصة القسم الذي يمتد بين البرج الشمالي الغربي وباب الخليل، أثناء زيارة امبراطور ألمانيا غليوم الثاني لفلسطين عام ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م، كما هدم بهذه المناسبة السور الذي كان يصل الأبراج من أجل فتح منفذ للدخول إلى المدينة القديمة، وكان يدخل إليها من الشارع العام بواسطة جسر خشبي متحرك يمتد فوق الخندق (العابدي ص١١٤).

تضم القلعة بالقدس برجاً للمراقبة ومسجداً للصلاة وأماكن للسكن، وثكنات للجند تتألف من سبعين غرفة وقد جددت هذه المنشآت عدة مرات وأضيف إليها زمن الافرنج الصليبيين، والايوبيين وغيرهم سنتحدث لاحقاً عنها. وردت أول إشارة لقلعة القدس عام ٩٨٥م عند المقدسي «وفوق المدينة حصن أحد جوانبه على مرتفع أما الجوانب الأخرى فمحمية بواسطة خندق» (نقلاً عن جونز ص١٦٢)، ويقول الاصطخري (٩٥١م) وابن جوقل (٩٧٨م) «عندما يأتي المرء إلى مدينة القدس آتياً من مدينة الرملة تكون القلعة أول بناء تقع عليه العين بسبب ارتفاعها فوق بيوت المدينة» (جونز ص١٦٢).

عندما أخذ الافرنج الصليبيون قلعة القدس كان أول من دخلها الافرنسي الكونت ريمون دوتولوز الذي هاجم المدينة من الجنوب ولكن عندما انتخب جودفري دولولون حاكماً على القدس أخذها بسبب مناعتها وموقعها المسيطر، ويصف أحد الحجاج الروس قلعة القدس واسمه أبوت دانيال Abbot Daniel الذي زار القدس في الفترة مابين ١١٠٦ و ١١٠٧م «بنيت بحجارة ضخمة وهي عالية تكاد تكون مربعة

المدخل الرئيسي :

للقلعة مدخل ملتو على غرار ماهو مألوف في كثير من القلاع وهو مزدوج الالتواء عليه كتابة باسم الملك الناصر محمد يعود تاريخها الى عام ١٣١٠/١٣١١م انظر (Johns P. 173) .

البرج الشمالي الشرقي :

وهو يتألف من طابق واحد أقيم على قاعدة قديمة .

المدخل الاول (الباب الخارجي)

أقيم هذا المدخل زمن السلطان سليمان القانوني عام ١٥٣١/١٥٣٢م وهو عبارة عن مدخل بسيط ذي بابين (Twin doors) كان عليه تحصينات وقاعية مثل فتحات السهام الشاقولية والسقاطات .

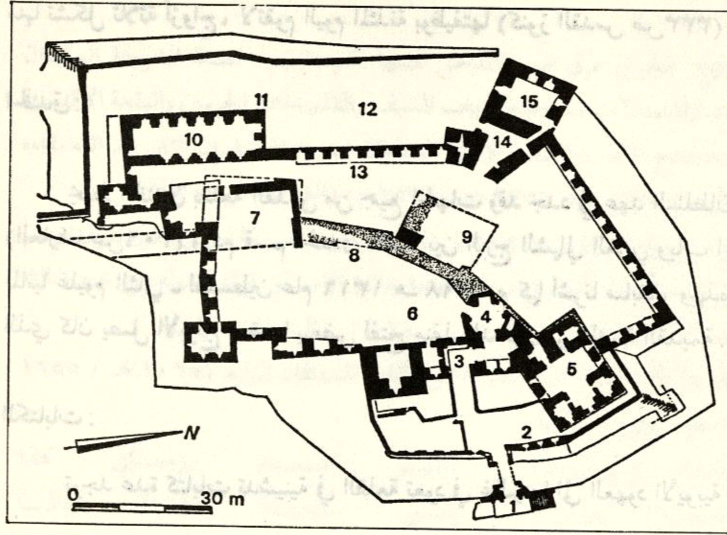
مسجد القلعة :

أنشأه السلطان ناصر بن قلاوون (٧٠٩ ـ ٧٤١هـ / ١٣٠٩ ـ ١٣٤٠م) داخل القلعة في الزاوية الجنوبية الغربية في عهد سلطنته الثالثة عام ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م (الدباغ بلادنا ص٢٦٦)، وتشير الى ذلك كتابة موجودة في المسجد، ويتألف المسجد من بيت للصلاة ذي سقف مقبب، له محراب مزين جميل الشكل يقع في جدار القبلة الجنوبي لبيت الصلاة يحيط به من الجانبين عمودان قائمان (كنوز القدس ص١٧٢).

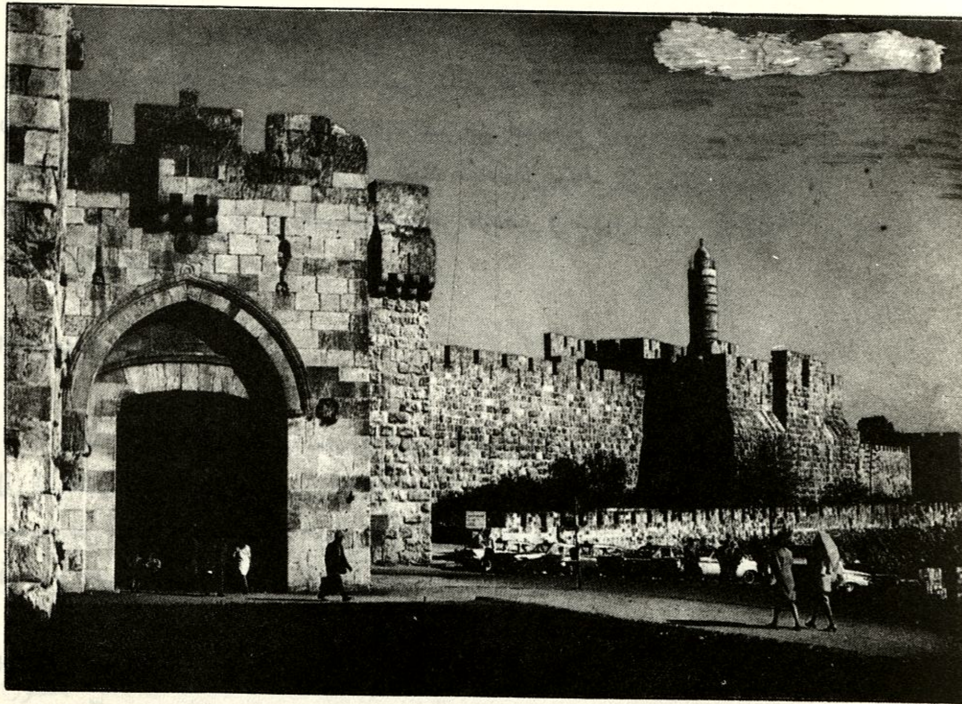
أعيد ترميم الجامع في مطلع العهد العثماني وأقيم المحراب الحجري الجميل الذي تحدثنا عنه أعلاه في عهد السلطان سليمان القانوني ٩٣٨ هـ / ١٥٣١ ـ ١٥٣٢ أما المئذنة فقد أقيمت عام ١٠٦٥ هـ / ١٦٥٥ م في عهد السلطان محمد الرابع. أهمل المسجد وتوقفت فيه الصلاة في أواخر العهد العثماني وتحول الى مستودع للذخائر والمهمات الحربية إبان الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨م) (العارف ص٣٠٦ و ص٤٠٦).

مئذنة مسجد القلعة :

عندما حدثت القلعة في العصر العثماني كما أسلفنا أقيمت المئذنة الدائرية . تتكون هذه المئذنة من أربعة طوابق حجرية أولها : القاعدة المربعة ثانيها قسم اسطواني أما الثالث فهو اسطواني أيضاً ولكنه أقصر من سابقه، ويشكل القسم الرابع رأس المئذنة المقبب يزين بدن المئذنة المستدير سبع أسورة حجرية ست



مخطط القلعة حسب جونز



القدس ـ القلعة وبوابة يافا.

منها تشكل ثلاثة أزواج، لاتقوم اليوم المئذنة بوظيفتها (كنوز القدس ص٣٣٣).

الخندق:

يحيط الخندق بقلعة القدس من جميع الجهات وقد جدد في عهد السلطان محمود الأول عام ١٧٣١ (العارف ص٣٠٦) وردم قسم الخندق الممتد بين البرج الشمالي الغربي وباب الخليل أثناء زيارة امبراطور المانيا غليوم الثاني ـ لفلسطين عام ١٣١٦ هـ ١٨٩٨ م كما أشرنا سابقاً، وبهذه المناسبة هدم جزء السور الذي كان يصل الأبراج بعضها ببعض لفتح منفذ للدخول الى المدينة القديمة.

الكتابات:

توجد عدة كتابات تدشينية في القلعة تعود في غالبيتها الى العهود الأيوبية والمملوكية والعثمانية.

الكتابات الأيوبية:

هناك كتابة من هذا العهد تعود إلى الملك المعظم عيسى بمناسبة اقامته بعض الأبنية في القلعة منها برج حربي جميل الشكل في وسط القلعة، ونص الكتابة كالآتي «بسم الله الرحمن الرحيم لا اله الا الله محمد رسول الله، أم من أسس بنيانه على تقوى، نصر من الله وفتح قريب». وعمل هذا البرج المبارك مولانا الملك المعظم شرف الدنيا والدين عيسى بن الملك العادل ابن يوسف بن أبي بكر بن محمد أيوب شادي خلد الله دولته تولى عمارته عز الدين وعمر عمارته بأرض فلسطين في شهور سنة عشر وستماية ٦١٠ هـ ـ ١٢١٣ م» (العابدي ص١١٦).

الكتابات المملوكية:

هناك عدة كتابات تدشينية تعود الى العهد المملوكي إلا أنها مفقودة اليوم فقد كانت هناك كتابة تعود إلى السلطان الملك الناصر محمد بن السلطان قلاوون بمناسبة ترميم القلعة وهي مفقودة الآن بعد أن كانت موجودة على مدخل القلعة عام ١٨٩٤م وهناك كتابة ثانية تعود إلى نفس السلطان محمد في المسجد الموجود في البرج الجنوبي الغربي تشير الى تأسيس المسجد في نفس السنة أي سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ ـ ١٣١١ م.

الكتابات العثمانية:

يمكن أن تكون الكتابات التي تعود الى العصر التركي العثماني من أكثر الكتابات وجوداً ونفرق أربعاً

منها هي:

أولاً: كتابة موجودة على لوح حجري فوق قوس المدخل نصها «أمر بترميم الحصنة الشريفة السلطان الأعظم والخاقان المعظم مالك رقاب الامم مستخدم أرباب السيف والقلم خادم الحرمين والبقعة الاقدسية قدس الله أرواح آبائه المقدسة مانح الأمن والايمان والأماني السلطان ابن عثمان سليمان الثاني مد الله بقاءه مادامت القبة على الصخرة في سنه حصل خير (٩٣٨ هـ ـ ١٥٣١ م) (العارف ص٣٠٥)».

وهناك كتابة ثانية على البرج الواقع الى يمين الداخل الى المدينة بين باب الخليل والسور تقول «رسم بإنشاء هذا الربض من حمى ديرة الاسلام بشوكته وطوله ومحا جائرة الاصنام بقوته وحوله من خصه الله بأرقاب الملوك في الآفاق وتملك سرير الخلافة بالاستحقاق السلطان ابن السلطان سليمان».

أما الكتابة الثالثة فنجدها على المئذنة التي بناها داخل القلعة السلطان الرابع (١٠٦٥ هـ / ١٦٥٥ م) وقد كتبت هذه الكتابة بالخط المعلق وبالتركية.

صاحب خير وحسنات وسنجا مظهر انعام ورضاي هذا
حوب حاصلات وعمل يسند يعني سلحدار محمد باشا
حضرت داود مقامته ايلدي بر مأذنة خوش بنا
تاريخي مناره زيارت بايدي سلحدار محمد باشا
(العارف ص٣٠٥)

وتوجد كتابة رابعة في القلعة موجودة في جدار البرج القائم على يسار الداخل الى القلعة من بابها الشرقي وقد كتبت تلك الكتابة بالخط النسخي العثماني.

«جدد بناء حائط هذا الخندق بعد انهدامه في خلافة سلطان الاسلام والمسلمين قامع الكفره والمشركين السلطان محمود بن المرحوم السلطان مصطفى خان من آل عثمان ايد الله ملكه. يعرض وأعلام من حضرة الدستور المكرم عبد الله باشا محافظ الشام وأمير الحاج الشريف، حين زار القدس، وجاء الفرمان خطياً لمتسلمه الحاج مصطفى أغا بروانه زاده، فباشرها بنفسه، وأتم عمارتها، جزاه الله خيراً في شهور سنة أربع وأربعين ومائة وألف (١٧٣١م)» (العارف ص٣٠٦)

التنقيبات الأثرية بالقلعة:

بدأت أعمال التنقيب الأثري المنهجي في قلعة القدس منذ عام ١٩٣٤ بادارة السيد جونز باشراف دائرة الآثار الفلسطينية، وكان الهدف من تلك التنقيبات التعرف على الطبقات السكنية في القلعة وبالتالي التعرف على التاريخ المعماري لها، وتعتبر قلعة القدس نسخة مطابقة لقلاع القاهرة أو دمشق أو حلب في كثير من الجوانب وتعود تلك القلاع إلى العصر المملوكي من القرن الرابع عشر، وقد أظهرت تلك التنقيبات الأثرية بقايا كثيرة من الأبنية فقد تم التعرف على عدة طبقات سكنية تعود الى عصور أقدم من العصور الوسطى (Assadour, P.P. 46 - 47; P.121) الى جانب نماذج كثيرة من الكسر الفخارية من بقايا المباني التي

تعود الى العهدين المملوكي والعثماني، أو من خزانات المياه أو الخندق، ومن بين تلك الكسر كسر من الخزف المعروف بخزف عتليت الذي يعود الى القرن الثالث عشر الميلادي مستوردة من اسبانيا وايطاليا وبقايا من الخزف الايوبي والمملوكي والتركي والخزف المحلي، (Johns, P. 188 pls. Lx11 and Lx111) الى، جانب بقايا من الخزف الاسلامي الباكر من العهود الاموية والعباسية مثل كسر الخزف الابيض المزجج والترابي الصفراوي sandy - yellow والبني المزجج (أواني الطبخ) (Johns, P.121) خلاصة القول انه من خلال التنقيبات الأثرية هذه تم التعرف على تاريخ القلعة وعلى الأدوار التاريخية التي مرت فيها، كما تم التعرف على الصلات الحضارية بين القدس وفلسطين من جهة وبين أقطار الوطن العربي الاسلامي وأوربا (Johns, P. 121 and P. 188)

وفي الفترة مابين عامي ١٩٦٨ - ١٩٦٩ قامت السلطات الاسرائيلية بإجراء تنقيبات أثرية في قلعة القدس بعد اغتصابها عام ١٩٦٧ في محاولة للعثور على شواهد أثرية تدل على وجود الاسرائيليين القدماء المزعوم جرياً على عادتهم في تبرير اغتصاب الأرض العربية، Jerusalem Reveald (Archaeolgy in the Holy city) 1966 - 1974 PP. 52 - 55).

كما أن السلطات الاسرائيلية عاودت التنقيب في قلعة القدس المغتصبة في الفترة مابين أعوام ١٩٧٥ - ١٩٧٨ على طول السور الغربي حيث تم اكتشاف جزء من قناة صرف يبلغ طولها ١٦ م إلى الجنوب من تحصينات القلعة المائلة كما اكتشف جزء من هذه القناة عام ١٩٨٢ إلى الشرق من سور المدينة وبقايا من العصر الحديد والبيزنطي.
(Excavations and surveys in Israel (Occupied Palestine) 1983 vol. 2 1983 P. 52).

هذا وفي خلال عامي ٨٣ و ١٩٨٤ واصلت السلطات الاسرائيلة الاثرية أعمال التنقيب في أربع مناطق في تحصينات القلعة بحجة المساعدة على ترميم القلعة وذلك في اطار مشروع تزعم تلك السلطات أنه يهدف الى تطوير القلعة وذلك بإشراف مديرية الآثار وبمساعدة صندوق القدس وسلطة تطوير القدس الشرقية (؟!)، ولقد عثر في هذه التنقيبات على بقايا من العهدين البيزنطي والعربي الاسلامي.
Excavations and surveys in Israel (Occupieal Palestine) 1948 vol. 3, 1948. P.

العناصر التحصينية:

إذا أمعنا النظر في تحصينات قلعة القدس الشريف نجد أنها لاتختلف كثيراً عن العناصر التحصينية الموجودة في القلاع العربية الاسلامية المعاصرة لها مثل قلعة القاهرة والكرك ودمشق وحلب وغيرها. فهناك الأبراج والأسوار والمداخل الملتوية والسقاطات وفتحات السهام والتحصينات المائلة والخندق والشرفات والممرات السرية وإذا أردنا عقد المقارنات مع القلاع الأخرى نجدها تقريباً على النحو المبين أدناه، وهي لاشك عناصر أثبتت فعاليتها في ذلك العصر.

العنصر التحصيني	دمشق	حلب	القدس	بصرى	شيزر
الخندق	×	×	×	×	×
التحصينات المائلة	؟	!	×	×	
الاسوار	×	×	×	×	×
الابراج	×	×	×	×	×
الجسور المتحركة	×	×	×	×	×
السقاطات	×	×	×	×	×
المرامي	×	×	×	×	×
الشرفات	×	×	×	×	×
المداخل	×	×	×	×	×
الممرات السرية	×	×	×	×	×
الابواب المنزلة	×	×	×	×	×

هذه قلعة القدس عبر العصور التاريخية التي مرت على القدس وفلسطين وبلغت ذروة عزّها وشموخها في العصور العربية الاسلامية ووقفت صامدة في وجه كل عدوان، وذهب المعتدون وبقيت تحكي تاريخها المشرف للاجيال اللاحقة تقف اليوم صامدة بصمود ابنائها، وأبناؤها صامدون بصمودها، فقد علمتهم مواجهة المخاطر بعزم وقوة، وستظل قلعة القدس صامدة وفيّه بعهدها الذي قطعته على نفسها بمواصلة النضال إلى أن تحرر من رجس كل غاز معتد ودخيل وسيكون الصهانية، بعون الله، آخر الغزاة والدخلاء.

المراجع:
الحنبلي مجير الدين: الانس الجليل في تاريخ القدس والخليل، مكتبة المحتسب، عمان ١٩٧٣.
٢ - الامام رشاد: مدينة القدس في العصر الوسيط، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٦.
٣ - نجم رائف وآخرون: كنوز القدس منظمة المدن العربية، الكويت، ١٩٨٣.
٤ - عابدي محمود: الآثار الاسلامية في فلسطين والاردن، عمان، ١٩٧٣.
٥ - الدباغ مصطفى مراد: بلادنا فلسطين (بيت المقدس)، دار الطليعة، بيروت، ١٩٧٥.
٦ - العارف عارف: المفصل في تاريخ القدس، القدس، الطبعة الثانية، ١٩٨٦.
٧ - العسلي كامل: من آثارنا في بيت المقدس، عمان، ١٩٨٢.
٨ - جونز: دليل قلعة القدس، مطبعة حكومة فلسطين، ١٩٤٥.

شعر

راية القلب
ـ ضد الموت ـ

ابراهيم نصر الله*

إشارات

***تموز**: قتله الخنزيرُ المتوحشُ في الجبل.. ومن دمه المهدور انتشرت شقائقُ النعمان، لذا فان عودَتُه موسمية. ولكنه أسلمنا الخيطَ الذي تتبعناه إلى أن أصبحتْ إقامةُ شهدائنا بيننا دائمة.

* **جلجامش**: بحث عن عشبةِ الحياةِ حتى وجدَها. فغافلتْهُ الأفعى وسرقتْها، ولكننا منذ خمسة الاف عامٍ مازلنا نقتلُ الأفاعي ونشهدُ موتَها، ومازال جلجامش يعيشُ بيننا.

* **أور**: مدينةُ جلجامش.. تبوحُ لنا بسرِّها وتتجلى كلما ارتفعَ منسوبُ الكرامةِ في دمنا.. فتكون أحياناً عكا الصامدةَ في وجه الحصار وتكون حيناً يَعْبَدُ التي تزهو بعز الدين القسام.. وتكون حيناً بيروت.. وأور.. مثلَ كلَّ البشرِ الرائعين.. لاتموتْ. فالمدينةُ من لونِ البَشرْ.

* **سُراقة**: أحـد فرسانُ قريش الذين تابعوا النبيّ في هجرته الى يثرب مع أبي بكرٍ. ليقتُلَهُ، التوظيف هنا ليس له علاقة بهجرة النبي.. ولكن له علاقةٌ بالهجرة. لقد وعَدَ النبي سُراقةَ إن عاد بسوارِ كسرى، فعاد، وكان له بعدَ سنواتٍ طويلةْ، وعلى الرغم من وعود كثيرةِ قَطَعَتْها قصائدُنا على نفسها، إلاّ أن سراقةَ القرن العشرين لايعود ولكن كما تقول أمي (ذنبه على جنبه)!!

* **عوليس**: بطل الاوذيسة.. ورحلةِ المهالكِ الطويلةِ باتجاه بلده، وصلَ في النهاية حياً، ووصلتْ دلالُ المغربي شهيدةً، وفي البرّ الفلسطيني كانت لينا النابلسي تشقُّ الطريقَ باتجاهِ الساحلِ الساحلِ الذي يُشكّلُ نقطةَ اللقاءِ الجميلةَ بالقلب.. بكامل الوطن.

* **بدر**: بدر شاكـر السيـاب.. عقـدَ حِلفاً معلناً مع تموز، حيث يخرجُ كلَّ عام ليدعو شقائقَ النعمان.. وما أن يُنْشِدُ قصيدتهُ *أُنشودة المطر) حتى تلبي نداءَهُ كلُّ أزهار الكونْ.. وهذا بالذات ما يدفع الموت الى الانقضاض على الازهار محاولاً إخفاء جريمتِه.. وهذا هو السبب ـ ربما ـ الوحيد الذي يجعل أعمارَ الوردِ قصيرةً الى هذا الحد.

* **عمر**: حين وردَ اسم عمر في نشيد الطفلة في آخر القصيدة.. لم يجرؤ أحدٌ على أن يسألها من تقصـدين بذلك.. كانت على ثقةٍ من نشيدها، ولكنها ربما كانت تقصدُ أحد العمرين عمرَ بن الخطاب أو عمرَ المختار، أو عمر.. الطفلَ الصغيرَ جداً.. المشاكسَ.. ابن جيرانها!!

سأبدأُ هذا الصباحَ
وأهتفُ:
عمتَ ظلاما
خطايَ تعودُ اليكَ كأني
خرجتُ هنالكَ من صمتِ رحمكَ
أو أنني ماتَبعتُ الغماما
إلى نخلةٍ شكَّلتْنا حماما
سأبدأُ هذا الصباحَ
وأنسى أفاعي خطاكَ التي تَعبرُ الدمَ
أنسى.. وأستلُّ قلبي حُساما
أنا خارجُ الاسود المترامي
على سطحِ هذي القور
أنا داخلُ الزنبقِ المتصاعد
من ظلّنا نحوَ عشبٍ ودور
أنا خارجُ الداخلِ المتفجِّر
من جسدي هاربٌ

* شاعر له عدة مجموعات شعرية يقيم في عمان.

ماتعودتُ يوماً مقاما
ولكنني الآن أمضي إليكَ
وأبعُدُ
عني
فمنْ يُوقفُ الآن خطوي
لأسحبَ روحي بعيداً
وأنصبَها في الفلاةِ خياما
ويُلقي على كتفيَّ السَّلاما؟

*

تَشهيْتَني عندما كنتُ طفلاً
ركضت معي
وقاسمتَني نصفَ خبزي
ونصفَ هوائي
ونصف الدوالي
وقاسمتَني شعلةَ الفرحِ الأخضرِ
الحلمَ
حتى إذا ماسألتُ.. اندفعتِ
وقاسمتني دهشتي وسؤالي
ابتعدْ
قلتُ.. حين رأيتُ سواقي ظلامِكَ
خصلاتِ أشباحِكَ ـ الجندِ
قلتُ ابتعدْ
وتقدمتُ نحوكَ يوماً.. سنة.
وقلتُ: ابتعدْ
وملأتُ الشوارعَ بالشيطنه
وقلتُ ابتعدْ
وامتطيتُ الأناشيدَ كالأحصنه
وقلتُ ابتعد

وتقدمتُ نحوكَ
والريحُ في قيدها ساكنه
وقلتُ ابتعدْ
والتقينا
أنا الطفلُ
والزهرُ لم يبلغِ الثامنهْ
فأوشكتُ أن أنحني لتمرَّ
وكانَ الرصاصُ يفتتُ صدرَ الهواءِ
ويلقيه للصخر..
حين رأيتُ انفجاراً
صغاراً يطيرون صوبَ النجومِ..
القنابلَ موقوتةً ترثُ الأمكنه.
وقلتُ ابتعدْ
لستُ وحدي!!
ابتعدْ!
وأشهرتُ في وجهكَ السوسنه

- * -

تسللتَ من أينَ؟!
أين ولِدتَ؟!
وكيفَ تكاثرتَ..
كيف استطعتَ؟
أن تغافلَ أجدادنا
أن تَغذَّ الخُطى نحونا
أن تسابقنا
كيف غافلت آدمَ
كيفَ تسللتَ برداً الى صدرِ حواء
هل شعلةُ الحبِّ بينهما انطفأتْ
فأقمتَ هنالكَ في نُطفةٍ..

قُبلةٍ
وذبحتَ البداياتِ من سرِّها
ورفعتَ الظلامْ
وأصبحتَ ياموتُ ظليهما
قيلَ لم يكُ للزهر ظلٌّ
ولم يكُ للسرِّ ظلٌّ
ولم يكُ للخيلِ ظلٌّ
ولم يكُ للنهد ظلٌّ
ولم يكُ للشمس ظلٌّ
فكيفَ قَطَعْتَ أناشيدنا
كيف باغتَ «تموزَ»
كيفَ تخفيتَ في ثوبَ أفعى
وغرّبتَ «جلجامشَ البابليَّ عن الغد.. والخطوةِ القادمةْ
وقَوّضتَ أسوارَ «أورَ»
لتصبحَ ياموتُ من بعدها عاصمه؟!!

- * -

تمرُّ مرورَ الجنودِ علينا
مرورَ القيودِ على روحنا
وتمرُّ مرورَ الحرابْ
وترفعُ أعراسَنا جثثاً
وتُعلِّقُها في مهبِّ الغيابْ..
عصافيرَ جامدةً
وسماءً معلقةً في جناحِ غرابْ
تمرُّ علينا
وترتعشُ الجنرالاتُ تحتكَ
في ليلةٍ.. يَلدونَ الخرابْ
ويكنُ انقلابْ:
عساكرَ جرارةً

عوسجاً
ومجالسَ من «نعم» وذئابْ
أنا الطفلُ مازلتُ أُطبقُ كفي
على جملةٍ ـزهرةٍ في الكتابْ
وأقرعُ أجراسَ لهوي
كأني أراوغهم عسكراً وذبابْ
وآوي الى «كرملي»
وأُحرِّضُ هذي الرياح
وأُطلقُها من أعنَّتها
وأقولُ اقلعي جذرَ هذي الجراح
أنا الطفل
ياابتي.. فامتشقني
أنا نصفُ سرٍّ
أنا فسحةٌ ما وراءَ الجوابْ
دمي عاصفٌ
وجموحي عُقابْ
أنا الطفلُ ياابتي
فامتشقني
توكأْ عليَّ
انتصبْ
لاتمتْ
هاهمو يغلقونَ الصدورَ علينا
هنا ظُلمةٌ
ظلمةٌ
ظلمةٌ
....
وتحسستُ قلبي
وأشعلتُ قنديلَ روحي

تَجَّمعْتُ.. كي لاتمرَّ السِّهامْ
وتشرعَ للموتِ نافذةً للظلامْ
وتَجمَّعتُ أكثرَ.. ثم صرختُ
فابصرتُ «روما» مجللةً بالسوادْ
وصبرا موزعةً
أيَّ طفلٍ قتيلٍ ستحتضنُ الان؟
وكلهمُ ثمرٌ للفوادْ
وأبصرتُ «شاماً»
وجيشَ المغول يعلِّقُ بغدادَ من نهرها في الوهادْ
ـ ياولدي! أين نحنُ
* هنا..
ـ ما «هنا» هذه؟!
* «غيرُنا» ياأبي «غيرُنا»
قلتُ ياامرأتي أين أنتِ
فقالتْ: هنا «غيرُهم»
وتَجّمعَ هذا الظلامُ تَجمَّعَ
فاحتلتِ اليافطاتُ الشوارعَ أسماؤهمْ

- * -

أتدثرُ بالصمتِ أسئلةً
أتدثرُ بالاقحوانْ
وأطرقُ أبوابَ النشيدْ
....
وتمضي المدينةُ في ليلها نحوَ صدرِ الحديدْ
صوتُ قيثارةٍ
وحفيفُ صلاةٍ
وأعمدةُ المدنِ الغابرهْ
آخرُ الضوءِ
بغضُ الندى المطمئنِ على جثةٍ جلستْ ساهره

خطى تتقاطعُ
رتلُ جنودٍ
وزنزانةٌ
وضلوعُ قرنفلةٍ سافره
السماءُ معبأةٌ بالجفافِ
الحجارةُ غائمةٌ ماطرهْ
وكلُّ الخطى عابره!!
وكلّ الخطى عابره!!
ردَّ لِي بعض قلبي اذن أيها الحبُّ
كي أحبسَ الخطوَ فيَّ
فأمضي اليَّ
وردَّ لِيَ المرأةَ الطائره
رَفعتُ لها نصفَ عمري جناحاً
لأقنعَ زهرَ البنفسجِ فيها بأني ابنُها
فردَّ على جسدي عريهَا
لكي أسترَ الروحَ
ردَّ على غربتي «الناصره»
ولاتبتعدْ أيها الحبُّ عني
وهاتِ يدكْ
إن بريتي خلفَ عرسِ الغجرْ
معلقةٌ في نشيج وترْ
فلا تبتعدْ أيها الحبُّ عني
وهاتَ يدكْ
فالمساءُ حَلَكْ
وأضاعتْ شبابيكنُا منزلَكْ
أيها الحبُّ لاتبتعدْ.. أيها الحبُّ.. عني
وهاتِ يدكْ
واضيء شمعةً

سُحقتْ وردةٌ
واطمأَنَ الرصاصُ.. فمرَّ بطيئاً!!!
وغنّى جنودٌ
قَتَلْنا مَلَكْ
اضيء أيها الحبُّ وجهي
ودلَّ عليَّ الفَلَكْ
ليلةٌ.. والنهارُ غريبٌ
فأيَّ الدروب سَلَكْ؟
تعثرتُ.. قمتُ
ويممتُ وجهي إلى حيثُ وجهي
فأبصرتُهُ.. قلتُ من قَتَلَكْ
قال عاودَني راقصاً في الظلامِ
هنالكَ في ساحة المقبرهْ؟
قُلتُ ماذا حدثْ؟!
قالَ عند الغروبْ
افتتحوا معرضاً
وبعدَ دقائقَ
مرّوا ثقالاً.. وفي دمنا افتتحوا مجزَرَهْ
قلتُ ياأيها الموتُ
ناديتُ.. ناديتُ
أعرفُ أنكَ في الصمتِ
والآنَ املأ كلَّ خلايايَ رقصاً وأفئدةً وطبولْ
اقطعُ الدربَ.. أفتحُ هذا النهارَ عليكَ
شأشْهرُ أجملَ ما في دم الوردِ
أجملَ ما في عيونِ النساءِ
وأجملَ ما في غناءِ الطيورِ
وأجملَ ما في اندفاع الصدورِ
وأجملَ ما في جموحِ الخيولْ

وأنزعُ منكَ المدى
ثم أتركُ صوتَكَ دونَ صدى
كصحراءَ خارجَ روحِ الندى
أيها الموتُ
هذا طنينُ خطاكَ ألا فاظهرِ الآنَ.. وليتجلَّ الوعيدْ!!
قالَ ماذا تريدْ
قلتُ أن تتراجعَ..
أن تذبلَ الظلمةُ.. الخوذةُ.. الحرسُ.. المِشْنَقَهْ
وأن أجدَ العمرَ للزنبقهْ
قالَ: ماذا تريدْ؟!
قلتُ أن أُوصل الغدَ بالبارحهْ
واجتاحَ جندَ الردى الفاتحهْ
قالَ ماذا تريد؟
قلتُ أن تُرجع الارضُ أحبابنا
ويُنادى علينا بأسمائنا
لا بأشلائنا ورياحِ الألمْ
قالَ: لا
قلتُ بيني وبينكَ دمْ
ومضى..
ومضيتُ
فقلتُ لنا جولةٌ
قالَ: كيفْ؟
قلتُ: أمتشقُ الروحَ رمحاً وسيفْ
واكونُ الحُضورْ
قالَ: إني العدَمْ
فناديتُ
جاءتْ إليَّ نُسورٌ
وجاءتْ إليَّ قممْ

قلتُ من ذا يلبي نداكَ؟
فقالَ: الأعاصيرُ والساحراتُ
وبردُ الحديدْ
قلتُ من ذا يلبي نداكَ
ـ العبيد
وناديتُ
لبتْ ندائي الخيولُ
وجاءَ على الصهواتِ النشيدْ
وجاءتْ حدائقُ
فانفضَّ
قلتُ تمهلْ
مضى..
عباءَتُهُ طَعناتٌ وبيدْ

- * -

قالَ.. ألقاكَ في البحرْ!
قلتُ ألقاكَ في البحر!

- * -

جاءَ كبشٌ من الموجِ مشتعلاً
قلتُ يابحرُ
كنتَ دمي
وترابُ السواحلِ كانَ الجسدْ
قلتُ يابحرُ فينا المدى يتّحدْ
أنا الشيخُ
والطفلُ..
قلبي شيطَنَةٌ وولدْ
لكَ الأرضُ تاجٌ
لكَ الموجُ مَجدْ
قلتُ يابحرُ

آتيكَ
لاأبحرُ الآنَ حتى أكونَ سواكَ
سوانا هو الضدُّ..
.. إطفىءُ قرونَ المياهِ.. وَلِدْ
ساحلاً هادئاً
يَصلُ اليومَ بالغد
يابحرُ
يابحرُ هات يدك
لكي أرتقي فَرحاً زُرقتَكْ
ونُشعلَ للفاتناتِ هناكَ على الشطِّ وردْ
ستراِنا الطيورُ
وتحملُنا للأغاني
ففي الحزنِ يابحرُ منفىً وبُعدْ
هدأُ البحرُ
يابحرُ
ها سُفني.. عودتي نحوَ نصفي
ونصفيَ ماءٌ
ونصفُ الحبيبةِ شَهْدْ
سقطَ الظلُّ
وانتشرَ الليلُ
فاندفعَ الموتُ
ياموتُ عُدْ
لنا البحرُ وجهٌ.. تورُّدُ خَدْ
فقالَ: لي البحرُ.. سيف وعَبدْ!
قلتُ يابحرُ نَسِّقْ رماحَكَ
قد أقبلَ الموتُ
ياموتُ عدْ!
هنا الكائناتُ أتتْ رضعتْ من حليبِ جموحي

ولمْ يكُ في الارض قبلَكَ حقدْ
قلتُ: فلتكن الحربُ ياموتُ فلتكن الحربُ
قالَ: أنا الجزرُ
قلت: أنا المدْ
اندفعنا.. اختلطنا
وكانتْ أعاصيرُهُ سيفَهُ
وذئابُ الرياح أصابعَهُ
قُلتُ ياحبُ خُذْ بيدي الآن
حصِّنْ شراعي وياحبُّ شُدْ
وتجمعَ فينا صباحٌ.. صغارٌ
حدائقُ.. خيل مدىً لايُحدْ
وكانتْ كواكبنا لاتُعدْ
سقطتْ من يدِ الموتِ وجهتُهُ
وأعاصيرُهُ
قالَ اني العدوُّ وما من صداقتنا الآنَ بُدْ
قالَ عوليسُ: لا
هتفَ الموتُ فلتتسع خطوتي
وليكنْ حقلُكُمْ رملَ نَجدْ
وليكنْ وجهُ فينُوسَ في الحدقاتِ رَمَدْ
ومضى فتصاعدتُ قلتُ لنا جولةٌ
ومضى
حينَ عُدنا مع الصبحِ نحوَ السواحلِ
قالتْ «دلال»
انظروا تلكَ حيفا
انكساراتُهُ وصلتْ قَبْلَنَا
وأشارتْ إلى كومةٍ من زبَدْ!

- * -

ودارتْ بنا الأرضُ
جاءَ لنا الموتُ
قلنا لنا أينَ حيفا؟!
ولم يكُ هذا سؤآلٌ
وأصبحتِ الأرضُ منفى

- * -

يَطولُ الرحيلُ إلى أرضِ يثربَ
مكةُ أبعدُ من خطوتي
والرياحُ تسوقُ المدى للردى
ويطولُ الرحيلُ إلى أرضِ يثربْ
في العتمِ ألفُ «سراقةَ» خلفي
ناديتُ عودوا
ومَنّيْتُهمْ
قلتُ عودوا..
تضيفونَ ليلاً إلى ليلكمْ
إذ يسيلُ دمي
ويوزعُ جسمي على حلمكُمْ
قلتُ عودوا
وألفُ سراقَة خلفي
ولم يبقَ لي رمقٌ غيرُ سيفي!!
وناديتُ عودوا
ومَنّيْتُهمْ
لم يعدْ منهمُ أحدٌ
كانت الريحُ خلفي سُراقةْ
ورملُ الصحاري سُراقَةْ
قلتُ بيني وبينَ المدينةِ يومانِ
فلأتحامل على آخري!!
رُبَّ شبرٍ من الأرضِ يَطلُعُ من خلفِ هذي الرمالِ

ورُبَّ بدايهْ
تُعيدُ ليَ الخطوَ من تعبٍ..
وتردُ النهايهْ
التفتُ إلى صاحبي
قلتُ لاتحزن الآنَ
من بَعدِنا يُولد الحزنُ
مادامت الشمسُ للقلبِ رايهْ
وكانوا هنالكَ
تنبسطُ الأرضُ تحتَ حوافرِ أفراسِهمْ!!
وتُخَسفُ من تحتنا!!
فنراوغُ نارَ أسنتِهمْ
قلتُ ياربُّ قُلْ
معنا أنتَ أم معَهمْ؟
ودنوا ودنوا
لَفَحَتْنا السيوفُ اللهاثُ
فقلتُ أيا صاحبي قلْ لهمْ.. قُلْ لَهمْ
سنردُ الأغاني على حزنهمْ
وتفسخِ أرواحهمْ
قُلْ لهمْ
والتفتُ
فما عادَ لي صاحبُ
صاحبي الآنَ تابعُهُمْ!!
تعبي هَدَّني.. فَنَحَتُّ خطايَ
وناديتُ: يا للخيانةِ
واقتربَ الموتُ
يا للخيانةِ
ياقلبُ لاتتوقفْ
وياصدرُ لملْمْ فُتاتَ الهواءِ

الزنازينُ ضيقةٌ
والمذابحُ حاضرةٌ
والسماءُ
سحبتْ نُطفَةَ الشمسِ من دربِنا
فاشعل الآن ياقلبُ ماشئتَ
من عتمةٍ.. ولتكنْ لي فضاءْ
حصارُكَ في خطوةٍ ودم
وحصارُكَ صمتٌ وجرعةُ ماءْ
فلتكنْ لي فضاء
بيروتُ البحرَ جَهراً بأسمائنا
وتُعلمُنا حكمةَ الكبرياءْ
إيهِ ياحبُّ يثربُ تنأى
إيه ياحبُّ يثربُ تأتي
سأُعاتبها دائماً أينَ كُنتِ
إيهِ ياحبُّ يثربُ تنأى
قَطَعْنا ثلاثين حَزْناً
لندخلَها مثلما ندخلُ القلبَ
لكنها الآن تنأى
شبابيكُها حَجَرٌ
والغناءُ على سورها حجرٌ
أين همْ؟!
من يفضُّونَ حزنَ القصائد
إذ ينشدونَ هنا «طلع البدرُ»
ياحبُّ قد طَلَعَ الموتُ
عمانُ تنأى
أيا حبُّ عُدْ
مكةُ الآنَ أقربُ
ياحبُّ عُدْ

لم يَعدْ لي طريقٌ لأُطلق نافذتي طائراً
أو رسائلَ
إني أعودُ وألفُ سُراقةَ خلفي
هزيمةُ شمسِ النهارِ هنالكَ في صاحبي
فلنقفْ لحظةً
سأرتبُ ياحبُّ في لحظةٍ ساعدي وصفوفي
لكيْ أتجمهرَ
ثم أباغِتُهمْ
ليسَ من خَلفِهمْ
من حُضورِ الذئابِ بأسيافِهمْ
من خيامِ الجيوشِ بأرواحِهمْ
من مرورِ الخرابِ على صدرِهمْ
وانحناءاتِهمْ
مكةُ الآنَ أقربُ
والنهرُ صوتي
وخلفَ أريحا
جبالُ أنادي فآتي وتأتي
...
وغافلني تعبٌ فغفوتُ
وقالَ لي الحلمُ.. هلْ يتعبُ الحُلمُ
قلتُ: ذُبِحْتُ
أطلَّ لِيَ الموتُ
من أنتَ.. قلتُ؟!
فقال: أنا الآنَ أنتْ
وقبلَ دنوِّ خُطاهُ انتصبتْ

-*-

إنها شهوةُ الحربِ تتقدُ

أتكونُ المنافي.. ولي بَلَدُ

-*-

....
وقاتلتُ فيكَ الحِجابَ
ولغزَ البدايةِ
قاتلتُ فيكَ غموضَ الحكايةِ
قاتلتُ بردَ الأصابعِ هدأتَها
وَتَفَتُّتَ تُفاحة الوقتِ
قاتلتُ صمتَ خطاكَ على عتباتي
وقاتلتُ ذاتي
لأرى جسدي عالياً
وضلوعي قصيَّهْ
وقاتلتُ نَرجسةَ السرمديهْ
وناديتُ: قابيلُ.. أين أخوكْ
قالَ لم أكُ حارسَهُ
وتصاعد صوتُ دمٍ في البراري
فناديتُ: قابيلُ لَمْلِمْ أخاكَ
ولملمْ نصالَ الحجارةِ من دمهِ
واسمِه
كيفَ علقَتنا في السوادْ
وأدخلتَ ذاكَ الغرابَ الى بيتِنا
ليشاركنا خبزَ أطفالنا
حضنَ زوجاتنا
مصرُ كانتْ لنا
مصر كانت لنا
وغُرابُ االسلامِ على بابنا
جاءنا ظُلمةً ترتدي هدأةً
وتُعلمُنا

كيفَ نطوي الشوارعَ في القبرِ ليلاً
ونمضي صباحاً لأكفاننا
واقفٌ في المدى عتمةً.. واقفٌ
وجهُ هذا الغرابْ
لايُعلمُنا أن نواريَ موتا
يُعلمُنا أن نواري الحياة
.. قابيل دعْ جثةَ الموتِ عاريةً كي نراه
ونسددَ أزهارَنا نحوَهُ
لنردَّ الطّغاهْ
فلا نطلبُ الآنَ مغفرةً
بعد «صبرا»، انطفتْ هيبةٌ وإلهْ
ولنْ نركعَ الآنَ إن الصلاهْ
تمردتِ اليومَ
وابتكرتْ شرفةً للقتيلِ
وللصمتِ أنشوطةً في الفلاهْ
وابتكرت جمرةً للمياهْ
فدعْ جثةَ الموتِ عاريةً كي نراه
ونقاتلَهُ في القيودِ
نقاتلَهُ في انصياعِ الجنودِ
نقاتلَهُ في الاذاعات
في الانقلابات
في هيئةِ الامم.. البرلمانات
فيما يقولُ لنا الجنرالُ
وما يتراجعُ عنهُ السؤالُ
وفيما تُخبىءُ جَهراً يداهْ
ودعْ جثةَ الموتَ
دعْ جثةَ الموت عاريةً كي نراهْ

-*-

كانَ عمريَ حِمْلاً وكُنتُ خُطاهْ
وكانَ دمي غائماً في رؤاهْ
كانَ عمري
حمْلاً
وَكُنتُ
خُطاهْ

-*-

تَجرَّدتُ من سنواتي
عبرتُ الزمانَ
وقلتُ ليَ الآنَ كلُّ حياتي
تجرَّدتُ من سنواتي
ذراعيَ أبيضُ
صدريَ أبيضُ
روحي بيضاءُ
إسمي.. دمي
ظليَ الانَ أبيضُ
صمتي.. وأنشودتي.. كلماتي
وقلتُ ليَ كلُّ حياتي!!
التواريخُ أخمدتُها في دمائي
الدقائقُ مطفأةٌ
يافعُ أولُ العشبِ فيَّ
ومشرقةٌ ظلماتي
حافلٌ مهرجانُ السواحلِ
طائرةٌ خطواتي
وشفافةٌ كالرؤى أغنياتي
سأُغلق أبوابَكَ الان
أسحبُ ما كنتُ أسلمتُهُ ليديكَ

وثيرانكَ القاتلات
وأُطلقُ ما شاءَ لي سيدي الحبُّ من طلقاتِ
لينهارَ فيكَ الظلامُ
وتبزغَ أقمارُ ذاتي
الشوارعُ بيضاءُ تركضُ
والبحرُ أبيضُ
صافيةٌ صَحْوتي.. وسُباتي
فلا شيءَ يحكمني الآنَ فيكَ
تجردتَ يا موتُ من سنواتي!!
. . . .
ولم يكُ بيني وبينَ الذي قُلْتُهُ
غيرُ فوضى الحمامِ
التي أيقظتْ هدأَةَ الشرفات
رأيتكَ تَصعدُ حقلي فيذبُلُ
تَصعدُ ماءَ الينابيعِ يَرحَلُ
تصعدُ زهرَ البنفسجِ يجفُلُ
تَصعدُ أحجارَ بيتي...
تفارقني عتباتي
قلتُ لا تئدُ الوقتَ فيَّ.. أنا خارجَ الوقتِ
خارجَ ظلِّ الملوكِ
وخارجَ رمحِ الطغاة
تقدمَ.. لا ليسَ نحوي ونحوي
فشاهدتُ أُولى الدقائق تسودُّ
واجتاحَ عرسَ كرومي
وعمَّ خريفٌ طويلٌ غُصوني
توارَدَ رَعْدٌ
وعمَّ الجهاتِ
قالَ ما جئتكَ الآنَ كيْ أقبضَ الروحَ

أو أملأَ الكأسَ من دمكَ الزهرِ
حتى تفيضَ سواداً على كتفيَّ صفاتي
فلتكنْ روحَ هذا البياض إذن
فلتكنْ روح هذا البياضْ
ولكنني أشربُ اليومَ ما اخضرَّ حولكَ من مطرٍ
وأغانٍ.. وأسحبُ زيتونةَ الروحِ
من شعرِها للجفاف..
وأُطفئُ عشبَ الضفافِ
هنا وهنالكَ.. عشب الضفافِ
قلتُ: حقليَ هذا
فقالَ: فلاتي!!
وشاهدتُ قربيَ بعضَ رُفاتي
نهضتُ وناديتُ
فليكنْ السهلُ قمحاً
وهذي التلالُ شَجرْ
ولتكنْ الريحُ سفحاً
لأقطفَ هذا الثَّمرْ
وليكنْ البحرُ عرساً
ولونُ الفراشِ وترْ
وليكن الحلم بيتاً
وبعضُ المُقام سِفرْ
سفرْ...
فاخضرتِ الأرضُ ثانيةً
وشاهدتُ «بدراً» يغادرُ أكفانَهُ وهو يُنشِدُ ملءَ الفضاءِ:
مطرْ
مطرْ
مطرْ

*

نلاقيكَ فلتتقدمْ إذنْ..
ونناديكَ: ها نحنُ دوماً هنا
فمْن أيِّ زاويةٍ سوفَ تخرُجُ ريحاً علينا
وتَقلعُنا؟
أتغافلُنا؟
وكلُّ الجهاتِ منازلُنا
ولو شاءَ جلجامشُ البابليُّ لردَّكَ عن روحهِ وحدَها
ولكنّه عاد بالعشبِ عادَ لنا كلّنا
غافلتْهُ الرؤى لحظةً إذ رأى الموتَ يَهزمُ «أورَ» بأكملِنا
ولكنَّ طيبةَ آبائنا..
فيهِ ما أبصرتْ غيرَ زُغبِ الحواصلِ
ما أبصرتْ غيرَ أكفانِنا
هذا صدى «أورَ» في روحنا
«ويَعْبَدُ» تخضرُّ داخلنا
«وعكا» تردُّ الغزاةَ هناكَ بسيفٍ من الموجِ أو ضلعنا
«وبيروتُ» تخفقُ في صدرنا
ولو خُيِّرتْ شَهوةُ الليلِ فيكَ
لوزعتَنا.. في رؤوسِ الجبالِ
هنا وهنالكَ
أشلاءَ
لا شيءَ فيها يُشابهنُا
كأنكَ إذ تقطفُ العمرَ تخشى مقابِرنا!!
فتبتكرُ الغربةَ
الهجرةَ
الفلواتِ
المنافي.. القيودَ
حرابَ الجنودِ
انشطارَ القديفةِ

«نيرونَ.. شارونَ»
كذبَ الصحيفةِ.. حكامنا
ولكننا نُنْشِدُ الآنَ
نحن هنا كلنا
تجيءُ الينا وتحملنا جثثاً
واحداً
واحداً
واحداً
واحداً
ونَحملُ منكَ إلى قَبرِنا
ما اقتطعتَ من القلبِ
نحملُ منكَ الكثيرَ
لأنّا هُنا «النحنُ»
لكنكَ «الأنتَ»
وحدكَ تمضي
توزعُ جسمَكَ فينا
وتدفنُ غِربانَ عمركَ فينا
نموتُ.. وما زلتَ تنتحرُ
ونحيا.. وما زلتَ تنتحرُ
ونملأُ هذي البراري غناءً.. صغاراً
ويملؤنا المطرُ
بلاداً وقمحاً مواسمَ عشقٍ طويل
ويتبعنا القمرُ
إلى ساحةِ الرقصِ حيثُ الظّباءُ هنالكَ
تعلو.. وتنحدرُ
ومازلتَ تمضي وحيداً بعيداً إلى جثةٍ
وفيما تبقى لها من دقائقَ تنتحرُ
ويخرجُ طفل الى ساحة الحُبِّ في صفحاتِ كتاب القراءة

أو في النشيد ويَصرُخُ في الأرض أين طغاتُك، يأتي الصدى ها هنا انكسروا
ونبصرُ ليمونةَ الخوفِ فيكَ تذوبُ
وتصفرُّ.. تنفجرُ
وتنحلُّ تنحلُّ.. تندثرُ
كلما أنشدتْ طفلةٌ في الطريقِ إلى المدرسة:
ضوءُ قلبي «دلال» و «لينا»
وصوتُ دمي «عمرُ»
ونبقى..
ونصعدُ أحزانَنَا وأناشيدنَا
وتغافلُنا ثمَّ تنسلُّ سراً
وجهراً الينا وتنتحرُ
.. نموتُ.. ومازلتَ تنتحرُ
ونحيا وما زلتَ تنتحرُ

عمَّان «أيار ـ حزيران ١٩٨٧»

شعر

مقاطع من النشيد الفلسطيني

الى الصامدين في حصار بيروت

ادريس بن الطيب*

كلُّ البداياتِ قد أصبحتْ لا تليقُ،
فمن ينقذُ الشِعرَ من قدرٍ يترصدهُ بالضآلةِ حين يعريه قصفُ
المنازلِ من شدةِ الاستعاراتِ؟
ها أنذا سوف أطلقُ من هاهنا صرختينِ وأنشودةً، ثم
أعلنُ أن جيوشَ الغزاةِ تحاصرُ قلبي،
وأنّي أهربُ عبر شقوق الزنازن هذا اللهيبَ الذي يشبه
الشعرَ، مرتسماً له لاتطاوعُ، مخترقاً حلقةَ الرقصِ
حيثُ يُغني الأحبّةُ خلفَ خطوطِ الحصار..
فماذا يُراودني الآنَ من هَذَيانِ القصائدِ؟
أجملُ أشعارنا يتفجَّرُ في غربِ بيروتَ، بين أزقة «صُورَ»
و «صيدا»، «بخَلْدَةَ»، «بالنَبَطية» يكتبُه الصبيةُ
الطالعونَ من الرحِم المتفجرِ ممتشقينَ مدافعهم
ينثأونَ من الأرضِ،
كالوردِ، كالموتِ، كالزَّغرداتِ،
وينتشرونَ على صَدْرِ هذا الجنوب العجيب الذي لايمُوتُ،
تُخبئهم رئةُ المدنِ المستَباحةِ بين تعاريجها ثم تزفُرهم
جُماً في وجوهِ الفيَالقِ،
ياحزنَ هذه المدائن،
من يشتري مني عُكازتيَّ بأسورةٍ وزنادٍ واطلاقتين؟
من يشتريني؟
أنا سيدُ الزمَنِ المُتَناثرِ في حَدَقاتِ الجياعِ،
وأمي التي علّمتني العِنادَ رمتني على حافّةِ الموتِ للرقص
حتى الولادة..
هنا النارُ ترتعُ بين العيونِ مشرَّدَةً،
وهناك جيوشُ الغُزاة تفيضُ جحافُلها كالوباء،
وكلُّ مجنزرةٍ تتقيأُ طاعونهَا في خُصُورِ المنازلِ،
كيف يُفرِقُ هذا المحبُ المُولَّهُ بينَ القنابلِ والنّهدِ
بينَ اصطفافِ جناحَي سُنُونوةٍ واحتدامِ الرصاص؟

* شاعر من ليبيا.

أو في النشيد ويَصرُخُ في الأرض أين طغاتُكَ، يأتي الصدى ها هنا انكسروا
ونبصرُ ليمونةَ الخوفِ فيكَ تذوبُ
وتصفرُ.. تنفجرُ
وتنحلُّ تنحلُّ.. تندثرُ
كلما أنشدتْ طفلةٌ في الطريقِ إلى المدرسةْ:
ضوءُ قلبي «دلال» و «لينا»
وصوتُ دمي «عمرْ»
ونبقى..
ونصعدُ أحزانَنَا وأناشيدنَا
وتغافلُنا ثمّ تنسلُّ سراً
وجهراً الينا وتنتحرُ
.. نموتُ.. ومازلتَ تنتحرُ
ونحيا وما زلتَ تنتحرُ

عمّان «أيار ـ حزيران ١٩٨٧»

شعر

مقاطع من النشيد الفلسطيني

الى الصامدين
في حصار بيروت

ادريس بن الطيب*

كلُّ البداياتِ قد أصبحتْ لا تليقُ،
فمن ينقذُ الشعرَ من قدرٍ يترصدهُ بالضآلةِ حين يعريه قصفُ
المنازل من شدةِ الاستعاراتِ؟
ها أنذا سوف أطلقُ من هاهنا صرختينِ وأنشودةً، ثم
أعلنُ أن جيوشَ الغزاةِ تحاصرُ قلبي،
وأني أهربُ عبر شقوق الزنازن هذا اللهيبَ الذي يشبه
الشعرَ، مرتسماً له لاتطاوعُ، مخترقاً حلقةَ الرقص
حيث يُغني الأحبّةُ خلفَ خطوط الحصار..
فماذا يُراودني الآنَ من هَذَيانِ القصائد؟
أجملُ أشعارنا يتفجّرُ في غرب بيروتَ، بين أزقة «صُور»
و «صيدا»، «بخَلْدَة»، «بالنَبَطية» يكتُبه الصبيةُ
الطالعونَ من الرحمِ المتفجرِ ممتشقينَ مدافعهم
ينثأونَ من الأرض،
كالوردِ، كالموت، كالزَّغرداتِ،
وينتشرونَ على صَدْرِ هذا الجنوبِ العجيب الذي لايمُوتُ،
تخبئهم رئةُ المدنِ المستباحةِ بين تعاريجها ثم تزفُرهم
جُماً في وجوهِ الفيالقِ،
ياحزنَ هذه المدائنِ،
من يشتري مني عُكازتيَّ بأسورةٍ وزنادٍ واطلاقتين؟
من يشتريني؟
أنا سيدُ الزَمَنِ المُتَناثرِ في حَدَقاتِ الجياعِ،
وأمي التي علّمتني العِنادَ رمتني على حافّةِ الموتِ للرقص
حتى الولادة..
هنا النارُ ترتعُ بين العيونِ مشرَّدَةً،
وهناك جيوشُ الغُزاةِ تفيضُ جحافلُها كالوباء،
وكلُّ مُجنزرةٍ تتقيَّأُ طاعونَهَا في خُصُورِ المنازل،
كيف يُفَرقُ هذا المحبُّ المُولَّهُ بينَ القنابلِ والنّهدِ
بينَ اصطفافِ جناحَي سُنُونُوةٍ واحتدامِ الرصاص؟

* شاعر من ليبيا.

ونحن الذينَ وُلدنا كآخِر معجزةٍ في زمانِ العجائب،
أوّل معجزةٍ في زمانِ الخرائب،
هم يمنعونَ المياه،
ولكنّنا لا نموت . .
وهم يسرقونَ الرغيفَ،
ولكننا لا نموت . .
وهم ينْهبون الدّواءَ،
ولكننا لا نموت . .
وهم يسلبونَ الهَواءَ النَّسيمَ بخلخلةِ «الأوكسجين»،
ولكننا لا نموت . .
وهم هاهنا يسلبونَكَ بالسِّجْنِ والانتحاب الدّعائي
حقَّكَ في أن تموتَ على صدرِ سيدةِ الورد والحرب بيروتَ،
آهِ يُعنفني الموتُ كلَّ مساءٍ،
توبخني لقمةُ الخبز في قعرِ زنزانتي،
فأغُصٍ،
وأبحثُ عمن يُقايضُ هذا الدَّمَ الساكنَ المتخثّرَ
بالماء في «الليلكي» و «برج البَرَاجنة»،
الهَمُّ يحتلُّ قلبي،
و «صَيْدَا» تُحملني كل يومٍ رغيفاً وجرَّةَ ماءٍ إلى
إخوتي النّائمينَ بأقمارهم وحبيباتهم تحتَ كُوم
الرَّمادِ،
فأين الطريقُ إليهمْ ولمَّا نُرقْ بَعْدُ من دمنَا قطرةً واحدةً؟

٢

و «أيمنُ» يفتح كفَّيه في حَذَرٍ، ثم يُطلقُ سرباً سَرَاحَ
الينابيع،
ينصبُ ـ هذا المسَاءَ ـ كميناً لدوريةٍ من جنودِ العَدوّ،
يدمّرُ دبابتين وسيارةَ القائِدِ العسكري،
ويَغْنَمُ منه مُسدَّسَهُ،

هو «أيْمَنُ» يرسلُ نهراً وتفاحتينِ الى غرب بيروتَ
في عُرسِها الدّمَويّ، ويُرفقُها ببياناتِهِ العسكريَّةِ،
«أيمنُ» قال:
المواعيدُ تَيْنَعُ في شكلِ زَنْبَقَةٍ أو مَدَافعَ ضِدَّ
الدُّروع،
التواريخُ تبدأ من حيثُ نَغْمِسُ أرواحَنا في الدماءِ،
فَنحضُنُ لَفْحَ الحديدِ المُحَمَّى ونصطادُهم في السَّماءِ
كَسِربِ الذُّباب، ونسحقُ أرتالَهُمْ في الشوارع
كاللُّعَب المعدنيَّةِ،
«أيمن» يرسمُ فوقَ التُّراب وُجُوهَ
أحبَّتِه،
فيُقَبِّلُهم،
ثمَ يمضي إلى آخِرِ الإنْفجارْ . .

طرابلس ١٤/٧/١٩٨٢م

طائر من حجر

الى طلائع الحجر الفلسطيني

ظلامٌ هنا يترنَّحُ،
يُسْفَحُ هذا السّوادُ الذي فيه حين يُرفرفُ صوتُ مواويلها
فوق صوتي،
يُثرثرُ عن ولدٍ يافعٍ وغريب،
فأغرقَني في رمالٍ من الالتحام المعذب حتى ترنّحَ صوتي

ليصرخ في مطلع الشعر:
ـ آه، الهواءَ، النوافذَ،
أوفْ،
يالِضيق القواميس
هذي القصيدةُ تخشى الوقوفَ على قدميها أمامَ اللهيب
وترفضُ حتى يدي لتُدَرّجَها في الطريق الطويل،
ـ لا زحفَ في الشعرِ،
مشى وئيدٌ على النَّصْلِ،
مشيٌ عنيدٌ الى الفعْلِ،
نزفٌ تُدَرّجُهُ الأغنياتُ،
تُصَلِّبُ أقدامَهُ باتجاه الأمانْ،
«ديدشْ حبّ الرمانْ،
ديدشْ يحيا الانسانْ[1]»
خُذيني إلى الساكنينَ على بُعدِ قنبلةٍ من صُراخ الجحيمْ...،
خذيني إلى شَهْقةٍ من نَسيمْ..

(٢)

لرائحة الاحتراقِ اشتياقٌ إلى وطنٍ جرَّحَتْهُ المَنافي،
وعرَّشَ، في سنواتِ الطفولة هَمّ احتلالٍ جديدٍ،
حملت معي في رحيلي الذي لا يُساومُ أهزوجةٍ وتُراباً
يُسَمّيهِ جُرحُ «العَتابَا»: فلسطينَ،
أرضٌ لها جسدٌ سامقٌ يتواثبُ في الصَّدرِ،
ظَبيُ النّزيفِ المُرَوَّعُ هذا يؤانسُني في الدّروب،
يُنَبّهني للرصاص من الخلفِ،
تلكَ فلسطينُ أرضٌ تُزيّنُ طلعتها بانتظار القيامةِ،
تحتلُّ ركناً خفياً من القلب حين يُفتشُ بوليسُهم
في الحدودِ تضاريسَ ذاكرتي،
وتُسافرُ سرّاً بجُنحِ الليالي لتسرقَ من وَجْنتيْ
ولدٍ نازحٍ قبلةً،

وتعودُ لتُشْهرَ نَظْرتَها في وجوهِ الغُزاة..
جلستُ على حَجَرٍ لم يَصِرْ بَعْدُ سيفاً،
فَزَحْزَحَني،
واستَغاثَ يدي كي تُزَحْزِحَهُ من عروقِ التُّراب...
طائرٌ حجرٌ،
حجرٌ طائرٌ يتلفّتُ، يبحثُ عن حضنِ «حيفا»
ليَسقُطَ فيه،
فيا ليتني حجرٌ،
لتني حجرٌ يَتَرقْرَقُ بالوَجْدِ في طُرُقاتِ «الخليلِ»،
لتقذفَ بي في اتّجاه العَدُوِّ يَدٌ،
فأطيرُ،
أطيرُ، وأعْبُرُهُ،
لأحُطَّ على صَدْرِ عاشقتي
وأنامْ...

طرابلس ـ ١٥ مايو ١٩٨٦

---

(١) أغنية ليلبه لتعليم المشي للأطفال.

شعر

أربع حالات للشاعر العربي

جيلاني طريبشان*

الى عمر رشراش

عِنْدَما جئتُ هَذي البلادْ
لَمْ أجِئْهَا نَبياً....
.... لَا غَازياً لَا وَصياً؛
لَمْ أكُنْ مَطَراً
لَمْ أنْشُر الخَصْبَ في الحُقول النديّهْ
لم أكُنْ وَاحةً يَسْتَظِلُ بها المُتْعَبونْ
... لاخيمةٌ تُقرِيء الضيفَ، تُشْعِلُ النارَ للضائعينَ؛
.. على الطُرُقاتِ الشقيّة
جئتُ طِفلاً ـ لَمْ يُعلّمْني أبي حِكْمَةَ الشيخ ـ
وَلا رَاوَدَتْني البُطولة في المهد
كيْ أرتدي ذاتَ صيْفٍ بَليدٍ
خِرَقَ الصوفِ وأدعي الصوفية!

■ ■ ■

* شاعر من ليبيا.

- ٢ -

عِندما جِئْتُ هذي البلادْ
لَمْ أجيء غازياً؛
جِئْتُ أحمِلُ زُوّادَتي وظنوني وشُجون السَفرْ/ ذِكْرَياتِ الطفولة؛.
انتضي في الصّباحِ لي حَائطاً
مُلْقياً في الهشيم بالرُقُم الوَثَنية!

■ ■ ■

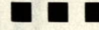
- ٣ -

عِنْدما جِئْتُ هذي البلادْ
عَرَجْتُ أبْحث عَنْ خانِ السرّي[1]؛
علّ لي دارةً أبتنيها
عَلّ لي اخوةً لَمْ يَزَلْ بَعْضُهم يَحْمِلُ طيبَ البَداوةِ
خفْقَةَ القَلْب /رَجْفَةَ الجَفْنِ/
.... نسَماتِ الصباحِ النّديَة بالورد!!
علّ ليلى
عَلّ زينبُ
عَلّ سَلْمى؛
علّ بثينةَ!
سَاءلْنَ عَنّي /لَوْ مرّةً/ الليل والريح، واقتفين البراري/ يَنْكُتْنَ بأعْوادِ هِنّ الرملَ عن فرسي العربية؟
ناقتي التارقيّه
يُفَتّشنَ في الصَخرْ عَن قَدَمي البربريّة!

● ● ●

مَا الذي جئْتُ أحملُهُ؟

ها أنذا لَمْ أزَلْ أضْرِبُ في التيه
لَمْ أجِدْ غيرَ / الخمور مَغْشوسةً / هَلْوَساتِ المُرابينَ
عَرَباتِ / الإخوةِ الأعْداء / (٢)
دَارَتي هَاهِيَ الآنَ دُونَها مُدعيّ الثورية!



- ٤ -

عندما جئتُ لم أكُ احمل لاصدقاء الطفولة
رَبطات العُنُقْ
لاَ.. النُوْقَ العَصافيرَ
جِئْتُ أحْملُ ذِكْرياتِ الليالي الطويلاتِ / اه الليالي
الطويلاتِ/ الشجُونَ/ السُجونَ/ ليالي البُكاءِ
المرِّ بأقْبيةِ الوَطن المُمْتَدِّ من الجُرْح للجرحْ!
جِئْتُ أحْملُ نُدُباً، هي كلُّ ما تَرَكَتْه العُروبة لي
- من أوْسِمةٍ يَتقلَّدُها الآنَ البَليغونُ في العد..
وَتَلْبَسها الفاتناتُ حينَ يأتي المَساءُ دُروعاً من الماسِ
ليَسْقُطَ آخرُ قيسٍ مضرّجٌ، بجفون السَفيهات
الرشيقات / الفاتناتِ/ بكَيدِهنّ وَسِحْرِهِنّ / وتَا الله
«ان كيدَهُنّ عَظيم»(٤)...

. . .

مَا أكْثَر الفاتناتْ
ما أكْثَر الساحراتْ!
ما أنْدَر الشاعِراتْ
آهٍ مِنْ لَيْلةٍ كانَ لِيَ فيها ساحرةٌ واحدةْ!
ما أكْثَرَ الذكرياتْ
- دَاهَمتْكَ السنون -
- «واشتعلَ الرأسُ شيباً»

رُدّ لي لَيْلَتي الواحِدة
رُدّ ليْلى
زَيْنَبْ
سَلمى / بُثينةْ!
وانْتَزِعْ كُلّ ما خَلّفَ الغَرْبُ والشَرْقُ مِنْ ضَجَرٍ
في كهوفِ الليالي الثقيلات / النساء / الحَنينْ /
الأنينْ / الشبقُ المُفْتَعلُ الغجريّ!

. . .

خُذْ كلّ شيْ
اعِدْني إلى قبرْ أمّي
اعِدْني إلى دَارَتي في الجَبَلْ
اعِدْني إلي وَطني شَاعراً
لاَ غَازياً، لا وَصيّاً!

٢٧/ اكتوبر ١٩٨٩

---

١ - خان قديم في مدينة طرابلس يؤمه الغرباء والعملة الوافدون.
٢ - اشارة الى رواية اليوناني كازانتزاكي الشهيرة.
٣و٤ - تضمين من القرآن الكريم.

شعر

يموت
الحوت على البر

د. عبد الرحمن الكيالي*

وأنا كنت أغنى
وعلى شدو سلاحي
سالت النيران ترعى
في ليالي الثلج
أنفاس الظلام
عندما أرسيت أقدامي على الصخر
وعمدت جبيني بالقين
كنت - ياليلاي - محمولا على عاتق جرحى
أرهب الوحش الذي يسكر من ريح الدماء

---

* أديب من فلسطين.

وأعرى المومس الحسناء..
من زيف القداسة
وعلى انغام الحاني
زرعت النصر في قلب الهزيمة
وجعلت النغم الدامي وشاحاً للصباح
وبرمش العين طهرت من الأشواك
والصخر دروبي
وتقحمت جدار اليأس فانشق الجدار
وتلظت من عيون الفارس المصلوب
نار
لم يزل في خاطري نبض تغذيه المآسي
بالدم المسفوح والدمع المحنى بالضياء
فيدوي الصمت رعداً في عيابات القبور
ويحول النفس المقهور اعصاراً..
يسوي القصر بالقفر اليباب
«أيها النافخ في الصور تمهل»
ليس للموتى نشور
من ترى علمك النوح
ومن أي العصور أنت..
يامن جئت تهذي..
بارتعاش الليل من لحن السلاسل
وبذعر البوم والغربان
من شدو البلابل..
أنت.. يادودة عث
في حنايا كتب التاريخ تحيا
تحت أدغال الشموس الغاربة
أنت؟ من علمك الصرخة
في واد ثمود؟

وسقى أوتارك الخرسى..
صهيراً من حديد
أنت! من فقأ بالمنجل والسندان
عينيك
فأبصرت بمنظار جديد؟!
ثم من شدك للأرض؟
ومشاك على الجمر
وأسنان الرماح الراعفة
فاذا أنت نبيٌ!...
يصنع الإعجاز في أرض الملاحم
وهو يحدو النمل تحت الارض
كي تنهش أصفاد العبيد؟!
فيدب السوس من عرش سليمان
وتنشل العصا تحت ذراعه!..
فتراه أعين العميان يهوى
عن حصانه!..
قال عفريت يداه!..
تحرق الأرض بنار النفط
حتى لاتدور!..
«لم أشأ ذاك»..
وماشئت هو الاقدار!..
قالوا...
غير أني كنت أخطأت الحساب
عندما سمرت مصلوبي على صهوة
فجر
وسقى سوطي على أضلاعه!..
بستان زهر
متابعاً:.. «ياشياطين!

اخطفي بالسحر!..
هذا المارد اللاشيء!..
واأتيني به حيا مصفَّدا!..»
صوت: «سيدي نحن عبيد وجنود»!..
قال من كان له علم الكتاب!
«نحن أدرى بالتعاويذ التي
تجعل الانسان يعمى عن دروبه
ثم يأتي بسلاحه
طائعاً يسألنا.. «اين المصير؟»
الشيطان المارد: «ماالذي يبدو لك للآن مليكي؟»
هل ترى؟ فارساً يعلو جواد الخضر!..
من عمق الفضاء
انه يسبح نحو الشمس في سيل
الضياء»..
العفريت السيد: «كيف يرتد الينا؟
كيف يغدو قلبه في يدنا
بوق هواء؟؟
أوثقوه بحبال لاتُرى!...
جروه عبداً نحونا يجري ولا يدري
ويعميه الرجاء»..
الشيطان المارد: طاعة ياسيد الجن!..
فهذا الفارس العاشق!
يهوى الصيد سبحا!..
في مطافات الجمال
هوذا.. قد ركب النجم!..
وأهوى كالشهاب!..
لاهثاً خلف حمامه
تتهادى في غلالات الأماني

بجناحين من التبر المذاب!
وهي تجتاز الى رؤياه..
أجواء الأغاني
ثم تنضو ريشها من شاطىء الورد
فتبدو
غادة أثقلها التفاح
فاستلقت على الشط الوثير!..
وتسجى جسمها الريان في النهر!..
فماجت حولها الأرواح بالعطر تنادى
«دونك الخلد»؟!..
الراوي: فذاب القيد!.. واهتز الصليب!..
وسعى فارسنا القديس للريش.. يصلي.. ضارعا
فاذا الريش يطير!..
حينما أهوى عليه
بيديه!..
ويغطي بجناحيه.. رحاب الأفق!..
يعلو ثم يعلو!..
وبرجليه تدلى..
شاعر غاب عن الأوطان
عن دنيا الزمن
لم يعد يشهد الا
ناطحات السحب في غمر الضباب!..
وتمنى «لو على ناطحة ألقى به الرُّخ!..
وولى حيث شاء!..
الراوي متابعا: غير أن الرخ أعطى الريح عمر السندباد
ثم القاه على قمة وهم!..
من غيابات الدخان
حيث تبدو للثعابين قرون الغانيات

ويموج الذعر في بحر التماسيح..
وتطغى الظلمات
وعلى السفح وفي الوديان
حصباء من الدر!..
تجلت للعيان
ألهبت في الصدر نيرانا
وأجرت أنهراً فوق اللسان
وهي تدعوه بلحن لايخيب
«دونك السكين فاسلخ..
جلدك المقرور.. واستحقب به كل الكنوز
سندباد العصر، لا يحميه كبش للفداء»
الراوي متابعاً: «هكذا المسكين عرّى لحمه من جلده
بيديه، وجرى دون ثياب؟!
داميا.. يحدوه ذئب وغراب
وأطل الرُخ من بعد على واد سحيق
ثم أهوى
عندها.. قام نبي الشعر
ملهوفا وصلى
وهو لحم متراخ.. ليس يحويه وعاء
والى جانبه الجلد لصيق باللآلى
وغريق بالدماء!..
الراوي متابعاً: ثم مدَّ الطائر العملاق عينيه الى الأفق!..
وارخى لجناحيه العنان
ورأى الناس على رجليه شيئا يتدلى
ساح مشنوقا يجوب الأرض من:
شرق لغرب
ثم ألقى نفسه بين وجوه زرعت
خلف الصدور

آه! ياويلي على مرآته

عندما مست يداه

رأسه وهو يدور!..

فرأى الكنز الذي استحقبه في جلده

كوم رماد

وجرى مزماره الصداح بالأحزان

ينبوع رقاد

وهنا... استصرخ جرح القلب

دمع الذكريات

وتمشي في عروق الوتر المحزون

همس النغمات

الشاعر: وأنا صرت أغني

حين أصبحت أسيراً

في خيوط العنكبوت

آكل التوت...

لأعطي شرنقه

وأعزى البحر..

بالحوت الذي

وَدّ أن يمشي على الأرض

فمات..

شعر

قصائد

فؤاد كحل*

العابر

كتبتُ قصيدتي ومضيتُ

كان الحب يدركني

أواري وردة في الروح

والأحلامُ تزرعني

على طرقات ما يأتي فماً في القلبِ

لم أبدأ نهاري بانفجار البرق

لم أعشق حنين الموت.. لكنّي:

كتبتُ قصيدتي ومضيتُ

لونتّ انتشار الحبّ فوق خريطتي ومشيتُ

قلت سلامُ هذي النار

مبتدىء بأحرف مهجتي

ورسمتُ أجنحةً ترش سماءها برؤىً

وأعليتُ انطفائي قبل زحف اليّم

لكني: كتبْت قصيدتي

بلّغتها... ومضيتْ...

الصيف

هل يأتي الصيفُ لهذا العام؟

أم أن القلب ازداد هطولا؟

والروح تشرّبتِ النيران طويلا؟

كي يشتعل الوقت هشيماً فوق الآكامْ..

هل يأتي الصيفُ قليلا؟:

* شاعر من القطر العربي السوري.

آه! ياويلي على مرآته

عندما مست يداه

رأسه وهو يدور!..

فرأى الكنز الذي استحقبه في جلده

كوم رماد

وجرى مزماره الصداح بالأحزان

ينبوع رقاد

وهنا... استصرخ جرح القلب

دمع الذكريات

وتمشي في عروق الوتر المحزون

همس النغمات

الشاعر: وأنا صرت أغني

حين أصبحت أسيراً

في خيوط العنكبوت

آكل التوت...

لأعطي شرنقه

وأعزى البحر..

بالحوت الذي

وَدّ أن يمشي على الأرض

فمات..

شعر

قصائد

فؤاد كحل*

العابر

كتبتُ قصيدتي ومضيتُ
كان الحب يدركني
أواري وردة في الروح
والأحلامُ تزرعني
على طرقات ما يأتي فماً في القلبِ
لم أبدأ نهاري بانفجار البرق
لم أعشق حنين الموت.. لكنّي:
كتبتُ قصيدتي ومضيتُ
لونتّ انتشار الحبّ فوق خريطتي ومشيتُ
قلت سلامُ هذي النار
مبتدىء بأحرف مهجتي
ورسمتُ أجنحةً ترش سماءها برؤىً
وأعليتُ انطفائي قبل زحف اليّم
لكني: كتبْت قصيدتي
بلّغتها... ومضيتْ...

الصيف

هل يأتي الصيفُ لهذا العام؟
أم أن القلب ازداد هطولا؟
والروح تشرّبتِ النيران طويلا؟
كي يشتعل الوقت هشيماً فوق الآكامْ..
هل يأتي الصيفُ قليلا؟:

---

* شاعر من القطر العربي السوري.

لا ألمح إلّا بعض فجاجٍ
وكأني لا أعبر نحو الآتي إلّا متبرداً وقتيلا؟
هل يأتي الحب لهذا العام؟
أم أن الأرض اختارت
أن تطفىء شعلتها الأبدية
ثم تنام؟

النافذة

فوق نافذتي قبّراتْ
فوقها نسوة وصغارٌ
وأشجار ضوءٍ
بذورُ دمٍ
أصُصٌ لجواهر دافئةٍ
ونهارات بوح تسقسق في الشرفات.
وافئدة لا تخبىء فرحتها لابتعاد الرقابةِ
أفُقٌ تشِفّ به الكلماتْ
فوق نافذتي وطنٌ
يستضيء بأجنحةٍ
فأحاول أن أستعيد الحياة..

القتل

قم واقتلني
ثم اتركني بسلامْ
أقبع تحت الأعشابِ
وأجعل أحلامي تولد في هذي الأيامْ
قم واقتلني

فستخرج من جسدي أشجار
معلنةً أن الله تحول زهراً فوق الأقلامْ
وستحكي الأرض حكاياتي للكون
وتنثر بهجتها في كل الأعوام
قم واقتلني
فلغيرك صعب أن تزدهر الاحلامْ...

المكان

لم يعدلكَ هذا المكانُ
لا الرصيفُ ولا الناسُ والاصدقاءُ
لا الحوانيتُ والزهرُ والثمرُ المتساقطُ
فوق الدروبِ صبايا وماءْ...
لا البنايات والطرقاتْ
لا المداخل والواجهاتْ
ولا أوجه العابرين
ولا الفرح.. الاقحوانُ
لم يعد لكَ وجهُك
نَزُّ الندى فوق قارعة النهر
حتى الشوارع حيث اكتست بالحفاةْ!
كيف كنتَ المدينة في عرسها
ثم لا شيء..!
كيف توهج يوماً زمانُ
كيف كنتَ الطفولة؟ ها هي روحك تطفو بأجنحةٍ
فوق اسفلت هذي البلاد
ولا شيء يستطيع في خافقيك
يقدم ازهاره حين يرغب
يقدم وردته ان تراءت له

كي يشعشعه العنفوانُ..
لم يعد لك هذا الهواءُ
عد إليك وعش في فراشات روحكَ
طفلاً اذا استطعت مبتهجاً
ربما اتكأتْ مقلتاك على الأفقِ
وابتدأت فرحاً قادماً
مع أطفالك القادمينْ
أنتَ لستكَ!
كيف تغادرُكَ الآن نحو السنينْ
عارياً منك منتشراً غيمةً من دماءْ
لم يعد لك هذا المكانُ...

الأمل

زرعتكم في سمائي
حباً ووردا وفُلاّ
وسرتُ نحو اشتعالي
أعطي القصائد ظلاّ
أعليتُ أزهار قلبي
منتظراً أن تطّلا
والروح في الليل بدر
على الموانىء هلاّ
زرعتكم مثلَ حلم
يطوف صبحاً وليلا
وكنتكم في حنيني
حباً، وكنت الأقلاّ
ولن أكون بعيداً
عنكم ورودا وفُلاّ...

السر

ماالذي أودعته من دهشة في الروح
فازدانت طوال العمر رقصاً وهطولا..؟
ما الذي كونتِهِ في لحظة البرق
فصار الكون مزهواً جليلا؟
ما الذي أغمدِته في القلب
كي يبقى معي في كل أيامي قوياً وقتيلا؟
كيف اشعلتِ بي النبض
وغادرتِ سريعاً
وتركتِ الموج سراً غامضاً
يمنحني صبح اشتعالي
كل عمر أو بلاد
دون أن يفسح للبوح قليلا
أي سر كنتِ قد اودعتِه
في أول الدهشة والكشف
ومازال معي يكبر في كل ابتهالي
فأوازي فرح الأرض
بما اكنزه من طاقة العيش
فأحيا... ثم أحيا..
فوق أغصاني طويلاً... وطويلا..

الوقوف

واقفٌ ليسَ لكْ
أو حشودٍ تغمّسُ أيامها بدماها
وتركع صامتة
وتبوس حذاء الملكْ
أو جيوشٍ تسلم جبهتها للعدو

وترجع منفوخةً بانتصاراتها
وكأن المدى ما انهتكْ
واقفُ ليسَ لكْ
أو عصاباتِ قتل توزّعُ آذانها في البيوتِ
وأعينها في الزوايا
وتعلن برْأتها وأناقتها
وتعيد ارتكاب الجرائم
جاعلةً من دمانا بُرَكْ
أو فصيلٍ يطبل باسم شعاراته ألف دهر
ويندس تحت عباءة سيد هذا الفلكْ
واقفُ ليس لكْ:
أنت عبّأت روحكَ في جثةٍ
ثم اقفلتَ فوقَ مداها فمَكْ
واقفُ لارتعاشٍ يعيد طفولةَ نبضِكَ
أو فرحٍ بالحياةْ
وطفلةِ رؤيا
تضيء الخلايا
فينتعش القلبُ
للناس يزّلزلون
لعصفورةٍ تبدأ العشَّ
أو عاشقين يطوفان مثل الندى
لصراخِ وليدٍ يشقُّ السكونْ
لأغنيةٍ نستعيدُ بها فرحاً راحلاً
للربيع.. لسقسقة الماءِ
للأمهات...
لكل الذي سيكّونُ هذا المدى
واقفُ ليسَ لي
واقف ليسَ لك...

شعر

يا بلاد اساقطي..

مخلص ونوس*

أمشي على جسرٍ من الأحزان.
صوتي إلى صحرائكم يمتدُّ،
من زمنٍ طواني اللّيلُ،
أحملُ في دمي تغريبتي الأولى،
ونارُ الحرفِ تنقشُ وجهَهَا قمراً
على تغريبةِ الإنسانْ!
تثاقل وجهُهُ كفناً
وعاد الأفقُ باللّغةِ الّتي رسمتْ
غصونَ الأمسِ،
لوثَةَ عُريهِ،
لم يأتِ من أحدٍ سوى ناقوسِكَ
الذهبيِّ
يمتشقُ الحقيقةَ قبّةً للحزنِ..
عُدْ!
ها وجهُكَ المسكونُ بالقمحِ النديِّ
ووهجِ ذاك الصُّبحِ،
لالغةٌ سوى ما ترسُم الأيّامُ
من عبقِ الحياةِ على جدارِ القلبِ
يأتيني..
ويأتيني نهوضُكَ من بحارٍ
أغرقتْ عُريَ الخناجرِ،
يا بلادُ.. اسّاقطي مطراً ووهْجاً
في اكتئابي.!
ها كُلُّ زاويةٍ تُعبّىء
في مداها ليلكاً يهمي ابتهاجاً
في عذابيْ..
أمشي وأنظرُ في تَخومِ الهمِّ
لا وطنٌ لأوجاعي

* شاعر من القطر العربي السوري.

وترجع منفوخةً بانتصاراتها
وكأن المدى ما انهتكْ
واقفُ ليسَ لكْ
أو عصاباتٍ قتل توزّعُ آذانها في البيوتِ
وأعينها في الزوايا
وتعلن برْأتها وأناقتها
وتعيد ارتكاب الجرائم
جاعلةً من دمانا بُرَكْ
أو فصيلٍ يطبل باسم شعاراته ألف دهر
ويندس تحت عباءة سيد هذا الفلكْ
واقفُ ليس لكْ:
أنت عبّأت روحكَ في جثةٍ
ثم اقفلتَ فوقَ مداها فمَكْ
واقفُ لارتعاشٍ يعيد طفولةَ نبضِكَ
أو فرحٍ بالحياةْ
وطفلةِ رؤيا
تضيء الخلايا
فينتعش القلبُ
للناس يزّلزلون
لعصفورةٍ تبدأ العشَّ
أو عاشقين يطوفان مثل الندى
لصراخِ وليدٍ يشقُّ السكونْ
لأغنيةٍ نستعيدُ بها فرحاً راحلاً
للربيع.. لسقسقة الماءِ
للأمهات...
لكل الذي سيكّونُ هذا المدى
واقفُ ليسَ لي
واقف ليسَ لك...

شعر

يا بلاد اساقطي..

مخلص ونوس*

أمشي على جسرٍ من الأحزان.
صوتي إلى صحرائكم يمتدُّ،
من زمنٍ طواني اللَّيلُ،
أحملُ في دمي تغريبتي الأولى،
ونارُ الحرفِ تنقشُ وجهَهَا قمراً
على تغريبةِ الإنسانْ!
تثاقل وجهُهُ كفناً
وعاد الأفقُ باللّغةِ الّتي رسمتْ
غصون الأمسِ،
لوثَّة عُريه،
لم يأتِ من أحدٍ سوى ناقوسِكَ
الذهبيِّ
يمتشقُ الحقيقةَ قبّةً للحزنِ..
عُدْ!
ها وجهُكَ المسكونُ بالقمحِ النديِّ
ووهجِ ذاك الصُّبحِ،
لالغةٌ سوى ما ترسُم الأيّامُ
من عبقِ الحياةِ على جدارِ القلبِ
يأتيني..
ويأتيني نهوضُكَ من بحارٍ
أغرقتْ عُريَ الخناجرِ،
يا بلادُ.. اسّاقطي مطراً ووَهْجاً
في اكتئابي.!
ها كُلُّ زاويةٍ تُعبّىء
في مداها ليلكاً يهمي ابتهاجاً
في عذابيْ..
أمشي وأنظرُ في تَخومِ الهمِّ
لا وطنٌ لأوجاعي

* شاعر من القطر العربي السوري

طوتني موجةُ اللُّقيا
رصيفاً للتسكّعِ ، واحتراقِ العمرِ
في ليلِ اليبابِ...
أمشي.. لأدخُلَ غابةَ النِّسيانِ
أشرعةً
حريقاً
يا دمي!
ها وجهُكَ الموشومُ بالانسانِ
يورقُ أنجماً.. أغنيّةً
حجراً..
على بوّابةِ الأزمانْ!

★ ★ ★

سلمية ـ حزيران ١٩٨٨

لم يزل دمنا قادرا

قادرٌ أن أموتْ
أنا قادرٌ أن أرى الأُفْقَ،
أن أبتني هيكلاً
مِنْ دمِ الأُغنياتْ.
قادرٌ أن أُجمِّعَ هذي الرُّفاتْ:
جَذْوةً..
جَذْوةً..
ما الذي يجعلُ الصَّمتَ أكبرَ؟
ما الذي يُغْرِقُ الأبجديّهْ؟
في بحارِ الجراحِ الفتيّهْ؟!

قادرٌ أن أموتَ إذنْ
قادرٌ أن أُلِمَّ ما قد تبقى
مِنَ الأُمنياتْ..
كُلُّ شيءٍ هُنا يا صديقي مواتْ..
قادرٌ كُلَّ يوم:
أن أُعَفِّرَكُمْ
قادرٌ أن أُريكُمْ دمي
يشرئبُّ ابتهاجاً،
ويُخرِجُ مِنْ بحرهِ شُرفةً
يرتمي في مداها قمَرْ!
قادرٌ أن أُريكمْ حنيني
غاضباً.. غاضباً كالمَطَرْ؛
يجيءُ وبين يديهِ
حَجَرْ.....
جُثّتي في المدى قَمَرٌ آخرٌ
ضوءُهُ في حنينِ الشَّجَرْ...
مُدُنٌ لا أراها،
وَغَزّةُ ناقوسُ حزنِ المُدُنْ
«أبحري
أبحري.. ياسُفُنْ!»
لَمْ نزل نعشقُ الأُغنياتْ
لَمْ يزلْ دمُنا قادراً أن يُضيءْ..
وان كانَ أُكذوبةً زمني
وان كانَ ـ ياسيّدي ـ
كلُّ شيءٍ على دربِكَ
الحجريِّ... مواتْ!

★ ★ ★

سلمية - أيار ١٩٨٨

شعر

مقامة حنظلة

الى ناجي العلي

مفتاح العماري*

■ وجهه غابةٌ من الشهوات
غابةٌ تشتعلُ بثلاثين طريقة
كلّما مرّ شتاء فاضت بخيباته الكأسُ
وباحت للعابرين بأوجاعها
■ غابة من الرغبات والأسئلة
تنبض بالأرانب والعصافير الوضيئة
مطر من ضحكات لباسها
لكنهم حين أبصروه يلملمُ اشلاء
القناديل الميتة
توهموه ذئباً وداروا عليه
آه يادمه
ويا حنظلة
مَنْ يطعن مَنْ؟
فقد تشابه الموتُ
تشابه الماءُ والحجرُ
وضاقت الدائرة ■

اغسطس ١٩٨٧

---

* شاعر من ليبيا.

شطحات

[١] مؤامرة

لأمرٍ في نفسه غادرني وجهي
لأمرٍ في النساء
غادرني قلبي
لأمرٍ في هلوسةِ الحبِّ
صارتْ يدي مجنونةً
ولأمرٍ في الخمرْ
صَارَ لزاماً عليَّ طاعة الأمرْ

■

[٢] لَعِبْ

■ العبُ لأنني أعشقُ أن
أموتَ في اللعبْ
تارة أراوغُ الريح
وأخرى أُدبِّرُ هلاكاً لتلك التي
أراودها في التعبْ
وهكذا يحدثُ أن أموتَ في
اللعبْ.

■

[٣] صديق

■ كان صديقي يشبه صديقي

رمينا شباك الشعر رميتين

: سمكةٌ في خيال الجائع

+ امرأة قلقه في جسد الرجل الحالم

= خمرٌ في الجنة للذين اتّقوا الحبَّ كلّ

ليلة مرتين

وللذين صلوا للحبِّ ركعتين

وحين تباعدنا

باعدتنا النساء

سحبتُ شباكي

ولكي أعاود الصيد

رتقتُ مزقتين

مزقةً باتّساع الفم

مزقةً في شراهة العين

■

[٤] من أحوال النار

■ حين تستوي في مساحة العين الوردةُ

والمشنقة

وتتشابه أسنان المشط وأسنان

الذئب

: ترتبك اليدُ في أحوال الرغيف

والشمس في أمر النهار

والجمرُ يتآمر على روعة الجمر

= اذن مزيفة هي النار التي

تأكلُ نفسها ولاتضيء

■

[٥] نساء

■ أجمل ما في النساء

كونهنّ نساء

أجمل مافي الكلام

اعراب النون

وتصريف التاء

أجمل مافي الشعراء

نسونة العالم

وتأنيث الأشياء

■

[٦] شعراء

■ لنا في هذا الوطن شجرةٌ

في الشجرة عصفورٌ ربما تشبهه العصافير

له رئةٌ ولسانٌ وجناحان

من أحواله أن يغنّي باتّساع الشمس والمطر

والعاصفة

وأن يطير بلون الرغبة المطلقة

لنا في هذا الوطن شجرةٌ

في الشجرةِ عصفور وان يكن ثمة فخاخ

وبنادق صيد

فللعصفور أغنيةٌ وجناحان

وللعصفور ان سقط دمٌ يرحل

قوياً في الشجرة

■

طرابلس - صيف ١٩٨٨

شعر

مرثية الصديق اللدود

الى غالب هلسا

ممدوح عدوان*

لقد لامني عند القبور على البكا
رفيقي لتذراف الدموع السوافك
يقول: أتبكي كل قبر رأيته
لقبر ثوى بين اللوى فالدكادك
فقلت له: ان الأسى يبعث الأسى
فدعني.. فهذا كله قبر مالكِ

● متمم بن نويرة ●

تلك روما اذنْ
واسمها «مأدبا»
فاسمها «دير ماما» اذنْ
كل هذي المقابر روما
على مشرف القلب ترصدنا
قاب رمشين أو دمعةٍ
قبر مالك روما اذن
فلماذا اذن
طال درب الذي
كان يبحث في لوعة عن وطنْ
ثم عاد وليس على ظهره
غير هذا الكفنْ

حينما جفت المرحبا
بيننا
وتصحر نبع العتابْ
لم يعد ليَ أن أغضبا

---

* شاعر من القطر العربي السوري.

أتزملَ بالحقد
كي أشتفي بالعقاب
لم يعد لخصوماتنا
أن ترمم هذا الخراب
لم يعد لانتصار هزيل
أتى هيّنا
أن يخفف هذا العذابْ
قد خسرنا توهج احلامنا
وخسرنا تدفق أيامنا
ومحبة أوطاننا
والشباب
مُزِّقت، دون أن ندخل الحرب،
أعلامنا
لم يعد عندنا
مايستّرِ عوراتنا
عُن ثيابْ
لم يعد ينفع الميتَ وهو يُوارى
بأن يندبا
لم يعد يوقف النزف
أو ينفع الجرح
أن يعصبا
أو نسفّ عليه الترابْ
فلتكمَّل اذن ياصديقي خساراتنا
ولتؤجج عداء الشقيقين
واختر مبارزة بيننا
مثل عبدين في حلبة
يتراهن من أجل أشرسنا
سادةٌ وخصومٌ لنا

ثم يخلو المجال لهم
للتفرد في الارض
أو للتنعم في عالم
ليس فيه مكانٌ لنا
كنت أحلم لو أننا
قد عرفنا الطريق
الى حيث أعداؤنا
لنسير معاً
سيفَ ملحمة وقرابْ
ثم يأتي زمان يلائمنا
لنصفي الحساب
الذي بيننا
غير أنك تمضي لموتك
دون مراجعة . .
أو جواب

كيف صغّرت مرماك
حتى انتهى في فؤادي؟
وتضرب لايصل السيف
تطعن لايصل الرمح
تطلق لايصل السهمُ
أرجوك أن تتريث،
تسمعني :
اننا وسط غابٍ
تحوّلْ معي ضدَ غدر الذئابْ
وأناديك :
ماكل طفلين تاها
سيلتقيان بذئبة عطف

تقدم أثداءها للرضاعة
هذا زمان الذئاب التي تتبدى لنا بشراً
وأناديك : ياصاحبي
ليس دربك هذا
وقتلي لن يفتح الباب
نحو ضياء يحقق حلمك
ثم أرجوك ياصاحبي
لا توجه الى قلبي ، الآن ، سهمك
فأنا لست خصمكْ

أنت درعي
أنا السهم في قوس حربك
حين أصيب المقاتل
مثلي تصيب
وهذا العدو يوحد أقدارنا
وأنا ، في المتاهات
أرقب ، كي أهتدي لطريقي ،
نجمَكْ
ولأني أحسك قربي
تقدمت
لم أخشى طعنة غدر
ولم أتلفت ورائي بخوف
وأنا من ، على عتبة الحرب ،
قد شدَّ عزمكْ
فلماذا تلج عليَّ
كأني روما
كأني الطريق الى مأدبا
وأظل أرد بمغفرتي
وكأني تحولتُ أمَّكْ

أنت صدَّقتَ ماقدموا من وعود
أو تعبتَ فراوحت قبل وصول الحدود
وأنا لم أكن مذنبا
لمع الحقد في برق ضحكاتهم شامتين
رأيتُ الذي لم تشأ ان تراه
وأن تدركه
(أنت علمتني أن أرى)
قدموا حلبةً وسلاحاً
ورصّوا الشهودَ
لكي يشهدوا بيننا المعركة
كان درباً سلكتَ، بغفلة عمر،
وحاولتُ أن أستردك
هل نتسلح من أجلهم بالشكوك
نتبارز بالألسنة
ننفش الريش
كي نتناقر مثل الديوكْ
نتجاهل أنا نُسمَّنُ في مدجنهْ
أن رائحةً من شواء الدجاج
تفوح من المدخنة
كي تُقدَّم مائدة للملوكْ
ويبيعوننا نيئين وأحياء
نصبح أرصدة في البنوكْ
ياصديقي
تعال لنكمل درس الدجاجْ
الدجاج الذي نسي الأجنحة
لم يعد يتضايق
أو يتطاول بالنظرات وراء سياجْ
وتناسى زماناً لتحليقه

ثم راح يدب على الأرض
يبحث عن لقمة بين بعر النعاج
يغلق العين للنوم قبل الغروب
فلم تبق من حاجة
للنجوم أو الضوء
او للسراج
ويموت بغير جنائز أو أضرحة
أنت صدقتهم،
فارتضيت الحروب الصغيرة
حين قاموا على أمرنا
أغرقونا وعودا
لم تشأ أنْ ترى
أنَّ من زوقوا الكلمات
تزينوا بهيئتنا مبدعين
وكانوا جنودا
أن من أججوا النار
كانوا يريدوننا
للثريد وقودا
أن هذي الخطوط
التي طرزت وهج أحلامنا
انما رسخت حولنا حرساً وحدودا
لم تشأ أن تراهم معي
ان من طالبوا بدم التضحيات سماسرةً
يحسبون الدماء نقودا
ان من طلبوا، باسمنا، القدس
كانوا يهودا

أيَّ روما تريد اذن ياصديق

كل روما لها رحلة وطريق
كل درب يؤدي اليها
اذا ماوجدت الرفيقْ
والرفيق، كما أوضحت لك أمك
قبل الطريق
أي روما تريد اذنْ
ان روما التي كنت تسعى اليها بلا رفقتي
قد تحولتِ الآن سوق رقيقْ
هل تعمر روماك؟
لا بأس
لكن تذكر:
فما كل روما
تقوم على جثةٍ لشقيقْ

حينما جفت المرحبا
وتطاولت الكلمات لكي لاتقول
حرنت، دون أن تتحقق
ضيقتِ الدرب حتى يطول
حين غابت وراء خصاماتنا مأدبا
واختفت دير ماما
وأصبحتِ الأرض زنزانة
لم نجد بين قضبانها مهربا
كنتَ تصرخ مستنجداً
كنتُ أنوي الغناء الحلمي
ولكن صوتي وصوتك
ضاعا أمام هدير الطبولْ
وانتهينا الى باب مقبرةٍ
نفقتْ تحتنا،

للوصول اليها، الخيول
واذا الصبح، وهو يداورنا
قد تبدل
حتى انتهى مغربا
ففتحنا الظلام الكئيب
وسرنا الى مأدبا
كي نلاقي روما التي
أصبحت كومة من وحولْ
هاهو الموت يوقف هذا الخصامْ
هاهو الموت يعلن أني
هُزمتُ بموتك
يمنحني فرصة للكلام
وأراهم يجيئون نحوي
يشدّون أزري
لعل الذي في دمي
رغبةٌ لانتقامْ
أنت لن تستطيع سماعي
ولن تستطيع الكلام
لن ترد العتاب او المرحبا
سأقول: أحبك
أغسل قلبك من زيف أمجادهم
وأعيدك نحوي حليفاً ودودا
ياصديقي اللدودا
أحبس الدمع
كي أبصر الدرب وسط الزحام
فأواريك في مأدبا
بين أطلال روما الظلامْ
ثم ألقي عليك السلام

شعر

«زلزلة» على قرن الثور

مليكة العاصمي*

منْ جَسَد القَمَر النازفِ
أخرجْ إلى البَحْرِ
واركَبْ ثنايا الرياحْ
وأشْرفْ على جَسَدي المُتمزِّق
يَنْزِفُ فيهِ القمَرْ

★★★

تراكَمَت السَبَحاتُ إلى آخرِ العُمْرِ
جَارتْ إلى النَهْرِ •
والنهرُ يَجْري
ويَهْرُبُ لاَ مَنْ يُلاَحِقُهُ
أوْ يُجاريهِ
والعَسْجداتُ حمَلْنَ إليهِ رَحيقَ الثّمارِ
وبَيْروتُ
جُرْحٌ مُدَمّىً
يَمورُ.. يَمورُ.. يَمورُ

★★★

تَعُودُ إلىَ شاطىءِ الليل
تَسْلَخُ أيامَكَ الماضياتِ
تُقَلِّبُ في الزَمَن الراعفِ المُتشتّتِ
عَنْ جَسَدِ المُسْتحيل المؤمَّلِ
في ثَنيّات الوشاح المفصَّلِ
عن نَجْمةٍ، غَادرَتْ بُرجَها
وتدلَّتَ إليكَ
وعَنْ بَيْرَق
هزّهُ الشوقُ والذكرياتُ لبابلْ

★★★

---

* شاعرة وكاتبة من المغرب.

لبيروتْ
لبابلَ
بابٌ يصرُّ أمامَ الرِّياحِ
وَ لا يَعْرِفُ النازحون إليهِ طَريقاً
وَ يَحْرُسُهُ الموتُ مُنْذُ الأزلْ
رَكِبْنا زوَارِقَنا
ومضيْنا
إلى شاطىءِ الرَمْلِ والأُقْحُوانْ
وبَاضتْ مراكبنُا فيْلقاً من طُيور السنونو
على فمِها زَغْرداتٌ لبيروتْ - لبابلْ
في عَيْنِها خَبرٌ عاجلٌ
لاَ يُقالْ
وطَارَ السنونو
يَحْضُنُ كلْمتَهُ ويُغَنّي
سَلاماً لبيروتْ
سَلاماً لبابلْ
سَاما.. ولاما.. ومامَا لبيروتَ بابلْ
ساما.. شآما.. سلامَا.. سلامَا.

★★★

يُحاصِرُكَ الشوقُ
ملءَ البلادِ البعيدةِ
للزَّمن المتَنَسِّك
والخيلِ
والليلِ
والصولجان
وللسيفِ والرمحِ

خَرجتَ مِن الجبِ
ليلةَ تشرينَ
مُتَّشحاً بالغصون
وَمُعْتمراً بثنايا الهضابِ
ومُكْتَحلاً بالوهنْ
بالوسنْ
تنادتْ أمامكَ أجْراسُ دارِ البقاءِ
ودار الفناءْ
والقيتَ تَسْيارَكَ اليومَ
في مُدُنِ الرَمْلِ
والشِّيحِ
والريحِ
والسنبلاتِ العجافِ
وموْطىءِ اقدامِ آدمَ
والشمسُ مَكْشوفةٌ فوقَ رأسكَ
والزمنُ اللاهبُ المُسْتَعرُ
يصدِّرُ مكبوتَهُ
وَيُواصل قذْفَ الحِممْ

«وبعينيك أوقدَت هندُ النارَ أصيلاً تَلْوي بها العلياءُ
أوقدَتْها بينَ العقيق فشَخْصَيْنِ بعودٍ كما يلوح الضياءُ
فتنورتَ نارَها منُ بَعيدٍ بخزازىَ هيهاتَ منكَ الصِلاءُ»

★ ★ ★

تَنْتطقُ الأرْضُ حِزامَهَا
يَنْتَفضُ القلبُ
وتَتفجَّرُ في الأَرْضِ يَنابيعُ الهمِّ الغائمِ
تشتبكُ الأشياءُ...
شرارُ النار يفتتُ بيروت

لهيبُ النارَ يجلِّلُ بابلْ
دُخانُ النارِ يكلِّلُ كنعانَ، ونجداً وتهامةَ
والاغوارَ، وأرضَ الزَّابِ
وصَحْراءَ المَغْربْ

«اشـتـدّي ازمـةُ تنْـفـرجي   قد آذَنَ ليـلـك بالبـلَـجِ
وسـحـابُ الخـيْرِ لهـا قطرٌ   فإذا جاءَ الإبَّـانُ تجـيِ
واذا كنـت المِـقـدامَ فَلا   تَجْـزَعْ في الحَـرْبِ من الرهَـجِ»

★ ★ ★

أَشْرَفْت علىَ قيعانِ البيداءِ المُمْتَدّة
مَا زالَ النخلُ يُنكِّسُ هاماته للأَرْضِ
وَلَم يَتَسامَقْ بَعْدُ، وَلَمْ
تنْتَصِب الآذانُ كحدِّ السيْفِ مِنَ السَعَفِ المَسْنُونةِ، لم
يَترعْرَعْ لَوْنُ النخلِ، وَلَمْ
تتوحد نَظْرَتُه في شَزَرِ
نَحو نُتوْات الأرْضِ السوْداءْ
غَضَبٌ، حِمَمٌ، سُخْطٌ، نارٌ
لَمْ يَثْنِ العُودَ عن العِوَجِ
طَالَت أيَّام القَهْرِ وَقدْ
شدّ المحلاجُ على الحَلَجِ
وتقاذف في الشامِ التاريخُ وهَمَّ بهِ الطوفانُ يَجي
الأرْضُ إذا أَمْسَت حَمِلَت
من بعلها بالطيب الأرج

«اشتدي ازمة تنفرجي   قد آذن ليلك بالبلج

أمامَكَ
يَمْتَشق النَخْلُ حُساماً في بابلْ
وتُجلّل أشجارُ الأرْزِ مناطيداً في بَيْروتْ
يَتَعالَى السَرْوُ بأرضِ القُدْسِ

ويقذف السنة حراب مسنونة

أمامَك

يَحْمِل نَهرُ النيل وَبَردى

تَرتجّ جَوانِبُ صَحْراءِ المغرب

تهتز الكثبان، وتصفع وجه النسمات

«المسكونة بالارياح»

أمامَك

ظَهْرُ الأرْضِ يَموجُ بِطَقْسِ صَلاة العَرَبِ

بأقصَى الشْرقِ وأقصى الغَرْبِ

وَ في أدْغالِ المانْجو والمَوْز

وَبَطْنِ الحُوتْ

وَيتَفَتّق رَحِمُ الأرْضِ عَنِ الأزهارِ

عَنِ الألْوانْ

وَعَن كَنْز سُليمانَ المَكْنون

يَجودُ بِه الثورُ الأعْظم في دَوْرَته

وهْو يُبدِّل وَضْعَ الأرْضِ

إلى قرنٍ آخر...

يَجودُ بِهِ الثورُ الأعْظَمُ في دَوْرَته

وَهْو يُبدِّل وَضْع الأرْضِ

إلى قَرْنٍ آخرْ

وَهْو يُبَدِّلُ

وَضْعَ الأرض إلى

قَرْنٍ آخر

وَهْوَ يُبدِّلُ

وَضْع الأرْض

إلى

قَرْنٍ آخر

قصة

دوائر

الياس انيس خوري*

الصباح

هو صباح أصفر كمحيا جثة، البرد سرب نحل، تعود مص الدماء الأزقة مقبرة هجرها حتى الاموات، أتربة هنا وزبل هناك، الشمس في السماء لايراها. هي حبة أسبرين لم تعد تؤثر فيه. في جيبي معطفه الحريري تبحث يداه عن دفء ولا تجدان.

تنتظم الآن ارتعاشات فكيه. رتيبة لايحس بها. وتتسع خطواته تولول هبة ريح تخرمشه حتى نخاع عظامه. يتوارب في مدخل بناية حتى تمضي. ينفخ في يديه ويدعك أرنبة أنفه بشدة. شفتاه متشققتان توشك الدماء تنفر منهما. يتكىء على الجدار مغمضا عينيه. لم يضحك أمس عندما حكى أبو معتز قصة الرجل الذي تجمد وهو يمشي ومات! يعرفونه اكبر كذاب في المخيم لكن السالفة ليست مستحيلة التصديق. ان حدث له نفس الشيء ستروي الصحف قصته ويصبح شهيدا لانه مامات ميتة عادية

حث خطاه يلغي المـوت والشهـرة والصحف، ماذا ذكره بالموت الآن؟ وسّع خطاه يدق الأرض بكعبيه. ويشق الصمت صوتها المنتظم. كالمشية العسكرية رتيب الموسيقا جاف الصدى.

---

* قاص من فلسطين.

ويقذف السنة حراب مسنونة

أمامَك

يَحْمِل نَهرُ النيل وبَردى

تَرتجّ جوانِبُ صَحْراءِ المغرب

تهتز الكثبان، وتصفع وجه النسمات

«المسكونة بالارياح»

أمامَك

ظَهْرُ الأرْض يَموجُ بطَقْس صَلاة العَرَب

بأقصَى الشْرقِ وأقصى الغَرْبِ

وَ في أدْغال المانْجو والمَوْز

وَبَطْن الحُوتْ

وَيتَفَتّق رَحِمُ الأرْض عَن الأزهارِ

عَن الألْوانْ

وَعَن كَنْز سُليمانَ المَكْنون

يَجودُ بهِ الثورُ الأعْظم في دَوْرَته

وهْو يُبدِّل وَضْعَ الأرْضِ

إلى قرنٍ آخر...

يَجودُ بهِ الثورُ الأعْظَمُ في دَوْرَته

وَهْو يُبدّل وَضْع الأرْضِ

إلى قَرْنٍ آخرْ

وَهْو يُبَدّلُ

وَضْعَ الأرض إلى

قَرْنٍ آخر

وَهْوَ يُبدّلُ

وَضْع الأرْض

إلى

قَرْنٍ آخر

قصة

دوائر

الياس انيس خوري*

الصباح

هو صباح أصفر كمحيا جثة، البرد سرب نحل، تعود مص الدماء الأزقة مقبرة هجرها حتى الاموات، أتربة هنا وزبل هناك، الشمس في السماء لايراها. هي حبة أسبرين لم تعد تؤثر فيه. في جيبي معطفه الحريري تبحث يداه عن دفء ولا تجدان.

تنتظم الآن ارتعاشات فكيه. رتيبة لايحس بها. وتتسع خطواته تولول هبة ريح تخرمشه حتى نخاع عظامه. يتوارب في مدخل بناية حتى تمضي. ينفخ في يديه ويدعك أرنبة أنفه بشدة. شفتاه متشققتان توشك الدماء تنفر منهما. يتكىء على الجدار مغمضا عينيه. لم يضحك أمس عندما حكى أبو معتز قصة الرجل الذي تجمد وهو يمشي ومات! يعرفونه اكبر كذاب في المخيم لكن السالفة ليست مستحيلة التصديق. ان حدث له نفس الشيء ستروي الصحف قصته ويصبح شهيدا لانه مامات ميتة عادية

حث خطاه يلغي المـوت والشهـرة والصحف، ماذا ذكره بالموت الآن؟ وسّع خطاه يدق الأرض بكعبيه. ويشق الصمت صوتها المنتظم. كالمشية العسكرية رتيب الموسيقا جاف الصدى.

---

* قاص من فلسطين.

واحد اثنان واحد اثنان واحد اثنان.

في آخر الحارة بدا رجل. لم يتصبح بأحد بعد، قد يكون صباح الرجل شؤماً ماعليه. أطرق برأسه وغذ السير. السكون وصوت خطاهما. سعلة جشّاء أليفة.

ـ صباح الخير أبو عايد

ـ صباح الخير

لعنه في سره ولعن صباحه النحس. من كل الخلق لم يطلع له الا أبو أحمد. . آخر مرة تصبح به جاءه خصم نصف يوم لتأخره. يافتاح يا عليم يارزاق ياكريم.

انعطف الى الزقاق الاخير قبل الساحة. احياء بنوها بعد الطوفان مباشرة. عَجَزَة امريكا يأتون من آخر الدنيا يتفرجون عليها، ونصيبه الزفت كتب عليه ان يدفن فيها نفسه. هنا أقام وتزوج ونسل أولادا وهنا سيموت، بعد عمر طويل ان شاء الله. لو أن فلسطين لم تضع لبقي في وطنه وعاش سعيدا في أملاك العائلة. لكن الله أعطاها لليهود. . . إنها تفرقة عنصرية. . . يقولون حكمتـه. . أية حكمـة هذه؟ وأستغفر الله. . هذه اولى مصائب صباحه المنحوس. أن يكفر! واستغفر الله ثانية. رفس علبة الكبريت. برك الماء في الشارع متجمدة يدوس عليها فتتكسر شظايا زجاجية ناعمة، الهواء يسكن في يد خبير بتشطيب الوجوه. يعجل في سيره يود لو يركض. فيه دفء ودماء حارة. لكن ماذا يقول الذين يرونه؟

ليقولوا مايشاؤون. . رص طاقيته الجلدية المهترئة على صلعته ألقى نظرة حوله. واحد اثنان ثلاثة. .

بانتظام راح يركض. الريح تلسعه بعنف فتدفع عيناه. أخرج يديه من جيب معطفه وثبت كوعيه على خاصرتيه. شيئا فشيئا راح يستشعر متعه ناعمة. خدرا لذيذا ينبت في رأسه وبطنه. المارة يتطلعون اليه بتساؤل. لكنه لايبالي لو أنهم يفعلون مثله لما برد أحد ولما مات أحد من البرد. طبقة الثلج الرقيقة حول وجهه تذوب. الدفء يمتد الى أطرافه. لا يعود يرى بوضوح. الناس والاشجار والسيارات والعمارات تدور وتختلط لتشبه لوحة لايفهم لها رأسا من ذنب. خيوط من العرق تحت وجهه قلبه يطرق ونفسه يتقطع. لكن لابأس.

عنـد موقف الباص وقف يلهث. الهواء يلسع لكنه دفآن الغيوم في السماء تتجمع سوداء كئيبة. ان هطل المطر كأس سيطوف بردى. باص القدم يقترب بطيئا شاخرا فيفرك يديه مغتبطا لانه سيصل قبل رفع بطاقة الدوام. . يصعد الى الباص برشاقة يستغربها من نفسه.

أربعة متوزعون في أنحائه. . يتجاهل قطع التذكرة في الالة ويرمي بثقله على اول مقعد. لم يكن الباص قد انطلق عندما اقترب منه أحد الاربعة. .

ـ التذكرة. .

تطلع الى الرجل بانكسار. .

ـ غرامة عدم قطع التذكرة عشر ليرات يامحترم.

وجه الرجل يدل على لؤم. . لن يستفيد شيئا من مجادلته. ناوله عشر ليرات وألصق وجهه بزجاج الشباك مقهورا

الظهر

تلاقى عقربا الساعة على رقم ١٢ أوقف الآلة وأخذ نفساً عميقاً تثاءب ووقف يتمطى. لوى ظهره يمينا وشمالاً وانحنى عدة مرات حتى طقطقت بعض عظامه. شعر بغير قليل من الارتياح بعد قعدته الطويلة المتصلبة أشعل سيجارة بردى مَجَّ منها بشراهة ونفث الدخان يزيح معه نتفاً من كلله. . نظر الى أبو مروان وتنحنح.

ـ لن أتأخر. . كأس شاي وارجع. ان سأل عني أحد فجاوبه بالمعتاد.

ـ طيب ـ هات سيجارة.

رمى له واحدة وابتعد بتثاقل تعِبٌ حتى الموت مابه هذه الأيام؟ ساعة شغل واحدة تكفي لازهاق روحه. كل مافيه يوجعه. . رأسه. عيناه. ظهره. بطنه. لو أن الدكتور يعطيه اجازة صحية لربما تحسن قليلا لكنـه اللعين لايعطي اجازة صحية حتى للميت. «مابك شيء. . صحتك حديد. . عد لشغلك وتطيب كله وهم وهم يحرص على الشغل وكأن العمل ملكه. . ابن الكلب!

دخل المرحاض. . تبول وغسل يديه. بحذاء الباب الخارجي وقف المطر منذ ساعتين لم يمل الهطول. البرد خفت حدته قليلا، غطى رأسه بمحرمته وجرى الى الجناح الشمالي.

فتح الباب دون أن يطرقه. . رحبوا به بحرارة. هم يرد سلامهم عندما انخرط فجأة في سعال حاد. . ظل يسعل جاحظ العينين حتى نظف حلقه من كمية بلغم بحجم حبة عنب بصقها في المحرمة. قبل أن يطويها نظر اليها وارتجف اذ تبين فيها لطخات من دم أحمر. التهبت وجنتاه وطنت اذنـاه. لكنه سرعان ماطواها ودسها في جيبه بعصبية. اقترب من المدفأة يجفف ملابسه. أخرج سيجارة من علبته لكنه تذكر اللطخ الحمراء. فرماها وسحقها برجله ثم لعن الدخان بصوت عال. لم يرد عليه أحد. كانوا منهمكين في حديث فهم بعد قليل أن محوره الزيادة التي يستحقونها منذ خمسة أشهر. حديث يتكرر كل يوم عدة مرات، وفي كل الاقسام. ان رأيت اثنين يتجادلان او يتهامسان فزيادة الاجور هي بكل تأكيد محور حديثهما.

هي الشلة العادية التي تجتمع كل يوم في مثل هذا الوقت لشرب الشاي وتبادل اخر الاخبار.

أبو وحيد عامل آلة التعبئة بشفته الارنبية ذو الزوجين والعشرة اولاد، سبب له ترك الآلة في مثل هذا الوقت، تنبيهاً وانذاراً وخصم يوم حتى الان، لكنه لم يرتدع. يأمل أن يسرحوه ليذهب للعمل في أبو ظبي، عند اخيه المليونير.

أبو لبيب عامل اللصق، القصير صاحب الكرش الكبيرة، بصلعته اللامعة أبدا، يمشي كحامل في شهرها التاسع. هاجر من حوران الى الشام ليثرى، وما اكتشف حتى الآن كيف يفعل

ذلك.

الرفيق محمود.. حتى هم، اصحابه الأقرب لايسمح لهم بمناداته باسمه دون أن تسبقه كلمة رفيق. فهو عضو في اللجنة النقابية، وعامل على آلة التعليب. أصغرهم سنا. أطولهم وأنحفهم. عيناه جاحظتان. بشع لكن زوجته على زعم أبو لبيب أجمل من حورية. يحلم بأن يصير يوما رئيسا لنقابة عمال الاغذية منصب أهم من وزير. يسرح دائما، يصفن يفكر في الوسائل التي تمكنه من تحقيق حلمه.

تناول أبو عايد كأس الشاي من أبو حميد. رشف منه باستمتاع وأخذ شاكراً سيجارة الكنت التي قدمها له أبو لبيب. لم ينس اللطخ الحمراء لكن الكنت غير البردى أشعلها وهو يصغي بانتباه الى أبو حميد. كان يؤكد للمرة الألف ان السكوت لن يوصلهم الى حقهم فتساءل أبو لبيب.

- اذا صرخنا نصل! اللجنة بقضها وقضيضها لم تفعل شيئا.. رِجل كرسي. قطب الرفيق محمود وجهه. زاده الغضب بشاعة وحذر.

- حاجتكم أكل هوا. كلما دق الكوز بالجرة تقولون اللجنة رجل كرسي لولا اللجنة ما أخذ تم وجبة الحليب وبذلات العمل مجانا وقاطعة أبو عايد ساخرا.

وعاشت اللجنة على أمجاد الحليب والبذلات.. كف.. شباب. صفقوا وازداد تقطيب الرفيق محمود وعلق أبو حميد مابقي والله الا أن تركبونا بحجة الحليب وبذلات العمل نكشف فضائح اللجنة أم نظل خرسانين؟

وبلمسة ساحر تحول الرفيق محمود من الغضب الى الدهشة المتغابية التهديد بذكر فضائح اللجنة يكفي لجعله حملا وديعا.. وتساءل محاولا تغليب المزاح على الجد

- أية فضائح تعني؟ أم أنكم لاتتشاطرون الا على اللجنة. لماذا تسكتون على الادارة، خلّنا في موضوعنا الأساسي الآن زيادة الأجور تشمل أعضاء اللجنة كما تشملكم.

نظروا اليه بتعاطف، سبق وتبادلوا الرأي حول شخصه بصراحه، أثناء غيابه. ذكروا فضائله، وبالطبع عيوبه. كانت أراؤهم متقاربة ووصلوا الى نتيجة مفادها أنه أفضل اعضاء اللجنة. طيب القلب لايزاود على حسابهم أقل الأعضاء ممالأة للادارة لايدس على احد. يحب البروظة. لم يملأ بيته بمعلبات الشركة. ان حدث وصار رئيسا للنقابة يوما ما فسيصير بعرق جبينه.

رشف أبو لبيب جرعة أنهى بها كأس الشاي وقال:

- طيب اتركونا من الحديث كله الآن. ماذا صار بابنك أبو حميد

ابتسم هذا باعتزاز.

- حميد.. الله يحميه. بعد شهرين يتخرج. يقول انهم قد يبعثوه الى روسيا ليتخصص.. يرجع بعدها وعلى كتفيه نجمتان.

غمز أبو لبيب وقال باسما.

- لاتعرف. بعد كم سنة وشوية حظ ويصير شيئا هاما في البلد. ضحكوا وضحكوا اكثر عندما تمتم

الرفيق محمود بجدية.

- كله وارد..

وانقبض قلب أبو عايد، كلما تحدثوا عن الابناء أمامه تذكر عايداً ولا يمكن أن يتذكره الا وتنتابه موجة من الغضب الحزين المقهور. كل العالم صارت اولادهم وتصورت الا ابنه. لايعرف اين هو في تونس في لبنان في امريكا، ام بي الصين. قالوا إنه استشهد في الغزو الصهيوني للبنان. بعد سنة جاءتهم منه رسالة من تونس. عن ظهر قلب يحفظها.

سأرجع قريبا الى لبنان. لم أتحمل الحياة في تونس. لاأستطيع ان أعيش دون سلاحي. الفلسطيني بلا سلاح لا حياة له اذا رجعت لكم فاعرفوا اني استسلمت وقبلت هزيمتي. طالما لم أرجع فاعرفوا اني لا أزال آملاً..

للآن مارجع هذا المجنون.. وما عادوا سمعوا عنه خبراً. هل لايزال يأمل؟ وضع أبو عايد وجهه الاسيان في راحتيه وحملق في أصحابه مقهورا.

الليل

أشعل سيجارة حتى تنتهي أم عايد من الاولاد.. أربع سجاير زيادة دخن اليوم. على طرف السرير جلس يتصفح مجلة ألف ليلة وليلة الفاضحة يصورها شبه العارية. التي وجدها مع سميح. أفقده الغضب لايعرف كيف فقد صوابه. ربما وجدها فرصة لفش خلقه، تنفيس الضيق المتنامي في صدره، والذي كبته طويلاً، حتى عن ام عايد. أنب سميحاً بشدة وصفعه. كان يحسب الصفعة خفيفة، لكنه مادري كيف اصابت عينه. وندم بشدة اذ رأى عين ابنه تحمر وتدمع. لكنه ماتوقع أن يرفع سميح صوته وينفجر صارخا.

- إلى متى ستظل تضربني ماعدت صغيرا صار عمري ١٦ سنة،فوجىء، لم يعرف مايقول. انطفأ غضبه وشعر بالتعاسة جاءت أم عايد على صراخ ابنها. وطار عقلها ما أن رأت عينيه. فهدرت في وجهه بعد أن سمعت القصة من ابنها.

- وما بها المجلة أتستأهل ان تعور الولد من أجلها. النسوان يطلعن عرايا في التلفزيون ولا زلت أنت في عقلية جدي؟

وَدّ لو يبكي وعاوده احساسه بالتعاسة بأنه وحده في عالم معتم كئيب. أيعتذر من الولد ويرجع له المجلة؟

ألقى المجلة على السرير اذ انتابته نوبة سعال. بصق. لم تكن هناك لطخ دم. لكنه لم يرتح. دخن زيادة اليوم بدل أن يفعل العكس.

ألقى السيجارة في منقل الفحم، ومد يديه يدفئهما فوقه. دخلت ام عايد واغلقت الباب وراءها باحكام.

ـ فأر المطبخ سيجنني أربع مرات وضعت له المصيدة. في كل مرة يأكل شقف الجبنة ويهرب اشتري بكرا مصيدة جديدة؟

هز رأسه وحل السكون سوى من غدوها ورواحها وهي تخلع ثيابها. تمدد ببطنه على السرير وفتح المجلة. ممثلة جميلة بالبكيني تبتسم له.

ـ أعجبتك المجلة!

سألت ساخرة. أغلقها ورفع رأسه ينظر اليها تسبل قميص النوم على جسدها. وقفت أمام المرآة تمشط شعرها الطويل الذي شابته خصل بيضاء. راحت تدندن بلحن فيروزي فتذكر راديو الترانزستور. حرمه اياه سمير صار لايعرف يدرس دون موسيقا. كبر الاولاد وكبرت طلباتهم ومشاكلهم.

ـ نام الأولاد!

ـ سمير والهام يدرسان.

ـ أقلت لسمير ألا ينام والراديو مفتوح؟

ـ نعم. ألم تغسل رجليك رائحتها قوية

ـ غسلتها

وضعت دبابيس شعرها في الدولاب حملت المنقل الى المطبخ، ورجعت مهرولة وهي تفرك يديها وتبربر بشفتيها.

ـ البرد يقتل.

اندست في الفراش واصطكت أسنانها وهي تردف.

ـ التخت بوظ. اطفىء الضوء وتعال بسرعة.

قام بتكاسل. أطفأه ورجع ليندس في الفراش تاركا مسافة بينه وبينها. لكنها اقتربت تلتصق به. ارتجف وكزت أسنانه هنيهة قبل أن يبدأ الدفء يتمدد الى قدميه. مدت يدها تداعب شعر فوديه، شم عندئذ رائحة الكولونيا تفح من عنقها وابطيها مختلطة برائحة عرقها الخفيفة. ودبت نمال تدغدغه بنعومة في وجهه وظهره. أغمض عينيه مستمتعا بالرائحة وبدقات المطر تنقر الشباك برتابة لكنها لم تتركه. لكزته في كتفه.

ـ هه.. أستنام من الآن؟

التصقت به بطريقة فهم معناها لكنه تجاهل مرادها وسألته قبل أن يعرف أن لاحظت تجاهله.

ـ ماذا قررت بشأن الهام؟ تأخرنا في الجواب على الجماعة

رفع اللحاف حتى عينيه. شم رائحة قدميه.

ـ لماذا العجلة؟ لاتزال في السابعة عشرة

ـ زياد شاب طيب وابن حلال وهي معجبة به فلماذا تماطل؟

كلهم بالنسبة لامرأته شباب طيبون وابناء حلال ربما راق الشاب في عين البنت. لكنه هو لم يرتح له. يريد لابنته عريسا غير هذا. غني ربما. على الأقل عنده بيت. لايريدها أن تعيش على الجبنة والزيتون وتربية الاولاد المحرومين.

ـ أمامه العسكرية. ثلاث سنوات طويلة.

ـ حصته في المطعم حتى وهو في الجيش، تؤمن له ألف ليرة في الشهر وعلى الأغلب سيخدم العسكرية في الشام.

ـ وماذا تعرفين؟

ـ لاتعقد الامور يارجل العريس معقول. وقد لايأتي أحسن منه.

كانت يدها قد اندست في صدره تفركه بنعومة. انتابه جزع حقيقي منذ أسبوع لم يقرب امرأته متعللا بحجج شتى آخر مرة بالكاد استطاع ممارسة الجنس معها. ومارسه دون نفس. منذئذ وهو غير واثق بنفسه. لماذا؟ لايعرف.

حاول ابعاد ساقيه عنها لكنها كانت اسرع منه. أحاطتها بفخذها وسرحت يدها اكثر. لم يستطع التراجع مد يده يعصر كتفها ونهدها فتأوهت. منذ /٢٥/ عاما وهما زوجان. حتى وهو مريض لم ينقطع عن ممارسة الجنس بانتظام ماذا لو يحدثها عن لطخة الدم؟

ـ أتحبه الهام؟

فاجأها السؤال فسكتت قبل أن تجيب

ـ تحبه؟ لا أعرف. وأنت ألم تحبني قبل أن نتزوج ماذا كنت؟ ماكنا تزوجنا لو فكر أبي كما تفكر أنت.

ربما هما متحابان. ليتزوجا ويصطفلا هم يعلن قراره لامرأته لكنه أمسك مؤجلا اياه الى الغد.

انتبه الى يده لاتزال في صدرها، انتابه ضيق أعظم. ماالذي يوحي له أنه سيفشل الآن لايشعر برغبة في ممارسة الجنس. قطعة لحم هي لصقه الان. أهو التعب ام شيء اخر؟ ودّ لو يبكي، في رأسه شع وجه عايد باهتا وراء غمامة رقيقة أينه؟ وزاحمه سميح وقصة المجلة. سيكسر رأسه ويعيدها له. والهام والخاطب. وعامر الذي لم تعد تكفيه خمس ليرات مصروفا في اليوم وامرأته بنيران تدعوه لاطفائها.

لن يستطيع سيفشل بالتأكيد كم هو تعيس. مدت يدها فجأة الى أسفل لمست عجزه. ابتعد عنها لاشعوريا. وسألت بحزم.

ـ مابك يايوسف؟

سحب يده من صدرها وكان صوته راجفا

ـ لا أعرف يامنيرة: أنا تعب. أسف. لا أعرف مابي.

ابتعدت عنه استلقت على ظهرها علا صوت تنفسها محتقناً بالخيبة. المطر يقرع الشباك بالحاح حملق في جانب وجهها ثم اخفى وجهه في المخدة مقهورا..

قصة

النهاية

حسن حميد*

كنا على سفر مابين أريحا والخليل، وكنت على مقربة منها تضمنا حافلة للركوب. حديثهما يصل اليَّ، وللآخرين، كانا رجلين، الأول: أبيضَّ شعره، وتجعد وجهه، التهمته الحياة أوكادت، والثاني: شاب في ريعان عمره. كانا في حديث متصل، الرجل العجوز يحدث، والشاب يستمع.

قال العجوز:

في الصباح، وبعد ليلة صاخبة، ساهرة، عامرة بالأصحاب، والغناء الجميل.. استيقظت متأخراً، بعض الشيء. على صوت زوجتي الصارخ:

ـ «قم، يا عامر، في الباب رجل»

تناهضت، وأنا أتمتم:

ـ «ياصباح، يافتاح»

ومضيت الى الباب.. لاستقبل الرجل.

حين رأيته هششت له.. وبششت، على الرغم من أن هيئته زرية، ومنظره لايبعث على الارتياح. وقلت له:

* قاص من فلسطين.

«أهلاً ومرحباً.. تفضل»

فتمتم بالسلام، والتحيات الكثيرة، وانحنى، حتى كاد يطوي نفسه على نفسه، ودخل متعثراً. ودّ أن يجلس على الأرض، قرب الباب، فمنعته، وأجلسته على الفراش الممدود.. في صدر الدار واعتذرت منه، لأن البيت لم يرتب بعد، فالدنيا صباح، ويا ألف صباح الخير..

وصرخت بأم العيال:

ـ «الفطور.. ياندى»

وهمهمت ندى، وبدأت بتحضير (الزعترات، واللبنات، وابريق الشاي..) وبعد طول صمت، قال الرجل:

ـ «نمت البارحة على باب بيتك

أعجبني البيت. فقلت ان أصحابه أهل كرم

وعز.. سأضيف عندهم»

قلت:

ـ «يامرحبا»

وعاتبته:

ـ «لكن لماذا لم تقرع الباب؟ فالبيت واسع، والفراش موجود الله يسامحك»

فأضاف:

ـ «أمس، عبرت النهر»

وقلت له:

ـ «أنت، من الذين يعبرون، اذاً»؟

فأجاب:

ـ «نعم..»

وسألته: «الى أين وجهته»؟ فقال: «إلى بلاد مصر، ومنها الى الجنوب»

وهللت به، ورحبت

ووددت أن أسأله عن محتويات زوادته الكتانية المنتفخة، إلا أنني لم أفعل، وقلت في نفسي: عيب ياولد

وبعد الفطور، والحديث والسلام، انتبذ الرجل احدى زوايا الغرفة، أخرج من زوادته كتاباً وطاقية سوداء صغيرة، مثقبة.. وضع الطاقية على مؤخرة رأسه، وشرع يقرأ في كتابه، ووجهه الى الجدار، وبدأ يرتعش، ويهتز كأنما دخلته روح شيطانية، والعياذ بالله، وحين انتهى من القراءة سألته: لماذا كان يهتز وهو يقرأ، وما الذي قرأه؟

فقال:

ـ «هذا كتابي، أقرأ فيه دائماً، واهتز احتراماً للكلام المكتوب».

قلت:

- «يامرحبا»

بعد أيام تجاسر الرجل، الذي لم يرحل، وبدأ يتذمر من الروائح التي يتركها أطفالي في فراشهم، فمنعتهم من النوم في غرفتنا، ثم أخذ يتذمر من سوء طعامي، فحسنته، ثم طلب مني أن ينام في الغرفة وحيداً، وأن يأكل وحيداً، لأنني أشخر على نحو مزعج جداً، وأريل، وأصوّت.. في أثناء تناولي للطعام

وقلت له:

«حاضر..»

- ثم بدأ يضا يقني أكثر، فقد طلب مني شراء الغرفة

عرف حاجتي الى المال، فألح علي في شرائها. شاورت زوجتي فوافقت ومانعت، وحددت عنه

ثم، وبعد أيام عدة، جاء نفر من معارفه، وحلوا ضيوفاً عليه وبات أمرهم، جميعاً، مزعجاً تماماً

ثم تكاثروا.. وتكاثروا حتى بات الوضع على نحو.. يشعر أنني الضيف، وهم أهل البيت

وسألته، غير مرة..

«متى الرحيل»

فكان يجيب بغمغمات فحواها: انه سيرحل، مع جماعته اليوم أو غداً وحين ضيقوا علي أكثر ولم يرحلوا، قلت لهم:

- «ياجماعة، هذا.. لايجوز»

فقالوا:

- «بع البيت لنا.. أفضل»

وعندما رفضت بشدة، صدوا عني، وشرع نفر منهم يغازلون ابنتي الكبرى، ابنة الثلاث عشرة سنة، ويضربون أولادي، ويعتدون على ماشيتي، ويخربون زرعي. وكنت أقول لهم (عيب، وأقول لنفسي: طول بالك ياولد)

ثم تجرؤوا، ضربوا الخنازير، والطيور في حاكورة الدار. ثم بنوا قربي بيوتاً لهم، بعد أن أخذوا موافقة السلطات. وتناهى الى أسماعي أن نفراً منهم، غير قليل، اشترى بيوتاً وأراضي، واستقروا فيها، وباتوا كثرة

كما علمت.. أن عدداً منهم، اشتبكوا مع أهل البلد.. تقاتلوا معهم، وسال الدم.. من أجل البيوت، والأراضي، والنساء، والأموال.

فقلت لنفسي:

- «ياولد، ان حلق جارك.. بلل ذقنك»

فعلاً وقعت الفأس بالرأس، عندما اعتدى أحدهم على أرضي، وحاول أن يزرعها

قلت له:

«ياحبيبي، (ياأبو شوارب كاكي) هذا لايجوز وبدل أن يستحي، قال لي انها بور، وفارغة.. وسوف يعطيني شيئا من محصولها وحاولت أن أقنعه، انني أريح الأرض بين فترة وأخرى، وبين موسم وآخر.. وهذه مسألة لايفهم فيها فغضب، وعلا صياحه، وهجم علي

قلت: اذا وصلت الأمور الى هذا الحد، فيامعين.. المدد، واشتبكنا بدا لي قوياً.. عنيداً، لكنني

قلت: لن يهزمني لو كان ثوراً، وتصارعنا طويلاً. وقدرت عليه، بطحته وقبضت على رقبته بكلتا يدي وباتت روحه بين أصابعي

وسألته:

- «والآن، ماذا ترى»

فأنّ:

- «أرجوك.. لقد أخطأت»

وأضفتُ:

- «ترحل..»

فأجاب:

- «أرحل..»

وانقطع الحديث حين توقفت الحافلة في محطتها الأخيرة.. فقد وصلنا، وكان آخر ماقاله العجوز للشاب:

- «عرفت الى أين وصلنا في حديثنا..»

وهزّ الشاب له رأسه علامة بالمعرفة، وشرعنا ننزل غصصت وتأسفت كثيرا لانني لم أعرف خاتمة القصة ولفتنا ضجة المحطة، تلهينا قليلاً، وأنفقنا وقتاً في استلام حقائبنا وعلى الرغم من ذلك كنت أبحث بعيني عن الرجلين، العجوز والشاب لأعرف نهاية القصة، وحين وجدتهما، خففت اليهما، وحالما اقتربت منهما، التحم الاثنان في عناق حار وتوادعا ودهشت، وانقبض قلبي

مضى العجوز، وظلّ الشاب واقفا، لابدّ أنه كان ينتظر مخلوقا ما. ولم أجد نفسي الا أمامه. ابتسم لي وابتسمت له. هنأته بسلامة الوصول وهنأني ثم وقبل أن يمتد الصمت بيننا، سألته:

- «وماذا عن نهاية القصة؟

أعني ماذا كانت نهاية الرجل الذي عبر» فابتسم وقد أدرك أنني كنت أستمع لحديثهما ورد الشاب أن يحدثني عن النهاية الا أن وصول امرأة طويلة، ومباغتتها له بالعناق.. جعله يحجم، وكل مافعله، وحين فك التحامه، تمتم:

- «النهاية.. عندي»

واستدار واستدارت المرأة وابتعدا فوق خطواتها القصيرة، الرشيقة، وظللت طي حيرتي!.

قصة

من تاريخ ابن صفدون

سهيل الخالدي*

عثرتُ في ما يعثر عليه النائم من أوراق، وكنت في سفر بين شراييني والاحداق، أبحث في هذا الزِّق، وفي ذلك الزُّقاق، عن بقايا دمي العربي المراق، بردانا أطلب الدفء للاعماق، رغم أني من بلاد، وفي بلاد، برميل نفطها دهاق! عثرت عليها في ما يعثر عليه النائم، ماشياً غير قائم. انها بضعة أوراق، بعضها كانت فيه أَرضَةٌ، وبعضها أصابه احتراق!.

فضضتها دون تورك، فأطاعت دون تحرك . .

فاذا بها جزء من كتاب، فيه الف الف باب، وكل باب فيه فصول، بعضها يقصر وبعضها لا يطول! أما مؤلفه كما ظهر في رأس الكاغد، بخط قائم غير قاعد، فقد عاش في الالف الاولى للحجر الموافقة أواخر الالف الثانية للميلاد، له في كتب التاريخ تآليف، وفي الادب تصانيف ويتقن النحو وبعض التصريف وقد قال بعضهم ان عقله من البحر الخفيف وبعضهم عارض وقال: فيه زحاف طفيف!.

وأما أسلوبه فقد وصفته أهل الالف الميلادي الثاني، بأنه ملتاث ولائث، وأما أهل الالف

* صحفي وروائي من فلسطين.

الحجري الاول، فقد وصفوه بالظرافة واللطافة! واستدلوا من ذلك بأن صاحبه نابلسي يحب الكنافة، وعارضهم البعض قائلاً: بل انه طبراني يأكل الملفوف، والسمك غير المسقوف.

وفي كل الحالات، اتفقت كل الروايات، على أن تلك الاوراق، التي عثرت عليها في ما يعثر عليه النائم، ماشياً غير قائم، تخص ابن صفدون بالذات والصفات، المولود تحت الزيتون وفوق الصفاة!.

وأما اسم الكتاب برمته، من أخمصه الى هامته، ومن بطنه الى خاصرته، كما دون على حاشيته، فبان لا هو بالقصير فيجدع، ولا هو بالطويل فيضلع، ولا هو بالمكعبل أو المدعبل، وكأنه جزء من أسفار النبي خزعل.

وهو كالاتي، كما بان تحت نظاراتي:

(تاريخ ابن صفدون، في أخبار من يمضون، من العرب الشافطة، والعرب النافطة. وسادتهم الصعاليك، من زط وأمريك، وأخبار من عاصرهم من عرب الحجر، ذوي الصبر الاكبر).

وقد قال ابن صفدون في هذه الاوراق، التي عثرت عليها في ما يعثر عليه النائم ماشياً غير قائم، وكلامه على عهدته وذمته، وهو المسؤول عن صدقه ونيته، فليس لي به أدنى علاقة، فأنا من أهل العوز والفاقه، وليس لي وساطة، فأبي في السوق، يبيع البطاطة، وأمي ليست خياطة!.

قال لافض فوه:

كان في الالف الثاني للميلاد، الموافقة للالف الاولى من الحجر، قوم من العربان، مضاربهم بين سيناء ولبنان، يغمسون الزيت بالزعتر، وخبزهم في الطابون يقمر، ويعتقون في الخوابي نبيذهم الاحمر، وهم عرب أقحاح، كما ورد في الصحاح الذي ذكره الاصحاح! في ذلك الزمان الممجوج، هاجمتهم أروام وعلوج، جاءتهم من بلاد ياجوج وماجوج، لتخرجهم من أرضهم، وتسلبهم دارهم ودوّارهم، فأعملت العلوج في العربان السيف، ودار القتال في الشتاء وفي الصيف. ولكن العربان من صفد حتى غزة، فيهم لبعضهم رفد وفيهم عزة، فما استطاعت تلك الاقوام، من علوج وأروام، أن تنتصر بسيوفها على أعمدة الخيام، فاستنجد أولئك الغزاة اليهود بالفرنج الذين أمدوهم، بعد الوعود، بالسلاح والجنود، فتطلع الفلسطينيون الى اخوانهم العربان، الذين يملأون الشطآن والوديان.

لكن العربان في ذلك الزمان، وان سكنت المدن، وتحصنت في الجبال، فقد هجرت الريف، فاشتهت الرغيف! وصارت قلوبهم مكلومة، يشتغلون نامين عند الحكومة، التي مزقتهم شر تمزيق، وجعلت أسيافهم مخاريق فكانوا من جملة المماليك. فما استطاعوا لاخوانهم الفلسطينيين نجده، الذين حاربوا بعزم وشده، فأخرجهم اليهود والاوروام، من دارهم ودوارهم بعد حرب دامت أكثر من ثلاثين عاماً!.

لكن المماليك وهم من بقايا الزط، غلمان الامريك، اسكنوا الفلسطينيين بالي الخيام،

ومنعوهم الا أقل الطعام، ومنعوهم العمل، والكلام، أو السكن بين اخوانهم العربان، حتى صار الفلسطيني يخشى أن يبحث عن أمه وأبيه، أو يسأل عن أخته أو أخيه، ونشروا بينهم النمامين والشرطة، المرتشين، فالخيام التي تضربها الرياح، ليس فيها أي شيء مباح، سوى الانقراض، بسائر العلل والامراض.

ورفضت العربان الفلسطينية هذا السلوك الجبان، الذي لا يأتيه غير الفاسق والخوان، واجتمعت مع العربان الشامية والمغربية، وكذا المصرية والسودانية، اجتمعت سراً، ودبرت في أمرها أمراً، ومشى الجميع طريق الكفاح، وامتشقوا السيوف والرماح، وطلبوا الموت دفاعاً عن الاعراض، بدل هاتيك الامراض، وطالبوا بالرغيف والخدمة في الريف والعيش النظيف، فقد كانت العربان، التي تمتد مضاربها من حضرموت حتى تطوان، قد ذاقت من بقايا الزط المدعومة بالامريك، كل ويل، ولم تعد تفرق بين النهار والليل، فدنياهم أظلمت، ونساؤهم من غيرهم حبلت، ونخيلهم قلعت، وضيوفهم ما أقريت. كان تحتها النفط وفوقها الشفط، وكان نفاطها كذ..راطها، لا هو بالليل نورٌ يلمع ولا هو بالنهار شيء ينفع، فلم تعرف العربان في ذلك الزمان، ع.. لمواز يسفع أو شرطي يصفع. لذلك قامت في مراكش كما في بيروت، كما في الناصرة وديروط.

لكن المماليك. وهم كما أسلفنا من بقايا الزط الذين أمرهم الامريك، فعلوا فعلة اليهود، بعد أن زاروهم داخل الحدود، واستنجدوا بالفرنج الاروام، وجاءوا بطائرات لها أزيز، وبعسكر يقال لها المارينز، ، وبنساء من باريز، وشدوا على العربان، وطاردوهم في الجبال والوديان، وحملوهم في البابور، من بلاد صور حتى بلاد البور، وهناك أقعدوهم تحت الشمس وفوق البابور.

واجتمعت الصعاليك برئاسة الامريك، حتى ينهوا القضية، بعد أن تناثر العربان كبرغل أو قليه، وصاروا أشتاتاً في البرية، لا حول لهم ولا طول سيافهم يدعى مستر هول، وكان المقصود بالاجتماع منع العربان من الجماع!.

ويضيف ابن صفدون، هذا المؤرخ الملعون، الذي لم يشرب نفط الافيون، يضيف لا فض الله فاه، ولا أبقاه:

بينما الصعاليك والامريك وسائر الاتباع، يتهامسون في ذلك الاجتماع، يبيعون البلاد بالصاع، والعباد بالباع، وتدلت الانوف حتى القاع، وفي لحظة التوقيع، وقد تكأكأ الجميع فاجأهم صبي بحجر، أصاب فيهم الرأس الاكبر، فتصايحت الزط الامريك: انج يا صعلوك، فقد هلك مملوك. وانفض الاجتماع بالاجتماع، وصار ضرب الحجارة، صلاة صبيان الحارة، يتزلف لهم المغني في أوتاره، والشاعر في أشعاره، والكل كذاب، يخاف العقاب.

أما الصبي الفلسطيني الذي خرّب الحفلة، وصار الشاغل والمشغلة، بعد أن قذف الحجر، فأشعل المداثر والهجر، ورفعت العربان رؤوسها، بعد أن ذلت من نكوسها. فانه صبي يبلغ من العمر الرابعة، وفي بعض الروايات لم يتجاوز السابعة. أمه كانت تدعى الخذوف قد تغزل بها

آكل الخرشوف، الشاعر الاكبر الذي احتقره القيصر، تغزل بها وهو يرى على رأسها جرتها تمشي مشيتها الرشيقة، تحذف الحصى «بكندرتها» الانيقة، فغازلها الملك الضليل بشعر من البحر الطويل، فقالت له: أيها الملك الهبيل، اذهب الى الحوامل والمرضعات، أما العذراوات الفلسطينيات فليس لك اليهن سبيل، واذا كان لسانك طويل، فان «بابوجي» متدارك ومخلع وثقيل، فقال امرؤ القيس فيها:

كأن الحصى من خلفها وأمامها
اذا نَجَلتهُ رجلُها خذف لعسرا

فسميت منذ ذلك اليوم الخذوف، وحلفت أنها اذا تزوجت وحملت، فسوف تغطس الخبز بالزيت، وتشعل سراج البيت، بيت صاحب المدرعة والمخذفة، وتغطيه بالملحفة.

وكان لها ما أرادت، وبالمخاض تفاجأت، عند بيت السيد المسيح، وبين الصلاة والتسبيح جاءها الغلام، كبدر التمام، فأسمته خذاف، وخففوه الى حداف، وهو الصبي الذي حدف الحجر، فاشعل البوادي والحضر.

وأضاف ابن صفدون، في كتابه المدفون، في الصدور وبين السطور، أضاف في كتابه، وهو المسؤول عن سؤاله وجوابه..

لما أن حدف الصبي، الحجر النبوي، وفهم الناس من كل الاجناس، شرقيهم والغربي، أنه صاحب المدرعة والمخذفة وانه بالحجارة، يضرب كل كذبة سيارة أو دورية طيارة، وأنه بالزجاج الفارغ يحرق لليهود المزارع، وللاروام المصانع.. فأحس اليهودي بالخسارة، وأدرك أن الاوطان ليست تجارة، وأنها لا تشتري بالشاقل، أو بسعر النفط الطالع والنازل..

فأخذ يساوم ويناور، والصبي ابن الخذوف، ومعه الصبيان، من توقرت والهفوف، لا يحاور ولا يداور. بعد أن ضرب بالمقلاع فأشرعت صبيان العرب القلاع وصار الرغيف والوطن الشريف، بحره والريف، على مرمى حجر، لمن أراد وقرر، وفي أمره تفكر وتدبر، لذلك نقول في هذا الالف الحجري الاول ذلك المثل، وذلك الاثر، «العربان شتتهم الصعاليك ووحدهم الحجر».

يا حجرنا طل وهل وضوي الكرة الارضية
ما خلقنا نعيش بذل خلقنا نعيش بحرية
وانت بيدي وردة فل، تهتف للدنيا كل، فلسطين عروبية

هذا ما كان من بعض أمر الصبي حداف الحجارة، والذي سنعرف في الفصول اللاحقة أخباره، اما ما كان من أمر الصعاليك بقايا الزط غلمان الامريك.. فقد أكلت الارض الاوراق.. وظهرت علائم الاحتراق... والكلام كله على عهدة ابن صفدون المؤرخ الملعون، فما هي الا أوراق، عثرت عليها في ما يعثر عل......

دمشق شباط ١٩٨٩

قصة

بابا بطل

عمر راشد عمورة*

كانت الأرانب ترعى هنا وتلعب هناك، في حقل واسع جميل، كأنه بساط أخضر، تزينه ورود حمراء، وصفراء، وبيضاء. وفي الحقل نبع ماء تشرب منه الأرانب حيناً، وتتراشق بالماء أحياناً.

عرف ثعلب خبيث مكان الأرانب، فجاء إليه، فصار يقتل ويأكل أي أرنب يخرج من وكره، فنشر الرعب والخوف في الحقل. فاختبأت الأرانب داخل أوكارها، تأكل وتشرب من مؤونتها، فحلت الأحزان محل الأفراح، والآلام محل السعادة.

اجتمع الأرانب في مأتم أحدهم قال أرنب كبير: مات ابني قتله الثعلب

قالت أرنب حزينة: زوجي مات أكله الثعلب.

قال أرنب ثالث: أبي مات أيضاً.

قالت أرنب كبيرة: ماذا سنفعل؟ ماذا سنفعل؟ والطعام والشراب قد أوشك على الانتهاء.

قال أرنب صغير وهو يبكي: من يعيد لنا الفرح والسرور، ويخلصنا من هذا العدو اللئيم؟

* قاص وكاتب مسرحي من فلسطين.

أجابه الأرنب الرمادي: لايستطيع أحد، لايستطيع أحد من يقدر على ثعلب!!

صرخ الأرنب الأبيض الشجاع: لا، لا، بل نستطيع.

سأله الأرنب الرمادي: كيف، كيف نستطيع؟ ونحن ضعاف! ألا ترى هذه الأموات؟!!!

أجابه الأرنب الشجاع: أنت تقول لانستطيع، لأنك رأيت الأموات فقط، والآن سترى.

ثم هتف بالأرانب اختبئوا في أوكاركم حتى يجوع كثيراً هذا الثعلب اللئيم لتعرفوا ماذا يفعل الشهداء.

اختبأ الأرانب داخل أوكارهم. وعندما جاع الثعلب الماكر، صار يفتش في الحقل لعله يجد فريسة يسد بها جوعه الشديد ولو على الأقل أرنب صغير تائه خالف تعاليم أبويه، ولكنه لم يجد شيئاً فجاع كثيراً كثيراً.

رقد الأرنب الأبيض الشجاع بالقرب من فتحة وكره، يراقب الثعلب الماكر، ثم تناول كمية كبيرة من سم الحقل، وعندما شعر بالسم يسري في جسمه، خرج راكضاً خارج الوكر باتجاه الثعلب الماكر.

فرح الثعلب حين رآه وقال في نفسه: فرجت، فرجت أخيراً، أرنب سمين وطعام لذيذ. فانقض الثعلب الماكر على الأرنب وتصارعا. إلا أن الثعلب الماكر قتل الأرنب الأبيض، ثم مزقه وصار يلتهمه بشراهة من شدة الجوع.

بعد برهة. انتقل السم من الأرنب الأبيض إلى جسم الثعلب الماكر وصار يئن ويصرخ من الألم، ثم سقط على الأرض ميتاً.

خرجت الأرانب من أوكارها، فرحة كأنها في عرس، الامهات تزغرد، وصبايا الأرانب ترقص، والصغار تتدحرج على العشب فرحاً وسروراً.

ركض ابن الأرنب الشجاع وهو يصرخ بابا بطل بابا قتل الثعلب.

هتفت الأرانب كلها: يحيا الشهيد، يحيا الشهيد.

قصة

خولة

محمود أبو حامد*

على طريق الحي . . .

المطر يهطل برخاوةٍ مفرطة، يغسل شعر خولة، يعمِّد جديلتيها ويبلل كوفية والدها من جديد.

طول الليل كانت تغفو في نوم عميق، فالمخدر قد فرض منع التجول على الصحو وتركه محصوراً في مفاصل والدها المتكيء على بوابة المستوصف،خولة لم تبكِ حين شقوا يدها واخرجوا منها الطلقة . . .

وباغتت عيني والدها الدموع حين كان يتابع حركة الجنود المضطربة بعد إجراءات مملة وتحقيق مقيت إستطاع إخراج خولة من المستوصف فمن الصعب إقناعهم بصغر سنها وعدم مشاركتها في «اعمال الشغب» محاذاة والدها سارت خولة، رمت جديلتها للهواء ونظرت الى يدها الجريحة وسألته:

ـ لماذا تركتهم يقصون الكنزة ياوالدي؟! أمي تقول إذا انقطع الصوف لايمكن حياكته من جديد.

* شاعر من فلسطين.

ـ سأشتري لكِ كنزه جديدة.

ابتسمت خولة . . . ربما تعرف إنها كذبة بيضاء.

هاقد وصلا مشارف الحي. جموع من الشباب تستعد لاعلان صباح جديد.

هذا يجهز مقلاعه. وتلك تحكم لف كوفيتها على وجهها.

وآخر قد رفع علم فلسطين على عمود شاهق الارتفاع تتشابك الاسلاك الكهربائية في قمته. !!

هناك إمرأة قادمة عن السهول تحمل «صرّة» تتدلى «الخبّيزة» من جوانبها. وثانية تحمل حزمة من حطب. «و. .»

ـ هل يؤلمك الجرح ياخولة؟

ـ لا ياوالدي لا اشعر بشيء.

ورفعت شعرها المتدلي على عينيها بيدها الجريحة، بينما كان والدها يتمتم.

ـ «ربما مازال المخدر ساري المفعول».

ـ ماذا قلت ياوالدي؟

ـ لاشيء . . . لاشيء ياحبيبتي، لنسرع الى البيت.

وعلا هدير المحركات وازيز الرصاص. وتطاير الدخان.

انتشرت رائحة البارود، وماج الشباب، حركات متتابعة متسارعة. . متداخلة.

ـ انهم هناك ياوالدي!؟

ـ لنسرع ياخولة.

قنابل دخانية وطلقات نارية انفجارها صوتُ سوط يسلخ جلو الفضاء. . جلاّدون ضد اطفال وحجارة وشباب ثائر.

ـ لماذ لانتعلم الكتابة باليد الأخرى ايضاً ياوالدي؟؟

ـ ستتعلمين . . لنسرع ياخو. . . . !؟

قنبلة دخانية فرقت بينهما. . الوالد يدور ويصرخ حول نفسه بين الدخان ويصرخ. . . كاد الغاز يخنقه ويصرخ:

ـ خولا . . . خولا

مع الصوت تلاشى الدخان. . والمطر يهطل برخاوة مفرطة وعلى بعد امتار كانت خولة تتقدم مع الاطفال وتتعلم الكتابة بالحجر على وجه الفضاء المحايد. تكتب باليمنى تارة وباليسرى تارة فترسم أقواس قزح وتنشر اقحوان حرية.

مسرعاً وصل والدها. . حملها بين يديه. ضمها الى صدره. وابتعد. . وسائل دافيء سال على عنقه!؟

رفع يدها امام عينيه

ـ آه ياخولة لقد نزف الجرح من جديد.

قصة

وقع الخطى

منتصر القفاش

ارتحت الى المسير في هذا الطريق . أحتاج الى هدوئه ، وحفيف أوراق أشجاره التي تتناثر على جانبيه . انتبهت لوجود الكثير من النوافذ المفتوحة ، تتسرب منها أشعة ضوء محاولة الامتداد الى آخر مدى .

لم أشعر بأية حياة داخلها كأن الضوء فقط يسكنها . حينما أعود الى البيت من الطريق المعتاد ، أشعر دائماً بفقدان بهجة السير، خطواتي تجد مبتغاها حينما تسير في الطريق البعيدة .

كلما ظننت أن الزمن سيقضي على رغبتي هذه أجد عشقي لها رفيقي الوحيد ، وأجدها طريقاً أمضي فيه دون نهاية .

مازلت أرى أول الطريق ممتداً أمامي يذكرني بوجوده دون أن يحثني على العودة للسير فيه ، يمتد لابصر العم يحمل خرائطه المخطوطة على ورق حال لونه ويستقر في قلبها أعمدة المعبد المتناثر فيما بينها أحجار كأنها سقطت الان فقط . لم يهمني هذا المعبد أبداً انشغلت عنه بتأمل خرائط العم

والسير معه في طرقه ، وتتبع حركة أصابعه فوق خطوط الخرائط وتوقفها ومحاولتها اظهار ما بلي من خطوط .

لم يعد يخرجها كثيراً من كيسها الجلدي ، صار سهلاً عليه أن يرسم أية واحدة منها بامتدادات الخطوط وانحرافاتها وتقاطعاتها دون أن يضيف أو ينقص خطاً واحداً .

ظننت في البداية أنني الوحيد الذي يخصه العم بالخروج معه الى الطريق وعرفت بعد حين أن كثيرين ساروا معه . لم يذكر أسماءهم ، يكتفي بترديد أن جميعهم وجدوا الطرق بعد عودتهم، وكأنهم لم يسلكوها من قبل . معه فقط كنت أعيش هذه الطرق ، حينما أمضي فيها بمفردي أجدها مألوفة صامتة .

لم يكن يتحدث كثيراً أثناء السير، يحرص على التوقف وهو مستغرق في النظر للامام لينظر للطرق التي قطعها، ويحدد بكلتا يديه اتجاه السير كأن كل هذه البيوت والشوارع والمزارع والنخيل خرجت باشارة من يديه لتأخذ مكانها في صمت يشيء بامتدادها في أزمنة عديدة . لاحظت في يوم ، أنه لا يلتزم بخريطة واحدة دائماً . قد يتوقف ليسلك طريقاً جديداً ، ثم يعود ليدخل في آخر . يتنقل فوق الخرائط جميعاً دون أن أجد فواصل بينها ، بل أرى الطرق افاح عارفة خطاه ، وعارفة أنه يرومها كلها . حينما يلمح في عيني السؤال ، يأتي بها ويفرد احداها أمامي ثم يطوي جزءاً من خريطة أخرى ويصل بقيتها بالاولى ويضع ثالثة في جانب آخر ، ثم يطوي رابعة حريصاً على اظهار خط واحد يمده بين الخطوط المتداخلة . وينظر اليّ ويداه تحاولان أن تبقيا على تكوينه فانشغل بتأمل أصابعه وكيف تمسك بكل هذه العوالم .

لا أذكر أنه تحدث عن هذا المعبد الذي يكاد أن يكون مركزاً تنطلق منه كل طرقه، لكنه حينما نصل الى نهاية السير، يرفع يديه ليجعلني أنظر، فأجد المعبد يواجهنا من بعيد . معه تأخذني الطرق لاتتبع ما تخفيه من حياة ومحاولاً استشراف لحظة توقف العم، ودائماً تفاجئني هذه اللحظة ويفاجئني ظهور المعبد الذي ظننت أن الطرق حجبته ونأت بنا عنه .

هل أفضى المعبد بكل أسراره للطرق؟ . أم أنها امتدت لتكمل ما صمتت عنه جدرانه وأعمدته ونقوشه؟ . رحابة المسافة الفاصلة بين نقطة نهاية السير والمعبد، أنظر فيها الاكف المتشابكة التي طالما حاولت قراءتها والحضور داخل سبلها . نداء العم لي في هذه اللحظة يغيب، وأنصت لخطى فوق طرق سأقطعها دون معرفة منتهاها . وددت لو لم يناديني . كنت أريد هذه اللحظة صامتة تمنحني رحابة المدى دون نداء .

هل آن لي رسم الخرائط أم أن العمل أغلق الباب دونها وترك لي الرحيل؟ .

صار يجلس قرب النافذة ويظل ينظر، سائلاً من يحاوره عما يحدث في الخارج . وقبل أن تأتيه الاجابة كانت أصابع يديه تحدد خطوطاً فوق الحافة الخشبية للنافذة . كثيراً ما حدثني عن رغبته في العودة للخروج ويضرب ساقيه لاعناً الالم، لكنه لا يلوذ بالصمت بل يحكي كيف سيرى الطرق حينما يعود للسير، وأي الاتجاهات سيسلك ويشير الى المكان الذي سيتوقف عنده . ويؤكد أنه

يستطيع من هناك رؤية البيت والنافذة من خلال الاعمدة.

كان يعرف أنني لم أعد أمشي في طريقه، بل أترك قدمي تخوضان البعيد. ظننت أنه سيسألني عما أرى. لكنني وجدته يخرج الخرائط طالباً أن أكتب خلف كل واحدة منها كيف كنت أراه أثناء سيره. وجدت كلماتي تنتظم في جمل كأنها وحدها هاهي التي تعرف مساراتها، وأين ستنتهي. لم أشعر بالقلم في يدي، كتبت بكل ما رأيته وعرفته معه في طريقه، وبما تكشف لي أثناء سيري في طريقي البعيدة. الفواصل بين الطريقين بدت وكأنها تسلك سبيلاً آخر يمر بين الاعمدة ليستقر في قلوب أناس مضوا فوقه راغبين في شقه الى آخر العمر. لم تتوقف كلماتي عند العم، وقع خطاه كان يبدده مني، أبدأ في ندائه من جديد فيذهب النداء الى كل الانحاء محاولاً أن يستعيده ويعود قابضاً فقط على نظراته العارفة المتسائلة أبداً.

امتدت أصابع يديه توقف كتابتي لتأخذ أناملها في التنقل بين الاسطر في حذر كاشفة لي ما خطته كلماتي من خرائط أبصرت فيها طريقي البعيدة. انتظرت أن يتحدث لكنه أخرج لي أوراقاً عديدة قرأت فيها كلمات كل من مضوا معه، والخطوط التي حدد بها خرائطهم، لم تكن متشابهة، لكن تباينها يبين عن مفترقات الطرق المنتشرة في كل واحدة منها.

وبعد صمت طويل عاد خلاله الى النافذة، أخذ يحدثني عن البلاد كلها، وعن سبل لم تضمها خرائط وعن خطى آتية من بعيد وعيون تكشف ما نأى.

حوار

لقاء مع الدكتور: نديم البيطار

اجرى اللقاء: سامي عودة*

التقى الاخ سامي عودة في الثلث الاخير من تشرين الثاني (نوفمبر) د. نديم البيطار المفكر القومي المعروف ومؤلف كتاب «الايديولوجيا الانقلابية» و «من التجزئة الى الوحدة»، والعديد من الكتب والدراسات حول الوحدة. ولقد كان الحوار مفتوحاً فتناول قضية الوحدة وفلسطين والعديد من القضايا التي تثيرها كتابات د. نديم البيطار.

واذ تعرب «الكاتب الفلسطيني» عن اعتزازها بتقديم المفكر د. نديم البيطار لقرائها، تؤكد انها اثبتت النص كما هو ولم تجر فيه اية تعديلات تمس روحه أو نصه، واكتفى التحرير بتصويبات تحدث عادة عند تحرير أي حديث مرتجل.

«التحرير»

* كاتب واديب من فلسطين.

يستطيع من هناك رؤية البيت والنافذة من خلال الاعمدة.

كان يعرف أنني لم أعد أمشي في طريقه، بل أترك قدمي تخوضان البعيد. ظننت أنه سيسألني عما أرى. لكنني وجدته يخرج الخرائط طالباً أن أكتب خلف كل واحدة منها كيف كنت أراه أثناء سيره. وجدت كلماتي تنتظم في جمل كأنها وحدها هاهي التي تعرف مساراتها، وأين ستنتهي. لم أشعر بالقلم في يدي، كتبت بكل ما رأيته وعرفته معه في طريقه، وبما تكشف لي أثناء سيري في طريقي البعيدة. الفواصل بين الطريقين بدت وكأنها تسلك سبيلاً آخر يمر بين الاعمدة ليستقر في قلوب أناس مضوا فوقه راغبين في شقه الى آخر العمر. لم تتوقف كلماتي عند العم، وقع خطاه كان يبدده مني، أبداً في ندائه من جديد فيذهب النداء الى كل الانحاء محاولاً أن يستعيده ويعود قابضاً فقط على نظراته العارفة المتسائلة أبداً.

امتدت أصابع يديه توقف كتابتي لتأخذ أناملها في التنقل بين الاسطر في حذر كاشفة لي ما خطته كلماتي من خرائط أبصرت فيها طريقي البعيدة. انتظرت أن يتحدث لكنه أخرج لي أوراقاً عديدة قرأت فيها كلمات كل من مضوا معه، والخطوط التي حدد بها خرائطهم، لم تكن متشابهة، لكن تباينها يبين عن مفترقات الطرق المنتشرة في كل واحدة منها.

وبعد صمت طويل عاد خلاله الى النافذة، أخذ يحدثني عن البلاد كلها، وعن سبل لم تضمها خرائط وعن خطى آتية من بعيد وعيون تكشف ما نأى.

حوار

لقاء مع الدكتور: نديم البيطار

اجرى اللقاء: سامي عودة*

التقى الاخ سامي عودة في الثلث الاخير من تشرين الثاني (نوفمبر) د. نديم البيطار المفكر القومي المعروف ومؤلف كتاب «الايديولوجيا الانقلابية» و «من التجزئة الى الوحدة»، والعديد من الكتب والدراسات حول الوحدة. ولقد كان الحوار مفتوحاً فتناول قضية الوحدة وفلسطين والعديد من القضايا التي تثيرها كتابات د. نديم البيطار.

واذ تعرب «الكاتب الفلسطيني» عن اعتزازها بتقديم المفكر د. نديم البيطار لقرائها، تؤكد انها اثبتت النص كما هو ولم تجر فيه اية تعديلات تمس روحه او نصه، واكتفى التحرير بتصويبات تحدث عادة عند تحرير اي حديث مرتجل.

«التحرير»

---

* كاتب واديب من فلسطين.

تشير معظم كتابات الدكتور نديم البيطار اشكالات كثيرة، وبين مؤيد لها ومعارض يدور الجدل حولها. وعلى اختلاف ما يطرح، الا أن الجميع يتفقون على أن الرجل وحدوي حتى العبادة. فكتاباته تبدأ بالوحدة وتنتهي بها، وهو يُسخر لذلك كل ثقافته، من علم اجتماع الى فلسفة الى علم النفس الى الادب. وكل ذلك يعطي كتبه نكهة خاصة. عندما فكرت بإجراء الحوار معه، قررت أن أحمل اليه بعض ما يتهمونه به، فهو يدعو الى السلطة المشخصة، والتي فُسّرت على أنها دعوة للدكتاتورية وهو يدعو الى الاقليم القاعدة، وهي عنده مصر، فيطير صواب دعاة الخصوصية القطرية وغير هذا الكثير. ونحاول هنا أن نسهم في توضيح ما غمض، وتعميق ما هو سطحي.

س ـ كيف ترى الوضع العربي بشكل عام، والفلسطيني بشكل خاص؟.

ج ـ السؤال معقد، ولكن يمكن الاشارة الى بضع نقاط. المسألة الاساسية هي غياب دولة الوحدة، أو قفزة نوعية نحوها، لذا فإن الوضع سيبقى على ما هو عليه من ترد. لان المسألة ليست قضية رغبات أو تمنٍ، كما أشرت الى ذلك في كتاباتي. ان ذلك يعني أن الفوز بالصراع مع العدو لن يتحقق الا بدولة الوحدة. لان الصراع مع «اسرائيل» صراع ثانوي. ان الصراع بالاساس صراع مع الولايات المتحدة الامريكية. انني أقول: ان «اسرائيل» موجودة في واشنطن، وهي لولا هذا بيت من كرتون. فما دامت الامة العربية والمنطقة على وجه الخصوص لم تدركا هذا، فستنتقل من هزيمة الى أخرى، ومن انكسار الى آخر. هذا بشكل عام. أما بشكل خاص فقد وقعت التنظيمات في خطأ وانحراف أساس في الاستراتيجيا، وهو محاولة ترسيخ القطرية الذاتية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، لم تعرف ما هو الاسلوب الامثل لخوض الصراع. فقد طرحوا خوض الحرب على الطريقة الفيتنامية أو الجزائرية، رغم اختلاف الظروف والجغرافيا. وقد حاورت أحد قادة فتح والشهيد غسان كنفاني في ذلك واتهماني في شؤون فلسطينية بالانهزامية. طبعاً الانعزالية القطرية والاستراتيجية المغلوطة، قادتنا الى هزائم متتالية. مما دفع الجماهير العربية للابتعاد عن المقاومة.

س ـ لقد طرحوا برنامجهم المرحلي والبرنامج ينص على دولتين واحدة فلسطينية والاخرى يهودية. اسلوب التحقيق اما بضغوط دولية أو بقوى عسكرية. القوى العسكرية غائبة بقي الاختيار الآخر هل تراه كافياً لاقامة دولة في الضفة والقطاع؟.

ج ـ ان الضغوط الدولية عامل مساعد. أما الاساس فهو قوانا الذاتية ولم تثْنِ أيةُ ضغوط دولية طرفاً من الاطراف عن سياساته الاستعمارية. المعارك السياسية كانت تحسم في الاصل عسكرياً.

س ـ قرأت لك أخيراً كتاب «هل يمكن الاحتكام الى الولايات المتحدة في النزاع العربي ـ الاسرائيلي»، وهو كتاب مهم. ولكنه لم يأخذ المكانة اللائقة به عند القوى السياسية بل تم اهماله. لماذا؟.

ج ـ دائماً كنت أقول: ان ما يميز الفكر السياسي العربي، الاعتباطية، والغيبية، فمثلاً، الطريق الى الوحدة. لا يدرس كيف كان في التاريخ. كذلك فمن يحارب «اسرائيل» يحتكم الى أمريكا بالرغم من دعمها الشامل للعدو. طبعاً هذا يؤكد غيبية عقلنا السياسي.

س ـ في ذلك الكتاب قلت بأن الولايات المتحدة قد دخلت طور انحطاطها، الا ترى أن في ذلك جرأة بالغة خاصة مع سيطرتها على العالم؟.

ج ـ لقد توقعت ذلك منذ عام ١٩٦٥. كان الاتجاه في هذا الخصوص ضعيفاً. أما الآن فانه قوي. وفي مكتبتي حوالي عشرين كتاباً تؤكد على ما توقعته. عموماً ان طور الانحطاط ليس محدداً بزمن معين، فقد يمتد عقوداً أو أكثر.

س ـ في كتاب «من التجزئة الى الوحدة» دعوت الى السلطة المشخصة، البعض فسرها بأنها دعوة الى الديكتاتورية. ماذا تقول في ذلك؟.

ج ـ لم أقصد ذلك اطلاقاً. ان ما قصدته أن السلطة المشخصة تعني رمزاً يأتي تعبيراً عن واقع موضوعي. يظهر ذلك جلياً في المراحل الانتقالية في الثورات الاجتماعية أو الحروب. لينين مثلاً رمز للاشتراكية. لنكولن رمز لوحدة أمريكا.

س ـ يعني هل يمكن اعتبار غورباتشوف رمزاً للتحولات الديمقراطية في أوروبا الشرقية؟. بمعنى أن الرمز ليس دعوة للديكتاتورية.

ج ـ نعم هذا صحيح.

س ـ هل يمكن أن تكون هناك امكانية لقيام إقليم ـ قاعدة غير مصر؟.

ج ـ لقد قلت بأن مصر تمثل الاقليم العربي المرشح للقيام بدور الاقليم ـ القاعدة، وذلك بسبب مقومات عديدة تتميز بها، فقد ذكرتها في أكثر من مناسبة في دراساتي. ولكني لم أقل أبداً أن مصر هي الاقليم الذي يبقى دائماً وأبداً الاقليم ـ القاعدة. وقد ذكرت في أكثر من مناسبة في دراساتي، بأنه من الممكن التفكير باحتمالات أخرى، يقوم بها اقليم عربي آخر بدور الاقليم ـ القاعدة. لقد ذكرت مثلاً، وبشكل خاص، أنه من الممكن أن نتصور أوضاعاً تاريخية، ، يمكن فيها للعراق أن يتحد مع السعودية في دولة جديدة. هذا يعني انضمام الامارات الاخرى في الخليج، ويعني أن الدولة الجديدة، ان كانت دولة وحدوية، صحّت وحدويتها، تستطيع أن تستخدم امكاناتها المالية والاقتصادية الهائلة في الضغط على الاقطار العربية الاخرى، أو على بعض الاقطار الاخرى، والاتحاد معها في دولة واحدة جديدة، أو تحقيق وحدة، أو على الاقل تحقيق قفزة كبيرة نحو دولة الوحدة. وقد ذكرت أيضاً احتمالاً آخر، وكان ذلك في أواخر السبعينات. ان من الممكن أيضاً تصور احتمال يقوم به انقلاب داخل السعودية، ويستبدل النظام القائم بنظام آخر وحدوي ثوري. هذا يعني. خصوصاً في ذلك الوقت، أن هذا النظام يستطيع اذا صحّت وحدويته، أن يستخدم امكانات السعودية المالية الهائلة في تحقيق قفزة كبيرة نحو دولة الوحدة، تنطلق منها عملية التوحيد الى تكوين دولة كبيرة. إذن. القضية الاساسية هي ضرورة وجود اقليم عربي. أما الاقليم الذي سيقوم بهذا الدور، دور اقليم ـ القاعدة، فذلك أمر يرتبط بالاوضاع التاريخية المتحولة والمتغيرة في الوطن العربي، ولكن حتى الان يمكن القول أن مصر كانت ولاتزال الاقليم المرشح لهذا الدور. الساداتية أخرجت مصر

عن هذا الدور. لكن الساداتية تمثل انحرافاً تاريخياً، وسوف تزول. الآن زال السادات، وأنا على ثقة، بأن الساداتية نفسها ستزول، وعندئذ تسترجع مصر دورها كإقليم ـ قاعدة.

س ـ في «الايديولوجية الانقلابية»، وفي «من التجزئة الى الوحدة»، ذكرت أن الفاشية والنازية سقطتا، لانهما لم تناسبا حركة التاريخ. كيف تفسر ظهور الاحزاب الفاشية والنازية من جديد؟

ج ـ ان السؤال الذي طرحته يتضمن الجواب. والجواب، هو أن النازية والفاشية كانتا حركتين ضد التاريخ، بمعنى أن التاريخ تجاوز بجدليته العامة فكرة العرقية أو العنصرية كأساس للدولة والمجتمع، أو كأساس لتنظيم الدولة والمجتمع. هذا لا يعني أن هذا الاتجاه في التاريخ، هو اتجاه مطلق. التاريخ لا يعرف اتجاهات مطلقة، يعرف اتجاهات متنازعة، متناقضة، يهيمن أحدها على الاتجاهات الاخرى. كل مرحلة تاريخية جديدة، تحمل معها اتجاهات سابقة. وان عدنا الى جذورها، نرى أن هذه الاتجاهات التاريخية البائدة، الايديولوجيا البائدة، تستمر في بعض عناصرها وبعض بقاياها. كما أن هناك دائماً جماعات تمثل هذه البقايا، وتعبر عنها. ولكن هذا لا يعني أنها تدلل بوجودها على الاتساع التاريخي لها، لان الاتجاه التاريخي، يعني اتجاهاً يمارس فاعلية التاريخ، ويستطيع أن يسود التاريخ في ضوء فلسفته. هذا حسب رأيي أنا، على الاقل في المستقبل القريب، لا يتطبق على هذه الايديولوجيات، الفاشستية والنازية بالمعنى الذي حدد، أي بالامتلاء من فلسفة، من مبدأ ما، في صياغة فلسفة حياة جديدة، تحاول أن تجدد المجتمع والثقافة بشكل عام في ضوء هذا المبدأ: الاتجاهات الدينية الحديثة، التي ذكرتها، باعتبارها نموذجاً آخر، هي من وجهة نظري اتجاهات مضادة للتاريخ أيضاً، وهي بالتالي مجتمع عليها أن تزول انها لا تستطيع أن تؤكد ذاتها، ولا تستطيع أن تجدد التاريخ، ولا تستطيع أن تبني مجتمعاً جديداً، أو نظاماً جديداً في ضوء مبادئها. انها على الارجح، وفي أحسن الاحوال، تستطيع أن تقاوم نظاماً ما، ولكنها لا تستطيع أن تبني وتقيم نظاماً جديداً، في ضوء مبادئها. قد تستطيع أن تؤكد وجودها لفترة معينة، لمدة ما، ولكنها لا تستطيع أن تشكل استمرارية تعبر عن قيمة فاعلية تاريخية. ان سؤالات كهذه طرحت عليّ عند ظهور الخمينية، وأذكر بالضبط مقابلتين صحفيتين، أجرتهما معي صحيفة السفير في بيروت. وقد دهش الذي أجرى المقابلة لجوابي، عندما سألني عن الخمينية طبيعتها ومصيرها، لانه في ذلك الوقت كان هناك اجماع تقريباً على أن الخمينية تمثل ثورة اجتماعية كبيرة، ثورة ايديولوجية كبيرة. قلت في ذلك الوقت، بأنها ليست ثورة وبأنها حركة مضادة للثورة، وأنها تستطيع أن تعرقل التاريخ، ولكنها لا يمكن أن تبني التاريخ. ذكرت طبعاً الأسباب لذلك، ولكنني ذكرت بأنها تمثل عنصراً ثورياً من جانب سياسي فقط، وهو اسقاطها لنظام الشاه، ليس لأن هذا الإسقاط في ذاته يمثل عملاً ثورياً، بل لان الاسقاط كان يعني ضرب أو انهاء الهيمنة الامبريالية في ايران. هذا هو الجانب الثوري الوحيد في الخمينية. وكل ما فيها ـ ما عدا ذلك ـ كان مضاداً للثورة، وقد كشفت السنوات الاخيرة عن ذلك بكل وضوح انني أذكر عن طريق الصدفة، أي منذ بضعة أيام، كنت أقلب بين أوراقي القديمة، مقابلات ومقالات، فوجدت احدى هذه المقابلات، وقد نشرتها صحيفة السفير في ٢٥/١/١٩٨١.

س ـ عودة الى الاقليم ـ القاعدة. رأينا المساجلات التي دارت بينك وبين الدكتور محمد عابد الجابري على صفحات اليوم السابع. الجابري يقول بأن الاقليم ـ القاعدة يشكل قاعدة فاسدة في التاريخ، فما رأيك بهذا الذي قاله الجابري؟

ج ـ لقد قلت رأيي في ردي عليه. اذ ما دعاني للرد عليه في الواقع، هو قوله: بأن مقولة كهذه ليست علمية، ولا علاقة لها بالعلم. العلم يعني قبل كل شيء، الرجوع الى الظاهرة التي نعالجها، فندرس هذه الظاهرة، ونصوغ مفاهيمنا في ضوء ادراكنا لطبيعتها ذاتها. قد نختلف في تحليلنا لهذه الظاهرة. وقد نختلف في ادراكنا لطبيعتها، أو جدليتها، أو حركتها، أو مقوماتها، أو عناصرها. ولكن من الضروري علمياً، أن نرجع الى هذه الظاهرة. عندما ندرس ظاهرة الانتحار مثلاً، نرجع الى ظاهرة الانتحار، الى الذين انتحروا، وندرس أوضاعهم مثلاً، كي نصوغ مفهوماً حول طبيعة الانتحار. وعندما نعالج قضية الانتقال من التجزئة الى الوحدة، يجب أن نرجع الى الظاهرة الوحدوية، وهي التجارب التي كانت تنتقل فيها مجتمعات مجزأة، أو كيانات سياسية مستقلة، من حالة تجزئة الى حالة وحدة. هذا هو العلم. الجابري لم يرجع أبداً، وبأي شكل الى هذه الظاهرة. ولهذا كان قوله غير علمي. بينما أن مقولتي في دور الاقليم ـ القاعدة كانت نتيجة دراسة منظمة للظاهرة، ابتداء من الطور القبائلي الى الطور السياسي، ومن افريقيا الى أمريكا اللاتينية، ومن روما واليونان الى الصين وبورما، وبشكل خاص الى العصر الحديث، عصر نشوء وبروز الدولة القومية. وقد بينت أن هذه الوحدات، كانت دائماً تكشف عن وجود اقليم يقوم بدور القاعدة، أي اقليم أو كيان سياسي، أو جزء من المجتمع المجزأ، يقوم بدور المحور، الذي ترتبط به وتتمحور عليه حركة التوحيد السياسي، ويكون قائداً في عملية التوحيد. ما يستلفت النظر هنا من باب السخرية أن الجابري ذكر، أشار الى ثلاث تجارب وحدوية هي: التجربة الالمانية والايطالية ثم تجربة الجمهورية العربية المتحدة، وهذه التجارب الثلاث كلها تؤكد على دور الاقليم ـ القاعدة. ولكن ما يستلفت النظر بشكل خاص، هو أنه تكلم وكأن ليس هناك من تجارب تاريخية وحدوية غير هذه التجارب، وكأن نظريتي تقوم كلها على التجربتين الاوليتين. مثلاً: بينما ذكرت أنا تقريباً، كل دولة قومية أوروبية حديثة، كتمثيل على هذا الاقليم، فرنسا، ايل دي فرانس مثلاً، اسبانيا كاستيل مثلاً، روسيا موسكوفيا والخ . . .

س ـ كنت تأخذ دائماً على الاحزاب والقوى السياسية بأنها أضاعت فرصة تاريخية لعدم التحامها بالناصرية، هل هي الملامة فقط؟ وأين الناصرية وتقصيرها في ذلك، اذا كنت ترى في ذلك تقصيراً؟

ج ـ أولاً: لم أقل بالواقع هذا بالضبط، ما قلته دائماً هو أن هذه القوى أضاعت هذه الفرصة التاريخية، لانها لم ترتبط لا بالناصرية فقط، ولكن بالقاهرة الناصرية، مصر الناصرية. ذلك يعني أن قيمة الناصرية كانت تقريباً الاقليم ـ القاعدة الذي ارتبطت به. هذا يعني بدوره، لو أن الناصرية ظهرت في اقليم آخر، لما كانت قادرة أن تمارس الدول الذي مارسته. لقد قلت ذلك، لانه بشكل خاص بعد انفصال ١٩٦١، وبشكل خاص بعد ١٩٦٧، كانت المقاومة لمصر الناصرية ومعارضتها «صرعة» جديدة مثلاً: لقد قلت ذلك لانني كوحدوي أري أن دولة الوحدة الطريق الوحدوي، هو الطريق الوحيد الاساسي في تحقيق جميع مقاصدنا المستقبلية. فدولة الوحدة تتقدم على كل شيء. ولا يمكن لنا تحقيق هذه المقاصد المستقبلية دون

هذه الدولة. فالتحديات والمخاطر التي تجابهنا، وفي الطليعة الاحتلال الصهيوني لفلسطين، كلها تتطلب تعبئة الموارد والامكانيات العربية، موارد الارض، وامكانات الشعب، ودولة الوحدة هي أداة هذه التعبئة. فاذن الدولة تمثل كأداة لهذه التعبئة، المقصد الذي يجب أن يتقدم على كل المقاصد الاخرى. لان هذه الاخيرة ترتبط بها، القوى التي ناوأت أو خربت الارتباط بمصر، وبالتالي الطريق الى دولة الوحدة في ذلك الوقت، كانت تخرب الوضعية الوحدوية التي لا يمكن دونها تحقيق أية قفزة وحدوية جدية. هذا يعني بدوره، أن هذه القوى كانت تخرب جميع مقاصدنا الثورية، وفي طليعتها تحرير فلسطين. وأقول ذلك بالضبط، لان المنظمة مع الاسف، كانت في ذلك الوقت بعد ١٩٦٧، تقود لواء المعارضة والمقاومة لمصر، وتخرب أكثر من غيرها الارتباط بمصر. وبذلك الوقت بين ١٩٦٧ ـ ١٩٦٨ وما بعد، وبشكل خاص بين ١٩٦٨ و ١٩٧٠، كانوا يتكلمون عن مصر، يشتمون مصر، وكأن «اسرائيل» أصبحت في مصر، يريدون رأس عبد الناصر، وكأن «اسرائيل هي التي تطلب ذلك. «اسرائيل» وأمريكا كانتا تطالبان برأس عبد الناصر، وتعملان كل ما يمكن لضرب مصر، وبالتالي ضرب قيادة عبد الناصر. هذا يعني أن الموقف الاعتباطي، غير العلمي، الذي لا ينطلق من الواقع، كما يصنع نفسه، وكما يمكن له أن يصنع نفسه، لا يعني شيئاً لذاته. النوايا التي تعني شيئاً لذاتها لم تكن ترتبط بادراك موضوعي علمي للوسائل التي تستخدمها. وبهذا يلتقي عادة في كثير من الاحيان المناضل الثوري مع القوى الرجعية، ليس لان نواياه سيئة، بل لانه وسائله أو استراتيجيته اعتباطية وسيئة.

س ـ في الخمسينات والستينات الى وحدة عبد الناصر، كانت الناصرية تشكل تياراً عارماً في الوطن العربي، الجماهير التي كانت كلها تقريباً ناصرية، والاتجاه الناصري كان بطبيعة الحال قوياً جداً، وكان باستطاعته أن يفرض أشياء كثيرة، مثلما حصل مثلاً بقضية الانفصال في سوريا. كان عبد الناصر باستطاعته أن يقمع هذا الانفصال، والانفصال كان في بدايته ضعيفاً. هل ترى أن الناصرية قامت بدورها على الوجه الكامل!.

ج ـ على صعيد طرح هذا السؤال، هنا في الواقع نجد خطأ من أكبر الاخطاء التي ارتكبها عبد الناصر. بصراحة، فكان يجب أن يقاوم الانفصال بالقوة العسكرية. وأنا أعتقد أنه لو قام بذلك لما كان بحاجة الى استخدام كثير من القوة. لان الانفصال في الواقع كان محدود الابعاد. وكان من الممكن بالقليل من التدخل العسكري احباط محاولة الانفصال. انني في الواقع أذهب الى أبعد من ذلك، وأقول كان من الممكن على الارجح لبعد الناصر أن يضع نهاية للانفصال، دون استخدام القوة العسكرية، لو أنه جاء مثلاً الى حلب، وقال أنا جئت الى سوريا، كي أنهي هؤلاء الانفصاليين، وأدوس على رؤوسهم، لكان انتهى الانفصال على الارجح، لان حلب كانت تقاتل، والجماهير كلها كانت مستعدة للدفاع عن هذا الاتجاه الوحدوي، ولكن هذه الجهود ضاعت لانها لم تجد قيادة تقودها ضد الانفصال، ثم جاء موقف عبد الناصر الذي أعلن، بأنه لن يتدخل عسكرياً. وبهذا ضاعت الفرصة ولم يعد بامكان هذه الجماهير الاستمرار، لانها أصيبت بخيبة وصدمة كبيرة، حيث أصبح من الواضح أن هذه الجهود لن تقود الى نتيجة حاسمة.

س ـ ما دمنا في الهم الوحدوي، وهمنا العربي في هذا الاطار كبير. في ظل غياب الاتجاهات القومية، وفي ظل غياب أحزاب

اليسار في الوطن العربي، نرى أن الحركات الظلامية تمتد وتملأ الساحة العربية صياحاً وعويلاً وتخلفاً. كيف تفسر ظهور هذه الحركات!. ولماذا ظهرت الآن؟. وهل يمكن أن يمتد تأثيرها في المستقبل البعيد؟.

ج ـ نعم: هذا سؤال مهم جداً. طبعاً الاجابة عنه تتطلب اسهاباً طويلاً، لان الاسباب التي تفسره عديدة، ولكن هناك في قناعتي سبباً أساسياً يتقدم على الجميع. وهو التالي: هناك جزر ثوري، هو أساس هذا الظلام الذي أشرت اليه. هذا الجزر الثوري سيستمر، ولا يمكن استبداله دون مَدٍّ ثوري، أو بالاحرى كان يجب أن أقول نهاية هذه الظلامية التي أشرت اليها، تعني نهاية هذا الجزر الثوري الذي يعمّ الوطن العربي. هذا يعني قيام مد ثوري يحل محله. ولكن هذا المد الثوري في قناعتي لا يمكن أن يكون الا مداً وحدوياً. لان المعركة الوحيدة الكبرى الباقية، أو الاساسية التي يمكن بها تحويل الوضع، هي المعركة الوحدوية. فهي المعركة الوحيدة التي يمكن لها أن تفرز مداً ثورياً ديناميكياً كبيراً. ولكن هذا المد الوحدوي لا يمكن أن يتوفر، دون وضعية وحدوية موضوعية، وأعني في ذلك وضعية تتوفر لنا فيها القوانين الاساسية التي أشرت اليها في دراساتي، وفي طليعتها الاقليم ـ القاعدة. هذا يعني أن رجوع مصر الى دورها كإقليم ـ قاعدة يشكل أساساً لا مفر منه ولا مخرج منه، ان أردنا وضع نهاية لهذا الفشل الثوري، دون ذلك إنني أتوقع ازدياد الامر سوءاً واستفحال هذا الظلام، وامتداد وتكاثر الانحرافات العديدة التي أصابتنا، والتي نعاني منها الأمرّين. أو بالاحرى يجب أن أقول، ليس فقط دون رجوع مصر لدورها اقليم ـ قاعدة، أو كان يجب أن أقول بالاحرى، دون توفر اقليم ـ قاعدة، فمثلاً قد يمكن للعراق اسقاط نظام السعودية وضم الخليج قبل أن ترجع مصر الى دورها كإقليم ـ قاعدة. هنا أريد التمهيد مثلاً، وكرد على الذين يقاومون مقولة الاقليم ـ القاعدة، وبشكل خاص دور مصر كإقليم ـ قاعدة، هو أن مصر في خروجها من دورها كإقليم ـ قاعدة، لاتزال تمارس دورها كإقليم ـ قاعدة، ولكن بشكل سلبي، فخروجها خرب الوطن العربي من المشرق الى المغرب، من عدن الى الرباط، والان ماذا نرى، ان هذا الدور السلبي، خروج مصر من دورها كإقليم ـ قاعدة، أصبح يجذب اليها الاقطار العربية الاخرى. فالان ماذا نرى، رجوع هذه الاقطار الى مصر، قطراً قطراً. أي الرجوع الى مصر التي تمارس دورها كإقليم ـ قاعدة بشكل سلبي، وهذا وحده كاف لايضاح دورها أو دور الاقليم ـ القاعدة للتدليل عليه.

س ـ أيضاً في قضية الوحدة، وهي همنا وشغلنا الشاغل، يعني من ترى في هذه المرحلة كقوى اجتماعية مؤهلة لان تقود وأن تحقق الوحدة العربية؟.

ج ـ لقد ذكرت ذلك في أكثر من مناسبة، أرى أن الاساس فيها، تحالف المثقفين والجماهير، وخصوصاً العمال والفلاحين.

س ـ في كتاب «النظرية الاقتصادية والطريق الى الوحدة العربية» قلت أنه لا يمكن الاحتكام الى المشاريع الاقتصادية في تحقيق الوحدة العربية، ضربت أمثلة كثيرة، من افريقيا الى آسيا، أوروبا، مسألة الاتحادات الاقتصادية. هل هناك امكانية لوحدة عربية بهذا الطريق؟.

ج ـ عجز هذه التجارب الاقتصادية التاريخية في افراز أي اتحاد سياسي صحيح، يعني أن هناك في طبيعة

العملية نفسها ما ينهي هذا الاتحاد، أو ما لا يقود اليه. وبالتالي فانني أرى نفسي مقتنعاً، بأن هذه التجارب الاقتصادية أو تجارب توحيد الاقتصاد التي يراد منها تحقيق الوحدة العربية، أو حتى قفزة كبيرة نحوها، ستكون عاجزة عن ذلك. وحتى الان ماذا نرى؟، لقد كانت هذه المحاولات الاقتصادية قائمة منذ قيام الجامعة العربية، وحدثت مشاريع عديدة، وكلها عجزت عن تحريك الوحدة السياسية، بأي شكل كان. ولهذا اعتقد بأن هذا العجز سوف يستمر، ولكن الخطر فيه، هو أنه يلهي عن الطريق الاساسي. وهو الطريق السياسي. هذا لا يعني أن العنصر الاقتصادي، لا يقوم بدور مهم في تحقيق التوحيد السياسي، وخصوصاً اذا كانت هناك مصلحة اقتصادية واحدة في الاتحاد السياسي، أو كانت هناك قناعة عامة في المجتمع المجزأ أو الكيانات المستقلة المدعوة الى الوحدة، بأن مصلحتها الاقتصادية تتطلب هذا الاتحاد. فهذا ضروري. وقد ذكرت ذلك في كتابي «من التجزئة الى الوحدة»، بأن هذا القانون قانون ثانوي. يعني بالاضافة الى القوانين الاساسية التي ذكرتها، أشرت الى مجموعة أخرى أسميتها بالقوانين المساعدة. كلها مهمة، ولكن دورها، طاقتها الوحدوية تظل جامدة دون توفر القوانين الاساسية التي ذكرتها، وفي طليعتها الاقليم ـ القاعدة. القوانين الاساسية ضرورية، لانها تفجر في توفرها الطاقة الوحدوية للقوانين الاعدادية المساعدة أو الثانوية، ومنها العنصر الاقتصادي.

س ـ نعود الى الستينات، والحقيقة للاسف أنني قرأت كتابك الاخير، أو كتابك الاول أو الثاني، هو كتاب «الفعالية الثورية في النكبة» مؤخراً. هذا الكتاب في تقديري كان فيه أشياء مهمة جداً. تحدثت فيه عن الطور الذي تمر به الامة العربية، وما ينعكس من ذلك الطور، الهزيمة تولد الثورات، والحقيقة لقد قلت أمثلة كثيرة مثلاً بعد نهاية الحرب العالمية الثانية، أو الحرب العالمية الاولى قامت ثورة اكتوبر، وستالين ركز الدولة السوفياتية بعد الحرب العالمية الثانية، في هذا الموضوع تحدثت عن الوضع العربي، وأشرت بأن الوضع العربي سيفرز ثورة، حركة ثورية، الوضع الفلسطيني ذكرته أولاً، وثمرة النبوءة والثورة، وربما بنفس الوقت، تحدثت وقلت أن التشريد الفلسطيني سينبت ثورة. وقد نبتت هذه الثورة مباشرة في أثناء طباعة هذا الكتاب ربما، وهي الثورة الفلسطينية. هل كنت تتوقع ذلك، وكيف لاحظت هذه الصدفة؟.

ج ـ الاطروحة الاساسية في الكتاب هي، جدلية بين الهزائم الخارجية والثورة. فمراجعة التاريخ، تاريخ التجارب الثورية، يكشف بوضوح أن الهزائم العسكرية تقود في كثير من الاحيان الى ثورات داخلية. طبعاً، في بعض الاحيان. وفي كثير من الاحيان الاخرى، لا تقود هذه الهزائم الى ثورات داخلية. فإذن. النقطة الاساسية من هذه الزاوية، كانت تحديد الاوضاع التي يمكن فيها لهذه الهزائم أن تقود الى ثورة داخلية. وذلك ما سنرى. الكتاب في كلمة أخرى يعني دراسة وتحليل الجدلية الثوريةم التي تترتب على الهزائم العسكرية في بعض الاوضاع. أما الوجه الثاني، فكان فيما يتعلق بموضوعنا هو، أن نكبة فلسطين، أو هزيمتنا في فلسطين، سوف تقود في ذاتها الى ديالكتيك أو جدلية ثورية، تترتب على الهزيمة نفسها. فالهزيمة، بكلمة أخرى تخلق بالمدى البعيد النقيض الذي يلغيها. هذا يعني بدوره، أن هذا النقيض هو تحرير الارض المحتلة. الثورة الفلسطينية كانت جزءاً من الثورة العربية التي نتجت عن هزيمة. فهزيمة ١٩٤٧ كانت تقود الى هذه الثورات، أو فيما يسمى في ذلك الوقت الانقلابات العسكرية، في كل مكان تقريباً. لقد حدثت عدة أحداث من هذا النوع. طبعاً هذه الجدلية الثورية لا تعني أنها تعمل في مدة

معينة، أو أنها قصيرة المدى أو تمتد الى سنوات، انها تمتد الى عقود وعقود. وهذا ما كنت أواجهه باستمرار في الحديث مع كثير من المثقفين العرب حول الموضوع. فكان يتراءى لهم، وكأن هذه الجدلية يجب أن تدلل على ذاتها في بضع سنوات، والا كانت خطأ. الثورة الفلسطينية كانت جزءاً من هذه الجدلية الثورية التي في الواقع كشفت عن ذاتها، في كثير من الاقطار العربية. ومع الاسف فان الثورة الفلسطينية، انحرفت عن الطريق الثوري الذي كان يمكن يه لها أن تقود العملية الثورية ككل. وأعني بذلكك أنها طرحت نفسها، كما ذكرنا المرة الماضية كحرب تحرير شعبية على طريقة الجزائر والصين. . . . الخ في تحرير فلسطين. ، فخرجت عن الطريق الصحيح، وهو طريق التوحيد، كطريق للتحرير. ولو أنها استمرت على طريق التوحيد كطريق للتحرير، لكانت ثورة فلسطين قامت بدورها التاريخي، وهو قيادة الوطن العربي ككل الى دولة الوحدة والى التحرير. انحرافها هذا كان كارثة كبيرة جداً نزلت بها، وتعاضد بضخامتها كارثة هزيمتنا سنة ١٩٤٨ وخسارة فلسطين. هنا أريد أ!ن أضيف: بأن هذه الجدلية، لا تعني كما ذكرت سابقاً، أنها تؤكد ذاتها بطريق عفوي تلقائي أو سريع. فكل جدلية من هذا النوع، تواجه عقبات وعثرات تعترض طريقها. هذا يعني انها تحتاج إلى الوعي الثوري، الوعي العلمي الذي يدركها، ويدرك طبيعتها، فيساندها بالتغلب على هذه العثرات والعقبات. وهنا في الواقع مع الاسف عجزنا. العمل الوحدوي والعمل العربي الثوري، وفي طليعته المقاومة الفلسطينية. عجز عن تحقيق هذين الشرطين، في كتابي «من النكبة الى الثورة» والذي صدر سنة ١٩٦٨، ذكرت هذه العقبات والعثرات. وقد حددتها بالانحرافات التالية: الانحراف الايديولوجي، الانحراف الذاتي، الانحراف الفكري، الانحراف الاستراتيجي. هذه الانحرافات الاربعة تمثل عقبات وعثرات تجمد وتشل الجدلية الثورية التي تكلمت عنها. وهذا ما يؤخر من توفير هذه الجدلية لذاتها. ولكني على ثقة، بأنها عاجلاً أو آجلاً، ستؤكد هذه الجدلية ذاتها. هنا مثلاً نجد أحد الادوار الاساسية أو الايجابيات للمقاومة بشكل منظم، انها تبقي على معركة التحرير حية، وهذا ضروري لتحديد الجدلية الثورية التي تكلمت عنها في هذا الكتاب الذي ذكرته، والتي ستقود في رأيي بالنهاية الى تحرير فلسطين. فأنا على ثقة من هذا التحرير، ولا أخاف عليه. ولكن هذا الاطمئنان يحتاج الى التفكير البعيد المدى والنفس الطويل. وهذا مع الاسف ما لا يتميز به العمل العربي الثوري.

س ـ سؤال من شقين. الشق الاول فيما يتعلق بكتابك «المثقفون والثورة». بهذا الكتاب بدا لي أنك تعطي للمثقف دورا أكبر مما يشغله في الواقع، هذه نقطة، والشق الثاني من السؤال حول المثقف العربي وكيف ترى دوره الآن؟. هل هو يؤديه؟. هل هو مقصر؟.

ج ـ هذا صحيح، لقد أصبت في قولك هذا، السؤال الذي طرحته في هذا الكتاب هو في الواقع ما العمل؟. ان كنا لا نستطيع أن نتقدم نحو مقاصدنا الثورية وفي طليعتها التحرير، دون التوحيد، وان كان التوحيد يحتاج الى وضعية وحدوية غير موجودة، ما العمل اذن؟. العمل كما خلصت في هذا الكتاب، هو تعبئة وتجميع المثقفين الوحدويين، ذوي الاستعداد الوحدوي، ، في حركة فكرية ضاربة، تستطيع أن تتصدى للاقليمية أو الدولة القطرية وآليتها الاقليمية، الى أن تتوفر لنا هذه الوضعية الوحدوية، فنستطيع

آنذاك الانتقال من هذه الحلقة المفرغة التي نراوح فيها، الى مد ثوري جديد. هذا من حيث المبدأ. أما من حيث الشق الثاني الذي أشرت اليه، فانني مع الاسف، وأقول ذلك بألم كبير، لا أجد أن المثقفين العرب يقومون بهذا الدور، أو حتى يقدمون أي تقدم ملحوظ عما كانوا عليه في الستينات، أي من الحالة التي خربت عليها الوضعية الوحدوية السابقة، انني تقريباً على ثقة بأنه لو عادت مصر، الان الى دورها كإقليم - قاعدة، أو أنه لو توفر لنا اقليم - قاعدة آخر عن مصر يقوم بهذا الدور كما ذكرت سابقاً، لكان هؤلاء المثقفون يمارسون من جديد جميع الانحرافات التي مارسوها سابقاً، والتي خربت علينا تلك الفرصة التاريخية. لهذا فان ذلك العدد من المثقفين الذين أدركوا الوضع وصحت وحدويتهم، ليس فقط من حيث النوايا والمشاعر، بل من حيث الوعي العلمي. هؤلاء يجب أن يضاعفوا جهودهم، ويحاولوا ما أمكنهم توسيع نطاق هذا الوعي، توسيع نطاق توحيد جهود المثقفين، في اطار وعي كهذا، أهم ما يجابهنا الان، هو اعداد المثقفين العرب الوحدويين، وذوي الاستعداد الوحدوي، برجوع وضعية وحدوية موضوعية، توفر لنا الانتقال الى اتخاذ زمام المبادرة.

س - في كتاب «هل يمكن الاحتكام الى الولايات المتحدة الامريكية في النزاع العربي الاسرائيلي» طبعاً ذكرت في هذا الكتاب أن هناك طوراً تاريخياً تمر به شعوب العالم الثالث، يختلف عن الطور الذي تمر به الولايات المتحدة الامريكية. ليس هذا السؤال. السؤال هو في هذا الطور التاريخي، الا ترى بأن أميركا اللاتينية مثلاً كجزء من العالم الثالث، بأن الحركة الثورية فيها وحركة التاريخ تسير أسرع من سيرها في منطقتنا؟. بالامس الثوار السلفادوريون يصلون الى العاصمة السلفادورية «سان سلفادور» تتدخل أميركا، ليس المهم تدخل أميركا، بل ان الحركة الثورية في ذلك البلد تفرض نسقاً عالياً من الحركة الثورية، تزيد وتؤجج الصراع، كذلك كولومبيا. يعني لماذا التقدم في أميركا اللاتينية وأيضاً في افريقيا، حيث نرى أن هناك مجموعة استقلالات، السود أيضاً في جنوب افريقيا يصعدون من نضالاتهم ويرفضون اقامة دولة زنجية في جنوب افريقيا، يريدون فقط الوطن كله، لماذا لا يحصل هذا في الوطن العربي؟.

ج - السؤال مهم جداً، والاسباب التي يمكن أن تفسر هذه الظاهرة حديثة جداً، ولكن هنا أريد أن أقف عند ما يلي: أولاً: أن أحد الاسباب الاساسية التي يمكن ان تفسر هذه الظاهرة هو أن التناقضات الاجتماعية الحادة والكبيرة بين الجماهير الفقيرة التي تعيش في حالة فقر مدقع أو في حالة استغلال ومهانة عميقة الابعاد. أن هذه التناقضات الاجتماعية موجودة هناك، وغير موجودة في الوطن العربي مثلاً. يعني التناقض الاجتماعي في أميركا اللاتينية، في معظم دول أميركا اللاتينية، تناقض ضخم جداً جداً. اثنان بالمائة مثلاً يملكون ٩٥٪ من الثروة مثلاً، ملايين تعيش في حالة جوع في المدن الكبرى المراهقون أنفسهم فقط في البرازيل ١٠ ملايين مراهق متسول في الشوارع مثلاً. ثانياً: عنصر آخر يجب أن نذكره، وهو الوجود المباشر «للسيد» الامريكي. هذا الوجود هو في الواقع تقريباً واقعة يومية بالنسبة للمواطن في أميركا اللاتينية، يشعر بوجوده مباشرة، يراه في الشركات، يراه في الطبقات الحاكمة، يراه في كل مكان. وهذا يحفز على الثورة والتمرد. ولكن هنا يجب أن نذكر أيضاً، جانباً أشرت اليه سابقاً، وهو أن هناك ثورات في أميركا اللاتينية، أو حروب عصابات، حروب تحرير شعبية لاتزال هناك منذ ثلاثين أو أربعين سنة، تقاتل ولم تخسر ثقتها ولم تنته، لم تقل بأن المدة طالت، وان الحرب سوف تكون دون فائدة، فتخسر قدرتها على

تعبئة المواطنين أو الجماهير، وبشكل خاص الفلاحين. هذا هو النقص الذي يحتاجه كل عمل ثوري ناضج. وهذا خلل في الواقع يمثل الكثير من القطاعات الثورية عندنا، ويجب أن نتغلب عليه.

س - الذي يجري الان في الكتلة الشرقية. هناك اتجاهات كثيرة تختلف تفسيراتها لما يجري في الجمهوريات الاشتراكية. البعض يرى أن ما جرى هناك هو انهيار للاشتراكية، والبعض يرى أن ذلك هو تطوير للاشتراكية، والبعض يرى أن في كل ذلك انتصاراً لليبرالية. كيف يرى الدكتور نديم البيطار ما يجري في تلك الجمهوريات؟

ج - طبعاً، المسألة معقدة ومتشعبة جداً، ولكن هناك بعض الامور الاساسية التي أريد أن أنبه اليها وأقف عندها: أولاً: أن ما يجري هناك لا يعني أبداً، وبأي شكل كان، في ذاته، سقوط الماركسية أو الاشتراكية، أو الشيوعية، ذلك يعني حتى الان تصحيحاً للانظمة الاشتراكية. وهذا التصحيح قد يعني في المدى البعيد دليلاً على حيوية هذه الانظمة، التصحيح في ذاته لا يعني فشل النظام. التصحيح هو ضرورة في أي نظام ثوري، ان أراد أن يؤكد ذاته أو استمراريته. لنأخذ مثلاً الليبرالية، هذا القول هو كمن يقول بأن الليبرالية سقطت وانتهت وماتت، لأن دولة الخدمات الاجتماعية قامت. يعني ظهور فرانكنغ. وتعديله للنظام الرأسمالي أي مرحلة فرانكنغ. في أميركا، الذي قام بتصحيح مهم جداً أساسي للنظام الليبرالي. لقد قيل أيضاً في ذلك الوقت أنه شيوعي، وأنه تنكر لطبقته، وكان الناس يعزون عائلته، بأنه انحرف وأنه أصبح شيوعياً مثلاً. ولكن اتضح فيما بعد، أن ما قام به فرانكنغ. كان تصحيحاً تحتاج اليه الليبرالية الرأسمالية، أو النظام الرأسمالي الليبرالي. لهذا ما يحدث هو تصحيح، يتعرض له كل نظام ثوري في تفاعله مع التاريخ. كل نظام يخلق تناقضات جديدة، يجب أن يتغلب عليها، ويجب أن يعدل ذاته كي يمكن له أن يتغلب عليها. فاذن التصحيح يعني هذا التعديل، وهو قد يدل على حيوية النظام، وليس على سقوطه. ثانياً، هنا يجب الانتباه أيضاً لما يحدث في أوروبا الشرقية، فهو لا يعود فقط الى تصحيح يحتاجه النظام، ولكن هناك ما يحدث وينطوي على عامل آخر، وهو تمرد قومي. فما يحدث يعبر عن نزعات قومية للاستقلال. وهذا شيء يجب أن يميز بينه وبين السقوط، و الكلام عن النظام الاشتراكي، كنظام اشتراكي. فهؤلاء يتمردون قبل كل شيء على هيمنة السوفياتية الروسية، أو بالاحرى الهيمنة الروسية. وهذا أمر مختلف عن التمرد على الاشتراكية كنظام اشتراكي. وأنا أعتبر أن هذا الشق الثاني، فيما يحدث، هو أهم من الشق الاول بكثير، وأنه كان الداعي للشق الاول، أو التصحيح للنظام الاشتراكي.

س - هل تعتقد أن السماح للاحزاب الليبرالية في العمل في الكتلة الشرقية ممكن، هل ترى أن الاحزاب الشيوعية قادرة على أن تواجه حركة الاحزاب الليبرالية، طبعاً الليبرالية كنظام اقتصادي، أيضاً عالمي وله امتداداته، يعني ليبرالية في أوروبا الشرقية ستعني تعاوناً مع الليبرالية في أوروبا الغربية ومع الولايات المتحدة الامريكية. هل بظنك أن الاحزاب الشيوعية، أو الاحزاب الاشتراكية على وجه الاجماع في أوروبا الشرقية، قادرة على أن تواجه هذا الامتداد؟ لكل قوى أوروبا الغربية الاقتصادية؟.

ج - أنا لا أشك بأنها قادرة في المستقبل البعيد، لان الاتحاد السوفياتي يمر بعقبة متشعبة جداً، وهناك عناصر جديدة كثيرة. ولذلك لا يصح تماماً الحكم على ما يحدث في ضوء ما حدث في الماضي في أنظمة أخرى، أو ايديولوجيات أخرى واجهت ما يواجهه النظام الاشتراكي في الاتحاد السوفياتي الان. ولكن، فهذا أمر

يمكن التكهن به تماماً. ولكن هناك شيء يمكن توقيته، وهو أن الاتحاد السوفياتي يحتاج الى هذا التصحيح، كي يمكن له استغلال امكاناته البشرية، وامكاناته الطبيعية. الاتحاد السوفياتي قارة كبيرة يمثل سدس الكرة الارضية، وتوجد في أرضه امكانيات طبيعية هائلة، يعني ثروات طبيعية ضخمة، يحتاج الى استغلالها، والحرب الباردة كانت تستنزف هذه الامكانات. الاتحاد السوفياتي ركز كل امكاناته على المواجهة العسكرية المحتملة. هنا نجد مثلاً حسياً، بأن ما يحدث لا يعني سقوط النظام الاشتراكي في ذاته، لان هذا النظام نجح نجاحاً باهراً في القطاع العسكري. ليس هناك اذن أي سبب متأصل في النظام الاشتراكي، يمنع تحقيق نجاح مماثل في الانتاج الاقتصادي. ولكن ما يعنيه هو أن الاتحاد السوفياتي كان ينشغل في ذلك القطاع، بأنه هو الاهم، كي يحفظ وجوده، أنا أعلم مثلاً، وذلك بشهادات مؤسسات استراتيجية غربية. من لندن الى استوكهولم، الى أميركا، بأن الاتحاد السوفياتي يتقدم بكثير كثير على أمريكا في كثير من ميادين هذا القطاع، من التكنولوجيا والعلم الفضائيين. فالاتحاد السوفياتي واجه مشكلة، وهي أن هذا السباق، سباق التسلح، يستنزف امكاناته، وهو يريد أن يحرر هذه الامكانات، ليطلقها في القطاع الاقتصادي. ولهذا فان التصحيح ضروري، وقد يظهر في المستقبل، بأنه كان منعطفاً تاريخياً، يستعيد فيه الاتحاد السوفياتي مبادرته التاريخية، وتقدمه وأسبقيته، وطريقه الاقصر الى انهاء النظام الليبرالي.

س ـ في نهاية لقائنا دكتور نديم البيطار ماذا تقول؟.

ج ـ ما أريد قوله هو شيء بسيط جداً، واضح، ويمكن القول بأن أهم القضايا الكبرى، أهم القضايا في التاريخ، وأهمها قد تكون بديهية، الامر الذي أؤكده هو دولة الوحدة، ومرة أخرى دولة الوحدة، ومرة ثالثة دولة الوحدة، ودائماً وباستمرار والى مالا نهاية دولة الوحدة. فهذه الدولة يجب أن تكون الاساس الاول والاعلى لنا.



شخصيات فلسطينية

عبد الرحيم محمود شاعر الثورة وشهيد فلسطين في معركة الشجرة

اعداد: يوسف عبد الأحد

سيرة حياته وجهاده

ولد الشاعر عبد الرحيم محمود في قرية (عنبتا) على مقربة من طولكرم في فلسطين في ربيع عام ١٩١٣.

كان والده الشيخ محمود عبد الحليم عالماً فقهياً وشاعراً أديباً.

تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة عنبتا الابتدائية، ثم انتقل الى مدرسة طولكرم وانهى تعليمه الابتدائي، وتابع تحصيله الثانوي في نابلس بمدرسة النجاح الوطنية بين الفترة ١٩٢٨ ـ ١٩٣٢، وهي مدرسة كانت تبث في روح طلابها حب الوطن والعروبة وتوقد في نفوسهم جذوة الحماس والوطنية وكان يشرف عليها العلامة قدري حافظ.

قضى عبد الرحيم في مدرسة النجاح المرحلة الثانوية وكان تلميذاً لشاعر فلسطين ابراهيم طوقان

يمكن التكهن به تماماً. ولكن هناك شيء يمكن توقيته، وهو أن الاتحاد السوفياتي يحتاج الى هذا التصحيح، كي يمكن له استغلال امكاناته البشرية، وامكاناته الطبيعية. الاتحاد السوفياتي قارة كبيرة يمثل سدس الكرة الارضية، وتوجد في أرضه امكانيات طبيعية هائلة، يعني ثروات طبيعية ضخمة، يحتاج الى استغلالها، والحرب الباردة كانت تستنزف هذه الامكانات. الاتحاد السوفياتي ركز كل امكاناته على المواجهة العسكرية المحتملة. هنا نجد مثلاً حسياً، بأن ما يحدث لا يعني سقوط النظام الاشتراكي في ذاته، لان هذا النظام نجح نجاحاً باهراً في القطاع العسكري. ليس هناك اذن أي سبب متأصل في النظام الاشتراكي، يمنع تحقيق نجاح مماثل في الانتاج الاقتصادي. ولكن ما يعنيه هو أن الاتحاد السوفياتي كان ينشغل في ذلك القطاع، بأنه هو الاهم، كي يحفظ وجوده، أنا أعلم مثلاً، وذلك بشهادات مؤسسات استراتيجية غربية. من لندن الى استوكهولم، الى أميركا، بأن الاتحاد السوفياتي يتقدم بكثير كثير على أمريكا في كثير من ميادين هذا القطاع، من التكنولوجيا والعلم الفضائيين. فالاتحاد السوفياتي واجه مشكلة، وهي أن هذا السباق، سباق التسلح، يستنزف امكاناته، وهو يريد أن يحرر هذه الامكانات، ليطلقها في القطاع الاقتصادي. ولهذا فان التصحيح ضروري، وقد يظهر في المستقبل، بأنه كان منعطفاً تاريخياً، يستعيد فيه الاتحاد السوفياتي مبادرته التاريخية، وتقدمه وأسبقيته، وطريقه الاقصر الى انهاء النظام الليبرالي.

س ـ في نهاية لقائنا دكتور نديم البيطار ماذا تقول؟.

ج ـ ما أريد قوله هو شيء بسيط جداً، واضح، ويمكن القول بأن أهم القضايا الكبرى، أهم القضايا في التاريخ، وأهمها قد تكون بديهية، الامر الذي أؤكده هو دولة الوحدة، ومرة أخرى دولة الوحدة، ومرة ثالثة دولة الوحدة، ودائماً وباستمرار والى مالا نهاية دولة الوحدة. فهذه الدولة يجب أن تكون الاساس الاول والاعلى لنا.



شخصيات فلسطينية

عبد الرحيم محمود شاعر الثورة وشهيد فلسطين في معركة الشجرة

اعداد: يوسف عبد الأحد

سيرة حياته وجهاده

ولد الشاعر عبد الرحيم محمود في قرية (عنبتا) على مقربة من طولكرم في فلسطين في ربيع عام ١٩١٣.

كان والده الشيخ محمود عبد الحليم عالماً فقهياً وشاعراً أديباً.

تلقى تعليمه الابتدائي في مدرسة عنبتا الابتدائية، ثم انتقل الى مدرسة طولكرم وانهى تعليمه الابتدائي، وتابع تحصيله الثانوي في نابلس بمدرسة النجاح الوطنية بين الفترة ١٩٢٨ ـ ١٩٣٢، وهي مدرسة كانت تبث في روح طلابها حب الوطن والعروبة وتوقد في نفوسهم جذوة الحماس والوطنية وكان يشرف عليها العلامة قدري حافظ.

قضى عبد الرحيم في مدرسة النجاح المرحلة الثانوية وكان تلميذاً لشاعر فلسطين ابراهيم طوقان

الذي كان يزاول التعليم في النجاح، ولمح في طالبه الذكاء والنبوغ والموهبة الشعرية فغذاه وحبب اليه الأدب والشعر وتوثقت بينهما روابط الود وزادتها الايام إحكاما.

تخرج عبد الرحيم وعيّن معلماً للغة العربية في النجاح ودرّس الأدب العربي وكان يلقّن طلابه دروساً في الوطنية والقومية ويبث في نفوسهم حب الوطن والجهاد.

بقي في عمله هذا إلى أن نشبت الثورة في فلسطين سنة ١٩٣٦ فتنادى الفلسطينيوُن إلى حمل السلاح وانتشر المناضلون في جبال فلسطين ووهادها.

استقال عبد الرحيم من عمله ليشارك في النضال، وتنكب بندقيته وانخرط في كتائب الجهاد للدفاع عن حياض الوطن واخذ يرسل زئيره بقصائده اللاهبة في آفاق فلسطين والعالم العربي خلال سنوات الثورة ١٩٣٦ - ١٩٣٩ وبعد أن توقفت الثورة طاردته حكومة بريطانيا وزملاءه المجاهدين فاضطر الى مغادرة البلاد الى العراق وأقام هناك قرابة ثلاث سنوات من عام ١٩٣٩ الى ١٩٤٢ ودخل الكلية العسكرية وعيّن مديراً لمدرسة ابتدائية في البصرة وبلهفة المتعطش نادى عبد الرحيم من العراق بني قومه:

بني قومي دنا يوم الضحايا   أغر على ربى أرض المعاد
وما أهل الفداء سوى شباب   أبي لايقيم على اضطهاد
اثيروا للنضال الحق نارا   تصب على العدا في كل وادي
فليس أحط من شعب قصير   على الجلى وموطنه ينادي

وعاد عبد الرحيم الى فلسطين ليستأنف العمل في تربية النشء العربي في كلية النجاح الوطنية بنابلس الى أن صدر قرار الأمم المتحدة الجائر بتقسيم فلسطين في ١٩٤٧/١١/٢٩ فتجددت الثورة الفلسطينية.. وهنا انضم (عبد الرحيم) الى صفوف المجاهدين وخاض عدة معارك في مناطق جنين وطولكرم الوسطى وفي المنطقة الشمالية من الجليل.

استشهاده

في صباح يوم ١٩٤٨/٦/١٣ كانت معركة الشجرة[1] في ذروتها تقدمت مجموعة من مناضلي جيش الانقاذ وعلى رأسهم البطل عبد الرحيم أرادوا فتح الطريق بين الناصرة وطبرية، وفيما كان يخوض غمار المعركة الضارية هبطت عليه قنبلة (سلنبد) من قنابل العدو الغادر فأصابته شظية فوقع جريحاً، وسارع بعض رفاقه ونقلوه في سيارة جيب الى المستشفى متوجهين إلى الناصرة وفيما هم في الطريق أخذ يردد عبد الرحيم على مسمع اخوانه في الجهاد بصوت الجريح الذي وهب روحه لوطنه الأبيات التالية:

«لعمرك هذا ممات الرجال   فمن رام موتاً شريفاً فذا
أخوفاً؟ وعندي تهون الحياة   وذلاً، وإني لرب الابا
بقلبي سأرمي وجوه العداة   فقلبي حديد وناري لظى»

وقبل أن تبلغ السيارة الناصرة هوت في واد سحيق ففاضت روحه الطاهرة في ١٩٤٨/٦/١٣ وختم حياته بالشهادة التي هي اسمى مراتب الحياة ونقل جثمانه ودفن في المقبرة الاسلامية بالناصرة.

شخصيته - أوصافه - وصفاته

كان مربوع القامة، اسود العينين، كثيف الشعر، بشوش الوجه، لطيف المعشر، حاضر البديهة ويجيد الفكاهة والنكتة وهو محدث لبق ومجلسه مؤنس.

وإلى جانب تلك الصفات كان مخلصاً في صداقاته، ويتحلى بالخلق النبيل، إذ امتلأ قلبه رقة ورحمة وحناناً ورفقاً، وعرف عنه أنه كان - في العمل العسكري - جريئاً في معالجة الأمور وتحمل المسؤولية. وكان معلماً صادقاً في أداء واجبه وفياً لرسالته محبوباً من قبل زملائه لطيفاً في معاملة طلابه وعطوفاً عليهم لاسيما على أبناء الشهداء منهم.

آثارة الشعرية

١ - ديوان عبد الرحيم محمود
شركة الطباعة الحديثة - عمان ١٩٥٨
٢ - ديوان عبد الرحيم محمود - جمع وتقديم الدكتور كامل السوافيري
منشورات اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين
دار العودة بيروت ١٩٧٤
٣ - الشاعر عبد الرحيم محمود - رسالة ماجستير - تأليف نافع عبد الله صدرت في دبي ١٩٧٩
٤ - الأعمال الكاملة للشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود (القصائد والمقالات)
تحقيق وتقديم عز الدين المناصرة
دار الجليل - دمشق ١٩٨٨.

كيف جمع شعره

أقيم في عمان حفل تأبيني للشاعر عبد الرحيم محمود بتاريخ ١٩٥٦/٩/١٤ نجم عنه تشكيل لجنة ثلاثية للبحث عن اشعاره وجمعها، قوامها الدكتور عيسى الناعوري - وعادل الزواتي - وتوفيق ابو شريف وعرفت هذه اللجنة باسم لجنة تكريم الشاعر وصدر هذا الديوان عام ١٩٥٨ وعدد صفحاته ٧٢ واشتمل على ٢٧ قصيدة والكلمات التي قيلت في تأبين الشاعر.

أما المحاولة الثانية قام بها الدكتور كامل السوافيري فكتب نبذة عن حياة الشاعر وجمع بعض القصائد غير

الواردة في الطبعة الأولى وصدر الديوان عن دار العودة عام ١٩٧٤.

أما الطبعة الثالثة فقد أصدرتها مكتبة بلدية نابلس عام ١٩٧٥ وأصدر الأستاذ نافع عبد الله كتابه «الشاعر عبد الرحيم محمود» وهو بالأصل رسالة ماجستير وهي الطبعة الرابعة صدرت عن مكتبة دبي للتوزيع عام ١٩٧٩.

ثم صدرت الطبعة الخامسة بتحقيق الاستاذ حنا ابو حنا في عام ١٩٨٥ وقام بطبعها مركز احياء التراث في الطيبة.

وأخيراً صدرت الأعمال الكاملة ـ القصائد والمقالات ـ ١٩٨٨ عن دار الجليل بدمشق لصاحبها الاستاذ الأديب عبد الرحمن غنيم قام بتحقيق وتقديم هذه الطبعة الممتازة الشاعر عز الدين المناصرة بعد أن بذل جهوداً كبيرة في الجمع بدءاً من عام ١٩٨٢ في بيروت وحتى نهاية عام ١٩٨٥ في الجزائر.

ويعتبر هذا العمل المتميز قد أكمل النقص في الطبعات السابقة.

يتألف هذا الديوان من ٦٩ قصيدة ومجموع أبياتها ١٨٧٤ بيتاً شعرياً، أما عدد القصائد التي تنشر لأول مرة حددت بثلاث وعشرين قصيدة وتتميز هذه الطبعة أيضاً باكتشاف خمس مقالات نقدية سبق أن نشرت في مجلة (الامالي) البيروتية في الثلاثينات باسم مستعار هو (مريم).

رثاء الشعراء الادباء له:

١ ـ الشاعر حسن البحيري

دثروه بالحرير الاخضر وادفنوه في ثرى من عنبر
ذكره رن باصداء العلا يتمشى في جلال الاعصر

٢ ـ المرحوم سيف الدين الكيلاني

جاهدت عمرك حرا ثائراً بطلا   تخشى الهوان ولاتخشى الميادينا
نلت الشهادة في أسمى مراتبها   وكان مانلته أسمى أمانينا
يافارس الشعر في أسمى رسالته   لطالما كنت بالالحان تشجينا

٣ ـ الشاعرة فدوى طوقان

لقد صوّرت الشاعرة ماساة الاسرة تصويرا مؤثرا في قصيدتها الرائعة (رقية)

هنالك في سفح مهد البطولا   ت، والمجد والوثبات الكبر
هنالك ضم رقية كهف   رغيت عميق كجرح القدر
ومر على قلبها طيف يوم   دَجيّ الضحى، عاصف مربد
وطالعها في رؤى الذكريات   فتاها نَجِيّ العلا والطماح

٤ ـ الدكتور اسحق موسى الحسيني

«أطأطىء رأسي مرة أمام شعرك ومئة مرة أمام دمك الزاكي الذي بذلته في سبيل الوطن الغالي.

٥ ـ الدكتور عيسى الناعوري

«كان استشهاده أروع قصائده»

٦ ـ أكرم زعيتر

ان في الناصرة لقبرا يحس بالوحشة ويشكو الغربة. وسيظل القبر كئيباً متوحشاً حتى يجيء نصر الله والفتح، ويكون ابن لعبد الرحيم في مواكب التحرير فيعتمر قبر أبيه ويلثم ثراه ويستنشق منه الرضا والاعتزاز، تم يؤنسه بالراية العربية يركزها وبأزاهير النصر ينثرها ويعتنق الشاهد، شاهد القبر هاتفاً: ابي، ابي. ابي لقد انتصرنا وقد عدنا فلتباركنا روحك».

٧ ـ الدكتورر ناصر الدين الاسد

«عبد الرحيم محمود من شعراء فلسطين الذين امتلأت الصحف والمجلات بقصائدهم وعمرت المجالس والمناسبات القومية بأشعارهم».

٨ ـ المرحوم الدكتور زكي المحاسني

«وحسبي ان أذكر شاعراً كان من جيرة طوقان وصحبه، أطلعته فلسطين نجماً في ظلام المحن، هو البطل الشهيد عبد الرحيم محمود الذي وهب شعره وحياته للوطن».

اراء طائفة من الأدباء
في أدب عبد الرحيم محمود

١ ـ الدكتور عبد الرحمن ياغي

شاعر مناضل نشأ في مرحلة النضال التي مرت فيها فلسطين بتجربتها القاسية. ولم يكن بمعزل عن ذلك النضال. وانما مارس كل ماصدر عنه من فن قولي ممارسة عملية، وخاض معارك الكفاح في فلسطين، واستشهد في معركة الشجرة سنة ١٩٤٨، وكان شعره صورة لفظية وجدانية لتجاربه التي خاضها وعاشها.

وبحكم اتصاله بالتجارب العامة وربط تجاربه الخاصة الذاتية بها كان يدرك موقفه من هذه المرحلة تمام الإدراك، فكان يعي المفهوم الوطني الكريم للوطنية، وكان يعرف الأعباء التي ينبغي على المواطن أن

يحملها ليكون بطلاً من أبطال الكفاح :

«سأحمل روحي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدى
ونفس الشريف لها غايتان ورود المنايا ونيل المنى»

٢ ـ الدكتور عمر فروخ

في فلسطين نفر وقفوا معظم شعرهم في الأكثر على الناحية القومية الوطنية السياسية منهم ابراهيم طوقان، وعبد الرحيم محمود وعبد الكريم الكرمي وفدوى طوقان .

كان عبد الرحيم من المجاهدين وقد سقط شهيداً في معركة الشجرة في ١٣ حزيران ١٩٤٨ .

٣ ـ الدكتور عيسى الناعوري

وينحو عبد الرحيم في مبادئه الانسانية والوطنية منحى اشتراكيا، فهو ابن الشعب، وأدبه ينبع من صميم الحياة العامة، ويستمد قوته من نفس الشاعر الثائرة المجاهدة التي تتأثر لحالة الشعب، وتثور لهوان الوطن.

وشاعرنا مجاهد بكل ماتحمله هذه اللفظة من معان، فهو مجاهد بقلمه ولسانه، وهو مجاهد بنفسه يلبي نداء الوطن كلما دعا للثورة على الظلم . لقد عاش مجاهداً في شعره ومات مجاهداً في ميادين القتال» .

٤ ـ أدهم الجندي

شاعر ملهم وفارس بطل وفي المآقي عبرات تنسجم حسرة وأسى لقد ترك لشباب الجيل الجديد عبرة وذكرى في شهادته وتضحيته، فهو رمز الوطنية الخالد والفرقد المنير في مواكب الشهداء الابرار. كان يرى الوطنية فريضة كتبت على البشر، مداد رسالتها الارواح، فجاهد ببراعة لسانه وسيفه دون من ولا وهن .

٥ ـ نافع عبد الله

«أحب عبد الرحيم وطنه وجاهد بكلمته ونفسه من أجل الدفاع عنه ودرء أخطار الاعداء المحدقة به . وكرس جل حياته العملية ثائراً على الصهيونية والاستعمار في سبيل نصرة الوطن، وتحقيق استقلاله واعلاء مكانته» .

أهم الكتب التي تناولت عبد الرحيم محمود بالبحث

١ ـ الجديد في الأدب العربي ـ للصف الأول الثانوي ـ الطبعة الثانية ـ دار الكشاف ـ بيروت ١٩٥٠ ـ

للدكتور عيسى الناعوري .

٢ ـ بطولات عربية من فلسطين ـ المطبعة العصرية القدس ١٩٥٥ الدكتور عيسى الناعوري .

٣ ـ حياة الأدب الفلسطيني الحديث ـ الدكتور عبد الرحمن ياغي منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع مطابع دار منيمنة بيروت ١٩٦٨

٤ ـ شاعران معاصران ابراهيم طوقان وابو القاسم الشابي : الدكتور عمر فروخ ـ المكتبة العلمية ومطبعتها بيروت ١٩٥٤ .

٥ ـ من أعلام الفكر والأدب في فلسطين ـ يعقوب العودات (البدوي الملثم) جمعية عمال المطابع التعاونية عمان ١٩٧٦

٦ ـ ابراهيم طوقان شاعر الوطن المغصوب ـ دار الفكر العربي ـ القاهرة ١٩٦٦ للدكتور زكي المحاسني .

٧ ـ محمود درويش شاعر الأرض المحتلة ـ العدد (٢٢٠) من كتاب الهلال تموز ١٩٦٩ .

٨ ـ اعلام الأدب والفن ـ أدهم الجندي ـ الجزء الأول مطبعة مجلة صوت سورية دمشق ١٩٥٤ .

٩ ـ الشاعر عبد الرحيم محمود ـ نافع عبد الله ـ مكتبة دبي للتوزيع دبي ١٩٧٩ . (رسالة ماجستير) ـ دبي ١٩٧٩ .

١٠ ـ الشعر العربي الحديث في مأساة فلسطين ـ مكتبة نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٦٤ ـ للدكتور كامل السوافيري .

١١ ـ الاتجاهات الفنية في الشعر الفلسطيني المعاصر ـ الدكتور كامل السوافيري ـ المكتبة الانجلو المصرية ـ القاهرة ١٩٧٣ .

١٢ ـ لباب الثقافة والأدب ـ محمد أحمد حماد ـ الطبعة الأولى دار القومية العربية للثقافة والنشر القاهرة ١٩٦٢ .

١٣ ـ بلادنا فلسطين ـ الجزء الاول ـ دار الطليعة بيروت ١٩٦٥ .

١٤ ـ الاتجاهات الادبية الحديثة في فلسطين والاردن محاضرات ألقاها الدكتور ناصر الدين الاسد على طلبة قسم الدراسات الأدبية واللغوية مطبوعات معهد الدراسات العربية القاهرة ١٩٥٧ .

١٥ ـ الشعر الحديث في فلسطين والاردن ـ مطبوعات معهد الدراسات العربية ـ القاهرة ١٩٦٠ .

١٦ ـ الغواني في شعر ابراهيم طوقان ـ دار الريحاني بيروت ١٩٥٧ .

١٧ ـ النكبة ـ نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود ـ الجزء الثالث المكتبة العصرية ـ بيروت .

١٨ ـ في شعر النكبة ـ الدكتور صالح الأشتر ـ مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠ .

١٩ ـ القريب في تاريخ الأدب ـ فايز على الغول وعبد الرحمن الكيالي ـ دار الأيتام الاسلامية القدس ١٩٥٥ .

٢٠ ـ صبحي ياسين ـ الثورة العربية الكبرى في فلسطين ـ دار الهنا للطباعة ١٩٥٩ .

٢١ ـ ديوان «حيفا في سواد العيون» حسن البحيري ـ ص (٨٨) قصيدة رثاء .

المراجع في الصحف والمجلات

١ ـ مأساة فلسطين وأثرها في الشعر الحديث ـ صالح الطعمة مجلة شؤون فلسطينية العدد (١٢) اب ١٩٧٢ .

٢ ـ أعلام من فلسطين عبد الرحيم محمود «ابو الطيب» محمد توفيق السهلي مجلة صوت فلسطين العدد (١٤٦) آذار ١٩٨٠ .

٣ ـ الشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود شاعر الثوار والعمال مجلة (الى الامام) العدد (٩٩٤) ١٩/ ٦/ ١٩٨٧ .

٤ ـ عبد الرحيم محمود فارس الموقف والكلمة ـ عبد الحليم ابو عليا مجلة دنيا العرب العدد (٥٢) ٢٠/ ٢/ ١٩٨٩ (قسم أول) مجلة دنيا العرب العدد (٥٣) ٢٥/ ٣/ ١٩٨٩ (قسم ثان)

٥ ـ الاعمال الكاملة للشاعر الشهيد عبد الرحيم محمود ـ اديب عزت جريدة تشرين العدد (٤٣١٩) ٩/ ١١/ ١٩٨٨ .

صورة لبعض كتاباته بخط يده

٣٨/١/١٩

أخي الحبيب!!

اجدني، وحياتك، مديناً لك بشيء كثير. فقد كنتَ أول من غرس في روحي تذوق الجمال، وأول من أوحى إليّ سامي التصور والخيال. وإنك لاتزال، كما كنتَ، ملهمي والآخذ بيدي لآخر الشوط. فبأي لسان أشكرك؟ أعطنيه!!

وصلني أي استاذي، مابعثت ولقد شعرت بغبطة لتذكرك إيايَ لاتدانيها غبطتي أيام كنت تروض جناحي لأرفرف. وأيام كنتَ تدفعني مشجعاً لاتقدم.

تلك أيام لن أنساها. ولن أنساها ماثلاً في الصف ولك فيّ صورتان صورة يلذّ بها بصري، وأخرى تقرّ بها بصيرتي. وكنت وأنا اليقظان، كالوهمان فاتحسسك وأتلمسك لأزيل الشك باليقين فما أجدك، وأنت المادة، إلاّ خيالاً من الخيالات الجميلة التي لاتفتأ تخطر على فؤادي.

أنت أيها المخلوق الجميل تخجلني بما تصنع معي من معروف، وأنت أيها الساحر اللذيذ تقيدني بأحابيل جميلك، وإنك لتؤلمني بذلك لأنه ليس في مستطاعي أن أجزيك بعض أياديك.

ولكن ثق أني لك دائماً أخٌ من الذين لم تلدهم أمك، وأني لك دائماً سيف إن ضربت به قطعت، وإن أمرتني أطعت

ولاأنسى في الختام أن أرفع لسيدتي أم جعفر سلامي واحترامي. وشكري للطفها معي.

أدامكما لله للخيال مثال، وفي السعادة أمثال

أخوك

عبد الرحيم محمود

سلم على يوسف الذي مافيه من الحسن الذي زعموا الآ . . .

الشهيد

١ ـ سأحمل روحي على راحتي ... وألقي بها في مهاوي الردى

٢ ـ فاما حياة تسر الصديق ... واما مماتٌ يغيظ العدى

٣ ـ ونفس الشريف لها غايتان ... ورود المنايا ونيل المنى

٤ ـ وماالعيش؟ لاعشت ان لم أكن ... مخوف الجناب حرام الحمى

٥ ـ اذا قلت أصغى لي العالمون ... ودوى مقالي بين الورى

***

٦ ـ لعمرك اني أرى مصرعي ... ولكن أغذ اليه الخطى

٧ ـ أرى مقتلي دون حقي السليب ... ودون بلادي هو المبتغى

٨ ـ يلذ لأذني سماع الصليل ... ويبهج[1] نفسي مسيل الدما

٩ ـ وجسم تجدل في الصحصحان[2] ... تناوشه جارحات الفلا

١٠ ـ فمنه نصيب لطير[3] السماء ... ومنه نصيب لأسد الثرى

١١ ـ كسا دمه الارض بالارجوان ... وأثقل بالعطر ريح الصبا

١٢ ـ وعفر منه بهى الجبين ... ولكن عفارا يزيد البها

١٣ ـ وبان على شفتيه ابتسام ... معانيه هزء بهذي الدنى

١٤ ـ ونام ليحلم حلم الخلود ... ويهنأ فيه بأحلى الرؤى

***

١٥ ـ لعمرك هذا ممات الرجال ... ومن رام موتا شريفا فذا

١٦ ـ فكيف اصطباري لكيد الحقود ... وكيف احتمالي لسوم الأذى

١٧ ـ أخوفا وعندي تهون الحياة ... وذلاً وأنى لرب الابا

١٨ ـ بقلبي[5] سأرمي وجوه العداة ... فقلبي حديد وناري لظى

١٩ ـ وأحمي حياضي بحدّ الحسام ... فيعلم قومي بأني الفتى

تخريجها: مجلة «الامالي» السنة ١ العدد ١٢ ـ ١٩٣٨ . و ل وعدد أبياتها ١٩ بيتاً.

(١) في س: يبيج.

(٢) الصحصحان والصحصاح: الأرض المستوية أو الارض الجرداء.

(٣) في الأمالي: أسد.

(٤) في الأمالي: الشرى (بالشين).

(٥) في ل: بقلبي.

نداء الوطن

١ - دعا الوطن الذبيح الى الجهاد … فطار لفرط فرحته فؤادي(١)
٢ - وسابقت النسيم(٢) ولا افتخار … أليس علي أن أفدي بلادي
٣ - حملت على يدي روحي وقلبي … وماحملتها الا عتادي
٤ - وقلت لمن يخاف من المنايا … أتفرق من مجابهة العوادي
٥ - أتقعد والحمى يرجوك عونا … وتجبن عن مصاولة الأعادي
٦ - فدونك خدر أمك فاقتعده … وحسبك خسة هذا التهادي
٧ - فللأوطان أجناد شداد … يكيلون الدمار لأي عادي
٨ - يلاقون الصعاب ولاتشاكي … أشاوس في ميادين الجلاد
٩ - تراهم في الوغى أسدا غضابا … معاوينا إذا نادى المنادي

***

١٠ - بنى وطني دنا يوم الضحايا … أغر على ربى أرض المعاد
١١ - فمن كبش الفداء سوى شباب … أبى لايقيم على اضطهاد
١٢ - ومن للحرب ان هاجت لظاها … ومن الأكم قدح الزناد
١٣ - فسيروا للنضال الحق نارا … تهب على العدا في كل وادي
١٤ - فليس أحط من شعب قعيد … عن الجلى وموطنه ينادي
١٥ - بني وطني أفيقوا من رقاد … فما بعد التعسف من رقاد
١٦ - قفوا في وجه أي كان، صفا … حديدا لايؤول الى انفراد
١٧ - ولاتجموا اذا اربدت سماء … ولاتهنوا اذا ثارت بوادي
١٨ - ولاتقفوا اذا الدنيا تصدت … لكم وتكاتفوا في كل نادي
١٩ - اذا ضاعت فلسطين وأنتم … على قيد الحياة ففي اعتقادي:
٢٠ - بأن بني عروبتنا استكانوا … وأخطأ سعيهم نهج الرشاد

قالها في حفلة الوداع التي أقامها العقيد الركن طه باشا الهاشمي للكتيبة الاولى من المناضلين الذين أنهوا تدريبهم في معكسر قطنا قرب دمشق وتوجهوا الى فلسطين (وهو من جملتهم) في ربيع ١٩٤٨.
تخريجها: النكبة ج٣. ول و س وعدد أبياتها ٢٠ بيتاً.

(١) في ل: فخف لفرط غبطته فؤادي
(٢) في ل وسابقت الرياح.

الحنين الى الوطن

١ - تلك أوطاني وهذا رسمها … في سويداء فؤادي(١) محتفر
٢ - تتراءى(٢) لي على بهجتها … حيثما قلبت في الكون النظر
٣ - في ضياء الشمس في نور القمر … في النسيم العذب في ثغر الزهر
٤ - في خرير الجدول الصافي وفي … صخب النهر وأمواج البحر
٥ - في هتون الدمع من هول النوى … في لهيب الشوق في قلبي استعر
٦ - دقة الناقوس معنيٌ بها … واسمها ملء تسابيح السحر
٧ - فكرة قد خالطت كل الفكر … صورة قد مازجت كل الصور
٨ - هي في دنياي سر مثلما … قد غدا اسم الله سرا في السور

***

٩ - يابلادي يامنى قلبي ان … تسلمي لي أنت فالدنيا هدر
١٠ - لأرى الجنة أن أدخلتها … وهي خلو منك إلا كسقر
١١ - منيتي في غربتي قبل الردى … أن أملي من مجاليك النظر(٣)
١٢ - ظمئت نفسي لمغناك فهل … يطفىء الحرقة بالعود القدر
١٤ - فيصلي القلب في كعبته … وتضم الروح قدسي الحجر
١٤ - وتمرين بيمناك على … جسد أضناه في البعد السهر
١٥ - ويغني الطير في أشجاره … نغماً يرقص أعطاف الشجر
١٦ - خبر تنقله ريح الصبا … ويذيع الزهر أنغام الخبر
١٧ - ويلاقي كل الف الفه … ويلمان الشتيت المنتشر

***

١٨ - يابلادي أرشفيني قطرة … كل ماء غير ما فيك كدر
١٩ - ليت من ذاك الثرى لي حفنة … أتملى من شذا الترب العطر

نظمها وهو في (البصرة) في العراق بعيداً عن وطنه فلسطين وذلك في عام ١٩٤٠
تخريجها: س و ل. ويخلو ل من البيتين ٧ و ٨. عدد أبياتها ١٩ بيتاً.

(١) في ل: قلبي.
(٢) في ل: يتراءى.
(٣) في ل: البصر.

عاطف عبد العزيز نور الله

معزز نور الله



عاطف عبد العزيز نور الله (١٩١١ - ١٩٨٠) من رجالات سوريا الذين خدموا قضايا العرب العامة في التوعية والتحرر والوحدة وقضية فلسطين بصورة خاصة. كان والده وعمه من أبناء جبلة العاملين في فلسطين في طليعة من استقبل واستضاف ابن بلدهما وصديق عائلتهما المجاهد الشيخ عز الدين القسام عند قدومه الى حيفا عام ١٩٢١ بعد فشل الثورة ضد الفرنسيين في الجبال السورية. تتلمذ عاطف فتى في مدرسة الجهاد وخرج ثائراً في أكثر من ميدان مستفيداً من روح العصر ونابذاً للزعامات التقليدية والانتماءات الضيقة فتعرض لملاحقة السلطات البريطانية التي اعتبرته (كما جاء في تقارير وزارة الخارجية المحفوظة في مكتب الوثائق العامة بلندن) أحد أخطر المناضلين ضد «الانتداب» على الصعيدين الجهادي التعبوي والتوجيهي الثقافي والصحفي. أثار حماسه اعجاب القسام الذي بارك جهوده اليافعة (والعصرية) في سبيل الاستفادة من الحركة الكشفية وتنظيمات الشباب والطلائع وتسييرها لخدمة القضية الوطنية والتعبئة والتنظيم. أسس عام ١٩٣٠ «فرقة كشافة الصحراء العربي» تضامناً مع مؤتمر طلاب العرب الثاني الذي كان قد عقد في عكا. وذكرت جريدة «الجامعة العربية» في عددها ٤٣١ بتاريخ ٢٦ ايلول سنة ١٩٣٠ أن «أولى غايات هذه الفرقة العربية هي مقاومة كشافة بادن باول الاستعمارية التي تزرع في نفوس المنتمين اليها روح الطاعة والاستخذاء للاستعمار».

كما أوردت صحيفة «الحياة» في عددها ١٣٥ بتاريخ ٢٢ ايلول ١٩٣٠ خبر مداهمة دائرة الأمن بحيفا لبيت عاطف يوم ٣٠/٩/١٨ رداً على «حركته المباركة»؛ وفي العام الذي يليه أنشأ بالتعاون مع الشاعر المطلق عبد الخالق مجلة «كشاف الصحراء» باللغتين العربية والانكليزية والتي أسهم فيها الامير شكيب ارسلان واستقبلتها صحيفة «النفير» في عددها بتاريخ ٣١ آذار بالثناء على «همة الاديبين صاحبي المجلة» والحض على «مناصرتها ومعاونتها أدبياً ومادياً في مجهودهما الشاق الذي يرجى منه النفع الجزيل لشبان الوطن من ناحية غرس الروح العلمية والتضامن والإقدام في نفوسهم ونشر الموضوعات المقوية للروح القومية». وعلى الرغم من قصر عمر تلك المجلة التي احتفت بها الصحافة العربية ووصفتها جريدة «مرآة الشرق» (عدد ٧٩٤ بتاريخ ١٨ نيسان ١٩٣١) بأنها «بحجم كبير وورق صقيل محلاة بالصور المختلفة مما لا عهد لفلسطين بمجلات مثلها»، فقد لعبت دوراً في استقطاب المواهب الأدبية وإيصال الصوت العربي إلى أقطار أوروبا والأمريكيتين والهند عبر قرائها من كشافي العالم الذي كان نور الله قد التقى بهم في المؤتمر الكشفي العالمي الذي عقد في ضاحية «بركنهد» بليفربول عام ١٩٢٩ ورفع فيه عاطف بمبادرة شخصية العلم العربي الموحد بألوانه البيضاء والسوداء والخضراء والحمراء وجند جهوده وجهود من تعرف إليهم وراسلهم في نشر البيانات الشارحة للموقف العربي ضد الاستعماريين البريطاني والفرنسي والخطر الصهيوني الداهم.

في بداية كانون الثاني عام ١٩٣٢ شارك في تنظيم «مؤتمر الشباب العربي» المنعقد في يافا وانتخب عضواً في اللجنة التنفيذية التي أوصت في «ميثاق المؤتمر القومي» على: أولاً، أن البلاد العربية وحدة تامة الأجزاء وكل ماطرأ عليها من أنواع التجزئة فإن الأمة العربية لاتقره ولاتعترف به. ثانياً، توحيد الجهود في كل قطر من الاقطار العربية إلى وجهة واحدة هي استقلالها التام كاملة موحدة ومقاومة لكل فكرة ترمي إلى الإقتصار على العمل للسياسة المحلية الإقليمية. ثالثاً، لما كان الاستعمار في جميع أشكاله وضعية تتنافى كل التنافي مع كرامة الأمة العربية وغايتها العظمى فإن الأمة العربية ترفضه وتقاومه بكل قواها. رابعاً «أراضي فلسطين برمتها أراض عربية مقدسة وكل من سعى أو سمح أو ساعد ببيع كل أو جزء من هذه الأراضي لليهود يعد مقترفاً جناية عظمى». كما استنكر المؤتمر «أي اتفاق مع الصهيونيين سياسياً واجتماعياً واقتصادياً سواء عن طريق النقابات أو غيرها» ودعى إلى: «آ- تشجيع وترويج المنتوجات والمصنوعات والشركات والمؤسسات العربية، ب - معاضدة صندوق الأمة والعمل على تعميم تنفيذه. جـ - بث روح التعاون بين الفلاحين والعمل على ترقيتهم اقتصادياً واجتماعياً. د - تنظيم صفوف العامل العربي والاهتمام بشؤونه. هـ - السعي في خدمة فلسطين وترقيتها سياسياً واقتصادياً واجتماعياً وعلمياً وأدبياً طبقاً للأماني القومية» (راجع صحيفتي «الكرمل» ٦ كانون الثاني ١٩٣٢ و «الجامعة العربية» ٧ كانون الثاني ١٩٣٢).

وقد تابع عاطف في أوائل الثلاثينات تأسيس الجمعيات الوطنية بالتنسيق الحثيث مع القساميين فأنشأ «عصبة المجاهدين» و «عصبة المؤمنين» و «عصبة فتيان الجزيرة» بغرض «تهيئة جماعات طاهرة تسعى لانهاض الشعب العربي وإنالته الحرية والاستقلال» وتتبع الوسائل التالية: «١ - محاربة عوامل الوهن والفساد - ٢ - تشجيع المنتوجات العربية وإقامة المصانع - ٣ - معاضدة العمال والفلاحين - ٤ - الحيلولة دون تسرب الأراضي العربية إلى الأجانب - ٥ - مكافحة الجهل والأمية - ٦ - اعداد الفتيات العربيات ٧

- مؤازرة المدارس العربية والفرق الرياضية والكشفية والفنية». وقد أصدرت تلك الجمعيات التي كانت تطبع بياناتها في مطبعة خاصة أقامها نور الله في حيفا منشورات باللون الأحمر وزعت عشرات الآلاف من النسخ في مختلف أنحاء فلسطين تحت عناوين مثل «اسمعوا ياعرب» و «علام ياعرب». وقد استمر ذلك النهج وتصاعد بعد استشهاد القسام وصحبه في جبال قرية يعبد عام ١٩٣٥ فأنشأ عاطف جمعية «فتيان محمد» التي وزعت خلال أحداث ١٩٣٥ - ١٩٣٦ البيانات في طول البلاد وعرضها تدعو إلى الاضرابات وتحث على التنظيم القومي والكفاح على مدى الساحة العربية وتلاحق «الجواسيس» والخونة والسماسرة وباعة الأراضي والمستعمرين وأذناب المستعمرين» متخذة من دعوة «نصر أو استشهاد» شعاراً لها وكاشفة دور هربرت صموئل «المندوب السامي» في تشجيع الهجرة الصهيونية.

تعرض نور الله للملاحقة والنفي والسجن ونظم مع رفاقه من القساميين المعتقلين اضرابات عن الطعام كان أشهرها اضراب عام ١٩٣٧ في معتقل المزرعة بعكا. لكنه تابع التنسيق مع حركات الكفاح المسلح وعمل أمين سره القائد خليل عيسى (أبو ابراهيم الكبير) خليفة القسام وقائد الثورة الفلسطينية العام ورئيس الحكومة الفلسطينية في جبال شمال فلسطين أعوام ٣٧ - ١٩٣٩. من الذين عمل معهم في تلك الفترة وماتبعها الشهيد عبد الله الاصبح والحاج أمين الحسيني وابراهيم الحاج علي (أبو اسعاف) والحاج حسين حمادة وأبي أحمد القسام (محمود سالم) وسليمان عبد القادر أبو حمام وأبو علي الشيخ سليمان وأبو محمود الصفوري وأحمد سليمان السعدي وصادق محمد ويوسف السرساوي وأحمد التوبة ومحمد صالح وسعيد أبو رقبة وعبد الرحمن أبو ريشة وأكرم زعيتر وفوزي النشاشيبي واميل الغوري ويعقوب الغصين ونمر المصري وراسم الخالدي وادمون روك وصفوت الحسيني وسليم عبد الرحمن ومنير الهبل وعبد السلام الخياط وتوفيق ايراني وعبد الرؤوف عبوشي وصادق الجراح وفخري أبو غزالة وشاكر سمارة ونهدي رمضان وفوزي رشيد والشهداء عبه الله الاسعد والشيخ عبد الفتاح (أبو خالد) وعبد الرحيم درويش وطه محمد ورشيد الاسعد وصبري زيدان ونوح ابراهيم وفخري البرد. كما تابع التنسيق (وهو خريج كلية الصحافة في القاهرة) مع عمداء الصحافة في القطر الفلسطيني وخارجه أمثال نجيب نصار صاحب جريدة «الكرمل» وسهيل ايليا زكا صاحب جريدة «النفير» وهاشم آل صاري ومحمد كافي وعفيف الطيبي صاحب جريدة «اليوم» في بيروت ومصباح قليلات صاحب جريدة «الجامعة العربية» في بيروت وخيري الكعكي صاحب جريدة «الشرق» وكذلك الشعراء وكتاب المسرحيات الاجتماعية الوطنية أمثال مطلق عبد الخالق ومحمد عزة دروزي ونوح ابراهيم وحسن البحيري ومصباح العابودي (بدو الصحراء) ووديع البستاني ويوسف حسون ومحمد كافي ومحمد سليم رشدان ومن المهتمين بالمسرح أمثال شفيق الأنصاري وفتحي الأفيوني وحسين قلعاوي وصبحي جربوع وأنيس عبيد وزكي عكاشة وكذلك الجمعيات النسائية مثل جمعية «تهذيب الفتاة» و «المجمع الاعلى النسائي للوحدة العربية والاتحاد الشرقي العام» الذي كانت ترأسه الاميرة نور حمادة والنوادي الأدبية والرياضية والاجتماعية «كجمعية الرابطة الأدبية» و «نادي النهضة الأدبية» و «النادي الرياضي الإسلامي» و «النادي الرياضي العربي» و «النادي الرياضي الارثوذكسي» و «نادي الشباب العرب» و «نادي عمال العرب».

ركز على الدعوة إلى الوحدة الوطنية وأقام عروضاً ومسيرات ومهرجانات مشتركة مع الجمعيات والفرق الكشفية المسيحية كفرقة «النادي الارثوذكسي» (بقيادة يوسف عبود والياس ملك وسهيل وسامي حلبي) و «الفرقة الكاثوليكية» (بقيادة ميشيل منسي والياس دانيال واشراف المطران - فيما بعد البطريرك مكسيموس - حكيم) وكشافة «النهضة العربية» و «نادي تمثيل النهضة الأدبية» كان أبرزها حفلة التأبين التي أقيمت على مسرح «زهرة الشرق» في حيفا في ٩ كانون الأول عام ١٩٣٣ احياء لذكرى شهداء فلسطين والاستعراض العام في القدس بمناسبة افتتاح المعرض العربي القومي الثاني الذي شاركت فيه وفود من أقطار عربية، وكذلك مهرجان الهلال والصليب الذي أقيم على ملعب «النادي الرياضي الإسلامي» في حيفا في تموز ١٩٤٦.

كان عضواً في اللجنة المؤسسة لمشروع المياه العربية مع كل من الحاج حسين حمادة وحسن مناديلا ومطلق عبد الخالق وصالح أبي حشمة وصالح الحاج حسين، كما انتخب عضواً في الهيئة الإدارية «لجمعية شبان العرب» وشارك في تأسيس عصبة «طلائع الوحدة العربية» عام ١٩٤٦.

أقام وشارك في الاشراف على مخيمات تدريبية كتلك التي أقيمت في الرملة عام ١٩٤٦ وفي وهاد قرية الرينة جوار الناصرة عام ١٩٤٧.

ورد اسمه ضمن عدد من المواطنين المثقفين الذين اعتبرتهم السلطات البريطانية من «الخطرين» على سياستها وعلى ماتسميه الأمن العام في الأيام العصيبة» كما جاء في صحيفة «فلسطين» عدد ١ شباط ١٩٤٦ ومن بينهم صلييا عريضة، سعيد الخليل، نمر المصري، اكرم زعيتر، عجاج نويهض، عاطف نور الله، صبحي الخضرا، أحمد الشقيري، فريد فخر الدين، يونس نفاع.

دأب على التنسيق مع المجاهدين والكشافين العرب السوريين واللبنانيين أمثال سعيد العاص وشكيب ارسلان ومحمد الأشمر وأسعد الكنج وفوزي القاوقجي واحسان الجابري وعبد القادر شريتح ومعروف سعد ومصطفى اليافي ومنير بكداش وعبد الرحمن علوان (زعيم حي البسطة في بيروت الذي استضاف نور الله بعد ملاحقته في فلسطين ولجوئه سياسياً إلى لبنان عام ١٩٣٨) والدكتور مأمون مهايني والدكتور مدحت بيطار ومحمد السباعي وعلى الدندشي وأنور تللو ومسلم العقاد وبكري قدورة ونصوح الدقاق وعطى مكي وبهاء الدين الطباع ورشيد شقير وعلي البزي وعلى خليفة الزائدي وغالب وعبد الكريم عسيران. وقد استقبل نور الله الوفد الكشفي السوري عند قدومه الى حيفا في نيسان ١٩٣٤ (راجع جريدة «الجامعة العربية» عدد ١٩ نيسان ١٩٣٤) كما كان مديراً لمعسكر تدريب القادة الذي أقيم في جديدة الوادي قرب دمشق في تموز ١٩٦٦ وأحد قادة المعسكر الكشفي في العراد بجوار الهامة من ضواحي دمشق عام ١٩٦٨ وشارك في المؤتمر الكشفي العربي التاسع في الزبداني بسوريا عام ١٩٧٠.

عمل بعد النكبة على مساعدة آلاف النازحين عبر «اللجنة العامة للاجئين الفلسطينيين في لبنان» و «مكتب فلسطين الدائم» وترأس البعثة العربية الفلسطينية إلى المؤتمر الكشفي العربي الرابع في أبي قير قرب الاسكندرية صيف عام ١٩٥٦ كما أسهم (بالتنسيق مع المجاهد محمد الاشمر زعيم حي الميدان في دمشق) في دعم الثورة الجزائرية خلال الخمسينات وأوائل الستينات وشارك في أعمال اللجنة التحضيرية لمؤتمر رعاية

الشباب الذي عقد في القدس عام ١٩٦٥ وكلف في نفس العام من قبل منظمة التحرير الفلسطينية بإعادة بناء الكشاف العربي الفلسطيني في لبنان وعمل مراقباً للمؤتمر الكشفي العربي العاشر في الموصل عام ١٩٧٢.

وفي لبنان اشترك عاطف مع زوجته ورفيقة دربه (اسعاف صوفان) المتحدرة كذلك من أسرة سورية في مدينة اللاذقية وإحدى الرائدات في الحقلين التربوي والاجتماعي والمساهمات الطليعيات في قيادة الجانب النسائي في معركة استقلال لبنان في تأليف ثنائي فريد في طبيعته الانسانية ووعيه الوطني والقومي، بادر على الفور، وعلى امتداد ثلاث ساحات عربية (سورية ولبنان وفلسطين) إلى الانطلاق في مد يد العون إلى طلائع أبناء النكبة وإغاثتهم وذلك بتسخير امكاناتهما واتصالاتهما الكثيرة، وبتكليف رسمي بعد ذلك من حكومة لبنان، في لم شمل العائلات المنكوبة ودفع عجلة الحياة اليومية والمعاشية في أماكن تجمعاتها مخافة الوقوع في هاوية القنوط والاستسلام القاتلين.

كتب نور الله مئات المقالات والبيانات في الصحف والمجلات الفلسطينية والعربية مثل «الكرمل» و«النفير» و«الجامعة الاسلامية» و«الشرق» و«اليوم» و«الجامعة العربية» و«الرياضة والشباب» وعدد من الصحف الانكليزية بغرض الدعاية للقضية العربية، كما أعد سلسلة من الدراسات للنشر تتناول تاريخ كفاح الشعب العربي الفلسطيني وارتباطه بالنضال العربي العام وفصولاً منسية عن الحركات الثورية والكشفية والفنية والنسائية وجنودها المجهولين مزودة بالوثائق والمستندات والصور النادرة.

يعتبر عاطف نور الله ملمحاً من ملامح الاسهام العربي السوري المتقدم في النضال السياسي القومي والكفاحي من أجل القضايا العربية على وجه العموم والقضية العربية الفلسطينية على وجه الخصوص. وقد تمحورت بدايات مجابهته للاستعمارين البريطاني والصهيوني في سعيه المبكر ومحاولاته المتكررة لخلق حركات وحدوية ثورية واعية لابعاد الهجمة الاستعمارية على فلسطين وطبيعتها المتميزة بشقيها القومي الحضاري والاجتماعي، وطبيعة التصدي لتلك الهجمة بمفهوم مرحلة تلك البدايات وأدواتها، اجتماعياً وسياسياً وأخلاقياً، وغالباً مانجح في تشكيل تلك الطموحات بعيداً عن تجاذب الزعامات التقليدية لمقاليد الشأن السياسي في تلك الآونة وكانت البيانات التي أصدرها تؤكد جميعها وعلى مدى سنوات عدة على ضرورة أن يتصدى المستهدفون من المخطط الاستعماري أنفسهم إلى تنظيم أنفسهم وفرز قيادتهم المستقلة والمنبثقة من جماهير الشعب متجاوزة الانتماءات الضيقة. ويعتبر نور الله كما القسام في مضماره الخاص معلماً متميزاً في مسيرة كفاحه القومي ووعيه لوحدة وتلاحم المصير العربي وحتيمة التصدي المشترك لدرء الأخطار التي تهدده.

التقرير الاول

تأسيس لجنة للدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية

تاسست في العاصمة الفلسطينية القدس لجنة للدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية، واصدرت هذه اللجنة بيانها التاسيسي في العاشر من شهر تموز ١٩٨٩.

وسرعان ما اصدر عدد من المثقفين الفلسطينيين خارج الارض المحتلة بياناً مؤيداً للجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية وأعلنوا التزامهم بمحتوى ذلك البيان التاسيسي معتبرين انفسهم جزءاً من هذا العمل الضروري. وفي التالي نص البيانين:

البيان التأسيسي للجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية

ان الصهيونية، بمختلف تعبيراتها وتلاوينها، ايديولوجياً وحركة رجعية شوفينية، حملت تشوهات الامبريالية، التي ولدت الحركة الصهيونية في أحضانها.

وتتميز الصهيونية عن غيرها من الايديولوجيات الرجعية الامبريالية، بأنها تسعى الى استيطان جزء من الارض العربية، وطرد السكان الاصليين منه، واحلال مستعمرين محلهم.

واذا كان هذا هو جوهر الصهيونية، وجوهر الكيان العنصري في فلسطين المحتلة، فان الخيارات لمواجهة هذا العدو القومي والطبقي ليست كثيرة، بل انها ترتد الى خيار واحد، خيار المواجهة بكل أشكالها.

وما انتفاضة شعبنا الراهنة الا للتكثيف النظري والعملي لصورة المواجهة الضرورية. وعلى الرغم من أن التفكير في اقامة لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية يعود الى زهاء أربع سنوات، الا أنها لم تر النور الا بايحاء من انتفاضة شعبنا المجيدة.

فكانت اللجنة احدى ثمار الانتفاضة...

■■■

لقد وضع قادة الصهيونية الجبهة الثقافية على رأس اهتماماتهم. كما أن وجود الكيان الصهيوني، واستمرار بقائه، لا يهدد وجود ثقافتنا الوطنية الفلسطينية فحسب، بل أيضاً، الثقافة القومية في الوطن العربي كله.

وقد استعان عدونا بتبعثرنا الوطني، وباحترابنا

الشباب الذي عقد في القدس عام ١٩٦٥ وكلف في نفس العام من قبل منظمة التحرير الفلسطينية بإعادة بناء الكشاف العربي الفلسطيني في لبنان وعمل مراقباً للمؤتمر الكشفي العربي العاشر في الموصل عام ١٩٧٢.

وفي لبنان اشترك عاطف مع زوجته ورفيقة دربه (اسعاف صوفان) المتحدرة كذلك من أسرة سورية في مدينة اللاذقية وإحدى الرائدات في الحقلين التربوي والاجتماعي والمساهمات الطليعيات في قيادة الجانب النسائي في معركة استقلال لبنان في تأليف ثنائي فريد في طبيعته الانسانية ووعيه الوطني والقومي، بادر على الفور، وعلى امتداد ثلاث ساحات عربية (سورية ولبنان وفلسطين) إلى الانطلاق في مد يد العون إلى طلائع أبناء النكبة وإغاثتهم وذلك بتسخير امكاناتها واتصالاتها الكثيرة، وبتكليف رسمي بعد ذلك من حكومة لبنان، في لم شمل العائلات المنكوبة ودفع عجلة الحياة اليومية والمعاشية في أماكن تجمعاتها مخافة الوقوع في هاوية القنوط والاستسلام القاتلين.

كتب نور الله مئات المقالات والبيانات في الصحف والمجلات الفلسطينية والعربية مثل «الكرمل» و«النفير» و«الجامعة الاسلامية» و«الشرق» و«اليوم» و«الجامعة العربية» و«الرياضة والشباب» وعدد من الصحف الانكليزية بغرض الدعاية للقضية العربية، كما أعد سلسلة من الدراسات للنشر تتناول تاريخ كفاح الشعب العربي الفلسطيني وارتباطه بالنضال العربي العام وفصولاً منسية عن الحركات الثورية والكشفية والفنية والنسائية وجنودها المجهولين مزودة بالوثائق والمستندات والصور النادرة.

يعتبر عاطف نور الله ملمحاً من ملامح الاسهام العربي السوري المتقدم في النضال السياسي القومي والكفاحي من أجل القضايا العربية على وجه العموم والقضية العربية الفلسطينية على وجه الخصوص. وقد تمحورت بدايات مجابهته للاستعماريين البريطاني والصهيوني في سعيه المبكر ومحاولاته المتكررة لخلق حركات وحدوية ثورية واعية لابعاد الهجمة الاستعمارية على فلسطين وطبيعتها المتميزة بشقيها القومي الحضاري والاجتماعي، وطبيعة التصدي لتلك الهجمة بمفهوم مرحلة تلك البدايات وأدواتها، اجتماعياً وسياسياً وأخلاقياً، وغالباً مانجح في تشكيل تلك الطموحات بعيداً عن تجاذب الزعامات التقليدية لمقاليد الشأن السياسي في تلك الآونة وكانت البيانات التي أصدرها تؤكد جميعها وعلى مدى سنوات عدة على ضرورة أن يتصدى المستهدفون من المخطط الاستعماري أنفسهم إلى تنظيم أنفسهم وفرز قيادتهم المستقلة والمنبثقة من جماهير الشعب متجاوزة الانتماءات الضيقة. ويعتبر نور الله كما القسام في مضماره الخاص معلماً متميزاً في مسيرة كفاحه القومي ووعيه لوحدة وتلاحم المصير العربي وحتيمة التصدي المشترك لدرء الأخطار التي تهدده.

التقرير الاول

تأسيس لجنة للدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية

تأسست في العاصمة الفلسطينية القدس لجنة للدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية، واصدرت هذه اللجنة بيانها التأسيسي في العاشر من شهر تموز ١٩٨٩.

وسرعان ما اصدر عدد من المثقفين الفلسطينيين خارج الارض المحتلة بياناً مؤيداً للجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية واعلنوا التزامهم بمحتوى ذلك البيان التاسيسي معتبرين انفسهم جزءاً من هذا العمل الضروري. وفي التالي نص البيانين:

البيان التأسيسي للجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية

ان الصهيونية، بمختلف تعبيراتها وتلاوينها، ايديولوجياً وحركة رجعية شوفينية، حملت تشوهات الامبريالية، التي ولدت الحركة الصهيونية في أحضانها.

وتتميز الصهيونية عن غيرها من الايديولوجيات الرجعية الامبريالية، بأنها تسعى الى استيطان جزء من الارض العربية، وطرد السكان الاصليين منه، واحلال مستعمرين محلهم.

واذا كان هذا هو جوهر الصهيونية، وجوهر الكيان العنصري في فلسطين المحتلة، فان الخيارات لمواجهة هذا العدو القومي والطبقي ليست كثيرة، بل انها ترتد الى خيار واحد، خيار المواجهة بكل أشكالها.

وما انتفاضة شعبنا الراهنة الا للتكثيف النظري والعملي لصورة المواجهة الضرورية.

وعلى الرغم من أن التفكير في اقامة لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية يعود الى زهاء أربع سنوات، الا أنها لم تر النور الا بايحاء من انتفاضة شعبنا المجيدة.

فكانت اللجنة احدى ثمار الانتفاضة...

■■■

لقد وضع قادة الصهيونية الجبهة الثقافية على رأس اهتماماتهم. كما أن وجود الكيان الصهيوني، واستمرار بقائه، لا يهدد وجود ثقافتنا الوطنية الفلسطينية فحسب، بل أيضاً، الثقافة القومية في الوطن العربي كله.

وقد استعان عدونا بتبعثرنا الوطني، وباحترابنا

الطائفي والمذهبي، وبتخلفنا، ناهيك عن ارتباط الطبقات التابعة في الوطن العربي بمخططاته.

ولم تسلم ثقافتنا العربية من مؤامرات الاعداء. فالخيانة الوطنية أضحت اعتدالاً؛ والوطنية تطرفاً، والكفاح المسلح ارهاباً؛ والتبعية للامبريالية تحضراً؛ والصمود والجسارة رومانسية، وانتحاراً، واستفزازاً للاعداء، ليس له ما يبرره.

ولما كانت الصهيونية تسعى، بكل ما تمتلك من وسائل التزييف، لطمس هوية شعبنا الفلسطيني القومية العربية، وتزييف ثقافته الوطنية العربية، التي تشكل جزءاً لا يتجزأ من هويته الوطنية، فإن الثقافة الوطنية الفلسطينية، التي تكونت باعتبارها جزءاً من الثقافة العربية، والتي تمخضت، في صيرورة ثورتنا الراهنة، عن ثقافة وطنية عربية تقدمية انسانية، تواجه، ولاشك، الطابع العنصري الديني، اللاعقلاني، الامبريالي للايديولوجيا الصهيونية.

فالمواجهة الثقافية، إذن، تشكل جزءاً لا يتجزأ من نضالنا العام والشامل، في سبيل تحرير وطننا.

ان اهمال دور الثقافة في ثورتنا الوطنية، يعتبر نقطة مطعن، واهمالاً لجانب مهم من جوانب المواجهة الشاملة، ولهذا، تبرز أمامنا مهمة تحويل الثقافة الوطنية الفلسطينية، الى عنصر فاعل وأساسي من عناصر الوحدة الوطنية، ومن عناصر المواجهة، في آن معاً. فالدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية في اطارها العربي هو في نهاية الامر دفاع عن الهوية الوطنية الفلسطينية، وتعرية لجوهر الزيف الايديولوجي الصهيوني.

ومن هنا، تكتسب عملية تأسيس لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية شرعيتها، وضرورتها، في وقت بات فيه التكيف مع الحركة الصهيونية ومقولاتها شكلاً من أشكال العقلانية الكاذبة.

■■■

ان قضية فلسطين قضية عربية، قبل كل شيء. وتحريرها هو بالضرورة مهمة عربية تقدمية. والثورة الفلسطينية - وان كانت تشكل طليعة النضال الوطني لتحرير فلسطين - فانها جزء لا يتجزأ من حركة النضال العربي الوطني في مواجهة الامبريالية والصهيونية.

والنضال الوطني الفلسطيني تقدمي في طليعته، وتوجهاته، وتحالفاته، وديمقراطي في أساليبه، وبناه، وعلاقاته الداخلية والجماهيرية.

■■■

واعترافاً منا بأهمية تعدد وتباين المنطلقات الوطنية، في اثراء ممارساتنا الفكرية والعملية، ولقطع الطريق على التشرذم الوطني، فاننا ندعو كل التيارات الفكرية الوطنية الى تكوين جبهة ثقافية وطنية ديمقراطية موحدة، لاقتحام ميدان النضال، بقوة، مشهرين راية الثقافة الوطنية الكفاحية الديمقراطية.

اننا نؤمن بأن شعبنا العربي الفلسطيني يختزن طاقات ثورية ومعنوية هائلة، وأن وسائل دحر العدو الامبريالي الصهيوني متاحة لجماهير أمتنا العربية، وبضمنها شعبنا الفلسطيني، وهي في متناول كل قيادة وطنية، مبدعة، جسورة، تتمكن من نظرية الثورة، وتتمتع بحس تاريخي عميق، وبروح ديمقراطية حقة، وتتسلح ببرنامج سياسي سليم، وتصوغ تكتيكات صائبة، وتوفر

بنى تنظيمية كفاحية صلبة، وتنسج تحالفات صحيحة. ومطلوب من مثقفينا أن يجهدوا من أجل تحريك هذه الطاقات، وتعزيز المواقع الثقافية الوطنية الفلسطينية في وجه الهجمة الصهيونية الامبريالية.

ولجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية الفلسطينية تجمع فكري وطني ديمقراطي، يأخذ على عاتقه مهمة الذود عن الثقافة الوطنية الفلسطينية في وجه الهجمات الصهيونية الامبريالية والرجعية. وتعمل اللجنة على رد الاعتبار للقيم النضالية وتخلصيها من شوائب الحقبة النفطية، وآثار البترودولار، التي تسللت عبر ثغرة غياب التربية السياسية السليمة، وتدني اليقظة الثورية، وضعف التسلح بفكر الثورة.

تعمل هذه اللجنة من أجل حشد الطاقات الفكرية الوطنية الديمقراطية الفلسطينية والعربية، لحمل هذه المهام النضالية الصعبة.

ولجنتنا مستقلة عن الانظمة والمنظمات، لكنها ملتزمة بقضية الشعب والوطن. وهي مشروع فكري نضالي، همه الاول الثقافة الوطنية، في ارتباط حميم بقضايا الجماهير الشعبية. فالوعي الحقيقي لا ينبت في مخابر مثقفي الابراج العاجية، بل على أرض الواقع الخصبة.

وتفرض المرحلة الراهنة على المثقفين الوطنيين الفلسطينيين ضرورة امعان النظر في المهام العاجلة الملقاة على عاتقهم، مع اختيار الوسائل الكفيلة بانجاز هذه المهام، ويأتي في مقدمة هذه المهام:

١ - التمسك بتحرير فلسطين هدفاً وطنياً استراتيجياً. والتصدي لكل محاولات الاتصال أو الاعتراف بالكيان الصهيوني.

٢ - رعاية الثقافة الوطنية، والعمل على تعميمها، والالحاح على ضرورة توظيف كفاءاتنا العملية في حركتنا الوطنية، وحماية هذه الكفاءات من آفة الهجرة.

٣ - الدفاع عن ضرورة الديمقراطية في جميع المجالات، ووقف عمليات نفي الاخر، والانفتاح الى أفق الحوار، اذ تنتفي قيمة الثقافة بدون ديمقراطية.

٤ - الوقوف ضد شتى أشكال التبعية، وقمع الفكر، وفكر القمع، وضد الرجعية.

٥ - الحث على الاخذ بالتفكير العلمي، والدفاع عن حرية البحث العلمي.

٦ - الاهتمام بتراثنا العربي، بشكل لا يكتفي بالتغني بالامجاد التليدة، ولا يعزل هذا التراث عن زمانه، ومكانه، وأساسه الاجتماعي، كما لا يجتزىء من التراث، أو يوظفه في مجال تبرير الانحراف السياسي، مع الانفتاح على كل ما هو خير وأصيل في التراث الثقافي العالمي. واثراء حركتنا الوطنية بتجارب وخبرات الكفاح الوطني والقومي والانساني.

٧ - كشف المحاولات الصهيونية والامبريالية والرجعية الرامية الى تشويه ثقافتنا الوطنية أو السطو عليها أو محوها، والتصدي لهذه المحاولات ومجابهة جميع محاولات التطبيع مع أعدائنا، بما فيها التطبيع الثقافي. مع التصدي للمنطلقات الفكرية المعادية لثقافتنا الوطنية، وللاقلام التي تروج لها.

٨ - التفاعل الحميم مع المثقفين الوطنيين

الديمقراطيين العرب ومؤسساتهم.

■■■

فلنتكاتف دفاعاً عن ثقافتنا الوطنية، ولنسخر كل جهودنا وانجازاتنا الثقافية لخدمة قضيتنا الوطنية، وليعزز مثقفونا تمسكهم بترابنا الوطني، وليحملوا من جديد، قضايا وطنهم وشعبهم، ولينزلوا الى خنادق المعركة الثقافية الضارية ضد عدو أمتنا، وليكشفوا زيف الثقافة الاستهلاكية، والمنتفعين بالثقافة، الذين دأبوا على تسخيرها لاغراض ذاتية ضيقة، حيناً، ولتزيين خط سياسي منحرف، أحياناً.

فلنشهر سلاح الثقافة الوطنية في معركتنا الصعبة الطويلة. ولنخضها بجسارة، وجلد، دون أن نحصر أنفسنا في الاقليمية المقيتة، بل نرنو بأبصارنا الى وطننا العربي الكبير، والى الانسانية جمعاء.

ولنقاتل من أجل ثقافة في سبيل الشعب والوطن، وصولاً الى التحرير وفلسطين مستقلة ديمقراطية، ضمن مجتمع عربي تقدمي.

القدس في ١٩٨٩/٧/١٠

لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية

صدر يوم ١٩٨٩/٧/١٠ بيان في فلسطين المحتلة عن لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية.

ويعلن الموقعون على هذا البيان ترحيبهم بالبيان الذي صدر في الارض المحتلة ادراكاً منهم للمخاطر التي تحيط بالوطن والقضية والثقافة الوطنية، واعراباً عن استعدادهم للعمل في سبيل الدفاع عن هذه الثقافة وتعميم الوعي بها وتعميقه.

ويرى الموقعون على هذا البيان أن الظروف تتطلب وجود عمل نوعي، يعنى بشؤون الثقافة والدفاع عنها، ويسهم في تكريس دورها الوطني وتطويره.

ويعلن الموقعون أدناه التزامهم بمحتوى البيان التأسيسي الذي أعلنته لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية، ويحيون هؤلاء الذين بادروا الى اعلان قيام اللجنة.

ويعتبر الموقعون أنفسهم جزءاً من هذا العمل الضروري ويتعهدون بالعمل لتكوين الاطر اللازمة لتحقيق أهداف البيان الذي أعلن في الارض المحتلة، ويدعون كل المعنيين بالثقافة الفلسطينية الى المشاركة في هذا العمل الجليل.

ان كل المثقفين الوطنيين مدعوون الى مواكبة الانتفاضة الباسلة، في الدفاع عن الثقافة الوطنية والشعب.

أحمد برقاوي، أنيس صايغ، باسم سرحان، بهجت أبو غربية، جابر سليمان، جيهان الحلو، حمزه برقاوي، خالد أبو خالد، خالد عايد، خيرية قاسمية، سعيد عريقات، سلامة كيله، صبحي غوشه، صبري حلاوة، صخر أبو فخر، صخر درويش، عبد الرحمن كيالي، عبد الجواد صالح، عبد القادر ياسين، عبد العزيز السيد، علي الخطيب، عماد ملحس، عمر سعادة، غالب هلسا، فايز قنديل، فضل شرورو، فيصل دراج، كمال الخالدي، ليلى السايح، ناجي علوش، يوسف حداد، يوسف شرورو.

التقرير الثاني

رحيل المؤرخ مصطفى مراد الدباغ

فلسطين وسنوات الهجرة والعطاء

نشرت السفير في ٨٩/١١/٥ هذه المقالة عن الفقيد الراحل مصطفى مراد الدباغ والكاتب تعيد نشرها بنصها تقديراً للمؤرخ الفقيد»

فقد العالم العربي عامة، والشعب الفلسطيني خاصة، عالماً جليلاً ومؤرخاً كبيراً هو المرحوم مصطفى مراد الدباغ (أبو عمر)، الذي كرس حياته المديدة لخدمة الوطن الفلسطيني والعالم العربي في ميداني التربية والتأريخ..

ولد الفقيد الكبير في يافا سنة ١٨٩٧ وعايش الحكم العثماني والانتداب البريطاني، ونكب بالاحتلال الصهيوني فهاجر الى لبنان. وقد عرف طيلة حياته بالزهد والانصراف عن مباهج الحياة، منقطعاً الى البحث والتدقيق والمطالعة والتعرف الى مناطق فلسطين وقبائلها والمسنين فيها، يستجمع المعلومات والوثائق، ويراجع كتب التاريخ والجغرافيا، بكل صبر ودقة واجتهاد، لانجاز المهمة التي اخذها على عاتقه، وهي كتابة تاريخ (بلاد فلسطين)، تلك المهمة التي تحتاج الى جهد مؤسسة او مجموعة كبيرة من الباحثين المتخصصين، وليس الى مجرد جهد فرد واحد، سهر الليالي الطوال، وتحمل المشاق المختلفة، حتى نجح في مهمته، فأصدر موسوعته من احد عشر جزءاً، وبمعدل ٦٠٠ - ٨٠٠ صفحة لكل جزء، مع ملحق بالمراجع العربية والأجنبية الكثيرة، وفهرست ابجدي باعلام كل جزء.

اصدر الفقيد الجزء الاول من (بلادنا فلسطين). في يافا سنة ١٩٤٧، وقد توجه بما يلخص فكره الوطني بكل وضوح وتركيز حين كتب اهداءه: (الى الذين جاهدوا للابقاء على عروبة فلسطين، والى الذين يجاهدون لطرد العدو من بلادنا!).

وقد أعاد اصدار الجزء الاول وبقية الموسوعة الهامة في بيروت مابين ١٩٦٥ و١٩٧٦ وتتضمن كل جغرافية وتاريخ واقتصاد مختلف المناطق الفلسطينية، النابلسية واليافية والغزية والجليل والخليل وبيت المقدس، مغطياً بذلك فلسطين بكاملها، وزين غلاف موسوعته بقوله تعالى: (سبحان الذى اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله).

ثم اصدر الفقيد سلسلة (فلسطينيات) في ستة أجزاء بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٦ كما يلي:

- القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين.
- الموجز في تاريخ الدول العربية في بلادنا

الديمقراطيين العرب ومؤسساتهم.

■■■

فلنتكاتف دفاعاً عن ثقافتنا الوطنية، ولنسخر كل جهودنا وانجازاتنا الثقافية لخدمة قضيتنا الوطنية، وليعزز مثقفونا تمسكهم بترابنا الوطني، وليحملوا من جديد، قضايا وطنهم وشعبهم، ولينزلوا الى خنادق المعركة الثقافية الضارية ضد عدو أمتنا، وليكشفوا زيف الثقافة الاستهلاكية، والمتنفعين بالثقافة، الذين دأبوا على تسخيرها لاغراض ذاتية ضيقة، حيناً، ولتزيين خط سياسي منحرف، أحياناً.

فلنشهر سلاح الثقافة الوطنية في معركتنا الصعبة الطويلة. ولنخضها بجسارة، وجلد، دون أن نحصر أنفسنا في الاقليمية المقيتة، بل نرنو بأبصارنا الى وطننا العربي الكبير، والى الانسانية جمعاء.

ولنقاتل من أجل ثقافة في سبيل الشعب والوطن، وصولاً الى التحرير وفلسطين مستقلة ديمقراطية، ضمن مجتمع عربي تقدمي.

القدس في ١٠/٧/١٩٨٩

لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية

صدر يوم ١٠/٧/١٩٨٩ بيان في فلسطين المحتلة عن لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية.

ويعلن الموقعون على هذا البيان ترحيبهم بالبيان الذي صدر في الارض المحتلة ادراكاً منهم للمخاطر التي تحيط بالوطن والقضية والثقافة الوطنية، واعراباً عن استعدادهم للعمل في سبيل الدفاع عن هذه الثقافة وتعميم الوعي بها وتعميقه.

ويرى الموقعون على هذا البيان أن الظروف تتطلب وجود عمل نوعي، يعنى بشؤون الثقافة والدفاع عنها، ويسهم في تكريس دورها الوطني وتطويره.

ويعلن الموقعون أدناه التزامهم بمحتوى البيان التأسيسي الذي أعلنته لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية، ويحيون هؤلاء الذين بادروا الى اعلان قيام اللجنة.

ويعتبر الموقعون أنفسهم جزءاً من هذا العمل الضروري ويتعهدون بالعمل لتكوين الاطر اللازمة لتحقيق أهداف البيان الذي أعلن في الارض المحتلة، ويدعون كل المعنيين بالثقافة الفلسطينية الى المشاركة في هذا العمل الجليل.

ان كل المثقفين الوطنيين مدعوون الى مواكبة الانتفاضة الباسلة، في الدفاع عن الثقافة الوطنية والشعب.

أحمد برقاوي، أنيس صايغ، باسم سرحان، بهجت أبو غربية، جابر سليمان، جيهان الحلو، حمزه برقاوي، خالد أبو خالد، خالد عايد، خيرية قاسمية، سعيد عريقات، سلامة كيله، صبحي غوشه، صبري حلاوة، صخر أبو فخر، صخر درويش، عبد الرحمن كيالي، عبد الجواد صالح، عبد القادر ياسين، عبد العزيز السيد، علي الخطيب، عماد ملحس، عمر سعادة، غالب هلسا، فايز قنديل، فضل شرورو، فيصل دراج، كمال الخالدي، ليلى السايح، ناجي علوش، يوسف حداد، يوسف شرورو.

التقرير الثاني

رحيل المؤرخ مصطفى مراد الدباغ

فلسطين وسنوات الهجرة والعطاء

«نشرت السفير في ٥/١١/٨٩ هذه المقالة عن الفقيد الراحل مصطفى مراد الدباغ والكاتب تعيد نشرها بنصها تقديراً للمؤرخ الفقيد»

فقد العالم العربي عامة، والشعب الفلسطيني خاصة، عالماً جليلاً ومؤرخاً كبيراً هو المرحوم مصطفى مراد الدباغ (أبو عمر)، الذي كرس حياته المديدة لخدمة الوطن الفلسطيني والعالم العربي في ميداني التربية والتأريخ..

ولد الفقيد الكبير في يافا سنة ١٨٩٧ وعايش الحكم العثماني والانتداب البريطاني، ونكب بالاحتلال الصهيوني فهاجر الى لبنان. وقد عرف طيلة حياته بالزهد والانصراف عن مباهج الحياة، منقطعاً الى البحث والتدقيق والمطالعة والتعرف الى مناطق فلسطين وقبائلها والمسنين فيها، يستجمع المعلومات والوثائق، ويراجع كتب التاريخ والجغرافيا، بكل صبر ودقة واجتهاد، لانجاز المهمة التي اخذها على عاتقه، وهي كتابة تاريخ (بلاد فلسطين)، تلك المهمة التي تحتاج الى جهد مؤسسة او مجموعة كبيرة من الباحثين المتخصصين، وليس الى مجرد جهد فرد واحد، سهر الليالي الطوال، وتحمل المشاق المختلفة، حتى نجح في مهمته، فأصدر موسوعته من احد عشر جزءاً، وبمعدل ٦٠٠ - ٨٠٠ صفحة لكل جزء، مع ملحق بالمراجع العربية والأجنبية الكثيرة، وفهرست ابجدي باعلام كل جزء.

اصدر الفقيد الجزء الاول من (بلادنا فلسطين). في يافا سنة ١٩٤٧، وقد توجه بما يلخص فكره الوطني بكل وضوح وتركيز حين كتب اهداءه: (الى الذين جاهدوا للابقاء على عروبة فلسطين، والى الذين يجاهدون لطرد العدو من بلادنا!).

وقد أعاد اصدار الجزء الاول وبقية الموسوعة الهامة في بيروت مابين ١٩٦٥ و١٩٧٦ وتتضمن كل جغرافية وتاريخ واقتصاد مختلف المناطق الفلسطينية، النابلسية واليافية والغزية والجليل والخليل وبيت المقدس، مغطياً بذلك فلسطين بكاملها، وزين غلاف موسوعته بقوله تعالى: (سبحان الذى اسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذي باركنا حوله).

ثم اصدر الفقيد سلسلة (فلسطينيات) في ستة أجزاء بين عامي ١٩٧٩ و١٩٨٦ كما يلي:

- القبائل العربية وسلائلها في بلادنا فلسطين.
- الموجز في تاريخ الدول العربية في بلادنا

فلسطين.

- الموجز في تاريخ الدول الاسلامية في بلادنا فلسطين (جزءان).
- المملكتان النباتية والحيوانية في بلادنا فلسطين.
- من هنا وهناك.

وللفقيد الجليل ايضاً المؤلفات التالية:

- مدرسة القرية، صدر عام ١٩٣٦ في فلسطين.
- الجزيرة العربية (جزءان)، صدر عام ١٩٦٣ في بيروت.
- قطر - ماضيها وحاضرها، صدر عام ١٩٦١ في بيروت.

ان هذا الانتاج الغزير والموثق قد استوجب من المؤرخ الفلسطيني الأول تفرغا تاماً وانكباباً دؤوباً على الدراسة والتدقيق والتأليف بشكل قل ان نجد نظيراً له في تاريخنا المعاصر، فقد استمر في المطالعة والتأليف رغم تجاوزه التسعين من العمر، وبقي حتى الاشهر الاخيرة من حياته يلاحق مواضيع وطنه بكل نزاهة ودقة، متمتعاً بصفاء ذهني وقدرة هائلة على الاستيعاب، وعشق غريب للتأليف والتصحيح واصدار المزيد من المؤلفات عن وطنه، الى ان توفاه الله فانتقل الى مثواه الاخير في مدافن الشهداء ببيروت في الاول من تشرين الاول ١٩٨٩.

ويعرف المثقفون الفلسطينيون منذ مطلع القرن الحالي فقيدنا الجليل كواحد من كبار رجال التربية والتعليم في فلسطين وغيرها من البلاد العربية، اضافة الى كونه المؤرخ الفلسطيني الاول. ففي مطلع شبابه، وبعد انهائه سنوات الدراسة جند في الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الاولى حيث تدرب في بعلبك، ثم ارسل برتبة ضابط اول إلى الحجاز لمحاربة الشريف حسين، ولم يكن الضباط العرب بشكل عام موضع ثقة لدى العثمانيين، لذلك ابعدوهم عن المهات القتالية الى المهات الادارية.

وبعد انسحاب القوات العثمانية التحق فقيدنا بقوات الشريف حسين برتبة ضابط اول ايضاً، وبعد سنة من هذه الخدمة عاد الى فلسطين لينصرف الى سلك التربية والتعليم كمدير مدرسة في الخليل، ثم مساعد مفتش تربية في غزة، ثم مفتش تربية في اللواء الجنوبي وكان مقره في يافا، وبعدها انتقل الى نابلس كمفتش تربية الى ان اعيد الى اللواء الجنوبي، في يافا مفتشاً للتربية للمرة الثانية.

وقد اكسبه هذا التنقل خلال عمله التربوي في عدة مناطق فلسطينية فرصة للتعرف والمعاينة وتجميع المعلومات والوثائق من مصادرها، حيث كان يزور المدن والقرى والاماكن الأثرية، ويتعرف الى المثقفين والمطلعين، ويجمع المزيد من المعلومات والمخطوطات والوثائق والانساب.

واثناء هجرته من يافا الى بيروت خلال نكبة ١٩٤٨ بواسطة مركب بحري، اضطر الربان لالقاء تلك الوثائق والمستندات الثمينة في الماء، تخفيفاً لحمولة المركب الذي واجه ظروفاً جوية سيئة للغاية، مما سبب لمؤرخنا الراحل آلاماً نفسية هائلة، واضطرته الى اعادة تجميع مافقده، بصبر وجهد. وقد ساعده عمله التربوي بعد النكبة في لبنان وسورية وضفتي الاردن على اعادة تكوين مخزونه الوثائقي الى حد كبير.

● **حسن أبو رقبه**

التقرير الثالث

صرخة السواحرة: لن ندفع «شيكلا» واحدا

تعرضت بلدة بيت ساحور الفلسطينية، لحملة قرصنة ونهب واسعة النطاق، نفذها جيش الاحتلال الصهيوني، بحجة تحصيل الاستحقاقات الضريبية من اهالي البلدة البطلة، الذين امتنعوا عن دفع الضرائب فترة الانتفاضة.

وقد استمرت هذه الحملة الهمجية، حوالي اربعين يوماً، امتدت من ٩/١٩ الى ٨٩/١٠/٣٠. وقد صاحبها العديد من الاجراءات التعسفية، مثل منع التجول واغلاق البلدة امام الصحافيين، وقطع الاتصالات السلكية واللاسلكية - كل ذلك من اجل تطويع مقاومة الاهالي وكسر ارادتهم.

وقد جاءت هذه الحملة، في سياق الضغوط الاجتماعية، والاقتصادية، التي تفرضها سلطات الاحتلال، الى جانب سياستها القمعية، في محاولة يائسة منها، لتطويع الجماهير الفلسطينية، واجهاض انتفاضتها الباسلة.

كما جاءت هذه الحملة المركزة على بيت ساحور، بشكل خاص، من اجل اخماد نموذج الانتفاضة، المتمثل فيها. فخلال عامي الانتفاضة، اثبت اهالي هذه البلدة قدرات عالية، على المبادرة والابداع النضاليين، في مختلف الفعاليات، السياسية، والتنظيمية، والادارية، والاقتصادية، مما جعل بلدة بيت ساحور، وبكل جدارة مثلاً يحتذى، ومعلماً بارزاً من معالم الانتفاضة. في وقت سابق اعلن دان شومرون رئيس الاركان الاسرائيلي، عن هذه الحقيقة بقوله: «اذا اقتلعنا الانتفاضة من بيت ساحور، فستنتهي الانتفاضة، في اشارة منه الى قوة هذا النموذج، وترسخه.

لماذا بيت ساحور؟

تميزت بيت ساحور، منذ بداية الانتفاضة، بحيويتها، وفعاليتها، في تجسيد نموذج المقاومة طويلة الامد. ومن الناحية التنظيمية، والادارية، كانت سباقة في توحيد اللجان الشعبية في المنطقة، وفي تشكيل العديد من لجان الاختصاص الفرعية، زراعية، صحيّة، تعليم، اجتماعية، . . الخ. كما عرفت بيت ساحور، التنسيق والتعاون العالي بين مختلف الفعاليات السياسيّة والاجتماعيّة في البلدة، الذين يعتبرون انفسهم، ويعملون معاً كأسرة واحدة، متآلفة. وقد اعترف بهذه الحقيقة المحلل

فلسطين.

ـ الموجز في تاريخ الدول الاسلامية في بلادنا فلسطين (جزءان).

ـ المملكتان النباتية والحيوانية في بلادنا فلسطين.

ـ من هنا وهناك.

وللفقيد الجليل ايضاً المؤلفات التالية:

ـ مدرسة القرية، صدر عام ١٩٣٦ في فلسطين.

ـ الجزيرة العربية (جزءان)، صدر عام ١٩٦٣ في بيروت.

ـ قطر ـ ماضيها وحاضرها، صدر عام ١٩٦١ في بيروت.

ان هذا الانتاج الغزير والموثق قد استوجب من المؤرخ الفلسطيني الأول تفرغا تاماً وانكباباً دؤوباً على الدراسة والتدقيق والتأليف بشكل قل ان نجد نظيراً له في تاريخنا المعاصر، فقد استمر في المطالعة والتأليف رغم تجاوزه التسعين من العمر، وبقي حتى الاشهر الاخيرة من حياته يلاحق مواضيع وطنه بكل نزاهة ودقة، متمتعاً بصفاء ذهني وقدرة هائلة على الاستيعاب، وعشق غريب للتأليف والتصحيح واصدار المزيد من المؤلفات عن وطنه، الى ان توفاه الله فانتقل الى مثواه الاخير في مدافن الشهداء ببيروت في الاول من تشرين الاول ١٩٨٩.

ويعرف المثقفون الفلسطينيون منذ مطلع القرن الحالي فقيدنا الجليل كواحد من كبار رجال التربية والتعليم في فلسطين وغيرها من البلاد العربية، اضافة الى كونه المؤرخ الفلسطيني الاول. ففي مطلع شبابه، وبعد انهائه سنوات الدراسة جند في الجيش العثماني خلال الحرب العالمية الاولى حيث تدرب في بعلبك، ثم ارسل برتبة ضابط اول إلى الحجاز لمحاربة الشريف حسين، ولم يكن الضباط العرب بشكل عام موضع ثقة لدى العثمانيين، لذلك ابعدوهم عن المهمات القتالية الى المهمات الادارية.

وبعد انسحاب القوات العثمانية التحق فقيدنا بقوات الشريف حسين برتبة ضابط اول ايضاً، وبعد سنة من هذه الخدمة عاد الى فلسطين لينصرف الى سلك التربية والتعليم كمدير مدرسة في الخليل، ثم مساعد مفتش تربية في غزة، ثم مفتش تربية في اللواء الجنوبي وكان مقره في يافا، وبعدها انتقل الى نابلس كمفتش تربية الى ان اعيد الى اللواء الجنوبي، في يافا مفتشاً للتربية للمرة الثانية.

وقد اكسبه هذا التنقل خلال عمله التربوي في عدة مناطق فلسطينية فرصة للتعرف والمعاينة وتجميع المعلومات والوثائق من مصادرها، حيث كان يزور المدن والقرى والاماكن الأثرية، ويتعرف الى المثقفين والمطلعين، ويجمع المزيد من المعلومات والمخطوطات والوثائق والانساب.

واثناء هجرته من يافا الى بيروت خلال نكبة ١٩٤٨ بواسطة مركب بحري، اضطر الربان لالقاء تلك الوثائق والمستندات الثمينة في الماء، تخفيفاً لحمولة المركب الذي واجه ظروفاً جوية سيئة للغاية، مما سبب لمؤرخنا الراحل آلاماً نفسية هائلة، واضطرته الى اعادة تجميع مافقده، بصبر وجهد. وقد ساعده عمله التربوي بعد النكبة في لبنان وسورية وضفتي الاردن على اعادة تكوين مخزونه الوثائقي الى حد كبير.

● حسن أبو رقبه

التقرير الثالث

صرخة السواحرة: لن ندفع «شيكلا» واحدا

تعرضت بلدة بيت ساحور الفلسطينية، لحملة قرصنة ونهب واسعة النطاق، نفذها جيش الاحتلال الصهيوني، بحجة تحصيل الاستحقاقات الضريبية من اهالي البلدة البطلة، الذين امتنعوا عن دفع الضرائب فترة الانتفاضة.

وقد استمرت هذه الحملة الهمجية، حوالي اربعين يوماً، امتدت من ٨٩/٩/١٩ الى ٨٩/١٠/٣٠. وقد صاحبها العديد من الاجراءات التعسفية، مثل منع التجول واغلاق البلدة امام الصحافيين، وقطع الاتصالات السلكية واللاسلكية ـ كل ذلك من اجل تطويع مقاومة الاهالي وكسر ارادتهم.

وقد جاءت هذه الحملة، في سياق الضغوط الاجتماعية، والاقتصادية، التي تفرضها سلطات الاحتلال، الى جانب سياستها القمعية، في محاولة يائسة منها، لتطويع الجماهير الفلسطينية، واجهاض انتفاضتها الباسلة.

كما جاءت هذه الحملة المركزة على بيت ساحور، بشكل خاص، من اجل اخماد نموذج الانتفاضة، المتمثل فيها. فخلال عامي الانتفاضة، اثبت اهالي هذه البلدة قدرات عالية، على المبادرة والابداع النضاليين، في مختلف الفعاليات، السياسية، والتنظيمية، والادارية، والاقتصادية، مما جعل بلدة بيت ساحور، وبكل جدارة مثلاً يحتذى، ومعلماً بارزاً من معالم الانتفاضة. في وقت سابق اعلن دان شومرون رئيس الاركان الاسرائيلي، عن هذه الحقيقة بقوله: «اذا اقتلعنا الانتفاضة من بيت ساحور، فستنتهي الانتفاضة، في اشارة منه الى قوة هذا النموذج، وترسخه.

لماذا بيت ساحور؟

تميزت بيت ساحور، منذ بداية الانتفاضة، بحيويتها، وفعاليتها، في تجسيد نموذج المقاومة طويلة الامد. ومن الناحية التنظيمية، والادارية، كانت سباقة في توحيد اللجان الشعبية في المنطقة، وفي تشكيل العديد من لجان الاختصاص الفرعية، زراعية، صحيّة، تعليم، اجتماعية، . . الخ. كما عرفت بيت ساحور، التنسيق والتعاون العالي بين مختلف الفعاليات السياسيّة والاجتماعيّة في البلدة، الذين يعتبرون انفسهم، ويعملون معاً كأسرة واحدة، متآلفة. وقد اعترف بهذه الحقيقة المحلل

«الاسرائيلي» افينو عام بار - يوسف، معاريف، اذ قال: «نشأ.. في الاماكن المتجانسة مثل بيت ساحور، نوع من اللجنة المحلية - الام، التي كانت تقوم بدور التوجيه» ٢٣/٨/٨٨.

من الناحية الاقتصادية، أيضاً، تميزت منطقة بيت ساحور، في تنفيذها لقرار مقاطعة المنتجات والسلع «الاسرائيلية»، ومقاطعة جهاز الضريبة، كما كانت سباقة في الامتثال لاجراءات فك الارتباط الاقتصادي ليس هذا وحسب، وإنما بالأساس، كانت بيت ساحور سبّاقة ايضاً في مجال المبادرات الاقتصادية، الانتاجية، وبشكل مبدع.

فمن أجل حل المعضلات الاقتصادية التي ترتبت على اجراءات فك الارتباط، قام الاهالي بزراعة كل شبر ارض في حوزتهم، أمام المنازل، وفي الحدائق المنزلية، كما أقاموا مزارع جماعية تعاونية، عرفت باسم مزارع النصر. وانتشرت تربية الدواجن، والماشية، حتى انهم استخدموا الاسطحة لتربية الأرانب. وبناء عليه فإن تجربة الاقتصاد البيتي، عرفت أوج نجاحها، في بيت ساحور. وقد تحدثت جريدة معاريف عن «مبادرين» مثل د. جاد اسحق، وهو مهندس زراعي من بيت ساحور الذي قال: «لنجلب شتلاً ونزرع. وعلى هذا الاساس، اقيمت جمعية خاصة من المتطوعين لتشجيع الزراعة، حيث بلغ اجمالي ماتم جمعه ٦٤٨٠ ديناراً. وبصورة مماثلة بدأ التجار بتنسيق ترتيبات العمل الجديدة، فيما نظم الأطباء دورات الاسعاف الأولي».

وقد خاضت بيت ساحور تجربة نضالية رائدة في تموز العام ١٩٨٨، حين أقدم أهالي البلدة على تسليم هوياتهم لسلطات الاحتلال، في تحدٍ كبير لهذه السلطات، التي فرضت حينها حصاراً على البلدة، لجباية الضرائب. وقد تم أثناءها إعادة الف بطاقة هوية، وحين رأت سلطات الاحتلال، أن العدوى - تسليم الهويات - يمكن أن تستشري قامت بفك الحصار العسكري عن البلدة. وحسب تالي زيلنغر - دافار، فإن أهالي البلدة بذلك «قاموا بعمليّة فعالة، ومركّزة، بخصوص إعادة الهويات الشخصيّة لاسرائيل» ٢٠/١٠/٨٩.

وهكذا أصبحت بيت ساحور، بنموذج الانتفاضة المتمثل فيها، هدفاً مستمراً لقوات الاحتلال، تحاول جهودها تركيعه، أو على الأقل كسر شوكته، لمنع استشراء عدواه الى باقي المناطق. وهذا بالضبط، مايفسر الحملة الوحشيّة، التي تعرضت لها البلدة البطلة، في أيلول، وتشرين أول، الماضيين.

وقبل قيامها بالحملة المباشرة، حاولت سلطات الاحتلال كل جهودها، من أجل اجبار التجار على الدفع، وحاولت تخفيض الضرائب المفروضة عليهم، في محاولة يائسة منها، لاستدراج بعض التجار، في مساومة مكشوفة، لخرق قرار الامتناع عن دفع الضرائب، ضمن السياسة المعروفة - فرق تسد. وامام ضغوط الترغيب، والترهيب، هذه، مال بعض رجال الاعمال - لايزيد عددهم عن أربعة - الى هذه المساومة. لكن سرعان ماأخذ السواحرة موقفاً جماعيّاً حازماً منهم وظهرت على الحيطان شعارات «لماذا بعتم مسيحنا - الانتفاضة - بحفنة من الشواكل، ادفعوا الضرائب، تنكروا بوقاحة لدماء

الشهداء كما قام اعضاء اللجان الشعبية بإجراء لقاءات مع هؤلاء التجار، الذي تراجعوا عن مواقفهم، التزاماً بهذا الموقف الساحوري الصارم. وقد أثار هذا الوضع سلطات الاحتلال، التي لم تقدر، حتى ولا بالمساومة، على فرض سيطرتها. وهكذا أصبحت البلدة هدفاً يومياً للسلطات الضريبية، وكلما ازدادت حملات المداهمة، تزداد البلدة اصراراً، وصموداً.

الجيش.. يجمع الضرائب

من أجل تحطيم موقف الأهالي الحازم، قامت سلطات الاحتلال، بحصار بلدة بيت ساحور، واعتبرتها منطقة مغلقة، ومنعت التجوّل فيها بين وقت وآخر، وحظرت دخول الصحفيين اليها.

وقد شنت حملتها القرصنية في البداية على الصيدليات، حيث داهمت صيدليات البلدة، واعتقلت العديد من اصحابها، لرفضهم دفع الضرائب، حيث فضل هؤلاء الصيادلة السجن على دفع الضرائب. بعد ذلك قامت السلطات بشن حملتها، على النجارين والخياطين، ولم تفلح معهم أيضاً، رغم كل محاولاتها لاستمالة بعضهم، أو تخفيف الضريبة المقررة عليهم، حيث وصلت في بعض الأحيان، الى شيكل واحد.. ومع ذلك كان الجواب الوحيد الذي يلقونه الرفض، بالرغم من ان هذه السلطات، كانت تقوم بمصادرة الآلات، وأدوات الانتاج العائدة لهم. ولما لم تجد السلطات اي تجاوب، وسعت من حملة المداهمة والنهب، فشملت القصابين، والبقالين، ثم شملت حتى البيوت، حيث صادرت منها الأثاث المنزلي، وكانت في وقت سابق قد وضعت يدها على الاموال الموجودة في البنوك، والعائدة للأهالي.

وفي تقدير للمنهوبات، ذكرت العديد من المصادر، أنها تجاوزت بأضعاف عديدة المبالغ المفروضة على الأهالي، حيث بلغت قيمة المصادرات ماقيمته ثلاثة ملايين دولار.

ولاحظ ليلي جاليلي في هآرتس: «عدم التناسق بين الممتلكات التي صودرت من السكان، وبين التقارير الموجودة في الوثائق.. الى جانب استخدام مبالغ فيه للقوّة خلال عملية جباية الضرائب بدون داعي» ١/١١/٨٩.

صور بطوليّة

لم يستكن أهالي بيت ساحور، أمام استباحة بلدتهم من قبل جيش الاحتلال الصهيوني، اذ أعلنوا الاضراب في البلدة منذ اليوم الأول، وقد شمل الاضراب حسب نالي زيلنغر - دافار «جميع سكانها» ٢٠/١١/٨٩ في مقاله المعنون «لعبة القط والفأر في بيت ساحور». في اشارة ساخرة منه الى جيش الاحتلال، الذي تحوّل الى جامع ضرائب. كما عمد الأهالي الى خرق فترات حظر التجول، حيث كانوا يتعمدون الخروج في هذه الفترات الى الشوارع، ويبدأون يراقبون هذه الحالة بإندهاش، حيث لايعرفون إن كان الأهالي قد خرجوا فرحاً، أم غضباً. وقد أبرزت وكالات الأنباء صوراً كثيرة بطولية لأهالي البلدة، وهم يواجهون الجيش المدجّج بالسلاح، حيث حكت هذه الصورة قصة البلدة التي لم ترضخ، والتي فرضت ارادتها وكبرياءها.

ففي حالة من هذه الحالات، وعندما كانت السلطات تصادر صيدلية الياس رشماوي، الذي اعتقل لمدة ١٨ يوماً، قام باحضار اولاده، وقال لهم: انظروا كيف يعمل الجيش واليهود بنا. ويضيف الياس، «لابد من أن يشاهد الأطفال ماذا يفعلون» وحينما اعتقلوا راجي قمصية لمدة اسبوع، ساوموه على إعادة أثاث بيته، فأبى وقال: «أفضل مئة مرة، أن تصادروا الأثاث على أن أمشي مرة واحدة في شوارع المدينة ورأسي مطأطأة».

ميخائيل بنورة، يملك منجرة، صادرتها السلطات، حاولوا مساومته بتخفيض المبالغ المترتبة عليه تدريجياً، حتى وصل الأمر بهم، يائسين، الى طلب شيكل واحد، مقابل رد آلات المنجرة، لكن ميخائيل أبى، ورفض أن يدفع حتى شيكلاً واحداً، وفضّل أن تصادر المنجرة، على أن يخذل بلدته. أما سالم قمصيّة فقد صادروا محله الخاص بالأدوات الرياضية، وساوموه على دفع شيكل واحد، لكنه رفض أيضاً. وقد كتب عن ذلك روني شيكر، المحرّر في يديعوت احرونوت، متحدثاً عن صمود أهالي بيت ساحور، واصرارهم على تحدي السلطات قائلين «تعالوا مرة ثانية، تعالوا مئة مرة، فلن ندفع لكم قرشاً واحداً»، وحسب منير عطا الله - من أهالي البلدة - حاولوا طيلة ٤٣ يوماً أن يكسروا شوكتنا، ولكنهم لم يتمكنوا من جباية قرش واحد. أما عيسى أبو الزلف - من أهالي البلدة - فيقول أيضاً: في الوقت الراهن حققنا الفوز في المعركة، وفي المستقبل انشاء الله. لن نقوم بدفع الضرائب، لا يوجد لدينا مانخسره. الموضوع هو مسألة مبدأ ١/١١/٨٩. وحسب تالي زيلنفر دافار - لعبة القط والفار - فإن الجيش ورجال الضريبة كانوا يصيحون «ادفعوا لنا.. والا نصادر كل حاجاتكم.» - بينما الأهالي يرددون - صادروا فلن ندفع لكم شيكلاً واحداً» ٢٠/١٠/٨٩.

بيت ساحور في الواجهة

وقد استرعت عملية السطو المسلح التي أقدمت عليها سلطات الاحتلال، اهتمام العالم كله، وتصدّرت اخبار وكالات الأنباء، وأصبحت قبلة الصحافيين الذين كانوا يمنعون من الدخول اليها.

وقد وجّه رؤساء بلديات، بيت ساحور، بيت لحم، بيت جالا، نداء الى الرأي العام العالمي يطالبون فيه التدخّل من أجل وقف أعمال القرصنة والنهب. كما أصدر بطاركة القدس المحتلة (اللاتين - الارمن - الارثوذكس) بياناً مشتركاً أشاروا فيه الى الوضع في الأرض المحتلة، خصوصاً في بيت ساحور، ودعا البطاركة الى تخصيص يوم الأحد ١٠/٢٩ يوم صلاة من جميع الطوائف، تضامناً مع «أهالي بيت ساحور المتألمين والذين يواجهون حملة حصار لاسابق لها». وفي اليوم ذاته ١٠/٢٧ توجه البطاركة الثلاثة (ميشال صباح - ديودورس الأول - يغشيه درديان) الى بيت ساحور برفقة ثلاث شاحنات من المؤن ومجموعة من الصحافيين. حيث تعرضوا لمضايقات من القوات الاسرائيلية المحيطة ببيت ساحور. لمنعهم من دخولها. وتوجه البطاركة عند وصولهم الى كنيسة المهد في بيت لحم، وهناك

أعلنوا تضامنهم مع البلدة البطلة.

كما حاولت مجموعة من الدبلوماسيين الاوروبيين زيارة بيت ساحور، للاطلاع على الأوضاع المعيشية فيها عن كثب، يوم ٥/١٠/، إلاّ أن سلطات الاحتلال، حالت دون ذلك، للتعتيم على اجراءاتها القمعية في البلدة. حتى أن القنصل البريطاني العام في القدس، ارسل الى حكومته تقريراً، تحدث فيه عن معاناة البلدة، والمعاملة الوحشية التي تلقاها. وما لبث الخارجية البريطانية أن طلبت ايضاحات من الحكومة «الاسرائيلية» حول ذلك. واجمالاً، فقد عرّت معركة بيت ساحور زيف الديمقراطية الاسرائيلية، وأظهرت الوجه الحقيقي للكيان الصهيوني، وكانت على الصعيد الاعلامي، وعلى صعيد الرأي العام الدولي، معركة ناجحة، أظهرت عدالة القضية الفلسطينية، وأكسبتها المزيد من التعاطف الدولي.

الاسرائيليون يقيّمون

حفلت الصحف الاسرائيلية بمحاولات تقييم الحملة الهستيرية التي شنتها السلطات على بيت ساحور. فقد كتب لوبا الثياب في يديعوت احرونوت: لقد انقلبنا من نظام جمارك وضرائب، الى جيش ضرائب. ونظام كالذي انقلبنا اليه هو من أكثر الأنظمة كراهيّة في نفوس الناس. فماذا ربحت حكومتنا؟.. وماذا ربحنا؟.. كم ماكنة خياطة؟.. وكم تلفازاً؟ ٢/١١/٨٩.

اما دان سفير - هآرتس، فيشير الى خسارة اسرائيل على صعيد الرأي العام العالمي، حيث أن معركة بيت ساحور: تمت تغطيتها بتوسع من قبل وسائط الاعلام.. وسببت ضرراً كبيراً لصورة «اسرائيل» في العالم، ولم تؤد الى النتائج المرجوة.. وحسب ايزهار باكر - هآرتس تحول موضوع بيت ساحور الى موضوع وطني ودولي ١٢/١٠/٨٩.

اما المحلل العسكري «الاسرائيلي» زئيف شيف فقد كتب مقالاً عنوانه «مصيدة بيت ساحور» مشيراً الى الاستدراج الذي تعرضت له السلطات الاسرائيلية بتسرعها في خوض هذه المعركة، حيث قال: «من الذي حدد مكان الصراع؟.. جنرالات الطرف الآخر - اي اللجان الشعبية - ويعتبر زئيف بأن السلطات لم تكن مبادرة الى هذا الصراع وانما تم جرّها. فبيت ساحور - حسب رأيه - مكاناً مريحاً للفلسطينيين باعتبارها قرب مدينة القدس، حيث الاعلام، وأجهزة الاتصال الدولية، وقناصل الدول، والكنائس المسيحية، وكونها منطقة تسيطر عليها اللجان الشعبية سيطرة تامة، على اعتبار هذه البلدة مبلورة من الناحية الاجتماعية - ووجه الاستدراج برأيه يتمثل في أن اسرائيل - اضطرت للعمل ليس فقط ضد اللجان الشعبية، وانما ضد التجار، ثم ضد جميع سكان هذه البلدة.. بدون استثناء.. حيث تحولت بيت ساحور الى شعار وعلم للفلسطينيين. وحسب رأيه، فان جهاز صيانة الضرائب كان هدفاً سهلاً بالنسبة لزعماء الانتفاضة ٣١/١٠/٨٩.

وفي نهاية التقييم تساءل زئيف شيف: ترى من الذي انتصر في هذا الصراع؟ لقد نجحنا بقوة الذراع والقانون في جباية الضرائب. أما الفلسطينيون انتصروا في المعركة الاعلامية،

وفي زيادة بلورة البلدة بالمقارنة للماضي. ويضيف عليه موافقاً، داني تسوكر، بقوله «إن اسرائيل لم تستطع أن تفرض سيطرتها بشكل واضح على بلدة بيت ساحور، حتى ولا في رد عصيان الضرائب» أما ليلي جليلي ـ هآرتس، فقال بما يشبه الاحتجاج بأن «دفع الضريبة هو أمر بين الفرد والسلطات، ومعالجة هذا الامر بصورة جماعية، يحوّل الأمر الى موضوع سياسي.. ويسبب ضرراً شديداً لاسرائيل» ١/١١/٨٩.

وتحذّر هآرتس من تكرار هذه العملية: «إذا سيطر عليهم تفكير أنه ينبغي تكرار هذه العملية التعيسة في مكان آخر، فإنه يجب تحذيرهم من ذلك، بكل لغات التحذير» ١/١١/٨٩.

أمّا أهالي بيت ساحور، فهم مصممون على الاستمرار بموقفهم البطولي المشرّف، اذ لم يعد هناك ـ برأيهم ـ مايخسرونه.. رافعين شعار نعم لآلام الجوع، لا لآلام الركوع. لا ضرائب تحت الاحتلال.. الخ. وفي احد المنشورات التي وزعت في المدينة جاء: «اننا نصر على عدم دفع الضرائب. القضية قضية مبدأ. إن قلعتنا أقسمت على عدم الانكسار وعاهدت الأرض أن لاتهادن ابداً، فأينما وجدت شاحنات الضريبة، وسيارات العسكر، ستجد حجارتنا تحلّق في الهواء لتنقض على هؤلاء القراصنة،وبعد انتهاء الحملة الضريبية وفك الطوق عن البلدة الشامخة، خرج أهالي البلدة الصامدون وأياديهم متشابكة في مسيرة طافت شوارع بيت ساحور، وهم يهتفون بالطول بالعرض بيت ساحور تهز الأرض. باسم الحرية نضحي بالأرواح، فلسطين عربية ياأرض الكفاح.

معلم هام من معالم الانتفاضة:

وهكذا، استطاعت بيت ساحور، البلدة الصغيرة، ذات الأحد عشرة ألفاً، ان تتحوّل الى نموذج نضالي فذ، والى معلم مهم من معالم الانتفاضة في سنتها الثانية. وبذلك تكون بيت ساحور قد قدّمت نموذجها للعصيان الوطني، كشكل اساسي من أشكال النضال، في الانتفاضة الوطنية المجيدة.

وهذا يقودنا الى الحديث عن مسألة العصيان الوطني، التي طالما تم الحديث عنها وتضاربت الاجتهادات حولها، بين قائل بعدم جدواها، وبين من يعتبرها الشكل الرئيسي لانجاز أهداف الانتفاضة. ونحن نعتقد أن هذا الشكل من أشكال النضال، يجب أن يعطي حقه، وأن يأخذ مكانته بين أشكال النضال الأخرى. وبمعنى محدد، فإن العصيان الوطني، قد لايؤثر بشكل مباشر ومجدٍ على الكيان الصهيوني، بالنظر لامكانات هذا الكيان، من الناحية الاقتصادية، التي يمكنه تعويضها، وبالنظر الى عدم حساسيته تجاه الرأي العام. وقد اشار الى ذلك اسحق شامير، أواخر شهر تشرين الثاني حين قال: بأن «الانتفاضة لم ولن تغير موقفنا، ولو استمرت عشر سنوات أخرى».

اما رئيس الاستخبارات الاسرائيلية السابق، شلومو غازيت فيقول في يديعوت احرونوت «لندعهم يكتوون بنيرانهم ـ وحسب رأيه ـ المتضرر الأكبر من العصيان هو مجتمع الانتفاضة، فهم الذين تنخفض مستويات معيشتهم، ويتضررون من العصيان، المطلوب

المحافظة على المرور في الطرق الرئيسية ٨/٢/٨٨.

وعليه، فإن العصيان الوطني، لايمكن أن يؤدي جدواه الكاملة في حال اعتباره شكلاً وحيداً، لأنه في هذه الحالة يشكل نزيفاً أكبر لمجتمع الانتفاضة. وفي هذا خطورة على الانتفاضة. الأمر الطبيعي هو اعتبار العصيان شكلاً من أشكال النضال الأخرى، ويسير ويتصاعد بالتوازي مع الأشكال الأخرى. أما ايجابيات هذا الشكل من النضال، فتتلخص بأنه يحفز محاولات فك الارتباط الاقتصادي والاداري للمجتمع الفلسطيني، بالسلطات الاسرائيلية، كما يحفز محاولات بناء الأطر واللجان الادارية والاقتصادية البديلة والممثلة باللجان الشعبية. ان دعوات فك الارتباط، والعصيان، عمقت، وعجلت من مسار انفصال المجتمع الفلسطيني تحت الاحتلال، عن البنية الادارية والاقتصادية الاسرائيلية، وكسرت حلقات اساسية من حلقات التبعية. كما أنها خلقت الأرضية الضرورية للاعتماد على الذات، وتبلور محاولات النمو الذاتي، اضافة الى أن ذلك أسهم في تماسك وترسخ وحدة المجتمع الفلسطيني، وأسهم في بلورة قيم اجتماعية ايجابية، عززت الى حد كبير شمولية الانتفاضة، وصمود جماهيرها وهذا هو بالضبط، ماجرى في بيت ساحور، وما قدّمته هذه البلدة الباسلة في صمودها، واصرارها الاسطوري.

واخيراً:

مما لاشك فيه فإنّ المعركة الضريبية في بيت ساحور، غدت بشكل من الاشكال، واحدة من أهم حروب الانتفاضة، واضافة نضالية من ضمن الاضافات والابداعات الرائدة التي قدمتها هذه البلدة، للانتفاضة الفلسطينية المجيدة.

وهذه المعركة، ينبغي ان توجه الانظار نحو محاولات العدو لاجهاض الانتفاضة، وكسر حلقاتها الصلبة، بوسائل الترغيب والترهيب، مما يستدعي بذل أقصى الجهود الفلسطينية، والعربية، من أجل دعم صمود الانتفاضة الفلسطينية، ومن اجل ضمان استمرارها وتطورها. فوسائل الضغط الاجتماعي الاقتصادي تتطلب بالمقابل اقصى دعم اقتصادي وأقصى حملة اعلامية، من اجل تفويت الفرصة على السلطات الاسرائيلية في محاولتها الاستفراد بالانتفاضة الفلسطينية، من اجل تطويعها، بعد ان استعصى عليها قمعها.

كما ان وقفة اهالي بيت ساحور، الواحدة، الحازمة، ورفضهم المساومة، اي مساومة، لكسر الانتفاضة، هي اشارة واضحة الى الطريق الذي اختطته جماهير الانتفاضة، وهي رسالة واضحة، لمن يعنيهم الامر، بأن لاعودة عن هذا الطريق، مهما كانت التضحيات.

وأخيراً ان دعم الانتفاضة، واستمرارها، وتطورها، وبالتضافر بين مختلف الفعاليات، واشكال النضال فيها، هو طريق انجاز الانتفاضة لاهدافها. وهذا ما أراد قوله أهالي بيت ساحور، وهذا مافعله وأكده السواحرة.

● ماجد كيالي

التقرير الرابع

ندوة حول المنفيين العرب الليبيين

عقدت في طرابلس الندوة الدولية حول المنفيين العرب الليبيين الى ايطاليا في الفترة ٢٥ - ٢٧/ ١٠/ ١٩٨٩ للبحث في مصير الأسرى الليبيين الذين اعتقلهم ونفاهم الاستعماريون الطليان وقد أصدرت الندوة في ختام أعمالها البيان الختامي التالي نصه:

ان المشاركين في الندوة الدولية حول المنفيين العرب الليبيين الى ايطاليا المنعقدة في طرابلس ٢٥ - ٢٧/١٠/١٩٨٩م يعلنون بوضوح وقد استمعوا الى البحوث العلمية وشاركوا في المناقشات وشاهدوا حقول الالغام التي لازالت مدفونة في الارض العربية الليبية، أن قضية تصفية آثار الاستعمار ومخلفاته هي نقطة أساسية في السعي لتوفير الشروط اللازمة للتعاون الحر والمتكافىء بين الدول التي مارست الاستعمار والشعوب المستعمرة. وفي خلق مناخ جديد للعلاقات الدولية يمهد لعصر تآخي القوميات وابنثاق مجتمع دولي جديد قائم على التعاون والحرية والمساواة بين شعوب الأرض.

ومن هنا، فإن تصفية آثار الاستعمار الايطالي لليبيا تعتبر قضية دولية لاتهم العلاقات بين الدولتين الايطالية والليبية فقط، وإنما تهم المجتمع الدولي بأسره.

ويرى المشاركون بعد اطلاعهم تفصيلياً، من خلال الدراسات والصور والوثائق حول قضية نفي أكثر من ٥ آلاف من العرب الليبيين الى سجون الجزر الايطالية منذ عام ١٩١١ الذين انقطعت أخبارهم الى الآن. هي حلقة من سلسلة الأعمال اللاانسانية التي اقترفها الاستعمار الايطالي بما حمله من آلام ومظالم لآلاف الرجال والنساء والأطفال والشيوخ، بما تحمله ولا زالت الى اليوم تسبب لهم ولأبنائهم وأقاربهم ولبنى وطنهم من شعور بالظلم الفادح.

إن ممارسات الاستعمار الايطالي اللا انسانية تدينها القوانين والأعراف الدولية كافة بما فيها القوانين الايطالية بنفسها. ومن المؤسف أن مآسي هذا الاستعمار مازالت حية الى الآن. يعاني منها الشعب العربي الليبي بأكمله الذي قرر أن يعلن الحداد كل عام في ذكرى ترحيل أول دفعة من أولئك المنفيين الذين لم يعودوا، ولم يعرف مصيرهم.

إن المشاركين في الندوة يعلنون تأييدهم الكامل لمطالب الشعب العربي الليبي والتي عبر

عنها في مؤتمراته الشعبية الأساسية (التي تمارس السلطة في الجماهيرية) ويطالبون الحكومة الايطالية بالتجاوب مع هذه المطالب العادلة وهي:

١ - معرفة مصير المنفيين الذين لم يعودوا الى وطنهم

٢ - معرفة ظروف النفي والمعاملة التي تعرض لها المنفيون وتسليم كافة الوثائق المتعلقة بالموضوع الى السلطات العربية الليبية.

٣ - تعويض الأحياء من المنفيين وتعويض أسر من مات منهم عن الأضرار المادية والمعنوية التي لحقت بهم.

٤ - معرفة ظروف من مات وأماكن دفنهم وإعادة رفاتهم الى أرض الوطن.

٥ - التزام ايطاليا بالتعويض العادل عن جرائم الاستعمار الايطالي بحق الشعب العربي الليبي.

ويعلن المشاركون أن حق الشعب العربي الليبي في التعويض عن جرائم الاستعمار لاينحصر في مآسي النفي، بل يشمل اضرار الاستعمار والحروب الاستعمارية كافة من مذابح ومعتقلات ومصادرة واغتصاب وتدمير ممتلكات. ويشمل كذلك التعويض عن عدم إزالة مخلفات الحروب الاستعمارية وما سببته من أضرار بشرية ومادية ومعنوية. وذلك تجاوبا مع قرارات لجنة تصفية الاستعمار في الأمم المتحدة وقمة عدم الانحياز.

إن المشاركين في الندوة يناشدون المنظمات الدولية والجامعات ومراكز البحوث ذات العلاقة بإيلاء هذه المآسي وخاصة مأساة المنفيين ماتستحقه من اهتمام باعتبارها مأساة حية ودراسة جوانبها الإنسانية والاجتماعية والقانونية وإصدار قراراتها وتوصياتها بشأنها.

لقد آن الأوان لاقرار مبدأ التعويض عن أضرار الاستعمار. إن هذا المبدأ الذي يعبر عن تطلعات شعوب الارض نحو عالم الغد، تعضده مبادىء دولية مستقرة تتمثل في وجوب تصفية الاستعمار وعدم شرعية أي شكل من أشكال الهيمنة الاستعمارية وآثارها. وللأسف الشديد فان كتب التاريخ والتعليم في البلدان الاستعمارية مازالت تمجد حتى اليوم مايسمى بانتصارات الاستعمار.

إن جرائم الاستعمار والمآسي التي تسبب بها مازالت مجهولة لدى الرأي العام في هذه البلدان، ولابد من بذل الجهود لفضح جرائم الاستعمار وايديولوجيته وخصوصاً على صعيد إعادة كتابة التاريخ وفي الكتب التربوية.

إن هذا كله قائم على العلاقات الاخوية بين شعوب العالم مما سيخلق مناخاً دولياً جديداً قائماً على احترام حقوق الإنسان والدفاع عنها.

إن المشاركين في الندوة يدعون دول العالم والمنظمات الدولية، خاصة منظمة الأمم المتحدة الى الاسراع في اعلان الاستعمار (جريمة دولية للدولة) وإقرار مبدأ التعويض عن أضرار الاستعمار. وهم يدعون الدول الاستعمارية للاستجابة للمطالب الإنسانية العادلة للشعوب التي كانت ضحية للهيمنة الاستعمارية.

وفي الوقت نفسه، فإن المشاركين اذ يقدرون للجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى صبرها وإصرارها على تصفية آثار مآسي الاستعمار الايطالي بالطرق الدبلوماسية والمفاوضات، فإنهم يدعون الحكومة الايطالية الى

التجاوب مع الطرف العربي الليبي للوصول معه الى اتفاق شامل حول تعويضات المرحلة الاستعمارية وتصفية آثارها بما فيه مصلحة البلدين ومصلحة السلام في البحر المتوسط وفي العالم.

وقد أصدر المجتمعون التوصيات التالية:

١ - اعلان يوم ٢٦ أكتوبر - التمور - من كل عام يوماً عالمياً للتضامن مع المنفيين العرب الليبيين.

٢ - في إطار اعتبار ظاهرة الاستعمار كجريمة دولية للدولة، يدعو المشاركون الى تشكيل محكمة دولية لمحاكمة هذه الظاهرة وتصفية آثارها.

٣ - دعوة الهيئات العالمية من جامعات ومراكز بحوث ولجان حقوق الانسان لتنظيم مؤتمر دولي حول إقرار مبدأ التعويض عن آثار الاستعمار. ومن المفيد أن يصدر عن هذا المؤتمر توصية باقامة معهد للدراسات المقارنة لأشكال الاستعمار.

٤ - التوجه الى عقد دورة خاصة للجمعية العامة للأمم المتحدة حول مبدأ تصفية آثار الاستعمار وتعويض الشعوب المستعمرة.

٥ - تشكيل لجنة متابعة لمواصلة الجهود لوضع التوصيات الصادرة عن هذه الندوة موضع التنفيذ.

إن المشاركين يحيون القوى التي ناضلت ضد الاستعمار في مختلف أنحاء العالم. وهم يحيون بالخصوص تلك القوى التي وقفت ضده في البلدان الاستعمارية نفسها.

كما إن المؤتمر اذ يحي بحرارة النضال البطولي التحرري للشعب العربي الليبي ضد الاستعمار الايطالي، فانه يحي أيضاً القوى الديمقراطية في ايطاليا التي وقفت ضد سياسة الاستعمار والفاشية، والتي شارك العديد من أفرادها المناضلين والمنفيين الليبيين سجونهم.

إن حلاً سلمياً لمسألة التعويضات عن أضرار الحرب الاستعمارية لليبيا سوف يسهم بلا شك في إقامة جو من التعاون الأفضل في المستقبل بين هذين البلدين.

التقرير الخامس

مذكرة عربية إلى الاجتماعيين والكتاب السوفييت

بعثت اللجنة العربية لدعم قرار الامم المتحدة ٣٣٧٩ الذي يقرر ان الصهيونية شكل من اشكال العنصرية والتمييز العنصري، بعثت هذه اللجنة ومقرها دمشق بمذكرة الى اللجنة الاجتماعية المناهضة للصهيونية في الاتحاد السوفييتي والى اتحاد الكتاب السوفييت وهذا نصها:

الزملاء في اللجنة الاجتماعية لمناهضة الصهيونية في الاتحاد السوفييتي المحترمين

الزملاء في اتحاد الكتاب السوفييت المحترمين

تحية النضال والابداع..

تابعنا باستغراب وأسف شديدين زيارة عدد من المثقفين السوفييت الى تل أبيب ولقاءاتهم مع بعض الشخصيات الرسمية الاسرائيلية وإدلائهم بتصريحات خطيرة لاتستفز المشاعر العربية فحسب، بل مشاعر كل الاخيار والتقدميين وضحايا العنصرية والاضطهاد في العالم أجمع، وخصوصا تلك التي حاولت تبييض صورة الصهيونية ونفي صفة العنصرية عنها، بل واظهارها بمظهار «حضاري» و «ديمقراطي» و «تحرري».

ان تلك الزيارات والتصريحات جاءت في وقت تتوجه أصوات جميع انصار حقوق الانسان والسلم في العالم لادانة الارهاب الصهيوني العنصري والتضامن مع الشعب العربي الفلسطيني وانتفاضته الباسلة المندلعة منذ سنتين، من أجل حقه في العودة وتقرير مصيره بنفسه وعلى أرض وطنه واقامة دولته المستقلة.

ان زيارة شاعر التمرد يفتشنكو والمخرج السينمائي المجدد كليموف والكاتب المعروف جنكيز اتماتوف وغيرهم وتهافت بعض المثقفين للحج الى تل أبيب، ووقوع البعض في فخ الصهيونية وسيلان لعاب البعض الاخر، يفقد هؤلاء ليس مريديهم في العالم العربي من القراء والمشاهدين والمعجبين بفنهم وأدبهم ونتاجاتهم، بل يفقدهم المصداقية عند الحديث عن تصوير فظائع الاحتلال النازي وجرائم الاستبداد وعبادة الفرد، فقضايا الحرية والديمقراطية واحدة ولايمكن ان تتجزأ.

ان الفظاعات والمجازر التي رافقت فترة الاحتلال النازي أوماشهده الاتحاد السوفييتي خلال فترة الاستبداد والعسف وماشابهها تستحق كل الادانة والشجب، مثلما هي فظائع وجرائم الصهيونية والاحتلال الصهيوني في فلسطين.

ومن الغريب ان تصريحات كتاب وأدباء وفنانين كنا نكن لهم الاحترام ونروج نتاجاتهم وأعمالهم في الوطن العربي، تأتي في ظل تواصل وتصاعد القمع الصهيوني للانتفاضة وفي ظل تعاظم الشجب العالمي لجرائم الصهيونية، تلك التي ادانها المجتمع الدولي بقرار الجمعية العامة للامم المتحدة الصادر في ١٩٧٥/١١/١٠ حيث دمغ الصهيونية باعتبارها «شكلا من اشكال العنصرية والتمييز العنصري»، ولم يكن ذلك توصيفاً نظرياً للصهيونية وانما جاء من خلال ممارساتها قبل قيام «اسرائيل» وبعدها، طيلة اكثر من سبعة عقود خلت.

اننا مثقفون عرب ومعنيون بمناهضة الصهيونية ودعم قرار الامم المتحدة ٣٣٧٩ ننظر بعين القلق وعدم الارتياح الى ظاهرة تفاقم النشاط الصهيوني في الاتحاد السوفييتي الذي نجم عن تأسيس اتحادات وجمعيات ونواد للصهاينة، وانفلات بعض المثقفين السوفييت في ابداء التعاطف والتأييد لهم وبداية موسم الحج الى اسرائيل.

وفي الوقت الذي نقدر فيه جو العلانية

والديمقراطية الذي أوجدته حركة البريسترويكا ونعتبره ظاهرة صحية ومفيدة لاعادة البناء ولتجديد المجتمع، فاننا في الوقت ذاته ليساورنا المزيد من القلق والتحفظ على استثمار العناصر الصهيونية مثل هذه الاجواء الايجابية لمآربها الخاصة ومساعيها المناوئة للتقدم والمناصرة لاسرائيل والعنصرية.

أيها الزملاء الاعزاء..

نتوجه اليكم بدافع الزمالة والابداع وأهداف النضال المشترك، لكي تنظروا الى هذه المسألة بما تستحقه من جدية ومن موقف مسؤول، واننا واثقون من أن الاغلبية الساحقة من المثقفين السوفييت وفية لتراثها وتاريخها ومخلصة لمثلها ومبادئها الانسانية وهي تستنكر تصرفات بعض المثقفين الذين تخلوا عن قيمهم لدوافع خاصة وبعيدة كل البعد عن مثل الثقافة والانسانية.

نرجو لكم المزيد من النجاح في نضالكم واعمالكم ولتحقيق اهدافكم.

نتمنى ان تتعزز علاقاتنا، آملين أن نتلقى جوابكم على هذا الخطاب، لنشره على الرأي العام العربي.

مع خالص التمنيات والاعتزاز..

نشد على أيديكم بحرارة.

اللجنة العربية
لدعم قرار الامم المتحدة ٣٣٧٩
دمشق في ١٢/١٠/١٩٨٩

التقرير السادس

متابعة لأهم عروض مهرجان دمشق السينمائي السادس

٢١ ـ ٢٩ تشرين أول ١٩٨٩

معظم من تابع مهرجان دمشق السينمائي السادس من محبي هذا الفن انتهى الى قناعة بأنه لم يصل الى مستوى الطموح المنتظر. فالوافد الجديد وبعد سنتين من الانتظار لم يحمل ما كان متوقعاً. فاذا ما تم استثناء فيلم «الذرة الحمراء» الصيني و «ليالي ابن آوى» الموصوف بالسيرة الذاتية للمخرج السوري عبد اللطيف عبد الحميد، يتبين «أنه لم يكن هناك فيلم يثير الدهشة أو يجعلنا نقف مؤكدين روعة الفن السينمائي»(١).

فالاعين كانت تتطلع الى نوعية من الافلام تميزت خلال العامين الماضيين لان المهرجان هو الوسيلة الوحيدة لرؤية هذه النوعية من الافلام سواء في العروض الاعلامية أو في عروض المسابقة الرسمية خاصة وأن بعض التصريحات كانت تشير الى عرض بعض هذه الافلام ذات

الرؤى والطروحات الجديدة والتي كان لها صدى على المستوى العالمي أو الاقليمي وكان قد قدم سابقاً في المهرجانات الماضية نماذج منها في العروض الاعلامية أذكر منها على سبيل المثال فيلم «الندم» «لتنغيزابولادزه» السوفييتي في المهرجانان الخامس وفي هذا المجال يتساءل الناقد السوري د. رفيق الصبان «اذا كان ذلك حال السينما العالمية أو هو سوء في اختيار الافلام المشاركة في المهرجان»(٢).

ويعلل المخرج عبد اللطيف عبد الحميد انطباعه عن المهرجان بأنه يعاني من نقص الكوادرر التنظيمية(٣) أما الناقد المصري سمير فريد فيرجع السبب الى أن المهرجانات السينمائية العربية «كلها في تراجع على جميع الاصعدة وهذا أمر لم يكن متوقعاً»(٤).

الافلام العربية والمهرجان:

ضمن مسابقة الافلام الروائية عرض الفيلم التونسي «خريف ٨٦ لرشيد فرشيو» وهو يتناول حياة صحفي سخر قلمه في خدمة السلطة وفي جملة التغييرات السياسية التي حدثت في تونس أواخر عام ١٩٨٦ يتخلى هذا الصحفي عن مواقفه ويعود الى حريته التي يصورها الفيلم في اللقطات الاخيرة وهو ينثر أوراقه في الهواء متوجهاً للبحر عبر الاغنية المعبرة. هل وفق كاتب السيناريو «التيجاني زليلة» في عكس الاحداث والتغييرات السياسية التي تمثلت في المعارضة الشعبية التي حصلت بتلك الفترة؟. على كل فقد تعرض الفيلم لانتقادات المهتمين بالفن السابع عبر حوار مع المخرج «فرشيو» في ندوة خاصة لمناقشة هذا الفيلم دارت حول النقاط التالية:

- عدم رؤية ظلال واضحة للشارع التونسي في الفيلم والعنوان أكبر مما قدمه الفيلم.
- البنى الدرامية كانت سيئة.
- التعاطف مع بطل الفيلم والفيلم كان يريد عكس ذلك.
- الفترة التي يتعرض لها الفيلم أغنى بكثير مما نقل.
- لم تظهر قدرات الكاميرا الخاصة المطلوبة والحوار كان أكثر حضوراً على حساب باقي العناصر(٥).

اضافة الى ذلك يؤخذ على هذا الفيلم ضياع الاحداث الرئيسية على حساب قصة الحب التي عرضها الفيلم بين الصحفي والطالبة التي عملت لديه كمساعدة وضاربة آلة كاتبة.

أما في أيام الغضب المصري تجربة المخرج «منير راضي» والذي يقدم فيلماً من سيناريو «بشير الديك» يتناول ما يحدث داخل مشفى للامراض العقلية وكيف يجبر ابراهيم القمحاوي الشاب العائد من الغربة على الدخول الى هذه المشفى نتيجة مؤامرة تشترك بها زوجته وأهلها مع الزوج الجديد، وتتصاعد الاحداث الدرامية لتنتهي بقتل «ضيا» حارس عنبر المرضى وبانتقام ابراهيم من زوجته الخائنة مع زوجها.

يقول المخرج منير راضي: «وضعت نصب عيني تركيب محاولة لتشريح الواقع المصري وذلك عندما تتحول القيم والاخلاق الى شكل مادي فقط فالمكان هو الواقع وليس المشفى لانها عالم مصغر له»(٦).

من أبرز ما طرح حول هذا الفيلم خلال الحوار مع مخرجه والممثل نجاح الموجي تتلخص

في النقاط التالية :

« ـ سلبية الشخصيات .

ـ عدم الاقناع في الحس الزمني كما بدا في مشهد الهروب من المشفى .

ـ تم دفع ثمن القهر والعذاب الموجودين داخل المشفى من الموظف الصغير «ضيا» وعدم التعرض للمدير»(٧).

أما فيلم «سمك لبن تمر هندي» همّ المخرج «رأفت الميهي» حيث يتعرض لحكم العسكر ومشاكل أخرى في بلدان العالم الثالث، بشكل جديد حيث يمزج الواقع بالخيال ناقداً الممارسات الشاذة بصورة كاركاتيرية في سبيل ايصال الفكرة للمشاهد «انه يبني مأثرته أو «مسخرته»! . كما جاء في أفيش فيلمه على تفاصيل واقع الفنان رغم نشازه ومروقه على أبسط الشروط الانسانسة! . واقع يقدم للفنان صورة غنية في تناقضاتها وغرابتها يقوم رأفت الميهي باعادة ترتيبها على نسق جديد أشد تطرفاً وغرابة»؟(٨).

أما «ليالي ابن آوى» ورحلة «عبد اللطيف عبد الحميد» الذي تحدث عن تجربته مع الفيلم منذ انجازه كنص وسيناريو عام ١٩٨٤ وكان من الممكن أن يكون أكثر حرارة لو نفذ في العام ١٩٨٥ لكن سنوات الانتظار كانت مريرة وقد أنتج الفيلم بكلفة انتاجية بسيطة رغم صعوبات العمل(٩). أحداث الفيلم تدور حول عائلة تعيش في احدى مناطق القطر السوري وزمانيا قبل وخلال عام ١٩٦٧ بحيث يعرض المخرج تفاصيل الاحداث التي تدور في فلك العائلة ويعرض شخصياته في أدق تفاصيلها حتى يندمج المشاهد بالحدث وينسى أنه في صالة للعرض «فمن خلال عناصر تقنية سينمائية وعبر توظيف بسيط ومعبر للمحيط والمكان الذي تدور فيه أحداث الفيلم اختصر عبد اللطيف أزمة مرحلة وقدمها بشكل معبر وببساطة شديدة من خلال تلك العائلة الصغيرة التي تجد لتعيش لكنها تتبعثر مع الايام كيفما اتفق محاصرة بمخاوف كانت دائماً موجودة ودون معالجة جذرية»(١٠).

«المغتصبون» لسعيد مرزوق من الافلام العربية التي لاقت اقبالاً جماهيرياً كبيراً وهو فيلم يبحث في احدى حادثات الاغتصاب التي حدثت في مصر ويحاول تحليلها بشكل موسع وباسهاب بحيث يتناول أدق التفاصيل وقد ظهر جلياً قدرة الممثلة «ليلى علوي» في اتقان دور الفتاة.

ومن الافلام العربية أيضاً عرض فيلم «البيضة والحجر» والذي يقوم ببطولته النجم «أحمد زكي» عضو لجنة التحكيم في المهرجان وهو يتناول ظاهرة السحر والشعوذة والتنبؤ وكيف تتحول هذه الظاهرة على يد استاذ فلسفة يطرد من التدريس بتهمة سياسية ملفقة الى وسيلة للاثراء. عرض أيضاً فيلم «أحلام هند وكاميليا» لمحمد خان.

كما تم عرض الافلام السورية التي سبق ونالت جوائز في مهرجانات سابقة منها «أحلام المدينة» لمحمد ملص و «وقائع العام المقبل» و «الشمس في يوم غائم» و «نجوم النهار» لاسامة محمد الذي افتتح به المهرجان وحول هذه الافلام ورغم أهميتها وخاصة على الصعيد العربي الا أنها لم تزل حبيسة داخل أسوار الحدود السورية. أو ضمن برامج مهرجان قرطاج أو القاهرة أو عناية

ولم تجد مكانها الطبيعي داخل صالات العرض السينمائي في الوطن الكبير حتى الان.

وقد تكون هناك مشاكل عديدة خلفتها أساليب التوزيع المتعثرة داخل الشبكة العنكبوتية التي تحاصر الاعمال الجادة والجيدة. بدعوى عدم تحقيقها للارباح ـ الباهظة ـ التي يسعون اليها، هذه الشبكة/ المؤامرة تجعل من الضروري البحث عن طرق جديدة خارج هذه الشبكة لتوصيل هذا الانتاج المتميز الى المتلقي الحقيقي الذي يتلهف عليها ويحتاج الى مشاهدتها. . .

وقد تكون اقامة اسبوع للسينما السورية بقصر السينما للثقافة الجماهيرية بمصر وهو منشأة جديدة. توجهها الاساس السينما المصرية والعربية ـ تحديداً»(١١) هو شكل من أشكال اخراج هذه الافلام للمشاهدين.

من الجزائر عرض في المهرجان مجموعة من الافلام منها «زهرة الرمال» و «صرخة الصخر» الذي يبحث في تبدل المجتمع القبلي الى مجتمع حضري ومساوىء ومحاسن هذا الانتقال عبر عائلة تعيش في احدى القرى الجبلية مسكنها بين الصخور. كما عرض أيضاً «القلعة» والذي نال سيف دمشق الفضي وهي الجائزة الثانية في المهرجان.

أهم الافلام العربية القصيرة :

توزعت جائزة المهرجان لهذا النوع من الافلام على فيلمين الاول لبناني «لقيس الزبيدي» باسم «واهب الحرية» وعلى الرغم من أن السياق الرئيسي للفيلم مأخوذ عن مسلسل تلفزيوني عرض في التلفزيون السوري عبر حلقات باسم «وردة الدم» فقد استطاع المخرج الزبيدي بعد الاضافات التي أدخلها على الفيلم أن يحقق فيلماً معبراً عن المقاومة الوطنية اللبنانية ضد الاحتلال الاسرائيلي بعد الاجتياح عام ١٩٨٢، وقد ركز الفيلم على أهم الشهداء الذين سقطوا في الدفاع عن لبنان ضد المحتل.

أما الفيلم الثاني فهو «مذكرات فلسطينية» الذي يعرض بالوثائق تاريخ فلسطين من أواخر القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين وعبر المجلة الثقافية في التلفزيون العربي السوري بتاريخ ٣١/١٠/١٩٨٩ تحدث المخرج «أمين البني» عن مذكراته التي ابتدأها «بمذكرات وطن» وثانيها الفيلم المذكور «مذكرات فلسطينية» وقال أنه يطمح لان يقدم مجموعة من المذكرات «بالوثائق المرئية» تشمل دول المشرق العربي ومن الجدير بالذكر أن فيلم «مذكرات فلسطينية» من انتاج التلفزيون السوري.

عرضت أيضاً عدة أفلام قصيرة منها «المدينة ذاكرتي» التونسي و «فيتو» من سوريا و «صنعاء الحضارة» من اليمن.

الصين والملحمة الحمراء :

برأي معظم النقاد أن هذا الفيلم من أفضل الافلام التي قدمت في المهرجان، وسبق أن حصل هذا الفيلم على جائزة من مهرجان برلين للعام الماضي ونال في مهرجان دمشق الحالي جائزة لجنة التحكيم.

وتدور أحداث الفيلم حول فتاة تزوج لرجل في الخمسين من العمر وأثناء نقلها اليه يعشقها حامل المحفة ومن ثم يقتل زوجها ويفهم

من سياق الفيلم أن القاتل هو العشيق الذي تحمل منه أيضاً الطفل الذي يولد ويتذكر أحداث الفيلم.

وتبدأ الحوادث المزعجة بقدوم الغزاة اليابانيين وتهب الزوجة الصغيرة والحمال العاشق وعمال المصنع للدفاع عن الارض المغتصبة وتحدث الملحمة وتصطبغ الشاشة بلون الخمر الذي يظل طويلاً بذاكرة الطفل.

يروي الفيلم عبر الصورة بشكل شاعري عبر لقطات منتقاة ببراعة تصور الشفق الاحمر أحياناً من خلال الصخور وأحياناً أخرى عبر أغنية العاشق، قصة الانسان وصراعه وحبه ونضاله ومن ثم الاستماتة بدفاعه عن الوطن لقد استطاع «المخرج الصيني «زانغ ييامو» مرة أخرى وليست الاخيرة في تاريخ الفن أن ينتج عملاً بصرياً مدهشاً تغذيه ذاكرة خصبة تمتد من ذاكرة الجد الى ذاكرة الاب الطفل من خلال تفاصيل حيوات شديدة الخصوصية منسوجة بمغزل يشبه المغزل الذي تؤلف به الشعوب أهازيجها...»(١٢).

عُرض من الصين أيضاً فيلمان هما «ملك السولو وامبراطور الصين»، و «موت حسناء».

الولايات المتحدة والمهرجان

ضمن العروض الاعلامية قدم فيلمان (لوودي الن) هما «أيام الراديو» و «زهرة القاهرة القرمزية» «وصفت أعمال «وودي الن» بأنها تحمل لهجة جادة ورزينة وساخرة في آن واحد وتلقى أفلامه نجاحاً تجارياً، حول هذا يقول «وودي الن» في كل مرة يحظى فيلم من أفلامي بشعبية كبيرة تنتابني الريبة فالافلام الجيدة عادة والتي أحبها كأفلام (لويس بونويل) و «انغمار برغمان» و «فريد ريكو فلليني» لا تجد هذا النوع من الجمهور الواسع»(١٣).

كما عرض من أمريكا أيضاً وضمن العروض الاعلامية فيلم «الرجل الحيوي» وتدور أحداثه ضمن أروقة جامعة «هارفارد» والقصة عن شاب يدخل هذه الجامعة ويستفيد من منحة لا يستحقها على حساب الفتاة الزنجية «سارة» وفي النهاية يعترف الشاب بخطئه ويصبح من المدافعين عن حقوق الزنوج!! وذلك بعد اعجابه بالفتاة.

من البرازيل عرض فيلم «اللامتكيف السعيد» ومن فرنسا عرض خارج المسابقة «الممر» للممثل آلان ديلون.

وشارك الاتحاد السوفييتي بفيلمي «مبكرة النمو» و «السافل» الذي استحق بطله الرئيسي «ماموكاليكا لفتفيلي» جائزة تقديرية.

كما اشتركت تركيا في المسابقة بفيلم «محسن بيه» واندونيسيا بفيلم «المبشر».

كما اشتركت الهند بالمهرجان بفيلم «الهند ١٩٢١» و «ناياكان».

ضمن تظاهرة السينما الافريقية عرضت عدة أفلام منها «طبيب غافير» من النيجر و «البيض الصغار» من السنغال و «دجيلي» من ساحل العاج و «ابنتنا» من الكاميرون و «الحياة حلوة» من زائير ومن بوركينا فاسو تم عرض فيلم «ويندكوني» وهو عبارة عن عرض للحياة القبلية وما يوجد فيها وكيف يتم العيش والتبادل سابقاً في هذه الدولة عبر خط درامي بسيط عن قصة طفل يفقد أمه نتيجة بعض العادات القبلية السيئة

وذلك عندما تتهم والدته بالسحر وقتل أحد أطفال القبيلة فتهرب من القرية نتيجة اضطهاد السكان وتفر الى الغابة فتموت هناك وتترك ابنها وحيداً ليلقاه أحد الافراد ويعيش عنده.

تلك كانت أهم عروض المهرجان الذي استمر ثمانية أيام عبر ست دور للعرض محيطة بفندق الشام الذي أقامت به الوفود المشاركة.

ويظل للمهرجان دور كبير في ابراز وتلاقي الخبرات السينمائية وهو مظهر من المظاهر الثقافية الهامة والمتنوعة التي تقام في دمشق كل عامين.

ولعل أهم ما يميز هذا المهرجان بالاضافة لتنوع الافلام المعروضة ذلك الحضور الجماهيري على صالات العرض التي تعددت في هذا المهرجان.

ذكرنا ذلك بالايام الذهبية لدور السينما عندما كان المرء يقف طويلاً للحصول على بطاقة ولا يستطيع ومن ثم يبتاعها من السوق السوداء لكي لا تضيع عليه المتعة... متعة المشاهدة...

● وليد قشبري

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٩

١ ـ تشرين السورية، رأي للناقد السوري د. رفيق الصبان تاريخ ٣٠/ ١٠/ ١٩٨٩.

٢ ـ نفس المرجع السابق. تاريخ ٣٠/ ١٠/ ١٩٨٩.

٣ ـ تشرين السورية. تاريخ ٢٦/ ١٠/ ١٩٨٩.

٤ ـ المرجع السابق مقابلة مع الناقد المصري سمير فريد.

٥ ـ للتوسع، انظر نشرة المهرجان العدد الخامس تاريخ ٢٥/ ١٠/ ١٩٨٩.

٦ ـ النشرة عدد (٣) من جريدة المهرجان اليومية تاريخ ٢٣/ ١٠/ ١٩٨٩.

٧ ـ للتوسع انظر نشرة المهرجان العدد الرابع تاريخ ٢٤/ ١٠/ ١٩٨٩.

٨ ـ البعث السورية ٣٠/ ١٠/ ١٩٨٩.

٩ ـ للتوسع انظر (الندوة التي دارت حول الفيلم) في نشرة المهرجان عدد /٦/ تاريخ ٢٦/ ١٠/ ١٩٨٩.

١٠ ـ تشرين السورية ٢٦/ ١٠/ ١٩٨٩.

١١ ـ جريدة الثورة السورية ٢٩/ ١٠/ ١٩٨٩ «السينما السورية، سينما تبحث عن جمهور، جمهور يبحث عن سينما».

١٢ ـ البعث السورية تاريخ ٣٠/ ١٠/ ١٩٨٩.

١٣ ـ تشرين السورية ٢٨/ ١٠/ ١٩٨٩.

التقرير السابع

الملتقى الثاني للابداع الأدبي والفني

عقد في طرابلس الغرب عاصمة الجماهيرية العربية الليبية في الفترة ٤ ـ ٦/ ١١/ ١٩٨٩ المؤتمر الثاني للابداع الادبي والفني حضره عدد من المبدعين العرب من أدباء وشعراء وباحثين من أرجاء الوطن العربي وتخللته معارض للفنون التشكيلية والكتاب العربي وأمسيات شعرية

وموسيقية، وخصصت جلسات الملتقى لمناقشة قضية الحرية في الوطن العربي وعلاقتها بصنوف الابداع مثل المسرح وقضية الحرية، الرواية والقصة العربية وقضية الحرية، الشعر العربي وقضية الحرية، الفنون التشكيلية وقضية الحرية، وهكذا.

ومن الجدير بالذكر أن الملتقى الاول للابداع كان قد عقد في أغادير بالمملكة المغربية في الفترة ٢١ - ١٩٨٨/١٠/٢٦ تحت عنوان الابداع «والهوية القومية».

واذ نشير في هذا التقرير الى بعض وثائق الملتقى فان الكاتب الفلسطيني تنشر في هذا العدد بعض أبحاث هذا الملتقى الذي ينظمه المجلس القومي للثقافة العربية.

لائحة الموضوعات والباحثين والمعقبين

المحاور	الباحثون	المعقبون
الابداع والحرية		ناجي علوش
محور عام	د. مبارك ربيع	علي مصطفى المصراتي
المسرح العربي		يسرى الجندي
وقضية الحرية	د. نهاد صليحة	عبد الكريم برشيد
		أحمد عزيز
الرواية والقصة العربية		أحمد الفقيه
وقضية الحرية	د. أحمد اليابوري	جورج طرابيشي
الشعر العربي		حسام الخطيب
وقضية الحرية	د. محي الدين صبحي	خالد البرادعي
		سلمى عبد الجبار
الفنون التشكيلية العربية		محمد بيده
وقضية الحرية	د. بلند الحيدري	عز الدين نجيب
		مصطفى الحلاج
السينما العربية - الخيالة -		ماجدة موريس
وقضة الحرية	د. كمال رمزي	رمضان سليم
الموسيقى والغناء العربي		محمد الرئيس
وقضية الحرية	د. صالح المهدي	حسن عريبي
الابداع والحرية		كامل زهيري
ووسائل الاتصال	د. ابراهيم العريس	صالح أبو اصبع

محاور الملتقى

الخيالة العربية وقضية الحرية :

الرئيس صلاح أبوسيف

المقرر نور الدين افايا

الابداع والحرية ووسائل الاتصال :

الرئيس ناجي علوش

المقرر فريدة النقاش

الموسيقى والغناء العربي وقضية الحرية :

الرئيس د. هشام أبوقمرة

المقرر د. فاروق الشرنوبي

بيان صادر عن الملتقى القومي الثاني للابداع العربي الادبي والفني حول الانتفاضة

تقترب الانتفاضة الشعبية العربية في فلسطين المحتلة من اكتمال عامها الثاني، لتدخل عامها الثالث، أكثر قوة وتمسكاً واصراراً على مواجهة العدو، تقدم الضحايا متحدية بذلك جحافل العدو، والصمت المريب من حولها في الساحة العربية.

والمبدعون العرب من مختلف المجالات الادبية والفنية المجتمعون في الملتقى العربي الثاني للابداع الادبي والفني بدعوة من المجلس القومي للثقافة العربية، في الفترة من ٤ الى ١٩٨٩/١١/٧م بطرابلس، اذ يقفون بإجلال أمام عظمة ما تصنعه جماهيرنا العربية الصامدة في فلسطين المحتلة، وما تسطره من بطولات ومواجهة العدو الصهيوني المغتصب، تعلن عن موقف التمجيد والتلاحم هذا البيان لتأييد الانتفاضة الشعبية البطولية.

أولاً : اننا نرى في انتفاضة جماهيرنا العربية في الاراضي المحتلة ابداعاً نضالياً يعبر عن ارادة الشعب العربي في تحرير الارض والانسان العربي واعادة لمصداقيته المهدورة.

ثانياً : جاءت الانتفاضة في هذه الظروف الصعبة لتبعث فينا حوافز نضالية جديدة ولتعزز الشعور بالثقة والكرامة بعد أن هددت السياسات الاستسلامية كل ذلك.

ثالثاً: قرر المشاركون التبرع بأجر يوم من مرتب كل شهر لدعم الانتفاضة، ويدعون كافة المثقفين وجماهير شعبنا في الوطن العربي لاتخاذ مبادرة مماثلة.

رابعاً: ان كل عربي مطالب بالاسهام في تكوين العمق القومي العربي للانتفاضة، ولذلك فاننا نعلن عن موقفنا المتماسك مع كفاح الشعب الفلسطيني في فلسطين المحتلة، وندعو الى عقد (مؤتمر قومي شعبي لدعم الانتفاضة) من أجل أن تصبح هذه الانتفاضة مسئولية قومية شاملة.

ويقرر الملتقى تخويل مؤتمر الشعب العربي باعتباره هيئة شعبية قومية جامعة في أخذ المبادرة للدعوة لهذا المؤتمر الشعبي القومي لدعم الانتفاضة وتشكيل لجنة تحضيرية له بالتعاون مع المنظمات الشعبية والقومية من أحزاب ونقابات وقوى سياسية وشخصيات وطنية وثقافية في الوطن العربي.

ويكون من مهام هذه اللجنة:

١ ـ وضع برنامج لتحقيق دعم شعبي عربي شامل للانتفاضة يحول دون أي تفريط في مكتسباتها أو محاولة اجهاضها والقضاء عليها والحيلولة دون الاعتراف بالعدو.

٢ ـ اختيار لجنة قومية تكلف بهذه المهمة، وتكوين لجان محلية في الاقطار العربية يكون من مهماتها حشد الجماهير العربية حول الانتفاضة وتوفير كل مستلزمات الصمود المادي والمعنوي لها.

والمشاركون اذ يقررون ذلك، يشيدون بكفاح الشعب العربي الفلسطيني بقيادة منظمة التحرير الفلسطينية على طريق الكفاح المسلح، ويعتبرون شهداء الانتفاضة وشهداء الشعب الفلسطيني هم شهداء للامة العربية، ويدعون كل القوى القومية التقدمية الوقوف مع الانتفاضة ومع كفاح الشعب الفلسطيني من أجل تحرير كل فلسطين.

البيان الختامي للملتقى الثاني للابداع العربي الادبي والفني طرابلس ٤ ـ ٧/١١/١٩٨٩

مواصلة للمسيرة التعبوية للمبدعين العرب الملتزمين بقضايا الامة في التحرر والوحدة وصنع التقدم، وبدعوة من المجلس القومي للثقافة العربية، عقد الملتقى الثاني للابداع العربي الادبي والفني في طرابلس ـ الجماهيرية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، أرض الصمود والتصدي وذلك خلال الفترة ما بين ٤ ـ ٧/١١/١٩٨٩.

وقد انعقد هذا الملتقى في سياق ظروف تاريخية بالغة الاهمية والخطورة يميزها استمرار الانتفاضة الفلسطينية البطلة، وامتداد الهجمة الشرسة للامبريالية والصهيونية على الوطن العربي، وما يشكله ذلك من مخاطر حقيقية على القضية الفلسطينية والقومية عموماً كما يميزها استمرار معاناة للمواطن العربي ضمن أوضاع شاذة من التسلط والتخلف، تغيب فيها الديمقراطية. ويستخف بحقوق الانسان وكرامته، ويقع بها الوطن العربي كله هدفاً للهجمة الامبريالية والصهيونية.

وقد خصص للملتقى جلسة خاصة لدراسة

دعم الانتفاضة الفلسطينية داخل الاراضي المحتلة شارك فيها الرائد ركن عبد السلام جلود، بتقديم مداخلة قومية ثورية، حيث أكد المشاركون على الدور التاريخي الذي تجسده الانتفاضة كإرادة مقاومة تعبر عن موقف للانسان العربي مواصلة الكفاح والنضال ورفض الحلول الاستسلامية.

ويرى المشاركون أن الانتفاضة أصبحت هي الاطار المرجعي الذي يجب أن يندرج ضمنه كفاح المبدعين والمثقفين العرب كالتزام واضح يتطلب الدعم والمساندة بما يضمن لها الاستمرار والفعالية لمواجهة محاولات الاجهاز عليها. واضعاف مفعولها، ويجعل من هذه الانتفاضة حالة شعبية عربية تحمي وتدعم اتجاه أهدافها. وقد كرس الملتقى اشغاله لدراسة قضية محورية هي قضية (الابداع والحرية) بعد أن عالج المبدعون في العام الماضي قضية (الابداع والهوية القومية) ومن خلال العروض والتعقيبات والمداخلات تبين أن العملية الابداعية هي في ذاتها عملية تحرر، وأن لها دوراً في خلق الظروف الاجتماعية اللازمة لتحقيق الحريات وتعميق وعي المواطنين بقيمها وضرورة الالتزام بها في مختلف ميادين التعبير الادبي والفني وفي جو من التكامل بين هذه الميادين.

وهكذا تمكن الملتقى، وفي جو من الحوار الصريح والديمقراطي، من دراسة قضايا الابداع العربي في المسرح والشعر والرواية والفنون التشكيلية والسينما والموسيقى والغناء والاعلام في علاقتها بالحرية والتحرر مما جعل الملتقى ممارسة ثقافية هادفة لفهم الواقع العربي والسعي لمواجهة كل مظاهر الزيف، وفضح القوى والمعيقات التي تعمل على تكميم الافواه وشل القدرات الابداعية الرامية الى بناء غد عربي أفضل، وفي اطار تجسيد المشروع الحضاري العربي الجديد.

كما استمع المشاركون الى مجموعة من شهادات المبدعين من مختلف أصناف الابداع الادبي والفني حول تجاربهم الشخصية كشفت عن المعاناة الشديدة من جراء غياب الحريات والحقوق الديمقراطية في المجتمع العربي.

وتبين للمبدعين أن الظرف التاريخي يفرض عليهم المزيد من النضال الثقافي والالتزام بقضايا الانسان العربي وحقوقه، فقضية الحرية كل لا يتجزأ، حرية المبدع من حرية شعبه، لذلك ينظر الملتقى بقلق الى تدهور حالة حقوق الانسان والحريات العامة في الوطن العربي، ويطالب الحكومات العربية بالغاء كافة القوانين المقيدة للحريات واشاعة روح التسامح واحترام الرأي الأخر والاقرار بالحق في الاختلاف والتعددية الفكرية في اطار الالتزام بأهداف الامة العربية وبمبادئها وتراثها.

ويطالب المشاركون بالمواثيق الدولية التي تكفل كل هذه الحقوق حتى تتمكن جماهيرنا العربية من مواجهة التحديات التي تستهدف كافة الامة العربية وشخصيتها الحضارية. ويؤكد المشاركون في الملتقى على أهمية وضع تشريعات خاصة بحقوق الانسان والالتزام بتنفيذها. ومن القضايا التي أثارت نقاشاً مطولاً اعتبار مجالات الابداع الادبي والفني وسائر الفعاليات الثقافية والعلمية أدوات متجددة وفعالة ليس فقط للابداع النظري المحض، ولكن الابداعات تشمل جميع مناحي

الحياة العربية حتى يتمكن شعبنا العربي من خرق طوق التبعية والتخلف والتسلطية.

وكان الملتقى مناسبة تم فيها الاعلان عن انشاء المؤسسة العربية للانتاج الادبي والفني (ابداع) التي ستكون أداة مستقلة في أيدي المبدعين أنفسهم لانتاج أعمال يتوافر فيها الى جانب الشروط الفنية الالتزام الصريح بقضايا الامة العربية وتوجهاتها الوحدوية.

ومن خلال أعمال الملتقى ومداخلات المبدعين برزت رغبة الجميع فيما يلي:

١ - أن يعمل المجلس القومي للثقافة العربية على ترسيخ هذا الملتقى واستمرار انعقاده دورياً والحفاظ على ما يميزه من انفتاح ميادين الابداع الفني والادبي بعضها على بعض وتفاعلها وتكاملها، مع التوجه بحيث يكون كل ملتقى مسبوقاً باجتماعات مصغرة تخصص لكل صنف ابداعية على حدة بغية تعميق الطرح وشموليته.

٢ - ضرورة المزيد من الاعتناء بالابحاث والتعقيبات، على أن يعهد بها الى أعلى الكفاءات والالتزام بالقضايا المطروحة والاهتمام بالتوجهات المستقبلية الكفيلة برسم معالم الطريق لابداع عربي متميز، قومي وملتزم بقضايا شعبه وأمته.

٣ - ضرورة التفتح على الطاقات الشابة المبدعة والعمل على تشجيعها ضماناً لاستمرار الخط النضالي في الثقافة العربية.

٤ - العمل على احترام حقوق المبدع العربي بما يلزم من التشريعات والمؤسسات التي تكفل حرية الابداع والمبدعين وانتشار الانتاج وتوزيعه دون قيود.

٥ - الاهتمام بالفعاليات الفنية والادبية الموازية للملتقى من مسرح وتشكيل وموسيقى ومعارض كتب. . . . الخ على أن تعد جيداً حتى تكون ممثلة لانتاجات نموذجية راقية المستوى. تجسم ارادة الملتقى ومبدعيه في انجاز أعمال ابداعية أدبية وفنية أصيلة مجددة وملتزمة بقضايا الامة العربية.

٦ - ومن جهة أخرى يؤكد المبدعون على أهمية تنفيذ خطة المجلس القومي للثقافة العربية في مجال الدراسات والابحاث، خاصة تلك التي تتناول قضايا العصر من منظور قومي وعلمي شامل، كما يطالب المشاركون مختلف الهيئات الثقافية بدعم هذه الخطة خدمة للأهداف القومية.

٧ - التفتح على مجالات الابداع العلمي التي تظهر من خلالها قدرة العقل العربي على الخلق مما يسمح بالانخراط في حضارة العصر، وتحقيق التقدم في مختلف الميادين الثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

هذا وقد صدر عن الملتقى بيان حول دعم الانتفاضة في الأراضي المحتلة التي هي في الحقيقة إبداع رائع لاسلوب جديد في معركة التحرر والدفاع عن الأرض وصيانة الهوية الحضارية لشعبنا العربي كله. ويتضمن البيان كذلك الخطوط العريضة لالتزامات المبدعين في دعم الانتفاضة بكافة جهودهم وابتكاراتهم حتى يتحقق الهدف التحرري الذي انطلقت من أجله.

وعلى هامش الملتقى حاور المبدعون والمثقفون العرب القيادة الثورية في الجماهيرية الأمر الذي أتاح لهم التيقن بأن هذه الساحة باختياراتها المذهبية وأسلوب ممارساتها نموذج جيد للمجتمع الذي يحرر إرادة الإنسان العربي ويفسح له المجال للإسهام في بناء أمته وصنع مصيرها وتقدمها دون أي تسلط أو وصاية.

ويعبر المشاركون في الملتقى عن تقديرهم للشعب العربي اللبناني والتضحيات الجسيمة التي يتحملها في سبيل القضية القومية، كما يعبرون عن انشغالهم لما يتعرض له لبنان من مخاطر حقيقية، تهدد وجوده.

ويعلنون تأييدهم للمقاومة الوطنية اللبنانية، ولكل النضالات والتحركات الهادفة الى طرد العدو الصهيوني من الأرض اللبنانية، وتحقيق مطامح الجماهير العربية في لبنان من أجل وحدة لبنان وعروبته وقيام نظام ديمقراطي فيه، ويؤكدون على ضرورة استمرار دور لبنان كحاضنة للثورة الفلسطينية لكي يستمر الكفاح القومي التحرري من الجنوب الى الجنوب.

وفي الختام يعبر المشاركون في الملتقى عن شكرهم وامتنانهم للجماهيرية على حسن الضيافة التي تعبر عن أصالة الروابط العربية وعمقها ومتانتها.

التقرير الثامن

ندوة: دور المرأة العربية
مضامين جديدة لحركة تحرر المرأة العربية

● دعا قسم علم الاجتماع في جامعة قاريونس لندوة «دور المرأة العربية»، والتي عقدت في الفترة من 28 الى 31/10/1989 وذلك تتويجاً لجهد زاد عن السنة، قامت به اللجنة التحضيرية للندوة، والتي ترأستها د. زينب محمد زهري أستاذة علم الاجتماع الاقتصادي، وصاحبة عدة مؤلفات في هذا المجال، أبرزها: أساسيات علم الاجتماع الاقتصادي، دور المرأة العاملة في المجتمع العربي الليبي المعاصر. بالاضافة الى كتاباتها في قضايا المرأة، وحضورها ندوات في هذا الموضوع، اعتباراً من العام 1976.

لقد حضر الندوة فعلياً أكثر من 90 باحثاً وباحثة من خارج الجماهيرية، وأكثر من 73 باحثاً وباحثة من داخل الجماهيرية. وقد طبع ووزع 65 بحثاً، بالاضافة الى الأوراق التي وصلت متأخرة، وكذلك المداخلات.

هذا العدد الكبير من المشاركين، بالاضافة

الى المحاور الستة الاساسية، وماتشعب عنها من عناوين فرعية، ومنها ترك مفتوحاً بنقط. . من أجل إعطاء حرية الخيار للباحث، ذلك لم يترك مجالاً لغموض، وكان عنوان الندوة «دور المرأة العربية»، ولذلك فقد غطت كل المراحل التاريخية للمرأة العربية، قبل وبعد الاسلام، وأثناء الفتوحات الاسلامية، والفترة الأموية والعباسية والعثمانية، وصولاً الى القرن العشرين، حيث تزداد الموضوعات تعقيداً وتشعباً وتفصيلاً، وتُطرح القضايا المصيرية.

ولتسهيل عرض أعمال الندوة، يمكن التطرق للموضوعات والاختصاصات العلمية التي طرحت من زاويتها قضية المرأة. أما من حيث التوزيع الجغرافي، فقد شملت كل أنحاء الوطن العربي، وأغلب جامعاته.

النصيب الاكبر من الأبحاث المقدمة، كان لأقسام علم الاجتماع في الجامعات، ومراكز الأبحاث العربية، مثلاً د. مصطفى التير، د. فهمية شرف الدين (معهد الإنماء العربي)، د. ليلى داوود، د. فرحان الديك، د. خضر زكريا (جامعة دمشق)، د. عبد القادر عرابي، د. صالح الزين، د. الأوجلي زوي. . . (جامعة قاريونس د. حسن طالب، د. عمر عسوس، د. حكيمة بوبايو (الجزائر)، د. قحطان الناصري، د. ناجية ابراهيم (العراق) د. زينب شاهين. . (مصر)، د. زينب ميثاذل (اليمن). . د. وائل القاضي جامعة النجاح نابلس. . والأسماء كثيرة.

لكننا يمكن تلخيص رؤية علم الاجتماع لقضية المرأة العربية هذا، إذا حررنا علم الاجتماع من الأشياء غير العلمية: كرفض الفكرة التي تركز على أنوثة المرأة والجانب العضوي كفتنة في العقل الباطن للمجتمع، ولايعنيه فيما إذا كانت مثالاً أو ملاكاً.

فالذي يعني علم الاجتماع والباحث الاجتماعي الحق هو إذا كانت أهلية المرأة العقلية والقانونية كاملة أم لا؟ ودور المرأة في البنية الأسرية العربية؟ وفيما إذا كانت بحاجة لوصاية الرجل، الذي يظهر دوره على السطح الاجتماعي.

وإن الدولة هي امتداد للسلطة الأبوية، الى جانب السلطة الايهامية التي تبعد المرأة عن موقع الفعل، والسلطة الاجتماعية ودورها في فرض الذل والخنوع. وهذه حالة من اللاتوازن بين أفراد المجتمع، سواء ضمن تركيبات اجتماعية مختلفة، من إقطاعية. . الى مهام وأدوار اجتماعية، مثل رجال سياسة سلطة. . ووصايا فكرية وثقافية. وهذا خلل كبير في التوازن الايديولوجي والحضاري.

وإنه يجب أن يواكب التغير الطبيعي تغير ثقافي، وذلك يعطي نمواً اجتماعياً متكافئاً لأفراد المجتمع، يبعد تكريس الثقافة الذكورية الذي يجعل من قضية تخلف المرأة بديهة. وهذا انفصام اجتماعي ترفضه قيم المجتمع الانساني الحديث.

وإذا كان المشروع القومي الحضاري العربي، لايريد التمزق، لابد له من أخذ قضية المرأة بعين الاعتبار، ويحدد دورها في المجتمع العربي. فلابد لهذا المشروع أن يقر أن الخريطة السياسية القائمة تضطهد المرأة، وتعتبرها مخلوقاً من الدرجة الثانية.

ولتحرير المرأة فعلا لابد من إشراكها في خطط التنمية، لأن المرأة العربية اليوم، لم تسهم في خطط التنمية، بل تشدها الى الخلف. فلابد من إتاحة التعليم والتأهيل المهني للمرأة. . وتعديل القوانين، بما يضمن شخصية المرأة العربية.

والتأكيد العام والأهم في أوراق الباحثين الاجتماعيين، هو التفريق بين العلمي الموضوعي الحيادي، وبين ماهو زيف، ويدعو ذلك لتكريس وضع قائم، أو مجاراة سلطة ذات مصلحة.

ولذلك طالبوا بإنشاء كرسي دراسي في كل جامعة عربية، يختص في دراسة أوضاع المرأة بشكل علمي دقيق ومرجعي.

وفي مجال الدراسات السيكولوجية والفسيولوجية، كانت الأوراق عديدة من أمثلة المشاركين فيها: د. ناهد رمزي، د. عبد الرحمن العيسوي، د. أنور شرقاوي (مصر)، مفتاح عبد العزيز الجماهيرية. د. ميّ جبران، د. هدى رزق (لبنان)، د. منى يونس بحري (العراق). . د. محمود الزوادي (تونس). .

الجوانب الرئيسية التي تركزت عليها الأوراق التي شملت موضوعات نفسية على ذات المرأة، من حيث قدرتها الذاتية الجسدية والعقلية، دور البيئة المحيطة في تكوين وإكساب شخصيتها ذلك الضعف الكائن.

واعتبروا أن مفتاح تغيير دور المرأة، يبدأ من ذاتها في اكتساب وخلق قدرات إبداعية، تتجاوز ذاتها ومجتمعها، ومن البداية يتم البحث فيما إذا كانت المرأة أقل ابداعية من الرجل، والنتيجة إنه لايوجد تفوق مطلق، بل هناك اختلافات نوعية، تختلف بين الذكر والانثى.

ولكن لماذا تتراجع الأنثى عن التفوق أو التوازي مع الرجل، في العلم والفن والحياة؟ في محاولة لايجاد الجواب، يذكر الباحثون العوامل الاجتماعية، والسمات الشخصية. والفروق بين الجنسين، التي كثيراً ماكانت منحازة الى جانب الذكور.

وطالب الباحثون ان تكون هناك اختبارات إبداعية متميزة معيارية، لاتنحاز إلا للعلم والحقيقة، التي تزيل قيود التربية والمجتمع التي تبنى علي بديهيات تلك الفروق، في الوقت الذي يحتاج فيها الابداع النسائي والانساني عامة توفير الحرية والديمقراطية الثقافية، وكثيراً من درجات المرونة التقبلية الاجتماعية.

وتأكيداً لقدرات المرأة، كانت هناك العديد من الاوراق التي نبشت التاريخ، لتحضر شخصيات نساء شاعرات أو قائدات. وأيضاً هناك أوراق نبشت تاريخ مظالم المرأة (مثلاً: قدم د.م التونجي عن أحوال المرأة الحلبية في الاستبداد العثماني) وغيرها.

وماذا عن المرأة في الاعلام مثلاً (صورة المرأة في الصحف العربية)، د. فتحية كارة، المرأة العربية وصورتها في الاعلام العالمي، محمود كامل، صورة المرأة في الوسائل السمعية والبصرية، د. رجاء ملكي.

مضمون الأوراق التي أحضرت دور المرأة في المجال الإعلامي، اعتبرت أن الاعلام يكرس صورة مسبقة للمرأة العربية. وهو مايبدو كأداة لثقافة سائدة، لكن الغريب في الأمر أن المرأة

العربية تقبل الصورة المرسومة لها، وتتعامل على هذا الاساس، وتحبذ الصحف والمجلات التي تطريها على أنها أنثى حالمة مثالية جميلة، ربة بيت ممتازة..

وتخلل الندوة أبحاث عاطفية، تجمعية على نمط «قالوا في المرأة..» ومنها كانت خطبة وعظية أخلاقية لم ترق الى علمية البحث ولا الى سواء السبيل.

وقد شاركت ابحاث شابة في الندوة تميزت بوضوح الطرح، وفهم جديد لقضية المرأة أمثال: (نوارة مسلم، آمال سليمان، مبروكة الشريف...).

هذه الاوراق انطلقت من مقولات الكتاب الاخضر، واعتمدت على القوانين الطبيعية، واكدت ان المساواة تبقى أمراً منطقياً انسانياً، رغم الفروق البيولوجية.

وعن ربط تحرر المرأة بحركة التحرر الوطني، كانت الموضوعات المقدمة أكثر حيوية وتقبلاً من المشاركين في الندوة، لأن التنظير امتزج بالفعل الواقعي الميداني.

قدمت د. عواطف عبد الرحمن (جامعة القاهرة) ورقة عن دور المرأة في حركات التحرر، وفيها دراسات مقارنة لأوضاع المرأة في الجزائر، فلسطين، أرتيرية، ولمحت الى تجارب عالمية. لكن السؤال الأساسي الذي طرحته: لماذا تسرق تضحيات مشاركة المرأة في حركة التحرر الوطني؟

وتضرب مثلاً في الجزائر، بعد ريادة ومشاركة المرأة في حرب التحرير الشعبية، تُهَمّش وتعود للبيت، ولدورٍ ثانوي بعد الاستقلال. وفي فلسطين المحتلة ترصد تلك الفترة في انتفاضة عام 1936، وعن انتفاضة اليوم القائمة، كبرت مشاركة المرأة، ولكن ماهي الضمانات الاجتماعية لتبقى في دورها الريادي؟

وعن تجربة المرأة الارترية اعتبرت اشتراكها العسكري والثقافي والعلمي أعطى المرأة الارترية مساواة ليست طارئة، بل تشربها المجتمع الارتري في سلوكه وقيمه.

وقد شارك في الندوة نساء من الاتحاد الوطني للمرأة الارترية (المتاضلتان فوزية هاشم وآمنة حسن) تحدثتا عن تجربة المرأة الارترية في الميدان، حيث تشارك كمقاتلة بنسبة 37% وفي كوادر الجبهة الشعبية بنسبة 10% وعن مشاركتها في المجال الاجتماعي كالصناعة والزراعة والتعليم والصحة. وان تحرر المرأة الارترية، لم يأتِ استهلاكياً انعكاساً للغرب، إنما جاء من ظروف ومتطلبات البيئة الارترية الداخلية.

وشاركت أوراق من داخل الأرض العربية الفلسطينية المحتلة، مثلاً: د. وائل القاضي، د. نوال المصري جامعة نابلس، د. اصلاح عبد الجواد جامعة بيزريت، والدكتورة كات كلافاس..

وقد تركزت تلك الأوراق حول دور المرأة في الانتفاضة كمشاركة مباشرة في الميدان والانتفاضة، ومشاركة غير مباشرة في تربية وتنشئة الجيل الذي يقاوم الاحتلال.

وإن المسألة ليست مسألة امرأة أو طفل إنما هي قضية شعب بأكمله، هذا هو الإطار العام لفهم دور المرأة الفلسطينية اليوم ومستقبلاً.

كيف تواجه محتلاً، لم يترك إلا 23% من أرض فلسطين التاريخية، ولايسمح للبنية

الانتاجية بالنمو، يصادر ويتحكم بكل حياة المجتمع تحت الاحتلال. وهنا لاخيار للمرأة، إلا أن تشارك في المواجهة الشاملة للمحتل، فهي تعمل وتقاوم، ولاتفرق سجون الاحتلال بين رجل وامرأة.

استطاعت المرأة الفلسطينية خلق مرونة العلاقة فيما بينها، لترتفع فوق الاختلافات والاتجاهات السياسية، ودورها الأهم توفير المناخ النفسي لاستمرار المقاومة، وخلق منظمات جماهيرية داعمة لها.

المرأة هناك تحول الجنازة الى مظاهرة والصمت الى انتفاضة، والشعارات الى فعل، في تموين الانتفاضة، وفهم دور وإمكانية الاقتصاد البيتي.

الانتفاضة أفرزت نماذج شعبية جديدة، ومنها تسميات نسائية فلسطينية لأول مرة في التاريخ مثل «الأسطورة» «الحربجية»، «هبوب الريح»..

وطالبوا عدم هدر الوقت في التساؤل ماذا بعد الانتفاضة والتحرير. بل ماذا تقدم المرأة في الداخل والخارج للانتفاضة؟

د. نوال السعداوي طرحت أهم نقطتين:

الأولى: اعتبرت أن هذه الندوة أهم حدث نسائي عربي حتى الآن، لما فيها من إقرار رسمي وشعبي بحقوق المرأة.

الثانية: السؤال الذي يطرح نفسه، ماذا بعد الندوة؟

ولعل الجواب كان في البيان الختامي، وكلمةد. زينب الزهري أمينة اللجنة التحضيرية للندوة، وقد دعت الى لقاء سنوي يكرس حركة تحرر المرأة العربية، في شكل تنظيمي يجمع الجهود.

● **عبد الكريم درويش**

الجماهيرية: بنغازي

التقرير التاسع

مئوية «طه حسين» خطاب التنوير الحاضر الغائب

مازال خطاب طه حسين التنويري قائما بيننا يثير الجدل والخلاف مابين مؤيد له ورافض. ومازال وطننا العربي يسعى لتحقيق الحلم الذي حملته الينا دعوة طه حسين، من أجل نهضة ثقافية عربية تقوم في مسيرتها نحو المستقبل على الأخذ بمعطيات الحاضر واستلهام تراث الماضي.

لعل مايوضح لنا ذلك هو مظاهرة

الاحتفال التي شارك فيها علماء من مختلف دول العالم في ذكرى ميلاده المئوية. والتي قامت باحيائها كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ التي أنشأها وكان أول عميد لها.

وكان الاحتفال بهذه المناسبة بعقد الندوة الدولية لمئوية طه حسين، وهي بعنوان مستقبل الثقافة العربية «الانجازات والآفاق الجديدة» وذلك في الفترة من ١١ ـ ١٤ نوفمبر ١٩٨٩.

شارك في أعمال هذه الندوة، مايقرب من ٧٠ عالما ومفكراً أتوا الى القاهرة لاحياء هذه المناسبة، فمن الدول العربية حضر د. محمد ابراهيم خور ـ الامارات ـ د. محسن جاسم الموسوي ـ العراق، د. سعيد علوش، محمد عزيز الحبابي ـ المغرب ـ د. فيصل دراج ـ فلسطين ـ محمود طرشونة، الحبيب الجنحاني تونس، د. يوسف بكار، د. حسني محمود ـ الاردن، وارسل د. رشيد بوجدره من الجزائر بدراسته حول طه حسين بين الحداثة والذاتية.

ومن الجامعات الاجنبية والمراكز العلمية حضر: الياباني نوبواكي نوتهارا جامعة طوكيو، د. محمد مصطفى بدوي ـ اكسفورد، د. عبد الله بونفور ـ فرنسا، دكتوره بردى يونا توتو رديخان (جامعة تاجيكستان السوفييتية) ومن مستشرقي الجامعات الامريكية حضر د. بيير كاكيا ـ كاليفورنيا، واستين كارول ـ وسكنسن، و د. فدوى مالطي دوجلاس.

جدول اعمال الندوة

يوضح بيان خط أعمال هذا الملتقى، والذي وزع عن عقد ثلاث عشرة جلسة، بموجب جلستين في قاعتين مختلفتين من نفس الوقت وبالتالي يعقد في الصباح اربع جلسات، ويقتصر المساء على جلسة واحدة.

أدى هذا الى تشتت أعمال المؤتمر، بالاضافة الى اضطرار المنظمين الى ادماج أعمال بعض الجلسات. كما أثر هذا على حضور أعمال هذه الندوة ومتابعتها.

نوقش في هذه الندوة، مايزيد عن ستين دراسة وبحث في كل المحاور المتعلقة بطه حسين.

ففي محور الحداثة والمعاصرة، تحدث كل من د. غالي شكري، د. انور لوقا، سعيد علوش، فيصل دراج، سعيد بوجدرة. د سهير القلماوي وناقش ازمة كتاب (في الشعر الجاهلي) كل من د. سيد بحراوي، علي فهمي، ومحمد عفيفي، د. لويس عوض، د. أحمد حسن الزيات والصفات الذاتية لطه حسين، ومدى بروز معاني أعماله، فقد تناولها عز الدين اسماعيل، أمينة رشيد، عبد الله بونفور.

وناقش تكنيك طه حسين الفن والروائي د. محمد ابراهيم خور، نابوكي نوتهارا صلاح فضل، نبيلة ابراهيم.

وخصصت جلسة حول طه حسين والادب الشعبي، تحدث فيها كل من د. محمد البكار، بيير كاكيا، أحمد شمس الدين الحجاجي، فدوى دوجلاس وادمجت الجلسة الختامية بمناقشة رؤية طه حسين المجتمعية، كما توضحها اعماله، مع الجلسة الخاصة بالوعي التاريخي لديه، وتحدث فيها د. سيد عشماوي، د. فوزي منصور، طاهر

عبد الحكيم، كمال مغبث، د. عبد الباسط عبد المعطي.

كما نوقش في اعمال الندوة الرافد الغربي من فكر طه حسين، وتناوله كل من بهاء طاهر، وعبد الرشيد الصادق محمودي، سامي خشبه، د. احمد عثمان، د. يحيى عبد الله، د. هيام أبو الحسين، د. فاطمة موسى.

وعن اسقاطات هذا الماضي على حاضرنا، او ماسمي بالثقافة المعاصرة، فقد تحدث عنها د. حسني محمود، د. منى أبو سنة، د. مجدي يوسف، د. أحمد عبد الله، السيد ياسين، د. حسين حنفي، انور عبد الملك، محمود أمين العالم، يوسف ادريس، د. شكري محمد عياد.

واختتمت أعمال الندوة ببعض الكلمات الاحتفالية بهذه المناسبة اعقبها كلمة محمود امين العالم، الذي يعتبر فيها أن مشروع طه حسين الثقافي مازال صالحا، وفيه الانقاذ لما نواجهه في وقتنا المعاصر، ويجب علينا أن نبدأ جادين في تنفيذه.

لذا نعرض لاهم اتجاهات هذه المناقشات بما يمثل جميع اعمال الندوة.

لماذا عميد الادب العربي؟؟

بدأت الندوة ببعض الكلمات الافتتاحية حول طه حسين. فقد تحدث في الجلسة الافتتاحية كل من د. احمد فتحي سرور وزير التعليم، د. مأمون سلامة رئيس الجامعة، د. حسنين ربيع عميد كلية الآداب.

ويشير د. فتحي سرور الى دواعي الاهتمام بطه حسين، باعتباره رائدا وقائدا ومعلما سبق عصره. وتطرق الوزير من خلال كلمته، الى سياسته هو التعليمية، ويرى انها تطبيقا لما دعا اليه د. طه حسين!!

وهذا على هدى ماجاء في كتاب: «مستقبل الثقافة في مصر» الذي صدر عام ١٩٣٧، فهو في رأيه يعد مرجعا هاما في التربية، ومصدراً لاصلاح التعليم، ويقول: ان المتتبع لحركة اصلاح التعليم في السنوات الاخيرة، يلحظ ان أفكار طه حسين ومبادئه لم تذهب ادراج الرياح، ففكره التربوي فيه القدوة الحسنة.

وفي الجلسة الاولى أشارت د. سهير القلماوي الى تسمية طه حسين عميد الادب العربي، وأن الفضل في ذلك يرجع الى طلبة كلية الآداب، وذلك عندما تعرض للاضطهاد بسبب رفضه منح الدكتوراه الفخرية للسياسة، فخرجوا في مظاهرات، ومن هنا كانت دعوته بعميد الأدب العربي.

٢ ـ خطاب التنوير عند طه حسين:

يرى د. فيصل دراج ـ فلسطين ـ ان طه حسين نموذج ومثل أعلى للمثقف العربي، بل إنه ممثل الثقافة المصرية في بعدها التاريخي، والرائد الاكبر في العقلية العربية ـ ويكمل د. مصطفى بدوي ـ بأنه انتقل من الفكر التقليدي الى الفكر العالمي. فقد اهتم بالآداب الاخرى الى جانب اهتمامه بالادب العربي. وهو بالمثل اثر في المستشرقين الذين درسوا الادب العربي. هكذا يقول داستين كارول، ويصفه بانه رائد الفكر

الجاد. . ولكن هل كان اتجاه طه حسين التنويري ردا على ظلام احسه؟ . . هل كان اقدامه على شق طريق النور بالعلم ردا على تحدي العمى؟ نجد الاجابة عن هذا السؤال في محاولتين: الاولى للدكتور غالي شكري: طه حسين واشكالية المعاصرة، وطه حسين الذي لايصنف - للدكتور انور لوقا. يرى د. شكري ان لفقدان البصر في حياة طه حسين دلالة كبرى، ذلك ان صاحب هذه العاهة كان في الوقت نفسه صاحب «رؤية» و«رؤيا»، جعلت منه احد قادة التنوير في تاريخنا لقد اعطى طه حسين معنى جديداً «للعمى والبصر، حين يرهن على أن هناك ملايين من العميان من اصحاب العيون السليمة، وأن هناك القليلين من المبصرين. وان كان بعضهم لايملك سلامة العيون. وبهذا المعنى الجديد. اضحت المعرفة لاول مرة هي مقياس البصر والبصيرة والعماء، ولم تكن سلماً الى الباشوية والوزارة.

ويتفق د. أنور لوقا مع هذا الرأي، من منطلق اعجاب شديد بطه حسين، ويقول: لقد كان المكفوف البصر، يسعى لاسترداد هذا النور الذي فقده. لم يجد هذا النور في الازهر. ومن هذا المنطلق نستطيع ان نفهم سعي طه حسين في بحثه في النور، الى تحدي كل الاعتراضات التي واجهته. . وفي طريقه لجأ الى احياء ذكرى ابي العلاء، واعادة الحياة له. بل لقد كان في علاقته معه علاقة صديق بصديق. . انه يثور على مجتمعه، كما ثار ابو العلاء. لقد ظل يقتدي به، ويبالغ الاقتداء الى ان التقى بسوزان. لقد أصبح للنور معها معنى مختلف، وينهي كلمته اذا اردنا تصنيف طه حسين نرجع الى بدء الخليقة. . ففي البدء خلق النور.

على العكس فان الحداثة او التنوير كانا جانباً منهجياً قدمه طه حسين يشير الى ذلك رشيد بوجدره في الحداثة والذاتية، وان كانت دراسته تقتصر على الايام. . كسيره ذاتية للعميد. او ما انتهى اليه د. محسن جاسم الموسوي، بان منهجية التنوير او العقلانية لدى طه حسين كانت مواجهة حاسمة لموضوع التبعية المطلقة للماضي. على انه تحكم في الحاضر، وهذه التبعية موضوعة في اطار آخر، هو التقديس الذي لامبرر له ازاء الماضي، والذي يعمق البحث لغة وموروثا والتنوير لدى الموسوى هو مزاولة الحرية العقلية، أو سياحة الذهن الحرفي شتى الامور والميادين المعلقة.

هل ذهب طه حسين الى المغرب العربي

تحت عنوان طه حسين واشكالية الثقافة، تحدث د. سعيد علوش المغرب - عن صدى طه حسين في المغرب العربي، وتناوله من خلال جيل السلفيين في الاربعينات، كما يمثله عمل محمد مختار السوسي. الدكتور طه حسين في الغ (الغ اسم قرية مغربية)، وجيل المرحلة الحالية من التسعينات، كما يمثله أ- بو الحسن: الخطاب النقدي عند طه حسين.

ويرى د. علوش ان اهتمام المغرب بالمشرق جاء في اطار تجاهل الآخر له. . لعل هذا كان الدافع وراء عمل السوسي، والذي يوضح لنا مدى المامه باعمال طه حسين وحاول تجربة الحوار بين المشرق والمغرب وينهي بحثه بسؤال ماذا كان

في الامكان أن يكون عليه الادب العربي لولم يظهر فيه طه حسين؟ ويكمله بآخر. . ماذا أضافت نظرة المغاربة التي تصور المشرق عن طه حسين؟

الاساليب الذاتية التي تميز كتابات طه حسين

في أنا المتكلم طه حسين يقول د. عز الدين اسماعيل اكاديمية الفنون: إن مفتاح فهم طه حسين لابد وأن يبدأ من لغة خاصة، وإن كلامه من درب التأكيد على الذات فقد استطاع ان يؤسس لنفسه نهجا خاصا في الكلام وليس المقصود كيف يوصل المعلومات الى الآخرين ولكن يوصل ويؤثر وبالدرجة الاولى يقنع. لذا فالانا والاحساس بخصوصية الانا المتكلمة عند طه حسين شيء يكاد يكون ملموسا لكل من يقرأه. ويضرب مثلاً على ذلك، بأنه حين كان يذكر آراء لآخرين كان يؤكد على ذاته، ويقول أما أنا. فهو يفرد رأيه. . ويفسر ذلك بقوله إننا نقرأ كلاما قيل، وليس كلاما كتب.

وتحدث فاضل الاسود - روائي - عن تلبية السرد، خارج الرواية لدى طه حسين وذلك من خلال حديث الاربعاء، بانها تنحصر بأربع شخصيات هو- روايه - مستمع ضمني قد يشير اليه بقوله قال لي صاحبي او قلت لصاحبي. بالاضافة الى عامل الوصف. وهي شخصيات خارجية. او وصف المحيطين ويقف عبد الله بونفور امام الذكرى او الذاكرة لديه. . وذلك من خلال سيرته الذاتية. وشرح فكرته، بأنه كان يأخذ بعض الاحداث المعنية كعلامة لديه للتذكر. . ومنها فقد كانت تمثل لديه احداثاً او معاني. . ويرى ان افتتاح رواية الايام، يشبه افتتاح رواية سيره ذاتية معروفة في الأدب الفرنسي، وهي رواية مارسيل بروست.

وإن استدرك بقوله، انا لا أعرف هل قرأ طه حسين بروست ام لا. إلاَّ أن الايام تمثل ميثولوجية ذاتية بالدرجة الاولى في الادب العربي عقب عليه محمد عزيز الحبابي المغرب بقوله لقد تأثر طه حسين ببروست، فقد كانت الموضة اذ ذاك هي مارسيل بروست، ومبحث الزمان كان شائعا. وقد تأثر طه حسين بهذا الطقس.

الا ان الحبابي يشير الى مشكلة لخصها في سؤاله. . ماهي حدود الزمن؟ ويقرر أننا نعيش على انماط وهمية. . ولأن الزمن في حركة دائمة. . فالماضي يتداخل مع الحاضر، والحاضر بالتالي غير خاصر، لاننا لانفعل شيئاً في الحاضر، ولا يتقرر الا بما سيأتي، اذن نحن نعيش الانماط الثلاثة في نفس الوقت (اي المرور الدائم او الحينونة) لذا فالذاكرة لدى طه حسين هي ذكرى حية.

٥ - ثقافة انتقائية

وهي نقطة هامة لدى طه حسين فهو في كل ماقرأ وعرف من ثقافات كان لايشير الا الى جوانب معينة فقط. . ومن ذلك تقول د. أمينة رشيد - اداب القاهرة - مع كل التقلبات التي يعيشها المجتمع الفرنسي والعربي، من أحداث وحروب عالمية، فاننا لانجدها عنده. فالانا لديه طاغية، وتتوارى الرؤية الاجتماعية والسياسية بكل تناقضاتها. بما يعني أنه ينحصر في اطار

نفسه . . وقد جاء هذا في اطار عرضها لطه حسين الانسان المتمرد . . قراءة في كتاب الأيام . . وقد ركزت على سلطة الكلمة لديه، والتي فرقت بينها وبين المعنى الشائع للسلطة المعروضة بأنها السلطة السياسية فقط. تعريفها لسلطة الكلمة وهو الموقع الذي تكتسبه الكلمة . . وتناولت هذا من خلال محاور أساسية، وهي رفضه للواقع، ثم اسلوب التمرد لديه، بالاضافة الى الزمان المكاني. وخلصت الى تأكيده على نفسه وخلفه تتوارى الاحداث.

بينما يثبت د. كمال حامد مغيث ـ جامعة الازهر ـ هذه الرؤية من زاوية أخرى، وهي دعوة طه حسين للعدالة الاجتماعية، وذلك من خلال بحثه العدالة الاجتماعية والاسلام في فكر طه حسين، وخلص الى أن طه حسين ظل وفيا للايمان بالعقل، بل انه اسقط في سبيل الايمان به كل حالات القداسة عن الدين، واخضعه للبحث والتحليل العقلي. وعندما جاء ليصوغ رؤيته للعدالة الاجتماعية، نظر للإسلام، وعلى الرغم من ثقافته المتنوعة فانه يرفض الالتفات الى التجارب التي صادفته في فرنسا، كالدعوة للاشتراكية، او الاتجاهات الشيوعية. لذا فانه دعا الى الاسلام وأسقط أية تجارب أخرى.

وينتهي د. كمال مغيث الى أن طه حسين كان ليبراليا مخلصا في سعيه لتأسيس منهج علمي. ولم ير سوى أوربا، ولم يلق بالا الى الفكر العربي، وفي دعوته للعدالة الاجتماعية لم ير الا الالتجاء للاسلام، ولم يلق بالا الى المدارس الاشتراكية، ومن ثم انحصرت حلوله في الصدقة والزكاة، ولم يتجاوز الى اكتشاف وسائل لطرح البديل لتحقيق العدالة الاجتماعية.

بينما يخلص د. عبد الباسط عبد المعطي ـ اجتماع عين شمس، الى ان طه حسين تأثر بالنظريات الاجنبية فيما قدمه من ادب. . فقد تأثر بمقولات دور كايم عن التصورات الجماعية، والذي يرى أن وعي الناس هو الذي يصنع وجودهم. لذا فانه في الأيام يركز على مصادر تشكيل الوعي. وفي دعاء الكروان نجد التقابل بين القرية والمدينة. لذا كانت المقابلة الاساسية بين قيم كل منهما. وهذا مايعني رغبته في تفسير القرية تفسيرا ثقافيا.

وفي «المعذبون في الارض» نجد آثار نظرية مالتوس، وشعار البقاء للاصلح، من خلال تتبع معاناة طفل، امرأة، رجل ونهاياتهم المأساوية. فهي اما موت بالمرض، او حادث قطار، او انتحار. ولما كان من المنطقي ان الفقر يصحبه مرض، فانه من غير المنطقي في بيئة كهذه، أن الفقر يصحبه الانتحار فهذه نظرية لانعرفها عندنا، ولم يبحث عن الوسائل لرفع هذا الفقر عن هؤلاء. . فقد كان يملك ان ينحاز لصفهم، ولكنه لايميل الى هذا من منطلق النظرية السابقة. . لذا فان الرؤية المثالية تغلب على تفسيره الادبي الذي قدمه.

٦ ـ الشعر الجاهلي واصداؤه

لقد تناول هذا الكتاب كثير من الباحثين في هذه الندوة. فهناك من تناول قراءة الكتاب وشرحه ووصفه. وآخر حلل دوافعه والظروف الاجتماعية له. وثالث تناول دلالات التحقيق

القضائي حوله. واجمع الكل على ان الكتاب ظهر في مناخ غير موجود الآن. . وهو يشهد على حرية المثقف في بداية هذا القرن.

فقد قدم د. سيد بحراوي قراءة لكتاب في «الشعر الجاهلي ومعركته» ويرى ان الاتهامات التي وجهت له لم تكن في صلب الكتاب، ولكنها كانت حول بعض الجزئيات التي أوردها المؤلف، للتدليل على صحة قضيته الاساسية، ومن أن الشعر الجاهلي منحول على أصحابه من قبل المسلمين ويقول ان من يراجع في «الادب الجاهلي» يلاحظ أنه ـ أي طه حسين ـ كان اكثر منهجية، بمعنى أنه اعتنى بالتدقيق في الهوامش للاشارة الى المصادر العربية، وان هذا الكتاب جاء كاحدى ثمرات المبدأ الذي كان يؤمن به طه حسين وهو الشك كوسيلة لتحرير العقل البشري، بما يترتب عليه تفسير الظواهر البشرية، ومنها الادب في ضوء محيطها وحسب الوعي بالقوانين التي تحركها. ويرى د. بحراوي ان مواقف الاعداء والانصار لطه حسين من هذا الكتاب كانت غير صحيحة. فقد رماه المعادون له بالعمالة للغرب، والتآمر لهدم الاسلام. وهذا غير صحيح . اما المؤيدون له، وهم دعاة النموذج الليبرالي، فان نموذجهم لن يتحقق في مصر واي من بلاد العالم الثالث بسبب الكارثة التي يؤمنون بها، وهي التبعية للغرب.

ويفسر د. بحراوي ماحدث، بانه يمثل ازمة مثقف ينتمي الى طبقة فقيرة جاهلة غير مؤثرة، وجد نفسه مثقفا ومنتميا لطبقة أخرى، على نقيض طبقته. لذا كان عليه ان يعيش كل التناقضات والازمات.

فيما يفسره. لويس عوض مادار حول في الشعر الجاهلي في ضوء مانراه اليوم، من الصراع بين القديم والجديد، او مايسمى بالأصالة والمعاصرة. . وان الكتاب، وماحدث حوله، فسره د. طه حسين بان الامة في عصور انحطاطها تتبنى اسطورة العصر الذهبي، كأنما هي تفتقده ولا تجده الا عند الاسلاف. أما في عصور القوة فهي تقبل الصورة الواقعية للمجتمع. وهذه هي القضية عندما اصدر العميد كتابه فقد كان صراعاً بين القديم والجديد.

اما اسباب الازمة فقد كانت كامنة في المجتمع، كما أشار اليها د. محمد عفيفي في بحثه الابعاد الاجتماعية والسياسية لازمة كتاب الشعر الجاهلي ويقول: الكتاب بحث علمي. . اما سبب الازمة فهو الوقت الذي ظهر فيه الكتاب، وهو بعد ثورة ١٩١٩. وكان المجتمع بصدد البحث عن ايديولوجية مابعد الثورة.

لذا فان الازمة كانت محصلة لخلفيات عديدة، وتعد مؤشراً على ارتفاع منسوب الانشطار الفكري لعقل الامة، بين مؤسسات الثقافة التقليدية، والمؤسسات الثقافية الجديدة.

ويشير الى ان الهرطقة التي لصقت بطه حسين، جعلته يعمد الى محاولة التودد الى الامة، ويتردد كثيراً ازاء التعرض للمسائل الدينية بالنقد والدراسة.

ويقف علي فهمي ـ المركز القومي للبحوث الاجتماعية ـ امام دلالات التحقيق القضائي، والذي يبرز ان المناخ الذي جرى فيه كان يتسم بقدر من الاستنارة والشرعية القانونية الليبرالية.

وهذا مايدفعه للمقارنة بين ماحدث في فترات لاحقة في مصر، حول قضايا التنوير والحريات والشرعية، ومـا يحدث الان وهـذا مايشاركه فيه د. سعيد بحراوي عندما يقول: لقد وجد طه حسين حماية من الحكومة والجامعة، ووجد صحفا يرد فيها على الهجوم عليه، ووجد جوا علميا يناقشه، بقدر من العلمية لانجده الان.

٧ ـ مستقبل الثقافة من مصر:

كانت مناقشة هذا الكتاب القاسم المشترك بين اعمال الجلسات بداية من اعمال الجلسة الافتتاحية، صدر هذا الكتاب بعد توقيع معاهدة التحالف والارتباط ـ عام ١٩٣٦ ـ وظهر الكتاب عام ١٩٣٧ ويثبت فيه طه حسين انتماء مصر للغرب، وان هذا الانتماء قديم، وأن موافقه الغرب وبريطانيا تحديدا على عقد هذه المعاهدة، ماهو الا تأكيد لهذا الانتماء.. وانهم على ثقة من قدرتنا على اتباع نهجهم.

لذا تعددت الآراء حوله، بين مؤيد له ومعارض. ومن العجيب ان تنتهي اعمال هذا الملتقى باقرار صلاحية المشروع الثقافي الذي كان بمثابة حلم طه حسين، وتضمه دفتا الكتاب وان هذا الحلم لم يتحقق بعد..

أ ـ ومن الاراء المؤيدة والمبررة لما جاء في الكتاب نأتي الى ماقاله د. احمد حسن الزيات بان مستقبل الثقافة في مصر ليس بحثا أدبيا ولا علميا، لانه يجيب على عدة اتهامات وجهت الى العميد. وقسم الزيات هذه الاتهامات في اربعة تساؤلات الاول منها كان بخصوص موقف طه حسين من الشرق. واوضح الزيات بان الشرق الذي يقصده العميد هو الهند والصين واليابان، ورأيه صحيح من عدم انتماء مصر لهذه المنطقة ثقافيا والتساؤل الثاني حول بحر الروم. ويثبت ان هذا البحر كان يسمى بحر الشام.. ومازالت اثار الثقافة العربية على سواحله الشمالية.

والتساؤل الثالث كان حول مصر والعرب. ويتساءل كيف يدعو طه حسين الى تخلي مصر عن دورها العربي، وهو الذي كان يفتح ابواب الجامعة للطلاب من الدول العربية.

والتساؤل الرابع والاخير كان حول موقف العميد من اللغة العربية، ويرى الزيات انه كان يدعو الى اللغة الفصحى وينكر العامية. وهو بذلك يعلي من شأن اللغة العربية.

بينما يلمس عز الدين نجيب اثر هذه الدعوة على الفن المصري، بانها ادت الى اغتراب وتغريب الفن عن المنهج: فقد اعتبر طه حسين مصر امة غربية وليست شرقية، وانها غربية طوال تاريخها. المشهد الحالي اغتراب الفنان شكلا ورسالة ولم يتبق للفنان التزام تجاه المجتمع، واصبح كزميله الغربي ينظر للوجود نظرة جزئية محدودة محورها ذاته الخاصة. ويشير الى ان ذروة الاهتمام بالفن الاوربي في حركتنا المعاصرة، كان في العام التالي مباشرة لصدور كتاب طه حسين. لذا يدعو نجيب ان نحمي الاجيال الجديدة من هذا العلم الكاذب والذي حذر منه طه حسين نفسه، عندما حذر من الذين يكتفون بظواهر الاشياء، ولا يتعمقون حقائقها.

بينما ركز طاهر عبد الحكيم على منهج طه

الفكري، والذي يرتكز على العقل من فهم الواقع، ودراسة التاريخ.. وانه خرج على سطوه المسلمات، ومفهومه النقدي لم يكن تحليليا وانما كان موقفا تركيبيا.

ويتبنى د. حسن حنفي وجهة نظر مخالفة تماما لهذا الكتاب يبدو هذا من مقتطفاته من هذا الكتاب، ويبدأ بتساؤله ماذا لو حاولنا تطبيق هذا الكتاب اليوم.

فقد جاء في الثلاثينات، بعد عقد معاهدة ١٩٣٦ ونحن في السبعينات في ظروف مشابهة فهناك معاهدة وقال لنر ماالذي جاء في الثلاثينات. يقول طه حسين اللغة العربية غير قادرة على مواكبة الحضارة، مصر لاشأن لها بالعالم العربي، فهي مسؤولة فقط عن تعليم اللغة العربية. ولكن لابد ان تتخلى عن مسئولية ريادة هذا العالم العربي. والكتاب من مجمله تجربه شخصية لطه حسين..

وينتهي بقوله من أجل مصر كتب مستقبل الثقافة، ومن أجل مصر اليوم نعيد كتابه مستقبل الثقافة (ينبغي ملاحظة اسلوبه في عرض ارائه. وايضا القياس بعقد معاهدة ١٩٣٦ وايضا الغائها عام ١٩٥٠ وفي نفس الجلسة يردد. نصر أبو زيد تحت عنوان «التراث بين التأويل والتلوين» ويشرح هذه المصطلحات، ويقول: التأويل اي فهم الظاهرة او النص في سياقها التاريخي الموضوعي، وخارج السياق لاتكون هناك دلالة. اما التلوين فيخلع الظاهرة من سياقها، ويضفي عليها من يريد لونه الايديولوجي.. وتناول انواع التلوين من خلال هذه القراءات المتميزة في رأيه. ويقول قراءة متميزة متتبعة رهن لفهم الظاهرة واكتشاف دلالتها طبقاً لموقعي الفكرة.

واراء متميزة مغرضة.. مثل قراءة.. د. حسن حنفي السابقة وهي لاتقوم على فهم الظاهرة في سياقها، انما انتزاعها واضفاء معنى عليها. لذا يحذر من القراءة المغرضة للتراث ويرد على د. حسن حنفي بان طه حسين كان يشغله هاجس التجديد، لذا فان مشروعه يقوم على التوفيق بين القديم والجديد.

وفي هذه النقطة يقدم د. انور عبد الملك رؤيته حول التراث.. فهناك من ينظر اليه من منظور سلفي، اي باعتباره مومياء اي اشياء محنطة. ورؤية تنظر الى التراث باعتباره محصلة المحاولات الابداعية التي صمدت في فترات الاختراق، ولذا فانه اكثر شيء حي. وانتقل من هذا الى معنى الثقافة الوطنية، بانها تعني قوى الشعب الذاتية، في نضالها من أجل التحرر، وتعكس اكثر الايجابيات انطلاقا من التراث.

لذا فانه يحذر من النظر للتراث بصفة عامة نظرة مشوهة ويرى بهاء طاهر ـ قاص مصري ـ ان دعوة طه حسين كانت صحيحة في حينها، شريطة ان نفهمها في وقتها.

ب ـ اسقاطات الماضي على الواقع: وقد تناول هذا الموضوع كل من السيد ياسين و د. أحمد عبد الله.

فقد استعرض السيد ياسين انواع الخطاب المعاصر، والاراء التي جاءت لتشخيص هذا الواقع، من خلال اراء ثلاثة من مفكري التنوير المعاصرين وهم د. عابد الجابري، د. حسن صعب، د. هشام شرابي. ومن استشراقه لسيناريوهات المستقبل، فانه عرض لمحاولة مركز

دراسات الوحدة العربية حول هذا الموضوع.

ويبدو ان اسلوبه كان جديدا على كلية الآداب اذ سأله البعض ومارأيك أنت؟

ووصف د. احمد عبد الله اصحاب جميع الاتجاهات الفكرية الموجودة على الساحة العربية بالسلفية، او بما نصه: الكل يتمترس حول سلفيته، والصفة الغالبة هي اللامستقبلية. لذا فان محور الازمة انشطار ثقافي في المجتمع المصري، وازمة ديمقراطية، وازمة هوية وانتماء. والحل لديه هو التعددية كمقابل لهذا الانشطار. ولكن في اطار هذه التعددية لابد من لغة مشتركة.

وهناك من رد عليه ان «الانشطار يعني الانقسام الى جزئين ولكن الواقع أن هناك تفتتاً ثقافياً.. وليس انشطاراً ثقافياً.

ونجد تخوف د. حسن محمود ـ جامعة اليرموك الاردن ـ في قوله: ان التشخيص مهم، لكن الاهم أن نصف العلاج، بشرط الا نخدع أنفسنا واستند الى قول ماركس ان كل عصر يطرح على نفسه المشكلات التي يستطيع حلها، ويرى أن شعورنا بمشكلاتنا قد يكون بادرة، لان نكون قادرين على الحل. ولذلك يجب الا نخدع أنفسنا باعتقادنا هذا. فنحن في الشرق لا نخلق الشخص القادر على العمل بل الشخص القادر على الكلام.

ج ـ مشروع للمستقبل

قدم هذا المشروع كل من د. يوسف ادريس ومحمود امين العالم. وكل منهما يستند على خطى د. طه حسين.

ومن هنا يقول: د. يوسف ادريس هناك نوعان من الكتاب الكاتب الذي يصنع نفسه، والكاتب الذي يصنع مجتمعه ويرى ان طه حسين كان من النوع العملاق الثاني. ويرى ان الحركة الثقافية الآن متخلفة عن العصر الذي كان يكتب فيه طه حسين. بدليل اننا نناقش انحراف طه حسين وقصة كتاب الشعر الجاهلي. وما احوجنا الآن الى طه حسين ليرى الثقافة المصرية الحديثة على اسس تمتد به الى المستقبل. ان طه حسين لم يعمل ليكون كاتبا لقد أخذ على عاتقه ان يقدم خدمة لهذا الشعب. وهو في هذا يفوق العقاد الذي كان يكتب ليثبت انه مثقف. ونصيحتي للكتاب ان يعملوا للمسائل العامة فالكاتب ضمير مجتمعه.

اما محمود امين العالم فقد ناقش الحلم الثقافي الذي قدمه طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر، والذي لخصه في انه يقوم على اتخاذ العقلانية منهجا للتحليل ورؤية شاملة للعالم وسيادة الرؤية التاريخية، ان هناك عقلاً انسانياً واحداً الا ان هناك خصوصيات قومية. وهذه الخصوصية لاتلغى الحضارة، توجيه وتخطيط التعليم، الذين بعد أساسي من أبعاد ثقافتنا العربية، على الا يتدخل الدين في السياسة. لاقيمة لفكر لايفضي لفعل. ويقول لقد كان هذا مشروع طه حسين لذا استمر مشروعاً تنويرياً سائدا

وناقش ماذا تحقق من هذا الحلم.. والمحصلة كانت لاشيء فلا توجد في بلادنا خطة

ثقافية. واذا انحصرنا في زاوية صغيرة، وهي عدد الكتب التي تصدر كل عام فلا نجد خطة نشر ولا سياسة نشر لا في دار رسمية او خاصة. وان النسبة حسب تصنيف اليونسكو ٧٥٪ كتب ادب ومعلومات عامة وثقافية ٢٥٪ كتب مدرسية فانها من مصر ٨٥٪ كتب مدرسية ١٥٪ كتب ثقافية.

ويرى أن مشروع طه حسين مازال يتطلع الى مستقبلنا المصري العربي، الذي لم يجيء بعد، وانه مايزال دعوة هادئة معبرة رغم تغير الظروف.

● **آمال سعد متولي**

التقرير العاشر

أمسية في الذكرى ١٦ لرحيل الشاعر الأردني تيسير سبول

في الذكرى السادسة عشرة لرحيل الكاتب العربي الأردني تيسير سبول، أقام الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين ـ فرع سورية، بتاريخ ١٤/١١/١٩٨٩ أمسية أدبية تحدث فيها كل من بسام الهلسة الذي قدَّم الأمسية بمداخلة عنونها بـ «تيسير سبول.. محنة الوجود المنتهب والذات المضيعة» تحدث فيها عن اقتران محنة تيسير كذات متطلعة الى دور فاعل، بإشكالية الوجود العربي المنتهب والمنتهك من الغزاة والطغاة، وأن مثله العليا قد تحطمت على أرض المآسي والفجائع العربية. التي أثقلت روح تيسير اليقظة والمرهفة. وأن انتحاره هو رفض لهذا الوجود العربي البيولوجي: المتناسل، الآكل، الشارب. دون أية فاعلية إنسانية جديرة بالتقدير في عالم اليوم.

وتناول الدكتور «أحمد ابو مطر» في مداخلته السريعة، معنى انتحار تيسير الذي رأى أنه حكم على جيل عربي بكامله وعلى مرحلة بكاملها ثم استعرض روايته «أنت منذ اليوم» التي رأى فيها قصيدة مطولة أكثر منها رواية. وأكد على الإلحاح الدائم من قبل تيسير على فكرة الموت التي تطبع روايته وكذا ديوانه «أحزان صحراوية» ثم قدّم الروائي غالب هلسا دراسة في تقنية رواية «أنت منذ اليوم» ورفض المقولة الزاعمة بأن الرواية تفتقد الى الوحدة فهي برأيه كالقصيدة الجاهلية تتسم بوحدة الإحساس والجو. وقال إن تيسير في

هذه الرواية يبدو متفرداً بين الكتاب العرب، وإن روايته فضحٌ للمواضعات والقيم الاجتماعية والسياسية السائدة. أما الشاعر «فواز عيد» صديق سبول وزميله أيام الجامعة، فقد استعاد ذكرياته معه بكلمة وجدانية معبرة. وأشار الى أن تيسير يمثل «العلامة الانقلابية الثانية» في الأدب الاردني بعد «مصطفى وهبي التل ـ عرار» انقلاب على حياة بدوية عشائرية.. وعلى عشائرية عربية عامة وفي ختام الأمسية ـ التي شهدت حضوراً مكثفاً مميزاً في قاعة الاتحاد بالأزبكية ـ قرأ بسام الهلسة مقطوعات من شعر تيسير ومن ترجماته لرباعيات الخيام التي نختار بعضاً منها:

ياأخي حين نوارى، يسدلُ الموت الحجابْ
من يبالي بحضورٍ نحن فيه أو غياب
يستمر الفلك الدوار والأكوان تجري
نحن لا أكثر من وقع حصاة في عبابْ

* * *

طائر غنى قليلاً فوق غصنٍ ثم طار
قلت: هذا طائر العمر إلى الأفق استدار
للمدى الأرحب قد أسلم جنحيه ونهباً للمدى
سوف يغدو.
ويْ لِعُمر هو كالثوب المعار

* * *

بردى في العين صبحاً ومساء
يتراءى كل احبابي على صفحته
ونديم همت في رفقته
وبشرب الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الزق اليه واتكى»
فبعيد الدار في غربته
إن صحا غنى
وإن غنى بكى
(من قصيدة «قراءة موشح أندلسي»

وننشر هنا نص مداخلتي من المداخلات التي تمت في الأمسية.

مداخلة فواز عيد

مرحباً تيسير

منذ كم لم نلتق.. منذ أكثر من عام فيها تذكر تلك الطلقة الفاتنة التي جربت بها موتك حاولت أن تلف على كرسي الخيزران.. ساقاً على ساق.. كما كنت تفعل على كراسي الحب.. والصداقات.. والجنون اللطيف. حاولت بطلقة فاتنة أن تجرب هذا الحرام الملكي المقدس.. لكي تنهض بعده كالعادة.. لتصفق بجناحي نورس هازئاً:

ها إنني قد جربته.. أرأيتم.. إنه ظريف ومعتمٌ قليلاً كالحب مثلاً.. ولكنه لا يردّ إلا الأقوياء.. إلا الذين يفهمونه حقاً.. أن لعبته قد انتهت.

الموت الفاتن.. الحب البري.. تغيير الأشكال بحركة اصبعين.. المروق المتكبر على الضعف.. حتى على ضعف الحب.. وضعف ماكان يحب.

الموت الفاتن.. مفتاح بطولة.. وكان قد اكتشفه تيسير سراً ذات صيف من عام اثنين وستين.. أذكر الآن.. أنه قد مرَّ بي ذات صباح على درج كافتيريا الجامعة القديمة وبشرني من

بعيد صائحاً بفرح: همنغواي انتحر.. ألم تسمع؟

قطبت وجهي.. ونحيته جانباً: وماذا يعني؟ تزلزل للحظة.. قاسني بنظرة حانقة.. ومضى الى الداخل ليشتم من لايفهم المعنى.

كان تيسير سيد التجريب.. وسيد حله المدهش حل إكمال الدورة في الفصول.. جرب تيسير الحب.. وسطا عليه.. كانت سطوته آسرة.. سطوة على اللغة.. سطوة على الألفة.. سطوة على كل شيء.. كان له جواده دوماً.. حتى وهو يمشي على قدميه.. وتيسير لم يكن شاعراً فحسب.. لم يكن قاصاً فحسب.. كان أكبر من الاثنين.. تيسير كان انقلاباً غير مسلح.. انقلاباً طبيعياً كالعواصف أو المطر فعلاً..

لذا.. فقد كان من الصعب الاحتفاظ بصداقته او عداوته طويلاً.. لأنه كان ينقلب حتى على ذاته.

إنه العلامة الانقلابية الثانية.. بعد «مصطفى وهبي التل عرار» علامة انقلاب على حياة بدوية عشائرية وعلى عشائرية عربية عامة عشائرية سياسية وعشائرية مصلحية.

ولما جرب تيسير ذلك كله.. وألفى نفسه وحيداً.. برز له أمل ما.. أمل حرب عام ٧٣.. الا أنها حرب لم تكن أفضل من غيرها بكثير..

ولابد أن تيسير وحده.. قد كان الشهيد الأول لإعلان وقف إطلاق النار.

تيسير..

لن أتحدث عنك طويلاً.. فأنت لست بحاجة الى من يتذكرك.. إنك بحاجة الى من يشبهك.

مداخلة بسام الهلسة

الذكرى السادسة عشرة لرحيله

تيسير سبول...

محنة الوجود المنتهب، والذات المضيعة

ياأخي حين نوارى، يسدل الموت الحجاب
من يبالي بحضور نحن منه أو غياب
يستمر الفلك الدوار والأكوان تجري
نحن لا أكثر من وقع حصاة في عباب

الوقت خريف.. وعمان تلغط كعادتها بضجيج الضحى الذاهب الى الظهيرة..

كان ذلك منذ ستة عشر عاما، بعيد حرب تشرين ١٩٧٣، التي خفق لها قلب تيسير بفرح ملهوف متوثب مؤملاً منها ان تجلو عار العام ١٩٦٧ الذي دنس الارض العربية.. غير أنها لم تف بوعدها المنتظر وانجلت عن عار جديد.. عار الوقوف عند الكيلو ١٠١، مستجدية العدو قبول المصافحة.

اكتملت حلقات الفاجعة إذن ولم يبق الا القرار المعلن عن الخاتمة.. خاتمة رحلة مواطن عربي تجمعت في سني عمره الاربع والثلاثين عذابات وويلات ألف عام من الوجود العربي المنتهب والمبدد، وحسرات واخفاقات ذات أملت وسعت لكي يكون لها حضورها الفاعل المؤثر في هذا الوجود.. وإذ لم يجد أيها عزاء، فقد اختصر

تيسير العناء، وكان قراره الصامت المدوي باختتام الرحلة المضنية.

ولد تيسير سبول عام ١٩٣٩ في الطفيلة بجنوب الاردن المجاور للصحراء.. متسماً بتلقائية صافية ومزاج فائر واحساس رهيف بكل ماينبض. وأفاق وعيه في الخمسينات على مشهد الأمة المستيقظة من سبات القرون.. المتطلعة بظمأ الى الانبعاث والتجدد والانعتاق من وضعية الانحطاط وفقدان المصير، فامتزجت روحه بروحها وامتلأ وجدانه بالشوق المتحفز لاستعادة الذات المستباحة والمنتهكة وتعالت صبواته حالمة «بأن تحمل روحه وشم الدولة العربية» التي يكف فيها الانسان عن ان يكون موضوعا يتداوله الغزاة والطغاة.. وتكف فيها الحياة عن مجرد كونها استمراراً بيولوجيا لاناس يتناسلون ويأكلون وينامون[٣]

جاءت تجربة الانفصال في العام ١٩٦١ لتكسر الحلم المتوهج الذي انغرس للحظة في واقع الحياة وجاءت هزيمة ٦٧ المذهلة لتعيد الأشياء الى مبتداها. ويعيش تيسير التجربتين ويعانيهما بمرارة تشبعت بها كل خلية من خلايا جسده الفتي، واندلعت في نفسه المتوقدة اسئلة لاهبة معذبة يضنيها البحث المتشكك والقلق المتعطش الى اليقين.

ومن جديد عاين الوجود العربي وتشوف هزيمته المرة وقد تمت في داخله قبل أن يجتاحه عصف العدوان. وكانت قصته الطويلة المسماة (أنت منذ اليوم) تلخيصاً شاعرياً متوتراً لهذه الرؤية المفزعة التي تبدت ككابوس مؤرق ينبسط على امتداد الزمن العربي. وكان ديوانه (أحزان صحراوية) تراتيل غناء شجي باك لفتى يفيض وجدانه بمشاعر الوحدة والغربة المنقطعة عن هذا الزمن المفجع[٤].

رغم الاتصال الصميمي لصاحبها بوقائع الحياة، الذي نجد صدى له في كل قصصه ومقالاته ومتابعاته الاذاعية[٥].

وكذا في سيرته الشخصية الزاخرة بالعنفوان والمتعالية على المطالب الصغيرة بإباء وشمم[٦].

عاش تيسير عصره بعمق وتطلعت ذاته لدور عظيم تنهض به، واذ لم يستغرقه الهامشي والعابر والسطحي في حياتنا، فقد عانت روحه كل الشكوك وكابدت الهواجس في تطوافها الباحث عن معنى يمنحها الطمأنينة. ويحقق لها الانتماء الى أمة أفناها الشوق - مثله - ليوم فرح وصحو. ومثلما تتلخص محنة الأمة في السؤال الذي طرحه (مذكراً بهاملت) على لسان بطله (عربي)

«.. شعب نحن أم حشية قش.. يتدرب عليها هواة الملاكمة منذ هولاكو حتى هذا الجنرال الأخير»[٧] فإن محنته تتجلى في هذا الشعور الحاد بالذات المضيعة الملحة بإصرار على الحضور، الذي وجد تعبيره في قول العرجي (أضاعوني وأي فتى أضاعوا)[٨] مقيماً بذلك تماثلا يذهب الى حد التماهي بينه وبين الأمة في سعيها لتوكيد ذاتها وتحقيق وجودها الفاعل في الحياة، هذا التماثل نراه موزعاً منتشراً في كل أعمال تيسير. وتؤكد لنا حفاوته بالمتنبي الذي مضى معه في رحلة الاغتراب وتشكى مثله غبن العصر، مستشعراً

غربة الروح ولا جدوى المجاهدة:

ختّامَ نحن نساري النجم في الظلم
وماسُراه على خُفٍ ولا قدم
ولا يُحس بأجفان يُحسّ بها
فقْد الرقاد غريب بات لم ينم
وقت يضيع وعمر ليت مدته
في غير أمته من سالف الامم
أتى الزمان بنوه في شبيبته
فسرهم وأتيناه على الهرم

منذ ستة عشر عاما غادرنا تيسير وربما نختلف او نتفق معه في اختياراته الفكرية أو في الطريقة التي ترجم بها نوازع نفسه. وربما نمجده كشهيد، او نشجبه كهارب من المواجهة.

غير أننا سنتعرف دون شك أننا بازاء حالة فريدة من السمو الأبي على التكيف مع مواضعات الضحالة الرائجة، والبلادة الذهنية والشعورية التي لايستفزها شيء مواضعات لم ير فيها تيسير سوى زيف طاغ يستثير الغثيان ويحرض على الهجر والاعتزال.. خصوصاً.. وهو الوفي لمعتقداته التي يعيشها باخلاص عال متميز يمضي بصاحبه الى الحدود القصوى للاشياء. وقد امتلك ضميراً حياً يقظاً انطبعت فيه بقوة فجائع أمته وخيبات ذاته المنذورة لأداء دور عظيم لم يحن أوان تجسيده. ومثلما كان من الذكاء بما يكفي لكي يرفض التفاؤل الفج الذي يبسط المحنة ويعد بخلاص سريع، فقد كان مؤمنا بما يكفي أيضا لكي يرفض اليأس والقبول بالهزيمة كقدر أبدي[١١]. وكانت فجيعته بالواقع العربي.. كبيرة وعظيمة.. بقدر كِبر وعظمة آماله وصبواته. واذ لم يجد أيما سلوان[١٢] فقد اختار التوارى، مبقياً لنا همومه ومشاغله كميراث.. وهنا تكمن البلوى.

رحم الله تيسير.. ورحمنا معه

الهوامش

(١) الرباعية الثامنة من الرباعيات التي ترجمها تيسير لعمر الخيام الاعمال الكاملة. دار ابن رشد بيروت ١٩٨٠. ١٨٣.

(٢) أنت منذ اليوم - الاعمال الكاملة ص ٥٨

(٣) المصدر السابق على طريق الثقافة العربية المتجددة ص ٢٩٣

(٤) يمكن معاينة هذه الهواجس والمشاعر في معظم قصائد الديوان. مثلاً (احزان صحراوية) و (قراءة موشح أندلسي) ونجدها بخاصة في احتفاله بترجمة (رباعيات الخيام) التي تعكس نزوعاً روحياً لهجر الواقع والبحث عن ملاذ آخر يمنحه العزاء. راجع ديوانه (احزان صحراوية) وترجماته لرباعيات الخيام في الاعمال الكاملة واقرأ له هذه الرباعية المعبرة:

طائر غنى قليلاً فوق غصن ثم طار
قلت: هذا طائر العمر الى الافق استدار
للمدى الارحب قد أسلم جنحيه ونهباً للمدى
سوف يغدو..
وي لعمر هو كالثوب المعارْ

(٥ - ٦) راجع أعماله الكاملة. وراجع ايضا ماكتبه عارفوه واصدقاؤه عنه وعن حياته الشخصية

(٧) (أنت منذ اليوم) الاعمال الكاملة ص ٥٨.

(٨) أورد هذا البيت للشاعر العرجي على لسان القائد العربي (ابن القاسم، في (أنت منذ اليوم) ص ١٧. وقد حدثتني زوجته الدكتورة مي يتيم) انه - أي تيسير - كان يتعلل بهذا البيت من الشعر دائماً خصوصاً كلما أحس بغبن.

(٩) راجع ماكتبه عن (المتنبي) الاعمال الكاملة ص ١٩٤ ومنه استعرنا الشاهد الشعري. وتروي زوجته انه كان يعد المتنبي أعظم شعراء العربية واكثرهم تعبيرا عن نوازع روحها.

(١٠) هذه (اللاجدوى) ان صحت التسمية تعكسها قصائد عديدة له (الرحلة) مثلاً و (مرثية القافلة الاولى) وقصيدته قبل الاخيرة (أنا ياصديقي) و (مالم يقل عن شهرزاد) وتتبدى في

اقدامه على احراق واتلاف معظم كتاباته. أيضاً في الاحاديث التي افضى بها متسائلا عن اهمية الكتابة مرددا ان ليس لديه مايقوله. راجع ماكتبه الشاعر (علي الجندي) عن حديث له معه. وكذلك حديثه لمجلة (صوت الجيل) ـ راجع ايضا ماروى عن رغبته بترك وظيفته كمستشار ثقافي بالاذاعة الاردنية، والعودة الى بلدته بجنوب الاردن ليعمل في الارض.

(١١) راجع تأكيداته الايمانية بحتمية نهوض العرب وبحتمية انتصارهم بقايا دراسته التي احرقها عام ١٩٧٣، والموسومة بـ (في الرسالة العربية) الاعمال الكاملة ص ٢٦٩.

(١٢) أنت منذ اليوم) ص ٥٨ ـ ٥٩ الاعمال الكاملة.

التقرير الحادي عشر

ندوة «الثقافة العربية بوصفها ابداعا»

التقرير الختامي والتوصيات

انطلاقاً من الأهداف القومية والانسانية التي قامت من أجل تحقيقها المنظمة العربية للترجمة والثقافة والعلوم واتحاد الكتاب العرب.

وعملاً بقرار المؤتمر الخامس للوزراء المسؤولين عن الشؤون الثقافية في الوطن العربي (تشرين الثاني ١٩٨٥) الداعي الى تقديم تصورات تعين على اتخاذ إجراءات لتنفيذ الخطة الشاملة للثقافة العربية على المستويين القطري والقومي.

وتجسيدا للتعاون القائم بين المنظمة والاتحاد في إطار تطوير الثقافة العربية حاضرا ومستقبلا وبدعوة من اتحاد الكتاب العرب عقدت في دمشق خلال الفترة ٢٥ ـ ٢٩/ ١١/ ١٩٨٩، ندوة موضوعها «الثقافة العربية بوصفها إبداعاً» شاركت فيها مجموعة من العاملين في حقول الثقافة والإبداع في سورية والوطن العربي بقصد البحث في المسائل المتعلقة بالإبداع العربي وتنميته.

وقد استهل حفل افتتاح الندوة السيد علي عقلة عرسان رئيس اتحاد الكتاب العرب بكلمة ترحيبية اكد فيها اهمية التعاون بين المنظمة والاتحاد مشيرا الى مشاركة أعضاء الاتحاد زملاءهم في الوطن العربي حمل راية الثقافة المبدعة وممارسة الحرية قولا وفعلا وتجسيد الإبداع معطى للحرية،وعبر عن سعادته لإنجاز الخطة الشاملة للثقافة العربية عملا قوميا كبيرا سينمي الثقافة العربية.

وألقت السيدة قمر كيلاني، عضو المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب العرب كلمة باسم الاتحاد أشارت فيها الى أهمية انعقاد الندوة في هذه

الظروف الحساسة والدقيقة التي تتعرض فيها الثقافة العربية لموجات من التخريب والاستلاب والطمس والتشويه، وفي دمشق، قلب العروبة النابض، وفي هذا الشهر الذي يحمل مع سابقه أنسام الانتصارات والأمجاد ومعاني التصحيح الذي قاد مسيرته الرئيس حافظ الاسد.

واعرب الدكتور صالح الخرفي، مدير إدارة الثقافة في المنظمة، عن تقدير المنظمة لاتحاد الكتاب العرب ورئيسه على هذه المبادرة القومية السباقة لاحتضان ندوة من سلسلة ندوات ارادتها المنظمة نقلة بالخطة الشاملة للثقافة العربية من الرؤية المجردة الى الممارسة الحية في كل قطر عربي، مؤكدا أن الخطة الشاملة للثقافة العربية إنجاز تاريخي سجلته الثقافة العربية المعاصرة ومكسب قومي حققه المؤمنون بهذه الثقافة واحدة موحدة حيث جاءت الخطة لتضع الاطار المعاصر لهذه الثقافة، وتفتح باب الاجتهاد المتفاعل لتطويرها.

وقد تولى رئاسة الندوة الاستاذ علي عقلة عرسان رئيس الاتحاد، ووزع عمل الندوة في خمس جلسات عمل، حسب محاور الندوة وانتدب لكل جلسة رئيس ومقرر من المشاركين فيها وشكلت لجنة الصياغة من مقرري الجلسات وقد انتخبوا من بينهم الدكتور حسام الخطيب رئيسا للجنة الصياغة ودارت اعمال الندوة على النحو التالي:

١ ـ جلسة العمل الأولى: وتضمنت المحاور التالية:

- مفهوم الإبداع في الفنون والعلوم الإنسانية
- عناصر الأبداع في التراث الثقافي والفني في الوطن العربي
- إسهام المبدع العربي في تربية الذوق الفني لدى الناشئة.

٢ ـ جلسة العمل الثانية تضمنت:

- حرية الإبداع في المجتمع العربي.
- إسهام المبدع العربي في تنمية الوطن العربي.
- دور الترجمة في التعريف بالإبداعات العربية.

٣ ـ جلسة العمل الثالثة وتضمنت:

- التشريعات الثقافية وحق المبدع العربي.
- الصناديق القومية والقطرية للتشجيع على الإبداع الأدبي والفني.
- تكريم المبدعين العرب في ضوء التجارب القومية والقطرية في الوطن العربي.

٤ ـ جلسة العمل الرابعة وتضمنت:

- علاقة المبدع العربي بالجماهير العربية.
- الإبداع ووسائل الاتصال الحديثة.
- الإفادة من القمر الصناعي العربي لنشر الأعمال الإبداعية
- دور المبدع العربي في تطوير الثقافة.

٥ ـ جلسة العمل الخامسة وتضمنت:

- مجالات الإبداع
- الثقافة وإبداع الإنسان العربي.

وقد جرى التعقيب على معظم الأبحاث من قبل دارسين متخصصين،كما دارت نقاشات نوعية حول الأفكار والتوصيات التي انطوت عليها الأبحاث،وكانت الندوة بمجملها غنية في أفكارها جادة في توجهها منسجمة في التزامها الثقافي القومي،وتعرضت لموضوعها المركزي وهو «الثقافة العربية بوصفها إبداعاً» بموضوعية

وعمق. وعملت على جلاء الجوانب المختلفة لمصطلح الإبداع وتتبعه لغويا وفلسفيا ونفسيا وفنيا. كما بينت الأبعاد الثقافية والاجتماعية والتاريخية والحضارية لقضية الإبداع،وتناولت بالبحث مجالاته وأجناسه المتنوعة، وأكدت الارتباط الوثيق بين مستقبل الثقافة العربية وبين المقدرة العربية على تنمية الإبداع.

وقد كشفت المحاضرات والمناقشات والمداولات عن وجود قلق شديد لدى المثقفين العرب بشأن قضية الإبداع، ذلك أن الحصيلة الإبداعية التي تقدمها الأمة العربية في العصر الحاضر لمنطقتها وللعالم لا تتناسب مع عراقة إبداعها الماضي ولا مع تطلعات أبنائها وتوقعاتهم وإمكاناتهم الكامنة.ومن هنا كان ضروريا إيلاء هذه الناحية اهتماما جديا وجوهريا على المستويين القومي والقطري وإعادة النظر في عمل المؤسسات والانساق التربوية والإعلامية،بحيث تصبح قضية تفجير المواهب الإبداعية لدى أبناء الامة العربية هاجسا لها وهدفا في رأس قائمة أهدافها،ذلك أنه لاحياة لامة ولا لثقافتها دون ابتكار وتجديد وأصالة وإبداع. ومن هنا كان لزاما أيضا توفير المناخات الاجتماعية والسياسية الموائمة لعملية الإبداع وإزالة جميع العراقيل والحواجز التي تكلف المبدع العربي ثمنا باهظا، نفسيا ومعنويا ووقتيا وماديا لقاء مايقدمه من إبداع لا يأتي في أغلب الاحوال - في مستوى التوقعات المنتظرة من أمثاله في بلدان تتوافر فيها مناخات الإبداع وفرصه.

ومن أبرز العراقيل التي أشار اليها المشاركون مسألة الرقابة والأطواق المضروبة على حرية الفكر والقول والتعبير، ذلك أن الإبداع لايعيش الا في جو من الحرية والديمقراطية والمشاركة الجماهيرية الواسعة.وهذه الأمور هي قيم جوهرية بحد ذاتها، مثلما هي وسائل لتوفير المناخ المعافى للإبداع،ووضعها في رأس سلم الاولويات من حياة المجتمع العربي المعاصر يقدم مؤشراً صحيحا لسير هذا المجتمع في طريق الحياة والتطور والتقدم،وكذلك في تنقية المناخ أمام المواهب الإبداعية الكامنة، سواء في مجال الإبداع الادبي والجمالي والفني أم في مجال الابتكار البحثي في شتى مجالات المعرفة الإنسانية.

وانطلاقا من كل ماتقدم كان التوجه الى المبدعين العرب واهل العلم والثقافة لتذكيرهم بحقيقة أن الحرية تؤخذ ولا تعطى، وأن افقها يتجدد بالوعي،وحضورها يكبر بالممارسة، وأنها في وطننا العربي الممزق تحت وطأة التجزئة والاحتلال والمحكوم بأشكال ودرجات مختلفة من التبعية حسب وضع كل قطر من أقطاره، ترتب مسؤولية تاريخية خاصة على المثقفين واهل الإبداع ليس فقط لأنهم الضحية الأولى لمعضلة الحرية،بل كذلك لأن الحرية هي شرطهم وحقهم وامانتهم الكبرى. وهكذا يكون من أهم مسؤولياتهم العمل على خلق مناخ ثقافي تسود فيه الحرية ويعبر عنها وينميها تفاهم المثقفين وتعاونهم واتفاقهم على ماهو الحد الأدنى مما يوحد جبهتهم في الوطن ومن أجل الأمة، ويحمي حرياتهم التي عليها ان تقوم بدور الريادة للحريات العامة للمواطنين والذود عنها ويؤدي الى اقامة اسس جبهة الثقافة واستقلالها النسبي

والحد من تبعيتها لما هو إعلامي وسياسي في الوطن العربي،وهم مدعوون من اجل ذلك للدفاع عن دعائم الثقافة المعافاة ورفع منزلتها في المجتمع العربي. وللتمسك بأولويات تجمعهم وتقوى صفوفهم وتجعلهم قادرين على الوقوف في وجه أي واقع سياسي واقتصادي يهدد دور الثقافة ومناخ الإبداع.

وجرى في الندوة تأكيد شديد على أن الثقافة هي الأرضية المشتركة التي تجمع أبناء الأمة الواحدة على قلب واحد وهدف متجانس، وهي القاعدة الصلبة التي منها تنطلق لترسيخ هويتها القومية وتلوين شخصيتها وأداء رسالتها الإنسانية.ويترتب على ذلك ألا تكون مهمة بناء الثقافة وممارسة الإبداع محصورة بفئة محدودة او بصفوة مختارة، وإنما ينبغي فتح باب المشاركة الثقافية على مصراعيه أمام اوسع قطاع من الجماهير وأمام مختلف الفئات الاجتماعية والتيارات الثقافية والسياسية. من أجل صنع القرار الثقافي ورسم خطوط الاستراتيجية المستقبلية وتثبيت المعايير الذوقية والقيمية، والإسهام غير المشروط في ينبوع الإبداع الزاخر.

ولضمانة تحقيق هذه الأهداف يترتب على الأقطار العربية ان تهتم بوسائل الاتصال الجماهيرية الحديثة، بالإضافة الى اهتمامها بتوسيع نطاق الوسائل التثقيفية التقليدية من كتاب ومجلة وندوة ومحاضرة مع الوعي المستمر لعملية التوفيق بين المستوى النوعي والكيفي للثقافة والإبداع وبين ضرورات الانتشار الكمي، بحيث يجري تطوير وسائل الاتصال الجماهيرية لخدمة الاهداف الثقافية الكبرى وإذاعة قيم التقدم والإبداع والابتكار والأصالة، وإتاحة الفرصة الطوعية لاوسع قطاع من المواطنين للإسهام في بناء الثقافة القومية المعاصرة.

وتحصين أنفسهم في وجه النزعات الرخيصة الوافدة وأنماط الحياة الاستهلاكية، وتمكينهم من مواجهة موجات الغزو الثقافي المدبر، وكسر طوق التبعية الثقافية المضروب في هذا العصر حول البلدان النامية.

وجرى في الندوة تأكيد على وجوب تخصيص موارد أفضل ووسائل حكومية وغير حكومية أكثر جدوى من أجل تحقيق التنمية الثقافية على جميع المستويات الإبداعية والبحثية، مع ضرورة استدراك تلك الجوانب في الحياة الثقافية العربية التي مازالت تعاني اكثر من غيرها من مثل الموسيقى والفنون التشكيلية والفنون الشعبية والادب الشعبي والمسرح وما اليها.

وقد التقت معظم الكلمات عند إعلاء قيم الثقافة والإبداع وربطها بقيم الحرية والديمقراطية واحترام القيم الروحية والأخلاقية والتراثية وامتداداتها في الحضارة العربية الاسلامية على مدى التاريخ والتوجه بالثقافة العربية وجهة شاملة قائمة على فهم الحاجات الروحية والنفسية لمجتمع عربي متجدد متطلع الى حياة حرة كريمة حافلة بالعطاء والإبداع والابتكار، قادرة على الإسهام في صرح الحضارة الإنسانية المعاصرة.

وقد انتهت الندوة الى إقرار التوصيات التالية:

أولا - لما كانت حرية التعبير هي الشرط الأول

لعمل المبدع ولسلامة مناخ الإبداع، والأساس الذي يقوم عليه فعلهما وتأثيرهما الاجتماعي باتجاه التغيير والتحرير والتنوير، ولما كانت هذه الحرية لاتنفصل عن الحريات العامة للمواطن وتتصل بحرية الوطن، ولما كانت الديمقراطية هي النظام الأصلح لممارسة الحريات والدفاع عنها وتطوير مفاهيمها، وهي لا تقوم ولا تسود إلا باحترام الحقوق والحريات العامة وروح المساواة التامة، وممارسة ذلك في جو من الأمن والأمان، ونظرا لما تتعرض له الديمقراطية وحقوق المواطنين عامة والمبدعين خاصة وحرياتهم من تجاوزات وتشويه وتضييق، توصي الندوة المنظمة العربية بالعمل مع الحكومات العربية والاتحادات القومية والقطرية المعنية بالإبداع وبشؤون المبدعين ومع المنظمات القومية المعنية بالتشريع ووضع الأنظمة المتعلقة بممارسة الحقوق والحريات العامة والدفاع عنها، ولاسيما الاتحاد البرلماني العربي واتحاد الحقوقيين العرب واتحاد المحامين العرب، توصي تحقيق مايلي، توطيدا لاتجاهها في إنجاز التشريعات القومية الموحدة:

أ ـ وضع وثيقة مبادىء الحريات العامة للمواطن العربي، وتأكيد احترامها التام، وإبراز أهمية حرية التعبير وحرية المبدعين بوجه خاص. وإقرار هذه المبادىء مع الدساتير وربطها بها ومنحها قوتها، وتنظيم الحريات وسائر الحقوق العامة للمواطنين ولاسيما المبدعين منهم، في قوانين عربية موحدة إن أمكن، تصدر عن البرلمانات العربية او المؤسسات التشريعية الأخرى ولا يتم تعديلها الا بالطرق التي يتم فيها تعديل الدساتير.

ب ـ عقد اجتماعات مشتركة بين الجهات المعنية بممارسة الإبداع والجهات المسؤولة عن تطبيق القوانين والأنظمة المتصلة بممارسته (من رقابات وسواها) في الوطن العربي للوقوف على المعاناة والتجاوزات ووضع الاقتراحات لمعالجتها.

٢ ـ دعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الى عقد ندوة موسعة حول الحريات العامة ولاسيما حرية التعبير في الوطن العربي للبحث في واقعها وآفاقها المستقبلية ودعوة المنظمات والاتحادات القومية والقطرية وممثلين عن المنظمات الدولية المعنية في هذا المجال للمشاركة في أعمالها.

٣ ـ دعوة الاتحادات القومية المعنية بشؤون الإبداع والمبدعين والمهن الإبداعية في الوطن العربي الى تأسيس هيئة قومية أو مجلس قومي للمهن الإبداعية تكون من مهماته الرئيسة الإسهام في وضع الخطط البعيدة المدى والبرامج التنفيذية المرحلية المتصلة بمجالات الثقافة بوصفها إبداعاً والتنسيق فيما بينها قطريا، في اطار حقيقة كون الثقافة العربية واحدة موحدة. والتصدي للمعوقات التي تعترض مسيرة عمل الإبداع والمبدعين في الوطن العربي والتي تؤثر سلبياً على دورهما وعلى هوية الإبداع العربي ونموه ودوره الاجتماعي.

٤ ـ دعوة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم الى إقامة ندوات في حدود ضيقة مع الاتحادات والنقابات المهنية القطرية المعنية بشؤون المبدعين حول موضوعات التشريعات الثقافية العربية ولاسيما الاتفاقية العربية لتيسير انتقال الإنتاج الثقافي، واتفاقية حماية حقوق المؤلف واتفاقية حماية المبدعين والعمل على أن تصبح قوانين

موحدة نافذة المفعول في الاقطار العربية.

ثانيا ـ مطالبة الحكومات العربية:

أ ـ بتشكيل هيئات عليا في كل قطر يشارك فيها المبدعون والمثقفون من مختلف الاتجاهات والتيارات الثقافية من مهماتها وضع برامج ثقافية على أساس الخطة الشاملة للثقافة العربية من شأنها تشجيع الإبداع، وتنشيط الثقافة وتمكين مؤسسات الاتصال الحديثة من أداء دورها، وخاصة في مجال تعزيز الثقافة القومية وتعميقها وتحقيق انتشارها جماهيريا. ومواجهة القيم الثقافية الاستهلاكية وتجنب التبعية الثقافية.

ب ـ توجيه وزارات التربية العربية لإتاحة الفرصة للمبدعين للإسهام في طرق وأساليب تناول مناهج التعليم للعملية الإبداعية، نظرا لما لهذا الامر من أهمية في تكوين الطفل وتشجيعه على الإبداع واكتساب الثقافة، وتهيئته للإسهام فيهما مستقبلا.

ثالثا:

أ ـ دعوة المؤسسات التعليمية والإعلامية والثقافية الى التركيز على قيم الإبداع والابتكار والتجديد في برامجها وخططها وتوجيهاتها والعمل على التخلص من شوائب التكرارية والتلقينية واللامنهجية واللفظية والخطابية والميلو درامية، تلك الشوائب التي تشوه جانباً غير قليل من الإنتاج الثقافي العربي المعاصر، ويترتب على ذلك تنظيم ندوات حول قضايا الإبداع من مختلف جوانب الحياة الثقافية على المستويين العربي والعالمي.

ب ـ دعوة الجهات المختصة في الحكومات العربية ومؤسسات التعليم العالي والمنظمات القومية الى ضرورة تعزيز الاهتمام ببرامج التنمية الثقافية وتطوير البحث في العلوم الإنسانية والاجتماعية وتخصيص المبالغ والخطط ومراكز البحث اللازمة لذلك لكي تتكون في مكتبة الثقافة العربية صورة دقيقة للمرحلة الحاضرة يمكن الانطلاق منها للتعرف على مختلف جوانب المجتمع العربي والإنسان العربي والانطلاق منها الى التخطيط لمعالجة المعوقات التي تعترض تطور الحياة الثقافية العربية باتجاه الإبداع والإسهام في حضارة العالم المعاصر، ورسم خطوط التنمية الثقافية لتلبي الحاجات المستقبلية الملحة ويقتضي ذلك الاحتراز من الاعتماد على المصادر الأجنبية في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ولا يمنع التعاون مع المنظمات الدولية والإقليمية المعنية في مشروعات من شأنها أن تساعد على تحقيق المسوح الثقافية والاجتماعية للواقع العربي الراهن.

ج ـ دعوة المنظمة العربية والمنظمات المعنية القومية والقطرية:

تعزيز الخطط الموضوعة للتعريف بجوانب النشاط الثقافي والإبداعي العربي المعاصر كإصدار الموسوعات المتعلقة بالآثار والمتاحف والفنون الشعبية والتراث الحي والشعبي، والمعاجم المختصة المتعلقة بمصطلحات الإبداع وجوانبه القديمة والحديثة، وكتب التراجم على المستوى القومي للتعريف بالمبدعين ونواحي الإبداع في الأدب والفنون والبحوث الإنسانية والاجتماعية ووضع خطط جادة لتشجيع وتنظيم ترجمة نتاجات المبدعين العرب الى اللغات الأجنبية الحية وتقديمها من خلال منظور قومي شامل وبإخراج عصري راق، وتوفير كل الوسائل

التي تمكن الإبداع العربي من شق طريقه الى العالمية.

د- دعوة المنظمة العربية والجهات الرسمية والاتحادات المهنية المختصة الى التركيز على تنمية تلك الجوانب من الحياة الثقافية العربية التي لم تلق اهتماما كافيا حتى الآن مثل الموسيقى العربية والآثار، والفلوكلور، ووضع مشروعات قومية لافتتاح معاهد متخصصة ومراكز بحث لإعداد المتخصصين في هذه المجالات، ودعم القائم منها.

رابعا:

السعي لتأسيس جوائز عربية دورية على نطاق قومي، تقديرية وتشجيعية، تمنح في مختلف مجالات الإبداع، ترفد بأشكال التكريم المادية والمعنوية كدراسة أعمال المبدعين، ونشر إنتاجهم وانتظام ذلك كله بمعايير سليمة ومنصفة.

خامسا:

- دعوة اتحادات المهن الفنية والأدبية والمنظمات العربية المتخصصة:

- الى تقديم المواد العلمية والمعرفية والتسهيلات الأخرى الاطلاعية، التي من شأنها أن تضمن للمبدعين العرب التعرف على أحدث التطورات العالمية في مجالات الإبداع المختلفة.

ب- الى التعاون مع الجهات الرسمية والمنظمات المختصة لتحسين مستوى استفادة المبدع من وسائل الاتصال الحديثة سواء من زاوية الاطلاع أم من زاوية البث والنشر.

ج- الى تشجيع التأليف الفكري والابداعي وتسهيل نشره وتداوله وتخصيص مكافآت مجزية لقاء الأعمال المبتكرة وتكريم أصحابها إعلامياً ومعنوياً.

سادساً:

- مطالبة الحكومات العربية:

أ- توجيه هيئات الاذاعة المسموعة والمرئية لتخصيص قنوات ثقافية تعني بالإبداع والثقافة الرفيعة.

ب- توجيه الجهات الإعلامية والثقافية في البلدان العربية، لإتاحة الفرصة للمبدعين للقيام بدور شامل ومسؤول في نشر الإبداع وتعميم الثقافة، والإسهام في مختلف النشاطات الثقافية التي تؤديها وسائل الاتصال.

سابعا:

- دعوة المنظمة العربية والمؤسسات المعنية القطرية والقومية الى العناية بإبداعات أبناء فلسطين المناضلين ضد الاحتلال والتمييز العنصري الصهيوني، وفضح أساليب الصهيونية في تدمير مواهب الشعب الفلسطيني وإبداعاته وتشويه ثقافته وتراثه الشعبي وكذلك العناية بنشر الإبداعات العربية التي استلهمت وقائع الانتفاضة الفلسطينية التي تدخل الآن عامها الثالث وتضيء وجدان المبدع العربي وتنير مستقبله.

ثامنا:

- الاهتمام بإبداع الناشئة

أ- توجيه المبدع العربي لزيادة إسهامه في الذوق الفني لدى الناشئة، عن طريق تطوير عنايته بالمصادر الشعبية العربية وبالتراث الثقافي للثقافة، وتطوير أساليب الممارسة الثقافية بين الناشئة وتطوير الخدمات الثقافية لهم.

ب- رعاية المواهب الواعدة وتنمية الملكات لدى الناشئة وخلق مناخ موات لإبداعاتها.

ج- العناية بتأصيل ثقافة الناشئة والاهتمام بمناخ الأسرة والمدرسة وإصدار التشريعات التي تحمي دورها الثقافي وإبداعها، وتأهيلها لمواجهة النزعات الاستهلاكية ومقاومة التبعية الثقافية والإعلامية.

تاسعا:

- توفير الدعم المالي والصناديق القومية:

١- تأسيس صندوق قومي لتنمية الإبداع العربي، يشرع في تشجيع الإنتاج الأدبي والفني ورعاية المبدعين وسيرورة إبداعهم ونشره وتسويقه وتوزيعه والتعاون مع الصناديق الإقليمية والقومية والقطرية في هذا السبيل.

٢- دعوة الصناديق العربية المعنية بقضايا التنمية العربية والمصارف العربية المعنية الى تخصيص اعتمادات ضمن برامج عامة تهدف الى تنمية الإبداع العربي ودعمه وتشجيعه، وحماية العاملين في مجالاته والتعاون مع المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم والاتحادات القومية المعنية بالثقافة بوصفها إبداعا على تحقيق مايلي:

أ- ترجمة ونشر سلسلة عن الإبداع العربي في مجالات الآداب والفنون الى اللغات الحية، مع تعريف بأهم الاتجاهات والتيارات.

ب- القيام بدراسات استطلاع للرأي حول توجهات القراء واحتياجات المكتبة العربية في ضوء مايطرحه العصر من تقدم في جميع المجالات.

ج- عقد ندوات وملتقيات لتبادل الخبرة بين المبدعين العرب ونظرائهم في العالم.

د- إقامة معارض على المستوى القومي للفنانين العرب في بلدان العالم وتسهيل إقامة مثل هذه المعارض الدولية في الوطن العربي.

هـ- إنشاء مخبر واسع لتطوير الآلات الموسيقية العربية والعناية بخصوصياتها وأصالتها.

و- إنشاء مؤسسة للإنتاج الفني يعود ريعها على صندوق رعاية المبدعين في الوطن العربي.

ز- إنشاء اكثر من دار (او مركز) للإبداع تقدم تسهيلات للمبدعين لإنجاز أعمال إبداعية، وتمكن المضطرين منهم من الاستراحة والمعالجة.

ح- وضع برامج تهدف الى الاطلاع المعرفي في إطار السياحة لتعريف المبدعين العرب على أوابد الحضارة العربية- الإسلامية بالتنسيق مع الاتحادات القومية والقطرية.

المشاركون في الندوة

الباحثون:

الاستاذ علي عقلة عرسان
الاستاذ الدكتور حسام الخطيب
الاستاذ الدكتور بوراوي عجينه
الاستاذ الدكتور طيب تيزيني
الاستاذ الدكتور عفيف بهنسي
الاستاذ الدكتور حنفي بن عيسى
الاستاذ حافظ الجمالي
الاستاذ الدكتور عبد الكريم اليافي
الاستاذ رياض عصمت (القى بحثه بالنيابة)
الاستاذ الدكتور عبده عبود (قدم بحثه ولم يلق)
الاستاذ فؤاد بلاط

الاستاذ الدكتور محمود موعد

الاستاذ عبد الله ابو هيف

الاستاذ سمر روحي الفيصل

الاستاذ الدكتور جورج جبور

المعقبون :

الاستاذ الدكتور خضر زكريا

الاستاذ الدكتور فايز الصايغ

المداخلات الموسعة في مجالات الابداع :

الاستاذ الدكتور عبد الرحمن منيف

الاستاذ انطون مقدسي

الاستاذ خالد البرادعي

الاستاذ الدكتور سعد الله آغا القلعة

الاستاذ صميم الشريف.

● حسن حميد

سعر العدد

● لبنان ٢٥٠ ل.ل. ● سوريا ٢٠ ل س. ● الأردن دينار واحد ● العراق دينار واحد ● الكويت دينار واحد ● الامارات العربية ١٥ درهما ● البحرين دينار واحد ● قطر ١٥ ريالا ● السعودية ١٥ ريالا ● اليمن ١٤ ريالاً ● اليمن الديمقراطية ٦٠٠ فلس ● مصر جنيه واحد ● السودان ٢.٥٠ جنيه ● الصومال ٢٠ شلناً ● ليبيا دينار واحد ● الجزائر ١٢ ديناراً ● تونس دينار واحد ● المغرب ١٢ درهماً ● موريتانيا ١٥٠ اوقية ● قبرص ١.٥٠ جنيه ● اليونان ٣٠٠ دراخما ● فرنسا ٢٥ فرنكا ● المانيا ١٠ ماركات ● ايطاليا ٥٠٠٠ لير ● بريطانيا ٢.٥ جنيه ● سويسرا ١٠ فرنكات ● هولندا ١٠ فلورن ● اميركا وسائر الدول الاخرى ٦ دولارات.



مكتب دمشق

الجمهورية العربية السورية ـ دمشق ـ الازبكية ـ ص . ب ٨١٥٧

الثمن ٢٠ ل.س أو مايعادلها